

بول هـ ازار
عضو المجتمع اللغوي الفرنسي

انفصام الضمير الاول في

١٦٨٠ - ١٧١٥

ترجمة

مهدى عثمان
محمد نجيب المستطوي

القاهرة
مطبعة الكاتيب المصري
شركة مساهمة مصرية
١٩٤٨

الطبعة الأولى . . . أبريل ١٩٤٨

العنوان الأصلي للكتاب
بالفرنسية

PAUL HAZARD

LA CRISE

DE LA CONSCIENCE EUROPÉENNE

1680-1715

جميع الحقوق محفوظة للمترجمين ١٩٤٨

إلى

قراء العربية تقدم هذه المحاولة
لتفسير تطور الفكر الأوربي الذي
عاش على الانتمائية بخير عميم
الترجمان

فهرس الكتاب

الصفحة

ك	تقديم طه بك حسين
١	مقدمة المؤلف

القسم الأول

تبدلات ميكولوجية كبرى

٩	الفصل الأول — من الثبات إلى الحركة
٣٤	الفصل الثاني — من القديم إلى الحديث
٥٦	الفصل الثالث — من الجنوب إلى الشمال
٨١	الفصل الرابع — الأتوردكسية
١٠١	الفصل الخامس — بيير بايل

القسم الثاني

ضد المعتقدات التقليدية

١٢١	الفصل الأول — العقليون
١٥٧	الفصل الثاني — انكار المعجزة ، المذهب ، هتاف الالهية ، السحرة
١٨٢	الفصل الثالث — ريشار سيمون وتفسير العهد القديم
٢٠٠	الفصل الرابع — بوسويده وساركه
٢١٩	الفصل الخامس — لينتنز وإفلاس وحدة الكنيسة

القسم الثالث

محاولة الانشاء من جديد

٢٤١	الفصل الأول — لوك ومذهب التجربة
٢٥٤	الفصل الثاني — الاعتراف بالله وانكار الوحي — والدين الطبيعي

صفحة	
٢٦٩	الفصل الثالث — القانون الطبيعي
٢٨٩	الفصل الرابع — الأخلاق الاجتماعية
٢٩٧	الفصل الخامس — السعادة على الأرض
٣٠٩	الفصل السادس — العلم والتقدم
٣٢٤	الفصل السابع — نمو مثال جديد للإنسانية

القسم الرابع

القيم التخيلية والحساسة

٣٣٩	الفصل الأول — زمن بلا شعر
٣٦١	الفصل الثاني — بهجة الحياة
٣٧٣	الفصل الثالث — الضحك والدموع وانتصار الأوبرا
٣٨٩	الفصل الرابع — العناصر القومية والشعبية والغرزبية
	الفصل الخامس — سيكولوجية القلق ، أستطيقا الشعور ، ميتافيزيقا الجوهر ، والعلم الجديد
٤٠٣	الفصل السادس — الحمية الدينية
٤١٨	خاتمة
٤٣٩	فهرس الأعلام
٤٥١	اصطلاحات
٤٦٥	

تقديم

هذا كتاب علم وتعليم ، أراد به مؤلفه إلى أن يعرض في وضوح وجلاء ، أزمة الضمير الأوربي في عصر من أخطر عصور الانتقال . وهو العصر الذي يختم طور النهضة الأوربية الحديثة ، ويبدأ في الاعداد لطور الثورة الفرنسية التي لم تغير حياة أوربا وحدها ، وإنما غيرت معها حياة اللسانية كلها . والناس جميعاً يعلمون أن النهضة الأوربية الحديثة . قد أخرجت أوربا من حياة القرون الوسطى ، إلى نوع جديد من الحياة ، لا يستأثر الدين المسيحي بالسيطرة عليه ، وإنما تشارك في تكوينه عناصر أخرى ، يكون لها في حياة الناس أبعد الأثر ، بل يكون لها في الدين المسيحي نفسه أبعد الأثر . فالرجوع إلى أصول الثقافة اليونانية واللاتينية ، واستكشاف أقطار من الأرض لم يكن العالم المتحضر يعرفها ؛ كل ذلك عرض العقل الأوربي لحركات عنيفة ، لم تلبث أن أحدثت آثارها ، فشعرت الضمائر بالحاجة إلى الحرية ، وطمعت العقول في تحقيق هذه الحرية وجاهدت في سبيلها جهاداً عنيفاً ؛ ولظرت الكاثوليكية فإذا هي وسط بين طرفين متباعدين أحدهما يطمح إلى الحرية ويصدق منها قدراً لا بأس به ، وهو الإصلاح الديني الذي ينكشف عن البروتستنتية . والآخر لا يطمح ، وإنما يجمع حتى يتجاوز بحريته حدود الدين كلها . وإذا شيء من الوثنية القديمة يعود إلى الحياة في كثير من القلوب والضمائر ، ويصبع كثيراً من البيئات بشيء من الشك والاباحة والاستخفاف ، وقد تغيرت حياة الناس المادية بفضل استكشاف ما استكشف من أقطار الأرض ، فأتيح لهم من الثراء وأسباب الدعة ما كان ممنوعاً عنهم ، أو مقترأ عليهم فيه . ولا يكاد القرن السادس عشر يتقدم شيئاً حتى تكون الحياة الأوربية قد تغيرت تغيراً قابلاً ، فظهرت فيها نزعات في الأدب والفن ، وفي العلم والفلسفة ، وفي السيرة الفردية والاجتماعية ، لم

تقديم

تكن موجودة من قبل . فاذا أشرف هذا القرن على آخره ، كان هذا النظام الجديد قد استقر واطمأن ، وألفه الناس وأصبحت له أصوله الثابتة وقواعده المقررة . وأخذ ينتج في الأدب والفلسفة ، تلك الآثار الكلاسيكية الخالدة . ولكن العقل ماضٍ في طريقه إلى البحث والدرس والاستقصاء والابتكار . وإذا مضى العقل في هذه الطريق ، فلا سبيل إلى أن يقف ، ولا إلى أن يجد سلطانه على الحياة مهما تختلف فروعها ؛ وما هي إلا أن يأخذ المثقفون في عرض القيم المقررة للبحث والنقد ، كما عرضت للبحث والنقد في أوائل عصر النهضة الحديثة . وإذا أزمته تطراً على التفكير والشعور ، وعلى تقدير الأشياء والحكم عليها ، وعلى المقاييس التي تقاس بها القيم الفنية والأدبية والدينية . وإذا صراع يثار بين القديم والجديد . وليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية فحسب ، وإنما هو هذه الثقافة وما نشأ عنها من ثقافة أوروبية تقليدية . بل ليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية وما نشأ عنها من الثقافة الحديثة ، وإنما هو هذا وسعه الحياة اللسانية كلها بما فيها من نظم السياسة والادارة ، ومن أصول الأخلاق والاجتماع . كل شيء موضوع للشك . وكل شيء عرضة للنقد ، وكل شيء صالح للبحث والدرس ، وكل شيء قابل للتغيير والتبديل .

وهذه الأزمة هي التي اتخذها الأستاذ بول هازار ، موضوعاً لكتابه هذا الرائع الرفيع . فهو يقطع من الحياة الأوروبية ثلاث قرن من أواخر القرن السابع عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر ، ويتخذ حياة أوروبا العقلية في هذه القطعة الصغيرة من الزمن موضوعاً لبحثه ، لا يدرسها في فرنسا وحدها ، وإنما يدرسها في أوروبا بأكملها ، مستقصياً مستقرئاً ، موازنأً معارضاً ، مستنبطاً بعد هذا كله لما يصل إليه من الأحكام ، عارضاً عليك في أثناء هذا كله ، لنصوصه التي اعتمد عليها ومصادره التي رجع إليها .

ومن أجل هذا قلت إن هذا الكتاب ، كتاب علم وتعليم ، تقرأه فتظهر بفضل قراءته على الحياة الأدبية ، بل على الحياة العقلية كلها في أوروبا كلها ، وهو من هذه الناحية كتاب علم ، لأعرف له نظيراً فيما قصد إليه من البحث والدرس ، ومن النقد والتحليل . وهو من هذه الناحية أيضاً كتاب ينتفع به المثقفون جميعاً ، مهما تكن ثقافتهم ، ومهما يكن نشاطهم في هذا الفرع

تقديم

أو ذاك من فروع الحياة . ولكن للكتاب ناحية أخرى ، نعلمها أن تكون أعظم خطراً من هذه الناحية ، فهو كتاب تعليم وتوجيه ورسم لناهج البحث والاستقصاء . يقرأه المتخصصون في تاريخ الحياة العقلية ، فيتعلمون منه كيف يتأق الباحث لهذا اللون من ألوان التاريخ ، ويتعلمون منه أن الحياة العقلية لا تؤرخ بالقرون ، ولا بالأعوام ، ولا بما يكون من سقوط دولة وقيام أخرى ، ولا بما يكون من شهبوب الحروب حين تشب ، ومن عقد الصلح حين يعقد . وإنما هذه كلها وأشياء أخرى غيرها ، لها آثارها المختلفة في حياة العقل والشعور ، دون أن تكون هي المقياس الذي تقسم به ، وتقاس إليه حياة العقل والشعور .

فالذين يؤرخون لأدب أمة من الأمم في قرن من القرون ، يتجاوزون فيما يحددون لبحثهم من هذه العصور . فالقرن السابع عشر الفرنسي مثلاً ، لم يبتدىء بالضبط سنة ستائة وألف حين يقاس إلى الحياة العقلية ، وإنما ابتداء قبل هذه السنة بوقت يقصر أو يطول ، لا سبيل إلى تحديده الدقيق ، وإنما يدل عليه دلالة مقارنة بظهور الأصول الثابتة ، والقواعد المقررة للأدب والفن . وهذا القرن لا ينتهى سنة سبعمائة وألف بالضبط ، وإنما ينتهى قبل ذلك بوقت لا سبيل إلى تحديده تحديداً دقيقاً بل يدل عليه دلالة مقارنة بظهور الشك في الأصول الثابتة ، والقواعد المقررة للأدب والفن . وكل مثل هذا بالقياس إلى الآداب الأخرى مهما تكن ، فالحياة العقلية خصائصها وظواهرها التي ليست هي موقوفة على ما ألف الناس أن يتخذوه حدوداً للتاريخ من الخطوب والأحداث .

وللكتاب ناحية ثالثة ليست أقل خطراً من هاتين الناحيتين . فهو نموذج رائع للأدب المقارن ، ودراسة الأدب المقارن يدع جديد عرفته أوروبا في أواخر القرن الماضي ، وتقاسمت به خطوات واسعة قيمة ، وأخذنا نحن نعرفه منذ أعوام ، أو قل أخذنا نحن نسمع به ولا يكاد أكثرنا يحقق معناه فضلاً عن أن ندرسه ونتمتع به ولنتج فيه إنتاجاً قيماً على شدة حاجتنا إليه ، لتعقد الصلات بين أدبنا العربي وبين الآداب الأجنبية المختلفة قديماً وحديثاً .

فهذا الكتاب دروس رائعة في الأدب المقارن ، يعلم المتخصصين في التاريخ الأدبي كيف يتبعون الظاهرة الأدبية المعينة في الشعوب المختلفة ، بل في

البيئات المختلفة من الشعب الواحد ، وكيف يشخصون هذه الظاهرة تشخيصاً دقيقاً ، وكيف يقيسونها إلى أمثلها في الشعوب المتباعدة والبيئات المتباينة ، وكيف يستخلصون من هذا القياس أحكاماً أدبية لها دلالتها الخطيرة على ما يكون بين الشعوب من تباعد وتقارب ، ومن تشابه وتنافر في الطبيعة والمزاج ؛ فالذين يريدون أن يعلموا يجدون في هذا الكتاب علماً كثيراً غزيراً ممتازاً . والذين يريدون أن يتعلموا مناهج البحث في التاريخ الأدبي ، والذين يريدون أن يعرفوا طرائق الدرس للأدب المقارن ، يجدون في هذا الكتاب أروع تعليم وأروع توجيه .

ويعجبني أن يقرأ الناس وأن يفهموا ما يقرأون في هذه الظروف التي تحيط بنا ، والتي تصد الناس عن القراءة ، ولا سيما القراءة القيمة ، وتعجلهم عن الفهم ولا سيما الفهم النافذ العميق ، ويعجبني إذا قرأ الناس وفهموا واستمتعوا بالقراءة والفهم ، أن تكون قلوبهم كريمة ونفوسهم سخية ، وأن يدفعهم ذلك إلى أن يشركوا الناس معهم فيما وجدوا من لذة المعرفة ومتعة الفهم والذوق .

من أجل هذا لم أكد أصدق حين أنبئت بأن أديبين مصريين ، قد فرغوا في هذه الأيام لقراءة هذا الكتاب وفهمه وإساغته . فلما بلغنا من ذلك ما أرادوا كرها أن يستأثروا بالمتعة من دون قراءة العربية ، فتكلفا أعنف الجهد وأعظم المشقة لنقله إلى لغتنا العربية . لم أكد أصدق ذلك حين أنبئت به . فنحن نحيا في هذه الأيام حياة قوامها الكسل والأثرة والانصراف عن جد الأمر إلى سخره ، وعن عسير الأمر إلى يسيره . ولكني رأيت الكتاب بين يدي مترجماً حسن الترجمة ، فاستبشرت واطمأنت إلى حسن الظن بالمواطنين وصدق الرأي فيهم ، وإلى الثقة التي لم تفارقني قط بأن الخطوب قد تلم ، وبأن النوائب قد تنوب ، وبأن الأحداث قد ترهق الناس من أمرهم عسراً ، ولكن جذوة الثقافة العالية والمعرفة الرفيعة ستظل دائماً حية قوية ، تشيع في القلوب والنفوس والعقول حرارة ونوراً . وأنا رجل شره إلى العلم مسرف في الطموح ؛ لا أعرف للطمع حداً حين يتصل الأمر بالثقافة والمعرفة ، فلم أكد أحمد للأديبين الكريمين ما بذلوا من جهد ومال في ترجمة هذا الكتاب ونشره ، حتى أغريتهما بترجمة كتاب آخر للمؤلف نفسه موضوعه التفكير الأوروبي في

من

تقديم

القرن الثامن عشر ، وأعترف بأنني لم أحتج معهما إلى شديد إغراء . فقد
استجابا للدعوة كريمين ، وأقبلوا على العمل مشغولين به ، محتفلين له ،
مستعدين أحسن استعداد لاحتفال بما سيكونهما من مشقة وعناء .
فلهما شكري خالصاً . وعليهما ثنائي صادقاً ، وما أشك في أنهما سيظفران
من كل قارىء بمثل ذلك الشكر وهذا الثناء .

طه حسين

مقدمة

با للتناقض ! يا للانتقال الفجائي ! تدرج السلطات والطبقات ، طاعة القوانين ، النظام الذى تتكفل السلطات بتحقيقه ، المذاهب التى تنظم الحياة بحزم : ذلك ما كان يحبه رجال القرن السابع عشر . الاجبار ، السلطة ، المذاهب : ذلك ما كان يبغضه رجال القرن الثامن عشر ، الذين خلفوهم مباشرة . الأولون مسيحيون ، والأخرون خصوم المسيحية ؛ الأولون يؤمنون بالحق الالهي ، بينما الآخرون يؤمنون بالحق الطبيعي ؛ الأولون يستطيعون العيش فى مجتمع ينقسم إلى طبقات غير متساوية ، والآخرون لا يحلمون إلا بالمساواة . إن الأبناء يتندرون على الآباء ، ظانين أنهم سوف ينمضون باصلاح عالم ، لا يتوقف إصلاحه إلا على مجيئهم : ولكن الغليان الذى يثير الأجيال المتتابعة لا يكفى لتفسير تغير سريع قطعى مثل هذا التغير . كانت أغلبية الفرنسيين تفكر كما فكر بوسويه ؛ وبغثة ، فكر الفرنسيون كما فكر فولتير : إنها لشورة .

ولكى نعرف كيف وقعت هذه الثورة ، قمنا بالبحث فى أراض غير مطروقة . فقد درسنا القرن السابع عشر طويلا فيما سبق ، واليوم نعكف على دراسة القرن الثامن عشر . وفى حدودهما الفاصلة تمتد منطقة وعرة ، مبهمة ، نأمل أن نجد فيها بعض الكشف والمغامرة . لقد جئنا خلالها ، واخترنا لتعديدها تاريخين ضيق قطعيين : من جهة حول عام ١٦٨٠ ، ومن جهة أخرى ١٧١٥ .

ولقد قابلنا سبينوزا ، الذى بدأ نفوذه يشتم فيها ، ومالبرانش ، وفونتنل ، ولوك ، ولبنتز ، وبوسويه ، وفينلون ، وبايل ، إذا اقتصرنا على ذكر الأعلام ، وبدون تحدث عن ديكارت الذى لا يزال يسكنها . إن أبطال الفكر هؤلاء ، كانوا عاكفين — كل حسب طبعه وعبقريته — على البحث فى المسائل التى ما برحت تشغل أذهان الناس منذ الأزل ، كما لو كانت مسائل جديدة ؛ مثلا : وجود

الله وطبيعته ، والكائن والمظاهر ، الخير والشر ، الحرية والقدرية ، حقوق السلطان ، تكون الحالة الاجتماعية ، والمسائل الحيوية كافة . فهاذا ينبغي أن نعتقد ؟ وكيف ينبغي أن نسير ؟ وكان هناك سؤال ، سؤال طالما حسب الناس أنه أصبح أسراً مفروغاً منه ، يعود دائماً من جديد : ما هي الحقيقة ؟ . Quid est Veritas ?

في الظاهر كان العصر الكبير يمتد في كل عظمته وجلاله ، وما كان على المفكرين والمؤلفين إلا أن يقلدوا الروائع الأدبية التي ظهرت بوفرة من قريب . واستعرت بينهم المنافسة ، فهذا يؤلف المأساة على منوال راسين ، وذلك يؤلف الملهاة على منوال مولير ، وغيرهما يؤلف القصص على منوال لافونتين ؛ وانتقد النقاد الوجهة الأخلاقية في الملاحم الشعرية ، والتوسل بأسرار المسيحية ؛ ولم يكفوا أبداً عن امتداح قاعدة الوحدات الثلاث (١) : فخر الفن . لكن في البحث اللاهوتي السياسي *Tractatus theologico-politicus* وفي « علم الأخلاق » *Ethique* وفي « المقال عن الإدراك الانساني » *Essay concerning human understanding* وفي « تاريخ تبدل الكنائس البروتستانتية » *Histoire des variations des églises protestantes* وفي « القاموس التاريخي والنقدى » *Dictionnaire historique et critique* وفي « جواب على أسئلة قروى » *Réponse aux questions d'un Provincial* استمر جدال لم تعد هذه المشاغل الثقافية تبدو بازائه إلا كلعبة أطفال أو عجزة ضعاف . فالأمر يتعلق بمعرفة ما إذا كان الناس ما يروحوا مؤمنين ، أم فقدوا الإيمان ؛ ما إذا كانوا يذعنون للتقاليد أم يتمردون عليها ، ما إذا كانت اللسانية ستواصل السير في طريقها ، واثقة بقادتها أم تختار رؤساء جدداً ليقودوها نحو جنات جديدة . كان العقليون والدينيون كما يقول بايل ، يتنازعون الأرواح ويتواجهون في معركة شهدتها أوروبا المفكرة بأسرها . جعل المهاجمون ينتصرون شيئاً فشيئاً . لم يعد الاتحاد منفرداً مستخفياً ، بل أخذ يكتسب الأشياء حتى أصبح فخوراً متغطرساً . ولم يعد الإنكار متخفياً ، بل انكشف وانتشر . ولم يعد العقل حكمة متوازنة ، بل أصبح جرأة انتقادية . وأصبحت المعارف المألوفة ، مثل الارتضاء الشامل الذي يثبت وجود الله ،

والإيمان بالعجزات موضع شك وإنكار . لقد نفى الناس ما هو إلهي إلى طبقات
سماوية غير معروفة ، يستحيل إدراكها ؛ أصبح الإنسان ، الإنسان وحده ،
مقياس كل الأمور ؛ إذ كان بذاته علة بذاته ونهايته . ظل رعاة الشعوب مدة
طويلة يملكون السلطة بين أيديهم ، واعددين باستتباب الطيبة ، والعدل ، والمحبة
الأخوية على وجه الأرض ؛ لكنهم لم ينفذوا وعدهم هذا ، بل انهزموا في المعركة
الكبرى ، المعركة التي كانت الحقيقة والسعادة جائزتهما ؛ إذن كان ينبغي
أن ينسحبوا . كان ينبغي أن يطردوا الناس ، إذا لم يقبلوا الاستعاب مختارين .
فكر الناس أنه يجب تدمير البناء القديم ، الذي عجز عن حماية الأسرة
البشرية الكبرى ، وهكذا أصبحت المهمة الأولى عملاً تدميراً . وكانت المهمة
الثانية عملاً إنشائياً من جديد ، وتجهيزاً لأسس المجتمع المستقبل . واقتضت
الضرورة الملحة بناء فلسفة — لكيلا يقع الناس في الشك ، نذير الفناء — فلسفة
تترك الأوهام الميتافيزيقية الخادعة ، وتدرس الظواهر التي يمكن أن تتوصل
إليها أيادينا الضعيفة ، والتي ينبغي أن نقنع بها . اقتضى الأمر إقامة سياسة دون
حق إلهي ، ودين بلا أسرار ، وأخلاق بغير مذاهب . اقتضى قسر العلم على
ألا يكون تسليية ذهنية ، بل قوة قادرة على قهر الطبيعة . خيل إلى الناس أنه
لا شك في وصولهم — بفضل العلم — إلى السعادة ، وأن الإنسان قد ينظم هذا
العالم المهزوم في سبيل راحته ، ومجده ، ورفاهة مستقبله .

ولن يعيننا أن نرى في هذه الصورة ، روح القرن الثامن عشر . ولقد أردنا ،
على التحقيق ، أن نبين أن صفاته الأساسية هذه ، إنما ظهرت في وقت أقدم جداً
بما يتصوره الناس عادة ؛ وأن تكوينها قد اكتمل في عهد كان لويس
الرابع عشر لا يزال يتمتع فيه بكل عظمتها الساطعة ، وأن كل الأفكار التي
كانت تبدو ثورية نحو عام ١٧٦٠ أو حتى عام ١٧٨٩ ، إنما كانت في الواقع
قد أفصح عنها من قديم ، نحو عام ١٦٨٠ . وقتئذ وقعت أزمة في الضمير
الأوروبي ؛ وفيما بين « النهضة » — التي أنشأتها — والثورة الفرنسية التي أعقبتها ،
لا توجد أزمة أهم منها في تاريخ الأفكار . لقد حاول « الفلاسفة » الجدد أن
يبدلوا مبدئية تستند على فكرة الواجب : الواجبات نحو الله ، والواجبات حيال
الملك ، — بمبدئية تقوم على فكرة الحق ؛ حقوق الضمير الفردي ، حقوق النقد ،
حقوق العقل ، حقوق الإنسان والمواطن .

خمسة وثلاثين عاماً من الحياة الفكرية لأوروبا ، كان من المحال أن نحدد لها في الزمن دون حسابان للسنين التي تلت هذه الحقبة على الأخص ، بل التي سبقها كذلك — ودون حسابان لتلك المحاكم التي استدعت الإنسان نفسه ، لتستجوبه عما إذا كان قد ولد بريئاً أو مذنباً ، وعما إذا كان يؤمن بالحاضر أو بالأبدية ، — ودون حسابان لتلك الأفكار الحية الخالدة ذات القوة الهجومية أو الدفاعية ، التي بلغ من شدتها أن تأثير ذلك الماضي علينا لم ينقطع حتى الآن ، وأنها لا تزال نواصل ، في المسائل الدينية ، والفلسفية ، والسياسية والاجتماعية ، تلك المعارك الكبيرة الحامية التي لم يخمد لها بعد أوار — ودون حسابان للمؤلفات الضخمة التي كتبها في سخاء غريب ، أناس لم يهتموا بكمال الشكل اهتمامهم بوفرة البراهين وفاعليتها — دون حسابان للمؤلفات الغامضة ، اللاهوتية والفلسفية — ثم تعدد الصلات بين البلد والبلد ؛ سريان الأفكار ، والعدوى والتأثير ، وغرائب الأحداث التي يصعب تفسيرها في بيئتها المحلية ، ويقتضي الأمر زجها في المحيط الأوربي لكي يسهل تفهمها ، والتوجيهات التي ينبغى ، ويشق التماسها في هذه البلاد الجبلية الوعرة ، والفواصل الجبلية والطرق والدروب ؛ والشخصيات التي ينبغى أن ترسم ، والسم التي ينبغى أن نفهمها على حقيقتها ، في غضبها أو في ابتهاجها ؛ ما من شك في أن هذا مشروع عسير التحقيق . ونحن لا نستطيع لأنفسنا عذراً في محاولتنا التعرض لهذا المشروع . لأننا لا نجهل ما سيتبقى وراءنا من عمل ، ولا لجهل أن معرفة الشجرة تقتضي دراسة فروعها وجذورها أتم دراسة — ولكننا نعتقد أنه من المفيد أحياناً ، أن يشق المرء درباً مؤقتاً في الغابات الكثيفة (١) .

هناك أزمان شاعرية ؛ يلذ للمرء في تناولها بالدراسة ، أن يلتصت إلى لغتها المسمج ، وأن يستروح عبرها الفواح ، وأن يستسلم لموسيقاها الحانية ، تحمله

(١) لقد لشرنا مقتطفات مختلفة من هذا الكتاب في أعداد ١ أغسطس ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ من مجلة *Revue des deux mondes* وفي عددي أكتوبر وديسمبر ١٩٣٢ من مجلة *Revue de littérature comparée* وفي عددي ٢ أكتوبر ، ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ من مجلة *L'Europe centrale* وسيجدها القارئ هنا معدلة بعض التعديل .

مقدمة

إلى آفاق يعجز عن تصويرها اللسان : حيث لا نعود الدنيا إلا أنشودة عذبة .
والزمن الذى ندرسه ليس من هذه الأزمان ؛ فقد جهل الجرس والايقاع ،
وفسر معنى الشعر تفسيراً عكسياً ، ولم يشعر بقوة ما فيه من سحر . ولكن القيم
التخيلية والحساسة لم تتوار على حين غرة ، ولم يكف الناس عن الاستسلام
للهمهم وأهوائهم لحاة دون تمهيد ؛ فقد سجلنا ، على النقيض ، استمرار حياة
الأشكال والألوان ، ومعارضة القلب ، بجانب عمل العقل الصافى . فقيام
الخشوعية piétisme هنا ، والركونية quiétisme هناك ، قد كشف لنا عن
الأماني والرغبات التى تجيش فى الأرواح القلقة ، التى لم يقنعها العقل ، بل كانت
تبحث عن إله للمحبة . بيد أن هذه الروحانية نفسها قد ساهمت فى أزمة الضمير
التي يتميز بها هذا العصر . فانها فضت التحالف بين الدين والسلطة ، وبأفلاتها
من رقابة الكنائس الأرثوذكسية ، ونظرتها إلى الإيمان كنقطة فردية ،
اختيارية وطبيعية ؛ وبتقويضها دعائم النظام القائم ، قد قاست من جهتها بدور
عنصر مجدد ؛ وبالمثل فقد أدخل على المجتمع إذذاك بذرة من الفوضى ، بمواجهة
أخطاء المدنية وجرائمها ، بفضيلة الرجل الهمجي البدائية .

بيد أن هذه السنين الشاقة ، الدسمة ، الخافلة بالجدال وبالقتال ، الزاخرة
بالأفكار ، لها بالرغم من ذلك جمالها الخاص . وإذا نحن تتبعنا هذه الحركات
الواسعة النطاق ، وشهدنا هذه الكتل من الأفكار تتفرق ثم تتجمع من جديد
طبقاً لقوانين أخرى وأصول مستحدثة ، وإذا رأينا إخواننا من بنى الانسان
يتلمسون فى شجاعة سيلهم نحو المصير المجهول ، دون أن تثبط لهم هممة أو
يستسلموا لعائى أو غمة ، شعرنا بما شعروا به من انفعال . وإن فى عنادهم
واستبسالهم لشيئاً من الجلال ؛ وإذا كان النشئ الذى يميز أوروبا — كما سنبين
فيما بعد — هو عدم قناعتها أبداً ، وتجديد بحثها عن الحقيقة والسعادة ، فإن فى هذا
المجهود لمحة من الجمال لا تخلو من مسحة من الألم . وليس هذا بكل شئ .
فبدراسة نشأة الأفكار ، أو على الأقل ما انتابها من تبدل ، وبمتابعتها على
طول طريقها ، فى بدايتها الضعيفة ، وفى طريقة تدعيمها وتجربتها ؛ فى تقديسها وفى
انتصاراتها المتتابة حتى ظفرها النهائى — نصل إلى هذا الاقتناع العميق الوثيق ،
وهو أن ما ينظم الحياة ويوجهها ليس هو القوى المادية بل هو القوى الفكرية
والأخلاقية .

القسم الأول تبدلات سيكولوجية كبرى

الفصل الأول

من الثبات إلى الحركة

الاستقرار ، أى اجتناب كل تغيير من شأنه أن يخل بالتوازن الفذ القائم : تلك أمنية العصر الكلاسيكي . لحب الاستطلاع الذى يعتمل فى النفوس القلقة خطر . أجل ، خطر وجنوني معاً ؛ لأن الرجل الذى يرتحل إلى أقاصى الدنيا لا يجد حيثما ارتحل إلا ما يحمله هو معه : أى حالته البشرية . ولو أنه وجد شيئاً آخر فإن ذلك لن يخفف من قلقه . فليركز تفكيره فى المسائل الأبدية التى لا يمكن تحليلها أو تعليلها والفكر مشئت حائر . قال سينكا : « أول دليل على اتزان العقل قدرته على التوقف والطوائه على نفسه » ، وكشف باسكال أن يؤس الناس مرده إلى سبب واحد ، هو أنهم لا يستطيعون الاستقرار فى غرفة .

فالفكر الكلاسيكي ، فى عظمتة ، يجب الثبات : بل هو يريد أن يكون الثبات بعينه . فبعد الحدثين التاريخيين العظيمين : حركة النهضة وحركة الإصلاح الدينى *la Réforme* ، جاء زمن كان زمن التروى والتفكير ، فأقصيت كل من الأمور السياسية والدينية والاجتماعية والفنية عن دائرة المناقشات التى لا تنتهى ، والنقد الذى لا يكتفى ؛ لقد وجدت سفينة البشر الضالة ميناء تستقر فيه : فلترس فيه أطول أمد ، أو تركن إليه إلى الأبد ! إن النظام يسود الحياة : فما دام الناس قد اهتمدوا إلى نهج اعترف الجميع بكماله ، فما جدوى بحث جديد ، يجعل كل شئ محل مناقشة من جديد ؟ هكذا بدأ الناس يحشون الانتداد بما فيه من مفاجآت ، ولو استطاعوا لعملوا على إيقاف الزمن ! حتى الماء فى فرساي يبدو للزائر كأنه لا يجرى ؛ فهم يحزنونه ثم يطلقونه ، ويدفعون به نحو السماء ، كأنما يريدون استبقائه إلى الأبد .

في القسم الثاني من كتاب دون كيشوت (١) ، الفصل الثامن ، يقدم لنا سرفانتس Cervantes « النبيل ذا المعطف الأخضر » ، الذي يقابله في الطريق « الفارس ذو الوجه الحزين » . le Chevalier de la Triste Figure . ونرى هذا النبيل يسرع إلى منزله حيث يجد السعادة والحكمة معاً . فهو في بسطة من العيش دون توف ، يقضي حياته مع زوجته وأولاده وأصدقائه ، مسلاته الأثيرة عنده الصيد والقنص ، لكنه يفضل بحجة مستأسدة أو سمانه أليفة على العربات المظلمة ، وكلاب الصيد والصقور . ولديه بضعة عشرات من الكتب وهو بذلك راض قريز . وهو تارة مدعو عند جيرانه لتناول الطعام ، وتارة يدعوهم عنده ؛ مائدتته معتدلة لا تهذير فيها ولا تقشير . يجب الحرية المنزلة ويميل إلى العدل والوفاق . يهود على الفقير مراعيأً ألا يستسلم للزهو أو الاعلان . يسعى إلى الصلح بين المتنازعين ، ويقدر العذراء ، ويشق كل الثقة برحمة الله الواسعة . هكذا يصف ذلك النبيل نفسه . ونرى على إثر ذلك سانشو - خادم دون كيشوت - يترجل من فوق حماره ، ويمسك بقدم النبيل ، يود أن يتناولها بالتقبيل ، فيقول له : « ماذا تفعل أيها الأخ ؟ » فيرد سانشو Sancho : « اسبح لي أن أقبل قدميك ، لأنك أول قديس أراه على صهوة جواد ! »

وما كان دون دييجودى ميراندا Don Diego de Miranda - الرجل ذو المعطف الأخضر - قديساً ، بل هو يمثل في سنة ١٦١٥ المثل الأعلى للحكمة الكلاسيكية . فهو لا يزدري « الفارس المغامر » بل إنه يحصل في نفسه قسما من روح البطولة والفروسية ، ولكنه لا يرضى أن يتبعه في هذا الطريق . إنه يعلم تمام العلم أن الحياة لا تستطيع أن تجود على المرء بشئ يسعده أكثر من الانسجام بين

(١) قصة مشهورة من روائع الأدب العالمي كتبها سرفانتس المؤلف الإسباني ، ونشر القسم الأول منها في عام ١٦٠٥ ، والقسم الثاني في ١٦١٥ . ودون كيشوت هو بطل هذه الرواية ولقبه الآخر هو الفارس ذو الوجه الحزين le Chevalier de la Triste Figure . يستخر فيها سرفانتس من الفرسان المغامرين إذ يقول دون كيشوت : « لقد تركت وطني ، ووهنت أملاكي ، وتخلت عن راحتي وبيتي ، وألقيت بنفسي بين يدي الخط لكى يدفع بي أينما يشاء . . . أردت أن أبعث الفروسية المغامرة البائدة . . . وأصبحت متعتي المفضلة حاية الأرامل والفتيات واليتامى . . . » من كتاب « دون كيشوت » ، القسم الثاني الفصل السادس عشر ، طبعة جازنييه ، باريس . وانظر أيضا بول هازار ، « دون كيشوت » باريس ١٩٣١ . [المترجم]

من الشبث إلى الحركة

١١

الفكر والحواس والقلب . أما وقد اهتدى إلى سر الحياة الطيبة فانه سيحتفظ به ويطبقه حتى يومه الأخير .

يبد أن كل شيء إلى فناء ، ولن يساوى سره هذا شيئاً لدى أولئك الذين سيخلفونه في الدنيا . وعندما يكبر أحفاده ويصبحون رجالاً سوف يجدون ذوقه قديماً بالياً ، ويحتفرون الوسيلة التي اهتدى بها إلى القناعة في الحياة . وسوف يفسخون تلك الهدنة السعيدة ، التي كانت تسمح بالنشاط والعمل في هدوء واطمئنان . ويطلقون عنان الحرية لرغباتهم المكبوتة من أمد طويل ، فيرتحلون إلى الآفاق البعيدة ، بحثاً عن الشكوك . وإذا نحن وجدنا فيما بعد ، روح الظمن والارتحال يقوى وينتشر ، وإذا رأينا الرواد يفارقون القرى والولايات والأوطان إلى مختلف الأصقاع بحثاً عن طرائق الناس في الحياة والتفكير ، فاننا ندرک من هذه العلامة الأولى أن تغيراً يعترى المبادئ التي كانت تنظم الحياة . « إن كنت طلعة ، فارتحل . . . (١) »

عندما كان بوالو Boileau يذهب إلى مياه البربون Bourbon كان يخيل إليه أنه في آخر الدنيا إذ كان قانعاً بالقامة في أوتوي Auteuil . وكان راسين Racine مكتئباً بباريس ؛ وانزعج الاثنان أيما انزعاج عندما اضطرأ أن يتبعا الملك في رحلاته . ولم يذهب بوسويه Bossuet إلى روما مطلقاً ، ولا فينلون أيضاً . ولم يشأ موليير أن يعود مرة أخرى إلى دكان الخلاق في هزبناس Pézenas . فكل العظماء الكلاسيكيين كانوا يؤثرون الشبث . أما المغامرون فسوف نرى أنهم فولتير ومونتسكيو وروسو . ولكن الانتقال من أولئك إلى هؤلاء لم يتم إلا بعد عمل غامض .

والواقع أنه في نهاية القرن السابع عشر وفي مستهل القرن الثامن عشر ، عاودت الايطاليين روح السفر . وكان الفرنسيون دائبي الحركة كالكالزبقي :

(١) تروفي دي لاشيتاردى « تعليقات لنبل صغير أو فكرة الرجل الكيس » ، باريس

١٦٨٣ ص ٦٨

Trotti de la Chétardie, *Instructions pour un jeune Seigneur, ou l'idée du galant homme*, Paris, 1683 .

وكانوا على حد قول أحد المعاصرين ، مولعين بالجديد حتى أنهم قلما احتفظوا بأصدقائهم إلى أمد طويل ؛ إنهم يبتكرون كل يوم الجديد الطريف ، ويستحدثون البدع . فإذا هم سئموا الإقامة في بلادهم ، سافروا إلى آسيا أو إلى أفريقيا لتغيير المكان والتسلية (١) .

أما الألمان فقد اعتادوا حب الظن من قديم . ولا يمكنك أن تحملهم على الاستقرار حيث يكونون . كتب المؤلف الفرنسي سانت إفريموند Saint-Evremond في روايته المختلطة Cosmopolite الهزلية المسلية *Sir Politick would be* على لسان ألماني : يقول « نحن رجالون جميعاً من الأب إلى الابن ، ولا شيء يستطيع أن يمنعنا عن الترحال . لا نكاد نتعلم اللاتينية حتى نتأهب للسفر . وأول شيء نقتنيه دليل يشرح لنا الطريق ، ثم كتيب صغير يعرفنا بالتحف والغرائب في كل بلد . وإذا كان المسافر أديباً أخذ معه دفتر أبيض فاخر للتجديد ، يدعوته دفتر الأصدقاء *Album Amicorum* ، ولا ينسى أن يزور العلماء في كل مكان يمر به ، وأن يعرض عليهم هذا الدفتر ليسجلوا فيه أسماءهم . . . » وإنك لترى الألماني في سفره لا يوفر مجهوده ، فهو لا بد أن يصعد في الجبل حتى قمته ، ويتبع النهر من منبعه إلى مصبه ، يعد العابر والجسور ، ويدرس أطلال المسارح والمعابد ، ويشاهد — مسجلاً في مذكراته — الكنائس والأديرة واليادين والمجالس البلدية والقناطر القديمة والقلاع ودور الأسلحة ، ويذكر ما سجل على القبور ، ولا ينسى الأبراج والقباب وساعات اليادين ، ويترك كل ذلك ويسرع إلى مكان آخر ، إذا سمع بحفلة تنويج ملك فرنسا أو انتخاب الامبراطور !

والإنجليز مولعون بالأسفار ، وهم يعدونها استكمالاً للتربية . كان النبلاء الشبان حديثي التخرج من أكسفورد وكبريدج يملأون جيوبهم بالمال ويستصحبون رائداً حكماً ثم يجتازون المانشن ويشرعون فيما يسمونه « الدورة الكبرى » . وقد عرفنا منهم أنواعاً مختلفة : منهم من كان يكتفى بمعرفة أجود أنواع النبيذ كألفرننتيان Frontignan والمونتياسكون Montefiascone وذاي d'Arbois وداربوا d'Ay وبوردو Bordeaux واكسيرييس Xérez ؛ ومنهم من

(١) جيوفاني باولو مارانا : رسالة من أحد سكان صقلية إلى صديقي ، تتضمن نقداً ظريفاً لباريس والفرنسيين ١٧٠٠ - ١٧١٠ .

من الثبات إلى الحركة

١٣

كان يبحث في كل مكاتب التاريخ الطبيعي ، ويدرس مجموعات قديم الآثار .
ولكل امرئ خلق . يقول جريجوريو ليتي (١) : «يرتحل الفرلسيون عادة بغية الاقتصاد حتى إن وجودهم في مكان ، كثيراً ما يسبب من الخسارة أكثر مما يجلب من المنفعة . أما الانجليز فعلى العكس من ذلك ، يخرجون من بلادهم مزودين بكثير من صكوك الصرف ، ومصطحيين حاشية كبيرة لينفقون مبالغ طائلة . وفي مدينة روما وحدها يوجد عادة ما ينيف على الخمسين نبيلاً انجليزياً ، ومن يتبعهم من خدم ، ينفق كل منهم ما لا يقل عن ألفي جنيه ذهباً في العام . حتى إن مدينة روما وحدها تسحب كل عام من انجلترا ما ينيف على ثلاثين ألف بستانول (٢) . » وكذلك باريس « لا تخلو من السياح الانجليز . أخبرني أحد أصحاب المصارف الانجليزية أنه صرف للنبلاء الانجليز في فرنسا ، مائة وثلاثين ألف جنيه في غضون عام ، ولم يكن هذا الرجل من أغنى رجال المال . » وقد كان جريجوريو ليتي نفسه مغامراً ومهاجراً ، وكان له خمسة أوطان . فلقد ولد في ميلان ، والضم إلى مذهب كالفين في جنيف ، وكان مادحاً للويس الرابع عشر في باريس ، ثم مسجلاً للتاريخ الانجليزي في لندن ، وكاتباً هجائياً في هولندا حيث توفي عام ١٧٠١ . كان العلماء يزدون من معارفهم بالانتقال من بلد إلى بلد كما فعل ألبونيو كونتي ، ويادوان الذي أُمَام في باريس عام ١٧١٣ ، وفي لندن عام ١٧١٥ حيث اشترك في معركة حساب النهايات الصغرى (٣) ، ثم رحل إلى هانوفر للاجتماع بليبنتر ، وفي أثناء بروره بهولندا

(١) « تاريخ ومذكرات عن حياة كرومويل » ، أمستردام ١٦٩٣ ، الترجمة الفرنسية ١٦٩٤ ، طبعة ثانية في ١٧٠٣ ص ٤٦ .

Grégorio Leti, *Historia e Memorie sopra la vita di O. Cromuele*, Amsterdam, 1692, trad. fr. 1694, p. 46.

(٢) بستانول pistole : عملة قديمة تعادل ثلاثين فرنكاً .

(٣) حساب النهايات الصغرى Calcul infinitesimal : هو فن قياس وتعداد ما لا تنصور وجوده ، إخضاع اللانهائي للحساب الجبري . « لا تظن أننا تسخر منك حين نقول إنه توجد خطوط لا متناهية في الكبر تشكل زوايا لا متناهية في الصغر ، وأن خطاً مستقيماً طالماً هو ستاه ، إذا اعوج قليلاً جداً أصبح منحنيلاً لا نهائياً . وإذا كان كل هذا يبدو في أول الأمر مغالاة في مخالفة المنطق ، فهو في الواقع نتيجة رفعة الذهن البشري ومسعته ومنهج كشف الحقائق التي كانت مجهولة حتى الآن . » — الرسائل الفلسفية لفولتير ، الرسالة السابعة عشرة عن اللانهائي . [المترجمان]

لم يحمل زيارة ليوفنهوك Leuwenhoeck . وكان الفلاسفة يرحلون كما فعل لوك وليبنيز ، لا للتأمل الهادي بجوار مدفأة بل لمشاهدة تحف العالم . كما رحل الملوك أيضاً ، فقد توفيت الملكة كريستينا ملكة السويد في روما عام ١٦٨٩ وسافر بطرس قيصر روسيا إلى أوروبا عام ١٦٩٦ .

انتصرت السياحة لأنها نوع من الأدب غير مقيد بحدود ، نوع يسير يستطيع المرء فيه أن يلج كل باب وأن يطرق كل موضوع ، من أبحاث علمية إلى نشرات للمعارض والمتحف إلى قصص غرامية . وهي حيناً تروى كقصة جافة حشدت بالعلم ، وحيناً تكون بحثاً في علم النفس ، وحيناً آخر تسرد كجرد رواية ، وهي قد تشمل كل ذلك في نفس الوقت . وهي قد تقابل بالاطراء ، أو بالانتقاد ولكن هذا وذاك يؤكدان الأهمية التي اتخذتها السياحة على كل حال ويبينان لزومها للإنسان . إن نفس الميل الذي جعلها تزدهر ، شجع أيضاً صناعة دلائل السفر . ليس علينا إلا الاختيار : « النبيل الأجنبي السائح في فرنسا » : *Le gentil homme étranger voyageur en France* « تعليقات عامة لمن يريد السفر » : « دليل لطرق جميع ولايات اسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا » *Il Burattino veridico ovvero Istruzione generale per chi viaggia; Guia de los caminos para ir por todas las provincias de Espana, Francia, Italia, y Alemania* . إن المدن الشهيرة لها الحق في أن تحظى بمعاملة خاصة ، « مدينة وجمهورية البندقية » *La ville et la république de Venise* « وصف مدينة روما لصالح الأجانب » *Description de la ville de Rome en faveur des étrangers* « دليل للأجانب الذين يدفعهم حب الاستطلاع إلى رؤية واستماع أشهر الأشياء في مدينة نابولي المسكية » *Guida de' Forestieri curiosi di vedere et intendere le cose le più notabili della regal città di Napoli* . وصف جديد لأغرب ما يوجد في مدينة باريس « *Description nouvelle de ce qu'il y a de plus remarquable dans la ville de Paris* » . وهناك عنوان جذاب ، لا يمكن أن يقرأ المرء دون أن تتملكه الرغبة في السفر ، ودون أن تلوح له آفاق ملأى بأعذب الوعود : الملذات *Les Délices* « ملذات إيطاليا » *Les Délices de l'Italie* « ملذات الدانمرك والنرويج » *Les Délices et Agréments du Danemark et de la Norvège* « ملذات بريطانيا العظمى واراندا » *Les Délices de la Grande-Bretagne et*

من الثبات إلى الحركة

١٥

de l'Irlande « ملاذ سويسرا » *P'État et les Délices de la Suisse* . وكل هذه
الملاذ مجتمعة تنهى « عجائب أوروبا » *Les Merveilles de l'Europe* .

ولكن أليس « رواق الدنيا الطريف » *la Galerie agréable du monde*
أكثر إغراء من كل ذلك ؟

وواقع الأمر أن نشاط أوروبا في كشف العالم واستغلاله لم ينقطع لحظة ، ولقد
واصل القرن السابع عشر في هذا الصدد المهمة التي ألقاها على عاتقه القرن
السابق . ففي عام ١٦٣٦ أعلن توماسو كامبانيلا *Thommaso Campanella*
ما يلي : لما كان كشف العالم قد ناقض بعض المعارف التي كانت تستند عليها
الفلسفة القديمة فلا بد من أن ينجم عنه نظرة جديدة نحو الأشياء (١) . هذه
الفكرة التي نشأت رويداً رويداً في مبدأ الأمر ، ازداد سريانها سرعة لأن
الهولنديين لم يقتصرُوا على تنظيم تجارتهم مع بلاد الهند الشرقية ، بل وصفوا
ما شهدوه فيها من غرائب ، ولأن الإنجليز لم يرفعوا علمهم على كل البحار فحسب
بل نشروا عن رحلاتهم أفخم المؤلفات مما لم يسبق له مثيل . ولأن كولبير
Colbert عرض على الفرنسيين أن يوجهوا نشاطهم نحو المستعمرات الغنية النائية ؛
وما أكثر القصص التي سترد من هناك « مؤلفة بأمر الملك » ! وما كان الملك
يدري أنه ستنمخض هذه الروايات يوماً بأفكار تزلزل أعز مبادئ عقيدته
وألزمها لاستتباب سلطانه !

وهكذا نرى إنتاجاً ينشأ ويتسع حتى يجاوز كل حد معقول ؛ فمن أحاديث
إلى وصف ويسان ومجموعات . واستطاع الناس الذين يلتزمون دورهم ،
ولا يعرفون شيئاً عن البحيرات الكبيرة في أمريكا ولا عن حدائق مالابار
في الهند ، ولا عن المعابد العجيبة في الصين — استطاعوا أن يطلعوا في غرفهم ،
وبجانب مدافعهم ، على ما يقصه الآخرون . وجعل الملحقون بالرساليات الأجنبية
الكابوسان *Capucins* والفرنسيسكان والجيرويت *Jésuites* يحكون عن التبشير .

(١) عن تأثير الاحتمال على الأفكار ، أنظر إلى كتاب هنري بوسون « التفكير الديني
الفرنسي من شارون إلى باسكال » ١٩٣٣ ص ٢٨٤ .

Henri Buisson, La pensée religieuse française de Charron à Pascal, 1933, p. 284.

ووصف الأسرى من أهل طرابلس والجزائر ومراكش ما عانوا من اضطهاد في سبيل الدين . ونشر أطباء الشركات ما دونوا من مذكرات ؛ وحكى رواد البحار مثل دامبيير Dampier ، جميلي كاريري Carreri ، وود روجرز Wood Rogers سياحتهم حول العالم ، فخورين . وكان هروب اللاجئين البروتستانت الذين أبحروا في ١٠ يوليو من عام ١٦٩٠ من أمستردام مغادرين أرض أوروبا الجاحدة ، للبحث في طريق بلاد الهند الشرقية عن فردوس يبدأون فيه حياة جديدة ، علامة من علامات الزمن . ولكنهم لم يجدوا هذا الفردوس .

وتأثرت الضمائر تبعاً لهذا الانتاج الضخم ، ونجدها في أواخر القرن تعمل بهمة ونشاط . ابتعد سير وليم تيمبل Sir William Temple عن ضجيج الأمور السياسية وركز اهتمامه في استثمار حدائقه الجميلة في مور بارك Moor Park وفي تثقيف ذهنه . إننا نستطيع أن نتبعه في تفكيره : كم من بلاد ومناطق كنا نجهلها بالأمس أو نعتبرها في حالة من الوحشية ، قد عرفناها اليوم بفضل روايات التجار والبحارة والسياح ! في تلك البلاد التي دخلت في أفقنا حديثاً وأصبحت الآن موضع محادثات ومناقشات علمية ، ظهرت مكتشفات لها أهميتها ووقعت أحداث تستحق التنويه ولا تقل في قيمتها عن تلك التي كانت تغذي أذهاننا من قديم . لا ينبغي أن نلقى كل اهتمامنا إلى حدود تلك البلاد وأقاليمها وغلاتها لحسب ، بل يجب أن نهتم بقوانينها وتقاليدها وإدراستها وأشكال حكوماتها . . . وعلى إثر ذلك شرع وليم تيمبل في درس السياسة والأخلاق في الصين وبيرو والتتار وبلاد العرب ، وبالتأمل في خريطة العالم الجديد ، عاد يبحث عن البادية التي كانت تسود العالم القديم (١) .

وكثيراً ما كان المسافر يعود إلى وطنه بفكرة يعتقد أنها مبتكرة ، بينما هو في الواقع كان يحملها معه عند رحيله ؛ ولكنه لا يخطئ كثيراً في اعتبارها فكرة فعالة . لأنه عند رجوعه بها إلى أمستردام أو لندن أو باريس تكون هذه الفكرة أو النظرية قد ازدادت فخراً وجسارة واكتسبت نفوذ التجربة الذي كان ينقصها من قبل . نستطيع أن نؤيد واثقين أن كل الأفكار الحيوية ، كالملكية والحرية والعدالة ، صارت محل مناقشة من جديد ، بفضل الأمثلة

المستعمدة من البلاد البعيدة . أولا ، لأنه بدلا من تبسيط الفوارق بغية الوصول إلى نموذج شامل ، تحقق وجود ما هو خاص ، فردى ، لا يقبل أى تحويل . ثانياً ، لأنه أمكن مواجهة الآراء المكتسبة بالوقائع المستمدة من التجربة ، التي أصبحت في متناول المفكرين . وأضيفت براهين جديدة ، حية لامة ، إلى البراهين التي كانت تموز الناس لمعارضة هذا المذهب أو ذاك ، وهذه العقيدة المسيحية أو تلك ، والتي لم يكن بد من التماسها بمشقة في محفوظات الأجيال الغابرة : فما هي ذى الآن قد أحضرها الرقهلون وأصبحت في متناول الناس . كثيراً ما يستشهد بيير بايل Pierre Bayle بتلك الشهادات التي تضمن صحتها المراجع الجديدة . « يؤكد لنا مسيو برنيه M. Bernier في مقاله الغريب عن المملكة المنغولية الكبرى . . . » — « يتضح لنا من رحلات مسيو تافرنيه Tavernier . . . » — « يتضح لنا مما نشر من مقالات عن الصين . . . » — « أنظروا إلى ما كتبت الشركة الهولندية عن اليابان . . . » ويقول في شأن الجلبة التي يقوم بها الناس في أثناء خسوف القمر : « لا يزال الفرس يقومون بهذه العادة السخيفة كما يتضح من بيان بيترو دلافالى . وهي مستعملة أيضاً في مملكة تونكين حيث يسود الاعتقاد بأن القمر يقاتل تينياً : ألظر المقال الحديث الذى كتبه مسيو فرنيه » — « إن الملاحظة التي أبديتها عن تفشى الفسق والفحشاء بين المسيحيين تذكرنى بأنى سبق أن قرأت في رواية المسيو ريكو . . . إن مقالات مسيو ريكو قد أحدثت ضجة كبرى حتى لا يمكنك أن تجهلها . . . » وحين يريد بايل تبيان أن وجود الله لا يؤيده الارتضاء الشامل — وهو بيت القصيد — فهاك البرهان الذى يستعمله من السفر : « بماذا تجيبون إذا اعترضت عليكم بوجود شعوب الكفار التي يتحدث عنها سترابون ، والشعوب التي كشفها الرواد الحدثون في أفريقيا وأمريكا ؟ (١) »

لعل أحدث الدروس التي تلقىها أوربا عن « الامتداد » درس النسبية . لقد تغيرت وجهات النظر ، فالمبادئ التي كانت تترأى سامية فيما سبق ، لم تعد قيمتها تتوقف إلا على اختلاف المكان ، والعادات التي كانت تبدو مستندة

(١) « أفكار عن المذهب » ١٦٨٣ ، الفصل ١٤ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١٢٩ ، ١٦٥ . وما بعدها ، *Pensées sur la Comète*, 1633 .

إلى العقل اتضح أنها في الواقع تقوم على التقليد . وعلى العكس من ذلك فإن عادات كانت تبدو خرافية أصبحت منطقية ، إذا تناولها الناس بالانفسير على أساس المصادر والبيئة . فتحن نرسل شعرنا ونخلق لحانا ، أما الأتراك فيحلقون شعرهم . ويرسلون لحاهم . واليد اليمنى عندنا أشرف من اليد اليسرى بينما يرى الأتراك عكس ذلك : هذا الاختلاف بين الشعوب لا تجوز المناقشة فيه ، فلتقبله على علاقته . إن أهل سيام يديرون ظهورهم للنساء ظانين أنهم يحترمونهن بعدم نظرهم إليهن ، أما نحن فننقل عكس ذلك . ولكن من المصيب ؟ ومن المخطئ ؟ إذا نظر أهل الصين إلى أخلاقنا على ضوء أفكارهم الخاصة التي تكونت منذ . . . سنة فانهم يكادون يعتبروننا برابرة جهالا ، وإذا نظرنا نحن إلى الأخلاق الصينية نجدها شاذة . هذا ما يقوله الأب لي كونت عضو إرسالية اليسوعيين ، وبعد ذلك بصل إلى هذا الاستنتاج الفاسف : « إننا نخطئ جميعاً ، لأن الآراء التي ورثناها منذ طفولتنا ، تمنعنا من النظر إلى أفعال الانسان بعين الحقيقة ، فننوه أن هذه الأفعال ليس لها في ذاتها قيمة ، بل إن الشعوب هي التي حددت معانيها في بداية تأسيسها . » ومثل هذه الأقوال تؤدي إلى نتائج بعيدة ، تؤدي إلى فكرة النسبية العالمية مباشرة . يقول برنييه : « لا شيء يستعصى على الاعتقاد ، والرأي المتسر ، والعادة ، والرجاء ، ومسألة الكرامة ، الخ » ويقول شاردان : « إن إقليم كل شعب هو فيما أرى ، السبب الأساسي ليول الانسان وعاداته على الدوام . . . » وهو يضيف إلى قوله : « إن الشك بداية العلم ، فالذي لا يشك في شيء لا يفحص شيئاً ، ومن لا يفحص شيئاً لا يدرك شيئاً ، ومن لا يدرك شيئاً فهو أعمى ، وسيظل أعمى . » وعندما لطال هذه الكلمات الزاخرة بالمعاني ، نفهم الملاحظة التي كتبها لابرويير في فصله المعروف « العقول القوية » *Des Esprits forts* (١) : « بعض الناس يفسدون بسبب أسفارهم الطويلة ،

(١) *Esprits forts* تعبير يدل على من يفاخرون بعدم التصديق . ويتكلم لابرويير *La Bruyère* عن العقول القوية في كتابه « الشخصيات » *Les caractères* الفصل الخامس عشر « هل تعرف العقول القوية ، إننا ندعوها هكذا من قبل السخرية ؟ أي ضعف أبلغ من ألا يكون المرء واثقاً بمبدأ كيانه ، وحياته وشعوره ، ومعارفه ، وما سيبتزى إليه ؟ أي تنبسط للهمة أكبر من أن يشك اللسان فيما إذا كانت روحه ليست مادة كالخجر أو الهامة ، وأنها لا تقبل الفساد كهذه المخلوقات الدنيئة . . . » [الترجمان]

من النبات إلى الحركة

١٩

ويفقدون القليل الذي تبقى لهم من دينهم : إذ يشاهدون كل يوم مذهباً جديداً ، وأنواعاً شتى من المراسيم والأخلاق .

* * *

وأخيراً أقبل أولئك الأجانب الرمزيون ، أقبلوا ومعهم عاداتهم وقوانينهم وقيمهم المبتكرة ، وفرضوا أنفسهم على ضمير أوربا التي كانت تتعرق إلى مؤالهم عن تواريتهم وأديانهم ، وقد أجابوا على ما وجه إليهم من أسئلة ، كل بدوره . وكان موقف الأمريكي محيراً ، فقد وجد مفقوداً في أرض حديثة الاكتشاف ، إذن فهو ليس ابناً لسام أوحام أو يافث . ترى ابن من يكون ؟ كان الوثنيون قبل تجسد المسيح على الأقل مشتركين في الخطيئة الأصلية لأنهم ينحدرون جميعاً من أب واحد وهو آدم : ولكن ما القول في الأمريكيان ؟ ثم بأي سر استطاعوا الهروب من الطوفان ؟ وبأليت الأمر يقف عند هذا الحد . فكل امرئ يعلم أن الأمريكيان برابرة همج : كان المرء إذا أراد أن يتصور حالة الانسان قبل المدنية ، يضرب بهم المثل . قوم يعيشون عرايا لا يسترهم كساء . بيد أن شكاً جعل يساور العقول : هل الرجل الهمجي لا بد أن يكون مخلوقاً وضعياً حقيراً ؟ ألا يوجد رجال من الهمج يعيشون سعداء ؟

مثلاً كان الجغرافيون القدماء يرسمون على خريطة الدنيا صور النباتات والحيوانات والناس ، فلنسجل هنا في خريطة الدنيا الذهنية مكانة ذلك الرجل « الهمجي الطيب » le Bon Sauvage وأهميته . صحيح أن هذا الشخص ليس جديداً ، إلا أن شخصيته لم تكتمل نهائياً إلا في الوقت الذي ندرسه ، بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر . وقبل ذلك كان الاعداد قد ألهم ، فقد امتلحت إرساليات المذاهب المختلفة فضائل ذلك الرجل ، التي رفعت من شأنه ، دون اهتمام بما إذا كانت تلك الفضائل التي يطرونها مسيحية أو غير مسيحية ! ولما كانت الحماسة قد ألتهم الحرص فقد امتدحوا بساطته . قائلين إنه يكتسبها من الطبيعة ، وامتدحوا كرمه وحسن طويته ، تلكا الميزتين اللتين لا توجدان دائماً في أوربا . ولما لفضحت هذه الأفكار ظهر رجل لم يكن عليه إلا أن يقدمها في أسلوب حي قوي ، وفي حذق أيضاً : فالحذق ألزم الشروط . وكان ذلك الرجل ، البارون دي لاهونتان baron de Lahontan متمرد الذهن ،

سُم الحبيش ، فأبحر إلى شواطئ كويبيك عام ١٦٨٣ . وارتأى أن يشق طريقه في الحياة في كندا ، فانه لم يكن أحمق أوجباناً . تم اشترك في مقاومة الهنود الحمر بصفته ضابطاً . ولا كان عديم الطاعة ، حاد المزاج ، فقد لاحقه الكرب حتى هرب ، وعاد إلى أوربا ليعيش فيها حياة غير موفقة . ولا نشر في عام ١٧٠٣ « رحلاته ، ومذكراته ، ومحاوراته » ، خلف تحفة لاشك في أنها أبقى وأخلد بما دار في خلد ، ولو أنه لم يكن يستخف بقدرة .

إن أداريو الرجل المتوحش يحدث لاهوتان الرجل المتمدن ، الذي يقوم بالدور السيئ . يعرض أداريو مظهراً الدين الطبيعي مقابل الانجيل . ويعرض الأخلاق الطبيعية مقابل القوانين الأوربية ، التي لا هم لها إلا الإيحاء برهبة العقاب . ويعرض اشتراكية بدائية يجد فيها المرء العدالة والسعادة ، مقابل المجتمع الجديد . وهو يصيح فليحى الهنود الحمر ! ويرى لذلك المتمدن المسكين الذي لا فضيلة له ولا قوة ، والذي لا يستطيع أن يجد القوت والمأوى ، ذلك الساقط الفاسد الأخلاق ، مسخرة الكرنفال بشيا به الزرق وجواربه الحمر وقبعته السوداء وربشته البيضاء وشرايطه الخضراء ، ذلك الذي يموت ألماً في كل لحظة بما يلاقى من عذاب وهوان في البحث عن رتبة أو مال ، لا تترك في قلبه سوى اليأس والاشمئزاز آخرة المال .

أما الرجل المتوحش فتوى يجيد السير والصيد ويقاوم التعب والجحمان . ألا ما أجمله وما أنبله ! إن الجاهل تعمة له : فهو لا يعرف القراءة والكتابة ولذا يجتنب كثيراً من السوء : فالعلوم والفنون هي منبع الفساد . أما هو فيطيع الطبيعة أمه الرعوم ، ولذا فهو سعيد . إن المتمدن هم البرابرة الحقيقيون ، فليكن ذلك الرجل مثلاً يحتذونه وليلقنهم كيف يهتدون إلى الحرية والكرامة الانسانية . وبجانب ذلك المتوحش الطيب يطالب المصري الحكيم بمكانه : بيد أن شخصيته لم تكتمل بعد ، فهي في دور الشكوين . ومتشكك بتلسيق فسيفسائي قواسمه مواد متباينة : أحجار هيرودوت وسترابون التي تستعمل دائماً ولكنها لا تقدم أبداً ، وتقريظ علماء التاريخ الذين سيسعون إلى سلب العبريين مجدهم المقدس ونسبته إلى المصريين ، ثم روايات السياح . وقد ذكر أولئك الأخيرون أن الموسيقى والهندسة قد لشتا في أرض مصر القديمة ، وأن المجموعات النجمية سجلت لأول مرة في سماء مصر . ولنتذكر هنا الصفحات الرائعة التي سطرها

بوسويه في مؤلفه «مقال عن التاريخ العالمي» *Discours sur l'Histoire Universelle* كان الصقلييون والأسهريون أقواماً من البرابرة ، فكان على مصر أن تقدم للعالم مدنية كاملة . وكان هذا الشعب المصرى رصيناً رزقياً ، تدفعه قوة ذهنه وثباته إلى التمسك بالقديم والنفور من الجديد ، فاذا أشاد التاريخ بحفظه للجميل ، فأنما يدل ذلك أيضاً على أنه كان شعباً اجتماعياً أنيساً لطيف المعشر . ولم يقتصر المصريون على سن القوانين بل حرصوا على تنفيذها ، وتلك فضيلة نادرة . وكانوا يحاكون الموقى ، وعلى ضوء تلك المحاكاة السامية كانوا يميزون بين الأخيار والأشرار ، فيحتفظون للأولين بشرف المقابر الكبيرة ، أما الآخرون فيلقون بهم بين الأقدار . . . ولقد كانوا يتركون مياه النيل تغرق أراضيهم لتزداد خصباً . . . إنهم بناء الأهرام .

وإذا كان بوسويه يبدى هذا الإعجاب بمصر ، فلأنه كان يغذى تفكيره بذكرىات الأزمان الغابرة ، ولأنه قرأ تقارير إرساليات الكابوسان التي زارت مصر العليا . وقد دفعته الحماسة إلى أن يأمل يوماً أن تبعث طيبة الجميلة ذات المائة ياب . أقلم يكن مثل ذلك المشروع يليق بمقام الملك العظيم (١) ؟ «لو أن سياحنا وصلوا حتى المكان الذى بنيت فيه هذه المدينة ، لوجدوا بلا شك بين ألقاضها آثاراً ليس لها نظير : لأن ما شيده المصريون إنما أقيم ليصمد للزمن . . . والآن ، وقد انتشر اسم الملك العظيم فى أماكن الدنيا التي كانت مجهولة من قبل ، الآن ، وهذا الملك يشجع البحث عن الصنائع الجميلة الطبيعية كانت أو فنية فى أقصى الأرجاء ، أفلا يليق بازاء هذه الرغبة النبيلة فى المعرفة أن نكتشف الآثار الجميلة المدفونة فى صحراء طيبة ، فتغتنى العبارة الفرنسية بفضل المخترعات المصرية ؟ »

أما ما لم يكن يقبله بوسويه فهو البحث فى مصر عن فلسفة قديمة جداً ، وجديدة فى الوقت نفسه (٢) . غير أنه ظهر رجل مغامر ذو ذهن مخترع غريب يدعى جيوفانى باولو سارانا Giovanni Paolo Marana غادر جنوة لحاضياً لأسباب تافهة والتحق بخدمة لويس الرابع عشر ، غير سئره عن الغرض ، ونشر فى عام

(١) يقصد لويس الرابع عشر .

(٢) نعتقد أن المؤلف يقصد البحث عن فلسفة «جديدة» أى غير الفلسفة اليونانية

القديمة . [المترجمان]

١٦٩٦ قصة عجيبة « محادثات بين فيلسوف ومعتزل ، عن موضوعات أخلاقية وعلمية عديدة » . وهو يقدم في هذه القصة شيخاً في التسعين من عمره ، يبدو في عنفوان الشباب ، غض الالهاب ، متورد الوجنت كالعادة الحسناء . ترى كيف يتيسر حفظ الشباب على هذا النحو؟ إنه عاش في مصر أمداً طويلاً : وفي أرض مصر يتلقون سر الأكسير الذي يطيل العمر . ويتعلمون على الأخص الفلسفة الحقيقية التي لا تربطها أدنى علاقة بالمسيحية . وهو يقدم أيضاً شاباً مصرياً كله فضيلة ومعرفة ، يستطيع أن يدل على الفور بيانات تستحق الإعجاب عن أدق الموضوعات . تلك فضيلة هذه الأرض الوثنية ، التي هي بالرغم من ذلك أرض مباركة .

فلندع الستين تمر : وستكتمل الشخصيات ، وتوضح وتفتني ؛ وسينتظم المنظر بالطنبور والبردى واللوتس وأبي قردان ؛ وأخيراً سنجد المصري الحكيم ، le Séthos الذي قدمه الأب تيراسون والذي سيصبح فتنة القرن الثامن عشر . لم يكن ستيوس هذا بطلاً بل فيلسوفاً ، لم يكن ملكاً بل محافظاً ، ولم يكن مسيحياً بل أحد الموقفين على أسرار Eleusis : نموذج رائع لكل حاكم ولكل إنسان .

ولقد بدا كما لو أن العربي المسلم لن ينال من الحظ مثلما نال المصري : لأن محمداً كان موضع حملات شائنة وتخرصات مؤداها أنه أغرق الأرض بالدم والنار . ولكن هنا جاء العلماء يضمون جهودهم إلى جهود السياح ، إذ عني بدراسة الحضارة الشرقية بعض كبارهم مثل هريبلو d'Herbelot وتلميذه جالاند Galland الأستاذ بالكلية الملكية ، وبوكوك Pococke أستاذ التاريخ العربي بجامعة أكسفورد ، وريلاند M. Reland أستاذ اللغات الشرقية والآثار الاكليريكية القديمة بأوتريخت Utrecht ، وأوكلي M. Ockley أستاذ اللغة العربية بجامعة كامبردج . اطلع هؤلاء الأساتذة على النصوص الأصلية فنظروا إلى العربي نظرة جديدة .

لفت أولئك العلماء الأنظار إلى أن جمهوراً صغيراً لم يكن ليتبع محمداً لو كان محمد رجلاً دعياً مصرياً ، وأنه من المحال أن ديناً غير مهذب — كما يدعى البعض — يستطيع أن يعيش وأن يتقدم . لكن لو سأل الناس العرب عن تاريخهم بدلا من أن يستمعوا إلى الروايات الكاذبة ، لعرفوا أن محمداً وأتباعه لا يقلون عن أبطال الشعوب الأخرى في مزايا القلب والفكر . وبعد ، فما أسوأ

من الثبات إلى الحركة

٢٣

ما قاله الأميون عن الدين المسيحي ! وما أكثر السخافات التي ألصقت به ! هكذا شأن الناس على الدوام إذا ألقوا نظرة سطحية على الأشياء . لقد ناقضوا أقوالا لم يلفظها المسلمون ، وأخطاء لم يرتكبها الاسلام . والحقيقة أن الاسلام دين منطقي معقول ، دين نبيل جميل . وأكثر من ذلك فإن الحضارة الاسلامية جديرة بالاعجاب ؛ فبعدها طغت الجاهلية على العالم ، من الذي كان حفيظاً على حقوق التفكير والثقافة ؟ العرب . . .

تم هذا التطور من الجفوة إلى الخطوة في سنوات قلائل نهايتها سنة ١٧٠٨ . ففي هذا التاريخ أعلن سيمون أوكللي Simon Ockley حقيقة — أو وهماً — ستغدو فيما بعد ، بعد مائتي سنة ، جديرة بالمناقشة : فهو ينكر أن الغرب يفوق الشرق . لأن الشرق ألحج من العباقرة عدداً لا يقل عما ألحجه الغرب ، ولأن الحياة هناك أسعد : « من حيث خشية الله ، والتحكم في الشهوات ، والحكمة في السلوك ، والاحتشام ، والتواضع في كل الأمور وفي كل الظروف ، بالنسبة إلى كل هذه المسائل (وهي الأهم على كل حال) : إذا كان الغرب قد أضاف شيئاً مهماً كان قليلاً ، إلى الحكمة الشرقية ، فينبغي أن أعترف أنني مخطئ كل الخطأ » . تسير هذه الأفكار حتى تصل إلى فرنسي هو الكونت دي بولانفيليه Comte de Boulainvilliers الذي بعد أن شكر هرييلو ، وبوكوك ، وريلاندي ، وأوكللي ، كتب « حياة محمد » حيث يكتمل التحول : لكل شعب حكمة تخصه فمحمد يمثل حكمة العرب ، كما مثل المسيح حكمة اليهود .

تري أي بلد — تركيا أم فارس — سيقدم لنا ذلك الرجل الذي يسخر من عاداتنا ومن عيوبنا ومن رذائلنا ؟ ذلك الغريب الذي يسير في طرقنا منتقداً أمورنا ؟ ذلك الشخص الذي يسلينا ويكدرنا في نفس الوقت ، والذي أنيط به أن يذكر سعيّاً معتداً بنفسه ، بأنه ليس يملك بعد ، لا الحقيقة ولا الكمال ؟ الشخص الذي لا غنى عنه في الأدب الأوربي بلا شك مادام قد جعل منه أحد نماذج المفضلة ، واستخدمه سائفة مرة قبل أن يسأله ؟ لقد قدمته تركيا ، لأن أحد أوجهها كان متجهاً نحو أوربا وكان الناس أعرف بها . ولقد وصفتها الإنجليزي هو سيربول ريكو ، سكرتير أحد السفراء ، في أسلوب بلغ من حيويته أن كتابه أصبح منذ عام ١٦٦٦ أحد كتب السياحة

الكلاسيكية ، وأعيد طبعه مرات عديدة ، حتى أصبح يدور في كل يد ؛ ونشرت بعده روايات أخرى كثيرة . فقام مارانا الذي ذكرنا اسمه من قبل ، والذي كان معجباً بالمصريين ، يصف تركيا : بدأ في عام ١٦٨٤ بنشر « جاسوس السلطان الأعظم » الذي لقي رواجاً فذاً ، وأنجب أسرة كبيرة العدد من الأبناء والأحفاد . الجاسوس محمود الذي اتخذ لقب تيت المولداني 'Tit de Moldavie' رجل دميم ، كتوم ؛ ولما كان رصيناً متحرراً ومتواضعاً فإنه لم يجذب اهتمام أحد حتى إنه عاش ٥٤ عاماً في باريس دون أن يستلفت الأنظار . كان يتنزه في النهار ، ويعود في الليل إلى غرفته ، ليكتب إلى رئيس الديوان في الأستانة ، أو إلى رئيس الخزانة ، أو إلى أغا قائد الانكشارية ، أو إلى محمد ، أغا السلطنة الوالدة ، أو إلى الوزير المهاب قاسم . وكانت رسائله حافلة بالنقد الجارح الجريء سواء ضد الأمور السياسية أو الأمور الحربية ، أو الأمور الكنسية . كان يسخر من كل شيء .

ولكن الفارسي أخذ بتأره ، وتم له النصر . ولا شك في أن ذلك يرجع إلى سببين : أولهما ، أنه لا توجد حكايات عن الأسفار أمتع مما كتب شاردان بالرغم مما فيها من بطة وإطناب . ذلك الجوهرى الذي رحل إلى بلاد الفرس لبيع الحلى ، من ساعات وأساور وعقود وخواتم ؛ ذلك البروتستانتي الذي حرم عليه فسخ أسرانت (١) دخول فرنسا ، كان يحس في وطنه إحساس الرجل الغريب . كان يعرف أصفهان أكثر مما يعرف باريس ، ويحبها على الأخص حباً جماً . حتى إن من يقرأ كتابه ولو كان أمياً ، يدرك أن هناك ، بعيداً في بلاد آسيا ، أناس لا يقلون عنه شأنًا بحال من الأحوال ، ولو أنهم يحيون حياة تفتقر كثيراً عن حياته . إذن يجب على الأوروبيين أن يدعوا فكرة التفوق الشخصي التي ألفوها ، وأن يبدلوها بفكرة الاختلاف : ياله من تغير ميكولوجي ! ففي بلاد الفرس كل شيء مختلف : الغذاء الذي يتناوله المرء في الطريق ، والدواء الذي

(١) Révocation de l'Edit de Nantes : أمر نانت ، أمر أصدره هنري الرابع في ١٥٩٨ لصالح البروتستانت ، يسمح فيه بمباشرة مذهب كالفين ، وكان للبروتستانت أربع جامعات ومقاعد في البرلمان وغير ذلك من الحقوق . ولكن لويس الرابع عشر حد من هذه الحقوق شيئاً فشيئاً حتى فسخ هذا الأمر في عام ١٦٨٥ . وأعمل في البروتستانت الاضطهاد . الأمر الذي سبب لفرار عدد كبير من البروتستانت كان بينهم خيرة الفرنسيين وأنشطهم . [الترجمان]

يصفه الطبيب المحلى على طريقته ، والخان الذى يختلفون إليه للمبيت ؛ كل شئ^١ يختلف ، الثياب ، والحفلات ، والمآتم ، الدين والعدل والقانون . ومع ذلك فإن أولئك الفرس ليسوا قومًا من البرابرة : إنهم على النقيض فى غاية الرقة والتهذيب بل فى أوج المدنية ، حتى إنهم لطول عهدهم بها قد ملوها . وهنا ينوه شاردان بوجود هذا « العالم الآخر » وشرعيته . لقد عرف قراءه « بكل ما هو جدير بأن يتجه إليه فضول أوروبا ، مما يتعلق ببلد نستطيع أن نسميه « دنيا أخرى » ، سواء لبعده الشقة أو لفوارق الأخلاق والمبادئ . . . (١) »

أما السبب الثانى ، الذى أتاح للفرس احتلال مكان الأتراك فهو واضح كل الوضوح ، حتى ليكفي أن نشير إليه : فبعد المسودات والرسوم التخطيطية ، ظهر رجل — ليستغل فيما بعد ، مادة معدة — رجل لم يكن سوهوياً لحسب ، بل كان فوق ذلك عبقرياً فذاً يدعى مونتسكيو Montesquieu (٢) .

لم يكن ينقص غير القليل لالتحاق السيامى بهذه الفرقة ذات الألوان المختلفة . أراد لويس الرابع عشر توطيد العلاقات التجارية مع بلاد سيام ، ليبشر هناك بالدين المسيحى . وبدأت العلاقات : فى عام ١٦٨٤ رأى أهل باريس — لشدة عجبهم — حضور مندوب سيام ، وفى عام ١٦٨٥ ذهبت بعثة فرنسية إلى سيام ، وفى عام ١٦٨٦ حضرت بعثة سياسية جديدة إلى فرنسا ؛ وفى عام ١٦٨٧ جددت المحاولة بعثة فرنسية أخرى . وعندئذ ظهرت بيانات كتبها العلماء الأكبريون وبعض رجال السلك السياسى المشاركين فى الموضوع . ومن هنا تولد حب استطلاع الجمهور . ومن هنا أصبح الناس — بمقتضى آلية سيكولوجية لا تتغير — يتخيلون صورة السيامى فى إطار جميل : رجل تقى عاقل مستنير . فمثلاً ، يحكى أنه لما عرض على ملك سيام أن يتقبل الدين الجديد ، أجاب بأنه ، لو شاءت العناية الالهية أن يسود العالم دين واحد ، فما كان أيسر من تنفيذ ذلك الغرض . ولكن حيث إن الله يسمح بوجود أديان مختلفة ، فيلغى أن

(١) مقدمة « صحيفة سياسة الفارس شاردان Chardin فى بلاد الفرس » ، ١٦٨٦ .

(٢) مونتسكيو من أعلام الأدب فى فرنسا . ألف « روح القوانين » ، و « عن عظمة وتحلل الامبراطورية الرومانية » ، و « الرسائل الفارسية » Les Lettres persanes وهى المقصودة هنا . [المترجمان]

نستنتج أنه يؤثر أن يسمح بحمله عدد لا يحصى من المخلوقات ، كل يمجده طاعة لأصوله الخاصة . فدهش الناس عندما سمعوا هذه الكلمات : واعجبوا ! إذ أمير سيام ، هذا الذي لا يعرف شيئاً من علوم أوربا ، قد شرح بالرغم من ذلك وفي قوة ووضوح يستحقان الإعجاب ، أقوى برهان تتذرع به فلسفة الجاهليين ضد الدين إن النتيجة التي نستخلصها من كل ذلك تؤدي بنا إلى الأثورودكسية (١) . إن السياسيين يتقبلون في أرضهم كل أنواع الأديان ، وملكهم يسمح للبعثات المسيحية أن تمارس التبشير في بلاده بكل حرية : فهل الأوربيون في مثل تسامحه هذا ؟ — ترى ماذا كانوا يقولون لو فكر «الطالبان» فهكذا يدعى كهنة سيام — في القوم إلى فرنسا ليبشروا بدينهم ؟ — إن السياسيين يؤمنون بدين خرافي ، إذ يعبدون إلهاً غريباً يدعى « سومونوخودوم » وبالرغم من ذلك فإن في أخلاقهم الطهر والزهد ؛ ولا يستطيع أى مسيحي أن ينتقد سلوكهم . أفلا توجد إذن بين الدين والأخلاق صلة حتمية ؟

إلا أن ثورة نشبت في القصر السيامي ، جاءت على غير ما تشتهي البعثة الفرنسية ، فلم يغير ملك سيام دينه ، وأهمل المشروع . وعلى إثر ذلك جاء الفيلسوف الصيني بحجب الطالبان السيامي .



ذلك أنه ليس لبلد ، في جغرافية الأفكار هذه ، ما للصين من أهمية . لما كان الجيزويت العلماء تصدهم أوسع المطامع ، ويأملون في تحويل تلك الكتلة الآسيوية الهائلة إلى المسيحية ، بالتهوين من الفوارق بين الدينين ، وعض النظر عن تعارضهما ؛ ولما كانوا قد عرفوا كيف يكتسبون في بكين عطف الأباطور ، فقد حاولوا تبيان اقتراب الفلسفة الصينية من المذهب الكاثوليكي ، حتى إنه يمكن جعلهما متماثلين تماماً ، إذا توافرت الرغبة في ذلك . وعندهم ، أن كونفوشيوس الذي كون روح شعبه وهذبه ، قد نادى بمذهب يشعر فيه المرء في كل لحظة ، بنفث إلهي . كان يعتبر أن الطبيعة البشرية قد جاءت من السماء في غاية الطهارة والكمال ، وأن الفساد تطرق إليها فيما بعد ، وأن واجبنا

(١) الأثورودكسية : النظر إلى الفصل الرابع من القسم الأول .

لأن أن نرد إليها جهاها الأول : إذن يجب على أشياعه الصينيين أن يطيعوا الله ، وأن يتمشوا مع أوامره السامية ، وأن يحبوا إخوانهم محبتهم لأنفسهم . كان يميل إلى المرء إذا اطلع على تعاليم كونفوشيوس ، أنه أمام قديس للدين المسيحي ، لا أمام رجل تربى في فساد حالة الطبيعة : إنه شبيهه صيني للقديس بولس . لا ريب في أن الصين قد استقت الحقيقة من منابعها الأصلية ، وأن أولاد نوح الذين انتشروا في آسيا الشرقية قد أتوا إليها بتلك البذور التي استثمرها كونفوشيوس .

ولد كونفوشيوس قبل المسيح بثمانية وسبعين وأربعائة سنة ، وكثيراً ما كان يقول ، كأنه نبي : في الغرب يوجد القديس الحقيقي . وبعد ٦٥ عاماً من ولادة المسيح استحث الأباطور ميمتي حلم ، وفسر كلمة « الأستاذ » هذه ، ثم أرسل مبعوثين إلى الغرب وأمرهم أن يواصلوا رحلتهم حتى يقابلوا ذلك القديس . وفي ذلك الوقت كان القديس توما بينر بالدين المسيحي في الهند ، ولو أن أولئك المبعوثين أدوا رسالتهم ، بدلا من التوقف في أول جزيرة ، خشية خطر البحر ، فر بما أصبحت الصين فرعاً من الكنيسة الرومانية . . .

وبالمثل ، لو أن الجيزويت أفلحوا في مسعاهم لتحقيق التماثل بين الدينين ، فلعل أوروبا لم تكن لتشعر بصفة عدم التحول ، التي يتصف بها الشرق الأقصى ، الذي كان يجبرها على الالتفات إليه . وفي عام ١٦٩٧ بذل الجيزويت جهدهم الأخير : إذ نشروا مؤلفهم الكبير *Confucius, Sinarum Philosophus* ؛ مؤلف يهتم المذهب أكثر مما يهتم العلم ، ويخص تفسير الوقائع أكثر مما يخص الوقائع ؛ لأنه إنما كتب قبل كل شيء ، من أجل شباب الارساليات : صائدي الناس ، الذين يصبحون أقدر على اصطيد الأرواح في شبابهم ، بازدياد معرفتهم بأوجه الشبه الممكنة : جنود المسيح ، مزودين بالأسلحة المخصصة لمعاركهم الجديدة . بيد أن الجيزويت أخفقوا ، واتضح في عام ١٧٠٠ استحالة التوفيق بين المستحدثات التي نتجت من دراسة الشرق ، والتقاليد القديمة . فان معركة « المراسيم الصينية » أوضحت وبيّنت حالتين فكريتين ، وأوجبت الاختيار بينهما . وكانت معركة قديمة قدم الارساليات الأولى إلى الصين ، لأن المذاهب الأخرى المنافسة ، لم تكشف أبداً عن انتقاص تسامح الجيزويت وبيلهم إلى المصالحة . فلما رأت هذه المذاهب نجاح الآباء الجيزويت ، وتقريبهم بين المسيحيين والصينيين ، احتجوا احتجاجاً شديداً حتى إن الموضوع لم يرفع إلى السلطات

الدينية لمحبس ، بل اشترك فيه الجميع . ونحن نعلم أي شدة تثور بها المناقشات اللاهوتية إذا انتقلت إلى مثل ذلك الوسط . قالوا : لا تخطئوا ، فإن الجيزويت يخدمونكم ، فأهل الصين وثنيون . إنهم يعبدون أجدادهم ويعبدون كنفوشيوس . والجيزويت المقيمون في الصين يبيعون للمتنصرين أن يسجدوا أمام تمثال سنهوام ، وأن يحتفلوا بهنائزهم في مراسيم ملؤها الخرافات ، وهم يقدسون لزعيمهم كون - فو - زو القرايين ، ويخفي الجيزويت عنهم سر الصليب ، ولا يقومون بأداء « المسحة الأخيرة » للمرضى والأسوات ، ولا العادة أيضاً . ثم رفع أعضاء الإرساليات الأجنبية ما كتبه الأب لوكونت والأب لوجويان إلى مجامع روما والسريون ، متهمين إياهما بالهروق .

وكان القتال عنيفاً . فقد قررت روما إرسال مندوب إلى الصين لكي يقوم بتحقيق جديد ، أما السوربون فقد أدانت الجيزويت دون انتظار أوبة ذلك المبعوث . هنا اتضحت استحالة تحويل المجهول إلى معروف ، أي تحويل الدين الصيني إلى الكاثوليكية ، والصين إلى المسيحية . لم يكن بد من تقبل وجود كائن لا يتحول ، ولا يمكن إنكار غرابته أو عظيمته .

ولكن المتحررين من كل نوع كانوا معجبين بالصين كل الإعجاب :

Vossius apportait un traité de la Chine

Où cette nation paraît plus que divine. (١)

ذكر فوسسيوس أن الصينيين لا يحترفون بالنبل إلا لرجال الأدب ، ولا يحتفظون بذكرى إلا ذكرى أسرائهم العاديين المسالين ، وأن مستشاري الإمبراطور وأخصائه يؤخذون أميرهم بمثل الحرية التي كان الأنبياء يؤخذون بها ملوك اليهود : وإلا تعرضوا للوم الشعب وسخطه . يقال إن لاموت لوفاييه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من الصياح : أيها القديس كونفوشيوس ، ادع لنا ! *Sancti Confuci. ora pro nobis* وذلك قبل أن يطالع مؤلفات الفيلسوف الصيني . ولما ازدادت معرفة المتحررين به ، وشهدوا معركة المراسيم ، اتضح لهم أمران يبنان : أولهما أن المدنية الصينية كانت تستحق الإعجاب ، وثانيهما أن هذه المدنية كانت وثنية تماماً : فبالنسبة « للعقول القوية » يالها من ثروة للاستغلال !

(١) جاءنا فوسسيوس يبحث عن العيين يبدو فيه هذا الشعب شعباً إلهياً .

استغلال في السياسة :

« إن الصينيين قد حرصوا من الوحي ، إنهم ينسبون إلى قوة المادة كل صفة تنسبها إلى القوة الروحانية ، التي ينكرون احتمال وجودها . إنهم عريان ولعلمهم عنيدون .

ولكنهم عاشوا على ذلك منذ ٤٠٠٠ عام أو ٥٠٠٠ ، وهذا الجهل أو هذا العناد لم يحرم حالتهم من شيء من الفوائد الكبيرة التي يروجوها الرجل العاقل ، وينبغي أن ينالها ، من المجتمع : الرفاهية ، والكثرة ، وممارسة الفنون الضرورية ، والدراسة ، والهدوء ، والأمان (١) . »

واستغلال في الدين :

« إنه لعجيب أن يوجد بين مختلف الأديان ، دين واحد ، يقوم على أساس الواجب الطبيعي ، ودون استناد على الوحي ، ينكر المذاهب العجيبة وأشباح الخرافات والتهاويل ، التي يظنون أنها مفيدة جداً لسلوك الناس (٢) . »

إن أهل الصين كفرة ، ولكن كفرهم هذا ليس كفرًا سلبياً مثل كفر همج أمريكا ، بل هو كفر إيجابي اختياري : ومع ذلك فهم قوم ذوو حكمة وقضية وتقوى ، وعقيدتهم تشبه مذهب سينيوزا :

« بقدر ما أستطيع أن أحكم على شعور الأدباء الصينيين ، بما يزودنا به السياح ولا سيما الأب جويان من أخبار ، في كتابه : « تاريخ أمر امبراطور الصين في صالح الدين المسيحي » ، يخيل إلى أنهم جميعاً متفقون مع سينيوزا على أنه ليس في الكون جوهر غير المادة ، تلك المادة التي يميزها باسم الآلهة وستراتون باسم الطبيعة (٣) . »

(١) بولانفلييه ، « حياة محمد » ، ١٧٣٠ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ، Boulainvilliers .

La Vie de Mahomed, 1730

(٢) بولانفلييه « تفهيد أخطاء سينيوزا » ١٧٣١ ص ٣٠٣ .

(٣) كولنز Cullins « رسالة عن أبدية الروح » ١٧٠٩ ، الترجمة الفرنسية ، لندن

١٧٦٩ ص ٢٨٩ .

إن الفيلسوف الصيني يفتن أولئك الذين يتعجلون مجي* لظام جديد ، أكثر مما يفتنهم المهجى الطيب ، أو المصرى الحكيم ، أو العربى المسلم ، أو التركى الساخر ، أو الفارسى المتهكم .

إن سياح أوربا يوجه عام يدفعهم حسب استطلاع هادى* ، أما سياح أمريكا وأفريقيا وآسيا ، فهم أكثر حماسة ، لأنهم مدفوعون بروح المغامرة والطمع والايهان . والهايمون فى عالم الخيال ، يذهبون إلى حد الجنون . وأولئك عددهم كبير ، وإننا لنحتار فى الاختيار . أتتبع جاك مادير فى رحلته إلى أستراليا ، حيث أقام أكثر من ٣٠ عاماً ؟ أم نتبع الكايتن سيدن إلى « السيفارامب » ؟ أنتعرف جزيرة كالاجافا حيث كل السكان عقلاء ؟ أم جزيرة نودلى مشال دماللة الأخلاق ؟ أم مملكة كرينك كسمز العظيمة ؟ أنجد تسلية فى قصة مغامرات جاك ماميه ؟ ليست هذه الروايات الخيالية بمؤلفات فنية ، فإن أبطالها ثائرة سزعجون لا يخشون التطويل أو الاستطراد الثقيل . يمتلكهم الزهو بأنفسهم ، فلا يوفرون علينا عرض معلوماتهم ولا التحليل المفصل لفضائلهم . أولئك المؤلفون ، أغلبهم من التائهين أو المهاجرين ، يصفون لنا فى كتبهم المشاعر التى كانت سبباً فى مؤاخذه قومهم لهم ، والآخرون بورجوازيون ذوو مظهر هادى* ، يفضفضون أحلامهم المكبوتة . إن الصيغة لا تتغير : لجميعهم يبدأون بقصة مخطوط قديم ، وجد باحدى المعجزات : ولسنا ندري لأى سبب يفتن هذا الاختراع الخيالى كل الكتاب على الدوام ، حتى يكرروه ، الواحد بعد الآخر ، كأنه شئ* جديد دائماً ؟ — ويحكى هذا المخطوط عادة ، أسطورة بطل مغامر ، عرف أخطار المحيط ، ولما غرق مركبه نزل بأرض مجهولة ، يحسن أن تكون أرض أستراليا . وهنا يبتدى* الموضوع الهام : وصف طويل لأرض لا يعلم بها الجغرافيون ، فيجمعون الذكريات المستمدة من الخيال (١) ، ومن الرحلات البعيدة ، ثم يضيفون إليها بعض البيانات

(١) aux utopies من البلاد الخيالية ، utopie فى الأصل بلد خيالى اتخذه توماس مور عنواناً لأحد مؤلفاته ، وأصبحت الكلمة تطلق على كل مشروع مستحيل التحقيق . [المترجم]

من الثبات إلى الحركة

٣١

السخرية المضحكة : فمثلاً جاك مادير شخص مخنث ، فيوقعه حسن طالع في منطقة كلها خناث مثله ، يقتلون ذوى الجنس الواحد ، إذ يعدونهم مثل الوحوش . ولكن هذه الدعايات ليست إلا حواشى للموضوع . فالغرض الأساسى هو الانتقال إلى أرض خيالية ، والبحث من هناك فى الحالة الديلية والسياسية والاجتماعية لأوروبا ، وتبيان أن الدين المسيحى على العموم والمذهب الكاثولى على الخصوص همجى غير منطقى ، وأن الحكومة عامة والملكية خاصة نظام جائر مكروه ، وأن المجتمع ينبغى أن يتقلب رأساً على عقب ليتكون من جديد . وحين يتم هذا التبيان ، لا يكون على بطل الرحلة الخيالية إلا أن يعود إلى أوروبا ، لكي يلاقى الموت .

والشئ الذى يستلفت النظر فى هذه الروايات هو الرغبة الدائمة فى التدمير والتخريب . ما من عادة أو تقليد لا ينكرونه ، أو فكرة مألوفة لا يرفضونها ، أو سلطة لا يتعرضون لها . فهم يعملون على هدم كل مؤسسة ، ويعارضون بكل ما فى وسعهم . ويظهر شيوخ حكماء فى مواقف معينة ، ويصلون محل رجال الدين فيلقون مواعظ مدنية ، ويشيدون بالجمهوريات التى لا يتطرق إليها الفساد ، وبالحكومات المتسامحة ، وبالسلام الذى يكتسب بالافئاع ، وبالدين بلا قساوسة وكنائس ، وبالعامل الخفض الذى يبدو للعامل كسلافة . ويمجدون الحكمة التى تسود أراضهم الجديرة بالاعجاب ، حيث فقد الانسان معنى الخطيئة ويضعون تعاليم ضد تعاليم الدين . وعلى إثر ذلك نعود إلى المغامرة بوثة من وثبات الخيال أو بتعبير ماجن أو صورة خليعة ، تنعشنا وتستثير اهتمامنا ، أو هذا على الأقل ما يظنه المؤلف . ثم يعود إلى تبيان ما فى حياتنا اليومية من مشاق وسخافات وأحزان ، ويصف الأيام السعيدة التى يقضيها الناس هناك ، فى تلك البلاد التى ليس لها وجود .

والشئ الذى يستلفت النظر أيضاً ، هو انتصار الفكر الهندسى . انتظام فى كل شئ حسب الرقم والقياس : فكرة تلاحق المؤلفين جميعاً وتلازمهم حتى فى أحلامهم وجنونهم . هذا الميل إلى التسوية ينطبق على كل مظاهر الحياة ، حتى على اللغة التى لا يجوز أن تتضمن شيئاً تجريبياً ، بل ينبغى أن تكون متطقية تماماً . وهو ينطبق أيضاً على المساكن ، مساكن « الست حشرات » ، فى كل منطقة ستة عشر حياً ، وفى كل حى خمسة وعشرون بيتاً ، وفى كل بيت

أربع حجرات تحتوى كل منها على أربعة رجال : ذلك هو البلد التام الانتظام . وشوارع منتظمة وعمارات كبيرة مربعة ، مبنية كلها على رسم واحد : تلك هي المدينة الجيدة البناء . وحدائق مربعة تماماً حيث تفرس الأشجار في انتظام حسب فائدة الفاكهة ولذتها : ما أروعها من بستان ! لبالأرقام يستطيع المرء أن يثبت كل شيء ، حتى استحالة بعث الأجساد . فلنفترض بلداً فيه ٤١٦٠٠ قرية في كل قرية ٢٢ أسرة وفي كل أسرة ٩ أفراد . الحاصل : ٣٨,٢٣٠,٠٠٠ نفساً يمثلون ١٠,٤٠٠,٠٠٠ قدماً مكعباً من اللحم . وتجدد هذه الكتلة كل ٦ عاماً فتخيل ضخامتها بعد مرور ١٠ آلاف سنة : ستكون كتلة ضخمة تفوق حجم الأرض بشكل لا يقدر ولا يتصور ؛ وعلى ذلك فبعث الأجساد شيء محال . — إن الحيات شيء مزعج لما فيها من عدم استواء : لذلك فإن الاستراليين لم يترددوا ، فطروها وسووها .

وإذا انتشى الإنسان بتلك الأفكار ثم أفاق من حلمه ليجد نفسه أمام الواقع الملموس ، فلا بد أن يحز في نفسه الألم . أو هو على الأرجح يخضع ذلك الواقع الملموس ، طوعاً أو كرهاً ، لتحويل هندسى ، فيقول إن مجيئ المسيح يحير العقل ، إذن فهو ليس حقيقياً ، وإن العهد القديم ليس واضحاً ، إذن فهو ليس صحيحاً ، وإن الحكمة تقضى بالآ يقبل المرء شيئاً ما لم يكن مبنياً واضحاً . يقول تيسو دى باتو ، أحد الخياليين وأكثرهم بحثاً وتفكيراً ، وهو مؤلف « مغامرات جاك ماسيه Jacques Massé » ، ١٧١ : « أما وقد سرت منذ أمد طويل في طرق الهندسة الواسعة المضيئة ، فاني لم أعد أحتمل شعاب البدين الضيقة المعتمدة إلا بمسقة . . . إلى أرهد في كل شيء ، الوضوح والامكان (١) . »

إن هذه الكتب مؤلفات تتضمن قسماً وافراً من الحماسة ، فيها أفكار لجة غير مصقولة ، ولكنها قوية . ومشاعر لم يحسنوا التعبير عنها ، ولكنها مشاعر عظيمة . إنها لا تنبئ عن مجيئ مويقت وفولتير وروسو فحسب ، بل عن الروح الديمقراطية أيضاً ، عن روبسبير .

(١) تيسو دى باتو ، رسائل مختارة ، ١٧٢٧ ، رسالة ٦٧ ، Tyssot de Patot,

لم يكن المراد من السياحة البحث عن المناظر الرائعة ، أو التزه في مختلف الأجواء حتى يدرك المرء ما يطير على حساسيته من تغيرات ، بل المقارنة بين الأخلاق والمبادئ والفلسفات والأديان ؛ الوصول إلى معنى النسبية ، والمعارضة والشك . وكان بين أولئك الذين ساحوا خلال الدنيا ، أكثر من متحرر واحد . وقراءة روايات السياحة والأسفار تعني الهرب والفرار ، تعني الانتقال من ثبات الفكر إلى الحركة . كم من أفكار خجول كسول وانها الجرأة بفضل معرفة الصين أو مملكة المغول ! وبإزاء هذه المذاهب المتناقضة التي يزعم كل منها أنها يعبر عن اليقين الوحيد ، وبإزاء تلك المذنيات المختلفة التي تدعى كل منها تمثيل الكمال الوحيد ، كم تعلمت العقول الشك وعدم الايمان ! « إنهم عميان ، لا خبرة لهم ولا تجربة ، أولئك الذين يظنون أن أوروبا قارة تكفى نفسها بنفسها ، وليست في حاجة إلى جيران . . . لا ريب في أنها لو استطاعت الاتصال بالاستراليين ، لاختلقت كل الاختلاف عما هي عليه الآن (١) . »

ولكن أوروبا لم تتصل بالآستراليين ، بل آثرت الاتصال ببلاد الشرق ، من بين كل البلاد التي ألحت في هذا الاتصال . الشرق الذي — بالرغم من أن أوروبا شوهدت صورته — لم يزل بعد يحتفظ بقوة مبتكرة تكفى لكي يقدم للعالم حضارة غير مسيحية ، كتلة من البشر قد بنى بنفسها أخلاقها ، وحقيقتها ، وسعادتها .

لقد كان ذلك أحد الأسباب التي جعلت ضمير أوروبا يتعكر ويضطرب ، وبما أنه رام أن ينقلب رأساً على عقب ، فقد انقلب أى منقلب !

(١) جبريل دي فوايني « الأرض الأسترالية المعروفة ١٦٧٦ » الفصل الحادى عشر .

Gabriel de Foigny, *La Terre australe connue*, 1676, chap. XI.

الفصل الثاني

من القديم إلى الحديث

القديس ، القدماء الأعزاء ؛ يا لهم من مثل عجيبة ! كلما أرادوا الكتابة أنتجوا المؤلفات النبيلة . في ميدان الفلسفة قدموا للعالم مبادئ أخلاق ما كان على المسيحية إلا أن تكملها . وفي ميدان العمل عاشوا كأبطال ، لا أبطال أساطير مثل رولان وأماديس ، بل أبطال حقيقيين . فاذا أراد اسرؤ الكتابة أو التفكير أو الحياة فما عليه إلا أن ينسج على منوالهم .

وعلى حين غرة ، أو هذا ما يبدو على الأقل ، جاء الكفرة المهدفون : المحدثون الذين قوضوا مذاهب الآلهة القدامى . أنظر كيف اكتسب هذا اللفظ ، لفظ « حديث » ، قيمة ليس لها نظير : تعبير سحري يرد جيروت الماضي . وبعد ما كان الناس يبدون عصريتهم في خجل واستحياء ، أصبحوا بها مختالين ، اختيالا يستفز ويشير . لقد تخلوا عن حزب الأسوات العظام مستسلمين إلى متعة رخيصة ، متعة الاحساس بحياة فتية ولو كانت فانية ، مؤثرين الرهان على الحاضر بدلا من الماضي . محققين كما يعتقد تريفلان إحدى شخصيات ماريفو le Trivelin de Marivaux أنه لا فخر في أن يحمل اللسان على عاتقه أربعة آلاف عام ، فانه حمل لا يطاق . فلنأخذ اعتقاد باطل ما زلنا به متشبثين . « إن الجديد ، مع أنه زائل من أصله ، يبدو لنا ميزة لها من القيمة ما يجعل غيابها عنا يفسد المزاج الأخرى ، ووجودها يقوم مقام كل المزاج : فنحن مضطرون إلى أن نظهر دائما متقدمين في الفنون والأخلاق والسياسة والأفكار ، خشية الحكم علينا بالاجتباب والموان والمضايقة — ونحن مفسطرون على ألا نقدر إلا دهشة المفاجأة وتأثيرها السريع . . . (١) »

ما السبب في هذا الانتقال الجديد من الماضي إلى الحاضر ؟ ما السبب

(١) بول فاليري « نظرة إلى العالم الحاضر » ١٩٣١ ص ٩٦١ .

في أن شطراً من الفكر الأوربي قد تنكر للقديماء الذين آمن بهم عصر النهضة والعصر الكلاسيكي؟ إن النزاع الشهير ، النزاع بين القديماء والمحدثين الذي يفسرون به هذا التقلب ، ليس إلا علامة له ، فيلغى أن نبحث في علة وجوده . في أعماق الضمائر ، أضاع التاريخ من قيمته حتى أفلس ؛ بل إن نفس الشعور « بالتاريخية » كان يسير إلى الزوال . وإذا تولى الناس عن الماضي فلائنه تراءى لهم غير مؤكد ، غير محقق ، غير صحيح . لقد فقد الناس الثقة بمن يدعون معرفته ، فاما أن أولئك كانوا يخطئون ، وإما أنهم كانوا يكذبون . تحدث ما يماثل الانهيار الشديد ، وصار الناس لا يرون شيئاً مؤكداً إلا الحاضر ، فانتقل السراب من الماضي إلى المستقبل .

* * *

في أول الأمر اتضح أن كلام المؤرخين المحدثين ليس محل وثوق . وكان عددهم كبيراً : ميزيراي Mézeray ، الأب ميمبورج ، فاريلاس Varillas ، فيرتو Vertot ، سانت ريال Saint-Réal ، الأب دانييل ، الأب بوفيه Buffier الذي أجمل الملوك والملكات والحروب والمعاهدات والممالك والولايات والمدن في أشعار صغيرة يمكن حفظها عن ظهر قلب ، ولورانس إيشارد ، وإدوارد هايد ، والكونت دي كلارندون ، وآبل بوايه ، Abel Boyer وأشهرهم جلبرت بوزنيت ، Gilbert Burnet ، ثم أنطونيودي سوليس ، الذي أهدى إلى أسبانيا في عام ١٦٨٤ مؤلفه الرائع « تاريخ غزو المكسيك » . فضلاً عن عدد كبير من الآخرين الذين يتمنون أن تنتشلهم من مملكة النسيان ، ولكن العدل يقتضي أن نتركهم هناك . وهم وإن كانوا يختلفون كثيراً ، فقد كانوا يتفقون في نقط عديدة : فالتاريخ مدرسة للأخلاق ، إنه محكمة سامية ، هو ملهاة للأسماء الصالحين ، وسأسة للأسماء الطالحين . إنه يعلم دراسة الخلق لأنه « تحليل مغنوى للأفعال البشرية » . وهو على التخصيص عمل فني ، فكما يقول كورديموا « يحسن أن نخصص وقتنا لتنميق الإنشاء ، وترتيب الحوادث التاريخية ، بدلا من تجميعها . كما أنه يحسن أن نراعى حال الأسلوب وقوته ووضوح الكلام وإيجازه بدلا من أن نبدو صادقين فيما نكتب » . إن التاريخ دراماتيكي مؤثر ، يقتضي ترتيباً مجبرهاً فأخراً ، فالحروب والمؤامرات والشورات والانقسامات موضوعات جميلة لمادة زينة .

وهو خطابي ، يقترب من الشعر الذي هو وجه من وجوه البلاغة . وهو نبيل شريف ، فالجزالة مصدره الطبيعي . وهو ، لا جرم ، يتضمن خطباً ووصفاً وأمثالا وتحليلاً ومقابلة ، كالمقابلة بين شار لكان وفرلسوا الأول : « إن المشيئة الالهية لم تكنف بأن يولدا في وقت واحد وفي مملكة واحدة وفي قرابة وثيقة ، بل شاعت أن يستمدا تألفهما كل من الآخر . وذلك حقيقة لا سراء فيها ، حتى إنه لما انهزم فرلسوا الأول ، بقي الثاني بلا فضيلة ولم يرتكب . إلا أخطاء في إثر أخطاء . فلنبدا هذه المقارنة الشهيرة بما هو أكثر خفاء في تاريخ أبطالنا العظماء ، ولنكمله إذا استطعنا بالدقة التي يتحراها أرسطو وفلوطرخس أكبر العلماء في هذا النوع من الكتابة . . . (١) » .

وجملة القول في ذلك ، أن جميع المؤرخين في ذلك الوقت أرادوا أن يجذرو جذو « تيت ليف » وأن يكونوا أبلغ منه . ولا ريب في أنهم ارتضوا جميعاً ذلك الدستور الذي وضعه أحدهم وهو الأب لي موان : « إن التاريخ لرواية متصلة لأحداث حقيقية ، أحداث عامة عظيمة ، كتبت في حكمة وبلاغة وتقدير ، لتعليم الأفراد والأسراء ولصالح المجتمع المدني (٢) » .

ولقد كانوا يكتبون مقدمات جميلة ، يقولون فيها إن اهتمامهم إنما يتجه إلى العدل وعدم التفرض . إلا أنهم لا ينسون أيضاً أن من واجبهم الدفاع عن ملوكهم وبلادهم ودينهم ، ولذا فقد كانوا يمالئون طبقاً للظروف ، ولا يتحرون الحقيقة فقط بل يدافعون أيضاً عن آرائهم الشخصية . ففي الجدل بين الكاثوليك والبروتستانت ، تجد من كان يمدح لويس الرابع عشر ، ومن كان يمدح ولیم أمير أورنج . وهكذا لشيت منازعات لا نهاية لها ، أشهرها ما صحب كتاب جلبرت بيرنت « تاريخ إصلاح كنيسة إنجلترا » (١٦٧٩ - ١٧١٥) ، وكتابي الأب ماسبورج « تاريخ مذهب لوتر . ١٦٨٠ » ، « وتاريخ مذهب كالفين » ١٦٨٢ ، وكتاب فاريلاس « تاريخ ما وقع في أوروبا من ثورات دينية » ١٦٨٦ - ١٦٨٩ .

وما كان يعوقهم شيء ، فقد أخذ (سان ريال) يحول حياة دون كارلوس

(١) فاريلاس : تاريخ فرلسوا الأول ، ١٦٨٤ . Varillas, Histoire de François Ier., 1684.

(٢) الأب لي موان : في التاريخ ، ١٦٧٠ . Le P. Le Moyne , De l'Histoire. 1674.

ومؤامرة الاسبان ضد جمهورية البندقية إلى رواية : فإدام الروائيون يقتبسون موضوعهم من التاريخ فلماذا لا يجعل المؤرخون من التاريخ رواية وهي لا تقل عنه كثيراً من ناحية الخطأ ؟ — لما تقدم العمر بفاريلاس وكل بصره ، كان يمشي في كل يوم عدة ساعات دون أن يتحقق من شيء مما يمليه . وهو على كل حال لم ينتظر الشيخوخة حتى يخترع الحوادث . فقد نعى عليه أحد خصومه أنه روى — في سياق مختلفات أخرى — النهاية المؤثرة لحب فرنسوا الأول مع محظيته مدام دي شاتوبرياند : قطعاً لقول فاريلاس لمجد أن مسيو شاتوبرياند ، عقب عودته من بافي Pavie في عام ١٥٢٦ ، قد حبس زوجته الحائنة في غرفة مجاورة بالسواد . وأنه في سبيل لذة الانتقام ، كان لا يتورع عن أن يشاهدها خفية تتلوى ألماً وبأساً ، حتى قتلها ذات يوم بنقل دمها بواسطة الأطباء . إلا أن الواقع أن فرنسوا الأول وهب السيدة المذكورة في رحلته إلى بريتانى في ١٥٣٢ غلة ممتلكات عديدة . وقد تركت غلة أسوأها لزوجها بعد وفاتها عام ١٥٣٧ .

عندما كتب لورانس إشارد تاريخ المجترة منذ يوليو قصر ، قدر أن عصرًا راقياً كالعصر الذي يعيش فيه ، لا يصح أن يرجع إلى مؤلفات الكهنة غير المتقنة ، حتى إنه تمنع بتقليد ما أعجبه من مؤلفات القدماء والمحدثين ؛ معترفاً بذلك ، بما اعتاد الآخرون أن يفعلوه ، دون اعتراف . — وما ذكر لنا من نوادر ، لا يستبعد أن يكون صحيحاً : لما انتهى (فيرتو) من كتابة قصة حصار سالطة ، وأطلعوه على الوثائق ، أجاب بأن الوقت قد فات ، فقد انتهى الحصار . وذهب الأب دانيال إلى المكتبة الملكية ، حيث قضى ساعة بين المجلدات ، ثم أعلن أنه قد أصاب كفايته . فيأله من رجل سعيد ! ويقول هو نفسه إن ذكر المخطوطات شيء يشرف المؤلف ، وأنه اطلع على عدد كبير منها ، ولكن هذه المطالعة سببت له من العناء أكثر مما سببت من فائدة . وصدقناه بسهولة .

كيف تضمد عمارة على هذه الفخامة — وعلى هذا الضعف — لأقل صدسة ؟ لقد تطرق الشك منذ ذاك الوقت إلى ضائر أولئك المؤرخين . فانهم علماء في اللغات والآداب القديمة ، ولكنهم جاءوا متأخرين . وهم يدركون ذلك التأخر . بدأ وخز الضمير ينخسهم ، فحتى في نصرهم لا يشعرون براحة بال ، يتساءلون في قلق ، وهم يتظاهرون بالكبر أمام الجمهور : ترى أين الحقيقة ؟

. Quid est Veritas?

هل الحقيقة لا تعدو الاحتمال البسيط في الوقائع غير الثابتة ؟ « أهى ذلك المظهر المنطقي الذي تترأى فيه الأمور بعد قليل من التفكير ؟ » أهى موافقة نفسية ؟ أهى انسجام يتولد من تأليف مستقن ؟ أهى ابتداع فنى ؟ ما أصعب الوصول إليها ! ولعمري إلى أى حد يسمح للمرء في ذلك السبيل ؟ ولعل للمرء الحق في أن يبحث عند الغير وأن يدخل المكاتب وأن يكشف الستار الذي يخفى أمرار الأسرة للبحث عما يشفى حسب استطلاع الناس ؟ ما أكثر ما وصف كاتبان أو أكثر حصاراً واحداً ، أو معركة واحدة ، واختلفوا في التفسير ، فترى أى تفسير يختار ؟ وبأى معجزة تتخذ الأحداث لوناً روائياً ، بمجرد ما يتناولها قلم المؤلف ؟ هذه هى المسائل التى تحير المؤرخين . ولا ريب في أن المؤرخين مسطحون عاجزون عن البحث المستديم ، كثيرون الكلام في غير ما يفيد ، وفي نفس الوقت متعجلون ، وأنهم يارعون في تذليل المشاكل ، لا يعرفون كيف ينفذ المرء إلى المصادر ، ولا كيف يهتدى تحت الطبقات المترابكة إلى اللون الأميل ، وتقصهم روح النقد والتحليل ؛ ولكنهم يعجزون عن التخلص من بعض القلق الخفى ، الذى نلمس آثاره في كتاب « منهج لدراسة التاريخ » الذى نشره في عام ١٧١٣ (لنجليه ديفرنوا) : رجل ذو ذهن حر ولكنه مهوش . يقول : « حذار ، لا شئ أشق من تجنب الخطأ ، خذوا حذركم واتبعوا قواعد أكيدة ؛ لا تقبلوا كل شئ ، بل اخصوا ، ونقبوا ؛ وشكوا إذا لزم الشك ، أمام كل غريب وشاذ ؛ وابحثوا عن الأسباب التى قد توقع المؤرخ في الخطأ ، والتى قد تدفعه إلى خداعكم . انتقدوا ؛ وإلا أعطينا الحقيقة والكذب نفس السلطة . » ذلك هو موضع الخطر ، فلقد عبروا عنه بكلمة كثيراً ما تتردد على الألسنة ، بكلمة ، كرهوها ولكنهم عجزوا عن استبعادها ؛ فالى الشك Pyrrhonisme الذى أفرع باسمكال ، أضافوا كلمة « التاريخى » .

في عام ١٧٠٢ كلف العلامة الشهير يعقوب بيريزونبوس أستاذ التاريخ اللاتينى واليونانى في جامعة ليدين ، بتدريس تاريخ الأراضى الواطئة . فخطب خطبة افتتاحية كالعادة أمام حكام البلدة والطلبة وزملائه المدرسين ، واختار موضوع خطبته « الشك التاريخى » . فقال في كلمات لاتينية رائعة : إننا أصبحنا في زمن تغالى أهله في نقد كل شئ ؛ وإن التاريخ في أزمة مستعكمة ، إذ يصدق البعض بحماقة ما يفسده من قصص ، بينما ينكر الآخرون كل ما فيه . وإن هذه

الحالة الذهنية الأخيرة البراقة ، الجذابة ، قد سرت وتوطدت ، حتى أصبحت على جانب كبير من الخطورة . فلو أنها انتصرت لضاع كل شيء ولوقع الناس في ارتياب عالمي . لذلك أكد الخطيب احتمال وجود الوثوق التاريخي . واختتم خطبته بقوله : إلى الجحيم أيها الشك !

ولكن كان أساسه الكثير ، فهناك ثلاث فرق على الأقل تهاجم التاريخ : الديكارتيون الذين يعتقدون مثل زعيمهم أنه لا على الرجل الفاضل إذا لم يعرف اليونانية واللاتينية أكثر مما يعرف السويسرية ، ولا عليه إذا لم يعرف تاريخ الامبراطورية الجرمانية أو الرومانية أكثر مما يعرف تاريخ أية دولة صغيرة في أوروبا . وأتباع مالبرانش الذي قال إن المؤرخين لا يفكرون بل يسردون أفكار غيرهم ، وإن آدم كان يملك ناصية العلم في الفردوس ، فهل كان يعرف التاريخ ؟ كلا بالطبع . إذن فالعلم الكامل ليس هو التاريخ . أما مالبرانش ذاته فكان يكتفى بمعرفة ما عرفه آدم . . . بل يرى أن الحقيقة لا توجد إلا بالتفكير العميق ؛ فالحقيقة ليست تاريخية بل ميتافيزيقية . — أما أتباع جانسينيوس (١) ، الأخلاقيون المزمتمون ، فلم يكونوا مرتاحين إلى هذا

(١) مذهب جانسينيوس أو *Jansenisme* .

كتب جانسينيوس ، اللاهوتي الهولندي ، عام ١٦٤٠ مؤلفاً ضخماً بعنوان « أوجستينوس » حيث شرح مذهبه عن النعمة الإلهية والجبرية . وهذا المذهب يرى إلى : (١) تحديد حرية الاختيار البشري : لا يستطيع الإنسان شيئاً وحده ، بل كتب نصيبه منذ الأبد ، (٢) إنكار مفعولية النعمة الإلهية ، والاعتقاد بفساد الإنسان منذ سقوطه : فإن الإنسان بخلطة آدم قد فقد كل حق في النعمة ، وينعم الله على من يشاء .

هذا المذهب دافع عنه لاهوتيو « بورت رويال » Port Royal بزعماء سان سير وArnauld ، وأثار معركة كبيرة مع الجزويت ، موضوعها المسألة الأخلاقية اللسانية كلها : (١) إما أن الإنسان يفرق مختاراً بين الخير والشر ، ولا يتدخل الله إلا للحكم ، وإذن فلا وجود للجبرية وبالمثل للنعمة ، (٢) وإما أن الله يعطيه كل شيء ، الإرادة والعمل ، ويحيط علمه تعالى منذ الأبد بنتيجة كفاح الإنسان . وقد أخذ باسكال جانب الدفاع عن أتباع جانسينيوس ، ووجه من علماء بورت رويال ، كتب ضد الجزويت « رسائله القروية » *Lettres Provinciales* التي تعد من الوجهة الأدبية المثال الفذ للنثر الحديث .

كان من الطبيعي أن تستفز مسألة « النعمة » هذه فليسوف كفولتير ، الذي فندها في =

النوع من شهوة المعرفة. الأبدية « *L'éternelle libido sciendi* ». ولكن أعنف الخصوم كانوا المتحررين .

ذلك لأن التاريخ كان يبدو لهم بمثابة عدو شخصي ، فادعوا أنه موضع شك وبطلان ، وأنه وضع لأنه كله تملأ لأصحاب السلطان ، وأنهم ينسقونه كما لو كانوا ينسقون صحاف الطعام ، فيضعون نفس الطعام ، في عدد من الصحاف يعادل عدد البلاد الموجودة في الدنيا ؛ فإذا تحتم علينا أن نقرأه ، فليس لمعرفة الأحداث بل لكي نعرف كيف يفسرها كل رجل وكل حزب وكل شعب ؛ والخلاصة أن التاريخ كله لم يكن إلا شكاً مستتراً .

وكان الفرنسيون يمتازون بحماسة هجومهم ، ولكنهم لم يكونوا وحدهم ؛ ففي لينيز كان (منكن) J. B. Mencken يهاجم المؤرخين جاعلاً إياهم من طائفة الدجالين . دجالون ، لأن بعضهم يحشون رواياتهم بخطب مملوءة طويلة — تقليداً للمؤرخ الروماني المجيد تيت ليف — وينسبون أرق الحكم والأمثال إلى أغلظ الناس ؛ ولأن البعض الآخرين يملأون صحائفهم بزخرف قديم كأنما يحشون ألا يجدوا قراء ما لم يقدسوا لهم مناظر مشوقة بدیعة ؛ ولأن غيرهم يفترون سلاسل الأنساب ويزورون الوثائق ، تملأاً للعطاء الذين يدفعون لهم الأجر . أما الفرنسي فاريلاس فدجال مع الدجالين ؛ ولكن المؤرخين على العموم دجالون جميعاً ، ما داموا يعدون في مقدماتهم بأنهم سيقنسون للجمهور حقيقة لا تظهر للناس أبداً . . .

= قاموسه الفلسفي بأسلوبه الرائع ؛ لا شك في أن أول من تكلم عن النعمة هو مبروس . . . لكن بين الفلاسفة من لم يشارك هو مبروس في رأيه هذا ، زعموا أن العناية الإلهية العامة لا تتدخل مباشرة في أمور الأفراد الخاصة ؛ بل هي تحكم كل شيء بمقتضى قوانين شاملة . عند هؤلاء الفلاسفة أن العشب والبلوط ، والسوس والفيل ، والإنسان ، والعناصر والكواكب تطيع كلها قوانين ثابتة لا تتغير ، وضعها الله منذ الأزل . . . يصعب على أولئك الفلاسفة أن يأخذوا جانب الزاعمين بأن السيد المطلق على الناس يجب مالا لعبد ، ويمنع الغذاء عن الآخر . . . يقولون إنه إذا وجد ذئب في طريقه عذرة صغيرة لتعشى ، وإذا كان ذئب آخر يموت جوعاً ، فإن الله لم يعن قط بأن يمنح للذئب الأول نعمة خاصة . . . (مقتطف من القاموس الفلسفي *Dictionnaire Philosophique* ، باب الغفران ، وبيان رقم ٢٠) وأنظر أيضاً « باسكال » بقلم Stephen Valor الفصل ٢٩ ، وأفكار باسكال بقلم F. Strowalski . [المترجمان]

فوافق الحكماء على ذلك قائلين : هذا صحيح بلا نكران . فبعد كل ما كتبه المؤرخون عن فرنسا لم نجد تاريخاً واحداً لفرنسا يستحق التقدير ، ولا تاريخاً لاجلثرا ولا أى تاريخ كان . فالناس فيما سبق كانوا يصدقون بغير تفكير ، أما الآن فقد حلت ساعة الشك والارتياب . « ألا نكون على صواب إذا عددنا عصرنا هذا عصر الشك التاريخي ؟ » (١)

ولكن الشك فى التاريخ الرومانى أيضاً ، والظن فى أن المؤرخين القدماء لم يكونوا أقل من الآخرين محاباة وتمييزاً ، ولا أقل خفة وتطيراً ، ولا أقل دجلاً وتحايلاً — قد يكون أليماً موجهاً .

كان كل الأدباء على معرفة وثيقة برومولوس ومن سبقه ولحقه من الأبطال . فلقد درسوا تاريخهم فى المدارس وكتبوا بلغاتهم ، وحفظوا رسائلهم وخطبهم . وكان ذلك التاريخ الموقر مرتباً ترتيباً يستحق الإعجاب ، وكان مسروداً فى أسلوب فيه من النبيل والتوكيد ما يجعله بريئاً من كل احتمال للكذب أو التدجيل . كان قصة بطولة واقعية : فى ذات يوم — وعلى وجه التحقيق فى عام ٢٨٢٤ أى أربعائة سنة قبل إنشاء روما — حضر (إينى) إلى (اللايوم) مع الطرواديين الذين هربوا مذعورين من النار واللهيب التى حولت (إيليوم) إلى رماد ، بعد أن ضل فى البحار ثلاث سنوات . وكان لاثينوس يحكم هذه البلاد ، وقد أشفق هذا الأمير الكريم على بؤس إينى فأكرم وفادته وأراد أن يستبقه برابطة رقيقة قوية ، فزوجه بابنته (لاتينى) . وكان ثورنوس أسيراً غيوراً يحارب اللايوم ، فارتد وانهمز . وبوفاته أصبح اللايوم فى سلام . ونال إينى صولجان الملك الذى تركه لاثينوس حين وفاته كيراث يؤول إلى زوج ابنته (٢) . كل ذلك كان ينتظم كسرحية جميلة ، إن هؤلاء الرومان كانوا يباون حقيقيين ، بما يرتدون من خوذ ذات ريش وثياب قصيرة — كأولئك الذين يشاهدناهم الناس على المسرح .

(١) بوليان Paulian : « نقد الرسائل الرعوية لجورجيه » ، ١٦٨٩ ص ٧٨ .

(٢) لورنس إيشارد : التاريخ الرومانى ابتداء من تشييد مدينة روما ، ١٦٨٤ .

فيرثو : تاريخ الثورات التى حدثت فى حكم الجمهورية الرومانية ١٧١٩ .

D'après Laurence Bachard, *The Roman History from the building of the City... 1694*. Vertot, dans son *Histoire des Révolutions arrivées dans le gouvernement de la République romaine* (1791); s'il varie quelquefois sur les faits, ne parle pas autrement.

لكن لا . فقد كان على الأدباء أن يصححوا ، مع شديد الأسف ، الصورة الكاذبة لهؤلاء الأصحاء الأعزاء ، وربما كان عليهم أن يقنعوا أنفسهم أنهم لم يكونوا غير أشباح ؛ وسوف يبلج الصباح ، وينصرفون مع الظلام . إن صوتاً أعلن أنهم غير حقيقيين ، ولم يكن صوتاً باطلاً . بل لقد تجاسر فقال إن الناس هم الناس ، فهم مشغوفون بالباطل ، سريعو التصديق ، شديدو الحساسية فيما يتعلق بالأصول والأنساب ؛ فالناس اليوم ، كما كانوا من قبل ، كل يطالب لشعبه باللقاب الأقدسية الزائفة . لقد اخترع الرومان خرافات خيالية ارتضيناها وأحبيناها ؛ يقول سانت افريموند : « لم يكن ينقص الرومان هذا الزهو والخيلاء . إنهم لم يقنعوا بالقراءة مع فينوس عن طريق « إيني » قائد الطرواديين في أرض إيطاليا ، بل وطردوا حلفهم مع الآلهة بفضل الولادة الروائية لرومولوس ، الذي اعتقدوا أنه ابن الإله مارس ، واتخذوا منه إلهاً بعد مماته . ولم يكن في خلفه « نوما » صفة تؤهله للالهوهية ، ولكنه حظى بفضل قداسة حياته بعلاقة خاصة مع الربة إيجيريا . . . لم تكن للأقدار مهمة أخرى غير إنشاء روما إذا صدقنا أقوالهم . . . قال هذا الحيد سهرت العناية الإلهية على التوفيق بين مختلف مواهب ملوكها ومختلف حاجات شعبها . »

« لشدة ما أبغض الاعجاب القائم على الأفاصيص أو على خطأ في التقدير ! ففي تاريخ روما أحداث أخرى حقيقية تستحق الاعجاب ، حتى إنه ليس من صالح الرومانيين أن يقوم تكريمنا لهم على الروايات والأساطير (١) . »

هذا الصوت الواضح ، هذه الأفكار الجسور كانت تعكر صفو الإيمان الهادي . كيف نستطيع أن نميز بين الأحداث الحقيقية ، التي يريد منا سانت افريموند أن نعجب بها ، وغير الحقيقية ؟ وعلى وجه التخصيص كيف نستبعد فكرة مجموعة كاملة التنسيق ، ونستبدل بها فكرة التطور التي لا يكاد الناس يتصورونها إذذاك ؟ كيف نرد الماضي ولطيف به إلى أشوار الزمان ، بدعوى عجزنا عن تفهم حقيقته إلا هناك في طيات الظلام ؟

في ليدن أنكر يعقوب جرونوفوس وجود رومولوس . وفي أكسفورد أثار هنري دودويل حول وجوده الشكوك . منذ ألفين وخمسمائة عام والمؤرخون

(١) سانت افريموند : « تأملات في مختلف سمات الشعب الروماني » . . .

Saint-Evremond, *Reflexions sur les divers génies du peuple romain, dans les différents temps de la République.*

يروون أن الكاهنة سيلفيا أنصبت طفلين عقب حبها لمارس : رسولوس وريموس . وأن هذين الطفلين وضعا في الكايتول ورضعا من ذئبة : بيد أنها قصة ضعيفة لا تستحق عناء التكذيب . من المؤكد أنه لا يوجد تاريخ غير التاريخ المقدس ، لا يقوم في أصله على الأقاصيص والأساطير . إن تاريخ روما قبل رسولوس ليس أهلاً للتصديق ، ولعل قصة رسولوس أيضاً من قبيل الاختلاق . . . ذلك ما بدأت تلوكه ألسن الناس . ونرى فيها بعد ، كيف يستبعد الارتباب المطلق ، صحة القرون الأربعة الأولى لتاريخ روما .

أما التاريخ اليوناني فلا يستحق عناء الكلام : إنه يبدو أكثر خداعاً . هل تصدق أن الأثينيين ، أعلم الناس طراً ، لم يكن لديهم تاريخ منظم إلا في زمن متأخر جداً ، بمعنى أنهم لم يعرفوا أصلهم ولشأنهم مطلقاً ؟ لقد خلطوا كل شيء ، خلطوا السنين ودورات السنين ، ولم يعرفوا حتى تواريخ أعيادهم ، فإن أريستوفان يظهر الآلهة على المسرح ، شاكين من أن القمر لا يخبرهم في الوقت المناسب ، بمواعيد الأعياد العامة ، الأمر الذي يحرمهم من تلك المناسبات السعيدة ، فيعودون إلى السماء صاغبين . فكيف تصدق بعد ذلك المؤرخين اليونانيين ؟ لقد أخذ الناس يدركون أن الأمر لا يقتصر على أنهم لا يعرفون الحقيقة في التاريخ القديم لحسب ، بل إن الوسائل اللازمة للوصول إليها تعوزهم . كيف كان القدماء يقيسون الوقت ؟ كيف كانوا يعدون السنين ؟ أظن أنه لا بد من أن نعرف ذلك قبل أن نتكلم عن حقائق حياتهم : وإلا حكم علينا بأننا دائماً نخالف الدقة والصواب ، ولا نقول إلا هراء .

بدأت هذه المسائل الهامة تشغل أذهان الجامعات العلمية ، مثل الأكاديمية الملكية للتاريخ والآداب . وما من شك في أن أعضاء هذه المجالس لا تنقصهم المعرفة ولا قوة الإرادة ، إلا أنهم يفتقدون المنهج الأكيد . إنهم يفحصون ويستريمون ويظهرون حب استطلاع لا يعرف القناعة ، وأخيراً يكتسبون تلك الحكمة المؤسفة : معرفة المرء أنه لا يعرف شيئاً !

فليكن ، لنترك ما هو غير ديني ، ولا نثق إلا بالتاريخ الوحيد الموثوق به ، التاريخ الذي أملاه الله . هنا يصبح كل شيء سهلاً يسيراً . لقد انقضى منذ بدء

الخلقة حتى مجيء المسيح أربعة وأربعة آلاف عام ، أو قل أربعة آلاف عام ،
تفادياً للمناقشة والانتقاد . وفي عام ١٢٩ أخذت الأرض تغص بالناس ، وزاد
الاجرام . في عام ١٦٥٦ حدث الطوفان . في عام ١٧٥٧ بدأ تشييد برج بابل .
وفي عام ٢٠٨٣ بدأت دعوة ابراهيم . وأنزل القانون المكتوب على موسى بعد
دعوة ابراهيم بثلاثين وأربعمائة عام ، وبعد ٨٥٦ عاماً من الطوفان ، وفي نفس
السنة التي خرج فيها الشعب العبري من مصر . على ضوء هذه التواريخ الثابتة ،
يرى بوسويه ، حينما يكتب مؤلفه النبيل « مقال عن التاريخ العالمى » ، سلسلة
من العصور تنتظم وتحدد نفسها بنفسها على مر الزمان ، وهكذا يمتد — تحت
أروقة هائلة منسجمة — طريق النصر الذى يوصلنا إلى المسيح . كم كان يلذ
لناس أتباع ذلك الطريق ، حتى إن بعض النفوس الغريرة الساذجة ملأت
حياتها بتلك المطابقات التاريخية والذكريات ، مشيدة بالسنة ، بل بالشهر ،
بل باليوم الذى وقع فيه ذلك الحدث الشهير الذى يذكره التاريخ المقدس
أو ذاك . فكان المؤمنون يفتحون كتب الصلوات : ١٨ فبراير عام ٢٣٠٤
قبل ولادة السيد المسيح ، أطلق نوح يمامة خارج السفينة ؛ فى ١ مارس ،
ترامت إلى عيسى أخبار عن مرض « لعازر » (١) ؛ فى ٢١ مارس لعن عيسى
شجرة التين (٢) ، فى ٢ أغسطس عام ٩٣٠ ، مات آدم ، أول رجل (٣) . . .
جاء علم التاريخ يناقض تلك المعتقدات البسيطة ، ذلك الاطمئنان .

كان يبدو كنظام متواضع ، مفيد للتلاميذ ، لتعمير ذاكرتهم ولتعميم من
الوقوع في إبهام أحق مرذول : ولكنه خشن جاف ، جسم نحيل هزيل ، لا ترى
فيه إلا العظام والعروق . إلا أنه كلما ازداد إحساس الناس التهوش في جعبة
الذكريات القديمة ، كلما ازداد هذا العلم منزلة وأهمية ؛ وأصبح فناً ضرورياً بل

(١) « وكان إنسان مريض وهو لعازر من بيت عثيا من قرية مريم ومريثا أختها . . .
وأرسلت الأختان إليه قائلتين ياسيد هوذا الذى تحبه مريض » (العهد الجديد ، يوحنا ،
الاصحاح الحادى عشر ، ١) . [المترجمان]

(٢) « وفي الصبح إذ كان راجعاً إلى المدينة جامع . فنظر شجرة تين على الطريق وجاء
إليها فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط . فقال لها لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد . فبيست التينة
في الحال » العهد الجديد . متى ٢١ : ١٨ . [المترجمان]

(٣) هالرى بريموند Henri Brémont ، « التاريخ الأدبى للشعور الدهنى في فرنسا »
١٩٣٠ جزء ١ ، الفصل السادس .

علماً . لقد سموه علم « الأزمان والتواريخ » . « مثلاً تهى الملاحه للبحارة قواعد تقودهم في خضم البحر دون ضلال ، في الأسفار النائية ، فان علم التاريخ يهتدي لنا قواعد تضمن لنا سلامة الارتحال في غياهب الزمن القديم الواسعة المظلمة » حقاً ما أطولها رحلة ، على مر القرون الغابرة والأجناس الفانية ! وإذا كان هذا العلم لا يعنى قوانينه بالضبط فانه على الأقل يطبقها : فهو يقدر صحة النص أيا كان ، بالحساب والأرقام ، لا بما يستند إليه من نفوذ وسلطان ، لا يتم باللغة التي كتب بها النص ، فرلسية كانت أو لاتينية ، يونانية كانت أو عبرية ؛ لا يبالى مصدر النص وصفته ، بل ينتقل من اللاديني إلى المقدس بطبيعة كيانه التي إن هي إلا الحساب ؛ فهو لا يعرف إلا شيئاً واحداً ، هو أنه ينبغي أن يحسب بالتحقيق والتدقيق . إن الاختصاصيين ، مفتشى ومحققى الحسابات التاريخية يعملون في داخل مكاتبهم ، متكئين على كتبهم ، يفحصون ويقارنون ، عاكفين على أشغال مضنية « جاحدة » وإن كانت في الظاهر هادئة سالمة : فهم يبدون تسليتهم وهوايتهم في تسجيل التواريخ ، وحساب السنين . وهم يتنازعون فيما بينهم ؛ فإذا سمع الناس ضوضاءهم ، ضحكوا قائلين : أدعياء يتسلون . وعندما ينتهى أولئك العلماء من عملهم ، أو على الأصح عندما يصلون في بحثهم إلى شوط بعيد (لأنهم شرعوا فيه منذ زمن بعيد ، منذ النهضة ، ولن ينتهوا منه أبداً) سوف يعكرون صفو الضمائر أكثر مما يعكره العصاة والكفار ، إذ يؤمنون على أنه ليس في الماضي شئ أكيد . والحق أنهم ليسوا جميعاً غير مصدقين ، فالبعض يعملون للدفاع عن التواريخ التقليدية ضد المؤرخين المحدثين ، حتى إنه نشب بينهم جدال عنيف ، طال سنين . سترى ليبنتز ونيوتن يشتركان فيه . ولقد كان الحساب الجارى يمدو سهلاً يسيراً . عاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد له ولد على شبهه كصورته وسماه شيئاً . وكانت أيام آدم بعد ما ولد له شيث ثمانمائة سنة ؛ وولد له هنون وبنات . فكانت كل أيام آدم التي عاشها ثلاثين وتسعمائة سنة ثم مات . وعاش شيث خمسمائة سنة وولد له أنوش . وعاش شيث بعدما ولد أنوش سبعاً وثمانمائة سنة . . . (١) ومجموع هذه الأنسال

(١) نقلنا هذا الكلام حرفياً من العهد القديم « تكوين » الأصحاح الخامس ، ١ - ٥ .
[المترجمان]

المتابعة يقدر بأربعة آلاف عام ، هي المدة التي انقضت بين خلق العالم وولادة المسيح . ولكن ربما فقدت من هذه السلسلة حلقات ، ولعل ذلك التعداد لم يبلغ مرتبة الكمال ؛ ومن المحتمل أنه كان للعبريين طريقة خاصة في الحساب ، وإذا أراد علماء التاريخ ، لكي يخرجوا من الارتباك ، أن يستعملوا أصول القياس ، ويبحثوا عند الشعوب المتاخمة لليهود عن تواريخ وأرقام ، فيا للسماه ! ما أوسع هوة الاختلاف ! إن المشاكل تتكاثر وتتراكم ولا يصلون إلا إلى ظلام .

وإذا نفذنا مباشرة إلى جوهر الموضوع لمجد أمتين تنسفان حدود هذا التاريخ زاعمين أن تاريخهما لا يقف عند أربعة آلاف عام ، — فهي حقبة من الثقافة بمكان — بل يمتد بهما إلى عشرات بل مئات آلاف من الأعوام . إن المصريين الذين أوتوا رجاحة العقل وصحة التقدير ، والذين كانوا دائماً محل تقدير وموضع إعجاب ، يظهرون في مسألة التواريخ مبالغين إلى حد الجنون . ولا كانوا مصريين على قدسهم وعراقه أصلهم فقد اعتقدوا « أنه شيء جميل أن يتيهوا في هوة القرون اللانهائية التي تقرهم من الأزلية » إلا أن تكذيب أقوالهم كان مشكلة لأنهم يارعون في الحساب ولديهم تواريخ منظمة أتم نظام . ففي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان مائيتون الشهير كاهن هليوبولس ، قد كتب تاريخ مصر بأسر بطليموس فيلادلفوس ، حيث عدد مجموعة من الأسر الملكية يرجع أولها إلى ما قبل المدة المفروضة عادة للطوفان ، وتمتد دون انقطاع حتى في خلال الطوفان . وهناك تاريخ أقدم كتب قبل حكم بطليموس يذكر وجود ملوك مصريين « على مدى ٣٦٥٢٥ عام إلى ماكتانب الذي اغتصب منه العرش أوخوس ملك الفرس ، قبل الاسكندر الأكبر بتسعة عشر عاماً (١) » .

ويأثقل ادعى الصينيون - الفلكيون العلماء أصحاب التواريخ الدقيقة والتقاويم - الوجود منذ أمد طويل ، حتى إننا لو صدقنا أقوالهم لوجدنا هؤلاء السفهاء قد سبقوا الزمن الذي خلق الله فيه النور ! كان آدم يبدو مثل قادم متأخر ، بجانب أسراء الصين الأولين . « . . . يدعى يام — كوام — سيم أنه منذ بدء الخليقة حتى الامبراطور تينسكي الذي تولى الحكم في عام ١٦٢٠ ،

(١) الأب بول بيزرون Le P. Paul Pezron, *L'antiquité des temps rétablie*, 1687, chap. XV

قد انقضى زمن لا يقل عن تسعة عشر مليوناً وثلاثمائة وتسعة وسبعين ألفاً وستة وتسعين عاماً (١) .

كانت مسألة خطيرة للضائير ، مسألة عويصة تدرسها كل دوائر العلم في كل أنحاء أوروبا بغية إيجاد حل لها في عناء وأناة . وفي عام ١٦٧٢ ظن عالم انجليزي هو جون مارشام أنه قد وجد الحل : صحيح أنه كان للمصريين ثلاثون أسرة ملكية لو وضعناها على التوالي لزادت عن عمر الدنيا : غير أننا يجب ألا نضعها على التوالي لأنها ليست أسراً متتابعة بل أسراً تجمع بينها القرابة ، تحكم في آن واحد في نواح مختلفة لدولة واحدة . . . وفي عام ١٦٨٧ عرض الأب بول بيزرون حلاً آخر : إنه يعترف بأن أربعة آلاف عام لا تفسح مجالاً كافياً لتاريخ قدماء المصريين . ولكن هذه المدة هي التي يحددها التفسير العبري للعهد القديم . فلتتبع التفسير اليوناني المعروف باسم (السبعين) (٢) ، فإنه يتيح لنا قرابة خمسمائة وخمسة آلاف عام وهذه الخمسة عشر قرناً الاضافية تهيبُ فسحة ويسراً للأمر والتواريخ . لقد انتصر الأب بيزرون ، لكنه لم يتمتع طويلاً بنصره ، فان علماء التاريخ رأوا عدم كفاية هذه المدة الاضافية ، ومن جهة أخرى وجد رجال الكنيسة أنه إجترأ أن نفاضل بين التفسيرات المختلفة للكتاب المقدس لحساب المصريين والصينيين ، وأفهموا الأب بيزرون أنه ينزلق من علم التاريخ إلى هوة الالحاد . وتبادل الطرفان البحوث والمناقشات في لسان ينبوع الآداب . وأعلن الأب أستوريني في إيطاليا تخميناً أيده فيه الأب ثورمين عام ١٧٠٣ إذ قال : جرت العادة على أننا إذا ذكرنا تاريخاً ، وليكن عام ١٦٠٠ ، وأردنا أن نذكر بعده تاريخاً آخر قريباً ، فأننا لا نذكر الرقم كله بل نقول : في عام ١٦٠٠ حدث كذا وفي عام ٦١٠ حدث كيت . . . ولعل الأسر قد جرى عند اليهود على ذلك المنوال ، ولما كنا لا ندرك عاداتهم ، ولأننا نعتمد على حرفية عباراتهم ، فقد اختصرنا هكذا من التاريخ بضعة آلاف من السنين . . . ولكن كيف ثبتت

(١) الأب جرسون : « تاريخ الصين تحت حكم التتار » ١٦٧١ القسم الأول الفصل ١٩

ص ٤٢ . Lo P. Gresson .

(٢) Septante تفسير يوناني للعهد القديم . أودم وأشهر تفسير قام به ٧٢ يهوديا من مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس في ٢٨٢ ق.م. [الترجمان]

أن هذه العادة « الإيطالية المصدر » في التعداد والحساب كانت مستعملة لدى العبريين ؟ على كل حال هذا الحل لا يؤدي إلا إلى استبدال التباس بالتباس . . . وقد تولد عن هذا الارتباك ارتباك آخر لا يقل عنه قسوة . فلنصنع إلى بوسويه : « لما خلص الله شعبه من ظلم المصريين وقاده إلى الأرض التي أرادهم ليعبدوه فيها ، عرض عليهم قبل أن يثبت أقدامهم هناك ، الشريعة التي ينبغي عليهم أن يتبعوها . فكتب بيده تعالى على لوحين أعطاهما لموسى على قمة جبل سيناء أساس هذه الشريعة ، أعني الوصايا العشر التي تتضمن المبادئ الأولى للدين والمجتمع الإنساني . وأملى على موسى قواعد أخرى . . . »

ولكن فكرة ساورت بعض الأذهان : فإذا كان المصريون يمثلون العراقة الأصيلة والحكمة العميقة ، وإذا كان العبريون قد عاشوا زمناً طويلاً تحت حكم المصريين ، فانه من المنطق بل من الضرورة أن هناك مدينة مزدهرة كبيرة قد أثرت في مدينة بسيطة صغيرة ، إذن فالمصريون قد أثروا في العبريين . تلك هي النظرية التي دافع عنها أولا جون مارشام ، ثم جون سبنسر رئيس المجلس المسيحي بكامبريدج عام ١٦٨٥ . وينسب كلاهما للمصريين الذين يعجب بهم تأثيراً قاطعاً على القانون والنظم والعادات الدينية : فالختان والعادة والمعابد والرهبنة والقربان والراسم الدينية ، كلها مأخوذة عن المصريين ، وحينما صنع موسى ، لا تقاذ شعبه من الحيات ، حية من نحاس (١) تشفى كل من نظر إليها ، فما كان ذلك معجزة بل كان نقلا عن سحر مصرى قديم . إذن لقد ورث الشعب المختار معتقداته الأساسية من شعب وثني . إذن لم يعمل الله وصايا على أخذ على جبل سيناء ، إذن لم يفعل موسى إلا أن نقل عن أساتذته المصريين .

أراد الأب الطيب هويه أسقف أفرانش ، ذلك المشغوف بالعلم ، الذي يروي عنه أنه ملأ منزله بالكتب حتى انهدم على رأسه ذات يوم — أراد بين مطالعته الطويلة أن يصل إلى قصد صالح : أن يرد لموسى مكانه الحق ، مكان الصدارة . لقد أخذ على عاتقه تبيان أن ديانة الوثنيين تصدر عن أفعال موسى

(١) فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر إليها يموت . فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على راية فكان متى لدغت حية الساننا ونظر إلى حية النحاس يموت .

(العهد القديم ، عدد ، الاصحاح الحادى والعشرون ، ٩) . [الترجمان]

وعن كتب موسى ؛ وأن آلهة الفينيقيين والفرس والمصريين ، والجرمان والرومان والغال والبريتان ، مصدرها كلها موسى ، وأنها ليست غير تحويرات أخذت عن موسى . ذلك هو ما ذكره في كتابه *Demonstratio Evangelica* في عام ١٦٧٢ وفي كتابه . . . *Quaestiones alnetanae de concordia rationis et fidei* . « مسائل تخص الاتصال بين العقل والدين » في عام ١٦٩٠ : إلا أنه لم يدر بخلفه أن الحجة يمكن أن تنقلب ضده من أيسر طريق : إذا كان هناك أوجه شبه بين العقيدتين الموسوية والوثنية ، فهل موسى هو الذي أوحى بها إلى الشعوب الأخرى ، أم أن الشعوب الأقدم قد أورت موسى عاداتها ؟ يا للآب هويه من « مسكين ! » فما هو ذا يحير نجاح كتابه إلى زمرة الملحدين ! يقول لويس راسين في رفق « لم يوافق أبي على ما كان يريد هذا العالم من استخدام علمه اللاديني الواسع في صالح الدين » . أما ألتوان أرنو فيقول في قسوة « إنه لمن الصعوبة بمكان أن يؤلف الانسان كتاباً أحفل بالاحاد من ذلك الكتاب ، كتاباً يستطيع أن يقنع شباب المتحررين بأنه لا غنى عن الدين وأن الأديان كلها صالحة وأنه حتى الوثنية يمكن أن تكون موضع مقارنة بالمسيحية » .

وبعد ، فهذا ما آلت إليه خير النوايا البشرية ، أخذ الناس ينتحلون من مشكلة ليقعوا في مشكلة ، ومن ارتياب ليقعوا في ارتياب . وقد كان ذلك الوقت فصلاً أليماً من التنازع الذي وضع العلم في مواجهة الايمان ؛ تنازع امتد من جيل إلى جيل واتخذ في كل منها لوناً خاصاً . فلنصنع إلى الأب رينودو الذي ناقش عام ١٧٠٢ كتاب جون مارشام أمام مجمع التاريخ فهو يقدره تقديراً لا يغلو من قلق : « إنه مؤلف كامل من حيث النظام والنهج والوضوح والايجاز وسعة العلم . غير أنه يصعب أن نفتقر للمؤلف أنه ، بدافع من ميله إلى المصريين أو لسبب آخر ، قد أضعف كل ما من شأنه أن يعزز قدم الكتاب المقدس وجلاله ، حتى إنه قد هيا للعقول المتحررة من أسباب الارتياب أكثر مما هيا لكثيرون من هاجموا الدين هجوماً صريحاً » .

وتبطلت الأفكار . صحيح أن الناس كانوا يستطيعون أن يلوذوا بالحصن يدفعون أسباب علماء التاريخ ، قائلين إن أولئك الكلدانيين والبابليين الذين يطالبون بعشرات الآلاف من السنين لارضاء مطامعهم لم يكونوا إلا كاذبين . وقال القديس أوغسطين آخر كلمة في الموضوع : إذا ذكر المؤرخون

أزمة الضمير الأوربي

••

اللا دينيون ما يناقض التاريخ المسجل في العهد القديم ، فلنعدمهم مخطئين . ولكن أولئك المحاهدين لا يكادون يعرضون أنفسهم خارج الحصن حتى يلاقوا في طريقهم أخطر المغامرات لعجز وسائل دفاعهم أمام أسلحة ماضية لم يكن الأبولوجيون (١) قد أثلموها بعد . إن أرقاماً تدير الرؤوس ما فتئت تحتل الأذهان : ثلاثة وعشرون ألف ، أربعون ألف ، مائة ألف ، سبعون ومائة ألف عام ! أكان ينبغي أن يجذوا حذو الأب أنطونيو فورستي الذي اختار تواريخ بذاتها لا لأنها حقيقية بل لأن فيها راحة وسراً ؟ لقد وجد نظريتين متطرفتين تزعم إحداهما أن الخليقة بدأت منذ ٦٩٨٤ عاماً وتزعم الأخرى أنها بدأت منذ ٣٧٤٤ عاماً وعدد بينهما سبعين رأياً : وهو لا يستطيع أن يقبلها كلها ، وهو لا يستطيع أن يحصها بأجمعها : لكن ينبغي أن يتخذ قراره من أجل أسباب عملية لا صلة لها بالعلم . . . ولأجل هذه الأسباب بعينها فاضل فورستي بين المؤلفين : ولكن المؤلفين جميعهم متناقضون ، ترى أيهم الخطي وأيهم المصيب ؟ لا يمكن تفضيل واحد دون استبعاد الآخرين ومع ذلك فلا مندوحة عن البت في الأمر .

وإذا نحن لم نأخذ حذو فورستي فليس أمامنا إلا أن نتبع حكمة بريزيولس الذي كان قد خطب في ليدن أمام الطلبة يدفع الارتياح المغير . وبعد مر تسعة أعوام من خطبته الافتتاحية قال كلمته في معركة علم التاريخ وبحكمته التي أضاف إليها شيئاً من الاستدراك . قال : إن هدم البراهين السالفة شيء سهل يسير ، أما البناء من جديد فذلك هو الصعب العسير ، فنحن لا نستطيع استخلاص شيء أكيد حتى لدى المصريين : فأقصى ما نستطيع عمله هو التوفيق بين أحداث الشعوب القديمة المختلفة حتى تتجانس . هكذا كان بريزيولس يهتد لينقذ ما يمكن إنقاذه من حطام كبير .

ما مصير حقائق الماضي إذا ؟ تلك النظريات البسيطة العظيمة ؟ تلك التوكيدات الهادئة ؟ ذلك الاعتقاد بالتواريخ الثابتة التي لا تتزعزع ؟ كيف يستطيع المرء أن يتعرف إرادة المشيئة الإلهية فيما لا يبدو إلا مبهما مهوشاً ؟ وكيف نعرف بقيمة الوقائع في ميدان المعرفة بينما الوقائع تبدو كأنها تفلت

(١) Apologétique : علم الدفاع عن صحة الدين المسيحي . [الترجمان]

من قبضتنا ؟ كان المحدثون يطلون دفعة واحدة التاريخ والعناية الالهية والمراجع .

لقد أصبح الموضوع شديد الاقلاق . ماذا ؟ أكلما ازداد البحث كلما قل التحصيل ؟ كان الزمن غارقاً في ضباب ولم تكن الجهود التي تبذل ابتغاء انقشاعه تزيد إلا كشافه . يقول بول ييزرون (١) « إن الزمن الذي يتلف كل شيء ، ويبدو كأنه يروم تغليف كل شيء بالنسيان الأبدى ، قد حرم الانسان أو كاد ، من معرفة تاريخه وقدمه . ذلك صحيح ، حتى إنه يعد كل ما بذل من عناية لمعرفة مدهاء وكم قرناً مضى منذ بدء الخليقة حتى مجيء المسيح لم نصل إلى الحقيقة أبداً ، بل بعدنا عنها كثيراً . . . »

إلا أنه بالرغم من ذلك كانت هناك طريقة أخرى للتأريخ : العلم الواسع الغزير . كان جمهرة من العلماء يشتغلون ، جادين في عمل مضن غير مشر ، في نشر النصوص وكشف الوثائق وحل رموز الحجارة « وحك » المسكوكات . جمهرة صغيرة تعمل في غيرة وإقدام . قرية من النمل لها عمالها ومخاربوها . عمال مجيدون يعشقون العمل المضني ، ويبحثون عن الخفائض الأكيدة كبيرة كانت أو صغيرة . وينقبون عن مواد قوية تبقى إلى الأبد ، بغير تفسير سطحي سريع ، ولا حكم باطل مبتسر ، ولا افتتان أو تحوير .

أولئك كانوا : فرالشيسكو بيانكىنى الذى بحث في الآثار القديمة عن معارف وثيقة لم يجدها في النصوص ، ورينشارد بنتلى أستاذ جامعة ترينتى وأمين المكتبة الملكية وأستاذ العلوم الكلاسيكية والذى وهب ذهنًا قويًا ليس له نظير ، ويوفندورف الذى كان يعرف بمقام المعرفة قيمة جعبة الأوراق القديمة ، وليبنتر . وكان ليبنتر ينعزل في المكاتب ، حيث يبحث عن مخطوطات قديمة ينقلها بخط يده ، وعن أوامر ملكية وتقارير دبلوماسية . وكان يرى أن قانون العلاقات الدولية يجب أن يستند على العقود الرسمية وإعلانات الحرب ، وعقود الصلح وغير ذلك من الوثائق ، لا على الكلمات فحسب . وعندما كان أميناً لمكتبة الدوق دى برانسويك ، شرع في تأليف تاريخ الأسرة الملكية الحاكمة ، وبعد

(١) في كتابه *L'antiquité des temps rétablie* ، ١٦٨٧ ، ص ٨ .

مدة طويلة نشر كتاباً ضخماً ، أتبعه بكتب أخرى ، وقد حشدها بالمستندات الصحيحة المصادر ، وإن لم تعجب ذوق الناس في ذلك الحين . ولم يخف على الذين يتعجبون لعمله هذا ، أنه عمل عملاً أفيده كثير من البيانات الطويلة البليغة . وقد أضاء بنور جديد ، قروناً كان يكتنفها ظلام مخيف . وأزال عدديداً من الشكوك وأصلح كثيراً من الأخطاء .

أنظر كيف يعملون في كل البلاد ! ها هو ذا هنري ميوم يعنى بالقائه النور على الآثار الجرمانية القديمة . وتوماس جيل وتوماس ريمر يهتان بالوثائق الإنجليزية . ونيكولا أنطونيو يعنى بمصادر التاريخ الأدبي الإسباني . أنظر كيف يعملون في المعامل العلمية الواسعة التي أنشأها اليسوعيون ! وكيف يعمل البندكتيون (١) الرهبان الذين يشتهرون بالصبر والدأب المتواصل حتى عاب عليهم رائسيه أنهم يخصصون للعلوم وقتاً ومجبة كان ينبغي أن يخصصوها لله ! فرد مايلون على هذا التحرش وهذا نشب نزاع طويل ونحيل ، كان محوره الخير الأسمى .

ومن جهة أخرى يعمل بعض « البندكتيين » المدليين ، منهم إيتان بالوز وشارل دي كانج — الذين ظفر العلم بفضلهم بجانب من أروع انتصاراته . فلنذكر أنه في عام ١٦٧٨ نشر دي كانج Du Cange قاموسه اللاتيني *Glossarium mediae et infimae latinitatis* ، وفي عام ١٦٨١ نشر (مايلون) Mabillon كتابه عن السياسة *De re diplomatica libri V* ، وفي عام ١٧٠٨ نشر (سولفيكون) كتابه *Palaographica graeca* . ولكن إذا كان علينا أن نذكر مثلاً فريداً هؤلاء العلماء فلعلنا نختار (أنطونيو موراتوري) Antonio Muratori الذي كرّس حياته لانقاذ وثائق الانسانية من النسيان . كان يقبر نفسه طوال النهار بمكتبته التي لا يغادرها أبداً إلا للقيام ببعض علمي في السجلات الإيطالية ، وكتب مجلدات ضخمة جعل منها أكادماً مقدسة خلال ما ينيف على نصف قرن .

(١) Bénédictins : شعبة القديس بنوادي نورسي (٥٢٩) . رهبان يمتازون بالعلم والاجتهاد والتواضع ، وقد قاموا بخدمات كبيرة للعلم والأدب وعلى الأخص في القرون الوسطى . وهم الذين نقلوا روائع الأدب اليوناني والروماني فكانت الانسانية مدينة لهم بهذا الفضل وصار اسم بندكتان علماً على سعة العلم والاجتهاد . [المترجمان]

إن مؤلفاته الأدبية والفلسفية والجدلية التي تكفى لتجديد أى مؤلف آخر ، لم تكن إلا ما كتب في أوقات فراغه ، فبوساطتها كان يرتاح من عمل مضمّن قام به في عناد : جمع كل ما يمكن من وثائق عن إيطاليا وعلى الأخص عن القرون الوسطى التي يجهل الناس كل شئ عنها ، ثم ابتعث عشرة قرون .

لعل اجتراحا كانت تؤثر الاهتمام بدراسة العلوم اليونانية ، أما هولاندا فتعنى بالعلوم اللاتينية ، بينما تفضل فرنسا تاريخ الكنيسة والعلوم الدينية ، وتهتم إيطاليا بتاريخها وماضيها . ولم يكن يفصل الجميع حاجز أوجدار بل كانوا يشتغلون في كل البلاد . وحينما تتكون آخر الأمر ثروة علمية وافرة ، ويمتد البحث عن آثار المذنبات الزائلة حتى أعماق الأرض ، بفضل علوم جديدة كعلم المسكوكات القديمة ، ويصالح العقول درس الصبر والتواضع ، وليد هذه الجهود ؛ حينئذ سيهزم الشك التارخي ويهدم .

ولكن متى ينجز هذا العمل ؟ ترى كم من سنين بل كم من قرون لا زالت تلزم لكي يعرف الانسان بغير تخمين ، ولكي يؤكد بدون كذب أو تزيف ؟ إنه لجلبة لليأس والقنوط ألا يجد المرء إلا بضعة أحجار من هذه النيفساء الهائلة ، والتي لا يكاد الباحثون يبدأون في جمعها حتى ينتقلوا إلى عالم الأموات ؛ إذ يقهرهم ماضٍ لا يغلب ، ويدفهم بدورهم . ولو افترضنا أنهم أفلحوا في هذا البحث الاعجازي ، فإن الناس لا يتقبلون ما يبتعثه لهم الباحثون من عناصر الحياة التي ينبغى عليهم أن يستعملوها ليردوا نلأشياء الزائلة أشكالها وألوانها . ومرد ذلك في الواقع إلى أن العلماء والمؤرخين في ذلك الوقت كانوا يعملون جنباً إلى جنب دون أن يعرف بعضهم بعضاً وكانت مناهجهم تختلف اختلافاً بيناً ؛ ولقد ظهر جيل جديد يصبو إلى الراحة ويميل إلى التطير وإلى عدم التعقيد ، ولا يحب إلا السهل اليسير ، فمن جهة نجد « عمالا » لا يهتمون بالأسلوب ، يملئون هوامش مؤلفاتهم بالبيانات والأسانيد ، ويثقلون ويثقلون في غير وضوح ، مسلمين أنفسهم باختيارهم إلى أعمال مضنية لا ثمرة فيها ولا طائل وراءها . ومن جهة أخرى نجد المؤرخين ، العباقرة العظماء بأنفون النزول من عليائهم إلى تلك التوافه البسيطة . ويتركون الأبحاث التفصيلية للعقول المتوسطة ، متجنبيين المناقشات التي قد تخدم الشعلة التي تذكى عقولهم ؛ فكان العبيد يجمعون المواد التي يحرقها نبلاء الأدب العظيم .

وبعد ، فما هو التاريخ ؟ هو أولا مجموعة من القصص حين تسرد أصول الشعوب ، وهو ثانياً كتلة من الأخطاء . وإنك لتلاحظ لدى فونتنل Fontenelle الذى يعد مثال الارتياب ، شيئاً من الحزن وبعضاً من اليأس إذ يقول :
« ما أبطأ وصول الناس إلى شئٍ معقول ، مهما كان بسيطاً ! إن الاحتفاظ بذكرى الوقائع كما كانت في الأصل ليس آية من الآيات ، وبالرغم من ذلك فسوف تمر قرون عديدة قبل أن نكون أهلاً لذلك ، وحتى هذا الحين ، فلن تكون الوقائع التى نتذكرها إلا أوهاماً وخرافات . »

« لقد عودونا في طفولتنا على الأساطير اليونانية ، حتى إذا وصلنا إلى سن العقل والتفكير لا نجد لها من الغرابة كما هى في الواقع . ولكن إذا نظرنا بعين غير عين العادة ، فلن يسعنا إلا أن ندهش لرؤية كل هذا التاريخ اليونانى القديم ، الذى لا يعدو أن يكون كتلة من خيال وأحلام وخرافات . كيف كان ممكناً أن يقدموا لنا كل ذلك كشئٍ حقيقى ؟ وترى لئى قصد كانوا يخدعوننا ؟ وفيما كان حب الناس لأشياء ظاهرة البهتان ، واضحة الخرافة والبطلان ؟ ولماذا لا تستطيع البقاء والاستمرار ؟ »

وقد تلا هذا المنهج في كتابة التاريخ ، منهج آخر ، هو الذى ساد في الشعوب المتعدنة المهدبة : البحث في علل الأفعال وفي الأخلاق : ولا يقل هذا المنهج خطأ عن الأول . لأنه ، لا ريب في أن الانسان غيور مندفع ، سريع التصديق ، ناقص المعرفة أو عديم الاكتراث ؛ « يجب أن نجد رجلاً قد شاهد كل شئٍ خالياً من كل غرض ، متوفراً على البحث » . وهذا محال . فالغالب أن يرتب المؤرخ نظرية وضع أسسها ومبادئها من قبل ، تتكون من وحدة محكمة الاتصال ، كما يفعل الميتافيزيقيون ؛ فلهذه بعض الوقائع التى يتخيل أسبابها ؛ فعمله غير مؤكد ، لا يقين فيه ، ولا يقدم ضماناً أكثر مما تقدمه أى نظرية فلسفية . إذاً فقد يكون التاريخ الوحيد المفيد حسبنا الأخطاء وتعدد أهواء الانسانية :
« إننا مجانين ولو أننا لا نشبه تماماً نزلاء المستشفيات العقلية . فان أحداً منهم لا يهتم بمعرفة جنون جاره ، ولا يعنيه من سكن غرفته من قبل ، ولكن يهمننا نحن جداً أن نعرف ذلك . لأن عقل الانسان يقل احتمال وقوعه في الخطأ متى عرف حدود خطئه ويكم طريقة يمكنه أن يخطئ ، ولن يستطيع أبداً أن يدر من تاريخ أخطاء الانسان دراسة كافية . »

ذلك كل ما يستطيع التاريخ أن يؤدي إليه ، على حسب قول هذا الرجل الحديث ، بطل المحدثين في « المعركة الكبرى » (١) . فليتم الحاضر بالحاضر ! إننا نقضى سنين عديدة في المدارس لنلقن شبابنا ما يقوله مؤرخو روما : كم كان أفضل أن يدرسوا الوقت الذي سيعيشون فيه ! فنحن لسنا ندرك آخر الأمر أى ضوه يمكن أن نكتسبه من مؤلفات كورنيليوس نيبوس C. Nepos أو كنت كورس Quinte-Curce أو تيت - ليف Tite-Live ، لتستنير به في الوقت الحاضر ؛ حتى لو فرضنا جدلاً أن نحفظ عن ظهر قلب كل ما تتضمنه تلك الكتب ، حتى لو قمنا بعمل جدول دقيق لكل ما فيها من تعابير وأحكام وأمثال . لا جدوى من أن نعرف بالضبط عدد البقر والأغنام التي تقلها الرومان معهم عندما انتصروا على الأكيكولنس Equi culans والهرنيسان Herniciens والفلوك Volsques (٢) . إنه الحاضر ، إنها الحياة ، إنه المستقبل ينادي ويستمرى ويسحر Ratis vicit, vetustas cessit .

(١) المعركة بين القدماء والمحدثين : خلاف مشهور وقع بين أدياء القرن السابع عشر ، موضوعه تفوق الأدياء المحدثين على القدماء ، في الأنواع الأدبية الكبيرة ، اشترك فيه جوالون وراسين ولابروير في جانب القدماء بينما كان شارل بيرو وفونتنل يدافعان عن المحدثين . [الترجمان]

(٢) S. Von Pufendorf, *Einleitung zu der Historie der vornehmsten Reiche und Staaten ... in Europa*, 1682. Préface وأنظمة الحكم الأخرى في الدول الأوروبية .

أنظر أيضاً مالهانش ، « البحث عن الحقيقة » ، ١٧٧٤ Malebranche, *De la Recherche de la vérité*, 1674 الكتاب الثاني ، الفصل الرابع والخامس والسادس .

الفصل الثالث

من الجنوب إلى الشمال

كانت أوربا تبدو كأنها قد اكتملت : فلكل شعب من شعوبها صفات معروفة ، معينة ، فلا يكاد المرء يلفظ اسم شعب ، حتى تنبثق مجموعة من الأوصاف تخصه وحده ، كقولنا إن الثلج أبيض وإن الشمس محرقة . السويديون ؟ — إنهم مخلصون عقلاء أسياء ، بسطاء الأخلاق أصفياء القلوب ، وهم شجعان ذوو عزم وإرادة ، لا يكاد العدو يهاجمهم حتى يبادروا إلى رد هجومه ، يتميزون بالثبات والبسالة والصدق وروعة القوام ، يصلحون للجندية حتى إن عدداً كبيراً منهم يخدم في أرض فرنسا ، ولكنهم يتطلبون جزالة الأجور : فلا جنود إذا غابت النقود . — الألمان ؟ إنهم مولعون بالحرب ، وهم جنود أقدام متى عرفوا النظام ، يميلون إلى التجارة ويهيئون كل أنواع الصناعة . لا يستهويهم العصيان بل يتمسكون بنوع الحكم الذي اعتادوه . إنهم يكونون كتلة ضخمة ، ولكن للأسف تشغلهم انقسامات عديدة ، دينية وسياسية

وقد قال نيكولا دي فير مدرس الجغرافيا لولى العهد في عام ١٧٠٨ : — « إن البولنديين بواسل ، يحبون الآداب والفنون ، ويميلون بعض الميل إلى الفسق والفجور ، وكلهم كاثوليك ! — والمجريون يتميزون بقوام محشوق ، يحبون الحرب والخيال ؛ في خلقهم جرأة وشراسة ، ويفرطون في الشراب . خاصتهم رائعون ، ونسأؤهم جميلات فاضلات — والسويديون قوم شرفاء شجعان ، مشغوفون بالعلوم والفنون . والجو هناك بارد صحي صاف . والغابات مليئة بالحيوانات المفترسة . — والدنمركيون لا تختلف أخلاقهم كثيراً عن السويديين — أما النرويجيون فيبدون أكثر بساطة ، وأوفر صراحة . »

عندما كان الأدباء يبحثون عن شخصية مجهزة ، كانت تلك الجنسيات المفترسة تقدم لهم قائمة ميسرة . فمن كان يبتغي تأليف مسرحية راقصة (باليه) ،

أو مسلاة لرجال البلاط ، كان يقدم دون أن يرهق فكره ، دوراً للجانِب
مثل النابوليتان أو الاسكلافون . في عام ١٦٩٧ ألف (هودار دى لاموت)
Houdar de la Motte مسرحية راقصة مثلت في مجمع الموسيقى الملكي اسمها
« أوروبا الأنيقة » L'Europe Galante . « لقد اخترنا من بين شعوب أوروبا أشدها
تبايناً في الخلق ، الأمر الذي يدخل على التمثيل ظرفاً وتشويقاً : فرنسا ، إسبانيا ،
إيطاليا ، وتركيا . ولقد تبعنا الأفكار العامة فيما يخص الصفات المميزة
لتلك الشعوب . فالفرنسي طائش ، متظرف ، عرييد . والاسباني صادق ، مندفع ،
خيالي . والايطالي غيور ، حاد المزاج . وأخيراً فقد مثلنا بقدر ما يسمح المسرح
عظمة السلاطين ، وانفعال السلطانات » .

فلنتناول هذه الصور ولنبرز معانيها ، وسنرى هذه الصفات الباهتة تستحيل
إلى شتائم ، دون تغيير يعترى الأصول . في عام ١٧٠٠ كتب دانييل دى فو
Daniel de Foe (١) نبذة سياسية كان لها ضجيج ، ووجدت لها كل دولة إطراء :
The true-born Englishman قال فيها :

*Pride, the First Peer, and President of Hell ,
To his share Spain, the largest province fell ...
Last chose the torrid zone of Italy,
Where Blood ferments in Rapes and Sodomy ...
Drunkness, the darling favourite of Hell,
Chose Germany to rule ...
Ungouver'nd Passion settled first in France,
Where mankind lives in haste, and thrives by chance.
A dancing nation, fickle and untrue ... (٢)*

(١) مؤلف روينسون كروزو . [المترجمان]

(٢) الكبير كبير الشيوخ ، زعيم الجحيم ،

وقعت في نصيبه أكبر ولاية ، بلاد الاسبان ...

والشهوة اختارت ايطاليا أرض الدقء والخنان ،

حيث يحتاج الدم بين الاغتصاب والفساد ...

والسكر العزيز الأثير لدى الجحيم ،

اختار أن يحكم بلاد الألمان ...

واستقرت في فرنسا الشهوات طليقة العنان ،

حيث يعيش اللسان في عجلة ويتقدم بالمصادفة .

شعب راقص هوأى حياته خداع وبهتان ...

ولطالما تقابل كل أولئك الاخوان الألداء ، ولكم تصادموا ، ولكم تصالحوا
 وتحالفوا وتعانقوا ، وعاشوا جنباً لجنب أسداً طويلاً في البؤس والآلام ، حتى ظنوا
 أن تعارفهم أصبح وطيد الأركان ، وأن الفكرة التي كونها كل منهم عن الآخر
 لن يعثر بها تغيير — يا له من خطأ ! ففي سماء الغرب تهبو فجوم وتنطفئ وتظهر
 لجوم وتأتلق . لم يعد النور يشع من مركز واحد . ولم يعد التغيير يقتصر على
 الحدود التي تتحرك إثر الحروب المستمرة لحسب ، بل تناول القوى الفكرية
 التي تتكون منها أوربا ، وإدارة روحها الجماعية : ولم يتم ذلك دون كفاح ،
 ودون آلام ، ودون ثورة جديدة .

كانت السيادة الفكرية تبدو دائماً كيراث موقوف على اللاتين . فقد
 حملت لواءها إيطاليا في عصر النهضة ؛ ثم رأت اسبانيا عصرها الذهبي ؛ وأخيراً
 أقيمت فرنسا تتلقى الميراث . وربما كان التفكير في أن برابرة الشمال يستطيعون
 منافسة هاته الملكات يبدو تفكيراً وقحاً مضحكاً ؛ فماذا كان في وسعهم أن
 يقدموا ؟ شكسبير قلعة الطبيعة ؟ أم شعراء ألمانيا القوط الغلاظ ؟ أولئك الناس
 ما كان يحسب لهم حساب . وكانت إيطاليا واسبانيا وفرنسا في نزاع ، متصل
 الحلقات ، تدعى كل منها الحق المطلق في تراث الرومان .
 إلا أن اسبانيا الطفاً بريقتها . ومع أنها ما فتئت تضيء أوربا ببعض أشعتها
 الأزلية ، فانها مهمة شاقة على أي شعب أن يحتفظ بمكانه في الصدارة ؛ إذ ينبغي
 ألا يعثر به ضعف أو كلال ، وينبغي أن يجدد مجده وأن يشعر به الخارج . والحق
 أن اسبانيا لم تعد بعد تعيش في الحاضر ؛ فالسنوات الثلاثون الأخيرة من
 القرن السابع عشر وبالمثل السنوات الثلاثون الأولى من القرن الثامن عشر
 تكاد تكون فارغة ؛ وكما يقول (أورتيجا . ي . جاسيه) Ortega y Gasset
 « لم يخفق قلبها طوال تاريخها الفكري بمثل ذلك البطء الذي كان يخفق به
 حينذاك » . كانت تنطوى على نفسها وتستلقي فاقدة الشعور ، في زهو وجلال .
 وما فتئ يزورها الرواد ولكنهم لم يكونوا يخفون أمارات الاستخفاف ؛ منتقدين
 عيوب شعب يؤمن بالخرافات ، ومثالب بلاط جاهل ، ومتحدثين عما تلاقى
 فجارتها من كساد ، وساخرين من كسل السكان وما هم عليه من خيلاء ؛

وفيما يتعلق بأدائها ، كانت مضرب المثل بأسلوب كله تعاضل واصطناع ، ومسرحيات تخالف القواعد ، مسرحيات كانت فضيحة في نظر الخبراء . وبدأ الناس يقولون إن إسبانيا لم تفقد قوتها ونفوذها فحسب ، بل إنها كانت غير أسينة على عبقريتها : روحها الخيالي وعظمتها وشرفها وحبها للعدل وتجربتها عن الأغراض ، كل هذه المزايا التي اختلفت بها . ولقد سخر منها سرفانتس Cervantes في رواية دون كيشوت Don Quichotte ؛ وبما أن الأسبان قد أيدوا سرفانتس بالتصفيق والتهليل ، فانهم فضحوا عيوبهم . ولعل هذه فكرة سخيفة ، ولكنها تكفي لكي تكون الشعوب المنافسة حكماً قاطعاً عن جوارها الضعيف .

وكانت إيطاليا لا تزال تحتلج فيها علائم الحياة ، وتمتاز أيضاً بالرونة ، أي القدرة على تغيير لون إنتاجها ، فتبحث في ميادين أخرى ، في العلم ، عن شهرة لم تعد تجدها بعد في الأدب . وكانت قد أثرت في الخارج عن طريق ذكرى روما ؛ وهي لم تكف يوماً طوال حياتها عن التذرع بهذه الذكرى التي وضعت فيها كل آسائها . كانت تؤثر بلسانها الرقيق الرنان ، لسان الموسيقى ولغة الغرام . كانت تؤثر عن طريق أبنائها الذين برعوا في الرقص والموسيقى والغناء ؛ فقد كانت أو براتها تفتن العالم المتمدن وتسلب الألباب ؛ كانت تؤثر في الشرق أكثر مما تؤثر في الغرب ، على شواطئ دلتاها ، في النسا وفي هولاندا . ولم تكن هذه مميزات قليلة . ولكن أتى زمن يريد فيه الناس التفكير ؛ وهو ما عجزت إيطاليا عن المشاركة فيه . إنها كانت تنحدر إلى الزوال . وما أكثر السياح الذين ما يرحلوا يزورونها ! لنقتصر على ذكر المشهورين : جلبرت بيرنت Gilbert Burnet ، ميسون Misson اللاجئ الهوجونوتي الذي صحب أحد النبلاء في دورته الكبرى ، وليام بروملي Willam Bromley ، مونفوكون Montfaucon ، وزميله دون بريو Dom Briois ، وأديسون Addison . نحن لا نستخلص من مذكراتهم ورواياتهم ورسائلهم إلا إعجاباً مستمراً بكل ما هو قديم ، واستخفافاً بكل ما هو حديث ، وسقوطاً سياسياً وانحياراً خلقياً وفكرياً في إيطاليا التي أصبحت في نظرهم أرض البرتقال والأطلال ، أرض الأسوات .

وهنا أتى دور فرنسا . إنها تدير السياسة الأوروبية خلال مدة لا تقل عن أربعين عاماً ؛ والأصدقاء والأعداء يذكرون — كما قال هوراس والهول Horace Walpole — « التقدم العجيب الذي حققه نفوذها منذ معاهدة مونستر في عام

أزمة الضمير الأوربي

٦٠

١٦٤٨ حتى الثورة الإنجليزية وبداية « الحلف الكبير » في عام ١٦٨٩ ؛ إن هذا الصعود وهذه العظمة ، وهذا الجهد ، للدليل على حيوية دافقة . إن فرنسا شخصية معنوية ؛ فرغبتها في الوحدة ورغبتها في التوسع تتنابعان بفضل منطق يزداد انضاحاً على مر الأيام . وعندما توحدت ، لم ينطفئ نشاطها بل انتظم ، وصارت على استعداد لأن تستعمل في الخارج قوة تستقيم مدة طويلة . وإن ملك فرنسا لشديد الميل إلى الحركة وإلى الإشعاع ؛ وسيكون الضوء ، بل الشمس ؛ فقد كون مجموعة شمسية مركزها فرنسا ، ويريد أن تكون شعوب أوروبا كواكب لها : « إنه يمثل مجهوداً مرتباً مسبقاً ، لخلق جمال نظام فكري للعالم (١) » . وفرنسا وفيرة السكان ، غزيرة المدن والقرى ، محاربة ، فيها طبقة نبيلة على استعداد دائم لحمل السلاح ؛ في مكانها مرج ورشاقة وظرف ، يمتازون بحذق ونشاط ، يستطيعون النهوض بكل مشروع ، ولا سيما ما يتطلب الذكاء أكثر من التوفر والاعتناء ؛ ومع ذلك فقيم الخفة وعدم الثبات والافتخار بالفسق والفجور ؛ حتى إنك لتجد بينهم من يفخر بذلك ، رغم برأته منه . . . تلك هي الصورة التي لا تخلو من بعض الحقائق التي لم يفلح في تغييرها الزمان . ولكن نجاحاً لئلاً يضاف إلى هذه الصفات فيخلق عليها نضرة جديدة . ففي فرنسا يسود التأدب والتهديب ، والثقافة ورفاهة الحياة . فكانت قبلة كبار الأجانب ، يقصدونها من كل أنحاء أوروبا للدراسة في الجامعات أو للتربية في البلاط ؛ إذ تستهويهم الأساليب الفرنسية ، فيتلقون فيها دروس الرقة والتهديب . وبذا تأخذ باريس مكان الصدارة بين كل المدن . وسحرها في الحرية ويسر التقاليد ؛ فلن تجد فيها من يسألك عما تفعل ؛ إذا أردت أن تغير معيشتك فما عليك إلا أن تبدل الحى . وإذا أردت أن تظهر فيها اليوم بشباب من ذهب ، والغد بنياح من الصوف الثقيل ، فمن سيأل عنك ؟ وإنك لتواجد فيها كل ما تريد ، وحالاً تريد . ولا يبتكر العالم شيئاً لكي يتذوق به المرة متعة الحياة إلا ويستعملونه على الفور في باريس . كانت روما تعلو سابقاً فوق كل مدن الدنيا ؛ أما الآن فانها باريس .

(١) سلفادور دى ماداريانجا : الأنجليز ، الفرنسيون ، الأسبان . لندن ١٩٢٨ .

الترجمة الفرنسية ١٩٣١ ، *Salvador de Madariaga, Englishmen, Frenchmen, Spaniards* ،

London, 1928

وبينما المتنافسون القدماء يبدوون ضعفاء ، تقدم فرنسا فيضاً من الروائع الأدبية ؛ وهي ليست بما تعدها دولة رالعة لكي تتعزى بها ، بل روائع شهد العالم كله بكاملها . فبعد ديكارت وكورنيل Corneille يظهر موليير Molière ورأسين Racine ولافونتين La Fontaine وبوسويه Bossuet ؛ ولا يكاد هذا الجبل ينقضى حتى يدعمه ماسينيون Massillon وربنيارد Regnard ولى ساج Lesage . إن هذا الفيض الأدبي يستمر ثلاثة أرباع قرن . وفي الوقت الذي ينشرون فيه « التراجيديات » و « الكوميديات » ، والقصص والمراثي ، لمؤلفين سرعان ما أصبحوا كلاسيكيين ، فهدم ينشرون كتباً أخرى تضاف إلى هذه الكتلة لاستزادة قوتها وإسراع حركتها : فكيف يتأتى أن إنتاجاً ضخماً كهذا لا يعم أوروبا ؟ وهكذا بدأ حديث التفوق والعظمة يمتد ويتحقق من يوم إلى يوم . تخمن قوة انتشار مؤلفات أولئك الأعلام ، وأضف إليها كتلة الذين يتبعون هؤلاء العظام ، وأضف أيضاً المؤلفين من الدرجة الثالثة . ومن الرابعة - (تلك العملة الصغيرة التي نسينا صورتها ولكنها كانت تدور في كل مكان ،) من أمثال بوهور وراين وفلوري وغيرهم : حينئذ يمكنك أن تتخيل الحركة الفرنسية وما كانت عليه من عمق واتساع وثرأ .

« وازداد هذا النفوذ حتى إن الأرستقراطية الأدبية في أوروبا لم تخرج لترجمة ، فان اللغة الفرنسية تكاد تصبح لغة عالمية . هذا ما يقوله (جى مييج) Guy Miège السويسرى الذى يقيم في لندن ، والذى نشر قاموساً فرنسياً - انجليزياً وآخر انجليزياً - فرنسياً ، « لأن اللغة الفرنسية تتحول إلى لغة عالمية » . وهذا ما يقوله أيضاً (جريجوريو ليتى) Gregorio Leti الذى ترجم في أمستردام كتاب « حياة كرومويل » إلى الفرنسية : « لأن اللغة الفرنسية أصبحت في هذا القرن أوسع اللغات انتشاراً في كل أوروبا : لأنه إما أن عظمة فرنسا جعلت لغتها أكثر ازدهاراً ، مثلما حدث في الماضى إذ نشرت عظمة الرومان لغتهم في العالم كله ، وإما أن اللغة الفرنسية ، بما هي عليه من تهذيب ، تتميز بجمال خاص في وضوحها الذى لا تكلف فيه » . بيد أنه ما من شك في أن أقوى شهادة من بين الشهادات التى يمكننا أن نذكرها هنا ، قول بايل : - « إن اللغة الفرنسية أصبحت فيما بعد حلقة الاتصال بين شعوب أوروبا قاطبة ، وغدت لغة نستطيع

أن لسميها « ترانساندنتال (١) » لعين السبب الذي يجبر الفلاسفة على أن يسموا بهذا الاسم كل ما من طبيعته الانتشار في كل الأبواب والطبقات . . . (٢) » إن الكتب واللغة ، والأخلاق أيضاً ، وسير الحياة كانت فرنسية . أنظر إلى مكتب ذلك القصر الذي يريد التشبه بفرساي ، تجد هنالك مدرسا فرنسياً يعني بتربية النبيل الصغير . والثياب ، والفساتين ، والشعر المستعار كانت على الطريقة الفرنسية . ومن كان يطلب الناس تعلم الرقص إلا من أماتذة الأناقة هؤلاء ، الرؤساء والطهاة يجهزون الطعام طبقاً لآخر الأصول الفرنسية ، والخدم يقدمون النبيذ الفرنسي . « يظهر أننا لا نستطيع أن نجهز مأدبة عشاء من غير نبيذ أجنبي ، تقدمه في قنينة تسمى « بوتيل » كما هي في الفرنسية . . . » ويقول موراتوري : « نحن الايطاليين البواسل نهرع كالقروء المضحكة إلى تقليد التبدلات الفرنسية ، وإلى كل بدعة فرنسية كأنما هي آتية من قصر جوفيترا العظيم (٣) » . ويقول الألماني توماسيوس Thomasius في كتابه « مقال عن تقليد الفرنسيين عام ١٦٨٧ » *Discours sur l'imitation des Français* « لو أن أجدادنا بعثوا إلى هذه الدنيا ، لما عرفونا ، فقد فسدت أخلاقنا وتكرنا لأصلنا . كل شيء عندنا الآن ينبغي أن يكون فرنسياً : فالثياب والطهو واللغة فرنسية ، والأخلاق فرنسية ، وحتى الرذائل فرنسية (٤) » . لم تعد الفرنسية تقوم مقام اللغة الايطالية والاسبانية لحسب ، بل اللاتينية أيضاً التي كانت إحدى حلقات الاتصال للمجتمع الأوربي . « كل الناس يريدون أن يتعلموا اللغة الفرنسية ، إنهم يجدون في ذلك دليلاً على حسن التربية ، ويتعجب البعض لاصرار الناس على معرفة هذه اللغة ، ولكنها صارت بينهم عادة

(١) Transcendental ما يخص العقل الخالص ، أي ما يدرك بالعقل ولا تثبته التجربة . [المترجمان]

(٢) بايل : (أخبار من جمهورية الأدب) ، نوفمبر ١٦٨٥ ، الباب الخامس *Nouvelles de la République des lettres* .

(٣) كما أورده جوليونا تالي ، (القرن السابع عشر ، *Il Settecento*) ، ميلانو ١٩٢٩ ، ص ٦٨ ، Giulio Natali .

(٤) كرومتيان توماسيوس : *Christian Thomasius, Von Nachahmung der Franzosen* ، *Nach den Ausgaben von 1678 und 1701*, Stuttgart 1894. طبعة ١٦٨٧ ، ١٧٠١ ، ١٨٩٤ .

متأصلة ؛ ففي كثير من المدن تجد مقابل كل مدرسة لاتينية عشر مدارس فرنسية ، وفي كل مكان تترجم مؤلفات القدماء إلى الفرنسية ، حتى بدأ العلماء يخشون أن تفقد اللغة اللاتينية مكانتها القديمة . . . (١) كل هذه الأسباب الحقيقية التي عرضها البعض شرحاً لتلك الشهرة ، من قيمة اللغة الجوهريّة ، إلى مزاياها الفكرية ، إلى اعتناء شعب يرى كل ما يتعلق بالنحو والصرف والبلاغة مسائل أساسية ، وهو الشعب الذي يتفرد وحده دون شعوب الدنيا بحيارته لمؤسسة رسمية تراقب استعمال الكلمات ألا وهي الجمع — كل هذه الأسباب العميقة الحقيقية ، يضاف إليها سبب هام هو طلب أوروبا نفسها التي كانت في طريق التجدد . فقد كانت اللاتينية لغة التعليم المدرسي والعلوم اللاهوتية ، تفوح منها رائحة الماضي ؛ فكانت تفقد رويداً رويداً وابططها بالحياة . ومع أنها كانت أداة كاملة للتعليم ، إلا أنها لم تكن تغني المرء أو تكفيه بعد تخرجه في المدرسة . أما الفرنسية فكانت تبدو كشباب جديد للمدينة : إنها تمدن المزايا اللاتينية . إنها واضحة ، قوية ، أكيدة ، وحية . إن العلم الذي يريد أن يفسر الكون بعلى أخرى غير « العلى الفعالة » (٢) ، يتطلب تعبيراً غير الذي كفى للقرون الوسطى . وإذا نحن وجدنا اللغة الفرنسية وقد أصبحت عقب معاهدة راستادت Rastadt عام ١٧١٤ ، لسان السلك السياسي ، فأنما مرد ذلك إلى أن رجال السلك السياسي لم يقنعوا في عام ١٧١٤ بما قنعت به مستشارية الأباطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . حتى ذلك اليسر وتلك الأناقة في الكلام ، والخفة التي ينعمها الناس على الفرنسيين ، كانت تفيدهم ؛ فقد ثراءوا للناس كأنهم تخلصوا من ماض ثقيل . ولقد أخذ علماء الأخلاق الأجانب ينتقدون سلوكهم وميوعتهم وإقبالهم على متاع الدنيا : ولكنه انتقاد لا طائل تحته ، فقد أصبح الفرنسيون نماذج حديثة « الأمود » . وإنك لتجد هذا التعبير الفرنسي وقد انتشر في إيطاليا في أواخر القرن السابع عشر ، في الوقت الذي يحرضون فيه في واجهات المحال التجارية دمي صغيرة يلبسونها حسب البدع

(١) بابل — أخبار جمهورية الأدب ، أغسطس ١٦٨٤ ، الباب السابع .

(٢) Causes efficientes — العلى الفعالة ، العلى التي تحقق نتيجتها بالفعل ، فالشمس علة فعالة للضوء . والمؤلف يقصد أن التفسيرات المدرسية القديمة للتكون — من مثل ذلك — لم تعد تكفى للروح العلمية الحديثة في ذلك الوقت . [المرجان]

الباريسي ، البدع الحديث . وإنك لترى الانجليز يستعملونه أيضاً : فالسيدات يرتبن شعرهن طبقاً لأحدث بدع As the mode is ؛ والمكاتب توصي على The à la mode secretary ؛ وينتقد توماس براون في أحد مؤلفاته (١) « بدع النفاق » ؛ ويعرض (فاركار) في كتابه « الزوج الوفي » البدع اللندني The à la mode Londres مقابل البدع الباريسي The à la mode France ؛ ويقدم (ستيل) على المسرح The funeral, or Grief à la mode ؛ ويفسر لنا أديسون في مقدمة كتبها هذه الملهاة ، سر ذلك الإعجاب المفرط :

Our author . . .

Two ladies errant has exposed to view :

The first a damsel , travelled in romance ;

The other more refined : she comes from France . . . (٢)

وما هذه إلا حالة خاصة لحركة عامة ، إنه عرض يجيب إلى طلب : وهكذا نستطيع أن ندرك سيادة فرنسا ، وهي سيادة لا تستند على القوة ، لأن القوة لا تكفي لقيام دولة وطيدة في ميدان الفكر ، بل سيادة مهنية على ارتضاء عالمي . ففي كل مكان تطنطن اللغة الفرنسية ، في إسبانيا وفي مستعمرات إسبانيا حتى ليا (عاصمة يرو) حيث يمثلون في عام ١٧١٠ اقتباساً لمسرحية رودوجين Rodogune (لكورنيل) وملهاة « النساء العلمات » *Les femmes Savantes* لموليير ؛ وفي هولندا حيث تقاوم النواهب الأهلية بلا جدوى ، وفي بولاندا حيث يضمحل النفوذ الايطالي تدريجياً بينما النفوذ الفرنسي يتسع ويقوى ؛ إن الناس يقرأون المؤلفات الفرنسية في كل مكان ، حتى إن الفكر الفرنسي يسم بطابعه كل الأذهان . وضعت فرنسا أساس هذه المملكة ، وإذا بمنافس يظهر ، ويا له من شيء معدوم النظير ! إنه دولة من الشمال !

كانت إنجلترا في أول الأمر تقف في طريق السياسة الفرنسية . فهي لم تقبل

(١) *The Stags-Beaux tossed in a Blanket*

(٢) يقدم مؤلفنا على المسرح سيدتين مرتحلتين ،

أولاهما أكسة سائحة في بيداء الخيال ،

أما الثانية فأكثر تهذيباً ، فهي قادمة من فرنسا . . .

أن تتغلبى لفرنسا لا عن البحر ولا عن الأرض ؛ وهي لم تكن تحاربها على السيادة فحسب ، بل أيضاً على مبدأ السلطة الذي كان أساساً للحكم الملكي . فنشبت مبارزة بين لويس الرابع عشر ووليم أورانج ، وكانت مبارزة بين بطلين رمزيين . حينما طرد وليم أورانج جاك الثاني من عرش إنجلترا عام ١٦٨٨ واعتلى الحكم بدلا منه تحت رقابة البرلمان ، أخذ لويس الرابع عشر ذلك اللاجئ تحت حمايته الشخصية وأمكنه أروع مسكن في سان جرمان — لاي ، وهو في ذلك إنما كان يدافع عن الحق الإلهي ممثلا في شخص جاك الثاني . ولكن بعد حرب طويلة بينهما ، اضطرت فرنسا إلى التسليم أمام القوات المتحدة ، وتوقيع صلح رزويك عام ١٦٩٧ ؛ فيا لإهانة التي لحقت بالملك العظيم ! لقد اضطرت أن يعترف بسلطة خصمه وأن يصادق على شرعية حكمه ، بمحض رضائه ، خاذلا بذلك جاك الثاني ، ابن عمه ، بل أخاه . من كان إذن ذلك الشعب الذي فرض حكمه على أوروبا ، والذي أهان فرنسا في مرة واحدة إهانة لم يلحقها مثله إبان خمسين عاماً ؟ لشدة ما كان هياج الرأي العام الفرنسي ، حتى إننا نستطيع أن نستشف الثورة الإنجليزية من وراء الستار الفاخر لتراجيدية راسين أثنى *Athalie* ، ولا سيما أن الناس أخذوا يترنمون في « ديمون » في عام ١٧٠٩ بأغنية مثل التالية :

*Le grand-père est un fanfaron,
Le fils un imbécile,
Le petit-fils un grand poltron,
Ah ! la belle famille !
Que je vous plains, peuples français,
Soumis à cet empir !
Faites ce qu'on fait les Anglais,
C'est assez vous le dire ... (١)*

(١) إن الجد يدعى الشجاعة ،
والابن مغفل مخيف ،
والحفيد جبان وعديم ،
يا لها من أسرة بدیعة !
إني لأشفق عليك ، أيها الشعب الفرنسي ،
الخاضع لتلك الملكة !
افعل ما فعله الانجليز .
كفى أن أقول لك ذلك ...

ولم يبد على ذلك الشعب العظيم في بداية عهده الزاهر موهبة للادب .
فقد طلب لويس الرابع عشر من سفيره في لندن إخباره بأسماء الفنانين والأدباء
في إنجلترا ، فأجاب السفير بأن العلم والأدب يتركان أحياناً بلداً لكي يخلعا
على بلد آخر المجد والشرف ؛ وأنها قد انتقلا الآن إلى فرنسا ؛ وإذا كان
لا يزال في إنجلترا أثر للادب ، فهو ليس سوى ذكرى يكون ، وبوكانان ،
والمدعو « ملتونيوس » الذي جلب على نفسه من العار بمؤلفاته الخطرة أكثر
بما يجلبه القاتل الذي يفتال عليه .

يبد أنه بعد ذلك بقليل ، كان على فرنسا أن تسمح للإنجليز بامتياز :
امتياز التفكير . وهنا أيضاً نجد التعارض قائماً : ففي فرنسا فن الحياة ، وفن
الحديث ، وحلاوة الشرائل ، ونزاهة الفكر . وفي إنجلترا قوة الفرد ، والعمق
والجراحة في البحث ، وحرية التفكير . ولو لم يكن لدى هذه الأخيرة إلا كتاباً
سطحيين ، ومؤلفي « كوميديات » ماحجة ، تعرض على المسرح السلوك في عهد
إعادة الملكية La Restauration ، مثل ويكرلي Wyckerley ، وكونجريف
Congreve ، وفانبرو Vanbruh ، وفاركار ، لكان عليها أن تقنع بمكانة التابع :
لأنها كانت تقلد فرنسا ، وتلتهم مؤلفيها دون خجل أو حياء ، لكن ها هي ذي
تناقش علناً مسائل هامة أرفع مما يتعلق بالروايات الغرامية أو وصف الشخصيات
الفاجرة . فهي لم تتجنب الخوض في المسائل الدينية بدعوى أنها مسائل قد بت
فيها ، بل هي لا تكف عن مناقشة الطرق المختلفة التي يستطيع بها المرء أن
يتعرف علاقاته بالاله ؛ فمن التصوف البوريتاني لبويان ، إلى مذهب
(كلارك) و (تيلوتسون) أي الموافقة المنطقية على الدين السائد conformisme ،
إلى مذهب (تولاند) أي الاعتقاد بالله مع إنكار الوحي Déisme .
وكانت تشتغل مع (لوك) في إعداد فلسفة جديدة ؛ وكانت تعمل
مع (نيوتن) على انقلاب في العلم : فقد كتب هذا الأخير مؤلفه (المبادئ
الرياضية للفلسفة الطبيعية) *Philosophiae naturalis principia mathematica*
في عام ١٦٨٧ . من هنا منشأ قوة إنجلترا الحيوية التي كانت محل إعجاب
الفرنسيين :

*Les Anglais pensent profondément ;
Leur esprit, en cela, suit leur tempérament ;*

*Creusant dans les sujets, et forts d'expériences,
Ils étendent partout l'empire des sciences ... (١)*

وأخيراً تجاسر الانجليز على مر الزمن ، فطالبوا بالجد في ميدان الأدب ؛ ومنذ ذلك الحين انقسمت مملكة الفكر انقساماً قطعياً . ولقد ظنوا عقب وفاة (درايدن) ، في عام ١٧٠٠ ، أنهم فقدوا شاعرهم الكبير الوحيد ، فإذا بهم يجدون البعث الاعجازي الجديد . فإذا سألتهم عن الفلاسفة قالوا لدينا كدورث وبركلي ؛ وإذا سألت عن علماء الأخلاق قالوا لدينا (أديسون) وستيل وآرثنوت وشافنسبوري ، ولدينا من العلماء (بنتلي) ، ومن الشعراء (بوب) و (جاي) و (برايور) و (سوينفت) ذلك العبقري الذي يستطيع التفوق في كل فن وفي كل فرع ، وما ذكرنا هنا إلا العظام . وكان الانجليز يعرفون قيمة تلك الثروة تمام المعرفة ، فعظموا علماءهم ومؤلفيهم وأحاطوهم بصنوف التقدير والتكريم ؛ لقد أخذ العلماء والمؤلفون الفرنسيون يحسدون الانجليز ، فسبحان مغير الأمور ! ولقد أزفت ساعة النصر ، حيث النبات القوى الذي غذته عصارة النماء مدة طويلة ، يفي أخيراً زهرته الرقيقة .

وانك لتلاحظ لدى مؤرخي الأدب الانجليزي ، شيئاً من المباهاة عندما يحكون قصة تلك السنين العظيمة . قال (ادmond جوس) Edmund Gosse « في عام ١٧٠٢ جلست الملكة آن على العرش ، وتحت ظل حكمها القصير حدثت نهضة رائعة للأدب الانجليزي ، على أيدي طائفة من الرجال الذين أوتوا موهبة وابتكاراً ليس لهما مثيل . لفيا بين عام ١٧١١ ، وعام ١٧١٤ انبثقت في آن واحد من مطابع لندن طاقة من المؤلفات الرائعة نثراً وشعراً . فكأنما ريح قد قشعت ضباباً كان يخيم على السماء من أمد ، فكشفت بعض روائع النجوم . في عام ١٧٠٢ لم يكن في أوروبا بلد يداني انجلترا في فراغها

(١) إن الانجليز عميقو التفكير ،

وفي ذلك تمشي عقولهم مع طباعهم ،

يحصدون المسائل ، ويتفرون على التجارب ،

فيمدون مملكة العلم إلى كل مكان ...

(لافونتين ، حكايات ، ١٦٩٤ ، الجزء الثاني عشر ، الثعلب والحصير)

La Fontaine, *Fables*, Livre XII, « Le renard et les raisins. »

الفكرى التعس ، وما أتى عام ١٧١٢ حتى غدت فرنسا ذاتها عاجزة عن أن تقارن نفسها بزميلتها من حيث المؤلفات الأدبية نوعاً ومقداراً . أما عام ١٧١٣ فكان عاماً إعجازياً ١ « إن كتاب الحادثة الصغير الذى نشره بيركلى تحت عنوان *Hylas et Philonoils* يرجع إلى ذلك العام الذى لا ينسى *annus mirabilis* ، عام ١٧١٣ ، — ففيه وصل بوب Pope وسويفت Swift واريثنوت Arbuthnot وأديسون Addison وساتيل Steele إلى ذروة العبقرية ، وفيه قدمت المجترا فجأة مجموعة من مواهب أدبية رائعة ، حتى لم يكن في أوروبا بلد يستطيع مساواتها أو الاقتراب منها » .

لقد قضى الأسر ؛ فان الضوء كان يشع من الشمال ، وكان للشمال الحق في أن يواجه الجنوب ظافراً . ونستطيع أن نطبق على المؤلفات الفكرية تلك الكلمات التى كتبها شاعر إذذاك :

*What fine things else you in South can have,
Our North can show as good, if not the same ... (١)*

ولشد ما كانوا مغرورين بانتصارهم ، أولئك الانجليز الذين وصلوا إلى طليعة الصفوف ١ كانوا يتطلعون وراءهم لكي يروا الشوط الذى قطعوه من الطريق ، قائلين إنهم كانوا في موقف يأس وقنوط ، يهددهم في حريتهم وفي دينهم بل في أرضهم ذاتها أعظم الملوك ، لكن سرعان ما تغيرت في أوروبا الأمور ، وأخذت وجهها آخر ، حتى إنه ، والشكر لله ، قد انهزم الظالمون وانتصر الصالحون : وبالصالحين كانوا يقصدون أنفسهم . وكانوا يمدحون فلسفتهم ، وأدبهم ، وكل كياناتهم . وفي تلك السنين بدأت حركة ما زلنا نحس أثرها حتى اليوم . وحقاً ، من يصدق أنه منذ عام ١٧١٣ ، أخذوا يعرضون اللغة الانجليزية مقابل الفرنسية ؟ يقول (آبل بوايه) : « إن اللغة الانجليزية منافسة اليونانية واللاتينية ، لغة شجرة قوية ، وهى — كالشعب الذى يستعملها —

(١) كل شيء جميل يمكن أن يوجد في الجنوب ،
يستطيع شمالنا أن يقدم مثله أو ما يوازيه ...

John Rawlet, *An account of my life in the North*, (Poetick Miscellanies
London 1687.)

عدوة القسر والاجبار ، فهي تتقبل كل ما يساعد على جمال التعبير وعظمته .
بينما الفرلسية التي ضعفت وافتقرت لمبالغتها في الرقة وخجلها ، وعبوديتها
للقواعد والعادات ، لا تسمح أبداً لنفسها بشئ من الحرية ولا تقبل أبداً أى
جسارة موقفة . . . (١) »

ولا بد من توافر شروط عدة ، لكي تتدفق تلك القوة الحية وتؤثر . ويبدو
أنه يجب أولاً إبدال الرواسم « الكليشيهات » القديمة بصورة أصدى وأوفر
تشويقاً وجاذبية . كانت الطبقات الراقية تستحب الرحلة إلى باريس ، لكن
من كان يود زيارة لندن ؟ عندئذ بدأت منذ سنة ١٦٦٠ الفترة النشيطة
للسفر إلى إنجلترا . وكانت العوائق عديدة متنوعة : أخلاق يعتقد الناس أنها
بربرية ، ولغة لا يدركونها ، وقبل كل شئ ، ذلك البحر المصطخب الذى كان
عليهم أن يعبروه ، والذى كان يرهب القلوب : ويعلم القارئ قصة ذلك الأب
النورماندى الطيب الذى سافر إلى شر بورج لكي يخاطر باختراقه ، والذى عدل
عن السفر لما رأى لحجج الأسواج ، وعاد إلى بيته مؤثراً السلامة . إلا أن سكان
المدن الساحلية ، لاعتقادهم المخاطرة ، أقدموا على الخطوة الأولى ، ورحل النبلاء
قاصدين البلاط الملكى الانجليزى ، والعلماء والأدباء وحتى الأفراد العاديون ،
بدافع من حب الاستطلاع . فالسفينه والجمره والمركبة والفندق ، بما فيها من
مشاق ، والطريق والبرارى ، والعشب الرقيق أبدع عشب فى العالم ، ولندن
وتحفها وطرائفها ، والتاميز المفروش بالسفن ، ويستمنستر ، والبرج ، والأخلاق
الانجليزية الغريبة ، وطرائق الانجليز فى الطعام وفى الشراب ، وعاداتهم العجيبة فى
التسلية بما فيها من صرامة ونابة : كل ما فى هذا الاكتشاف من متع ومشاق كانت
تصبغ حكايات السفر بمسحة من المغامرة والبطولة . وجملة القول ، أن الناس بدأوا
منذ ١٧١٠ يعرفون إنجلترا ، فليس على الأجيال المتتابة أن تعاني رسم مسودة
بل مستغنى بالتصحيح ، استكمالاً للوجه احتلت فيما بعد مكاناً فى رواق الشعوب .

(١) آبل بواييه . مقدمة ترجمة كاتون لأديسون ، ١٧١٣ . *Préface d'.*

la traduction du Caton d'Addison, 1713

وعما قريب سنرى الأفكار الانجليزية تنهجر إلى ألمانيا . و يجلس أسرة هانوفر البروسية على عرش إنجلترا ، ترتبط الدولتان بروابط سياسية . وإلهما لمرتبطتان من قبل ، جزئياً على الأقل ، بالدين البروتستانتي ، بالكراهية المشتركة للكنيسة الكاثوليكية ، وبالمعارضة المشتركة ضد روما . في عام ١٦٩٧ ، استمدح أندريه ادم هوتشستتر André Adam Hochstetter الأستاذ بتوبنجن Tübingen في خطبة باللاتينية فائدة السفر إلى إنجلترا *Oratio de utilitate peregrinationis anglicanae* فقال : « لن أمدح خصب إنجلترا ، ولن أطرى تحف لندن ، تلك المدينة العظيمة ، بل سأحدث عن علمها ، وأكثر من ذلك فاني سأحدث عن دينها . من بيننا يجهل بأى شجاعة وشهامة عارض صفوة الرجال — تحت حكم جاك الثاني — سبعوئي الكنيسة الرومانية اليهودية ، وكيف دافعوا عن قضية يشتركون فيها معنا ؟ » وسنرى بعد ذلك مقدم الفلسفة مع لوك ، وميتبعها الأدب . وسنشاهد التأثير المؤكد للتفكير الانجليزي على التفكير الألماني ، في انفصال هذا الأخير عن الطرائق الفرنسية ، التي كانت تبعد كثيراً عن جوهره العميق ؛ وفي تقديم نماذج أخرى أقرب إليه وآلف ، وفي المؤازرة على تحريره ، حتى يصل يوماً إلى لونه الأصيل . وفي غضون القرن الثامن عشر ، تبدى لنا على أرض ألمانيا نتائج صعود إنجلترا مدارج المجد : تمرد على السيادة الفرنسية ، وتحالف الشمال ضد فرنسا .

ولكن كيف السبيل إلى بلاد الجنوب ، وأى طريق ينبغي أن نختار ؟ فالمؤلفات التي تظهر في لندن كانت معرضة لانتظار طويل كي تصل إلى تلك البلاد ، لأن اللغة الانجليزية كانت مجهولة في أرض أوروبا ، ولأن الذين يقرءونها من اللاتين عدد قليل ، والذين يتكلمونها أقل . ولذا لم يكن يقدر لانتشارها أن يزداد سرعة ، إلا بمعجزة . فقد انتفعت اللغة الانجليزية باللغة الفرنسية المعروفة في كل مكان ، فأخذت فرنسا على عاتقها نشر الكنوز الخبئة في الجزيرة . « إنها لحسارة أن تبقى مؤلفات يمثل هذا الجمال حييصة بين الحدود الضيقة للجزر البريطانية . فمهما كان في اللغة الانجليزية من جمال ، فان الفرنسية تفوقها لأنها لغة الاتصال بين كل شعوب أوروبا تقريباً . ويمكننا أن نقول بحق

في صدد الموازنة بين الفرنسية والإنجليزية من حيث مدى الانتشار ما قاله
شيشرون Cicéron عن اليونانية واللاتينية في عصره ، في مقاله *Pro Archia* (١) :
« *graeca leguntur in omnibus gentibus; latina suis finibus, exiguis*
« (٢) *sane, continentur* » . وعندما يحين الوقت المناسب ، ستكون طائفة
من المترجمين ، ويحضر للاقامة في لندن عدد وفير من الفرنسيين ، وبما هم عليه
من حذق وثقافة ، سيتصلون بالأدب الإنجليزي ، ويظهرون الاهتمام به ، ويختارون
أروع مؤلفاته وينشرونها ، لكي يستعينوا على العيش ، وفي نفس الوقت لكي يعبروا
عن شكرهم لدولة أحسنت استقبالهم وأكرمت وفادتهم . حقاً ، لقد كان من المحال
أن يجد الأدب الإنجليزي سبيلاً للانتشار أسرع من تلك السبيل : إلا في الأحلام ...
ومع ذلك فقد تحقق هذا الحلم بالضبط : تحقق بفضل الاضطهاد الديني
الذي طرد القسس البروتستانت ، والأساتذة ، والمؤلفين ، من فرنسا وأجبرهم
على الالتجاء إلى لندن حتى جعل منهم مفسرين للتفكير الإنجليزي . والحق أنه
لم يحدث كل ذلك طبقاً لتلك الخطة الرسمية ، فلقد بدأت من قبل بعض العلاقات
وتم بعض الأعداد ؛ لم يحدث شيء فجأة وعلى غير استعداد . وفوق ذلك فإن
المنفيين لم يكونوا يعملون في سبيل نشر الأدب الفرنسي في إنجلترا ، أقل بما
كانوا يعملون على تصدير الأدب الإنجليزي إلى أوروبا . إلا أن إحدى النتائج
غير المتوقعة لفسخ أمر نانت *Révocation de l'Édit de Nantes* كانت اكتساب
إنجلترا حشداً من الوسطاء ، الذين عجلوا انتشار مؤلفاتها واتساع نفوذها
بطريقة غير منتظرة : لقد وجدت إنجلترا تحت تصرفها ، قبيل استعادة عهدها
الزاهر ، المبشرين الذين سوف يعلنون بها على العالم المتعلم .
من كان هؤلاء المبشرون ؟ لم يكونوا عباقرة ، ولكنهم كانوا مدبوعين
بحسب الاستطلاع ، كانوا عقولا لشيطنة ، شخصيات قوية ، قبلوا في شهامة

(١) *Pro Archia* لأرشيا : إحدى المرافعات المشهورة للخطيب الروماني شيشرون
تتضمن مدحاً رائعاً للآداب . [المترجمان]

« كل الناس يقرءون اللغة اليونانية بينما اللاتينية محدودة ... »

(٢) نبذة من المقدمة التي كتبها (ريكوتيه) في مقدمة ترجمته لكتاب « كلارك »

عن « وجود الله وصفاته » استردام ١٧١٧ .
Extrait, de l'Avertissement mis par Ricotier en tête de sa traduction de S. Clarke, *De l'existence et des attributs de Dieu*, Amsterdam, 1717.

مغامرة التنق الكبرى ، ولم يقنعوا بالخبر الذى يغذى الجسم ويقيم الأود . كانوا أصدقاء التجديد . . . Abel Boyer (آبل بواييه) ، الذى بدأ دراسته فى الجمع البروتستانتى بيلورانس Pylarens وكان يبلغ التاسعة عشرة عندما فسخ لويس الرابع عشر أمر نانت ؛ فرحل إلى هولندا ثم إلى إنجلترا فى ١٦٨٩ واشتغل بالتدريس لى يكسب قوته هناك . نشر تراجم من الفرنسية ومؤلفات لحدارس ، وفى عام ١٧٠٢ نشر القاسوس الملكى *Dictionnaire royal* الذى تستشيريه أجيال بأكملها ، فيفيد إنجلترا ، وتعدده فرنسا كتاباً كلاسيكياً . وسيترجم «كاتون» مؤلف أديسون *Le Caton d'Addison* الذى سيقدم لأوروبا أروع تحف التراجيديا البريطانية . وسيكون تقريباً المؤرخ الرسمى لإنجلترا ، ويشترك فى المحادلات الأدبية لذلك الوقت ، ثم يموت فى هدوء ، بعد كثير من النوازل والآلام فى منزل بناه فى شيلسيا كنى بورجوازي لندنى . — وبير دى ميزو *Pierre des Maizeaux* وهو ابن قسيس بروتستانتى ، رحل إلى سويسرا عندما بدأ اضطهاد البروتستانت ، درس علم اللاهوت فى بيرن وجنيف ، وكان أبوه يتمنى «أن يكون خلفاً صادقاً له لاعادة بناء أسوار بيت القدس المهتمة» . وهو يجرب حظه فى هولندا ، حيث عرف بيار بايل *Pierre Bayle* : الذى لم يكن بذاته الأستاذ الصالح للأرثوذكسية . لذلك لن يصير دى ميزو قسيساً ، بل سيكون أديباً ، متحرراً . ارتحل إلى إنجلترا : سويسرا ، فهولندا ، فإنجلترا ، ما أكثر اللاجئين الذين سلكوا هذا الطريق ! ولما كان قد نشر علاوة على أعماله الأخرى — مؤلفات سانت أفريموند *Saint-Evremond* وبايل ، ولما كان صديقاً لشافيتسبرى *Shaftesbery* وتولاند ، وكولتز ، ونشر بعضاً من مؤلفات لوك *Locke* ، وتولاند ودرس فى شلجورث ، وجمع لصوص المناقشة الهامة التى احتدمت بين ليبنتز وكلارك *Clarke* ونيوتن *Newton* على الفلسفة والعلم والدين ، ولما كان يرتاد المنتديات ، ويراسل الجرائد ويكتب الرسائل ، ويتوسط لطلاب الوظائف ، ويقدم المعونة للمحتاجين ، فقد كان على ملتقى الطرق التى لا يمر بها الأفكار فحسب ، بل الناس أيضاً : لكل هذه الأسباب مجتمعة فهو يمثل التبادل فى الحياة الفكرية بما فيه من حمى ومغامرة واضطراب بجانب ما فيه من نفع جزيل وإثمار غزير . ومع بيار كوست *Pierre Coste* ، نصل بلا شك إلى أعلى مراتب هؤلاء العاملين الطبيعيين . ولد بيار كوست فى أوزيه *Uzès* فى عام ١٦٦٨ ،

من الجنوب إلى الشمال

فإن كان قد كرس للسلك الأكاديمي فإنه ذهب إلى مجمع جنيف : ولو أنه أكل دراسته لصار أستاذاً أو قسيساً ، ولأقام في مكان ما في « السيفين » بأواسط فرنسا ، يمجّد مذهبه ويعظ المؤمنين ويموت في داخل أفقه الضيق المحدود . ولكن فسخ أمر نانت يمنع من الدخول إلى فرنسا ، فيصبح من التائهين . تراه في جامعات لوزان وزيورخ ، وليدن ؛ ويلتحق في عام ١٦٩٠ بمجمع كنيسة فالون في أمستردام . وبعد ذلك يعمل كمصحح في مطبعة ؛ وفي ١٦٩٧ يشد رحاله إلى إنجلترا ، حيث يثبت قياً بعد مكانته في تاريخ الأفكار . سيعمل مربياً لدى عائلات الأشراف ، وسيجوب أوروبا مع تلامذة منتخبين كرائد لهم في (دورهم الكبرى) . وسيغدو عضواً في «جمعية لندن الملكية» ، وينشر المقالات الفلسفية ، والأبحاث التاريخية ، كما ينشر مؤلفات لابروير La Bruyère ومونتاني Montaigne ولافونتين . ويترجم من اليونانية إكزيفوفون ، ومن الإيطالية جريغوريوتي ، ويريدى ؛ ولكنه سيعتبر من الإنجليزية على الأخص : كتاب شفتسبري عن عادة السخرية *Essai sur l'usage de la raillerie* ؛ وكتاب نيوتن عن «علم البصريات» *Traité d'optique* . نيوتن ، شفتسبري ؛ إن المشاركة في تعريف فرنسا بهؤلاء الأعلام ، ثم تعريف كل البلاد اللاتينية بهم عن طريق فرنسا ، لعمل جبار مجيد . ولقد كان عمله أكثر قيمة ، وأشد روعة ، فإنه كان مترجم لوك : ترجم إلى الفرنسية باجتهاد وغيره «بحث فلسفي عن الإدراك الانساني» وهكذا فتح لأوروبا أبواب الفلسفة الإنجليزية — «إن الفرنسيين مدينون لكوست بما يدين به الإنجليز للوك» . . . (١)»

وما دمت لا نستطيع ، عندما نتتبع سير الأفكار ، أن نتألم أنفسنا من الإعجاب بما تتخذه من طرق غير متوقعة ، فلنعجب أيضاً بالسرعة وبالسهولة التي تتقبل بها فرنسا الدور الذي تمليه الظروف . فإنها لا تدعن لهذه القوة التي تظهر في الشمال والتي تهدد سيادتها فحسب ، بل إنها تغدسها . فهي تضيف إلى نشاطها الابداعي الأساسي ، نشاطاً جديداً ؛ إنها ستروج القيم الشمالية في الأسواق اللاتينية . وهي مستقوم بدور الوسيط للفكر البريطاني ، لدى عملائها الإيطاليين والبرتغاليين والاسبان . وهي تتوسط في بعض الأحيان بين

(١) دارجان : رسائل أخلاقية ، الكتاب الأول. D'Argens, *Lettres morales*, I. XXIII.

الشمال والشمال ، حتى إن المؤلف الذي يجي من لندن سيمر بباريس قبل أن يعبر الرين . ولكنها في الغالب لا توصل إنتاجها لحسب بل الانتاج الانجليزى أيضاً ، ثم الانتاج الألمانى ، إلى روما وإلى لشبونة وإلى مدريد . وهى سترسله لا كما يفعل البريد العادى ، من غير اهتمام بما يحمله ، بل إنها على العكس ستزينه وتجمله ! وستجعله يلائم « العادات المشتركة فى أوربا » ، أى الذوق الذى يسود أوربا بفضلها ، الذوق الفرنسى . إن هؤلاء الانجليز ليسوا واضحين ، فيجب أن نوضحهم ؛ إنهم لا يتبعون قواعد المنطق الصريح ، فينبغى أن ندخل النظام على أفكارهم ، إنهم يسهبون فى الكلام فينبغى أن نحملهم على الإيجاز . وهم غلاظ جفاة فينبغى أن نهذبهم ونلينهم . وتشرع فرنسا فى العمل ، فتغير الثياب ، وتقطعها ، وتفصلها من جديد ، وتضع على الوجوه الأصباغ والمساحيق . ومع ذلك فلا يزال الأشخاص الذين تقدمهم إلى العالم ، يبدون غرباء إلى حد ما ؛ لكن إلى درجة إثارة الإعجاب دون الدهشة . وفرلسا عليمه بفضلها ، عارفة بذوق جمهورها ، ولذا فهى تتناول مع مصالحها الشخصية ، مصالح انجلترا ومصالح أوربا . والمترجمون الذين تستخدمهم يعلنون فضلاً وشرفاً ؛ لهم لا يعملون كالعامل البسيط الذى يتوخى أسانة الرقيق ، بل يصيبحون بدورهم مبدعين ، أو على الأقل مفوضين كاملي السلطان . يقول بيير كوست : « كلما وجدت أنى لا أدرك تمام الإدراك فكرة بالانجليزية ، لاشتأطها على معان غير أكيدة (لأن الانجليز ليسوا مدققين مثلنا فى هذا الصدد) اجتهدت بعد تفهمها ، أن أشرحها بالفرنسية فى وضوح ، حتى يصبح من الحال أن يصعب فهمها على القارى . إن النزدية تمتاز على الأخص بوضوحها عن غيرها من اللغات . . . وعلى ذلك يخيل إلى أننا نستطيع الموازنة بين المترجم والمفوض ذى الحقوق الكاملة . ولا كانت هذه موازنة بدیعة ، فأنى أخشى أن ألقى العتاب والتثريب على سبيلغتي فى تقدير عمل لم يجد بعد فى العالم ما يستحق من تقدير . على أنه ، مهما كان الأمر ، يبدو لى أن المترجم والمفوض لا يستطيعان الاستنادة المبتغاة بكل مزاياهما لو بولغ فى تحديد حقوقهما . . . (١) » .

(١) بيير كوست فى مقدمة ترجمته « بحث فلسفى عن الإدراك الانسانى » للوك ، أمستردام . . ١٧٠٠ *Pierre Coste, Avertissement de la traduction de l'Essai philosophique* . . *concernant l'entendement humain, Amsterdam, 1700*

فرنسا ، وسيطة بين الفكر الانجليزى والبلاد اللاتينية : 'مجرى يبدأ هنا ، ويمر على القرن الثامن عشر بأكمله وما بعده .

* * *

سفن تصل حتى وسط المدينة لأفراغ شحنتها ، والحق أن المدينة كلها ليست إلا ميناء واسعاً ؛ عمارات فاخرة ، البورصة ، المصرف ، فندق شركة الهند ، بيوت رائعة على طول القنوات ، نشاط منتظم ، مظهر ثراء ، لا شحاذون ولا فقراء ، بل تجار أقوياء وقوم سعداء : هذه هي أستردام ، كما يتخيلها الغرباء . إنها تبدو لهم وكأنها أرض النعيم :

*Je vois régner sur ces rivages
L'innocence et la liberté.
Que d'objets dans ce paysage,
Malgré leur contrariété,
M'étonnent par leur assemblage !
Abondance et frugalité,
Autorité sans esclavage,
Richesses sans libertinage,
Noblesse, charges, sans fierté :
Mon choix est fait . . . (١)*

إن هولاندا لموسرة وعظيمة . وهى ، وإن كانت انجلترا تنافسها في ميدان

(١) أرى الطهارة والحرية

تسودان تلك الشواطئ .

وما أكثر ما في هذه المنطقة من أشياء ،

أشياء يجبرني تجمعها ، بالرغم من تنافرها !

فالكثرة مع القناعة ،

والسلطة بغير عبودية ،

والثراء بغير خلاعة ،

والأصالة بغير عجرفة :

لقد قررتارى ، وتم اختيارى . . .

قطعة منسوبة إلى جان باتيست روسو ، مسجلة في مؤلفات شوليو ، طبع ١٧٧٤

الجزء الثانى ص ٣٠٤ .

Pièce attribuée à J. B. Rousseau, et recueillie dans les Œuvres de Chaulieu,
éd. 1774.

التجارة ، وإن كانت توشك بعد سنة ١٦٨٨ أن تكون القارب المشدود إلى السفينة الكبيرة ، ومع أنها كانت تفقد رويداً رويداً الروح الحربي ، وحب المغامرة التي جعلت منها قوة عظيمة في البحر والأرض يحسب حسابها ، فإن هذا التبدل لا يدل على قهرها بل على أنها تتمتع بغناها ورفاقتها . ومع ذلك فإن لديها وسيلة أخرى لتتلاءم بالذهب والفضة خزائنها : المصرف . إنها تمثل النموذج الأول للدول الرأسمالية ، فماليتها لا تزال تفتنى وتأسع .

وهذه الحركة المالية الواسعة تقتضي بطبيعة الحال أن تكون هولاندا وسيطة . فهي وسيطة في السياسة ، ما دامت في حاجة إلى قارة متوازنة ، إلى أوروبا يسود ربوعها السلام . وهي أيضاً ملجأ وملاد للاديان . فمن يبذل جهده لتبشير يهودي فهو مسيحي صالح ، ولكنه ليس بالتاجر الماهر . فهولاندا ترعى حرية الضمير ، أولاً لأنها تحمّل الاضطهاد زمناً طويلاً من جراء عقيدتها ، ولأن تاريخها قصة كفاح أبطل في سبيل استقلال العقل ، ثم إنه لا يمكنك أن تجد تجارة أو مصرفاً ، إذا طلبت من الناس شهادة بعمادتهم . ولذا فهي تسمح بقيام الكنائس ، والمعابد اليهودية ، إلى جانب معابدها . إلا أن هذا التسامح ليس مطلقاً ، فإن المنازعات بين القسوس تغير السلطات على التدخل في الأمر ، وهذه السلطات تحارب ، أكثر منها في أي مكان آخر ، المبادئ التي قد تؤدي إلى انهيارها . ولكن تلك الحرية ، وإن كانت لسيية ، جميلة نادرة .

وهولاندا وسيطة أيضاً بفضل جامعاتها . لحول منابرها تتجمع طوائف من طلاب العلم يقبلون من الشرق والغرب ، من الشمال والجنوب ، لسماع الأساتذة الذين يجد بينهم الفرنسيين والألمان فضلاً عن الهولنديين . « لقد نقابل فيها أناس وكتب وأفكار من مختلف البلاد ، وحدثت فيها مبادلات فكرية لم يحدث مثلاً في أي مكان آخر في ذلك الوقت . . . ففي غضون القرن السابع عشر بأكمله وخلال فترة طويلة من القرن الثامن عشر ، درس الانجليز والفرنسيون والاسكتلنديون والدمزكيون والسويديون والهولنديون والمجريون ، فضلاً عن عدد أكبر من مواطنيها ، في جامعات أترخت وجرونينج وفرانكر وليدن . . . (١) »

(١) ج . هويزنج : في دور الوسيط الذي قامت به الأراضي الناطقة بين أوروبا الشمالية والوسطى ، ١٩٣٣ ، *J. Huizinga, Du rôle d'intermédiaires joué par les Pays-Bas entre l'Europe occidentale et l'Europe centrale*

ولما فسخ أمر نانت كانت هولاندا على استعداد . وقبل ذلك كانت هذه الأرض التسامحة الحانية معتادة أن تشاهد حضور الانجليز المنفيين من بلادهم ، الملكيين في ظل نظام كروموويل ، والجمهوريين تحت حكم شارل الثاني ؛ في وسط كل هذه البلايل والثورات ، كلما شعر انجليزى من ذوى المكانة أنه ليس في أمان ، كان يلتجئ إلى هولاندا ، كائناً اسمه ما كان ، سواء في ذلك شفتسبرى ، أولوك ، أو كولنز ؛ وهناك كان ينتظر في سلام ، انفراج العسر وصفو الأيام . ونحو عام ١٦٨٥ كان الهوجونوت الفرنسيون ، قد أقبلوا يطرقون أبواب مدينتها ، فأكرمت وفادتهم وقابلتهم كعاداتها بالعطف والترحاب . وبذلت جهودها حتى استطاعت أن توفر لهم المناصب في مصانعها ، وفي جيوشها ، وفي مدارسها . قبلتهم بين أهلها ، لأنها كانت نفسها بروتستانتية ، ولأنها كانت تكره سياسة لويس الرابع عشر ، ثم لأنها كانت رحمة وافرة الانسانية .

حينئذ حل وقت دورها الدولى الكبير . كانت أوروبا التى تشد تعبيراً لضميرها الذاتى ، في حاجة إلى صحف تكون أوروبية حقيقية ؛ فأهدى الهوجونوت للفرنسيون هولاندا بهذه الهدية الرائعة ، مقابل ما قدمت لهم من حرية وكرم ضيافة . لطالما جرب الناس ذلك ولم يفلحوا أبداً لأسباب مختلفة . فصحيفة العلماء *Le Journal des Savants* — العميد المحترم — تبقى حبيسة في حدود فرنسا ، بالرغم من جهودها المتكررة للاتصال بالتفكير الأجنبى . وصحيفة التقارير الفلسفية *Philosophical Transactions* كانت أميل إلى العلم منها إلى الفلسفة ؛ وصحيفة *le Giornale dei Letterati* كانت تعوزها الحيوية واتساع الأفق ؛ وصحيفة *Acta Eruditorum* في ليبزج كانت ثقيلة بالغة الصعوبة ؛ والخلاصة أنه كان يوجد محل شاغر . وها هى ذى الصحف المرتقبة تظهر الآن : تظهر في هولاندا . في شهر مارس عام ١٦٨٣ « أخبار جمهورية الأدب » *Nouvelles de la République des lettres* لبير بايل ؛ وفي شهر يناير عام ١٦٨٦ « المكتبة العالمية التاريخية » *La Bibliothèque universelle* لجان لكليز ؛ وفي شهر سبتمبر عام ١٦٨٧ « تاريخ مؤلفات العلماء » لباناج دى بوفال *Baanaga de Beauval* . ثلاث صحف محررة بالفرنسية ، كانت تبحث عن قراء أوروبيين .

ولم يطل الانتظار حتى وجد القراء . باللقاء الذى يلهب المؤلفين ، عندما

يفكرون في أن صحيفة ستجود لهم أو ستضن عليهم — كما نشاء — بالمجد الذي يجتاز كل الحدود ، المجد الذي يسرى في كل البلاد ، المجد العالمي ! أى مؤلف لم يتمن معرفة الحكم عليه ؟ من منهم لم يلهج لسانه بالشكر ، إذا اعتقد أنهم قدروا فضله ؟ ومن منهم لا يحتج إذا اعتقد أنهم حطوا من شأنه ؟ — « لدى من الأسباب ما يدل على الشكوى يا سيدي ، من الطريقة غير الشريفة التي تتكلمون بها عني في عدد « أخبار عن جمهورية الأدب » شهر يوليو . . . لا تنتهكوا مبادئ القانون ، احتفظوا بمقاييس الشرف في صحيفتكم ، ولتسربوا مبادئ المحبة المسيحية . . . (١) » — أو : « انتهت الطلبات على كتابي منذ ما كتبتم عنه في « أخبار Nouvelles » ديسمبر ؛ لقد لقي التقدير سلفاً لدى علمائنا الذين يعتقدون أنه لم يوجد الرجل الذي يفوقكم نفاذاً إلى جوهر كتاب ليتفهمه ويقدره حق قدره (٢) » — « منذ ما تشرفت بقراءة مؤلفاتكم ، أعدها كأحد معابد الخلود المقدسة ، حيث لا يشغل مكان إلا باعتناء كبير ، تدعمه أهلية كبيرة . . . (٣) » غير أنه ما من نداء أشد تأثيراً مما وجهه « فيكو » Vico ذات يوم من نابولي إلى (جان لي كليز) : إن الناس لم يقدروه في نابولي حق قدره ، ولكن إذا شاء جان لي كليز ، فسيكون اسم فيكو علماً في كل أنحاء أوروبا (٤) .

إن النور يشع علينا الآن من الشمال . . . وفي الشرق أيضاً تغيرات قيمة تعمل . فنولندا التي أضفها الكفاح ، وأرضها الاسراف في البطولة بعد أعمال « سويسكي » الذي حاز إعجاب كل أوروبا ، تضئها الانقسامات الداخلية . ولقد طالما علمت موسكو المدنية الأوروبية : كانت تؤثر في جاراتها الخشنة بفضل آدابها ،

(١) من الأب دي فيل إلى بيير بايل ، ٣١ أغسطس ١٦٨٦ . L'abbé de Ville à .
Pierre Bayle. Dans le *Choix de la correspondance inédite de Pierre Bayle*, publié par
Emile Gigan, Copenhague, 1890 .

(٢) من فرانسوا برنييه إلى بيير بايل ، ٢٨ فبراير ١٦٨٦ .

(٣) ديلس باين Denis Papin إلى بيير بايل ، ٢٦ يونيو ١٦٨٥ .

(٤) نيكوليني : خطاب من فيكو إلى جان لي كليز . مجلة الأدب المقارن ، ١٩٢٩ ص ٧٣٧ .

E. Nicolini, *Deux lettres inédites de G. B. Vico à Giovanni Le Clerc*, (Rev. de
litt. comparée, t. IX, année 1929, p. 737) .

وعلوسها ، وفنونها الجميلة ، ونظرياتها السياسية ؛ إلا أن موسكو أخذت تبحث من نماذج أخرى . هذا بينما تنهار عظمة السويد ، وتكون « بولتافا » ، آخر ملحمة حربية لشارل الثاني عشر . وهكذا تفارق الشخصيات الرئيسية المسرح لتأخذ مكانها شخصيات أخرى . تواترت الأخبار في باريس — دون أن يلقى الناس إليها كبير اهتمام في بادئ الأمر — أن فردريك الثالث ، منتخب براندنبورج ، استولى على العرش في ١٨ يناير من عام ١٧٠١ في كونيغسبرج تحت لقب فريدريك الأول ملك بروسيا . وترى ماذا يحدث في روسيا ؟ إن أحد أولئك الأدواق الذين يدعونهم قياصرة ، يريد أن يجعل من تلك الكتلة الآسيوية قوة متمدنة ؛ ويلتصم الدروس في ألمانيا وفي الجبر وفي هولاندا وإنجلترا وفي فرنسا ، حتى إن موسكو تتبدل من عام إلى عام : تبديلاً عاماً في الأخلاق والعادات ، والبدع ، وفي أصول الثياب ؛ إن رحالة هولاندياً يدعى كورنيلوس فان برون ، يستشف بصيرته النفاذة هذه التبدلات ، فيسرع في رسم الملابس المحلية لكي يحتفظ لها بالذكى : « بما أن هذا التبدل يستطيع أن يحوكل شئ مع الزمن ، حتى ذكرى الملابس المحلية القديمة ، فقد رسمت ثياب الفتيات على القماش . . . » إن الشعوب القديمة تتعجب ، وتعجب بالقوام الهائل الذي يتبدى فيه بطرس الأكبر ، إمبراطور روسيا .

ولكن ظهور هاتين القوتين العظيمتين لا يتعلق إلا بالمستقبل : فإن بروسيا والروسيا لن تعمل في ميدان الفكر إلا بعد ذلك الوقت . أما في هذه الآونة فالواقع الأساسى هو التالى : إن سيادة الفكر لم تعد لاتينية محضة ؛ إن إنجلترا تطالب بتقسيم النفوذ ؛ إنها تعي قيمتها ، وتنادى بمجددها الذاتى ، بل هى تشعر نحو اللاتينيين من بورغاليين وإيطاليين واسبان وفرلسيين ، باحتقار تحاول عبثاً أن تخفيه ؛ إن هم في نظرها إلا عبدة . يمتدح شافنبري السياسة الانجليزية فيقول : « أما نحن البريطانيين فلدينا — شكراً للسماء — فكرة أصح عن الحكومة ، فكرة ورثناها من تقاليد عريقة في القدم . إننا ندرك فكرة الشعب وفكرة الدستور ، ونعرف نظام السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية . . وإن المبادئ التى نستنبطها من ذلك لبديهة كبادئ الرياضيات . وهذه المعرفة التى تزداد تدريجياً ، تبين لنا يوماً فيوماً ، قيمة « الإدراك السليم » في ميدان السياسة ، ولا بد من أن يصل بنا ذلك إلى إدراك قيمته في مجال الأخلاق ،

التي هي أساسها» (١). بينما يشيد «أديسون» في موازنته بين إنجلترا وإيطاليا بفكرتها عن الحرية: «ما أجملك يا إيطاليا! ... لكن ما جدوى بساط الطبيعة، ومقاتن الفن، بينما يسودك الطغيان والظلم؟ إن السكان التعساء يتطلعون بغير طائل إلى البرتقال الذي يتلون بلون الذهب، وإلى الحب الذي يزكو ويطيب، ويشمون عبثاً أريج الريحان الذي يتضوع: إنهم يموتون جوعاً وسط حقولهم الخصب، ويموتون عطشاً وسط كرومهم الوارفة ... إيه أيتها الحرية! إنك تجعلين البؤس سعادة، أنت التي تعطين للشمس بهاءها، وللنهار لذته وسعته. إن الحرية إلهة إنجلترا، التي لا تحسد مزايا إقليم مناخه أصلح لللسان، فانه يقتضيها ثمناً غالياً. إنك تجد الحرية على صخورها العارية الجرداء. فليحب الآخرون القصور، واللوحات، والتماثيل؛ أما واجب إنجلترا فهو رعاية مصير أوربا، وتهديد ملوكها الزهوين، والاصغاء إلى شكاة جيرانها التعساء ...» (٢).

قال دانييل لاروك «كلما رأيت الانجليز ازداد إعجابي بهم؛ إنهم، في العموم، يفوقوننا في كل شيء». (٣) إن لم على الأقل قيمة وحساباً؛ إنهم على الأقل يؤيدون قوتهم؛ إنهم على الأقل يمثلون فكراً جديداً. — ترى أي فكر؟

(١) شافنسبري، ١٧٠٩ *Freedom of wit and humour*

(٢) أديسون: خطاب من إيطاليا إلى الرايت أونورا بل شارلس لورد هاليفاكس، ١٧٠١
Addison, *A letter from Italy, to the right honourable Charles lord Halifax, in the year 1701.*

(٣) دانييل لاروك: رسالة إلى بيير بايل، ١٢ يوليو ١٦٨٦. Daniel Larroque
à Pierre Bayle, 12 juillet 1686

الفصل الرابع

الأتورودكسية^(١)

حدث في عام ١٦٧٨ أن دخل «بوسويه» Bossuet في مناقشة مع القسيس البروتستانتي «كلود» Claude ، أثارتها مدام (دي ديراس) Mme. de Duras التي تردد بين المذهب البروتستانتي الذي توشك أن تتركه ، وبين المذهب الكاثوليكي الذي تريد أن تعتقه ؛ وكان الزعيان يتواجهان ، ويهاهدان خطوة فخطوة ، من جهة لامتلاك روح ، ومن جهة أخرى في سبيل حقيتهما ، وإيمانهما . فلما وصلا إلى حقوق الضمير الفردى ، بدأ بوسويه يضيق الخناق على كلود : — إلى أى مدى تصل تلك الحرية التي يطالب بها السادة دعاة الكنيسة الجديدة ؟ أليس لها أى حدود ؟ أكل فرد إذن ، كل امرأة ، كل جاهل مهما كان ، يستطيع أن يعتقد ، ويجب أن يعتقد ، أنه يمكنه أن يدرك كلمة الله أكثر من مجمع بأجمعه ، ولو اجتمع من جهات العالم الأربع ، وأكثر من باقى الكنيسة ؟ فأجاب كلود : نعم إنه كذلك (٢) .

(١) الأتورودكسية Hétérodoxie عكس الأورثوذكسية ، والأورثوذكسية هي موافقة الاعتقاد الدينى السائد . [المترجمان]

(٢) بوسويه : محادثة مع السيد كلود تتعلق بعصمة الكنيسة ، عام ١٦٨٢ ويشرح كلود أسبابه في كتابه « رد على كتاب السيد أسقف مومس Monsieur l'Evêque de Meaux المعنون محادثة مع السيد كلود » ١٦٨٣ ص ٤٨٥ فيقول : يقول ذلك الأسقف إنه — بحسب ما قلنا — فكل فرد مهما كان جاهلا يجب عليه أن يدرك كلمة الله أكثر من الجامع العالمية ، ومن كل الكنيسة بأجمعها ، وهذا القول يؤخذ على محملين : أولهما أن كل فرد مهما كان جاهلا ملزم بأن يعتقد أنه يدرك كلمة الله أكثر مما تدركها الجامع العالمية الحقيقية المكونة من قوم من الأخيار الأبرار ، من رجال أتقياء ، علماء حكماء ، مجتعيين باسم المسيح . وثانيهما أن كل فرد مؤمن ، وهبه الله الروح القدس ، ملزم بأن يعتقد أنه يمكنه أن يدرك كلمة الله أكثر مما تدركها الجامع العالمية الكاذبة ، المكونة من أشخاص دينيين =

أزمة الضمير الأوربي

عندما انتقل الخلاف الأبدى بين السلطة والحرية إلى ميدان الدين ، بلغ عنفوانه ، إذ تعارضت أشد التعارض وأقساه ، المبادئ التي على الناس أن يختاروها لتوجيه الحياة . كلود وبوسويه ، بطلا قضيتين متعارضتين ، عظيمان بين العظماء ، يدافعان أمام روح عليها أن تقرر نصيبها بنفسها ، أمام فرنسا ، أمام أوروبا — الأول عن حق التفكير بلا إلزام ، عن حق الفحص بغير تقييد أو تحديد ، عن حق تغليب أحكام الضمير الفردي على الارتضاء العام ؛ بينما يدافع الثاني عن إرادة التفكير المشترك ، عن السعادة في طاعة نظام قد قبله الناس قبولاً نهائياً ، وعن ضرورة الاعتراف بسلطة لتسيير ركب الحياة .

في ذلك التاريخ ، كان كلود يدافع عن قضية تبدو كأنها خاسرة ، وبوسويه يدافع عن قضية ظافرة . كانت الأتورد كسبية *hétérodoxie* (معارضة الأورثوذكسية) تتقهقر ، وكان مذهب لوثر الألماني *Luthéranisme* يضعف ويتعثر ، باعتراف زعماء البروتستانت ، وكانت البروتستانتية الإنجليزية في خطر ، يهددها الكاثوليك أعوان أسرة ستيوارت من جهة ، والمخالفون من كل لون من جهة أخرى . كان أعداء الانقلاب الديني *La Réforme* (١) قد استردوا شطراً كبيراً من وسط أوروبا ، ولم يكن الجيرونديون أنصار النظام والطاعة ، أعظم مما كانوا في ذلك الحين .

= نفعيين ، منافقين ، أي من أشخاص لم يمن الله عليهم بالروح القدس ، وأكثر مما يدركها كل أولئك الذين يمين مجتمعين ، وإن كانوا يخلعون على أنفسهم كذبا اسم الكنيسة .
أما المعنى الأول فهو عبارة عن ادعاء محض يرفضه البروتستانت . وأما المعنى الثاني فيتضمن حقيقة من البدهية والوضوح ، بحيث لا يستطيع بوسويه أن ينتصر عليها بأية حال .
(١) *La Réforme* : حركة دينية بدأت في أوائل القرن السادس عشر وحطمت الوحدة الكاثوليكية بخروج بلاد شمال أوروبا على الطاعة التقليدية للكنيسة ، وللبابا على الخصوص . وكان جان هوس من المبشرين السابقين بهذه الحركة التي عززتها الهزة العميقة التي شعرت بها العقول نتيجة للنهضة . وفي ألمانيا كان بطلها مارتن لوتر الذي التجأ إلى فارتنبورج ومن هناك نظم الحركة ضد الكاثوليكية الرومانية . وفي ١٥٣١ جاء جان كالفين إلى سويسرا عقب فراره من فرنسا ، يبشر بالمذهب الجديد ، الذي ينكر ألوهية المسيح ولا يعده إلا نبيا وينصح بالرجوع إلى المسيحية الأولى ، ومبادئ العهد القديم ، وينكر التقاليد الدينية والراسم ويسبب للسلطة مصدرا ديمقراطيا . واشتهر الفرنسيون التابعون لسكالفين باسم الهوجونوت . وهذه الحركة يتكلم عنها الكاثوليك على أنها «انقلاب» ويتكلم عنها البروتستانت بحسبانها إصلاحا . [الترجمان]

الأثورو دكسية

٨٣

إن فرنسا ، أكثر البلاد منطقاً ، وأقواها إرادة وتصميماً إذا تعلق الأمر بالأعكار ، قد افتتنت بهذا الميل إلى الوحدة الكاملة . إن ملكاً عظيماً أحال المسألة السياسية المعقدة إلى مبدأ بسيط يشعر بشئ من الألم والضيق ، ويعتقد أنه لم يتم رسالته بعد ، طالما يبقى في أعماق القلوب انقسام وتشتيت ، وطالما تبقى أقلية تتبع ديناً عاصياً . كان الحلم الذي يراود خيال لويس الرابع عشر : تنظيم كل شئ حتى العقيدة ، وتوحيد كل شئ حتى الإيمان ، والقضاء على البروتستانتية حتى لا تبقى إلا كنيسة واحدة في دولة قد نظمت أحسن تنظيم . نحاول أن نقضى على الدين الذي يزعمونه مصلحاً ، بالمجادلة والمهادنة في أول الأمر ، ثم رويداً رويداً بالقوة . كان البعض يقولون له ، وكان يجد رضا في التصديق ، إن الانقلاب الديني الذي خرب فرنسا فيما سبق بالحديد والنار ، لم يجر من السلاح ولم يضعف لحسب ، بل خارت قواه ، واقترب من نهايته المحتومة . كتب الأب مامبورج le P. Maimbourg في مؤلفه تاريخ مذهب كالفين *Histoire du Calvinisme* إنه لا تزال أمامنا خطوة أخرى «وحيثما سيخمد قريباً ذلك الحريق المشعوم الذي جر على فرنسا كثيراً من التخريب ، والذي لا يتبقى منه اليوم إلا دخان طفيف . ولما كنا جميعاً يربطنا في الملكية المسيحية قانون واحد يلزمنا جميعاً بالخضوع لملك واحد جاد به الله علينا ، فإني كبير الأمل في أن يربطنا أيضاً إيمان واحد . » ولما كانت فرنسا تعطي مثلاً يحتذى ، ولما كانت نموذجاً لأوروبا به يقتدى ، أفلا يفكر الناس أن إنجلترا قد ترعوى وتهتدى إلى الكاثوليكية بدورها ؟ كان الأب مامبورج يستشف ذلك الانقلاب ! — « لى أمل أنه ذات يوم ، سيبدد الله بنور لعائنه الظلام الذي قد نشره الشقاق مشعوم ، أعقبه كفر ، على إنجلترا منذ قرن أو يزيد ، وسيضيء عيون الإنجليز من جديد بشمس الحقيقة التي ستجمع كل العقول في طريق الإيمان ، الذي علمهم إياه القديس جريجوري الكبير . » هكذا كان يفكر الجميع ، إنه بفضل « الملك المجيد المسيحي جداً » سيرد إليهم الكساء الجميل الذي كان يرتديه المسيح ، وبذا يتحقق انتصار الأثورو دكسية .

لما فسخ لويس الرابع عشر في شهر أكتوبر ١٦٨٥ أمرنات ، كان في ذلك مطبقاً ومطبّقاً لمبادئه . إلا أنه لم يكن مخلصاً للروح المسيحية ، فانه أخطأ في تقدير طبيعة الضمير البشري . إن الضمير البشري لا يحتمل الشبهة ،

وهذا سر نبلة وعراقته ، مر عظمتة . إن شدة الطغيان لا تدفعه إلا إلى العصيان . لذلك قلما تجد من الأحداث ما كان أحسم وأحفل بالنتائج التي تؤثر في المستقبل مثل فسخ أمر نالت . وعلى قدر ما نستطيع أن نتوقف عند تاريخ ، لتسجل حركات التفكير ، فانه لمن الصواب أن نقول إن سنة ١٦٨٥ تسجل أوج انتصار الهجوم على الانقلاب الديني ، أما بعد ذلك فيأتي الجزر .

أما في الخارج فها للضجة التي تعالت ، ويا لصيحات القتال التي دوت ! إن الثورة الانجليزية التي نشبت في عام ١٦٨٨ لم تكن سيامية لحسب ، بل دينية أيضاً . وإن انتصار وليم أورانج لم يكن فوزاً للبرلمان لحسب ، بل كان ظفراً للإصلاح الديني أيضاً . ولم يجد الناس في شخصه الذائد عن حقوق الشعب فقط ، بل منقذ الدين ، بطل البروتستانتية . كذلك لقد كان لويس الرابع عشر ، في نظر بلاد الشمال قاطبة العدو الأكبر ، عدو الايمان الحر ، فكانوا يرددون أن فعلته كانت الدليل القطعي الظاهر ، والرمز البين لحكمه الظالم ، وجوره ووحشيته وجبروته ، واحتقاره لحقوق الانسان ؛ إن ذلك الميكافيلي Machiavel (١) ، ذلك الوحش (٢) ذلك الدجال Antéchrist (٣) ، لا يكتفى بأن يفرض على العالم قوة السلاح ، ولا يقنع بفتوحاته وسياسته القائمة على المداينة والنفاق ، بل يصبو إلى السيطرة على الأرواح ، ويروم إحلال قوانينه محل نداء السماء ! وقد بلغ من قوة هذه المذمة أن وصل صدها إلى العالم الجديد .

(١) ميكافيلي : صاحب كتاب « الأمير » و« فن الحرب » يتلخص مبدؤه في أن الغاية تبرر الوسيلة وقد صار عنواناً للرجل الذي لا يعرف وخز الضمير ، والذي يخرق العرف ويخرج على الأخلاق في سبيل تنفيذ مآربه السياسية ، ١٤٦٩ - ١٥٢٧ . [المترجمان]
(٢) *La Bête de l'Apocalypse* : الوحش المذكور في رؤيا يوحنا بالانجيل « ثم وقفت على البحر . فرأيت وحشاً طالعا من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونيه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تعديف ، والوحش الذي رأيته كان شبه بحر وقوائم كقوائم الدب . وقمعه كقمع أسد . . . » (انجيل يوحنا ، الاصحاح الثالث عشر) . [المترجمان]
(٢) الدجال L'Antéchrist أو النبي الكذاب المذكور في رؤيا يوحنا اللاهوتي سالف الذكر ، الذي سيظهر قبل يوم القيامة ويغرق الأرض في الاجرام والدم ، حتى انتصار المسيح . [المترجمان]

الأثورودكسية

٨٥

يقول بنيامين فرانكلين إنه قد سمع في صباه ، قوما في كنيسة في فيلادلفيا يلعنون « ذلك العجوز الرجيم ، مضطهد شعب الله ، لويس الرابع عشر (١) » أي بذرة تنبت البروتستانتية في أوروبا ، أولئك الفرنسيون المطرودون من فرنسا ! كانوا يشهدون العالم على ما عانوا من عذاب وما حاق بهم من سوء . لقد ظلوا منين وسنين يطاردون كالأوحوش ، ولما كانوا قد رفضوا أن ينكثوا اليمين ، فقد عوملوا معاملة المجرمين . وكانت قلاع المعارضة لا تقتصر على جنيف وبرلين ، ويودابست بل كان هناك أيضاً ملجأ هولاندة وإنجلترا حيث عشرات الكنائس وآلاف المؤمنين . وكان أولئك الفرنسيون الأقوياء ذوو العزم الشديد ، الذين اعتادوا المقاومة والجهد منذ أمد طويل ، يضعون في خدمة الإصلاح الديني « قوات عديدة : هبة أولئك الذين يهتمون بالعذاب في سبيل الإيمان ، وبداهة الظلم المبين الذي عانوه ، وقوة جدالية كلها حياة وحيوية ، وقدرة طائفتهم على الاقتناع ، وسخطا جنونيا يلزمهم مدى الحياة ثم يورثونه لسلمهم من بعدهم .

كم تغير صوت القسيس كلود ، بعد ما فسخ لويس الرابع عشر الأمر الشهور ! يعلن كلود أنه قد مضى الزمن الذي كان المرء يستطيع فيه أن يقارع الدليل بالدليل ، والسبب بالسبب ، وإذ لم يكن الظفر إلا في سلامة النية . فالظفر كيف خدعوه ، ومن معبده اقتلعوه ، وكيف أجبروه على أن يأخذ طريق المنفى في بحر أربع وعشرين ساعة . يا للذكريات الأليمة ! لقد أقبلت الجنود ، وطوقت الطرق ومنازل المدينة ، حيث نصب الحراس ، ثم أخذوا يتقدمون وسيوفهم مشرعة صائحين : « القتل . . . ! القتل ! أو الكتلكة ! وبين صيحات السهاب والانتحاب ، أخذوا يشنقون الناس ، رجال ولساء ، من الشعر ومن الأقدام ، على أسقف الغرف أو منحنيات المداخل . وكانوا يعذبونهم باستنشاق دخان القش المبلول ، وينتفون شعر الخي والرهوس ؛ وكانوا يلقون بهم في نيران أشعلت خصيصاً لهذا الغرض ، ولا يخرجونهم منها إلا نصف مشويين ، وكانوا يغاثونهم بالحبال ، ثم يغطسونهم في الآبار ، ولا يخرجونهم منها إلا بعد وعاء ، بتغيير الدين . . . » هل كان ملك فرنسا يجهل أن الإيمان ينزل من

(١) مؤلفات بنيامين فرانكلين ، طبعة شمت ، الجزء السادس ص ٨٦ . *Writings of*

B. Franklin, ed. Smith, t. VI

النساء ولا صلة له بسياسة البشر ؟ وأن وسائل الالتزام لا تؤدي إلا إلى خلق الكفار أو المنافقين ، وأنها تزيد المخلصين صلابة وثباتا يتغلبان على كل عذاب مبین ؟ ألا يدرك أن في استعمال تلك الأساليب خروجاً على قانون دول أوربا ؟ وأنه بخرقه وعد أسلافه والثقة العامة هذا الخرق الفاضح ، لن يثق الناس فيما بعد بوعده يقطعه أو ميثاق يبرمه (١) !

هكذا أخذ عدد كبير من قساوسة البروتستانت يستنزلون اللعنات ويهكون بكاء اليهود على شواطئ بابل (٢) ! نذكر منهم جاك باناج ، جاك سوران ، J. Saurin ، إيلي بنوا Elie Benoist ، اسحق جاكواك Isaac Jaquelot . ولكن إذا أردنا أن نعرف إلى أي حد وصل الغضب العاصف ، فينبغي أن نصغي قليلاً إلى كلام بيير جوريو Pierre Jurieu . كان مقطوراً على الشغف بالمجادلة ، ولكنه كان يتجمل بالصبر طالما هو يبقى على أرض فرنسا : فلما نفى ، جن جنونه . وأخذ يقول في هذيان المحموم ، ما يقوله الآخرون في أسلوب رزين ؛ وكان يوقع نفسه في الخطأ بهوره وتخريفه ؛ إلا أنه يلتمس له العذر فقد كان مدفوعاً بتلك المشاعر التي لم يتفرد باحساسها . كان يقف كالحارس من فوق الأسوار ، محتجاً ضد البابوية ، ومجمع ترائت ، ويمتدح الإصلاح الديني ، ومشجعاً المخلصين على المقاومة ، داعياً إياهم ألا يذعنوا للقوة ، ياعثاً إليهم برسائل للارشاد ، كما كان يفعل رهبان الكنيسة القديمة مع المسيحيين الواقعين تحت نير الاضطهاد . وكان يتنبأ ، قائلاً أنه لن يبعد اليوم الذي ينتهي فيه حكم « النبي الكذاب » وإن مملكة الشيطان ستؤول إلى الدمار ، وإن الكنيسة الحققة ستستعيد تاج المجد والفخار . سينتهي الأمر في عام ١٧١٠ أو على الأكثر في عام ١٧١٥ ، إذ

(١) شكوى البروتستانت المنفيين من مملكة فرنسا ، ١٦٨٦ .

(٢) يقصد تشبيه البروتستانت الطرودين من فرنسا باليهود السبيين إلى بابل عقب غزو ملك الكلدانيين لأورشليم : « فكانوا يهزءون يرسل الله ورذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء . فأصعد عليهم ملك الكلدانيين لقتل مختارهم بالسيف في بيت مقدسهم . ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده . وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعاً إلى بابل وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آلتها الخبيثة . وصبي الذين نجوا من السيف إلى بابل . . . » لعهد القديم ، أخبار الأيام الثاني ، الأصحاح ٣٦ . [المترجمان]

الأثورودكسية

٨٧

يعود البروتستانت إلى فرنسا ظافرين . ولم يعدم من يصدقه ، ويتبعه ، ويناقش مواعيد ذلك العود السعيد : فنحو عام ١٧٢٠ أو ١٧٣٠ سيسترجع النفيون أورشليم . - . ولم يكتف بما أبداه من صياح وجنون وهذيان ، بل التحق بخدمة منتخب براندنبورج وملك إنجلترا ضد فرنسا ؛ ودبر عصيان البروتستانت في مختلف أنحاء المملكة ، ونظم حركة جاسوسية ضد بلاده ، فكان يرسل الجواسيس ويستقبلهم ويدفع أجورهم . وانزلق جوريو من حقد إلى حقد ، حتى سقط إلى هذا الدرك ، الذي بقي يمثله إلى أن مات في ١٧١٣ .

إن الروح الحقيقية في الصحف الفرنسية في هولندا ، الروح التي نسمى إلى شرحها بالذات ، هي أنها غير موافقة للدين القائم ، إنها تنادى بصوت الأثورودكسية . لا شيء في صحيفة « أخبار جمهورية الأدب » يتعلق بالسرديات أو القصص أو الأشعار ، ومثلها في ذلك « المكتبة العالمية » . وإذا كانت صحيفة « تاريخ مؤلفات العلماء » قد شرعت تخصص حيزاً للأدب ، فهي إنما تفعل ذلك في انطواء وخجل . حقا ، إننا سنرى تقدما ، وسنرى الاستعلام يزداد على مر السنين ، بازدياد ثروة إنجلترا من الأدباء ذوي الموهبة والعبقرية ، بيد أن الذي كان يهم تلك الصحف قبل ١٧١٥ لم يكن الأدب بل التفكير . إن هؤلاء الصحفيين من خريجي المدارس الأكاديمية البروتستانتية ؛ فلا يكادون يسمعون أحداً يتحدث عن الأخلاق أو المذاهب حتى يبلغ بهم التأثر كل مبلغ ، فتلك هي اللغة التي درسوها في مجامعهم ، وبذا يتذكرون علومهم وتفكيرهم ، ويهدون علة كيانهم *leur raison d'être* . فيشرعون اليراع وينكبون على الكتابة في تلك الموضوعات المألوفة لهم . ولا يذهبن بنا الظن إلى أنهم هواة فن ، يبادرون إلى كشف روائع الجبال ليقدروها كفنانيين ، فما كان لهم بالجبال اهتمام . أما ما يثير فيهم الوحي والألهام فهو روائع أرنو ونيكول M. Arnaud, M. Nicole وتفسير ريشارد سيمون ؛ وفيما يخص الانجليز أبحاث اسحاق بارو Barrow ، وتوماس براون ، جلبرت بورنت G. Burnet ، وهنري دودويل Dodwell . وبينهم وبين أولئك المؤلفين قياس مشترك : إنهم يفهم بعضهم بعضا ، ويتفاهمون حتى في غمار المجادلة الشائقة ، خبزهم اليومي . فمذهب

جانسينيوس (١) أو مذهب مولينا (٢) ، الاختيار أو القدرية ، والعناية الالهية أو القضاء والقدر ، ذلك كان مجالهم . وقاعدة «الوحدات الثلاث» (٣) تبدو لهم أقل أهمية من التفسير الفلسفي للعالم . وهم ليسوا جوالى أرض يفطرتهم ، بل ينتمون إلى طائفة أخرى غير طائفة السالحين والشاردين : طائفة ذات همة وحمية ، تضم مفسرى الكتب المقدسة ، وآباء الكنيسة ، والملحددين ، وفلاسفة النهضة ، وقادة الانقلاب الدينى ، وقضاة محاكم التفتيش ، وأعضاء مجمع ترانت ، والأحياء الذين يهاجمونهم ، كالأب مامبورج ، وفرانسوا لامى ، ويوسويه : طائفة اللاهوتيين .

كانت المهمة الأولى لصحفي هولاندا ، أن يعملوا على احتفاظ الروح التى تحرك الإصلاح الدينى بقوتها وحيويتها . إنهم يواصلون عمل آبائهم الهوجونوت ، مضاعفين إياه ، ومضفين رنة جديدة عليه ، بيد أنه لا فرنسا ولا روما يخفى عليهما ذلك ، وبالرغم من محاولات بايل لاجتذاب السلطات ، بل حتى مDAHنة السلطة الملكية ، فقد صودرت صحيفته فى باريس وحرمت فى روما . هيا فنظر عن كئيب إلى جان لى كلير Jean Le Clerc مؤلف «المكتبات» الثلاث : إنه رجل لا يفرغ . لا تموت صحفه إلا لتبعث من جديد ، ويتغير الناشرون وهو يستمر ويسير ، تتراكم الكتب فيجد فى ذلك سعادته ، ويشكو التعب ويجد فى ذلك متعته . ويضيف إلى إنتاجه الصحفى كتلة من المؤلفات ؛ إنه يمثل نموذجا ، معهوداً فى ذلك الوقت ، بمؤذج العلماء الذين يقضون الليل فى الكتابة ، بعد ما كتبوا طوال النهار ؛ وإلا فكيف يتركون مثل هذا العدد من الصفحات ، إذا لم يكن الأمر كذلك ؟ إن له مؤلفات عميقة فى العلم ، والنقد ، والتفسير ، والفلسفة ، والتاريخ . وقد طبع ونشر إيرازم وجروسيوس ، وترجم

(١) مذهب جانسينيوس : أظر بيان ص ٣٩ .

(٢) لويس مولينا : يسوعى أسبانى ولد ١٥٣٥ فى كوينكا صاحب المذهب المولينى الذى يقول بالتوفيق بين النعمة الالهية والاختيار وهو مذهب حرمة الكنيسة . [الترجمان]

(٣) أى وحدة الحركة والزمان والمكان : قاعدة الأدب الكلاسيكى الفرنسى التى تقتضى أن تمثل المسرحية : (١) موضوعا أساسيا واحداً ؛ (٢) وتحدث فى مدى يوم واحد ؛ (٣) وفى بناء واحد أو على الأقل مدينة واحدة .

الكتاب المقدس . هذا فضلاً عن أعمال أدبية مختلفة ، من كل نوع ، حتى مراجعة قاموس موريري . . .

ولكنه لم يتغير على طول الطريق الحافل بالنشاط . لم يكن جان لي كلير رجل أدب ، فان أسلوبه خال من كل المحسنات ، ويبدو كأنه لا يلتفت أبداً إلى جرم الكلمات ، قائماً بغزارة المعلومات . إنه يعلم ويؤثر . لقد درس في جنيف حيث درج ، والتحق بجامعة سومير ، وخدم في كنيسة فالون ، ثم في كنيسة سافوا بلندن ؛ وأخيراً أقام في أمستردام حيث كان خلال سبعة وعشرين عاماً مدرسا للعلوم الفلسفية واللغوية والعبرية ، بجامعة أرمينيوس في هذه المدينة . « لقد درس ثلاثة أشياء : الآداب والفلسفة واللاهوت . . . » وأغنى بالآداب دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية ، أي معاونات الفلسفة واللاهوت . ذلك دأبه في حياته ، وفي كتبه ، وفي مجالاته : يستغل كل ظرف ليتناول المسألة الدينية ويشرحها حسب طريقته . « كان يجهل سر اجتذاب الإعجاب ، وسر التعليم ، وهو ما يفوق العلم بمراحل . . . (١) » . ذلك لأنه لم يجر وراءه ، إذ أنه لم يكن يريد — على حد قوله في مقدمة مؤلفه « المكتبة القديمة والحديثة » — أن يسلي القاري ، بل أن يعلم الحق والفضيلة .

وما كان الأمر يختلف فيما يخص الكتب التي تنشرها هولاندا بوفرة ؛ « لا يوجد في الأرض كلها إلا عشر مدن أو اثنتا عشرة مدينة يطبع فيها عدد وفير من الكتب . ففي المجلترا : لندن وأكسفورد ، وفي فرنسا : باريس وليون ، وفي هولاندا : أمستردام ولهدن وروتردام ولاهاي وأوترخت Utrecht ، وفي ألمانيا : ليبزج : Leipzig ، وليس هناك غيرها تقريباً (٢) . » خمسة مراكز للطباعة في هولاندا ، بينما لم يكن في المجلترا وفرنسا إلا مركزان في كل ، تلك لعمرى نسبة رائعة . وكان في أمستردام على ما يقال ، أربعائة طابع أو ناشر . ولم يكونوا هولانديين بحسب ، بل منهم الألمان ، والفرنسيون ، والإنجليز ،

(١) فولتير ، « عصر لويس الرابع عشر » ، جدول الكتاب الفرنسيين Voltaire ،

. *Siècle de Louis XIV*

(٢) شهادة مؤرخة ١٦٩٩ ، يذكرها هـ . ج . ريسنك H. J. Reesink (المجلترا والأدب الإنجليزي في المجلات الفرنسية الثلاث الأقدم في هولاندا ، ١٩٣١ ، ص ٩٣) *L'Angleterre et la littérature anglaise dans les trois plus anciens périodiques français de Hollande, 1931.*

واليهود . وكان بينهم ذور والعقول المتنازعة ، الذين لم يقتصر اهتمامهم على الناحية التجارية ، لكن كان بينهم أيضا المزورون المتحلون . فان « صحيفة العلماء » المؤرخة ٢٩ يونيو ١٦٨٢ تحتج على « انتحال لبعض أصحاب المكاتب في أمستردام ، يتعلق بتزوير فاضح » . وذلك لأنها لم تكن قللت الحسب ، بل شوهدت في هولاندا أيضاً . فاحتج بايل في عام ١٦٩٣ قائلاً « ذلك نهجهم ، فهم لا يعطون شيئاً للمؤلف ، لا سيما إذا لآخ لم إمكان نشر الصورة في باريس ، فهم يحتفظون بحق تقليدها هنا ، دون أن يكلفهم ذلك شيئاً بالنسبة للمؤلف . . . » بتلك الوسائل ، كانت الكتب سريعة التكاثر : ما تجده منها في أماكن أخرى ، وما لا تجده على الإطلاق . إن المنسوخات التي تتميز بشئ من الجسارة لم تكن لتجد ناشراً في فرنسا ، إلا بفضل إغضاء السلطات ، الذي هو من طبع البلد ، وكان نشرها في إيطاليا أشق وأصعب ، أما في إسبانيا والبرتغال فكان المشروع ميثوساً منه تقريباً . وعلى العكس من ذلك كان الكتاب الذي تمنعه الرقابة وتصادره السلطات ، تهيأ له في هولاندا سبل الحياة ، ويجد الطابع والناشر الذين يهيئان له سبل الانتشار ، والاشتهار . قال فيلون عندما أرسل إلى بواتوليعظ المهتدين الجدد ، إنه ينبغي أن ننشر لهم بحوثاً في تقريب الكاثوليكية ، مبهورة بعلامة مزورة لمدينة من مدن هولاندا : فان تلك العلامة لا بد أن توحى بالثقة إلى نفوس القراء ، الذين ما فتئوا متأثرين بالروح البروتستانتية . أما أن كاثوليكياً مثل أرنو يسمح لنفسه بطبع مؤلفاته في هولاندا ، فهذا ما يراه جورويو إهانة ، بل خيانة ، فقد كان يرى هولاندا أرض القديسين ، قلعة الله ، التي ينبغي أن تبقى محرومة على البابويين ، فلتبقى لفرنسا كتب الكاثوليكية ، ولتكن هولاندا كتب الإصلاح . لذلك كان للمتحررين الفرنسيين حسابات جارية في لاهاي : حيث لحرية الفكر مكفولة : وحيث يتحرر المؤلفون من طغيان المبادئ السياسية والعقائد الدينية ، فلم يكن بد من أن يتخذ منها كل فكر حر منها وسوراً .

وكانت الكتب المحرمة والكتب المصادرة والكتب الملعونة تدخل فرنسا الكاثوليكية تحت حكم لويس العظيم ، بطريق التهريب ، رغم كل ما اتخذ على الحدود من تدابير ، وكانت تخفى بين أمتعة المسافرين ، وتمر عن طريق مدن الشمال أو غسود المائتين ، حتى تصل إلى باريس ، فاحتج المدافعون عن

الأثوروذكسية

٩١

الأورثوذكسية ، كما كان متوقعاً . لقد عرف محررو « مذكرات تريفو (١) » *Les Mémoires de Trévoux* وكانوا خير حفظة عليها ، أن رقائهم الساهرة كثيراً ما تنخدع . « عنوان مؤثر جليل ، وورق مصقول ، وحروف جميلة وصور لطيفة ، تلك زينة الكتاب ، وهي دائماً رائعة في هولاندا . وإنه لشعار جميل وإن كان لا يدل دائماً على جودة البضاعة ، وذلك شأن ما يرد عن هذا البلد بطريق التهريب (٢) » . ويقول بوسويه Bossuet « أنا من زمن قريب من هولاندا كتاب تحت عنوان : « تاريخ نقدي لأهم مفسري العهد الجديد » *Histoire critique des principaux commentateurs du nouveau Testament* للقسيس ريشار سيمون R. Simon . وهو أحد الكتب التي لا تستطيع أن تلقى تأييداً في الكنيسة الكاثوليكية ، وبالتالي لا تجد تصريحاً لتطبع بيننا ، ولذا فهي لا تستطيع أن تظهر إلا في بلد يسمح فيه بكل شيء ، وبين أعداء الإيمان . ومع ذلك ، فبالرغم من حكمة الحكام ويقتظهم ، فإن تلك الكتب تتوغل بيننا رويداً رويداً ، إنها تستشري ، فإن الناس يتبادلونها سرّاً ، وما يجعلها جذابة مرغوبة ، هو كونها نادرة ، غريبة ، مطلوبة ، أو الأخرى كونها ممنوعة . . . (٣) » ولم تنفرد هولاندا وحدها بنشر كتب عدائية ضد لويس الرابع عشر وضد روما ، فقد كانت سويسرا وألمانيا تنتجان مثلها ، ثم انجلترا حيث كثرت تلك الكتب ، لأن الانجليز ، كما يقول ريشار سيمون ، بحاث عظام في سيدان الدين . حتى إن الأثوروذكسية أصبحت تكتنف فرنسا ، من جنيف إلى لندن . وكان الدور الذي أنيط بالهولانديين ، وأكثر منهم بالهوجونوت الفرلبيين اللاندين بهولاندا ، أن يدخلوا تلك المشاعر وتلك الأفكار المتمردة حتى قلب فرنسا نفسها .

وكان الشقاق يستفحل . قال فيليون « ياله من حكم قاس بالانفصال ، أوقعه الله على الأرض في القرن السابق ! فإن انجلترا ، بتعطيمها رابطة الوحدة

(١) مذكرات تريفو : مجلة أدبية انتقادية أسسها اليسوعيون في فرنسا (تريفو) للمجادلة ضد المدرسة الفلسفية . [الترجمان]

(٢) فبراير ١٧١٩ ، المادة الخامسة عشرة .

(٣) دفاع عن تقاليد الكنيسة وعن الآباء القديسين ، مقدمة (طبع لاشا ، ص ٨)

-Défense de la tradition et des Saints Pères, Préface, Ed. Lachet, p. 8.

المقدسة التي تستطيع وحدها أن تكبح جماح العقول ، قد أوقعت نفسها في وهم كبير . إن ألمانيا والدانمرك والسويد وشطراً من هولاندا ، فروع اقتطعها السيف المنتقم ، ولم يعد لها بالشجرة القديمة أى اتصال . . . (١) . ولم يكن لفسخ أسر نانت من أثر إلا أن يزيد حكم الانفصال قوة وبريقاً . لقد سجل إحياء محالفة فكرية أخلاقية لن يبطل لها نشاط ، حتى عندما توقع جيوش أوروبا عهد السلام . قال ليبنتز « الآن ، يواجه الشمال كله تقريباً جنوب أوروبا ، إنه الشطر الأكبر من الشعوب الجرمانية في مواجهة اللاتين (٢) » . والواقع أن الإصلاح الدينى ، الذى يبدو منهزماً في فرنسا ، كان في خارجها أشد قوة وأتم وحدة . ولقد قال بوسويه « إن الإصلاح الدينى الذى تدعونه ، إذا قدرنا القوة التى تسنده من الخارج ، لم يكن في يوم من الأيام أكثر قوة ووحدة . إن كل الأحزاب البروتستانتية تتحالف . . . في الخارج يبدو الإصلاح أعظم وأخطر مما كان في أى يوم من الأيام (٣) » . الإصلاح الدينى أو مذهب كالفين على وجه التحديد .

ذلك لأن مذهب لوثر ، في الواقع ، « منزو منعزل في الشمال (٤) » ، فهو ينطوى على نفسه ، قالماً بركة محلية محدودة ، فانه ليس مقدراً نحو الفتوحات الكبيرة بفضل دولة متحصرة ، ولما كان ينقصه الطموح ، فانه تعوزه المرونة . هذا بيتا مذهب كالفين ، ينتقل مع الهجرتا من نصر إلى نصر . وقد نشر جون لوك في عام ١٦٩٠ بحثين يؤيد فيهما تولى رجل مقلد الحكم تأييداً نظرياً ، وهذا الرجل هو وليم أورانج الذى قد يعد أكبر ممثل لمذهب كالفين في أوروبا ، ولهذين البحثين مقصد هو أن يكونا لقانون الجديد للسياسة الحديثة : وهما يستلهمان وحى جنيف (٥) ، الذى

(١) فنيلون : موعظة لمناسبة « عيد الظهور » ٦ يناير ١٦٨٥ : Fénelon, *Sermon pour la fête de l'Épiphanie* .

(٢) ليبنتز : في رسالة إلى بوسويه ١٨ أبريل ١٦٩٢ . Leibniz, à Bossuet, 18 avr. 1692.

(٣) بوسويه : الاخطار الأولى إلى البروتستانت ١٦٨٩ ، Bossuet, *Premier avertissement aux Protestants* .

(٤) الأب ماسبورج : تاريخ مذهب لوثر ١٦٨٠ ، من ٢٦٨ ، Le P. Maimbourg , *Histoire du Luthérianisme* .

(٥) لأن جنيف — كما يذكر القارىء — كانت ملجأ لكالفين بعد فراره من فرنسا ، حيث أنشأ جامعة كبيرة لمذهبه . [الترجمان]

يشقان عنه بوضوح ، يزخر فهما سحر الانتصار الأخير . وقد كان أساتذة جون لوك وأصدقائه في إنجلترا وفي فرنسا وفي هولندا من مذهب كالفين ، وكانت أفكاره وبراهينه مستمدة من مطالعته في هذا المذهب ، وهو بالطبع يضاعف من قوتها بعدة مقتطفات وبيانات من الكتاب المقدس ؛ وإن رفضه الخضوع للتحكم والاستبداد ، بلا قيد ولا شرط ، هو عين الرفض الذي واجهته به الجمعيات الكالفينية في القرن السادس عشر ، الأساقفة والأمراء الظلمة . إن مذهب كالفين يمثل هنا حرية الضمير ، المنقولة إلى ميدان السياسة . حتى إن دخوله في خدمة الدولة الإنجليزية لا يسلبه هذه الميزة . إلى هذه الدرجة تبلغ حيوية الذكرى التاريخية للكفاح الذي واصلته في الدفاع عن مبادئه ، وإلى هذه الدرجة يتضح سوء استعمال السلطة الذي ارتكبه لويس الرابع عشر باسم الحق الإلهي للملوك .

هنا أيضاً تتأيد ، وتظهر بأسباب المجد ، نتائج الاتفاقية التي سبق أن عقدت في جنيف بين الرأسمالية والدين . ففي الوقت الذي تزداد فيه هيئة إنجلترا التي تستولى رويداً رويداً على التجارة العالمية بعد هولندا ، تزداد هيبة الدين ، الذي لا يخالفها بل يعزز نشاطها العملي . لأن الواقع أن الدين الكاثوليكي فيه على حد قول أحد المعاصرين ، نوع من القصور الطبيعي تجاه الشؤون والأعمال ، بينما البروتستانت على النقيض ، يمتازون بحمية تعزز ميلهم إلى التجارة والصناعة ، ولا غرو فانهم يرون الكسل غير مشروع (١) . ها هو ذا التاجر يسير ، ملئاً قراراً سماوياً قطعياً بأن يباشر عمله أو بمعنى أصح مهمته ، مختاراً منذ الأزل للبيع والشراء كما اختير غيره للكتابة أو للتبشير ، مباشراً نفس الفضائل التي تتطلبها المشيئة الإلهية ، وبجراح تجارته معاً : النشاط والضمير والاحتياط والتوفير . يسير ليحتل فيها بعد في المجتمع الأوروبي ، مكانة تزداد رويداً رويداً قوة وأهمية ، وينتقل بغير ندم أو تباكيت ، ودون تردد أو وخز ضمير ، من خزانته إلى معبده ، مرفوع الجبين ، واثقاً بأداء واجبه المزدوج ، فخوراً بتأمين مكانه الحاضر على أديم الأرض ، وضمان مكانه المستقبل في عليين .

(١) مذكور في كتاب ر . ه . تاوئي « الدين ونشأة الرأسمالية » ، لندن ١٩٢٦ مقدمة
Cité par R. H. Tawney, *Religion and the Rise of capitalism*, Londres, 1926 Préface.

إنه انتقام الكالفينية : هكذا يتميز ، جزئياً على الأقل ، تبدل السلطة الذي يعتدل من الجنوب إلى الشمال .

ولكن ألا نستطيع أن نتصور شقاقاً ، ينظم على مر السنين ، حتى يشيد في ثنائه دعائم وحدة من جديد ؟ ألا نستطيع أن نتصور نوعاً من الاعتقاد ، مهما تعارض مع الكاثوليكية ، لا يقبل أي استثناء ؟ أو باختصار أورثوذكسية بروتستانتية ؟

إنها أسئلة ، بل إرادة طالما ثبتت خلال سنين الكفاح وما فيها من بلبله واضطراب . لقد أحس الناس خطر التفكك والانحلال ، ورأوا عاقبة الميل إلى تقسيم الكنائس مجتمعات صغيرة ، حتى لا تجد أخيراً إلا أفراداً منعزلين ، يناصب بعضهم بعضاً العداة . لقد حكموا بجمع الشمل والاتحاد ، بالاشتراك في قانون واحد ، ولم لا ؛ ما داموا قد عرفوا كيف يتحالفون ضد العدو الخارجي ، ضد المذهب الكاثوليكي ؟ ولقد وضعوا صيغاً معلنين أنه لا سلام خارج هذه الصيغ . وعمل الناس في المجلترة في هذه السبيل ، ولعل النشاط في هولندا كان أوفر ، لأن قدوم عدد كبير من القساوسة الفرنسيين وضع على عاتقها جديداً من المهام . إقرار « أرثوذكسي » بالدين البروتستانتي : ذلك على التحقيق ما أيده مجمع دوردرخت ، وعرضه على القساوسة البروتستانت للاعتماد في أبريل عام ١٦٨٦ ؛ فليختاروا ما بين التوقيع عليه أو الخروج من الكنيسة الجديدة . وقد عملت المجالس التي تلتها على الاحتفاظ بالمبادئ ، فاستدعت المنشقين للمحاكمة ، وحرست كثيرين من المائدة المقدسة ، وأوقفت بعض القساوسة . وكانت أحكامها لا تكاد تقل شدة عن أحكام الكنيسة الرومانية ، التي كانت تبغضها . « إن الجمعية الحريصة كل الحرص على الاحتفاظ بالأرثوذكسية ووحدة المشاعر بين أولئك الذين عليهم أن يبشروا بمذهب الحقيقة ، وبالمحيل السلام ، والمعنية كل العناية بفحص التداوير الحقة التي ينبغي أن تتخذها لاتقاء المستحدثات الخطرة ، وبعد التوجه بالدعاء إلى الله لهذا الغرض ، قد قررت طبقاً للوائحنا القديمة ، ألا تقبل بيننا قسيساً ، إلا إذا أكد لنا اتفاق شعوره مع إيماننا على وجه التعميم ، ومع مبادئ مجمع دوردرخت على وجه التخصيص ، فضلاً عن

الأثوروذكسية

٩٥

خضوعه لكل أحكام نظامنا . . . (١) » . وكان جوريو Jurieu صورة من قضاة محاكم التفتيش : يحتاج بل يردد ضد المذنبين في مسألة الضمير ، ولا يتورع عن مقاضاتهم أمام السلطات المدنية ، مطالباً بعزل وسجن أولئك الذين لا يشاركونه في التفكير . « حفظنا الله » ، يقول بايل Bayle الذي جره جوريو أمام قضاة أمستردام ، والذي فصله من وظيفته ، « حفظنا الله من محاكم التفتيش البروتستانتية ، إنها ستصبح في مدى خمس سنين أو ست من الفظاعة بحيث نناجي الكنيسة الرومانية لجوانا لشيء حبيب . . . (٢) »

ولكن الخطر لم يكن هنا ، فإن كل ما كانت تستطيع إنجلترا أن تفعله في ظل وليم أورانج بازاء المنشقين ، لم يكن توحيدهم بل التسامح معهم : إذ تشترط عليهم ارتضاء سياستها مقابل حريتهم الدينية ؛ فهي ، إن لم تكن تسمح بالكاثوليكية ، التابعة لروما ، فإنها كانت تسمح بمخالفة الانجليكية ، التي تعتمد على نفسها . أما عن هولندا فلم تكن سوى خلية من المذاهب ؛ منها ما ظهر منذ أولى خطوات الإصلاح ، ومنها ما بما في إبانها ، فأقدم المذاهب وأحدثها ، بل كل المذاهب تجتمع فيها ، وتقف وجهها لوجه . أشياخ أرمينيوس وجومار (٣) Arminiens, Gomariens ، والقائلون بالتثليث ومخالفوهم Trinitaires et Antitrinitaires ؛ كل المعتقدات المذهبية ، كل ألوان الاعتقاد عن النعمة الإلهية ، وعن الكتب المقدسة ، وعن حقوق الضمير ، وعن التسامح ، وحتى عن طبيعة السلطة المدنية ، توقع الأحزاب الهائجة ، الثائرة ، بعضها في بعض . وكانت المعركة مستعرة لا يخمدها أوار ، ولا يقتصر السبب على

(١) مقتطفة من المواد المقررة في مجمع كنائس فالون بهولندا ، المنعقد في روتردام ١٦٨٦ -- المادة السادسة ، ذكرها فرانك يور في كتابه « المهدون للتسامح الديني في فرنسا في القرن السابع عشر ١٨٨١ -- أنظر نفس الكتاب » مباحثات مجمع أمستردام ، ١٦٩٩ ، Extrait des articles résolus dans le Synode des Églises wallonnes des Pays-Bas, assemblé à Rotterdam (1686) Article VI. Cité par Frank Paux, *Les précurseurs de la Tolérance en France au XVIIe Siècle*, 1881.

(٢) رسالة بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٦٩١ .

(٣) Arminius : لاهوتي بروتستانتي هولندي (١٥٦٠ - ١٦٠٩) مؤسس مذهب أرمينيوس ، الذي يُلطف من نظريات كالفين عن « القدرية » . وجومار لاهوتي بروتستانتي ولد في بلجيكا (١٥٦٣ - ١٦٤١) ، من أشد أتباع كالفين تعصبا ، وكان بينه وبين أرمينيوس جدال شديد . [الترجمة]

لإخلاص الأذهان الصعبة المراس ، التي تريد الدفاع عن حقيقتها بأي ثمن ولا على لذة وفائدة الجدل الذي يدفع النور إلى الانبثاق « كارتظام الحجرين الذي يحول المادة المعتمة والكامنة في جسم جامد إلى شرارة » ؛ بل يتعدى ذلك إلى نفس المبدأ الذي يكمن في عبقرية البروتستانتية .

إذا كانت البروتستانتية في مختلف مظاهرها ، تتضمن حقيقة عصيان الضمير الفردى ضد تدخل السلطة في مسائل الإيمان ، فبأي حق إذن تفرض سلطة نفسها على الضمائر ؟ من ذا الذي يعين النقطة التي تقف عندها الأرثوذكسية ، والتي تبدأ عندها الأثوذكسية ؟ إن القول باسم البروتستانتية بأن هذه النظرية أوتك في صدد الاختيار والقدرية عقيدة مذهبية ، ومن باب أولى القول بأن الحاكم الحق في استعمال سلطته لهدم الوثنية وإيقاف تقدم الكفر ؛ القول بأن رجلا له الحق في أن يمنح رجلا آخر من أن يمارس تعليمه أو تبشيره ، أو حتى من أن يعتقد بما يميله ضميره : إن ذلك هو اللامنتظية المحضة .

من هنا كان عدم اقتدار المجامع الدينية على جمع القساوسة والمؤمنين سواء في كتلة خاضعة ، وعجزها عن منع تكاثر المذاهب ، وعن إيجاد الكلمة التي توقف روح البحث عن نشاطه الذي لا يعتره كلال .

وإنك لتجد لفظاً يتكرر تكراراً خاصاً في الجهادلات اللاهوتية لذلك العصر : الموسينانية le Socinianisme (١) . وهو في أولى خطواته سروق فوستوسوزيني

(١) المذهب الموسيني أو الموسينانية Socinianisme : هو في الأصل مذهب قديم ظهر في القرن الرابع بعد المسيح في عهد الإمبراطور قسطنطين . اشتهر باسم الأريانية نسبة إلى صاحبه أريوس ، القسيس بالاسكندرية . وهو مذهب ينكر ألوهية المسيح وسر التثليث ويعترف برسالة المسيح وبأنه كلمة الله . وقد لقي نجاحاً موقوتاً في عهد قسطنطين ثم فشل بعد حكم مجمع القسطنطينية في عام ٣٨١ . وفي منتصف القرن السادس عشر عاود الظهور في أوروبا تحت اسم « الموسينانية » وكان من أصحاب هذا المذهب ليليوس سوسان ، باروثا ، أوشين ، جنتليس ، وسري . وقد حكم بالاحراق على كل أولئك المتحررين ماعدا فوستوس سوسان ، ابن عم الأول ، الذي استطاع الفرار إلى ألمانيا مع بعض رفاقه . وانتشر هذا المذهب منذ ذاك الوقت في هولندا وفي أرجاء أوروبا حتى ظهر في إنجلترا في قوة ونفوذ ليس لها نظير . وانضم إليه كبار الفلاسفة الإنجليز مثل نيوتون ولوك وكلارك . . . فولتير : القاموس الفلسفي *Voltaire, Dictionnaire Philosophique (Arianisme)* الجزء الأول ، باب « أريانيزم » ، ورسائل فلسفية *Lettres Philosophiques* ، الرسالة السابعة عن سوسان . [المترجم]

F. Sozini ، ظهر أول ما ظهر في بولونيا في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر . وقد طرد أشياع سوسان من بولونيا فالتجأوا إلى بروسيا وفرنسا ووجدوا في هولندا أرضهم المختارة . وهناك تشكل جمعية الأخوان البولونيين ، حيث ينشر حفيد سوسان المدعو « ويزواتي » Wiszowaty في عام ١٦٦٥ كتابه Religio rationalis « الدين المنطقي » ، وهو كتاب يتضمن مبادئ المذهب . وفي هذه النقطة يتقوى تيار نهر السوسنيانية برافد فرلسي ؛ إذ يقدم القسيس إسحق دي ويسو Isaac d'Huisseau في عام ١٦٦٩ كتابه « اتحاد المسيحية » ، مقترحاً تطبيق الإصلاح الذي اهتدى إليه ديكارت في الفلسفة ، على الدين ؛ لن يصدق الناس شيئاً فيما بعد ، ما لم يجدوه مشروحاً في الكتاب المقدس بوضوح ، ولن يحتفظوا إلا بالحقائق البسيطة العالمية المسطرة فيه ، والتي تتفق مع مبادئ المنطقي . فلا تقاليد إذن ، أو لا كنيسة صراحة ؛ الله والكتاب المقدس والضعير الفردي ، لا شيء غيرها ولا مزيد عليها . ويشور الجدل في كل الكنيسة الفرنسية المستصلحة حول هذه المبادئ ؛ إن الاضطهاد والنفي لم يوقفا الانقسام بل زاده حدة . وترى بابون Papon صهر اسحق دويسو يقبل الاتحاد ، ومجد أتباعه ومخالفيه يتقاتلون . إن الجمع الذي يقاوم تقدم الروح السوسنياني ليس له وجود .

وإذا صح أن هذا المذهب قد وهن من جهة كونه مذهباً ، وأنه « انكمش في الظاهر » ، فإنه قد تكاثر « خفية » : فإن مبادئه القتية المتشعبة تنوغل في الضمائر ، وتدفعها إلى إبدال الروح الديني بالروح المنطقي . وبعد ، فما معنى السوسنيانية ؟

عند يوسويه أن مبدأ السوسنيانية الأساس ، هو أنه ما من أحد يستطيع أن يجبرنا على الاعتقاد بما لا ندركه بوضوح . ويقول بواريه Poirer : Socinianismus finem et scripturam subjicit rationi : المذهب السوسنياني يخضع الكتاب المقدس للعقل ؛ ويقول بوفندورف Pufendorf إن السوسنيانيين لا يجعلون من الدين المسيحي إلا فلسفة أخلاقية صرفة . وكان جوريو مهورسا بالسوسنيانية يراها في كل مكان ، ولا ريب في أنه لا يخطئ في ذلك كثيراً ، فإن هذا الميل العام نحو المنطقية كان كبيراً . وهو يقول إن السوسنيانيين يرون أنه لا فرق بين دين ودين . وإنهم يشكرون الأسرار ؛ بينما المشهور

بالسرية هو جوهر الروح الدني . . . بيد أن أخطر ما سطر هو ما كتبه ريشارسيمون في صدد الحكم الصادر على دى ويسو « إن القطيع الصغير ، أراد بمعاملته القاسية للقسيس دى ويسو أن يتهدد ويتوعد عدداً كبيراً من القساوسة الذى يشاركونه مبادئه . ولقد أبلغ قراه هذا إلى عدد من قساوسة المقاطعات الذين أيدوه ، ولو أنهم لم يلجأوا إلى هذه الشدة ، لقضى الأمر بالنسبة لمذهب كالفين فى فرنسا ، ولكان أذكى أتباع هذا المذهب أعلنوا صراحة أنهم أرمنيون ، بل ربما سوميثيانيون . ولكنهم اكتفوا بأن يكونوا سوميثيانين فى دخائلهم ، وألا يفصحوا عن ذلك إلا لأصدقائهم الأخصاء ، إن خشية فقدان وظائفهم قد دفعتهم إلى إتخاذ هذه الطريق . فهم لم يصدقوا على إقرارهم الدينى إلا لأسباب سياسية ، مقتنعين بأن كالفين وغيره من دعاة الإصلاح الأولين ، لم يقوموا بالإصلاح إلا جزئياً . . . (١) » . وإنها لصحيفة من الكراهية والاقتراء ، ولكنها على الأقل تبين بوضوح ، الواقع الذى استشفه ريشارسيمون بثاقب بصيرته : وهو أن الإصلاح يستمر فى الاستصلاح .

ويستمر الجدل بين قساوسة هولاندة وألمانيا . ويكافح القساوسة المشتتون فى لندن ضد المذهب السوميثيانى الذى عبر البوغاز . وكل جهد يبذل لتوحيد مذهب كالفين ومذهب لوتربطريقة أو بأخرى ، — غير ما يجمعهما من وشائج القربى — لجمع الكنيسيتين فى إقرار دينى واحد ، يضع هباء ويبقى بلا جدوى . وهكذا وجد الكاثوليك مسلاتهم فى القول بأن البروتستانت منذ ماخرجوا على الكنيسة الرومانية ، دخلوا فى قصر التيه . وبالمثل ، استطاع بوسويه أن ينشر فى عام ١٦٨٨ كتابه « تاريخ تغيرات الكنائس البروتستانتية » ، *Histoire des variations des Eglises protestantes* ، لى يثبت أن تلك الكنائس قد تغيرت فى الماضى ، وأنها تتغير بلا انقطاع ، وأن جوهرها بالذات هو التغير . إنها تنفتحت من جزء إلى جزء حتى لا تعود إلا ترابا . . . من المحال أن تجمعها ، من المحال أن تكبحها ، مادامت كل واحدة منها لها نفس الحق فى الحياة . إنها تنتج كلها من نفس مبدأ البحث الذى يتطلب التغير والتحول من شخص إلى شخص . ذلك يفسر وفرة الاقرارات الدينية التى لايسع المؤرخ

(١) ريشارسيمون : رسائل متعجبة ، الجزء الثالث ، *Lettres choisies*, t. III, 3

إلا أن يسجلها ، كما يفسر عقم المحاولات التي جرت في سبيل مصالحة تلك الطوائف التي من طبيعتها أن تسير في طريق الانقسام .

* * *

نستطيع أن نرد على بوسويه مهاجمين وقائلين إن الكنيسة الكاثوليكية نفسها لم تسلم من التغيير ، وهو ما فعله جاك باناج بين عدد كبير من معارضيه . كما نستطيع أن نرد عليه بأن الكنيسة البروتستانتية لم تتغير ولم تتحول عن مبادئها الأساسية ، وهو ما فعله جالبرت بيرنت .

بيد أننا لا نرى في أقواله هذه اتهاماً ، بل شرفاً ، ونحن لا نعتبر روح البحث إلا كاستياز للإنسانية ، التي لا تتلقى الحقيقة من السماء ، بل تعمل جاهدة على كشفها ، وعلى توطيد دعائمها بنفسها (١) . ولو أننا لاحظنا خطر السلطة الزائدة عن الحد أو الحرية الزائدة عن الحد ، لاخترنا الثانية طواعية ، إذا لم يكن بد من الخطر .

يتعرض جان لي كليز في مجلته « المكتبة المنتخبة » عام ١٧٠٥ ، لهذه المسألة ، وينفس الألفاظ تقريباً : « ما أكثر الكفار حوله ! كثير من الكتب التي يذكرها في مجلته تحاول مناقضة الكفر : وهذا دليل على أن الكفر قد أخذت خطورته تستفحل . بالأمس لم يكن الناس يفحصون ، ولم يكن يساورهم الشك فيما يلقنهم « الأماتذة » ، بل كانوا يبنون أحكامهم على كلامهم . أما اليوم فقد انعكست الآية ، واختلفت العادة ، فلم يعد الناس يثقون بالسلطة . فهل ينبغي أن نفضل الحالة الأولى ؟ — جان لي كليز لا يتردد . إن عدم التصديق شر ، ولكن الميل إلى تصديق كل شيء بغير بحث أو فحص شر أرذل ، فهو يتأتى من حماقة العقل ومن عدم اكتراث بالحقيقة . إن شعباً فيه كثير من النور وقليل من الكفر ، خير من شعب يسود فيه الجهل ولا يساوره الريب في المشاعر الموروثة . فإن النور يفيّ الفضيلة ولو أساء البعض استعماله ، بينما الجهل لا ينتج إلا البربرية والرذيلة .

(١) أنظر ، أ . ريبليو ، بوسويه مؤرخ البروتستانتية ، الطبعة الثالثة ١٩٠٩ ،

ص ٥٧١ ، A. Rebelliau .

أزمة الضمير الأوربي

إن الفكرة التي يعبر عنها جان لي كليز الأرمينيوسي ، السوسنياني ، هي التي ستسود في مستهل القرن الثامن عشر . لقد مضى الوقت الذي فرض فيه ديكرات على نفسه طواعية ، قيوداً للحيطة ، لما شعر أن مبدؤه سيدفع به إلى أبعد الحدود : « أُولها طاعة القوانين والعادات في بلادى ، واحتفاظى دائماً بالدين الذى تفضل الله فعلمنيه منذ طفولتى ، والسير فى كل ميدان آخر حسب المعتقدات الأكثر اعتدالاً والأبعد عن المغالاة ، والتي يتقبلها عمومياً فى الحياة العملية ، أمقل الناس من سأعيش بينهم . »

ولقد أتى وقت الأثوردكسية ، كل أنواع الأثوردكسية ، وقت المتمردين والعصاة ، الذين تكاثروا فى عهد لويس الرابع عشر فى الظلام ، مترقبين إشارة التحرير ؛ وقت العلماء الذين سيرفضون تقبل التقاليد بغير رقابة ولا ممحيص ، وقت أتباع جالسينيوس الذين يؤججون شعلتهم التي لا ينطفئ لها ضرام ؛ وقت أنصار الخشوعية (١) piétisme من كل شاكلة ؛ وقت المفسرين والفلاسفة ، وقت بيير بايل .

(١) الخشوعية : مذهب بروستانتى يقوم على التمسك والزهد وينادى بكنيسة عالمية تشمل كل المؤمنين . [المترجمان]

الفصل الخامس

بيير بايل

ينحدر بيير بايل من مقاطعة فوا Comté de Foix ، فهو جنوبي فر إلى الشمال ، مثله في ذلك مثل الكثيرين ، الذين أتوا إلى هناك بنشاطهم الذهني ، وميلهم للأفكار ، ومتانة خلقهم ، وحيويتهم التي لا تصدق . وكان بروتستانتيا ، أبوه من قساوسة هذا المذهب ؛ درس اللاتينية واليونانية في مدرسته ، ثم أكمل دراسته في مجمع بيلورانس . بيد أنه توقف في بداية الطريق الذي اختطه ، والذي سيدفعه إلى أبعد الميادين ، التي يبقى فيها وحيداً بلا رفيق ، سابقاً جميع أقرانه ، وهو الطريق الذي سنتبعه فيه ، لكي نبين مراحل تفكير يبدأ بالدين وينتهي إلى حالة قريبة من الشك الخالص ؛ فلما كان قد قرأ كتباً عن الجدل ، فقد اعتنق الكاثوليكية ، ثم تابع دراسة الفلسفة في جامعة الجيزويت في تولوز؛ ولما جعلت « التأثيرات الأولى لتربيته تغلب عليه » (١) انضم إلى كنيسة الإصلاح ، سعيداً سعادة المقيم في القطب الشمالي تطلع عليه الشمس ؛ ثم ذهب إلى جنيف في عام ١٦٧٠ . « لقد كان وقتاً كنت أجيد فيه المناقشة ، إذ كنت حديث التخرج في مدرسة لقنت فيها المشاكسة المدرسية القديمة ، وأستطيع أن أقول في غير زهو إنني كنت أجيد استعمالها (٢) » .

خطوة أخرى ، وينتقل بايل من أرسطو إلى ديكارت . فقد ألقى محاضرة فلسفية حينما عين أستاذاً في مجمع سيدان ، تظهره لنا من أشياء التفكير الواضح والبداهة العقلية . على أن هذه الهول ليست دائماً خلواً من روح التبشير . ترى هل كان يقنع بتدريسه ؟ وهل يكرر عاماً بعد عام دروسه المملة ؟ ذلك

(١) رسالة بايل إلى بنسون دي ريدول ، روتردام ، ٢٥ يوليو ١٦٩٣ ، Bayle & Pinson
de Riollas

(٢) رسالة بايل إلى باناج ، ٥ مايو ١٦٧٥ ، Bayle & Barnage

أمر ليس قريب الاحتمال . لقد أرسل من سيدان إلى « مجلة العلماء » رسالة عن المذنبات والنبوءات ، خشى المحرر أن يقبلها ؛ بيد أن هذه الرسالة أصبحت علامة ساطعة لتحرره من قيود التدريس ، بعد أن تناوّلها بعض التصحيح والتهذيب ، وزاد في حجمها زيادة كبيرة ، ونشرت في عام ١٦٨٢ .

كان بايل يستشعر نداء في دخيلة نفسه ، وكان البحث والفحص من مقتضيات طبيعته ، يزن في كل شيء مآله وما عليه ، ولا يقبل شيئاً إلا بعد حكم سابق من محكمته الذاتية . ولما أغلق مجمع سيدان لأسباب دينية ، وبعدما بحث عن وسيلة يكسب بها قوته ، غير عارف ماذا سيفعل *incertum quo fata ferrent* ، دعاه سادة روتردام أولئك ، عارضين عليه وظيفة في مدرستهم التي طبقت شهرتها الآفاق ؛ وهنا نستطيع أن نرى مصادفة عجيبة للعناية الالهية ولقواتها الحية ، على فرض أنه لا يزال يعتقد بها ؛ سيظل يعمل مدرساً ليكسب قوته ، ولكن عمله الحقيقي ، أو الأخرى مهمته ، أو وظيفته ، أن يكون صحفياً ، ليقود الناس نحو الحقائق القاسية ، التي أخذت تحتذبه وتسخره بالفعل .

وينبغي أن نتخيله ، هناك في روتردام في داخل غرفته ، غيوراً وضعيفاً ، منزلاً ، مبتعداً عن الحياة الحسية ؛ وقد تجد لديه عواطف عائلية قوية ، ولكنك لا تجد لديه حباً أبداً . وقد تجد كتباً كثيرة ولكنها لن تكفيه مهما كثرت . وقد تجد أخباراً أيضاً ، يزوده بها أصدقاءه من مختلف عواصم أوروبا رحمة به ! « إن نهى إلى الأخبار لأحد الأمراض المستعصية التي لا يفلح معها دواء ، إنه استسقاء محض ، كلما أعطيته كلما ازداد طلباً وإلحاحاً (١) » . أما الكتب ففيها شيء أدق ، فهي تمثل فكرة معينة ، نستطيع أن ندركها تمام الإدراك ، إنها تهيج العقل وتدعوه إلى العراك ؛ إننا أمام خصم قد أعد أدلته لمعركة منظمة ، فأى سعادة في مهاجمته بالفرق السريعة من الأدلة والردود والأسباب ! فانك لتستطيع أن تصل إلى الكاتب من خلال الكتاب ، وأن تقول له ما يستحقه ، وأن تبين له فقره وعجزه . أما الرجل فلا يظهر إلا نتيجة للكتاب ؛ إن بيير بايل يوجه ضد الكتب معاركه العظيمة . مبتذد لا تحسب في حياته

(١) بايل إلى مينوتولي ، ٢٧ فبراير ١٦٧٣ ، ١٦٧٣ ، *Bayle à Minutoli* ، ١٦٧٣ .

آية واقعة ما لم تكن فكرية : إنه يقرأ ويكتب ويناقش ، ويجد « في المطالعة من اللذة والتسلية ما يعادل ما يجده الآخرون في دور اللهو والمقامرة » . إن شهوة العلم *La libido sciendi* تتملكه : يريد أن يعرف كل شيء ، لينتقد كل شيء .

وهو كصحفي لم يصل بعد إلى ذروة حرارته الجدالية : كتب إليه برنييه Bernier في ١١ أبريل ١٦٨٦ يقول : «إننا نراك كالنيذ الايطالي *dolce piccante* ولكننا بما نحن عليه من خبت نريد أن نراك *piccante dolce* (١) . ولقد التزم شيئاً من التحرز والتحوط، ولكن الروح العام لمجلة « أخبار جمهورية الأدب » *Nouvelles de la République des lettres* يتضح في جلاء . فهي تدعو القارئ إلى التفكير في أخطر الموضوعات : وحيث إنه ليس أخطر من أسباب الاعتقاد أو الارتياب ، فلتواجه كل الأفكار بكل حرية ! ، ولتحتل مكان الشرف بين الأفكار ، تلك التي تركها الناس في الظلام بمحض الاختيار ، في حالة من التمرد والعصيان ! فلتأخذ الأثوردكسية المخبوءة بثأرها منذ الآن ! وليعبر عن رأيه كل إنسان ، وليكن لأجسر الآراء مظهر من المجد والجلال : « فليعرف أولئك الذين يتهايمون ضد تسامح كتب الملحدين ، أن ليست كل أنواع العقول ، تلائم ذوق محاكم التفتيش . » حتى الأورثوذكس ، على حد قول بايل ، يجب أن يواجهوا الاتحاد بغير خوف : وإلا فهل يقبلون أن يشاد انتصارهم على الاستحالة التي يضعون فيها خصومهم لابتداء ما لديهم من أسباب (٢) ؟

وكان بايل محموا بفطرته ، وهل كان يستطيع بغير حمى أن يتغلب على هذه الكتلة الهائلة من العمل ؟ كان يكتب النصوص ، ثم يجري تصحيح الأصول ، ولم يكن هذا منشأ تعب ، فلمداد المطبعة عير عطر جميل ! وإنما تعب يتأتى من القراء الذين لا يكتفون ولا يقنعون ، قراء يعطون فكرة صحيحة عن الحماقة البشرية ، بما يبدون من متعارض الآراء ، ويعتقاد كل منهم أنه

(١) *dolce piccante* : لذة حريفة *piccante dolce* : حراقة لذيدة . [المترجمان]

(٢) أخبار جمهورية الأدب . يوليو ١٥٨٥ ، المادة التاسعة . ملاحظات عن تسامح كتب الاتحاد ، *Nouvelles de la République des Lettres*, Juillet 1685, art. IX. *Réflexions sur la tolérance des livres hérétiques*

على صواب ، مما جعل منشأ تعب تلك الرسائل التي تفوق الحصر والتي كان ينبغي أن يستظرها كل يوم . ونحن حين نؤلف كتابا ، نتركه ثم نرجع إليه ثم نقرأ كتابا غيره ، فنجد تسلية في تبديل العمل ؛ أما إذا كان لدينا رسائل ينبغي أن تكتب ، فلا بد من أن نتعجل ، فنتعجب ونكل . وقد عاش بايل على هذا المنوال مدة ثلاث سنوات ، من مارس عام ١٦٨٤ إلى فبراير عام ١٦٨٧ ، ثم كف عن العمل .

ولكن الطريق عاذقاجتذبه ودفعه نحو المر الفاصل . لقد وقف في أول صف بين المدافعين عن البروتستانتية . وناقض الأب مامبورج بكلام مستفيض ، بالسيل الدفوق الذي يحرف كل شيء في طريقه ، عن براهين وإبهانات . ولما زادت تدابير الاضطهاد ، ووقع في يده كتاب وارد من فرنسا ، يمدح فيه مؤلفه لويس الرابع عشر ، على جعله المملكة كاملة الكاثوليكية تحت سيادته (١) ، شرع اليراع من جديد (٢) : ليقول هو ، يبير بايل ، رأييه فيه : « لو أننا أدركنا قوة هذه الكلمة ومعناها الحالي ، لما حسدنا فرنسا على صيورتها كاثوليكية تحت سيادة لويس العظيم ، لأن أولئك الذين سموا أنفسهم بهذا الاسم قد سلكوا منذ أمد بعيد سلوكا يدفع إلى الاشتزاز ، حتى إن الرجل الشريف ليعد تسميته كاثوليكيًا وصمة عار ، فبعد أفعالكم في المملكة الكاملة الكاثوليكية ، ينبغي أن يستوى من الآن قولنا الدين الكاثوليكي وقولنا دين الأشرار الخوان . »

لجأ في إنجيل لوقا ، في الفصل الرابع عشر ، مثلا لصاحب الدار الذي أعد مأدبة لدعويين معينين ، تخلفوا عن الحضور . فقال السيد لعبده : « اخرج عاجلا إلى شوارع المدينة وأزقتها ، وأدخل إلى هنا المساكين والجذع والعرج والعمي . فقال العبد يا سيد قد صار كما أمرت ، ويوجد أيضا مكان . فقال السيد للعبد ، اخرج إلى الطرق والسيارات وألزمهم بالدخول . . . (٣) »

(١) فرنسا الكاثوليكية في عهد لويس العظيم ، أو محادثات بعض البروتستانت الفرنسيين ١٦٨٤ .

(٢) رسالة مرسله من لندن إلى الأب . . . ورهبان . . . عن فرنسا الكاثوليكية في عهد لويس الرابع عشر . سان أومير ، ١٦٨٦ .

(٣) نقلا عن إنجيل لوقا ، الاصحاح ١٤ : ٢١ ، ٢٢ . [المترجمان]

الزهم بالدخول ، *Compelle intrare* ، تلك هي الكلمة التي ردها القديس أوغسطين للاحاق الدوناتيين *Donatistes* (١) بكنيسة أفريقيا والتي نادى بها المبشرون الكاثوليك بدورهم ، للتدليل على صواب استعمال الفسوة ضد البروتستانت . فقابل بايل أولئك بقوة من السخط الشديد ، تعدت شدتها كل ما سبق أن أبداه ؛ لأن الأمر هنا يتعلق بأعشق ما في تفكيره وأعزه (٢) . أنستعمل القوة في مسائل الضمير ؟ يا للشناعة ! يا لافضيحة ! وينتقل بايل من سباب إلى سباب ، ومن استنكار إلى استنكار : — إن الكنيسة الرومانية التي تطالب لنفسها بالسلطة والعصمة ، والتي تريد أن تفرض على الأرواح قانون الأقوى ، والتي لا تتورع عن استعمال مبشرين أوصاف جنود وأنصاف وحوش ، ليست إلا امرأة سليطة ، بل بغياً فاجرة . لا لن يجمعنا بالكاثوليك قياس مشترك بعد الآن ، لأنهم يعودون دائماً إلى ربانهم العتيقة ، قائلين نحن الكنيسة وأنتم العصاة ، فلنا الحق في أن ننزل بكم العقاب دون أن تستطيعوا إنزاله بنا ؛ يا للادعاء الذي لا يطاق ! فلتبقى أوروبا في انقسام كما هي الآن ! اللهم لا توقع الشعوب التي تخلصت من رقة روما تحت نيرها سرة أخرى !

ولست هذه بضمانات واهية القيمة لرفاقه بالمهجر ؛ وقد كان بايل يستحق من حربه بعض الشكر . بيد أن القصة تبدأ من جديد ؛ إنه لمن العيب أن نسلم للبروتستانت بسلطة الاجبار التي أنكرناها على الكاثوليك . إن الاقتضاء المنطقي لا ينظر أبداً إلى سر من الأسرار إلا على أنه مشكلة مؤقتة عابرة ، سواء أكان قد قبله قساوسة الكاثوليك أم قساوسة البروتستانت . فان نور اليقين الطبيعي يريد أن يحمل محل المصباح الذي يسهر أمام الهيكل المقدس

(١) الدوناتيون ؛ أتباع مذهب دونات مطران قرطاجنة في القرن الرابع بعد الميلاد ، وكانوا يرون أنفسهم وراثتهم الخواريين . [الترجمان]

(٢) « تفسير فلسفي لكلمات السيد المسيح هذه : «الزهم بالدخول» ؛ ثبت إبراهيم كثيرة أن ليس أوقع من الالتجاء إلى القوة لتغيير الدين ، وينقد كل فلسفة تستعمل القوة لتغيير الدين ، واللمح الذي أضفاه القديس أوغسطين على الاضطهاد الديني » . مترجم عن الانجليزية الحان فوكس دي بروج ، بقلم م. ج. ف. (١٦٨٦) ، *Commentaire philosophique sur ces paroles de J. C. ... Traduit de l'anglais du sieur Jean Fox de Bruges, par M. J. F. 1686.*

سواء أخص الأمر كنيسة أم خص معبداً ؛ حتى إن بايل يهلك أصدقاءه ، في غمار قتاله ضد أعدائه ، وينفس السلاح . إنه يقول إن الضمير لا يعمل إلا على نفسه ، وإنه إذا كان يقبل ، بحسن نية ، ما يترامى له أنه الحقيقة ، فلن توجد قوة خارجية تستطيع أن تؤثر عليه ويكون تأثيرها مشروعاً ، وإن الضمير الذي يخطئ دون خبث أو سوء نية ، الضمير التائه المتحير ، ليس مسئولاً ولا يجوز أن يجبر ويقسر . إن الكافر الذي يعتقد أنه يجب أن يكون كافراً ، لا يقل عن البروتستانتى « الأورثوذكسى » فى شئ . وإن كلمة أورثوذكسى هذه ، لكلمة لا تطاق ، ما دامت تعنى سلطة مفروضة على الأذهان . ولقد أخفى جوريو وجهه بعد هذه الكلمات ، وصاح : لقد أصبح بايل سوسليانياً . والحق أنه سوسليانى ، بل أكثر من ذلك ، إذا كان صحيحاً أن بايل نفسه يشرح فكره بهذه الكلمات :

« معاذ الله أن أريد توسيع دائرة النور الطبيعى ، وسببى الميتافيزيقا مثلاً يفعل السوسليانيون ، الذين يرفضون كل تفسير للكتاب المقدس لا يتفق وهذا الضوء وتلك المبادئ ، والذين — بناء على هذه القاعدة — يرفضون الاعتقاد بالتثليث ويسر التجسد . كلا ، كلا ، هذا ما لا أدعيه بغير حدود ولا قيود . إنى أعرف جيداً أن هناك حقائق بديهية ، لا تغلج فى الغلبة عليها أصرح أو أوضح آيات الكتاب المقدس ، مثل كون الكل أكبر من جزء منه ، وأنها إذا طرحنا أجزاء متساوية من أشياء متساوية ، فالباقي متساوية ، وأنه من المحال أن تجد شيئين متعارضين متساويين ، كما أنه من المحال أيضاً أن جوهر شئ يبقى بالفعل بعد هلاك الشئ . إذا كان الناس يكشفون شئ مرة فى الكتاب المقدس عكس هذه المحمولات ، وإذا كانوا يأتون بألف وألف معجزة ، أكثر مما أتى به موسى والحواريون ، لى يثبتوا مبدأ يخالف هذه المبادئ العالمية للأدراك السليم ، فلن يصدق المرء منها شيئاً ، فالأرجح أن يقتنع بأن الكتاب المقدس لا يتكلم إلا بالمجاز والألغاز والحقائق المعكوسة ، وأن تلك المعجزات سأتاها الشيطان ، فذلك خير من أن يعتقد بأن نور اليقين الطبيعى يخطئ فى هذه المبادئ . »

... « وإنى لأكرر مرة أخرى : معاذ الله أن أريد توسيع هذا المبدأ مثلاً يفعل السوسليانيون ! ولكن إذا أمكن أن يوجد بعض التحديد بالنسبة

للحقائق النظرية ، فلست أعتقد بإمكان وجود أى تحديد بالنسبة للمبادئ والعادات العامة التى تتعلق بالأخلاق . أريد أن أقول إنه — دون أى استثناء — ينبغى أن تخضع كل القوانين الأخلاقية للعدالة ، تلك الفكرة الطبيعية التى يهتدى بها مثلاً يهتدى بضوء الميتافيزيقا ، كل رجل يخرج إلى هذه الدنيا . ينبغى علينا ، بل يتحتم أن نحكم بأن كل مبدأ دينى خاص ، سواء ادعى الناس أن الكتاب المقدس يتضمنه ، أو لم يكن الأمر كذلك ، باطل غير صحيح إذا نقضته معارف النور الطبيعى الواضحة الصريحة ، ولا سيما فيما يتعلق بالأخلاق (١) .

* * *

أن يعكف بايل على وضع قاموس : أليست هذه فكرة غريبة ، لرجل فى مثل طبعه ؟ سيتولى هو بنفسه الأجابة على هذا السؤال : « نحو ديسمبر من عام ١٦٩٠ قر رأتى على تأليف قاموس نقدى يتضمن سرداً للأخطاء التى ارتكبها مؤلفو القواميس أو غيرهم من المؤلفين ، يبين تحت اسم كل رجل أو مدينة ، ما يخص هذا الرجل أو تلك المدينة من أخطاء . . . (٢) » وهو لم ينفذ هذه الفكرة بتمامها ، بل سجل تحت أسماء مرتبة حسب الحروف الأبجدية بعض معلومات واقعية . ولكن أروع اجترأاته الحية تقبلى فى التعليقات التى ينثرها هنا وهناك ، أو يطمرها . حتى إنك لا تجد أسمى صور التعبير عن أفكاره إلا استثناء ، وفى الموضع الذى تتوقعه . إنها الجنابى أو « استغاية » وقد كان يهوى هذا النوع من اللعب ، وكان يجيده . وبالرغم مما اضطر إلى إدخاله على مشروعه من تخفيف ، حتى لا يثير لأول وهلة دهشة الجمهور والناشرين ، فإن ذلك « القاموس التاريخى النقدى » *Dictionnaire historique et critique* يظل أشد عريضة اتهام تثير الخجل وتنتشر الارتباك فى الناس . فأمام كل اسم على وجه التقريب ، تتفجر ذكرى وهم أو خطأ أو احتيال أو جرم . كل هؤلاء الملوك الذين سبوا نعاسة رعاياهم ، وكل أولئك البابوات الذين هبطوا بالكاثوليكية إلى دركات أطاعهم وأهوانهم ، وكل أولئك الفلاسفة الذين

(١) « تفسير فلسفى » . . . ، القسم الأول الفصل الأول .

(٢) رسالة من بيير بايل إلى ابن عمه ثوديه ، ٢٢ مايو ١٦٩٢ .

وضعوا السخيف من النظريات ، وكل تلك الدول والمدن التي تذكرنا بالحروب والمذابح والاعتصابات . . . ثم كثيراً من الفاسد والشناعات : وإذا كان بايل يذكرها راضياً قريراً ، فقد يكون ذلك لأن أصحاب المخابر طلبوها منه لاجتذاب القارئ كما يقول . أو لعله أراد أن يجد بعض التسلية — كما يقول أيضاً — في التتويه بأن سرد الخطايا التي ارتكبها المرء شيء ، وإدخال بعض الطلاوة على قصة ببعض ألفاظ طليقة شائقة شيء آخر ، لكن أليس الأرجح أن السبب هو أن كتلة بطلاننا وضلالتنا تضاف إليها كتلة شذوذنا وفسادنا الخلقى ، وهذا تطابق أخطائنا في دائرة التفكير رذائلنا في مجال الأخلاق ؟ يضاف إلى ذلك قصص الرواة ، رواة ما فعله الآخرون ، وما أكثر القصص التي نسجوها بما هم عليه من خفة أو حمافة أو هوى أو فساد ! ياله من منظر ! كل ذلك ينبغي أن يطهر ، وتلك هي بالذات المهمة الأولى التي يشرع فيها بايل بالتذاذ تشويه الحسرة . يشك كتاب الأساطير ! لقد أخطأ العالم كله وانخدع : القدماء الذين كانوا يلقون بالكذب كما نلقى بالكلام ، والمحدثون المسحورون بنفوذ القدماء ، وحتى أكثر المؤلفين اقتداراً وأحقهم بالاحترام ، فلاموت لوفاييه La Mothe Le Vayer (١) نفسه أخطأ وكذلك غاسندي (٢) . وهناك محترفو الكذب مثل موريري (٣) ، الذي ألف قاموساً كما لا ينبغي أن يؤلف القاموس ، قاموساً ليس نقدياً ، بل يفيض بالضلال والأخطاء . إنه مسم عام ، فلتنقذه نقطة نقطة ، ولترقم أكاذيبه ، لقد كذب اثني عشرة مرة هنا ، وخمس عشرة مرة هناك : فلتقبض عليه دون شفقة من قفاه . بذلك العمل المنزه المعصوم ، نسترد لليقين حقوقه . إن قانون جمهورية الأفكار قانون قاس ولكنك بدعي ! « إن هذه الجمهورية دولة حرة غاية الحرية . لا يعترف الناس فيها إلا بسلطة اليقين وضولة العقل » وفي كنفهما يحارب الناس أي إنسان

(١) لاموت لوفاييه La Mothe Le Vayer : أديب وعالم فرنسي ولد في باريس صاحب « ملاحظات عن البلاغة الفرنسية » (١٥٨٨ - ١٦٧٢) . [المترجم]
 (٢) غاسندي Gassendi : فيلسوف فرنسي مادي ، اشتهر بمهاجمته لفلسفة أرسطو (١٥٩٢ - ١٦٥٥) . [المترجم]
 (٣) موريري Moreri : مؤرخ فرنسي شهير ، مؤلف « القاموس التاريخي » (١٦٤٣ - ١٦٨٠) . [المترجم]

بحسن طوية . فعلى الأصدقاء أن يحترسوا من الأصدقاء وعلى الآباء أن يحذروا الأبناء . . . (١)»

هذا الاقدام ، هذا الشغف بالنضال ، هذا العزم على قشع الوهم والضلال ، يفترض فكرة قدرتنا على الوصول إلى يقين يبقى بالرغم من كل جهد مضاد : يقين الوقائع الذي يكشفه النقد ومعرفة الواقع . ولكن ما أصعب إدراك هذه المعرفة ، وهذه الحقيقة ! وما أقوى الخطأ ، وما أشد جذوره تمكنا في الأرض ، حتى ليجد دائماً فرصة ليتولد من جديد ! « ليس هناك كذب ، مهما سخف وأسف ، لم ينتقل من كتاب إلى كتاب ومن عصر إلى عصر . دع أحقر مهرج في أوربا يجترى في كذبه ، وينشر كل أنواع هذيانه ، فسيجد عدداً وفيراً من الناس ينقل رواياته ، وإذا مجوه يوماً أو استكفوه ، فستأتى ظروف يحدون فيها مصلحة في ابتعائه من جديد (٢) . »

لن نستطيع أن نقنع إلا المقتنعين ، فشأن العقل عصيان اليقين ، مهما أوتى من بداهة ووضوح .

هل الوقائع في الحقيقة كما نلتقاها ؟ ألا ترمى المدرسة الحديثة للفلسفة إلى بث الاعتقاد بأن الوقائع إن هي إلا تحورات في الروح (٣) ؟ لقد أغشقت على الارتيايين فوائد لا يعييك إدراكها (٤) :

« إنهم لا يكادون يعرفون في مدارسنا اسم سكتوس امبريكوس Sextus Empiricus ، إن وسائل تحديد الزمن التي اقترحها في لباقة لم تكن مجهولة لدينا أقل مما تجهل أرض أستراليا ، حتى جاء غاسندي وأوجزها لنا إيجازاً فتح أعيننا . ثم أكلت مدرسة ديكارت ذلك العمل . لم يعد بين كبار الفلاسفة من يساوره الشك في أن الارتيايين Sceptiques (٥) على حق ، في اعتقادهم

(١) « القاموس في باب كالديوس ، تعليق د ، Dictionnaire, art. Calig .

(٢) « القاموس في باب كابت ، حرف ي .

(٣) لعله يقصد بالبواش على الخصوص وهو من أكبر الفلاسفة الفرنسيين المشتهر بنظرية vision en dieu : من الحال أن يكون للمادة وجود . فالوجود للعقل والروح ، إنما الله ابوحي إلينا برؤية المادة . وتفصيل نظريته في كتابه المشهور « البحث عن الحقيقة » : [المترجمان]

(٤) القاموس . . . باب بيرون Pyrrhon .

(٥) الارتيايون Sceptiques : أو الشكاك ، أشياع مذهب بيرون ، وهو فيلسوف .

أن صفات الأجسام التي تؤثر في حواسنا ليست إلا مظاهر . كل منا يستطيع أن يقول، « أشعر بحرارة في وجود النار » ، لا أن يقول « أعرف أن النار في جوهرها كما تظهر لي » . ذلك أسلوب الارتيايين القدماء . أما اليوم فتتخذ الفلسفة الحديثة لساناً أكثر إيجابية : فالحرارة والرائحة والألوان وغير ذلك لا تقع في دائرة الحواس ، بل هي تحورات في الروح . أعرف أن الأجسام ليست كما تظهر لي . ولقد كان المحدثون يتوقنون إلى استثناء الحيز والحركة ولكنهم عجزوا ، لأنه إذا كانت الأشياء تظهر لنا في لون أو حرارة أو برودة أو رائحة ما ، بينما لا توجد فيها صفة من تلك الصفات ، فلم إذن لا تظهر لنا ذات حيز وشكل ، ساكنة أو متحركة ، بينما ليس لها صفة من تلك الصفات ؟ تلك هي الفوائد التي أعطاها الفلاسفة المحدثون للارتيايين ، والتي أريد أن أرفضها . . . » - بيد أن بيير بايل لا يستطيع أن يرفضها إلى الأبد ، فقد حوَّصر ذهنه ، وهذا ظاهر للعيان . فهو ينزلق نحو الارتياب ، لكثرة مواجهته لليقين والضلال ، وقد يكون ذلك على الرغم منه أو لاستعداد في طبيعته . وهل نعرف أبداً إلى أين يؤدي بنا مبدأ من المبادئ ؟ « إن نفس المبدأ الذي يفلح أحياناً ضد الضلال يضر أحياناً أخرى باليقين . . . (١) » . إن ما نصل إليه دائماً آخر الأمر ، وبعد البحث ، هو تناقض المبادئ (٢) : « وجماع القول في ذلك أن نصيب الإنسان قد ساء إلى حد أن التور الذي يخلصه من شربهو قعه في شر آخر ، طاردوا الجهل والبربرية توقعوا بالخرافة ، وبجأفة تصديق الناس التي يستغلها القادة ، ويسيتون بعد ذلك استعجال مغائهم منها ، ليفرقوا في البطالة والفجور . بيد أننا بنصير الناس بهذا الفساد ، سنوحى إليهم بروح البحث في كل شيء فيفحصون ، ويتعمقون في التفكير ، إلى ألا يجدوا شيئاً يرضى عقلهم التعس . . . »

== يوناني في القرن الرابع ق. م. ينكر استطاعة الإنسان الوصول إلى الحقيقة . يرى أن كل الكائنات تقطع لتجدد مستمر ، ولذا فنحن لا نستطيع أن نعرف إلا الظاهر . كل خطوة نخطوها بين الناس لا نرى فيها إلا أخطاء ومتناقضات وأوهاماً في الحواس ، إذن فالبحث عن الحقيقة لا يستند إلى شيء متين ؛ وهنا مثلاً خطورة ذلك المذهب لأنه يؤدي إلى الجور المطلق . وكان ديكارت يرى قبول هذا المذهب كشك مكشك مؤقت ، فهو يحك معارفنا ومشاعرنا . وأشهر الشكاك المحدثين مونتاني وبايل وهوم وكنت . [الترجمان]

(١) القاموس ، باب تقي الدين ، Takiddin .

(٢) القاموس ، باب تقي الدين ، Takiddin .

هناك طريقة ، يمكن للمرء بشئ من الجهد أن يكشفها ، بل أن يحصرها في صيغة .
« ما من نظرية لا تحتاج إلى الأمرين التاليين لتكون صالحة : أولها أن تكون الأفكار واضحة ، وثانيهما أن يؤيدها الواقع (١) » . فإذا نحن طبقنا هذه الطريقة ، وصلنا في آن واحد إلى الحقيقة المجردة ، وإلى الحقيقة الواقعة التي تؤيدها . ولكن كيف التطبيق ؟ ففما يتعلق بالحقيقة الواقعة ، نرى الناس يخلطون ويفسدون الوقائع ؛ ألا ترى في « القاموس التاريخي النقدي » كيف يهدم النقد التاريخ ؟ وفيما يتعلق بالحقيقة المجردة فإن الناس لا يتبينون الأفكار بوضوح ، ولو أنهم تبينوها لظهرت لهم كما هي : متعادلة القوة ، متعادلة الاحتمال ، تقتل فتقتل كل منها الأخرى .

* * *

ولكن بايل لا يقف عند هذا الحد . وإذا أردنا أن ندرك تفكيره بجمليته ، وأن نرى كيف يعاوده في إلحاح ، في كل مسألة يرى أنه لم يوطأ حقها من التوضيح ، فينبغي أن نصل إلى كتابه « جواب على أسئلة قروي » Réponse aux questions d'un Provincial الذي شرع في نشره عام ١٧٠٤ ، ولكن الموت لم يمهله ليكمّله . إنه لم يتخل عن طريقته في الاندفاع ، ولا عن عادته في البدء برسالة مطبوعة ، أو قصة تاريخية ، أو بحث أو نبذة ، لكي يهاجم ويعارض . ولم يطرح سخريته القاسية . ولكن ازددات مباحثاته واندفاعاته شدة ، وازددات ردوده حدة ، وأصبح تحليله أكثر دقة . والفروض أن القروي يسأله عن مخوى كتاب ، أو تحديد تاريخ ، أو واقعة تاريخية ، أو نقطة فضول هينة . وإذا به يكشف في بضع جعل ، وبوضوح يستحق الإعجاب دائماً ، عن النقط الرئيسية في المسألة : لا ظلال ولا غلام ، ولا محل لتلك الهواشئ الغامضة حيث تستطيع أن تلتجئ بقية من خطأ ؛ لا تعلل ولا تسامح ، ولا مغفرة . وتحوطه نفس المسائل ولا تكف عن مواجهته : أيسمح الله بأن يترك إثبات وجوده للارتضاء العام (١) ؟ هل منح الله الحرية للبشر ، أم يقودهم القدر ؟ إذا كان هناك إله فلم خلق الظلم ومختلف أنواع الشر ؟ إن بايل لا يساوره الضجر ، بل يتقدم بحل : حل يرمى إلى القول بأنه من المحال أن نؤكد شيئاً ، أو أن نعرف شيئاً !

ويعود ذلك البهانة الكبير إلى عمله مستزيداً من جسارته ، وأكثر شعوراً بمسئوليته . يريد أن يثبت بالدليل القاطع أن ليس بين الدين والفلسفة قياس مشترك : فطالما يخلط الناس بينهما فستذهب جهودهم أدراج الرياح . وهو يزعم أنه لا يهاجم العقيدة بوصفها عقيدة ، بل يظهر بمظهر يدل على احترامه لها ، قائلاً إنه لا يفعل شيئاً غير اتباع وترديد ما يدلى به المدافعون عنها من حجج وبراهين : أفلا يعترفون بأن كل دين يقوم على سر أولى ؟ تلك حقيقة الأمر ، سر يحافى المنطق ، ووضع يتنافى مع مجريات الحال ولا يتفق مع وجود عقل مفكر — بل إنه يقتحم القلعة لكي يزلزها ، وينشر بين حماة الاضطراب والذعر . فتراه يقول لم ، إننا إذا قبلنا الوحي يظهر الدين حقيقياً ، وتتابع مبادئه متفقة مع المنطق . غير أنه يضيف أن الوحي لا يمكن إثباته . فتصديقك شيء ، واستعمالك العقل شيء آخر .

لا توسط ولا تجزئة ، إن رفضك هذا المعتقد أو ذاك لتقبل هذا المعتقد أو ذاك ، هو التعارض البين ، إنه السخف بعينه « خيل إلى من مطالعة بعض رسائل أنك تدعى أنه فيما يتعلق بالتثليث وبعض مواد المنهجية الأخرى ، يجب على العقل أن يسجد أمام سلطان الله ، أما فيما يتعلق بخطيئة آدم وما ترتب عليها ، فيجب أن يخضع الكتاب المقدس لحاكمة الفلاسفة . فإذا كانت لديك تلك الفكرة حقاً ، وإذا كان قد وصل بك التباين إلى هذا الحد ، فأنك لتستدر رثائي . . . (١) » . هل أنت من أشياخ الأسرار ؟ إذن فاعتقد بها ، سواء اتفقت مع الفلسفة أو لم تتفق ، أو كانت تنقضها الفلسفة ببراكين لا ترد . ولكن عندئذ لا تدعى أنك تستعمل عقلك . وأولئك الذين يريد بايل أن يقنعهم بمواقفهم أو بغفلتهم ، ليسوا الكاثوليك وأتباع كالفين فحسب بل كل أصحاب النحل الأخرى ممن يدعون لإثبات وجود الله بالنور الطبيعي ، وكل أولئك يسميهم جماعة « الدينين » Religioneux (٢) ، ويقابلهم « العقليون » Rationaux .

(١) « جواب على أسئلة قروي » ، الجزء الثالث الفصل ١٢٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، Réponse aux questions d'un provincial, t. III, chap. CXXVIII, 1706

(٢) جواب على أسئلة قروي ، الفصل ١٣٤ ، « الدينون (اسمح لي أن أستعمل هذه الكلمة للدلالة على اليهود، الوثنيين والسيحيين والمسلمين ..) » Ibid. chap. CXXXIV... « Les Religioneux (permettez-moi de me servir de ce mot pour désigner en commun les Juifs, les Pavens, les Chrétiens, les Mahométans, etc) » .

بيير بايل

ولكن حينما تفترق القوتان بعضهما عن بعض على هذا الفرار ، يجسد العقليون لزوما عليهم ، لكن يظلوا منطقيين مع أنفسهم ، أن يمحضوا مبادئهم الخالص ، وهنا يبدأ الاضطراب . واأسفاه ! فان الفلسفة لا ترتقى الخروق التي تثقيها بالرغم من كل ما تتخذ من تدابير . فهي إذا كانت قادرة على تقويض التوكيدات الموروثة ، فانها عاجزة عن إبدالها بشئ سوى الاستفهام . هل الانسان حر ؟ أم يخضع للقدر ؟ « لن ننتهي إذا طرقتنا مسائل الحرية ، فلكل فئة موارد لا تنفى . . . » إن الاختيار *Le libre arbitre* لمسألة معقدة حافلة باللبس ، حتى إننا لو تعمقنا فيها لنناقضنا أنفسنا ألف مرة ، ولاستغرقتنا نصف المدة في استعمال نفس كلام مخالفينا ، وطيانا بأنفسنا أسلحة ضد قضيتنا . . . (١) « هل الروح أبدية ؟ إنها كذلك ولو لم تكن لكائنات مادية . — هل هناك إله سامي الحكمة واسع الرحمة ؟ ربما ، ولكن كيف نعلل بأى دليل ، رضا هذا الاله الحكيم الرحيم بأن يعذب مخلوقاته في أجسامهم وفي أرواحهم ؟ رضاه بأن يحملهم المسؤولية ؟ إن هذه النظرة التي تحضره لأول وهلة ، وهذا الواقع الذي يقرره ، والذي يصدم عقله فيثير شعوره ، يهولانه ويروعانه . وتنتابه قشعريرة : « أولئك الذين يسمحون بحدوث شر في مقدورهم أن يمنموه في يسر ، يستحقون اللوم ؛ أولئك الذين يدعون شخصاً يهلك وفي وضعهم إنقاذه مسئولون ولا شك عن موته . سلوا فلاحة ساذجة : الأمهات اللواتي لديهن فيض من اللبن ، ويؤثرون أن يتركبن أولادهن يموتون جوعاً بدلا من إرضاعهم ، السن مجرمات كاللواتي يرمين أولادهن في الماء سواء بسواء ؟ الوالد الذي يرى أحد أبنائه يوشك أن يضع السم في فمه ويدعه يفعل ، على الرغم من علمه بأن لصبيحة يسيرة منه أو إشارة بعينه تمنعه من تجرع السم ، ألا يكون مخالفا لأدميته ، كما لو كان جرعه السم بيده ؟ » (٢) .

كيف يتبادر إلى الذهن تشبيه الله بهذه الأم القاسية أو ذلك الوالد المحرم ؟ جهدت النفوس الصالحة وسعت المجال إلى لاهوت أجليكي ، وهو وليم كنج الطيب القلب ، أنه قد برّر ، إذ نشر بحثاً ضخماً باللاتينية متوهماً

(١) جواب على أسئلة قروي ، الجزء الثالث الفصل ١٤٢ ، ١٧٠٦ .

(٢) جواب على أسئلة قروي الفصل ٧٤ وما بعده ، نقض كتاب وليم كنج W. King من أصل الشر

أنه حل المسألة التي لا تحل . بيد أنه لم يحل شيئاً ، فهي مشكلة أعقد من ذنب الضب .

يا للإنسان من نسيج من التناقضات ! « الإنسان هو العقبة الكؤود أمام النظريات . إنه الصخرة التي تعترض الحق وتعرض الباطل . إنه يربك الطبيعيين ويربك الأورثوذكس . . . إننا هنا أمام عمه أصعب في تبديله من عمه الشعراء » . نحن نشن الحرب على الضلال ولكننا نخشى أن نهد في نهاية الكفاح ، أن أرواحنا أكثر السجماً مع الكذب منها مع الحق (١) . ونضع كل ثقتنا في قوة العقل السديد ثم نكتشف أنه لا حول له ولا قوة . « لا حيلة للعقل أمام الطبع ، فهو يدعه ينتقل من نصر إلى نصر وينقاد له إما كأسير وإما كداهن . وهو يغالب الشهوات ردحا من الزمن ، ثم يلوذ بالصمت ويسكن ويكتم الحزن ، ثم يذعن (٢) » نحن نحس أنه لا يستوثق أبداً من توكيداته ، وأن أوضح الأفكار في الظاهر ، ليست إلا مسائل عويصة في الواقع . إن الارتياح يعود فيهدد ، بينما الفكر يذوى ويهن .

* * *

لكن هل يسير بايل حتى الشك المطلق ؟ — لقد كان يصل إليه لو أنه اتقاد لطبيعة ذهنه ، إلا أن الرهان الفلسفي *le jeu du pour et du contre* كان لذته الكبرى . ولو أنه كان منطقياً صرفاً ، ولو لم يحسب حساباً إلا لما وصل إليه من تجاربه الإنسانية ، وللاستنباطات التي كانت تفرض نفسها على عقله كل يوم أكثر من سابقه ، لوصل إلى تلك المناطق الفسيحة من الغموض حيث لا يجد المرء حافزاً للعمل أو باعثاً على الوجود ، ولا استطاع بل لتحم عليه أن يصل إلى ما يسميه في كليل الارتياح الميتافيزيقي والتاريخي ، أي الشك المطلق .

ولكنه صمد وقاوم . فان شجاعته واعتقاده بأن عليه رسالة لا بد من تحقيقها ، وكراهيته للضلال التي كانت أقوى من كل شك يساوره حيال اليقين ، وعقله الذي أبى الاذعان التام لما لقيم من أنباء ، وفوق كل ذلك مجهود واع

(١) جواب على أسئلة قروي الجزء الثالث ، الفصل ١٠٣ ، ١٧٠٦ .

(٢) جواب على أسئلة قروي الجزء الأول ، الفصل ١٣ ، ١٧٠٤ .

تَصِيرُ يَارَادَتِهِ ، كل هذا أتاح له أن يحجم عن الخطوة الأخيرة . لم يقبل أبداً أن يتخلى عن اعتقاده في أن أمامه خير أخلاق ليحققه ، وتقدم ليؤازره . وفي هذا المعنى يقدم لنا « القاموس » فقرة مؤثرة ، وهي في باب ماكون Macon تعليق D « لماذا ألس هذه المفسد المروعة ؟ » Pourquoi-je touche ces effroyables désordres . هذه المفسد المروعة ، وتلك الحروب الدينية التي اتخذت ذريعة لأخط أنواع البربرية ، هذا الخروج عن الأدمية ، أليس الأفضل أن نبحو ذكرها وأن نزيل تذكاراتها ؟ ألا يعنى تكرارها أننا نغذى في العقول خطراً أكلوا لا يحمى ؟ « ألا يستطيع الناس أن يتنوعوا على أن كانوا أقصد إيقاظ الأهواء ، وإشعال نار الأحقاد ، بنشرى هنا وهناك في كتابي أقطع ما عرفه القرن الماضي من وقائع وأحداث ؟ بلى ، « فبما أن لكل شيء وجهين ، فهناك أسباب قوية تدفعنا إلى أن نتمنى أن تبقى ذكرى تلك المفسد المروعة ماثلة محفوظة بعناية » . ينبغي أن يكون الحكام ورجال الكنيسة واللاهوت على علم بالنسور الماضية ليجتنبوها في المستقبل . هكذا يفاضل بايل بين وجهي الأشياء ، ويختار الوجه الذي يستشف فيه بعض الأمل . ومع أن الشك قد خاسره في إمكان وصوله يوماً إلى اليقين المطلق ، فقد كان يعتقد أن الباطل مرض معد ، وأن رسالته أن يضع حداً لما يسبب من أضرار . إنه طبيب للعميان ، أقل ما يجب عليه أن يزيل الغشاوة عن بعض الأبصار .

ولم يقلد بايل أصحاب العقول السقيمة الذين حمل عليهم مناخراً « إنهم يقتلون العظيمة والشجاعة أمام الله طالما كانوا في عنقوان الصعلة وأوج الحظ والسعادة ، فإذا ظنوا أنه قد حاق بهم مرض أو مصيبة ، أو أدركتهم الشيخوخة ، المحذروا كالعادة حتى إلى الخرافات ! وإذا أحسوا أنهم على شفا الموت ، كانوا أكثر من الآخرين توفراً على تجهيز كل معدات الرحلة إلى العالم الآخر . . . » ولقد بقي بايل حتى آخر أيامه مهاجماً متعدياً . فبما أنه لم يشهر السلاح ؟ شيرلوك Sherlock ، تيلوتسون Tillotson ، كادورث Cudworth ، ولير كنج W- King ، جان-لي كلير Le clerc ، جورو Jurieu ، أرنو Arnould ، فيكول Nicole ، برنار Bernard ، وأخيراً جاكو Jaquelot الذي هاجم « القاموس » ، والذي كان أكثر من خصم عادي لأدعائه بأنه أثبت اتفاق العقل مع الإيمان . ولقد كان جاكو رمزاً للأفكار التي تأتي الاجتلاء ، رمزاً للمشاكل التي

تستعصى على العقل ، وشالاً للضعف البشرى . ولما ضعف بايل أخيراً ووقع فريسة للسعال والنزلة الصدرية ، ونهكته الحمى ، لم يكف عن استغلال فترة الموت في الردود والجidal . وإذا كان قد خالجه الأسف على شئ ، فهو اضطراره إلى الارتحال قبل تنفيذ أخطاء جاكوا (١) .

إن تفكيره النقدي كعطر مركز أقوى من أن يستعمل في حالته الخالصة ، بل مقصود في صنعه أن يخفف : وهذا عين ما حدث . أصبح تفكيره — عن طريق « القاموس » ، وبخروجه من لطاق المنازعات بين رجال اللاهوت ودخوله في تناول الجميع « حتى شاهد الناس الاعتراضات في كل ضيائها » ، وبإيجائه بالأنورد كسيرة في كل البلاد — داعياً إلى صعوبة التصديق والاعتقاد . « لقد أصبح معلوماً أن مؤلفات مسيو بايل قد ملأت بالشك عدداً وفيراً من القراء ، وغلفت بالريب مبادي الدين والأخلاق العالية المكتسبة (٢) » .

عقب معارك الأفكار في القرن السادس عشر ، ظهر اقتراح بالسلام . إنه عرض بالتهادن : سيقدر الناس أن المسائل التي طالما أضلتهم قد حلت ، ظانين أنهم يمشون بذلك للبشر أن يعيشوا دون عذاب المعلوم القيمة . وتراهم ينشطون ، ويوجهون اهتمامهم نحو مبتدعات الفكر الخالصة ، ويتذوقون متعة المجتمع ، ويتعلمون حسن المعاشرة ، فيصبحون على الأقل راضين مسرورين إن لم يكونوا في غاية السعادة . ويخدمهم يضيفون على ارتضائهم هذا نوعاً من الشجاعة ومن العظمة ، ويلقون في ألسانهم الاختياري نوعاً من الجلال ، مثلما

(١) اسحق جاكوا Jaquelot : « توائق العقل والإيمان » ، أو دفاع الدين ضد الصعوبات الأساسية المنتشرة في القاموس الفلسفي الانتقادي لمسيو بايل » ، أمستردام ١٧٠٥ . لقد كانت هذه الأزمان أزمان بطولة ، حيث لم يوجد من يرعى بأن يترك لخصمه الكلمة الفاصلة الأخيرة ، وحيث كان يتعقب البارزون العنيدون خصومهم حتى بعد المات . أرجع إلى لي كلير « المكتبة المنتخبة » جزء ١٢ ، ١٧٠٧ ، ملاحظات عن محادثات مسيو بايل نشرت بعد وفاته « كنت أعرف كل ما يستطيع مسيو بايل أن يقوله ضدي ، وكنت مستعداً لأن أصلي كل حديثه وكل شتايمه ، بدلاً من أن أيسر له السعادة في أن يكون آخر من يتكلم ، السعادة التي كان ينتظرها بفارغ صبر » .

(٢) المكتبة الألمانية ، الجزء ١٨ ، ١٧٢٩ ، *Bibliothèque germanique*, t. XVIII

apud 1729

بيير بايل

تجهد في تنظيم خلية ، وما فيها من تدرج طبقات ، وقوانين ، وفي إنتاجها وتكاثرها ، نظاماً يفترض آلاماً من التضحيات .

ولكن كيف السبيل إلى استتباب ذلك السلام ، إذا كانت المبادئ السيكولوجية التي يقوم عليها تتغير قبل أن تتوطد ؟ المرتحلون والشاردون والفضوليون والمعذبون وأولئك الذين يكرهون الاستقرار ، والمحدثون الذين لا يرون في حالة الفكر التاريخية إلا الضعف والرياء ، والقادمون الجدد الذين لا يدركون حتى أصول التفكير لدى الشعوب اللاتينية ، وكل من يحتاج ، وكل من يشك ولا يرى المسألة السياسية قد لقيت حلاً ، ودونها في ذلك أيضاً المسألة الدينية : كيف تملك نفسها وتربط جاشها هذه الكتلة المترابطة القوية ؟ إنها تشن الحرب على المعتقدات التقليدية ، كهداية .

القسم الثاني ضد المعتقدات التقليدية



العقل الذي يبني

(صورة غلاف القاموس التاريخي النقدي لبيير بايل . روتردام ١٦٩٧)

الفصل الأول

العقليون

إن مجهولاً يدعى العقل قد حاول منذ سنين أن يقتحم كليات الجامعة فسرًا، وأراد أن يناقش أرسطو وأن يطرده ، بمساعدة بعض النكرات المهرجين الذين يلقبون أنفسهم بتلامذة غاسندي ، وديكارت ، ومالبرانش ، أولئك الشردين . . . (١)

وكان هذا صحيحاً . فقد دخل العقل التهجم إلى المسرح ، لا ليناقش أرسطو فحسب ، بل كل من فكر وكل من كتب ، وهو يزعم أنه قد أزمع القضاء على كل أخطاء الماضي ، وبدأ الحياة من جديد . ولم يكن نكرة مجهولاً ، بل كان الناس قد استشهدوا به في كل آن على مر الزمان ، ولكنه كان يتقدم في وجه جديد . فهل كان العقل يدعى أنه العلة ، وعلى الأخص العلة الغائية ؟ (٢) — كلا لم يدع ذلك . — أم كان يدعى أنه مقدرة ؟ تلك المقدرة التي نفترض أن

(١) فرلسوا بوليه ووالو ديسبريو Boileau Despreaux ، عريضة لأساتذة في الآداب

١٦٧١ .

(٢) بحسب عقيدة قديمة ، العقل أعطى للإنسان لكي يصل به إلى متعة المعرفة ، هي أكبر المتع وأطهرها ، فيها نجد السعادة التي هي « علة » الحياة . (أنظر في هذا الصدد مؤلفات أفلاطون ، طبع جازيليه مقدمة . . . Préface de R. chambry . [المترجمان] عن العلة الغائية Cause Finale أنظر القاموس الفلسفي لفولتير Voltaire, Dict.

Philos. Fin

يقول البعض ، إذا كان الله قد خلق شيئاً لغاية معينة فإنه خلق كل شيء لغاية معينة . من السخف أن نعترف بالعناية الإلهية في ظرف وأن نسكرها في ظروف أخرى ، فكل ما صنع كان مقصوداً ، مرتباً ، فلا ترتيب بلا موضوع ، ولا نتيجة بلا علة . إذن فكل شيء على السواء نتيجة لعلة غائية ، إذن يجوز القول بأن الأنوف قد خلقت لتحمل المناظير ، والأصابع لتحللي بالجواهر ، كما يجوز أن نقول إن الأذن إنما خلقت لاستماع الأصوات ، والعيون لاستقبال الضوء . « أعتقد أنه يسهل إيضاح هذه النقطة . إذا كانت النتائج واحدة لا تتغير في كل مكان =

الإنسان يتميز بها عن الحيوان ، ويدهي أن يفوقه في ذلك بكثير ؟ — مافى ذلك من شك ؛ ولكن على شرط أن نمد حقوق هذه المقدرة السامية بحيث لا يحدّها حد ولا تنقصها جرأة . وفضل العقل وضع مبادئ واضحة ، حقيقية ، لكي يصل إلى نتائج لا تقل وضوحاً وحقيقة . وجوهره الفحص ، وبهمنه الأولى البحث فيما غمض وفيما استغلق وفيما أظلم ، لكي يضيء الدنيا بنوره . وكان العالم زائحاً بالأخطاء التي خلقتها قوى الروح الخادعة ، واحتضنتها سلطات لا تخضع لرقابة ، أخطاء استشرت بفضل التصديق الساذج والكسل ؛ وتكتلت وتقوت بفعل الزمن : فكان على العقل أن يبدأ العمل بحركة تطهير واسعة . كانت رسالته القضاء على تلك الأخطاء التي تجل عن الحصر ، فأسرع لانجازها وتعجل . وإنها لرسالة تكمن في صميمه ، في قيمة كنهانه الدّاق .

وأسرع العقليون يلبون النداء ، في نشاط ، وغيرة ، واستبسال . وكانوا فرنسيين ، وإنجليز ، وهولانديين ، وألمان ، يمدّهم بعبقريته يهودي يكرهه الجيتو (١) يدعى سبينوزا Spinoza . وما أشد اختلافهم ! وما أكثر تعارض النقط التي بدأوا منها لكي يصلوا إلى غاية واحدة ! إن تركّز القوات هذا لبشئ مدهش يأسر النفس !

* * *

١- في إنك لتجد أولاً المتحررين . ومنهم الإنجليز ، مثل وليم تمبل Willam Temple الذي ابتعد عن صخب السياسة ، ليهتج عن السعادة في حياة هادئة وادعة ، في كل زمان ، وإذا كانت هذه النتائج الوحيدة تستقل عن الكائنات التي تخضعها ، حينئذ هناك قطعاً علة غائية . فكل الحيوانات عيون تبصر بها ، ولها كلها آذان تسمع بها ، ولها كلها أفواه تأكل بها ، ولها كلها فتحات تتبرز منها ؛ هذه علل غائية واضحة . وإنه لا قساد لقدرتنا العسكرية أن ننكر حقيقة عالمية مثل هذه . أما الأحجار في كل مكان وكل زمان فلا تبني عمارات ، وكل الألوف لا تحمل مناظر ، وكل الأصابع لا تتحلى بخواتم ، وكل الأرجل لا تغطيها جوارب حريرية . وإذن فدودة القز لم تخلق لتغطي رجلى ، كما خلق فمك لتأكل به ، وكما خلق دبرك لتذهب إلى المراض . وعلى ذلك فهناك نتائج وليدة العلل الغائية ، ونتائج عديدة لا يمكن تسميتها بهذا الاسم . [المترجمان] (١) الجيتو : الحى الذي يقطنه اليهود وهو في العادة الحى الفقير في المدينة . وكان أصل الكلمة يطلق على أحماء اليهود في إيطاليا في القرن السادس عشر . [المترجمان]

حياة أبيقورية مع شيء من الحكمة . وهناك المتحررون الفرنسيون ، على الخصوص . ولم يكن هذا الجنس المتحرر ناشئاً فتياً ، فقد عمل على انتشار فلسفتين على الأقل . أولاهما فلسفة بادوا ، أى مدرسة بومبانوزي Pomponazi و كاردان (١) . والثانية فلسفة غاسندي في جانبها غير المسيحية . ولقد واصل غاسندي نظرية أبيقور (٢) وما بها من ذرات وروح مادية ، مصنفياً أفكاره — معقداً إياها — : حتى أضفى على تلك الأفكار عظيمة فلسفة ليس يسيراً أن تدرك ، وأضاف لونا من الحجة والطرافة إلى نفوذ تقليد قديم . فلما جاء المتحررون يقتفون أثره ، تشكلت منهم طائفة ، أخذت تزداد أهمية ، وكأما تزداد منزلة . بيد أن غاسندي وقف يواجه ديكرت ، وقام بينهما جدال تبودل فيه الهجوم الشديد ، وكانت المبارزة بين الخصمين أمام شرفة غصت بالنظارة المشرئين . وكان غاسندي يقول لديكرت « أيها العقل الصافي ! أيها الروح » ويقول له ديكرت « قل لي أرجوك ، أيها الجسد . . . » (٣) .

ولقد انهزم غاسندي . صحيح أنه لا يزال له بعض الأتباع ، في إنجلترا ، وألمانيا ، وسويسرا ، وإيطاليا ، ولكن عددهم قليل ، وقد انحسروا ، كسلفهم مجد ديكرت الذي غزا أوروبا المفكرة ، ثم مجد لوك ذلك النجم الجديد . وقد حاول فرانسوا برنييه ، الذي نشر في باريس في عام ١٦٧٤ مختصراً لفلسفة غاسندي *Abrégé de la philosophie de M. Gassendi* لقي قبولا حسناً من الجمهور حتى أعيد طبعه عدة مرات ، — حاول أن يمد تأثير نظرية تلقاها من ثم أسناده مباشرة : ولكنه كان يعوزه في ذلك ما في الاعتقادات القوية من حمية وحيوية ، فقد كان يكثر من ترديد تعبير « على كل حال » إلى المديح ، وهو تعبير يجد

(١) كاردان Cardan فيلسوف إيطالي ولد في باث (١٥٠١ - ١٥٧٦) .

(٢) أبيقور Epicure عند أبيقور ، الغرض من الحياة هو التمتع بها . والمتعة شيء إلهي ، بل هي علة الحياة . فلتبحث عن حياة من المتعة والسعادة نلقى فيها النهاية العظمى من اللذة والسرور مقابل النهاية الصغرى من الألم . إنما القصد بالمتعة ليس متعة الشهوات الغليظة ، بل متعة العقل بتهدئته وتدريبه على الفضيلة . وكما قال نيلون : إن الناس أساءوا فهم مذهبهم واتخذوه مثلاً على الفجور ، حتى أصبحت كلمة أبيقوري مرادفاً للشهوان . [المترجم]

(٣) « بحث ميتافيزيقي لبيير غاسندي ، . . . » أمستردام ١٦٤٤ ، Petri Gassendi *Disquisitio metaphysica, seu dubitationes et instantia, adversus Renati Cartesi metaphysicam, et responsa*, Amstelodami, 1644 .

من التأثير : « إن فلسفة غامندي تبدو لي — على كل حال — أكثر الفلاسفات تمشياً مع المنطق ، وأبسطها ، وأعمقها تأثيراً ، وأسهلها . . . » . أما ما كان ينتصر لديه فهو الشك : « إنني أتفلسف منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ومع اقتناعي كل الاقتناع ببعض الأشياء فقد بدأ الشك يساورني فيها . . . » . مثله في ذلك مثل الشاعر سيمولينس الذي طلب منه الملك هييرو أن يصف له الله ، فالتبس يوماً كهلة ، وفي اليوم التالي التمس من الملك أن يمد المهلة إلى يومين ، ثم في اليوم التالي إلى أربعة أيام . . . وهكذا ، حتى تعجب الملك من ازدياد عدد الأيام فسأله ، فأجاب الشاعر بأنه كلما فكر في الأمر كلما ازدادت أسباب الغموض . إذن فليس لدى المتحررين مذهب قطعي صريح . فلنعترف بأنهم ليسوا فلاسفة متعمقين ، فلاسفة السهرات هؤلاء . إنهم يقنعون بتصفح أشعار هوراس كأنها كتاب مقدس ، أما نظرياتهم الميتافيزيقية فقصيرة مختصرة . إذن فما منشأ إشاعتهم الاضطراب في صفوف حراس التفكير الأرثوذكسي ؟ ذلك على التحقيق لأنهم ينقصهم الروح الميتافيزيقي . إن طبيعتهم عاصية متمردة عنيدة . وتربيتهم الأرستوقراطية لا أثر لها إلا أن تقوى فيهم الشك . فهم أشبه بتلك الروافد السريعة التي تراها في كل مكان في ميدان العقل ، والتي تتدفق فتوسع نهر الاتحاد . عقل يدعى أنه يفكر من تلقاء نفسه ، وإرادة تأتي أن تحدد ؛ أولئك ليسوا فلاسفة متعمقين ، ولكنهم « فلاسفة » على كل حال ، إنهم يعتقدون أن السر الديني ما هو إلا لغز لا يعيننا إدراكه ، وإذا لم يدركوه فإنهم لا يلقون إليه بالاً ، لأنهم يعيشون على هامش الدين ، لا في الدين . مادام هناك ظلام ، وما دمتنا لا نستطيع أن نبدده ، فلنستفد على الأقل من هذه الحياة القانية ، فلنلذوق في رقة ، ما تقدمه لنا من متعة ، ولنستسلم لحكم القدر . ولعل ذلك إهمال خلقي ، ولعله تفسير للحياة أسوأ تفسير ، ولكنه مذهب قد اجتذب إذ ذاك عقولاً عديدة لم تكن عقول عوام .

هكذا كان المتحررون الفرنسيون : فئة فائقة الرقة والترف محتوم عليها إما أن تتجدد عن طريق المحالفة مع فئات أقوى منها وأخشن ، وإما أن تنحدر إلى التلف . وهكذا كان جان ديهينو ، الذي خلف جي باتين ودي لامت لي فاييه وترجم مؤلفات الشاعر الروماني لوكريسيس Lucretius كما فعل كثيرون غيره ، والذي عبر عن أفكاره الانتكارية أحسن مما عبر الآخرون ، تعبيراً قويا مشوبا بحزن عميق :

Tout meurt en nous quand nous mourons ;
 La mort ne laisse rien et n'est rien elle-même ;
 Du peu de temps que nous vivons
 Ce n'est que le moment extrême.
 Cesse de craindre ou d'espérer
 Cet avenir qui la doit suivre.
 Que la peur d'être éteint, que l'espoir de revivre
 Dans ce sombre avenir cessent de t'égarer.
 L'état dont la mort est suivie
 Est semblable à l'état qui précède la vie.
 Nous sommes dévorés du temps.
 La nature au chaos sans cesse nous rappelle.
 Elle entretient à nos dépens
 Sa vicissitude éternelle.
 Comme elle nous a tout donné,
 Elle aussi reprend tout notre être.
 Le malheur de mourir égale l'heur de naître,
 Et l'homme meurt entier, comme entier il est né . . . (١)

(١) كل شيء فينا يموت عند الموت ؛
 والموت لا يدع شيئاً وراءه ، وهو نفسه لا شيء ؛
 إنه ليس إلا اللحظة الأخيرة
 من الوقت القصير الذي نقضه .
 لا نخش ذلك المستقبل الذي سيتبعه
 ولا تأمل فيه .
 ولا نخدعنا ذلك الخوف من الهلاك
 ولا أمل البعث في ذلك المستقبل البهيم .
 فإن ما بعد الموت شبيه بما قبل الحياة .
 إن الزمن يفترسنا
 والطبيعة تدعونا باستمرار إلى الهوة .
 إنها تغذي على حسابنا تطوراتها الأبدية .
 هي التي وهبتنا كل شيء ،
 ولذا تسترد منا كل الوجود .
 إن يؤمن الموت يعدل فرحة تنسم الحياة .
 والإنسان كما ولد بأكمله ، بأكمله يموت .

من مؤلفات جان ديهينو ، ذكرها فردريك لاشير ، ١٩٢٢ ص ٢٧
Imitation du chœur de l'acte second de la Troade de Sénèque, Œuvres diverses, 1670; citée par
 Frédéric Lachèvre, *les Œuvres de Jean Delénauld, 1922, p. 27*

وهكذا كانت مدام ديهولير *Mme. Deshoulières* ؛ وهكذا أيضاً كانت نينون دي لانكلو (١) التي كانت «تنتع بأنها لا روح لها ، ولم تفارقها هذه العقيدة حتى في شيخوختها ، بل في احتضارها ..

ولكن أنضر زهرة في تلك الطاقة كان مولانا شارل دي سان دينس (٢) *messire charles de Saint-Denis* مارشال جيوش « الملك المسيحي جدا » . منذ عام ١٦٦١ - حين لجأ (سانت افريموند) إلى إنجلترا ، هارباً بعد فقدته الحظوة لدى ملك فرنسا والوزراء - حتى وفاته في عام ١٧٠٣ ، لم يعرف مهمة أخرى غير أن يكون متحرراً : وهذا وجد وقتاً فسيحاً لكي يصبح نموذجاً فذاً للمتحربين ، وهكذا بدأ للفرنسيين الذين كانوا يأسفون عليه ، وللانجليز الذين كانوا يحبونه ، وللهولنديين الذين أقام بينهم زمناً طويلاً . كان يوجد في شخصه وفي بعض ميول ذهنه شيء من التأخر والرجعية : مثل الرجل الذي اضطر إلى تغيير عاداته وحياته وهو في عنفوان شبابه فتراه يحاول ألا يقع أسيراً لماضيه . هكذا بقي «رجلاً فاضلاً» حتى في وقت عز الفضلاء فيه ، وبدأ ذلك المثال الجميل للإنسان بعدما فقد قوته يحتل مكاناً بين الذكريات . وهو كرجل فاضل لم يفتخر بشيء ، وإذا ما تناول اليراع كثيراً ليكتب ، فليس ذلك - كما يقول - على سنوأل أستاذ يكتب للتعليم ، في ألفاظ قاطعة من الحكم والأمثال ، بل كرجل مجتمع يحاول أن يمضي وقت الفراغ . لم تكن كل هذه الرياضيات والطبيعة التي انتغل بها الناس من حوله ، تنير اهتمامه . فعنده أنه لا عالم بهم ذوى الفضل والنسب سوى علم الأخلاق ، والسياسة والأدب : وهو استعداد رجعي في زمن يوشك العلم فيه أن يؤيد عمل الفلسفة ويكمله ، زمن من يبقى فيه بمجدة عن العلم ، يتعرض للبقاء على هامش الحياة . كان سانت افريموند مشغولاً بالدراسة الدقيقة لمؤلفات القدماء ، وبالمقارنات المتزنة التي يجريها ناقد نبيل بين المؤرخين ، وبين الخطباء ، وبالتحليل والموازنة ، وتصوير الشخصيات ، وغير ذلك مما يجد فيه عقل رقيق

(١) نينون دي لانكلو *Ninon de Lenclos* : غادة مشهورة بذكاؤها وجمالها ولدت في باريس وكان صالونها كعبة للأدباء والنبله ، (١٦٢٠ - ١٧٠٥) . [المترجمان]
... (٢) لقبه آخر لسانت افريموند . [المترجمان] .

بطبيعته تجربة لقدرته السيكلولوجية ؛ وكان يباشر المحادثة وليس هذا في حاجة إلى تبهان . وقد نال كل مبتغاه حينما جاءت هورتالس مالمسينى دوقة مازارين لتقيم في لندن ، وافتتحت صالونا ؛ صالونا سيخشا كل يوم ، وذلك هو ما كان ينقصه حتى الآن في الحياة .

وكان أبيقورياً ، يرى أن ليس بين آراء الفلاسفة عن الخير الأسمى ، رأى يبدو أصح من رأى أبيقور . كان يريد أن يعيش مجارياً الطبيعة ، وهو وإن لم يدرك تمام الإدراك — في الحق — ما هي هذه الطبيعة ، إلا أنه عرف كيف يعيش عيشة رقيقة ناعمة . كانت السلطة تحميه حتى لما تغير صاحبها بانتقال الحكم من يد جاك الثانى إلى يد وليم الثالث ، وكان يشغل فراغ أيامه بعادات لطيفة منظمة ، وكان نهماً أكولا ، يعين متعه بدقة حتى يكون أكثر تلذذاً بتذوقها ، فكان بذلك كله مثالا طريفاً لحب الذات . كان يبغض فكرة الامتناع والحرمان ، والزهد وتعذيب النفس . أما الاعتدال والاعتزان ، وعدم الاكتراث الذى يتيح للمرء تجنب الشهوات ، وحب الذات في رقة ، فيراها فضائل أساسية ، ومثل ذلك التوفر على حفظ الصحة ، فإنه خير قيم ، جعلنا اعتياده نبخسه حقه من التقدير . وقد أصيب بعاهة نغصته ، لما بلغ السبعين من عمره . يقول لنا دى ميزو ناشره ومؤرخه الأول « كان لسانت افريموند عينان زرقاوان حينان براقتان ، وجبين عريض ، وحاجبان كثان وفم جميل وإبتسامة مأكرة ، وطلعة طريفة ناطقة بالذكاء ، وقوام مشوق ، وخطو نبيل وثيق ، وقبل وفاته بعشرين عاما ظهر بين عينيه كيس دهنى ، كبر كثيراً فيما بعد . . . » ولكنه قابل ذلك بتصرف حكيم : فليس بذى أهمية أن يصاب المرء بدمل بين عينيه ، مادام باقياً على قيد الحياة . « إن ثمانية أيام من الحياة لأتمن من ثمانية أيام من المجد بعد الوفاة . » كان يعتز بتلك الحياة التى أفلح فى إطالتها بمهارته ، والتى رقت له بعد عوائق شبابه . لم يصب إلى متعة أخرى ، ولقد كان دون ريب يؤثر على كل ما كتب تخليداً لذكره ، الكلمات الآتية :

*Aimé de plus d'un roi, chér a plus d'une dame,
Il connut peu l'orgueil, peu l'amoureuse flamme ; (١)*

(١) أحب أكثر من ملك ، وأعزته أكثر من حسناء ،
عرف الكبر قليلة ، ولفحه شعلة الغرام ؛

*Ecrire et bien manger, fut son double talent,
Il nourrit pour la vie un amour violent,
Connut à peine Dieu, mais point du tout son âme ... (١)*

والحق ، أنه شعر بحب شديد للحياة ، ولكل ما يجعلنا نقدر الحياة : حرية التصرف من تلقاء الذات ، وفوق كل حرية ، حرية عقل لا يقبل إلا قانونه الخاص . هل ينبغي أن نتصور له نفساً أكثر تعقيداً ؟ هل ينبغي أن نعتقد أنه سبك قصته الشخصية ، وأراد أن يخلف للناس صورته ، مرسومة حسب بدعة التحرر من ، بينما سالت أفريموند الحقيقي ، يحن إلى وطنه ، ولا يشك إلا قليلاً ، ويأمل دائماً ؟ ذلك ليس مؤكداً ، ولو أنه طالما أيده الكثيرون . فانه ، عندما تقلقه حالة الانسان التعسة ، ويطلب صعوداً إلى درجات الملائكة ، أو سقوطاً إلى درك الحيوان ، لا يبتهل إلى « الاله » الذي مات على الصليب ، والذي يبينه مثل هذا الطلب ، وإنما يبتهل إلى الطبيعة :

*Un mélange incertain d'esprit et de matière,
Nous fait vivre avec trop ou trop peu de lumière,
Pour savoir justement et nos biens et nos maux.
Change l'état douteux dans lequel tu nous ranges,
Nature, élève-nous à la clarté des anges,
Ou nous abaisse au sens des simples animaux. (٢)*

وعلى كل حال ، لحتى لو كانت تلك الصورة المتفقة قد اختلفت عن أصل

(١) موهبته المزدوجة ، الكتابة وجودة الطعام .

أحسن حيال الحياة حباً جارفاً شديداً ،

يكاد يؤمن بالله ، ولم يؤمن قط بالروح .

(٢) إن مزجاً مبهماً من المادة والروح ،

يجعلنا نعيش بكثير — أو بقليل — من النور ،

لندرك ما يصيبنا من خيرات وشرور .

بدل أيتها الطبيعة حالة الشك التي تدفعنا إليها ،

وارفعينا إلى ضياء الملائكة ،

أو اسقطنا إلى مشاعر الحيوان .

يذكره أ. م. همت ، نائب أفريموند ١٩٣٢ ص ١٤١ ، Cité par A. H. Schmidt,

Saint Evremond ou l'humaniste impur, 1932, p. 141

حافل بالتردد والتناقض ، فسيبقى ذلك الأصل سرّاً مطويّاً ، ولا يشتهر إلا الرجل المتحرر : « لو أننا درسنا حياته ومؤلفاته ، بحثنا عن رجل جاد رزين ، وعن حياة فيلسوف ، قلن يطول بنا الأمر حتى نكتشف أننا قد وقعنا في خطأ كبير ، وأن امراً يسلك مسلكه ، لن يكون يوماً فيلسوفاً جاداً ، يعينى بمبعدة عن التبع الحسية . . . وفيما يتعلق بمؤلفاته ، سيخيب رجاؤنا إذا نحن بحثنا فيها عن علم ضليع بالفلسفة ، أو بالتاريخ القديم ، أو عن صرامة رواقية (١) أو تنسك ، إذ نقرأ كتبه من أوطأ إلى آخرها دون أن نجد شيئاً مما كنا ننتشده . أبيقورى خفيف : هكذا يصفه جان لى كايير في مجلته « المكتبة المنتخبة » ، في تعليقه على نشر مؤلفاته في أستردام (٢) .

أى جديد يأتي به سانت أفريموند في طائفته ، ذلك الرجل المتحرر ، بشير العصر الجديد ؟ أولاً ، لمحة تدل على جامعيته Cosmopolitisme ، لا لاهتمامه بأدب البلد الذى يقيم فيه ، ولا لترجمته « فولبون » Volpone ، ولا لتأليفه لمهابة *Sir Politick would be* على الطريقة الانجليزية لحسب ، بل لأنه — فوق ذلك — أدرك فكرة النسبية ، كما أدرك فكرة التطور في التاريخ . لقد فهم أن كل شعب ، بما له من أخلاق وسلوك وموهبة تخصه وحده ، إنما يمثل قيمة لا يستطيع شعب آخر أن يخضعها لقانونه الخاص . ولقد رفض أن يعد الأجنبي بربراً ، وطبق في العلائق الدولية ذلك التسامح الذى نادى به تجاه الأفكار . فكما أن لكل نظرية حقيقتها ، فلكل شعب مزاياه : « الحق أننى لم أر أوسع أفقاً وإدراكاً من الفرنسيين الذين يعيرون الأمور اهتماماً كثيراً ، والانجليز الذين يستطيعون أن ينتزعوا أنفسهم من لجة التأمل والتفكير ، للعودة إلى سهولة الحديث ، وإلى بعض حرية الفكر ، التى ينبغي ألا تنقص المرء أبداً ، ما أمكن . وأفضل من في الدنيا ، هم الفرنسيون الذين يفكرون ، والانجليز الذين يتحدثون . » وهو يتطلع إلى المستقبل ، مدفوعاً بتلك الإرادة في الفهم . ويجس شعوراً

(١) الرواقيون : Stoiciens ، أو مذهب زينون . مذهب حلولى أى لا يفرق بين الاله والكون Panthéiste ، ولكنه اشتهر على الأخص بأخلاقه ، التى تفضح الخير الاسمى في الجهد والخضوع للعقل ، دون نظر إلى الظروف الخارجية : المال والصحة والألم . . . وجوهر هذا المذهب في الواقع هو احتمال الألم وعدم الاكتراث له . [الترجمان]

(٢) سنة ١٧٠٦ ، الجزء التاسع .

من الراحة والهدوء في حالته الدينية . فهو لم يخالفه يوماً شعور بأنه عاص متمرد ، بل يستغرق في عدم التصديق براحة البال التي يجدها الآخرون في الإيمان ، مقابل بعض التضحيات ، نزولاً على حكم المظاهر والعادات . وإذا كان بعض المتحررين قد عانوا الاضطهاد من أجل أفكارهم ، فهو على النقيض يفوز بالجزء والمجد ، إن سانت أفريموند لا يمثل التحرر المناضل ، بل التحرر الظاهر . ألم يدفن مجدداً مكرماً في وستمنستر في ركن الشعراء ؟ — وهو يدلنا ، على الأخص ، على الاتجاه العام إلى مذاهب أقوى ، مذاهب أكثر تهجماً ، وأكثر اقتداراً على تقديم مواد جوهرية تغذي العقول الشرهة المتحرقة إلى التجديد . لقد عرف إبان إقامته في هولندا من عام ١٦٦٦ ، إلى عام ١٦٧٢ يهوديا يدعى سبينوزا ، ولقد سرتة — كما يقول دي ميزو — رؤية «بعض مشاهير العلماء والفلاسفة الذين كانوا وقتئذ في لاهاي ، وعلى الأخص هينسيوس وفوسسيوس وسبينوزا . «ولسنا نعرف ماذا دار بينهم على التحقيق ، ولكن الذي نعرفه أنه بعد مقابلتهم بزمين طويل ، أصبحت ذكرى سبينوزا تحل محليلة سانت أفريموند ولا تريم . «لقد خيل إلى المتحررين الفرنسيين ، الذين لا يمثلون بعد ، إلا رغبة متأرجحة في التخلص من القيود ، وتبرما بالطاعة والنظام ، وتمرداً على المذاهب والنحل ، أو قل ثورة معنوية في الاجال — خيل إليهم أنهم سيجدون في ذلك الرجل المتواضع الذي يعيش متأملاً منعزلاً في راينبرج وستيل فركيد ، عالماً يضع نظرية عن مروهم ، وميتافيزيقيا يؤيد بالمنطق ، ويترجم إلى مذهب ، الهدف العميق لذلك المروقي . . . (١) »

(١) جوستاف كوهين : إقامة سانت أفريموند في هولندا ودخول سبينوزا ميدان التفكير الفلسفي ، ١٩٢٦ *Guustave Cohen, Le Séjour de Saint-Evremond en Hollande et l'entrée de Spinoza dans le champ de la pensée française, 1926* دهبنو إلى هولندا ليقابل سبينوزا « كان دهبنو Dehenault رجلاً واسع العقل ضليع العلم ، متغوّفاً بالثقة في غير ابتذال ، ماجناً في فن وتأنق . لكن فيه أكبر عيب يمكن أن نصيب اللسان : كان يزهو بكفره ، ويعلنه بفخر وإعجاب بغض — ألف ثلاث نظريات عن فناء الروح . ورجل إلى هولندا لكي يقابل سبينوزا ، الذي لم يقدر سعة علمه واطلاعه كثيراً ، بالرغم من ذلك . » *Dubos à Bayle, dans le Choix de la Correspondance de P. Bayle, par E. Gigas, 1890* (دهبو إلى بايل ، ٢٧ أبريل ١٦٩٦ ، في رسائل بايل المختارة ، نأليف جيجاس ، ١٨٩٠) .

العقلون

١٣١

وهكذا ، فإن المتحررين يعملون أولاً على اكتساب الشهرة ، بالرغم من ضعف مذهبهم ، وهم لم يقبلوا أبداً الهدنة الفلسفية التي عرضتها الكلاسيكية الفرنسية ، ورفضوا قبول أى مذهب بحسبانه مذهباً مكتملاً ؛ لقد شكوا دائماً ، ودأبوا على الإنكار . إن عصيانهم بمثابة إعداد للتمردات المستقبلية . إنهم ذخيرة من عدم الايمان . وهذا صحيح حتى إنه في المجادلات الصحفية لذلك الزمن ، لم يفرقوا بين أولئك الذين ينتقدون نصوص الانجيل ، والذين لم يعتقدوا بالوحي وبالمعجزات ، وغير المكترتين ، والكفار ، بل يسمونهم جميعاً « متحررين » ؛ وإنما يرجع ذلك إلى عدم الاعتناء بالتمييز بين الآراء ، والمذاهب ، والنظريات ، ويفحص الفوارق ، وتعيين الحدود ، وإلى مبادرتهم إلى وسم العقول التي تعد خطرة على الايمان ، دون أناة .

ولكنه صحيح أيضاً أن المتحررين لم يعودوا يكتفون بأنفسهم ، وأنهم اضطروا في نهاية القرن السابع عشر إلى البحث عن دعامة في فكرة فلسفية أقوى وأكثر السجماً . إذا كان التحرر يعنى من جهة عدم التصديق ، ومن جهة أخرى حب الحياة الشهوانية — دالا بذلك على حرية مزدوجة : حرية العقل وحرية الحواس — فإن الزمن قد أخذ في تغيير هاتين الصفتين . فعديمو التصديق يبحثون عن مذاهب جديدة تحل محل مبادئهم الغاساندية المستضعفة المتأخرة ، حتى إننا سنجد في قولتير شخصاً آخر وأكثر من متحرر . أما الشهوانيون فسيطلبون متعاً أقل رقة ، وأقل اعتدالاً ؛ وسيظهرون أفسق وأوقع . وفي عهد الوصاية (١) ، سنرى تحرراً فيه شئ آخر غير البحث عن التوازن ، بل سنجد تظاهراً بالمغالاة ، فإن نداء الوصى على العرش Les Roués ، سيشتبهون بالابتذال في الأخلاق أكثر من اشتهارهم بالاستقلال في التفكير . وسوف يتم هذا الانتقال على أيدي لافار والشاعر شوليو La Fare et Chaulieu ولا سيما الأخير ، الذي يعتقد أن التبيذ والنساء يعدان في مقدمة المتع

(١) عهد الوصاية : La Régence أى حكم فيليب دورليان في قصور لويس الخامس عشر (١٧١٥ - ١٧٢٣) وهذه الحقبة مشهورة في تاريخ فرنسا وتتميز بحرية مفرطة في الأفكار ، وفي الأخلاق على الخصوص . وقد انفجرت عتب وفاة لويس الرابع عشر ونهاية حكمه الظالم الشديد . [الترجمان]

التي نجونا بها الطبيعة والحكمة ، والذي رد ذات يوم على أشعار صديقه مالميزيو
Malézieux بهذا الاقرار :

*Pour répondre à tes chansons,
Il faudrait de la Nature
De Lucrèce ou d'Epicure.
Emprunter quelques raisons ;
Mais sur l'essence divine
Je hais leur témérité,
Et je n'aime leur doctrine
Que touchant la Volupté,
Je suis cet attrait vainqueur,
Ce doux penchant de mon âme
Que grava d'un trait de flamme
Nature au fond de mon cœur ;
Dans une sainte mollesse
J'écoute tous mes désirs ;
Et je crois que la sagesse
Est le chemin des plaisirs . . . (١)*

لقد أخذ معنى الكلمة يتغير ؛ ينبغي أن نخصص وأن نقول « المتحررين
عقلا (٢) » *libertins d'esprit* ، إذا أردنا أن نبين أننا لا نقصد التحرر في

(١) لكي أرد على أشعارك ،
ينبغي أن ألتبس بعض البراهين
لدى « طبيعة » لوكريس وأبيقور .
ولكنني أبغض جرأتها فيما يخص الجوهر الالهي ،
ولا يعجبني مذهبها إلا فيما يخص الشهوة
إني أتبع تلك الجاذبية الظاهرة
ذلك الميل اللطيف لروحي ،
الذي نقشته الطبيعة في أعماق قلبي ،
بالفاظ من نار .
إني أصغي إلى شهواني ،
في استرخاء قدسي ،
وأعتقد أن الحكمة هي طريق المتعة .

(٢) بيير بايل : الساموس ، باب أرسيزيلاس *Arcehilas* « نحن لا نراعي المبدأ
الحقيقي لأخلاقنا في أحكامنا النظرية على طبيعة الأشياء ، حتى إننا لا نجد أناسا سيئين
السيرة أكثر من المسيحيين الأرثوذكس ، ولا حسن السلوك أكثر من المتحررين عقلا » .

الحواس . بينما الذين « بقعون في الدييزم (الايان بالله وإنكار الوحي) ، أو في هذا النوع من الشك . . . يدعون العقول القوية (١) » .

Nulla nunc celebrior, clamorosiorqu esecta quam Cartesianorum
« ليس أشهر الآن من المذهب الديكارتى » ، ذلك ما يعلنه أحد المعاصرين في كتاب عنوانه بليغ الدلالة *Historia Rationis* (٢) . الواقع أنه في نهاية القرن أصبح ديكارت ملكا . بيد أن ملكيته ليست مطلقة ، لأن مثلها لا يحدث في ميادين الفكر ، ولأن بعض الخصائص الأهلية والجنسية تبقى ولا تتغير ، حتى في أكثر أشكال التفكير تجرداً ونظرية . فان ديكارت لا ينجح في غزو الفكر الانجليزي ولا الفكر الايطالى ، اللذين بذودان عن انجلترا وإيطاليا وبقيان على خصائصهما الجنسية . لكن إذا نزل المفكرون إلى ميدان « الشامل » فان ديكارت يتوج ويسود . فإمن فرنسى يفكر ، إلا ويتأثر بنفوذ ديكارت إلى حد ما ، ولو كان من أخصاصه ، وما من أجنبى ذى شأن وخطر لم يكتسب منه على الأقل تشجيعاً على التفكير والتفلسف . إن لوك يعترف بأنه مدين له ، وسبينوزا في بدايته يشرح نظرية ديكارت ، ولعل أحداً لم ينفذ مثله إلى أعماق تفكير الأستاذ . ولما حاول فيكو بعد ذلك بقليل أن يوجد على إيطاليا بفلسفة من بنات أفكاره ، فان العدو الذى يضطر إلى محاربتة لم يكن أرسطو المخلوع عن العرش ، بل ديكارت المتربع على العرش . لقد صار مذهب ، ديكارت يدرس رسمياً في مدارس هولاندا ، ومنها ينتقل إلى الحجر ، بفضل الطلبة العائدين من جامعات ليدن ولاهاى وأمستردام وأترخت وفرانكيير ؛ واتخذت ألمانيا مذهبه وسيلة للنحرر من المدرسية ، وهنا أيضاً ، إذا أردنا أن نقدر قوة فعلهما يصعبه من رد فعل ، فلنتذكر أن ليبنتز العظيم قد عني بمفيد ديكارت . إن أتباع ديكارت ، الذين سيق أن حوكموا ، وأدرجوا في القائمة السوداء ، وعانوا النير والاضطهاد ، وأدينوا ، قد أصبحوا بعد مرور نصف قرن يشغلون

(١) بيير بايل : أفكار عن المذهب ، الفصل ١٢٩ ، *Pensées sur la Comète* § CXXXIX .

(٢) تاريخ العقل : ب . كويليه ، ١٦٨٥ ، الباب الثالث عشر من ١٠٧ .

Historia Rationis, auctore D. P. D. J. U. D. (P. Collet) 1685, art. XIII, p. 107.

المناصب الجامعية ، ويلقون المحاضرات ، ويؤلفون الكتب ؛ أصبحوا موضع التشريف والتكريم : دانت لهم السلطة .

حينما يبلغ مذهب هذا المدى الواسع من الانتشار ، حتى يعرفه من لم يمارسوه أبداً ، وحتى يؤثر على من لم تكن لهم أى صلة بالكتب التى تشرحه ، فمن الطبيعى أن يفقد على طول الطريق كثيراً من ثرواته ، وألا يبقى منه ما يؤثر ، إلا ذلك الشطر من جوهره الذى يمتزج إلى الأبد بالتراث الإنسانى . هكذا فقدت فى الطريق ، الغدة الصنوبرية *La glande pinéale* وهى معقل الروح ، « والحيوانات — آلات » ، التى لا تشعر باللذة أو بالألم ؛ والملاء ، والعواصف ، وفيزيكا ديكارت ، بل ميتافيزيقاه أيضاً . . . فإذا نبهت إذن ؟ تبقت روحه ، وطريقته وهى كسب بلا شك ، وقواعده الساطعة التى تضى أمام العقل الطريق ، والتى بلغ من بساطتها وقوتها أنها وإن كانت لا تنير لنا كل اليقين ، فهى تتيح لنا على الأقل أن نبدد جانباً من الظلمات .

الثقة بالعقل الذى أصبح بعد أداة للمعرفة الأكيدة ، « تلك الحركة التى تجرى من الداخل إلى الخارج ، من الذاتى إلى الموضوعى ، *du subjectif à l'objectif* (١) من السيكلولوجى إلى الأنطولوجى (٢) ، ومن تأكيد الضمير إلى الجوهر (٣) » : هذه هى القيم النوقوفة التى يخلها ديكارت للجيل الثانى والثالث من أتباعه . فلنصدق فونتنل فى قوله « ينحى إلى أنه مصدر هذا المنهج الجديد فى الاستدلال ، والذى يفوق فلسفته نفسها ، تلك الفلسفة التى لو طبقنا عليها القواعد التى تعلمناها منه ، لوجدنا شطراً كبيراً منها خطأ ، أو غير وثيق . »

ولم يعد فى إمكان ذلك العقل الثائر المنطلق أن يقف ، وهو لا يعترف بأى تقليد أو أية سلطة ؛ إنه يعلن أن « ليس هناك ما يمنع من أن نطرح كل شئ لى نفحص كل شئ » إنه يريد أن يحو الحقيقة المجردة . إن الكلمة السحرية

(١) Subjectif « ذاتى » أو ما يخص الفاعل المنكر . . . Objectif « موضوعى » أو ما يخص الموضوع .

(٢) « السيكلولوجى » ما يخص النفس . « الأنطولوجى » ما يخص الوجود والكائنات .

[الترجمان]

(٣) تاريخ الأفكار « الاستطبيقية » ، مقدسة .

Menendez y Pelayo, *Historia de las ideas estéticas*, siglo XVIII, Introduccion.

القادرة على قمع القوات التي توشك أن تكون خطراً ، والتي تكمن خطورتها في نفس تزايد قوتها ، تلك الكلمة الحكيمة التي فاه بها الأستاذ في سرعة وفي حذر ، لم يعد يتذكرها تلامذته السحرة ، وإذا هم تذكروها فانهم يرغبون عن استعمالها . إن لهم الأرض والسماء ! لهم كل ما يقع في دائرة المعرفة ! لهم الأدب والفن ! لا شيء — في عرفهم — يفر من قبضة الذهن الهندسي . ولهم علم اللاهوت ! إن أستاذاً في الرياضيات ، هو يعقوب شوتشر *Jacob Scheuchzer* في سياق مدحه للذهن الهندسي في الموضوعات اللاهوتية (١) ، يذكر في زهو وتقدير ، « المقدسة » التي أدرجها فونتنل في مؤلفه (تاريخ الجامعة الملكية للعلوم منذ قانون ١٦٩٩) *Histoire de l'Académie des sciences depuis le règlement fait en 1699*. « إن الذهن الهندسي ليس وثيق الارتباط بالهندسة حتى يتعذر فصله عنها ووصله بمعارف أخرى . فان مؤلفاً سياسياً ، أو أخلاقياً ، أو تقديماً ، أو حتى مؤلفاً في البلاغة ، قد يزداد جهالا لو أنه كتب بيد هندسية ، مع بقاء كل شيء على أصله . لعل المنبع الأول لما يسود الكتب القبيحة من زمن ، من نظام ودقة ووضوح ، هو ذلك الذهن الهندسي الذي بلغ من الانتشار مداه ، والذي يسرى رويداً رويداً حتى إلى من لا يعرفون الهندسة . يحدث أحياناً أن رجلاً عظيماً يؤثر في عصره بأسره ، والرجل الذي يستحق عن جدارة أن نلصق إليه شرف وضع فن جديد للاستدلال ، كان عالماً عظيماً في الهندسة . » لقد انتهى الأمر ، وسر الزمن ؛ لقد أثرت ديكارت الهندسي في العصور الحديثة . — لكن إذا نحن افترضنا أن هذا الذهن الهندسي تعرض للعقيدة ، وطبق دون تحوط على مسائل الإيمان ، فترى ماذا يحدث ؟ يحدث « محو الأديان » : فانه يعمل على إزالتها كلها (٢) .

أهناك مثال أعجب من أن مذهباً يؤدي منطقياً إلى نتائج متعارضة ؟ لقد أقيم التدليل على ذلك الواقع في حذق وبراعة حتى إننا لا نملك إلا أن

(١) استعمال الفكر الهندسي في علم اللاهوت ، ألفه يعقوب شوتشر . ١٧١١ .
Prælectio de matheseos usu in theologia, habita a Jh. Jacobo Scheuchzero, med. D. math.
P., Tiguri, 1711.

(٢) أخبار جمهورية الأدب ، نوفمبر ١٦٨٤ ، الباب الأول .

نذكره باعجاب (١) وتقدير . إن الفلسفة الديكارتية تمد الدين ، أولاً ، بدعامة قيمة سكونية ؛ ولكن هذه الفلسفة تحمل في تناياها سبداً لا دينياً ، يتضح على مر الزمن ، وبعمل ويؤثر ، حتى يستعمله الناس في تقويض دعائم العقيدة . كان المذهب الديكارتي يهيئ يقينا ، وأماناً ، ويقدم حيال الارتياحية تؤكد قاطعاً ، إذ يثبت وجود الله ، ولا مادية الروح ، ويميز بين الفكر والامتداد ، وبين الفكرة النبيلة والحساسة ، ويسجل انتصار الحرية على الغريزة ؛ والخلاصة أنه كان سياجاً ضد التحرر . ثم إذا به ينبت التحرر ويقويه . ذلك لأنه كان ينادى بالفحص والنقد ، ويحث البداهة حتى في المسائل التي أبعدتها السلطة عن متناول قوانين البداهة . كان يهاجم العقل المؤقت الذي شيد ليحتمي فيه الإيمان . لابد أن يرى المرء النقطة المعينة التي ينتهي إليها المذهب الديكارتي ، طوعاً أو كرها ، وبشرط ألا يحاول المرء أن يخدع نفسه ؛ حيث يناقش الأديان ، وماهية الديانة بالذات . بل لقد طرد المذهب الديكارتي أرسطو : « لعل المشائين أنباع أرسطو Péripatéticiens ، قد استند بهم الحجل والارتباك ، لرؤية كلمة الله الأبدية Le Verbe Eternel وقد أصبحت ديكارتية ... » (٢) ولو أنك انتظرت بعض الوقت ، لرأيت إلى أين ستصل نتائج التفكير الديكارتي : « كم مستملكم الدهشة لو رجع ديكارت الآن إلى الدنيا . أظنكم سترون فيه أعدى أعداء المسيحية . » (٣)

ذلك الانفصال بين العقل والدين ، الذي يسير ويؤيد نفسه بنفسه ، سينبري رجل ليعارضه ، بكل ما أوتي عقله من قوة ؛ هذا الرجل هو الأب مالمبرانس Malebranche الذي لم يكف طوال حياته عن الاعتقاد بأن « الدين ، هو الفلسفة الحقيقية » .

(١) جوستاف لانسون : تأثير الفلسفة الديكارتية على الأدب الفرنسي ، دراسات التاريخ الأدبي . ١٩٣٠ . G. Lanson, *L'influence de la philosophie cartésienne sur la littérature française, Études d'histoire littéraire*, 1930

(٢) جوريو : فكر المسيو أرنو ١٦٨٤ ، ص ٧٨ . Imieu, *L'esprit de M. Arnauld* . ٧٨

(٣) ل . أ . كاراجيولي : محادثه بين عصر لويس الرابع عشر ، وعصر لويس الخامس عشر ، لاهاي ١٧٥١ ، ص ٣٩ . L. A. Caraccioli, *Dialogue entre le siècle de Louis XIV et le siècle de Louis XV*, La Haye, 1751, p. 39

ليس ذلك الرجل بعيداً عن أن يكون فيلسوفاً صرفاً ، كما يظن العوام ؛ إنه لا يجد راحته التامة إلا في ميادين « الاستناهي » ، وهو يتغذى بالأفكار ، وما أقل احتياجه إلى المادة ! ولقد كان بمقدوره أن يخترع الميثافيزيقا ، لو لم تكن موجودة من قبله . إنه شخصية ظريفة ، نسيج وحده ، بسيط في مظهره ، معقد في مخبره ، كان ضعيفاً مسقماً ، تقوده فطرته — كما يقول فونتنل الذي يرى فيه موضوعاً عجيبيّاً شائقاً — نحو سبيل الحكمة والحريمان التي تحتكما إرادته : حتى إن الطمع والارادة ، الجسد والعقل ينفقان لأول مرة ، وفي ذلك الرجل . لقد التجأ إلى جمعية الأوراتوار (١) ، خوفاً من الدنيا ، وفرعاً لإزاء الحياة ، وفراراً من جلبة الوظائف والرتب ، والحق أنه عاش متواضعاً أقصى التواضع خاشعاً كل الخشوع . ولما كان غنياً فقد تخلص من ماله ، بجوده وعطائه . كانت فيه على الأقل بعض الفضائل التي تجعل من القديس قديساً . ولكنه مع صفاء قلبه وسذاجته ، كان أيضاً وقاد القرينة ، صلب الرأي ، قوى الارادة ، لا شيء في الدنيا يحمله على التخلي عن أفكاره ، وحيناً تولد أفكاره المشاكل ، كانت له طريقة نفرد بها ، وهي أن يلقي بنفسه في مشاكل أخرى ، حتى تستغلق هي ، وينتصر هو .

و ذات يوم صادف الفكر الديكارتي ، فكان معين إلهامه (٢) . لغاية ذلك الوقت ، لم يكن يعرف فيم يستغل عقله ، كان يتلمس السبيل ؛ أما بعد ذلك فلم يتردد ؛ قرر أنه سيغدو ديكارتيّاً ومسيحيّاً ، معا . سيصلح ما بين الديكارتيّة والمسيحيّة من خلاف . منذ ذلك اليوم ، تقرر اتجاه حياته .

كان يطيل التنكير ويتعمق فيه ، حتى إذا بدا له أن تفكيره قد لضج ، خرج على الناس بأبحاث ميتافيزيقية ضخمة ، تخلق رنة وضجة . لقد سعى إليه المجد بنفسه ، مجد بلغ من الحيوية مبلغاً لا نستطيع أن نتصوره اليوم ، ولكنه

(١) Congrégation de l'Oratoire : جمعية دينية ، تأسست في روما فيما سبق ، ثم انتقلت إلى فرنسا سنة ١٧١١ .

(٢) ذات يوم وجد مالبرانش في مكتبته « القصال في المنهج » كتاب ديكارت . وفي هذه اللحظة شعر بالهام عميق ، وقرر الفرار إلى الريف حيث عاش عشرين في عزلة تامة وتفكير عميق . وبعدها عاد إلى الأوراتوار وكتب مؤلفه الشهير « البحث عن الحقيقة » الذي أكسبه مجداً منقطع النظير . (أنظر حياة مالبرانش بقلم أوليه لافرون) . [الترجمان] Ollé-Laprune, Malesbranche (Ladrang) 1870, 2 vol.

تعدى في إشعاعه حدود فرنسا ، وكتب له من البقاء أطول مما كتب لصاحبه . وكان له قراء وأتباع ومتعصبون : فان طالباً في مدرسة أكاديمية في نابولي ، يدعى برناردولاما ، هرب من وطنه ووصل إلى باريس ، قاصداً رؤية مالبرانش الشهير . وكان مالبرانش يعيش في هدوء ، بمعدة عن كل ذهن ثوري متعرد ، ومع ذلك فقد أثار مناقشات طويلة ، وتقنيات حماسية ، جعل يرد عليها باقتناع عميق ، حتى إن حياته كانت عراكاً فلسفياً مستمراً . ومن صومعته الصارمة ، حيث التجأ ليفكر بمنأى عن المجتمع ، مستخفاً بالطبيعة ، انبعثت في ضياء ساطع « تلك المحاولة الأخيرة للفلسفة المسيحية الحرة . » وهذه المحاولة ، التي عاوتها مزينة تفكير موليح بالمسائل العويصة ، هي التي أثرت على النفوس وفازت بأسمى تقدير في تاريخ الأفكار .

البداية العقلية : ذلك هو النور الوضاء الذي كان يصبو إليه مالبرانش في غيرة صوفية . لأن التصوف عنده يتفق وتوحيق العقل . فهو يعمل في ورع على أن تظهر الحياة فردية كانت أو شاملة ، وعلى أن يظهر الكون بأجمعه ، كتحقيق لنظام يفسر الايمان ويتضمنه .

بينما ، لو نظرنا إلى الدنيا ، لوجدنا فيها ، بجانب نظام شامل لا ينكر ، اختلالاً يربك ويحير . فالظواهر ، والشواذ ، تعلن وجود الشر الطبيعي ؛ والخطيئة تعلن وجود الشر الأخلاقي . ومهمة الفيلسوف أن يشرح لنا هذا الاضطراب .

لكيلا يقع بأي حال ما يخالف النظام ، ولكيلا تسقط في حبال الاغراء روح توشك على ارتكاب الخطيئة ، وحتى إذا سقطت فلكي تنال الغفران بعد توبتها ، ينبغي أن نقترح لها يتدخل في كل لحظة ، ويزعج نفسه في كل آونة ليأتي بالمعجزات ، ويخالف بنفسه القوانين التي استنها على ألا تنقض : إذن سنستبدل بالاختلال عدداً لا نهائياً من الأواسر الإلهية المخالفة .

هنا يتدخل مالبرانش — الذي لا يستطيع أن يتصور أن الله القادر على كل شيء يلقى بعظمته ذلك الاسراف في الوسائل — لكي يقول لنا إن الله يعمل بموجب إرادة شاملة لا خاصة . لا بد أن يراعى الله مقتضيات الحكمة ، مادام يمثل الحكمة في أسى صورها . إنه يحب الحكمة حباً لا يدفع ، حباً طبيعياً ولازماً . ولا بد أن يتبع سيرة تليق بأوصافه : سيرة منطقية لا تناقض فيها .

العقليون

١٣٩

فالطير يساقط في نفس الوقت على الحقل ، ليرويه فيشمر ، وعلى الطريق ، والبحر والجداول : عندئذ يأخذنا العجب . فأى الطريقين أصوب ؟ التدخل كلما سقط المطر لتحديد مكان سقوطه ، أم ترك القانون العصام للحركة يأخذ مجراه ؟ إذا كانت هذه الطريق الأخيرة أصوب وأليق ، فإن الله لا يستطيع إلا أن يفضلها .

حقاً ، إن الله لا يريد تعذيب هذا الكافر أو ذاك الشرير . ولكنه لا يرضيه أن يتدخل باستمرار ، ليهب الايمان لكل الكفار ، والطيبة لكل الأشرار . فإن ذلك لا يتفق وفكرة إله ذى حكمة وكمال غير متناهيين ، ومن ثم يستحيل تحقيق السلام الشامل .

كل ما يستطيع الله أن يفعله ، هو أن يضع عللاً باعثة *Causes occasionnelles* : رسلاً يعملون طبقاً لأوامره ، وكلت إليهم مهمة وضعت بشكل لا رجعة فيه . إن السيد المسيح قد عينه « أبوه » ليكون العلة الباعثة الوحيدة للغفران الإلهي بأسره ؛ وهو يوزع هذا الغفران على الناس ، الذين يصلون من أجلهم وهؤلاء الناس سينقذون دون أن يتكلف « الرب » إرادة خاصة . والسيد المسيح نفسه يصلى ويدعو طبقاً لمقتضيات النظام ، وحسبما نحتاج العارة الروحانية التي يريد الله أن يشيدها ، إلى حجارة حية . فالله يطبع ذلك المبدأ من التبسيط وتووير القوات ، الذى هو المنطق ، والحق ، والحياة .

هكذا يستدل بالبرانش . وحيثما يشتم خطر انفصال بين الفلسفة والايمان ، سواء تعلق الأمر بسر تناول القريان ، أو بفقرات من الكتاب المقدس محل خلاف ، يهرع ، ويشرح ، ويقول : « كونوا أكثر ثقة بعقولكم ، كونوا أكثر إدراكاً لعظمة النظام وقيمته ، يتضح لكم كل شئ » ، ويستتب الالسجام . إن رشاقتة لا حد لها ، وإن سعة حيلته لاعجازية ، فهو يقيم قصراً واهياً من الأفكار ويدعمه بقصر آخر ، معتقداً أن في معجزة التوازن هذه ، دليلاً على المثانة . إلا أنه لا يدرك أنه يجعله الله يذعن لحكم نظامه المنتصر وحكمته الظافرة ، إنما يسلبه في نفس الوقت كل حقوقه ويواضع وجوده : إما أن الله لا يعدو كونه وكيلًا ، وإما أنه هو العالم الذى يقوم بنفسه طبقاً لقوانين لازمة ؛ حتى إنه ، بالرغم منه ، ومن إرادته القاطعة ، ومن براعته الفذة ، لا يصعب اتهام بالبرانش المسيحي جداً ، بأن مذهبه مخالف للمسيحية . قال له فنيلون في « مناقضته »

التي كتبها ضده « إنكم لم تقدروا أنكم عملتم على إخضاع الدين لأحكام الفلسفة ، وعلى السماح بقيام المبادئ السوسنيانية ضد أسرارنا . » إن بيير بايل ، الذي كان معجبا به ، بل كان يعد مالبرانش وأرنو أعظم فلاسفة الدنيا ، والذي بعد كتاب « البحث في الطبيعة والغفران (١) » مؤلفاً لعبقري ممتاز ومثالا لأقصى مجهود للعقل البشري ، لا يخفى عليه إلى أين ستؤدي تلك الميتافيزيقا . — « لو تحررنا الحقيقة لوجدنا أن مالبرانش يفترض أن رحمة الله وعظمته تتحداهما حدود ضيقة ، وأن ليس لله أية حرية ، وأنه ملزم بمقتضى حكمته بخلق الكون ، ثم أنه ملزم بأن يكون فعله هذا مثل ذلك الخلق تماما ، ثم أنه يخلقه حسب طرق معينة مثل تلك الطرق تماما . إنك تجد هنا ثلاثة التزامات تكون دعاية رواقية (٢) واضحة . . . » وعلى ذلك يضع بايل قياسين منطقيين مؤكداً : أن في صغرى القياس الأول ، وكبرى القياس الثاني شرحاً لمذهب الأب ، مالبرانش .

— الأول :

أن الله لا يستطيع أن يريد شيئاً يخالف المحبة التي يشعر بها نحو حكمته ضرورة !

وسلام العالم كله يخالف المحبة التي يشعر بها الله نحو حكمته ضرورة ؛ إذن لا يستطيع الله أن يريد سلام العالم .

— الثاني :

أن صنعة الله التي تليق بحكمته تمام اللياقة ، تتضمن فيما تتضمن خطيئة كل الناس ، وعذاب معظمهم عذاباً أبدياً ؛

ولا بد أن الله يريد الصنعة التي تليق بحكمته تمام اللياقة ؛ إذن لابد أن الله يريد صنعة ، تتضمن فيما تتضمن خطيئة كل الناس ، وعذاب معظمهم عذاباً أبدياً (٣) .

واعجبوا ! ألا يكون مالبرانش متديناً لحسب ، بل كاثوليكياً مخلصاً ،

(١) *Traité de la nature et de la Grâce*

(٢) يقصد بالرواقية هنا مذهب الحلوليين أى عدم التفرقة بين الإله والطبيعة وهو ما ذهب إليه سبينوزا ، وهو جالب من مذهب الرواقيين . [الترجمان]

(٣) جواب على أسئلة قروي ، الجزء الثالث ، الفصل ١٥١ .

كاثوليكية طوال حياته وفي كل أفعاله ، كاثوليكية في صميم إيمانه ، وأن يعطى في نفس الوقت للحكمة مثل تلك المنزلة ، حتى تبتلع كل شيء ، حتى الله ... !

قال ديدرو Diderot (١) ، متحدثاً عن نفسه وعن إخوانه الفلاسفة ، « كان لنا معاصرون في عهد لويس الرابع عشر . وهذا صحيح ، فقد كان له معاصرون في عهد لويس الرابع عشر ، لا في أخريات سني الملك العظيم لحسب حيث نعلم جيداً أن الكتلة السياسية والاجتماعية جعلت تنفصل وتتفكك — بل قبل ذلك بوقت طويل ، في زمن لا نرى فيه عادة إلا أورثوذكسية موطدة وسلطاناً لامعاً كالبرق . والواقع أنه في نفس الوقت الذي كانت السلطان الدينية والملكية تعتقدان فيه أنهما ثابتتان لا تتزعزان ، كانتا ملغمتين . إذا نحن لم ننظر إلا إلى الأدب لحسب ، ولا سيما الأدب الفرنسي منذ ١٦٧٠ إلى ١٦٧٧ ، لأحسنا شعوراً كله غبطة وسلام وعظمة . لقد مثلت « النساء العالمات » *Les Femmes Savantes* في عام ١٦٧٢ ، و « المريض بالوهم » *Le malade Imaginaire* في ١٦٧٣ ، وقدم راسين « بايازيت » *Bajazet* في ١٦٧٢ ، و « ميثريدات » *Mithridate* في ١٦٧٣ ، و « إيفيجنى » *Iphigénie* في ١٦٧٤ و « فيدر » *Phèdre* في ١٦٧٧ . وفي عام ١٦٧٠ ألقى بوسويه « رثاء » الأميرة هانرييت الإنجليزية ، وعين مريباً لولي العهد *Le Dauphin* ، وألف لتعليم تلميذه « البحث في معرفة الله والنفس » *Le Traité de la connaissance de Dieu et de soi-même* « والسياسة المقتبسة من الكتاب المقدس » *La Politique tirée de l'Ecriture* « والمقال في التاريخ العالمي » *Sainte le Discours sur l'Histoire Universelle* »

(١) Diderot : فيلسوف فرنسي ومفكر شير ، لعب دوراً هاماً في إذاعة الأفكار الفلسفية في القرن الثامن عشر . وهو أحد واضعي الأنسكلوبيديا ، وكان مؤلفاً وناقداً وفناناً أيضاً . من أبرز الشخصيات في عصره . ومن أهم مؤلفاته « الرسائل » الموجهة إلى أمراء عديدين ، والتي تقدم لوحة صادقة عن الحركة الفكرية في القرن الثامن عشر (١٧١٣ - ١٧٨٤) . أنظر « الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر » بقلم بول هازار . *La Pensée Européenne au XVIIIe siècle* في القسم الثالث الفصل التاسع Diderot . [المترجم]

وكتب بوالو Boileau « فن الشعر » *L'Art poétique* في عام ١٦٧٤ . وليست تلك الكتلة من المؤلفات رائعة لحسب ، بل هي أيضاً متأسكة ، قوية ومتوازنة . ولكن دعونا نأبصارنا قليلاً عن الأدب ، الذي تبهرنا أشعته فتعوقنا عن رؤية القيم الفكرية العميقة ، التي سيخضع لها الأدب نفسه ذات يوم ، ولننظر إلى التيار القوي للتفكير الفلسفي : فنكشف عناصر تعمل جادة على انحلال هذه القوة ، قبل أن يكتمل نموها ، كشجرة لا تزال تزهر وتثمر ، بينما بدأت جذورها تذوى وتموت .

ولندكر هذا جيداً ! لقد ظهر « البحث اللاهوتي السياسي » *Tractatus Theologico Politicus* في عام ١٦٧٠ ، يتضمن من المستحدثات ما يكفي ليقلم المجتمع الذي استقبله رأساً على عقب . قال سبينوزا في لسانه اللاتيني ، وبكل هدوء ، إنه يتحتم علينا أن نقضى قضاء مبرماً على المعتقدات التقليدية ، لكي نبدأ التفكير على أسس جديدة ؛ وإن الأمور قد بلغت حداً لا يستطيع معه أحد أن يميز بين المسيحي وبين اليهودي أو التركي أو الوثني ، وإنه لما كانت العقيدة لم بعد لها تأثير على الأخلاق ، فقد فسدت الروح ؛ وإن مآل الشر أننا لم نعد نجعل الدين فعلاً نفسياً اختيارياً يقوم على الفحص والتفكير ، بل جعلناه « عبادة خارجية » ، اجراء آلياً ، طاعة سلبية لأوامر القساوسة ؛ ولقد استولى بعض أصحاب الطمع على المناصب الكنسية واستعاضوا عن روح المحبة والاحسان بجشعهم القذر ؛ ومن هنا تولدت المنازعات والحسد والحقد . ولم يتبق من المسيحية إلا تقاليد شكلية واعتقادات باطلة ، اعتقادات تجعل من الناس حيوانات بمنعهم من حرية استعمال الحكمة وباخذ شعلة العقل البشري . ينبغي أن نعاود البدء على أساس هذا العقل ، وأن نعمل باسمه على هدم مؤسستين مخربتين غير منطقيتين : دنيا الكنيسة ودنيا الملك . الكتاب المقدس ؛ إن الناس يذكرون الكتاب المقدس دائماً لفرض الطاعة . ومن الكتاب المقدس يقتبسون كل عقيدة وكل خرافة . وما هو الكتاب المقدس على التحقيق ؟ لم يكن هناك أنبياء مفسرون لكلام الله ، كتاب يملئ عليهم أوامره ، بل كانوا رجالاً تعساء يستعوضون عن ضعف أفكارهم بقوة الخيال وغنى البيان . لم يكن هناك شعب مختار لكي يحتفظ بالناسوس الإلهي إلى الأبد ، بل شعب مضى واندثر كما مضى غيره واندثر . ولم يكن هناك أيضاً معجزات

لأن الطبيعة تلتزم نظاماً مستديماً لا يتغير ، أى مخالفة لقوانينه لا تدل على عظمة الله بل على عدم وجوده . فإذا ا طرحنا كل تلك المعتقدات الباطلة التي جعلها الناس الكتاب المقدس وإذا شرعنا في تفسيرها حسب قواعد النقد التي تصلح لكل لمصوص العالم ، لانتضحت لنا ماهية هذه الكتب : عمل بشري حافل بالتردد والتناقض والخطأ . يستحيل أن تكون التوراة لموسى ؛ وليست كتب العهد القديم مثل كتاب يشوع *Joshua* وكتاب القضاة *Juges* وكتاب صموئيل وكتاب راعوت *Ruth* وكتاب الملوك ، أصلية ولا صحيحة ، وينطبق ذلك على غيرها أيضاً . وهكذا يسير سينوزا موثقاً كل خطواته ، متوقفاً كلما اقتضى الأمر ليتأكد من متابعة القارئ لكلامه ، حتى يصل إلى استنباطه الأول : إن الدين المسيحي لم يكن إلا ظاهرة تاريخية يفسرها الوقت الذي ظهرت فيه والظروف التي تطورت خلالها ، ظاهرة لم تكن لها إلا صفة زمنية لا أبدية ، نسبية لا قطعية .

ثم يهاجم سينوزا الملوك بدورهم ويبدأ في إثبات أسر واقع : وهو أن الملوك قد استغلوا الاعتقادات الدينية الباطلة لمصلحتهم الشخصية ؛ وأن النظام الملكي هو فن خداع الناس مادام يزين ذلك الخوف الذي يرمى أصحاب السلطان إلى بقاء الناس فيه كالعبيد ويقدمه لهم باسم الدين . إن الناس يسمون « واجب الطاعة » مالا يعدو في الحقي « مصلحة الملك » ؛ بظنون أنهم يقاتلون في سبيل سلامهم بينما هم يؤكدون عبوديتهم ؛ ويدفعون دماءهم ثمناً لدعم عظمة رجل واحد وتشجيع كبريائه ، رجل يعاملهم كوسائل لتحقيق أطاعه ويجرمهم سبب الوجود إذ يسلبهم الحرية .

ولو أراد الناس التخلص من تلك الحالة فليس أمامهم إلا دواء واحد : هو تطبيق روح الفحص التي نستعملها في نقض الخرافة والقضاء عليها ، على طبيعة الأنظمة السياسية وأغراضها . ولتحقيق ذلك لا بد من البدء بالتفكير الحر . حينئذ سيدركون أن الدولة لم تتأسس للاستبداد والطغيان ، وأن الحكم ليس إلا تفويضاً ارتضاه المواطنون ، وأن الديمقراطية هي أقرب أشكال الحكم إلى القانون الطبيعي ، وأن غرض الأنظمة السياسية ، في كل حال من الأحوال ، هو أن تضمن للفرد حرية العقيدة ، حرية الكلام وحرية التصرف . فلنتخيل قوة انفجار تلك التوكيدات في عام ١٩٧٠ ، ولن يأخذنا العجب

إذا رأينا سبينوزا يبدو لعاصريه « المخرب المنقطع النظير » ، « واللعين الرجيم » . ذلك اليهودي سليل الجنس البغيض ، والذي أثار على نفسه سخط اليهود فطردوه ، والذي يمضى حياته في عزلة وانفراد ، غير ملق بالآ إلى المتعة والشهرة والمال ، المنشغل بتجهيز المناظير والتفكير ، كان قد أصبح موضع الفضول والدهشة والحقده . كان يدعى « بندكتوس » Benedictus وكان أصوب أن يدعى « مالدكتوس » Maledictus ، كان شائكاً كما تغدو أرض لعنها الله شائكة . لقد تولد الاتحاد مع النهضة الإيطالية التي بعثها الجاهلية ، واستشرى بوساطة ماكيافيلي Machiavel ، وأريتان Arétin ، وفانيني Vanini . وكان من أعظم الدائدين عنه هربرت شربري Herbert de Cherbury ، وهوبز Hobbes : والآن يظهر أكثرهم شؤماً — سبينوزا (١) .

واليوم نضع سبينوزا في صفوف البنائين ، بين البنائين المتسامقين الممتازين . كان يحتاج بشدة ضد الفكرة السائدة في أنه سوف يهدم ولا يبني ، ولن يفهم « البحث اللاهوتي السياسي » فهماً تاماً إذا لم نلاحظ فيه هذا العزم الصحيح . ومن باب أولى ، فإن كتابه « علم الأخلاق » *L'Ethique* الذي ظهر عام ١٦٧٧ بعد وفاته ، يقدم أفخم قصر من التصورات والأفكار تختلط عقوده بالسما . إن « علم الأخلاق » الهندسي التأليف والذي تختلج فيه مع ذلك نفثة من الحياة — يتخذ ما هو إلهي وما هو بشري مادة له ويجمع بينهما في باب واحد ، ويسجل على مقامته « أن الله هو الكل والكل هو الله » . ولكنك تجد جسارتها الكبرى في حافظة البناء ، حتى إن أولئك الذين لم يؤثروا الوهبة الميتافيزيقية يجدون دائماً مشقة كبرى في التطلع إليه . كان سبينوزا يشرح رسومه وقضاياها واستنباطاته فيقول : أعني بلفظ « عللة ذاتية » *Cause de soi* ما تتضمن ماهيته وجوده ، أو ما لا نتصور طبيعته إلا كوجوده . وأعني بلفظ « جوهر » *Substance* ما يقوم بذاته ويتصور بذاته ، أي ما يمكن تصوره دون حاجة إلى تصور شيء آخر . وأعني بلفظ « الخاصية » *attribut* ما يتصوره العقل في الجوهر ككون لاهيته . إذن هناك جوهر وحيد مشكل من عدد لا متناه من الخواص ، تدل

(١) كتاب عن طائفة الدجالين ، بقلم كرستيان كورتلي . *De tribus impostoribus* . magnis liber, cura editus Christiani Kortholti, S. Theo. D. et Professoris Primarii Kilonii, 1680.

كل منها على ماهية أبدية لا متناهية : الله . كل شيء موجود فهو في الله ، ولا وجود لشيء ولا شيء يتصور إلا بوجود الله . إن الله فكر ، إنه امتداد ، والانسان روحاً وجسماً حال « للكائن الأسمى » ؛ وهو بهذه الصفة يرمى إلى حفظ كيانه بمجهود يسمى « إرادة » إذا تعلق بالروح ، و « شهية » إذا تعلق بالجسد ، و « رغبة » إذا وعت الروح هذا المجهود ، بمعنى أن الرغبة تصبح العنصر الأساسي للحياة الأخلاقية .

عندئذ تنقلب كل القيم الثابتة رأساً على عقب .

كان الناس يعدون أنفسهم نقطة البداية ، أنفسهم ، ومظاهرهم الزائلة ، وعاداتهم ، وضعفهم ، وقائصهم ، ورذائلهم ؛ وبنزوة من نزوات خيالهم المنافق توهموا إلهاً على شاكلتهم ، إلهاً جشعاً ، مغرضاً ، يستهويه الملق ويميل إلى الانتقام والقسوة . أما هو ، سبينوزا ، فعلى النقيض ابتداءً بالله ، وأرجع الانسان إلى ذلك الاله المنطقي . لم يعد الانسان إمبراطوراً في إمبراطوريته ، بل هو يندمج من الآن فصاعداً في النظام العالمي . ولنفس السبب لم تعد مشكلة الشر تعرض بعد . « فكل ما هو موجود فهو سواء بسواء وجهه لازم للماهية الالهية ؛ وكل قوة عاملة ، هي في حدود عملها ، مظهر للقدرة الالهية ؛ وعلى هذا ، فبما أن الله هو الخير المطلق ، فكل مخلوق له من الحق بقدر ما له من قدرة ، وكل فعل بما له من صلة للزوم عينها بكيثونة الله فان حدوده يكون بنفس الشرعية . . . (١) »

واقتضت مسألة الحرية لولاً آخر ؛ لم تعد المناقشة تدور حول الحرية في عدم الاكتراث *liberté d'indifférence* ، بل أصبحت تدور حول تشبيه الفكر بجوهر يدرك أنه ليس مدفوعاً إلى العمل إلا من تلقاء نفسه . فالرجل عبد إذا عجز عن التحكم في شهواته وكبح جماحها ، أما وقد أصبحت العاطفة لا تعد « معلولاً » بمجرد أن يكون عنها فكرة واضحة ومميزة ، فان الرجل يصبح حراً عندما يستطيع أن ينظم وأن يقيد عواطف جسمه طبقاً لأواصر إدراكه ، وأن يوجهها نحو محبة الله .

(١) ليون برانشويك ، سبينوزا ومعاصروه ، الطبعة الثالثة ، ١٩٢٣ ص ١٠٥ .

Léon Brunschvicg, *Spinoza et Ses contemporains*, 3e éd., 1923, p. 105.

وانتخذ البحث عن السعادة أيضاً معنى آخر ، وغير طريقه حتى وصل إلى النهاية إلى هدفه . ليست السعادة إرضاء الشهوات ، كما تخالها المخلوقات الخشنة الفجة التي لا تسمو إلى ذروة المعرفة . وهي ليست أيضاً أطراح كل متع هذه الدنيا ، انتظاراً لفردوس يلذ للاديان المختلفة أن تتخيله في هذا الشكل أو ذاك . السعادة هي إدراك الحق ، هي إذعان المرء لقوانين النظام الشايل ، والعمل على تحقيقه في كيانه الذاتي . إن سبينوزا يظن أنه قد حظى بهذه السعادة التي تجلب معها السلام ، وهو يرى لأولئك التعساء التائهين ويشرح لهم كيف تفيد فلسفته حتماً في ممارسة الحياة :

« (١) فنحن ، طبقاً لهذه النظرية لا نتصرف إلا طوعاً لإرادة الله ، ونشترك في الطبيعة الالهية ، ويزداد هذا الاشتراك كلما ازداد كمال أعمالنا وكلما ازداد إدراكنا لله ؛ فمذهب مثل هذا إذن — فضلاً عن أنه يهيئ للعقل هدوءاً تاماً — له أيضاً فضل إفهامنا ماهية سعادتنا القصوى أي معرفة الله التي لا تدفعنا إلا إلى الأعمال التي تنصحنا بها المحبة والشفقة . (٢) إن قاعدتنا تعلمنا أيضاً أن ننظر حسن الحظ وأن نتحمل سوءه بنفس الروح : لأن الواقع أن كل الأمور تنتج عن الأمر الالهي الأبدى ، بلزوم مطلق ، كما ينتج من ماهية مثلث أن مجموع زواياه يساوي زاويتين قائمتين . (٣) ومن وجهة نظر أخرى ، فإن قاعدتنا مفيدة أيضاً في الحياة الاجتماعية . ذلك أنها تعلمنا التحرر من الحقد والاحتقار ، وألا نكون لأحد سخرية أو حسداً أو حقداً . وتعلم أيضاً كل فرد أن يتشبع بما يملك ، وأن يكون في عون الغير ، لا مدفوعاً بشفقة نسوية باطلة ، أساسها التفضيل والخرافة ، بل طوعاً لأمر العقل وحده . . . (١) »

إن الرجل الوائى بالأبدية لم يعد الرجل الثقي الذي يتطهر من الخطيئة الأولى ويكسب السماء بفضائله ؛ بل الرجل الحكيم :

« إن المبادئ التي وضعتها توضح امتياز الحكيم . . . فروح الحكيم من العسير أن تتعكر ، إن له بنوع من الضرورة الأبدية وعياً بذاته وبالله وبالأشياء ولذا فلن ينقطع كيانه ، ولذا يملك سلام الروح الحقيقي إلى الأبد . (٢) »

(١) علم الأخلاق ، القسم الثاني ، عن الروح ، « De l'âme » ، Ethique, deuxième partie.

(٢) « علم الأخلاق » ، الفصل الخامس ، عن حرية الروح .

لم يكن الأمر يتعلق بضرب من الحكمة الرخيصة ، المبتذلة السهلة ، بل بحكمة أكثر رواقية من حكمة الرواقيين Stoiciens ؛ حكمة منسجمة ، تكون أخيراً جذيرة ، بمواجهة المسيحية . حتى إنه كان في مقدور الناس أن يترقبوا معركة فكرية كبرى ، يتقابل فيها على التحقيق المسيحي والحكيم . وإذا صحح ، كما قيل ، أننا نجد في « الأفكار » (١) Les pensées وفي علم الأخلاق L'Éthique أكل وصف الحالتين ، على طرفي تقبض يهدف إليهما المثل الأعلى للضمير الديني من جهة ، والمثل الأعلى للحقيقة الفلسفية من جهة أخرى » (٢) ، فما أنبل الكفاح الذي كنا نستطيع أن نشهده بين هاتين النظرتين لمحو الحياة ، بين هاتين الحالتين للفكر ، بين هاتين الملكتين ! . . . إلا أن بسكال Pascal ، كما لاحظنا ، لم يكن له أتباع ، وبنوا سبينوزا ، كهندس أفكار ، لم يفهمه أحد في ذلك الوقت . إنه سيأخذ بثأره فيما بعد ، وسيوحى بالميتافيزيقا الألمانية ، وسنرى في ظهور « علم الأخلاق » لحظة حاسمة في تاريخ الغرب (٣) . بيد أن الوقت كان مبكراً في سنة ١٦٧٧ ، وكان علم الأخلاق غذاء دسماً جداً ، وإذا كان « البحث اللاهوتي السياسي » قد فهم بصورة أوضح فيخيل إلينا أن الفضل في ذلك يرجع إلى ما فيه من إنكار وقوة هدامة .

مذهب سبينوزا — ما أكثر أولئك الذين ناقضوه دون أن يفهموه ، دون أن يطالعوه ، أو يكلفوا أنفسهم عناء الاقتراب منه . . . حتى بين أولئك الذين بذلوا مجهوداً أكبر ، ما أكثر من لم يستطيعوا أن يوثقوا ألفهم به ، حتى يتحدثوا عنه حديثاً صحيحاً ، فما صدر عنهم إلا صياح باطن افعلى الأكل . كان في مقدور الديكارتيين — أقربائه — أن يقبلوه ، إلا أنهم في هذا بالذات كانوا مرتبكين ، بل رفضوا قبوله ؛ إذ كانوا يجعلون من « ابن عمهم » هذا الذي يعرض سمعهم للخطر . ولقد رفضه بيكر مؤلف « العالم المفتون » Le Monde Enchanté ورفضه أيضاً جان لكليير J. Leclerc الذي قال عن سبينوزا إنه

(١) « الأفكار » كتاب باسكال وهو هنا يمثل المسيحية . [الترجمان]

(٢) ليون برالشفيك : سبينوزا ومعاصروه ، الفصل الرابع عشر صفحة ١٥٠ .

(٣) ليون برالشفيك : تقدم الضمير في الفلسفة الغربية ، ١٩٢٧ ، صفحة ١٨٨ .

« أشهر كافر في وقتنا هذا » ، — وأكثر من ذلك فقد دفعه مالبرائش مبعداً عن نفسه تهمة كان أعداؤه يجدون سروراً خبيثاً في التنويه بها ، واعتقد أصدقاؤه أن عليهم أن يدفعوها . وقد بين مرتين على الأقل ، في عام ١٦٨٣ في « تأملات مسيحية *Méditations Chrétiennes* » ، وفي عام ١٦٨٨ في « محادثات عن الميتافيزيقا والدين *Entretiens sur La Métaphysique et sur La Religion* » ، كم كان الناس يخطئون لا في حق إيمانه فحسب بل في حق فلسفته أيضاً ، بتشبيهها بفلسفة « سينوزا التعس » .

كان سينوزا يحتل غيلة بايل . ولطالما ذكر اسمه ، ولطالما نوه في غمار بحثه في إلحاد قديم ، بما بينه وبين مذهب سينوزا من تشابه . وهو لم يستطع أن يملك نفسه عن الاعجاب بالرجل الذي كان يبغض إلزام الضمير ، والذي نجاسر فأطلق لتفكيره عنان الحرية ، والذي عاش في نبل وكرامة ، ومات دون أن يتنكر لمبدئه . أما كون سينوزا أول رجل أجهل الإلحاد في قاعدة ، وجعل منه مذهباً ، متمسكاً بحكماً طبقاً للأصول الهندسية ، فما كان يبير بايل يرى فيه موضعاً للمؤاخذة . بيد أن ميتافيزيقا سينوزا تضمنت نقطة استهجنها بايل . وإذا رأيناه يعد مذهب سينوزا أقطع الفروض التي يمكن أن يتصورها الإنسان ، وأسخطها ، وأشدّها تعارضاً مع أوضح أفكار العقل البشري ، فما كان في ذلك يتذرع بتفنيد هذا المذهب ليشرحه ، بل كان مخلصاً في اعتراضه عليه ، ولطالما خيل إلى الناس أن هذا الاعتراض حيلة من حيل الجدال ، فكان هذا مثار غضبه ورجل سخطه . ذلك أن مسألة الشر كانت شغله الشاغل ، فما من شيء أكثر تأثيراً عليه منه ، وكان الحل الذي قدمه سينوزا يبدو له كأسوأ حل بين الحلول المعروضة . كيف ١٩ هل يولد الكائن « اللامتناهي » في ذاته كل الحماقات ، كل الهواجس ، كل جرائم الجنس البشري ! إنه لا يكون في كل ذلك علة فاعلة فحسب بل معلولاً أيضاً ، ويتحد بها بأوتق اتحاد يمكن أن يتصور ذلك لأنه اتحاد فعال ، بل هو في الحق « وحدة حقيقية » مادامت الكيفية لا تفترق في الواقع عن الجوهر المتغير . « لأن يضرر الناس البغض ، بعضهم لبعض ، ويتبادلوا الاغتيال في ركن من أركان غابة ، ويجمعوا في جيوش لسفك الدماء ، ولأن يلتهم الظافرون المهزومين في بعض الأحيان ، هذا شيء معقول : لأننا نفترض أنهم يتميزون بعضهم من بعض ،

ولأن صالحى وصالحك يتولد عنهما أهواء متضاربة . أما ألا يكون الناس سوى
كيفيات مختلفة لكائن واحد ، وبذلك يكون الله وحده هو الذى « يفعل » ،
وأن يتحول الله ذاته إلى تركى حينا وإلى مجرى حينا آخر ، فتتشب الحروب
والمعارك : فهذا ما يفوق كل شناعة وكل تخريف باطل لأشد العقول لوثة بين
نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية (١) .

لم يكن بين الفلاسفة إذ ذاك من يستطيع أن يقف أمام سبينوزا كند ، وأن
يستوعب « علم الأخلاق » ، ويرد على فلسفته قادراً على تنفيذها ، غير ليهنتز .
أما البحث اللاهوتى السياسى فمسألة أخرى : فليس يلزم أن يكون المرء عالماً
أكبر كبريا لى يتفهمه ، ولكى يستخلص من ثنايا صحائفه حججاً ضد الكتاب المقدس ،
وضد سلطة الملك . من هنا كان رواجه ، بالرغم من الرقابة ، وتحت عناوين
غير صحيحة ؛ ومن هنا كانت عاصفة النقد التى قوبل بها ، ومن هنا كان
الالتجاء إلى السلطات المدنية ، والتحرير والمصادرة ، حتى فى هولاندة الحرة .
ومن هنا نفهم أنه يوجد هناك فيما يتعلق بهذا الكتاب وتأثيره شهادات
متناقضة . فمثلاً يقول أرنو إن سبينوزا أصل التحرر ، بينما يرد جوريو Jurieu
يأنك لا تجد بين كل مليون من الدنيويين عشرة رجال سمعوا بأسبينوزا . ويدعى
ديبو Dubos أن قراءة سبينوزا وفهم مؤلفاته تقتضى تعود الجلد على المطالعة ،
وأن المتحررين يعيشون وكأنه لا توجد حياة أخرى دون أى اهتمام بمطالعة
أسبينوزا . وهذا أيضاً هو رأى فينلون — : فالبدع لدى المتحررين فى عصره
ليس فى اتباع أسبينوزا ؛ بينما يؤكد الأب « لامي » أن أتباع أسبينوزا يزدادون
عدداً يوماً بعد يوم — : فان أخطائه قد أفسدت أمخاخ كثير من الشباب ، كما
قال له رجل يسمح له مركزه بالاطلاع على مجريات الأمور . أولئك الشهود
يتناقضون ولكنهم جميعاً على صواب . ليس لاسبينوزا أتباع بمعنى الكلمة
خارج حدود هولندا وألمانيا . يقول بايل : « أولئك المشتبه فى اتباعهم مذهب
اسبينوزا قلة ضئيلة وبينهم القليلون الذين درسوه فعلاً ، وبين هؤلاء الأخيرين
قل من فهموه ولم تثبط همتهما لما لقوا فى مذهب من صعوبات ونظريات مجردة ،
إدراكها أمر محال . ولكن هاك حقيقة الأمر : فالناس يعاونون كل من

(١) بايل ، القاموس ... باب أسبينوزا ، Bayle, Dictionnaire, art. Spinoza.

لا دين لهم ولا إيمان ، ولا يخشون ذلك ، من مذهب اسبينوزا (١) . «
من هؤلاء من لحق بالمتحررين تغذية لجرائتهم وتشجيعاً لعصيانهم ؛ ومنهم
من ذهب إلى الإيطاليين غير المؤمنين : فانك لو اجدت نفثات من روح اسبينوزا
في الصفحات التي سطرها الكونت « البرتو دي باسيرانو » ضد الدين فوضه
نفوذ روما السياسي معاً . ومنهم من قصد ألمانيا لتغذية الاتحاد الألماني مثل
« ماتياس كنواتسن » Matthias Knutsen ومذهبه الـ Conscienciari ،
ومتوتش F. W. Stosch والآخرين . ومنهم من مد بالبراهين الانجليز المؤمنين
بالله الناكرين للوحى Déistes أمثال شافتسبرى وكولنز وتندال وخاصة أكثرهم
صخباً : جون تولاند John Toland |

جون تولاند — ما أغريه من رجل ! كان مفتولاً بعقله . *Christianity* ،
not Mysterious صيحة أطلقها في كتابه الذي جعل منه رجلاً مشهوراً . في عام
١٦٩٦ ؛ المسيحية لا أسرار فيها — لهذا السبب البسيط الرائع ، وهو أنه
ليس هناك أسرار . فالسر ، لفظ وثني احتفظنا به كما احتفظنا بغيره من ألفاظ
هو إما خرافة يجب أن نقضى عليها وإما صعوبة عارضة ينبغي أن نذللها . إما
أن المسيحية تتفق مع العقل ولا تمثل إلا مجرد ارتضاء للنظام الشامل ، متجردة
عن كل ما يخرج عن هذا الارتضاء نفسه ، كالتقاليد والمذاهب والشعائر الدينية ،
والعقيدة والإيمان — وإما أنه يستحيل عليها أن تعيش ؛ فما من شيء في العالم
يمكن أن يكون فوق العقل وما من شيء يمكن أن يتعارض مع العقل .
وما كان جون تولاند تنقصه المعارف ؛ لقد نال درجة أستاذ في الآداب
من جامعة جلاسجو ، وكان قد درس في أيدنبرج وليدن وأكسفورد .
وكان على دراية بالتاريخ القديم ؛ لكي يثبت أنه لم يكن إلا دجلاً ، وأن
مؤرخيه لم يعملوا إلا على خداع العالم . وكان ملماً بالكتاب المقدس ؛ لكي
يقول إنه مشكوك في صحته ، وإن المعجزات التي يسردها يمكن ردها إلى
أسباب طبيعية ، ولكي يقطع برأيه ، ويهذي ، ويخترع ويخلط كل شيء . وكان

(١) بابل ، القاموس ... باب اسبينوزا .

يتقن الأدب والشعر وضروب البلاغة ، لكي يعلن أن أقوال أولئك الدجالين الذين تقدسهم الأديان المختلفة إن هي إلا تناع زائف يلجئون إليه لكي يقودوا الشعوب ، مرغمة ، من الأنوف . كان مفسداً ومزموهاً ، ولد لكي يثير الفضائح ، يسعد بما يحدث من ضجة ، ويختال إذا واثاء الحظ ، ولا ينزعج إذا قذف بالحجارة لأن سقوطها يثير أيضاً بعض الضجيج .

ليس لنا أن نبحث لدى جون تولاند — الذي يضيف قوته الهدامة إلى «قواه» التي سردناها — عن أفكار مبتكرة . فكثيراً ما نسمع صدى صوت فوتنيل وبايل ويكر وفان ديل وهوبز وسينوزا عندما نطلع على كتبه ، ولو ساورنا الشك في ذلك التأثير لكان ما يذكره هو من بيانات صريحة عنهم يؤكد لنا أن الأمر ليس مجرد تشابه قوامه المصادفة بل إن ما وصلنا إليه صحيح . كان رأسه مكتظاً بمطالعاته ، وكانت مقتطفات من أفكار المتقدمين عنه تظهر في كتبه . لا تبحت عنه عن أفكار مبتكرة ، بل عن انفعال حماسي ، عن هياج شديد : هو انفجار لشعور كبتته أمداً طويلاً الكاثوليكية الأيرلندية ، والتعصب البوريتاني ، والتأدب الاجتماعي وليد الوقار ؛ حتى إذا تعطمت القيود ذات يوم انفجر في وقاحة وسفه .

ولد جون تولاند في أيرلندا كاثوليكية ، ثم اعتنق البروتستانتية ؛ ويقول مفتخراً إنه نشأ في أحضان الخرافة والوثنية ، إلا أن عقله ، معانا ببعض الأشخاص ، كان الأداة السعيدة التي غيرت عقيدته . فهو مذ بلغ السادسة عشرة يظمر للبابوية نفس البغض الذي لم يبرح يضممه لها دائماً . وكان متحمساً أيضاً ضد الكنيسة الأنجليكانية ، وضد كل كنيسة تحاول أن تعتدي على شخصية حاققة أو تمس حرية لم تعد تحتل ظل النير ، بعد لمباح كتابه *Cristianity not Mysteriorous* رحل إلى أيرلندا لكي يتذوق متلذذا سمعته الشائنة ، ولكي يخطب ويحاضر رواد المنتديات العامة في ادعاء متحذلق وظاهر . ولكن هذا عاد عليه بشر وييل ؛ فقد أصبح مادة للتشريع ، منبوذاً مطارداً ، وألقى الناس به إلى الحضيض وأصبح خارجاً على القانون . يصف العالم الرياضي مولينو هذا السقوط للفيلسوف لوك الذي كان قد أوصاه بتولاند عندما كان يقدره فيقول : «أخطرت تولاند أخيراً أن يهجر المملكة . لقد استجلب هذا الرجل المسكين على نفسه بسلوكه التهور ، ثورة شاملة

حتى أصبح من الخطر على أى شخص أن يشتبه في محادثته له مرة واحدة . الأمر الذى جعل المحافظين على كرامتهم يتجنبونه ، حتى إنه بلغنى أخيراً أنه لا يجد ما يمسك به ريقه ، وأن أحدا لم يعد يقبله على مائدته . ولما نفذ النزر اليسير من المال الذى تبقى لديه اضطر أن يستدين بالربا الفاحش ، وعجز عن أن يدفع ثمن شعره المستعار وثيابه وأجر غرفته . وأخيراً لسوء طالعته وقع كتابه في يد البرلمان وحكم عليه « بالموت حرقاً » . . . وعلى إثر ذلك لاذ بأذيال الفرار من هنا ولا يعلم أحد أى طريق اختار . . .

وحالة الخروج عن القانون هذه تفسر لنا حالته الذهنية إلى حد ما . إن نفعة الأرستقراطية التى تمجدها لدى المنحرفين الفرنسيين ، وذكاء بايل الخالص ، وعزة سينيوزا ، بعيدة عن طبعه . كان يعلم بأن يكون مؤسساً لدين جديد كحمد ولكنه كان يفتقر إلى القوة والهيبة . كان جافاً ، شرساً ، مستعملاً كل وسائل لسان متهم سليط ، ووسائل عقل يسرع في تلبية مطالب الحقده . لشدة ما كان يكره القسس ! كل القسس ، قسس الحاضر وقسس الماضى سواء بسواء ؛ يادئنا بكهنة « قبيلة ليفى » الذين لم يكونوا إلا دجالين . فهو يصفهم ويصفهم بأنهم محتالون ومجرمون . فهو أصلاً ضد الاكليركية .

وكان في إنجلترا نزاع سياسى : فالى من سيؤول العرش بعد موت الملكة آن ؟ ظهر تولاند في مؤلفه *Anglia Libera* سنة ١٧٠١ متحزباً لأسرة « هانوفر » منادياً « فلتجنب إنجلترا خطر الوقوع من جديد تحت نير البابوية ولتحتفظ بحريتها السياسية أعلى لعمة بين النعم ! » وأغلب الظن أن إنتاجاً كهذا كان يروق لأسرة « هانوفر » . حينئذ أصبح تولاند مندوباً سياسياً للحكومة . وكثيراً ما كان يسافر مكلفاً بمهام سرية في الخارج . فقد رؤى في برلين وفي هانوفر وفي دسلدورف وفي فيينا وفي براج وفي لاهاي . ولقد استجوبت صوفى شارلوت ، ملكة بروسيا — التى سبق أن طلبت من لينتز أن يشرح لها سر الحياة — ذلك الرجل الغريب عن فلسفته ؛ وأثارت منازعات بينه وبين العلماء وشرح الكتب المقدسة ، المحيطين بها . لذلك بعث إليها ، في عام ١٧٠٤ برسائل *Letters to Serena* لعلمنا بعد فيها أقوى أفكاره .

إنه يشرح لها أن الاعتقاد بأبدية الروح ليست عقيدة مسيحية محضة ، بل عقيدة وثنية ، وأن قدساء المصريين آمنوا بها من قبل . وأن الاعتقاد بأنه

ذى شخصية يرجع إلى الوثنية ، وأن الناس يصفون مجداً إلهيا على مخلوقات من جنسهم ، و يقيمون لها المعابد وينشئون المذابح ، و يقيمون لها التماثيل ، ويرسمون الكهنة ومقدمي القرابين . ولم يمض طويل وقت حتى اعتاد الناس أن يتصوروا الاله على صورة ملوكهم : وذلك هو ما حدا بالناس إلى أن يتخيلوا لها غريباً يسير على هواه ، غيوراً ، منتقماً ، ظالماً . لقد سمعنا من قبل كل هذه الأفكار وعرفناها ، فلنمر عليها سراعاً . وتولاند ، في ميدان الأفكار ، هو الرجل الذى كتب خصيصاً ليفند أخطاء سبينوزا ، ولكنه تأثر بسبينوزا ، حتى إنه هو الذى استعمل لفظ حلولى Panthéiste . ولم ينظر إلى هذا الأمر عن كسب ولم يكن حساساً تجاه المتناقضات .

وفي نفس الوقت ، كم يتأيد شعورنا الثانى : ألا ما أعنف المشاعر ! وما أشد الغضب ضد القداسة ! إن تولاند يتحمس ويحتاج قورا ما يلمس باب « الخرافة » ويذهب فى بحثه عما يسميه الاعتقاد الباطل إلى غاية لحما ، ودماثنا . إنه يراه فى كل مكان ، ولا يرى شيئاً غيره ؛ إنه حصار . إن الخرافة تترصد المرء بمجرد ولادته :

« إن القابلة التى تخرجنا إلى الدنيا تتناولنا بطقوس باطلة ، والنساء اللواتي يحضرن الولادة يعرفن عدداً لا نهائياً من التعاويذ يعتقدن أنها تجلب للطفل المولود السعادة وتبعد عنه الشرور . وهن تحميمات وأقوال يزعمن أنهن يعرفن بها حظه المستقبل . ولا يقل القسيس نشاطاً فى بعض الأحوال عن أولئك السيدات ، إذ يقبض سريعاً على الطفل لوضعه فى العبودية ، ويطلعه على أسرارها متفوها ببعض صيغ تبدو كالسحر ، مستعملاً بعض الملح ، أو الزيت أو الماء ، أو — كما يحدث فى بعض البلاد — ماساً إياه بالحديد أو بالنار قائلاً إنه يمتلكه ، ويسمه بسمه السلطان الذى سيفرضه عليه (١) . »

وحين يشب الطفل عن طوقه تزداد معه قوة اعتقاداته الباطلة ؛ إذ تحكى له الممرضات قصصاً عن الذئب الخاطف ، والخدم قصصاً عن العفاريت . وتحكى له المدارس عن الجنيات Génies ، وعن عرائس الماء Nymphes ، والعفاريت Satyres ، وأعمال سحر وأحداث عجيبة من هذا القبيل ؛ وهناك يقرأ شعراء

(١) الرسالة الأولى إلى ميرينا : عن أصل الاعتقادات الباطلة وقوتها .

وقصصيين وخطباء ، كلهم محترفو كذب ودجل . ولا يصبح شباب الجامعات أحسن حالا ولا أكثر حكمة . وليس المدرسون أحراراً ولا مخلصين ، لأنهم ملزمون بمجاعة قوانين بلادهم . « إن الجامعات هي المشاغل الحقيقية للاعتقادات الباطلة . . . »

فلا اعتقادات الباطلة تنتظرنا طول الحياة وتخدعنا ، حتى إذا حان الحين ، التمسنا من الاعتقادات الباطلة تحقيق آمالنا ولسبنا إليها مخاوفنا . ولكن تولاند يرى من الاعتقادات الباطلة ؛ بل قد ولد لكي يحاربها ؛ إنه يملك اليقين . ولم يساوره شك في ذلك أبداً ، بل أشار إلى هذه الخيلاء وتلك الجسارة وهذا الفتون حتى فيما كتب على قبره : « هذا ضريح جون تولاند ، المولود في إيرلاندا والذي درس في إيقوسيا وفي إيرلاندا وأيضاً في أكسفورد لما بلغ مرحلة الشباب . وبعد أن تردد على ألمانيا أكثر من مرة ، أسفى سنى رجولته في ضواحي لندن . درس كل الآداب وعرف أكثر من عشر لغات . كان بطل الحق ، والذائد عن الحرية ، لم يكن متحزباً لأحد ولا كان عميلاً لأحد . ولم يعقه التهديد ولا الشرور عن الوصول إلى نهاية طريقته المختار ، مقدماً الخير على صالحه الخاص . لقد رجعت روحه إلى رب السموات ، من حيث جاءت من قبل . إن بعثه للأبدية لأمر مؤكد ، ولكن لن يوجد « تولاند » آخر فيما بعد . ولقد ولد في ٣ نوفمبر ؛ ولتبحث عن البقية في مؤلفاته . . . »

أولئك هم العقليون .

لقد رحلوا نحو ميادين سوف تسود فيها البداهة والمنطق والنظام ؛ جارين معهم رفاقا يختلفون عن فئتهم ، كما لبرانش الذي تبعهم متبرماً محتجاً ضدهم . وكانوا يهدمون العوائق التي لا تزال تنتشر على طول طريقهم . وكانوا ينتقدون قائلين : نحن في عصر الرقابة Siamo nel secolo dei censoristi يبدو أننا نعيش في عصر تعقب الأخطاء : We live, it seems, in a faultfinding age (١)

(١) جريجوريو ليتي : المسرح البريطاني ، ١٦٨٤ ، Gregorio Leti, *Il Teatro* britannico مقدمة . . . Aaron Hill, *The Ottoman Empire*, 1709, Préface

وكانوا يهاجمون بلا هوادة ، ويحملون على الطاعة الذليلة ، والعادات الخاملة ، وكتلة الأخطاء ، والحقائق . ويسترسلون في مهمتهم — الضرورية دائماً — لتخليصنا لا من ضلالنا لحسب ، بل من جبننا أيضاً . وإذا هم قالوا إنهم يعملون في صالح المؤمنين أنفسهم ، بالزاسهم على تبرير عقيدتهم ، وعلى اتخاذها بعد اختيار مقصود ، لا على أنها قبول سلبى أعمى : فهم في هذا المعنى لا يتعدون الحقيقة . وهم حقيقون بالتقدير ، لاخلاصهم ، وشجاعتهم ، وجسارتهم ؛ لأنهم لم يختاروا الجانب اليسير المفيد ، بل الجانب الآخر ، عارفين أنهم سيلاقون في أول الأمر عناء شديداً . ولم يكن في صفهم العدد ولا القوة الموطدة ، بل كانوا على النقيض أقلية ضئيلة ، ويعلمون جيداً أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا إلا على مجهودهم وحده . « إن العناء الذى لابد من أن نجده في البحث عن الحقيقة بأنفسنا ، لشديد بالنسبة إلى السهولة التى نجدتها عندما نتبع ، مغمضى العيون ، الطريق الذى يتبعه الآخرون أيضاً ، مغمضى العيون (١) . » كلما طال تسلط الضلال وسيادته ، وجبت محاربته بشجاعة : « أعترف بأن محاربة الضلال قبلما يزيد الزمن من تشبث جذوره في عقول شعب بأسره ، لأقل تهييجاً للخواطر من محاربته بعد ما تؤصله عراقته . ولكن بما أنه لا تقادم prescription يسرى على الحقيقة ، فليس من الصواب أن ندعها على الدوام مقبوضة في غياهب النسيان ، بحجة أنها لم تكن معروفة لنا أبداً (٢) » وإنه لمن أجل هذه المستقة التى يلاقونها ، وهذا السخط الذى سيسببونه ، ما نراه من تقديرهم لضرورة رسالتهم ، وعظمتها . — « إنى لأقدر كل التقدير صفات رجل يسبح ضد تيارسيل ، أكثر من رجل يسلم نفسه لمواجهة ، كما أنى أقدر تقديراً لا حد له ، بصيرة العقل وصلابته فيمن يبحث في كل شئ ، ويخالف في بعض الأحيان الأفكار الموروثة من قديم ، أكثر مما أقدر أولئك الذين يرثونها عن أصلانهم ، ولا يحتفظون بها غالباً إلا بسبب قدامها أو نفوذها (٣) . »

(١) كلود جيلبرت : تاريخ كالايفيا ، أو جزيرة العقلاء ، ١٧٠٠ ، Claude Gilbert

Histoire de Calajévia, ou de l'île des hommes raisonnables

(٢) بيير بايل : أفكار مختلفة ... بمناسبة المذنب ، ١٦٨٣ ، § ٩١ ، Pierre Bayle

Pensées diverses ... à l'occasion de la Comète

(٣) تيسودى باتو ، أسفار ومغامرات جاك ماسيه ، ص ٢٨ ، Tyssot De Patot

Voyages et aventures de Jacques Massé

شيء واحد فقط : أنهم جعلوا يظهرون أكثر عجرفة من أكبر المتدينين المتعجرفين ، الذين كانوا يبغضونهم . لم يسألوا أنفسهم حتى ، لماذا كان الناس من مسلمين ويهود ومسيحيين ، يصلّون على مر العصور ، إن لم يكن في نفوسهم قبح ديني لا تستطيع قوة أن تطفئه ، بل ظنوا ، لعدم تعمقهم ، أنهم قطعوا كل قول ، عندما تحدّثوا عن الضلال والخداع . ظنوا أنهم قطعوا كل قول ، حينما ردّدوا كلمات الاعتقاد الباطل ، والخرافة ، وما إليها ، ولم يسألوا أنفسهم عما إذا كانوا قد أدمجوا في هذه الكلمات نفسها ، اعتقادات صحيحة ، وخرافات محققة ، وعقائد شرعية وضرورية . لقد دفعتهم ، عجلتهم وزهوهم ، إلى تشبيه التاريخ كله برقعة من الورق ، زاحرة بالطيات المغلوطة : وكان عليهم أن يزيلوا هذه الطيات ، وأن يرجعوا إلى الصفحة الناصعة البياض ، وهذا كل ما في الأمر : كأنما هذا شيء سهل ، كأنما هذا شيء ممكن ، كأننا في طريقنا على مر الأجيال ، لم نجتمع إلا أخطاء . لم يروا إلا البؤس والاجرام ، ناسين التضحية والبطولة ، والقديسين والشهداء . دفعهم الكبر إلى الاعتقاد بأنهم وجدوا الحقيقة كاملة ، وجدوا النور الذي يستطيع أن يبدد كل ظلام ، حتى وصل بهم الأمر إلى تأليه الإنسان : « نحن ، بانياعنا العقل ، لا نعتمد إلا على أنفسنا ، وبذا نغدو من بعض الوجوه آلهة (١) . »

(١) كلود جليبرت : تاريخ كلاجيفيا ... ص ٥٧ .

الفصل الثاني

إنكار المعجزة

المذنب ، المواتف الالهية ، السحرة

كانت المعجزة عدو العقلين ، بطريقتها القاسية في خرق قوانين الطبيعة ، وبنفوذها الغريب . كانت تستهوي الجماهير : والحق أن العقلين كانوا ييغون اكتساب الجماهير ، المؤمنين ، والمصلين في الكنائس والنساء : وكان يحاحهم رهناً بذلك الثمن .

إنها المعجزة — فيجب حيالها الخوض والاحتياط : حذار من مهاجمتها دون احتراص . كان في مقدورهم على الأقل أن يهاجموا بعض الحرافات العينة ، ولم تكن تنقصهم ، فهي متوافرة . وهذا شرعوا يحملون على هذا المعتقد الباطل أو ذاك ، مظهرين ما فيه من ضرر وسخف ، ثم ينفذون إلى أسباب الضلال — السلطة ، والتراخي والعادة ، ولما كانت السلطة والتراخي والعادة هي عمدة الاعتقاد بالمعجزة ، فقد حققوا أهدافهم بهذا الف والدوران . وكانت الحركة على خطوات ثلاث .

صحيفة العلماء ، يوم الاثنين أول يناير ١٦٨١ :
« يتكلم العالم كله عن المذنب الذي لا شك في أنه أهم بدعة منذ بداية هذا العام . إن الفلكيين يراقبون سيره ، والشعب ينسب إليه كل الويلات » .
والذي حدث أنه في ديسمبر عام ١٦٨٠ ظهر مذنب في السماء ، وفي السنوات التالية ظهرت مذنبات أخرى ، وكانت تلك الظاهرة إيداناً بعودة الناس إلى نزاع قديم ، لكن بنعمة لم يسبق لها نظير .
كان البعض يقولون إن المذنبات خطيرة في ذاتها . فمادتها تتكون من

كتلة من الغازات التي تتصاعد من الأرض : فإذا حدث أن اشتعلت هذه الغازات ، وهو ما يدل على اضطراب عظيم في طبقات الجو ، فإن ذلك يعقبه ثورة كبيرة . . . فيرد الآخرون بأن ذلك استدلال الفلسفة القديمة ، أما نحن فنعرف اليوم أن هذه المذنبات أجرام سماوية ، وأنه لا خشية على الأرض منها . . . وكان البسطاء يقولون إن المذنبات نذر ، نذر ترسلها السماء لتعلن عن نقمة يستحقها الإنسان : عند ظهور المذنبات ، فويل لمن لا يتوب عما اقترف من ذنوب ! فلتذكروا أنه على مر القرون كان يتبع ظهورها دائماً حادث مشؤم ، من قتل ملك ، إلى زلزال أرض ، إلى مجاعة وحروب أو طاعون . ابكوا وادعوا ، فقد بلغ الكفر ذروته ، إن الله يظهر غضبه ، فيرسل علينا نذراً من السماء . ويرد الآخرون « نحن قوم لنا كل هذه الأهمية ، حتى تكلف السماء نفسها مشقة إرسال مذنب من أجلنا ؟ » لقد بحثنا طويلاً فما وجدنا شيئاً يدعم أسباب وجود هذا الاعتقاد الشائع ، وليس بين براهين العلماء ما يفتننا ، ولا في الكتاب المقدس ما يؤيد هذا الاعتقاد الباطل . وبعد ، فما المذنبات ؟ إن هي إلا نجوم رائعات ، حلّ السماء ، إنما يوحى بالخوف الليل والعتمة والظلام ، لا النجم ذو الضياء . وحتى لو سلمنا جدلاً بأن في الأمر غاراً : فكيف نستطيع أن ندرك أن في الغاز نذيراً ؟ كيف يتأتى أن جسماً مادياً صرفاً لا عقل له ولا شعور ، يستطيع أن يدل على معنى المستقبل ؟ إن المذنبات تخضع لنظام الطبيعة التي خلقها الله ، والذي لم تعكر السحابة الخطيئة الأولى ، فهي تخضع له وليست تؤثر فيه .

O vis superstitionis, quantos motus, quantos tempestatis, in illorum animis excitas, quos oppressisti !
تبعثين ، وكم من زوابع تثيرين في نفوس أولئك الذين تستعبدين !

وهنا يتدخل يابل (١) ، محللا الصعوبات تحليلاً منظماً ، على أي أساس

(١) خطاب إلى السيد ا. د . س . الأستاذ في السوربون يلبث فيه يبراهين عديدة مستمدة من الفلسفة ومن اللاهوت أن المذنبات ليست نذراً لأي سوء . . . ١٨٦٢ . أفكار مختلفة أرسلت إلى أستاذ في السوربون بمناسبة مذنب ظهر في ديسمبر ١٦٨٠ . . . ١٦٨٣ — ملحق لأفكار مختلفة عن المذنبات . . . ١٦٩٤ — تكملة الأفكار المختلفة ، ١٧٠٥ .

إنكار المعجزة

١٠٩

من فضلكم يستند الاعتقاد بأن المذنبات نذر أو أنها سبب الويلات الشديدة ؟
أعلى روايات الشعراء محترفي الكذب والاختلاق ؟ أم على نفوذ المؤرخين
مختلفي الأساطير ؟ أم على التكهن والتنجيم أسخف شيء في الحياة ؟ ليس لهذا
الاعتقاد أساس وطيد . وإذا صح أن المذنبات كان يعقبها دائماً عديد من
الويلات ، فلا محل للقول بأنها علامات لها أو أسباب « اللهم إلا إذا شئنا أن
يسمح لأمراة تقطن في شارع سانت أونوريه وترى عربة تمر كلما تطلعت من
النافذة ، أن تعتقد أنها السبب في مرور تلك العربات ، أو أن ظهورها في النافذة
يكون نذيراً لكل الحى بأن عربة على وشك المرور . . . »

الواقع — ولا اعتداد إلا بالوقائع الثابتة — أنه لم تحدث ويلات تحالف المعتاد
في إبان السنوات التي تعقب المذنبات ، فكم من ويلات بلا مذنبات ، وكم من
مذنبات بلا ويلات . إن عدم التمييز بين علاقة العلة بالمعلول ، والمعية أو
الاقتران لمنطوق غير سليم . وإن تأكيد المعية بالرغم من الوقائع لحض اقتراء .
دعوا المذنبات في سلام ! فما لها من صلة باللسان ، وما خالها الناس مشغولة
بنا إلا لسبب الحماسة والكسل والبطلان ، وكل أسباب الضلال .

وقد صادق كل مسيحي مستنير على ذلك الاستدلال بغير كبير عناء .
ولكن بايل لم ينته بعد ، بل إنه لم ينته أبداً ، فعندما تخاله قد انتهى من إثباته ،
نراه يفتح في كتابه فصلاً تلو فصل ، وحينما ينتهي الكتاب يشرع في كتاب
جديد . إننا لا نزال بعد في البداية .

إنه ينكر الاعتقاد بقدرة المذنبات ، ولو استشهدت بها شعوب بأجمعها ،
ولو أيدها ملايين من الناس ، ولو اتخذوها دليلاً لاقتناع الذين لا يصدقون
بوجود الله . وهو ينكر بالمثل التقاليد التي ينسب إليها المصدقون القدرة على
الاحتفاظ بمقائيق الإيمان . « إنى أكرر مرة أخرى أنه وهم محض ، ذلك الادعاء
بأن فكرة قد انتقلت من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل لا يمكن أن تكون
باطلة كل البطلان » .

واحتدم الجدل . وهنا يبرز بايل أعز برهان لديه ، البرهان الذي يبدو
له حديثاً مبتكراً : إن القول بأن المذنبات نذرويل ، معناه أن الله يأتي بالمعجزات
ليؤيد الوثنية في الدنيا . . . ويتحمس ويشتمل ويبدو في أوج البلاغة والبيان :
لا تفعلوا ضعفكم وجهلكم يلجئناكم إلى فكرة المعجزة كما وجدتم أنفسكم عاجزين

عن تأويل حدث من الأحداث ! إن العقل لا يستسيغ العجزة . ولا شئٌ يليق بعظمة الله وقدرته كالاحتفاظ بالقوانين الشاملة التي منها بذاته ؛ ولا شئٌ يمس عظمته كالاتقاد بأنه يتدخل ليخرق سريانها ؛ ولأى مناسبة ؟ لمناسبة حوادث تافهة بالنسبة لنظام الكون كولادة أو وفاة ملك من الملوك !

« كلما درسنا الانسان أيقنا أن الخيلاء شهوته المتسلطة عليه ، وأنه يصطنع الكبر حتى في خضم البؤس والكرب . تبا له ! فقد استطاع بما جبل عليه من ضعف وهوان ، أن يقنع نفسه بأنه لا يمكن أن يموت دون أن يزجج الطبيعة جمعاء ، ودون أن يجبر السماء على تهبثم نققات جديدة لآثارة موكب جنازته . فبالخيلاء الباطلة الحماقة ! لو أن لدينا فكرة صحيحة عن الكون ، لفهمنا سراعاً أن ولادة أمير أو وفاته مسألة من التفاهة بمكان بالنسبة لطبيعة الأشياء حتى إنه لعبث أى عبث أن تتحرك من أجلها السماء . ولكننا نقول مع صنيكا أسمى فلاسفة روما القديمة فكراً ، إن العناية الالهية لا تغفل عنا بل تنزل إلى غايتنا ، وإننا نأخذ نصيبنا منها ، ولكن هدفها يفوق كل ما نتصوره عنها ، وإنه وإن كانت حركات السماء تعود علينا بفوائد جلى ، فلا يعنى هذا أن هذه الأجرام الهائلة تتحرك محبة في الأرض (١) . »

ثم يواصل بايل كلامه عن الارتضاء الشامل والتقاليد والمعجزات . إن الاعتقاد الذي يجعلنا نرى في المذنبات نذر ويلات عاسة ، خرافة قديمة لأهل الوثنية ، أدخلت على المسيحية واستقرت فيها . والواقع أن كثيراً من أخطاء الوثنية بقي على مر العصور ، وليس بعسير أن نجده الآن في عادات المسيحيين ومراسيمهم بل في معتقداتهم .

ولنذهب إلى أبعد من ذلك : إن الله لم يقصد ، حينما انتشل الوثنيين من الظلام ، أن يجعلهم أكثر علماً بالحكمة والفلسفة ، وبأسرار الطبيعة ، وأن يقويهم ضد الاعتقادات الباطلة والأخطاء الشائعة ، فلا يقعون في وهبتها مرة أخرى . وسواء كان هناك وحى أو لم يكن ، فإن أعماق طبيعة البشر تبقى دائماً مرضية لأوهام لا تحصر ، واعتقادات باطلة ورذائل وشهوات وأهواء ؛ والمسيحيون

(١) بايل : أفكار مختلفة ... بمناسبة المذنب ... ١٦٨٣ ، باب ٨٣ .

Pierre Bayle, *Pensées diverses ... à l'occasion de la comète ...* 1683.

إنكار المعجزة

١٦١

يقعون فيما يقع فيه غيرهم من فساد واختلال . ولنذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً :
فليس بمستبعد أن الدين بدلاً من أن يبدد الظلمات قد زادها كثافة وعممة :
« فيما يخص الميول الخرافية التي أوجدها الشيطان في عقل الانسان ، أقول إن
عدو الله هذا وعدو السلام قد واصل الجهاد مستغلاً كل ظرف لكي يجعل من
الدين — خير ما في الدنيا — كتلة من الخرافات وشاذ العادات واللغو الفارغ
والاجرام ، حتى إنه — وذلك أسوأ ما في الأمر — دفع الناس مستعيناً بتلك
الميول إلى أسخف وأفحش ما يمكن أن يتصوره المرء من وثنية (١) . »

ولعل الوثنية من صفات كثير من الأديان ، وإله ل واضح كل الوضوح أنها
الصفة الحالية للدين المسيحي . هذا مع العلم بأنه ليس أسوأ من الوثنية شر :
حتى الكفر . وإله ليكن القول نظرياً ، بأن عدم الكمال يخالف طبيعة الله
أكثر من عدم الوجود . ويمكننا لكي نبين مبدى استنكار الوثنية ، أن نجمع
كل ما أصدرته الكنيسة ضدها من أحكام استنكار وتحريم . ولكن الأفضل
أن نقدر الوقائع التي هي دائماً مرجعنا الأخير . ألا يعطى المسيحيون أسوأ مثل
للدويلة ؟ ألا يلزم الاعتقاد في الله فساد خلق مستطير — في الحياة العملية ؟
وعلى النقيض من ذلك ألا يوجد من الكفار من يسلك سلوكاً كله فضيلة ؟
أو ليس لديهم وعى تام بمبادئ الشرف ؟ ألا يحملون على أن يحظى اسمهم
بأبدية المجد دون أن يؤمنوا بأبدية الروح ؟ إن المرء ليستطيع أن يتصور مجتمعاً
من الكفار لا يتساوى مع مجتمع من المسيحيين لحسب ، بل يمتاز عليه .
وأخيراً فإذا كانت قيمة فكرة من الأفكار تقدر بما أوجت من أبطال وبما
خلقت من شهداء ، أفلا يعلم الناس أن للكفر أبطاله وشهداءه ؟

هكذا يبدأ بايل بالذنبات البريئة لينتهي بتمجيد الكفر . ولا شك في
أنه وجد من واصل أفكاره ، قوم أرادوا أن يؤثروا مثلاً أثر لا في مجال الفلسفة
لحسب ، بل على أرواح البسطاء أيضاً : إلا أنه ما من أحد حتى تولاند
الذي نقل أفكاره أحياناً — كان له مثل قوته المطلقة العنان . وما من شك
أيضاً في أنه وجد عدد أكبر من معارضيه وأخصامه الذين انشغلوا بنقض
أفكاره وتفنيدها نقطة بعد أخرى : إلا أن ستين سوف تمر قبل أن يظهر فكر

(١) بيرر بايل : أفكار مختلفة . . . بمناسبة المذنب ١٦٨٣ ، باب ٦٨ .

قوى يواجه فكره . في عام ١٧١٢ كتب إيلي بنوا Elie Benoit راعى كنيسة دلفت Delft بهولندا صفحات ضده ، لم تكن دسمة غير أنها لم تنقصها قوة المادة . يقول الراعى : إنه بالمنهج الذى يستعمله بايل في شأن المذنبات ، النهج الذى يتطلب كل وضوح وبداهة وينكر كل شهادة ، يمكن القول بأنه ليس هو مؤلف « القاموس » . إن بايل يدعى أنه مؤلفه : ولكن أى دليل يقدمه لنا ليثبت صدقه ؟ — إنه يقسم على ذلك : ولكنى أريد توكيدا ووضوحا ؛ فإن هناك يمينا كاذبة — سوف يقدم لنا أصدقاءه ليشهدوا بأنه رجل فاضل شريف : ولكن لا يزال عليه أن يثبت صدق أصدقائه — وسوف يستشهد بالكتبي والطابع والمصحح : ولكنى سأشك في ذمة الشهود ، ومن شاهد إلى شاهد سوف يتضح أنى قبل أن أصدق مسيو بايل ، لابد من جمعية عمومية من المجلس البشرى بأجمعه . . .

فالواقع أن هناك ظروفًا يجب فيها على المرء أن يقنع بالدليل المعنوى ، وعيب منهج بايل أنه يريد أن يشمل الروح بكليتها والحياة بأجمعها . إن الدليل المعنوى على ما فيه من غموض وظلال ، يتيح للمرء أن يختار وأن يرفض وأن يعمل وأن يريد . « إن الأدلة القاطعة من الندرة والتعذر بحيث لا تغنى ولا تفيد في الأمور التي تحتم فيها ضرورة الحياة ضرورة العمل ، وإنه إذا ادعينا أنه لابد لنا — لكى نختار — من براهين تتغلب على كل اعتراض يثيره فيلسوف حاذق حصيف ، فعندئذ ينبغي أن نطرح كل مهام الحياة . فالفنون والعلوم والقوانين والتجارة لأساس لها إلا الأدلة المعنوية » . وعليها يستند الدين . . . (١) . ويومئذ نسي الناس المذنبات ، وأخذ المؤمنون بكنيسة دلفت ، ووراءهم العالم كله ، يفاضلون بين المذهب العقلي (٢) rationalisme ومذهب الذرائع pragmatisme .

(١) ملاحظات انتقادية تاريخية فلسفية لاهوتية على مقالين لمسيو تولاند M. Toland أوطا «الانسان بلا خرافة» وثانيهما «أصول اليهود» Les Origines judaïques لايلي بنوا Elie Benoit راعى كنيسة دلفت ، دلفت ١٧١٢ ، ١٧١٢ Delft .
(٢) المذهب العقلي : مذهب لا يعترف إلا بسلطان العقل وينكر الوحي ، والبراجماتزم أو فلسفة الذرائع مذهب يقول إن أساس الحق هو الفائدة العملية .
[الترجمان]

أولئك « السبيلات » Sibylle أو العرافات الجبيلات اللواتي رسمهن مشيل أنجلو في كنيسة الفاتيكان ، نساء تلقين الوحي من لدن الله ، فقد تثبأن بالرغم من وثنيتهن - بمجيء السيد المسيح وحياته ومعجزاته وموته وبعثه .. وقد استغل آباء الكنيسة أقوالهن على أنها هواتف إلهية لهداية غير المؤمنين ، فان الوثليين كانوا يضطرون إلى الاعتراف بقداسة الدين المسيحي ووضوحه ، حينما كانوا يرون في الكتب التي تتضمن أقوال العرافات ، أن أسرار هذا الدين قد بينت للناس قبل ظهوره .. عشر عرافات شهيرات ؛ وثمانية كتب لاتينية ويونانية وشهادة المؤلفين العطاء ، فرجيل Virgile ، وتاسيت Tacite وسويتون Suétone ، سلطان الآباء ، القديس الشهير جومستان ، والقديس أوغسطين ، والقديس جيروم : أي كتلة قوية ! أي حصن ضد الارتياب ! ولا يفري عن البال أن هذه التنبؤات لم تحدث إلا إلى غاية ولادة المسيح وأنها توقفت يومئذ إذ أصبحت وليس فيها نفع ولا غناء : وكان هذا السكوت الاعجازي برهاناً جديداً على صفتها الإلهية .

على أن بعض المتضلعين من العلم لم يؤمنوا بذلك بسهولة . هل كتب العرافات هذه محيحة ؟ ألا يحتمل أن تكون من صنع اليهود المؤمنين بالمسيح (١) ؟ أو لعلها من صنع المسيحيين ؟ إنها تبدو كجموعة يونانية لحجة غير منسقة . وأما فيما يتعلق

(١) - كان اليهود دائماً في انتظار مسيح ينقذ الشعب الإسرائيلي من ظلم روما ويعيد إليه عظمته القديمة . وكالوا ينشرون في هذا الغرض كتباً تحت عناوين كاذبة مثل كتب هنيوك وجوديت وعزرا - يصفون فيها مجيء المسيح المخلص . وكان يهود « الناصرة » حيث ولد عيسى ، أول من آمن به وبرسالته . لكنهم كانوا يرونه رسولاً قد بعث : لا لتبديل الدين اليهودي ، بل لتتويجه بمجيء المسيح المخلص . وأولئك اليهود المؤمنين بالمسيح يختلفون عن مسيحي اليونان واللاتين في أنهم ظلوا متمسكين بكل عاداتهم اليهودية مثل : تعظيم الختان والنواصية والاحتفال بيوم السبت ، وهو اليوم السابع ويسمونه « سايا » ، وقراءة العهد القديم بالعبرانية . وكانوا يكرهون تلك الفكرة الخرافية : الرجل الإله . (رينان : تاريخ أممنا المسيحية ، الكتاب الخامس ، الفصل الثالث ، وتاريخ الشعب الإسرائيلي ، الكتاب الخامس) . E. Renan, *Origines du Christianisme et Histoire du peuple d'Israel* .

[الترجمان]

بآباء الكنيسة فان علمهم وإخلاصهم لا يعصمهم من الوقوع في الخطأ ، فقد كان يعوزهم روح النقد ، وكانوا مغرضين فقد أخذوا على محمل الصدق أقوالا ظاهرة البطلان . لقد اتخذوا ، ثم خدعوا قراءهم بدورهم وإن حسنت النيات . لقد نسب العالم فوسسيوس Vossius قسيس قصر وندسور ، تلك الكتب إلى اليهود ، دون مراعاة لقداسة عرافات دلفوس Delphes أو قيوم Cumes أو الدردنيل Hélespontique أو غيرهن la Phrygienne, la Tibutine ؛ بينما نسبها يوحنا ماركوس Johannes Marckius العالم اللاهوتي بجامعة جرونينج إلى الرعيل الأول من المسيحيين . ثم ظهر طيبب هولاندي يدعى أنطون فان ديل Van Dale يتميز بالقوة وغزارة المعلومات ، فوجه ضربتين قاضيتين : أولاها أن هذه الهوائف الالهية لم تكن إلا دجلا ، والثانية أنها لم تتوقف بعد بحى المسيح . ثم جاء فرنسي أديب حصيف ، أحد أولئك الذين يحسمون الجدل بكلمة قاطعة ، ولم يكن أحد من صفه يستطيع أن يتقدم عليه مهما طال الجدل . أى رمز لتطور الأفكار في شخص فونتيل Fontenelle ! لم يجتذبه موضوعات البطولة - وإن يكن ابن أخى كورنيل Corneille العظيم - بل كان يعد دعوى « الجليل » طنطنة . لقد عرف التكلف : كان يهوى الأشعار الموجزة ، والفصائد الرقيقة ، وأناشيد الغزل ، ويستطيع أن يجد مائة ناحية من نواحي الجبال في شجرة بيضاء تتخلل الشعر الفاحم لغادة حسناء . واشترك في مجلة « ميركور » Mercure (١) . وألف الكوميديات والتراجيديات والأوبرات . وكان يرى أن الاشتغال بالأدب يعنى صياغة قوالب محدودة جامدة ، طبقا لمبادئ ثابتة : وقد ظهر له هذا العمل ، حسبما رسم ، مسليا ممتعا . وقد احتفظ من تلك الأذواق بشئ أكثر من الذكرى ، بل ظل طوال حياته قرب الشبه - إلى حد ما - بسيدياس Cydias (٢) الذى وصفه لابرويير La Bruyère في قسوة .

(١) ميركور *Mercure* : مجلة أسبوعية أسست في ١٦٧٢ لنشر أخبار البلاط والأشعار القصيرة والقصص ، واسمها مأخوذ من ميركور ابن زيوس رب الأرباب ، وميركور (هرمس) رسول الآلهة أيضا فضلا عن كونه إله البلاغة والفصاحة والتجارة ، في الميثولوجيا اليونانية . [الترجمان]

(٢) سيدياس *Cydias* : مثال الرجل المشهور في الأدب لفرنسي باسم *Bel-esprit* =

إنكار المعجزة

١٦٥

بيد أن فونتنل كان طلعة بفطرته ، بل تواقا إلى الوصول إلى معارف صحيحة ثابتة : معارف رياضية إذا أمكن . لا تسلية ولا متعة ولا لذة تعدل عنده التحليل والاستنباط ، وإعمال الذهن الذي يقشع الظلال رويدا رويدا . وكان عقله قريبا جداً من أصل جوهره الصافي ، وإنه لعقل جدير بالاعجاب ، يدرك على الفور ويدرك كل شيء ، لا تفسده صورة أيا كانت ولا يفتنه شعور أيا كان ، وحينما نراه إبان العمل ، يخيل إلينا أننا أمام آلة تشريح لامعة حادة النصال . زد على ذلك روح التبشير التي لم يخل منها في ذلك الوقت أحد ، إذ لم يكن أحد قد سئم بعد . وصحيح أنه كان أنانياً وأنه اجتنب كل شهوة وكل انفعال ، وأنه لم يحب النساء إلا من قبيل حب الذات ، وكان يتوق البرد والحر والتيار ، ويتبعد عن الطفيلين والنساء وعن كل مبعث ضيق وابتذال ، وأنه يفضل « ضعفه » الشديد ، شاهد أصبح الناس يدفنون ، وعاش مدة قرن طويل . إلا أنه ليس صحيحاً أنه قبض يده على ما فيها من ثروة من الحقائق وادخرها لنفسه . وليس ضربة لازب أن يكون المبشرون والدعاة أهل طنطنة أو سوء تربية بل منهم قوم ذوو رقة وتهذيب ، مثل فونتنل . ولشد ما كان يكره الضلال ، حتى إنه يلسى ما اشتهر عنه من حيطة ، ويقاوم الميل إلى الشك قائلاً في حسرة « إنك تجد الضلال في كل مكان . . . »

فونتنل هذا هو الذي اقترب من العرافات ونظر إليهن نظرة متحرزة . وقد نشر في عام ١٦٨٦ مؤلفه « تاريخ الموائف الإلهية » *Histoire des Oracles* وهو لم يتعمق ويتوغل ليربحث عن معلوماته ، بل قنع بمؤلفات « فان ديل » Van Dale ولعله كان اكتفى بترجمة كتابه لولمس فيه القوة والوثوق . ولكن فان ديل يكتب في أسلوب جاف ثقيل ، حافل بالوثائق زاحر بالتعليق ، يثبط همه

== أي مدعى العقل والذكاء . وصفه لبروير في كتابه « الشخصيات » *Les Caractères* وهو حسب وصف لبروير يعتقد أنه رجل نسيج وحده ، حلو الحديث فريد الشئائل لا يقول ما يقوله الآخرون ولا يفتح فمه إلا ليقدر رفاقه : « يخيل إلى أن الأمر عكس ما قلتم . . . لا أستطيع أن أشارككم رأيكم . . . يجب أن نلاحظ ثلاثة أسباب . . . » ثم يضيف سبباً رابعاً . يبادر أول ما يدخل مجتمعا إلى البحث عن حسنة ليسحروا بمحدثه الفاتن وذهنه الرائع وسفسطته . ويتنظر دائماً انتهاء الحديث ليدلي بالرأي الأخير . يظن نفسه فوق أفلاطون ومليكا وفرجيل . ثقتة بنفسه لا تقدها حدود . (لبروير - الشخصيات ، الفصل الرابع ، في المجتمع والمحادثة) . [الترجمان]

الفارسي' لأول وهلة : يحسن إذن أن يتناوله فونتنل بالتزيين والتهديب، وأن يحمله على الطريقة الفرنسية حتى يصبح في متناول الجميع . لأن « النساء لا ولا أخفى عليكم أن الرجال مثلهم في هذا البلد يتذوقون جمال الأسلوب والتعبير والأفكار ، قدر ما يشعرون بما في الأبحاث الدقيقة والمناقشات العميقة من جمال جاف . ولا سيما ونحن ، بما جبلنا عليه من كسل ، نريد أن نجد الترتيب والنظام في الكتاب ، حتى نبذل أقل اعتناء . . . » والخلاصة أن فونتنل قسم العمل : فترك لفان ديل الناحية العلمية ، واحتفظ لنفسه باللباقة والأناقة وجزالة السياق ولذع الأسلوب .

أولاً ، ليس صحيحاً أن تلك الأصوات الاعجازية كانت من فعل الآلهة (١) كيف أمكن أن يصدق الناس ذلك ؟ — لأن إنتاجنا أدبياً بأكمله ، زاخراً بالوقائع المدهشة ، اجتمع على تأييدها ، ولأنه كان طبيعياً أن يستغلها الناس ما استطاعوا مادام المسيحيون قد اعترفوا بها ، ولأن الاعتقاد بالآلهة كان يبدو موافقاً للفلسفة الأفلاطونية ، زد على ذلك سبباً أقوى من كل الأسباب : تسلط السر المحير على ذهن الإنسان .

ولكن كل هذا البناء واهي الأساس : إن الروايات التي يستند عليها هذا التقليد الخرافي غامضة أو متناقضة أو ظاهرة الاختلاق ، حتى إنها لتهدم وتتداعى فور فحصها بمعرفة العقل . وهكذا يسير فونتنل في طريقه ضارباً ذات اليمين وذات الشمال ، قائلاً : إن العقيدة الشائعة عن أصوات الآلهة لا تتفق مع الدين قدر ما يظن الناس ، وإن وجود الآلهة لم يقم عليه الدليل الكافي في الفلسفة الأفلاطونية ، وإن مذاهب هامة في فلسفة الوثنيين لم تعتقد بوجود شيء خارق للطبيعة في أصوات الآلهة ، وإن كثيرين من غير الفلاسفة لم يلقوا يالاً إلى تلك الأصوات ، وإن المسيحيين القدماء أنفسهم لم يعتقدوا بكل الاعتقاد

(١) أصوات الآلهة أو الهواتف الالهية Oracles : هي في الأصل — لدى الوثنيين — جوائذ الآلهة على أسئلة الناس . ففي العابد والمياكل مثل دلفوس كان الآلهة يتكلم على لسان غرافة يدعونها بيتي أو سيل . وكانت هذه الكاهنة الحسنة ، لكي تأتي بالجواب ، تصوم ثلاثة أيام ، ثم تمضغ ورقة غار ، وتقع في تشنج عصبى هو ولا شك نتيجة عطارة هذا النبات ، ثم تقف على منبر موضوع فوق عين بطناءد منها بخار أو غاز ، ثم يرتعد كل جسمها ، ويقف شعر رأسها ويمتلئ بالزبد شدةها ، وحينئذ تجيب على أسئلة السائلين .
[المترجمان]

إنكار المعجزة

١٦٧

في أن تلك الأصوات من فعل الآلهة . وهكذا كلما وجد فونتنل تأكيداً ، شك وأنكر ، مدلياً بالأسباب على الدوام .

والآن ، وقد ثبت أن أصوات الآلهة كانت فاسدة ، وأن الناس ابتدعوها تحقيقاً لهوى ذوى النفوذ ، وأن كهنة الوثنيين استعملوا كل الحيل لفرض تلك الأصوات على عقول العوام ، وأنها كانت غامضة مبهمه فلا وزن لها ولا قيمة ، وأن أساسها الخبث البشري ولا صلة لها بالآلهة ، ينتقل فونتنل إلى النقطة الثانية : فغير صحيح أن هذه الأصوات قد توقفت بعد مجيئ المسيح ، بل إن كثيراً منها حدث بعد ذلك التاريخ . وإذا صح أنها توقفت عن الصدور ، فلأنها كانت تحمل في ثناياها سبب الفناء ، وهو سبب منطقي مستقل عن النفوذ الإلهي : بداهة البطلان . « إن جرائم الكهنة ووقاحتهم ، ومختلف الأحداث التي أظهرت دجلهم في جلاء ، وخطأ إجابتهم وعدم الوثوق بصحتها ، كانت لابد أن تضع آخر الأمر أصوات الآلهة ، وتوردها موارد الهلاك ، ولولم تنبئ الوثنية » . وجاع القول في ذلك أنه لا شيء في كل هذه الرواية خارق للطبيعة ، وهي رواية تقوم على جهل البعض وخداع الآخرين . الخارق للطبيعة : ذلك هو اللاذ المعتاد للإنسان ، ملاذ كله خداع وبطالان . نحن في جريتنا وراء البعلة نتخطى حقيقة الأمر الواقع ، وهنا مأى الضلال . والدواء الناجع في قاعدة ينبغي ألا تغيب أبداً عن العقول : تحقق من الواقع أولاً ، قبل أن تشغل نفسك بالبعلة .

من ذا الذي لا يعرف حكاية السن الذهبية ، تلك الحكاية اللطيفة الحية الحافلة بالمعاني ، قلبيد قراءتها فإن قيمتها جالدة ، ولنتخيل ما كان لها في يدم ظهورها من شهرة وضجة . إن فونتنل يبدو كأنه يتسلى ، بينما هو يلمس أهم مصالح البشر : العلم والتاريخ والدين :

« في عام ١٥٩٣ ، سيري خبر مؤداه أن طفلاً من سيليزيا عمره سبعة أعوام سقطت أسنانه ، ونيتيت محيل أحد أضراره من من ذهب . وقد كتب هورستيو من Horstius أستاذ الطب في جامعة هلمستاد Helmsstad في عام ١٥٩٥ قصة هذه السن ، زاعماً أن فيها شيئاً من الطبيعة وشيئاً من الاعجاز ، وأنها إنما أرسلت من ليدن إلى هذا الطفل كسلوة للمسيحيين الذين آذاهم الأتراك . هل

تتصورون وجه المساواة في ذلك ؟ وأي علاقة لهذه السن بالمسيحيين وبالأتراك ؟ وفي نفس السنة كتب رولاندوس Rullandus حكاية هذه السن الذهبية مرة أخرى ، حتى لا ينقصها المؤرخون . وبعد عامين كتب الجولستاناروس Ingolsteterus — عالم آخر — معارضا رأي رولاندوس في هذه السن الذهبية ، وعليه أجاب رولاندوس في رد علمي جميل . ثم يأتي رجل عظيم آخر هوليبافيوس يجمع كل ما قيل عن هذه السن ، ويضيف إليه رأيه الخاص . وكل ما كان ينقص هذه المؤلفات الرائعة أن تكون السن حقيقة من ذهب . فانه لما جرى بصائع ليفحصها وجد أن قشرة من ذهب قد ركبت عليها بمهارة . غير أنهم بدأوا بتأليف الكتب أولا ، ثم استشاروا الصائغ بعد ذلك .

« ولا شيء يبدو طبيعيا أكثر من أن يسير الناس على هذا المنوال في كل الموضوعات . لست أعتقد أن مرد جهلنا إلى عدم إدراكنا علة الوجود من الأشياء ، بل مرده إلى إدراكنا علة ما لا وجود له من الأشياء . ومعنى ذلك أننا لسنا نفتقر إلى المبادئ التي توصلنا إلى اليقين فحسب ، بل إننا فوق ذلك نملك مبادئ أخرى تتمشى مع الباطل كل التمشى .

« لقد أثبت كبار علماء الطبيعة أن الطبقات الواقعة تحت سطح الأرض حارة في الشتاء ، باردة في الصيف ، إلا أن علماء أعظم منهم ، اكتشفوا منذ زمن قريب أن هذا لم يكن صحيحا .

« والناقشات التاريخية أكثر قابلية لثل ذلك النوع من الأخطاء . نحن نستدل بناء على أقوال المؤرخين ، ولكن من يدرينا ، هل سلم هؤلاء المؤرخون من الأهواء ، والتصديق الأعمى ، وضعف التعليم ، والاهمال ؟ لا بد لنا من مؤرخ يكون قد شاهد كل شيء ، ولا بد أن يتوافر فيه الحياء والاهتمام .

« ولا سيما إذا كتب المرء عن وقائع تتصل بالدين ، فانه لمن الصعوبة بمكان إذا كان ينتمي إلى إحدى الطوائف أو الأحزاب ، ألا ينسب إلى دين غير حق ميزات لا يستحقها ، وأن ينسب إلى دين حق صفات باطلة لا يحتاجها . ومع ذلك ينبغي أن نفتتح أنه من الحال أن نضيف أية حقيقة إلى دين حق ، كما أنه من الحال أن نضيف أية حقيقة على دين باطل . . . »

ولا تبدو البداية إلا هزلا ظريفا ، غير أن النعمة تصبح جادا رويدا رويدا .

إنكار المعجزة

١٦٩

إن التفكير العميق تحت هذه المظاهر الخفيفة ، يلتحق بالتفكير الذى عبر عنه بايل فى صدد الذنابات ، حتى إنه لا يعييك أن تلاحظ القرابة . إنه نفس النداء موجها إلى جمهور ، أكبر من جماهير الفلاسفة واللاهوتيين ، وفيه نفس الارادة فى اتهام ضعف الطبيعة البشرية ، أهم أسباب الضلال ؛ وعمى التقاليد التى تحتضن الضلال وتدعمه وتجعل منه قوة لا تغلب . تتولد الحاقة : فيصدقها القدماء ويعتمدونها ، ونصدقها بدورنا على علاقتها ، استناداً على القدماء . إن الآلية لا تتغير : أقنعوا ستة رجال بأن الشمس لا تضيئ النهار ، وفى ذلك الكفاية : فإن شعوباً بأكلها يؤول بها الأمر إلى الاقتناع . وفونتنل ، مثل بايل ، يكره السلطة ؛ إن الارتضاء الشامل يبدو له سخافة محضة ، إذا اتخذ دليلاً على اليقين : إن قبول مائة شخص أو مائة نليون لأسطورة ، خلال عام أو خلال قرون ، لا يغير منها شيئاً إذ تبقى دائماً أسطورة . وهو ، مثل بايل يستنكف المعجزة ، وأخيراً فهو مثل بايل يأبى أن يجد فرقاً جوهرياً بين الوثنيين والمسيحيين : فالمسيحية تأبى نسبة حقائقها إلى الوثنيين ، والوثنيون أورثوا المسيحيين أخطاءهم .

ولما كان فونتنل ذا عقل كسول كسول كسول سيباريس Sybaris (١) وإذا حكمة ، ولما كان سيباريس إلى المتعة الهادئة خشية أن يستجاب على نفسه نقمة الآلهة ، فإنه لا يجادل جدالاً شديداً ، ولكنه يجادل على كل حال . وهو يعلم أن فى هولونيا مجمعا للعلوم يدعى مجمع « القلقين » : والقلقون — لقب يليق « بالفلاسفة المحدثين الذين لا يتقيدون بأى سلطة ، ولذا فهم يبحثون ولن يكفوا عن البحث (٢) » . وفونتنل من طائفة أولئك القلقين . وهو مثل أعضاء طائفته ، يدرك أن عليه رسالة شاقة واجبة الأداء : لأن يرفض الرء اعتقاداً جديداً دون فحص ، أو يقبل اعتقاداً شائعاً ، هذا سهل لا يستلزم استعمال العقل ، أما أن يلبذ اعتقاداً شائعاً وينضم إلى حزب التجديد ، فذلك

(١) سيباريس : مدينة قديمة فى إيطاليا اشتهرت بليونى سكانها الذين ضرب بهم المشل فى الكسل . يعنى أن أحد أهلها كان يتصيب عرقاً إذا رأى عبداً يقطع الأشجار . وأن آخر يدعى سيمينيريت اشتكى من أنه ظل طوال الليل ساهراً أرقاً ، لأن ورقة من أوراق الورد المفروشة فى سريره كانت قد انثنت ، وذهبت هذه البالغة مثلاً . [الترجمان]

(٢) مدح لسيو مارسيجلى ... *Eloge de M. Marsigli* .

عسير وهو ما يستحق التقدير : « إنما القوة تلزم في مقاومة السيل ، أما في متابعته فليس لها لزوم » . فهو ينكر على المصدقين كل شيء ، ويعطى للمتكبرين كل شيء ، كما هو مبين في هذا القول : « إن شهادة الذين يعتقدون في ثبوت شيء ، ليس لها من قوة تسنده ، أما شهادة الذين لا يصدقون به فلها قوة تقويه . ولعل المصدقين لا يعلمون بالأسباب التي تدعو إلى عدم التصديق ، لكنه من المحال أن يجهل غير المصدقين الأسباب التي تدعو إلى التصديق . »

وكان الاعتقاد في السحرة أقدم وأعم وأعمق تشبثا بالعقول . وكان السحرة مخلوقات كريهة مرذولة : يذهبون إلى اجتماعات السبت Sabbat (١) على مطايا غريبة ، ويشركون في حفلاتهم الشيطان . وعلى ما يقول أحد المعاصرين يؤذون الناس بأعمالهم السحرية فيمنعون الزوج من مجامعة زوجته ، ويفسدون الفتيات الفاضلات بطلمس يلقونه فيما يشربن أوقيا يأكلن ، ويسمون الماشية ، ويتلفون خيرات الأرض ، ويميتون الرجال بالتعذيب البطيء ، ويجهضون الحوامل ، بجانب مئات من السيئات الأخرى . . . وهناك نوع آخر أخطر من هؤلاء : السحرة الجوسيون ، وهم على علاقات ودية مع الشيطان ، يستحضرونه على الصورة التي يرغب أن يراه فيها محبو الاستطلاع . ويعرفون سر الكسب في المقامرة ، ويضمنون الثراء لمن يبهجون له بهذا السر . يروحون بالغيب ، ويستطيعون التحور إلى الحيوان بمختلف أنواعه واتخاذ صورة أشعه ، ويذهبون إلى بعض المنازل حيث يصدرون أصواتاً غريبة تبدو كعواء الذئاب ، وأنان مرعبة تثير الفرع ، ويظهرون وسط نيران تعلو على هام الشجر جارين أغللا في أقدامهم ، مسكين بالآفاعي في أيديهم ، والخلاصة أنهم يثيرون

(١) Sabbat : يوم الراحة عند اليهود وهو اليوم السابع أو السبت . وهو حسب اعتقاد شعبي يعني اجتماع السحرة في منتصف الليل يوم السبت تحت رئاسة الشيطان . وقد أسر الله اليهود بعدم الصيد في يوم السبت ابتلاء لهم فتعر الأيام لا يأتيهم السمك وفي يوم السبت المحرم تظهر لهم الحيتان بكثرة تراودهم . قال تعالى « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون لا تأتتهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » . [الترجمان]

إنكار المعجزة ١٧١

الرعب في الناس حتى يضطروا إلى استدعاء رجال الدين لصرفهم . وإن عددهم لكبير : تجدهم في أمريكا لدى المتوحشين ، كما تجدهم في لابلاندة . ولما كان سحرة لابلاندة قد تعاقدوا مع الشيطان ، فانهم يستطيعون إيقاف السفينة في أثناء سيرها ، وتغيير وجه السماء . بدقون طبل سحرياً لأسد طويل ، ثم تستولى عليهم علامات رعب شديد ، ويظلون سجوداً على وجوههم دون حراك ، بينما أرواحهم تفارق أجسادهم ، راحلة إلى بعيد . ففي لابلاندة تصادف السحرة أينما سرت وفي كل خطوة .

ومالنا نذهب بعيداً . فقد حدث مثلاً في إنجلترا القديمة ، في تدورث ، أن طرد أحد أصحاب المنازل قارعاً للطبول من منزله : يومئذ عاد هذا الرجل بالسحر ، ليسمع صاحب المنزل دقات تثير الرعب وضجة شيطانية . والواقعة أكيدة . فان قسيساً يدعى جوزيف جلانفيل Glanvill ، حضر إلى المنزل وتفقدته من الأساس إلى السقف : ولقد سمع الضجة إلا أنه لم ير أحداً . وأولئك الذين ينكرون تلك الشهادة عن وجود الشيطان وقدرته ، غير مؤمنين ، كفرة ، صهوقيون Saducéens (١) وكان المذهب الصهوقي يسرى في إنجلترا ويفتح الطريق للكفر ، بتشكيكه في وجود روح أبدى لا متناه ، ولكن الصالحين من القوم ، سوف يعملون على إخماد هذا المذهب ، لأنهم لا يستطيعون أن ينكروا ما سببه شبح تدورث من أذى .

وبلغت مسألة الشيطان من الأهمية مبلغاً ظلت معه تعكر صفو العقول ، مع أنها ليست جديدة بل ترددت مائة مرة . فيايتها الشيطنة ماذا تعنين ؟ هل أنت لعبة الأرواح الجهنمية ، العفاريات الشريرة المنتشرة في كل مكان ، والتي تجد متعة في تعذيب الناس ، وإيقاعهم في حبائل الاغراء ؟ أم أنت مظهر متعددة متباينة لقدرة الشيطان على بث الارتياح ، ذلك الشيطان الذي انتقل بالمسيح إلى قمة الجبل حيث أطلعه على كل ممالك الأرض سعياً وراء

(١) الصهوقي : اليهودي الغنى من أصل كهنوتي أرستوقراطي محافظ . لا يريد أن يسمع عن اعتقاد جديد ، كالبعث والمسيح والملائكة والتفسير الجديد للقانون . وهو مخالف الفريسي الذي يمثل الديمقراطية ويعتقد بالبعث والثبوتية في الدار الآخرة ، ويحمل القانون كتلة من التفسيرات التقليدية . (رينان : تاريخ الشعب الإسرائيلي الجزء الخامس ، الفصل الخامس ص ٤٢) . (Renan, *Histoire du peuple d'Israël* , [الترجمان]

إغرائه ؟ أم أنت لست إلا كابوياً مخيفاً أو وهماً يساور الانسان ؟ أم لست
إلا وليدة الخيال الهائم سيد الكذب والبطلان ؟

لم يكن بد إذن من معاودة النضال للمرة الثالثة ، أو على الأصح الاشتباك
بشكل حاسم في عراقك يبدو كأنه لا ينتهى ، وإن كان سينتهى . وكان ينبغى
التدخل بحمية ولشاط لأن الأمر لا يتعلق باليقين أو بالضلال لحسب بل
بمتهمين ومتهمين ، بمحاكم وقضاة وضحايا . وإذا كانت بعض دول أوربا
تميل إلى التسامح ، وتمنع رفع الدعوى ضد فقراء تعساء للاشتباه في اتصافهم
بالشيطان ، وهو ما ليس من الاجرام فى شئ ؛ وإذا كان ملك فرنسا قد أصدر فى
عام ١٩٧٢ ، أمراً يمنع المحاكم من قبول الاتهام بالاشتغال بالسحر ؛ فان دولاً أخرى ،
على النقيض ، قد واصلت المطاردة بكل شدة ضد السحرة والمسوسين والمدعين
القدرة على استحضار الموتى ، بإرسالهم إلى السجن والتعذيب والمشنقة والحريق .
وهنا ظهر هولندى ، تبعه ألماني هو بلتازار بيكر Balthasar Bekker ، ثم أقواهم
كريستيان توساسيوس Christian Tomasius ، وقد تجسد فيهم مجهود العقلين النافذ .
وبلتازار بيكر هذا سجاؤه ليس لها نظير ؛ لقد كتمت ترى بريقه البيضاء يبرز منها
ذقته المربع الكبير ، وفمه العريض ، وأنفه الضخم الطويل ، وعيناه البراقتان ،
يظلالهما حاجبان كثان ؛ ولم تكن شخصيته أقل تفرداً . وكان هذا الراعى
البروتستانتي — شاء أو أبى — متأثراً بديكارت الذى علمه التفكير الواضح
المستقيم . وقد علمته إحدى المغامرات التفرز من حكم الآخرين ؛ ففى أثناء قيامه
بأعباء وظيفته فى فريز ، ألف كتيباً عن عقائد المسيحية ، حرّمته جمعية مكونة من
أكثر من مائتى قسيس ، دون أن يوجد بينهم قسيس واحد — على ما يزعم —
يستطيع أن يبرر هذا الحكم . وقد قوبل هذا الكتاب ، فيما بعد ، بالتأييد مرتين
مع أنه لم يجر فى مبادئه أى تعديل . كيف لا تستنبط بعد ذلك ، أن مسيحياً
صحيحاً ، ولا سيما إذا كان عالماً ، ينبغى أن يعد حكم الآخرين باطلاً كأنه
لم يكن ، وألا يستوحى قواعد الايمان إلا من نفسه ؟ وعلى ذلك قرر بيكر أنه
لن يكون له فيما بعد إلا رسالة واحدة بجانب الاهتمام برعيته ؛ وهى القضاء
على الأخطاء وكشف القناع عن الأكاذيب . لن يتبع خطوات أحد ، ولن
يستمتع لنصائح أحد حتى العلماء ، الذين سرعان ما ينحنون أمام الشهرة
المكتسبة ، والذين لا تنقصهم المعتقدات الباطلة . سيجاهد لجعل الناس أكثر

إنكار المعجزة

١٧٣

حكمة ، مع أن حقيقة الأسر أن من يريدون منهم إصلاح عقولهم قلة : إنه ليسير مريح أن يؤمن المرء ويتصرف كما يفعل الناس قاطبة ، وأن يردد اعتقاداً يرويه الناس في كل آونة ! ما أيسر اتباع الجماهير ! وما أصعب التحييص . إن بلتازار بيكر مثل تولاند قد تسم بالعقل . إلا أنه كان على الأقل بامسلاً مخلصاً نشيطاً ، في عقله تلك الحمية المشتعلة التي لا غنى عنها في حروب العقل المقدسة . وقد ارتحل للملاقة الاعتقادات الباطلة ، فلم يجد عناء في مصادفة الكثير منها . وهو أيضاً يبتدىء بتبرئة المذنبات : ولكن الشيطان يستأثر باهتمامه ، ويحتل مخيلته ويشغل كل عطاته ، إلى أن يتخلص منه ذات يوم في كتاب كبير ينشره في عام ١٦٩١ : *De betooverde Wereld* « العالم المفتون » . سوف يخلص العالم من الاقتنان . . .

وهو يبتدىء في أسلوب حي مؤثر . إن الاعتقاد في الشيطان وفي قدرته ، وفي خدام الشيطان وإجرامهم ، ليس له أمام النور الفطري صمود . فلنصل إلى منشأ هذا الاعتقاد ، ولنتابع مسراه على مر العصور ، وفي كل البلاد ، عندئذ سوف نرى أن مصدره وثني ، وأنه أفسد المسيحية ؛ ومع أن البروتستانت ، منذ انفصالهم عن كنيسة روما ، قد تخلصوا منه إلى حد ، فإنه لم يكف عن خداعهم بعسد . لا تقولوا إنه يستند على الكتاب المقدس : لعله يستند على تفسير آباء الكنيسة له ، ولكنه لا يستند على تفسير منطقي ، مثل تفسيره هو ، بلتازار بيكر . فمثلاً : يتكلم الكتاب المقدس عن الملائكة ، ولما كان لا يذكر شيئاً عن طبيعتها أو ماهيتها ، فيمكن القول بأنه يشير إلى أشخاص كلفهم الله برسالة خاصة ، ولذا أمدهم بقدرة خاصة . وهو أيضاً يتكلم عن أرواح شريرة ، ولكنه هنا أيضاً يشير إلى أشخاص ، أشخاص أشرار مفسدين . وهو يذكر ما وقع لأدم من إغراء ، ولكن قصة موسى لا تذكر شيئاً يستدل منه على أن الشيطان نفسه يستطيع أن يؤثر مباشرة على الأرواح والأجساد . كما يذكر الكتاب المقدس إغراء السيد المسيح ، لكنه لم يذكر أن الشيطان لم يكن رجلاً شريعاً فاسداً . وهو يذكر أن المسيح كان يشفى المسوسين ، ولكن الناس اعتادوا أن يلبسوا أخطر الأمراض إلى فعل الشياطين ، فضلاً عن تسميتهم الأمراض نفسها بالشياطين . إن المسيح لم يغير أساليب الكلام التي كانت في أيامه ، حتى إن تسفاه المس المزعوم daemonia لم يكن على

التحقيق طرداً للشياطين ، بل شفاء لأمراض جد حقيقية . وجملة القول في ذلك « أن تفسير الكتاب المقدس تفسيراً عميقاً خالياً من التعرض ، لا ينسب إلى الشيطان كل تلك القدرة وتلك الأفعال ، التي ينسبها إليه تغرض الشراح والمفسرين . . . » واليوم نرى السحرة قوماً أشراراً جداً ، عقيدتهم وأخلاقهم فاسدة كل الفساد ، ولا علاقة لهم بالبنة بالشيطان .

وقد حكمت الكنيسة على بلتازار بيكر بالحرمان ، ومات بيكر على رأيه . وقد عني بترجمة كتابه إلى الفرنسية تحت إشرافه حتى يتفادى التراجم المزورة التي تتعرض لها دائماً المؤلفات التي تلاقى النجاح . ولم يكن هذا التحوط عبثاً ، فقد لقيت الترجمة الفرنسية للكتاب أوسع رواج . وقد ترجم أيضاً إلى الإنجليزية والألمانية ، وقرأته أوروبا بأجمعها .

إلا أن ألمانيا كانت أكثر البلاد مطاردة للسحرة وأخذوا لهم بالعنف والشدة . فلم يمض وقت طويل على وفاة رجل قانون شهير ، كان أحد أولئك الرجال ذوي المكانة والخطر الذين يستوثقون من القبض على ناصية الحقيقة وتملك زمام العدالة ، والذين يدينون إخوانهم متى رأوا صالحهم في ذلك : يقال إن هذا الرجل « بنواكار بزو » Benoit Carpzow زعم أنه قرأ العهد القديم من الألف إلى الياء ثلاثاً وخمسين مرة ، وأنه كان يذهب إلى الكنيسة ليتناول القربان مرة على الأقل في كل شهر ، وأنه كرس حياته لتقوية إجراءات القانون ، وتشديد العقوبات على السحرة : حتى أذانه أو تسبب في إدانة بضعة آلاف منهم . ومع ذلك ، فبعد مرور جيل كان على ألمانيا نفسها أن تقدم أقدار الرجال على محاربة هذه البربرية وهو كرستيان توماسيوس : وكان تطوّر أفكاره علامة من علامات الزمن .

لقد ولد في ليبزج في عام ١٦٥٥ ، حيث نشأ بين مبادئ قديمة تليق بابن أستاذ كبير . وتعلم التفكير طبقاً لمنهج أرسطو ، والايمان على يد القساوسة حراس الأرثوذكسية الأشداء . ولما أتم دراسته في العشرين من عمره وذهب إلى فرانكفورت لكي يكون معلماً هناك بدوره ، كان يدرك تمام الإدراك واجبه في الدفاع عن السلطة والاحتفاظ بالتقاليد ، التي لا تترك مجالاً للحرية في أعمال الفكر ولا للتسامح في أداء الفروض اليومية .

ولكن حدث في عام ١٦٧٥ ، أن قرأ مؤلفاته بوفندورف Pufendorf ، الذي أخرج العلوم القانونية من نطاق الدين بتمييزه بين الحق الطبيعي والحق

الاهي : فكان ذلك وحيا لتوماسيوس . إن نظرية الحق الطبيعي التي حاربها حتى ذلك الوقت دون أن يعرفها جيداً ، أصبحت منذئذ دستوراً له ، فوصل في بحثه إلى المبادئ التي أوحى بهذه النظرية ، وانقلب من دجماطيقي متعصب إلى متحرر نائر . « لا عقيدة تكسب اكتساباً أعمى بعد اليوم ، عندما أمحص نظرية فلا تقدير عندي لشهرتها ولا لمقام من يؤيدها ، بل سيكون تقديري الوحيد لما فيها من وضوح ؛ سأدرس ما لها وما عليها من براهين ، وسأخذ قرارى طبقاً لما تهديني إليه معارفى الذاتية . وبدلاً من أن أظل عبداً مطيعاً لطغاة الفكر سأغدو مثل أولئك الأبطال القدماء الذين انتصوا السلاح ضد الطاغية الذي كانوا في خدمته ، في سبيل انتصار الحرية . . . »

وكان مفطوراً على الحشونة والعنف ، مشغوقاً بالمعارك الحامية ، والناقشات المحتملة والمجادلات الحية ، ومحباً للنداء الذي يتعالى من منابر الجامعة ليرن في أحياء المدينة . وكان يجد لذة في استعمال حيل الحرب التي تدحر العدو الوثائق بقدرته ، وتوقع العظمة « الروتينية » في الخور والارتباك ، بالاستهزاء وبالسخرية وبالهجاء ، ولم يكن يأنف تلك السمعة السيئة التي تدفع الناس إلى أن يقولوا في أثناء مروره : هذا هو كرستيان توماسيوس الذي لا يخاف شيئاً ولا يهاب . ولما رجع إلى ليبزج في عام ١٦٨٠ بصفته Privat-docent (١) قام بدور رائع خلاب ، إذ سرعان ما اتخذ تعليمه مظهر ابتكار مثير للخواطر . كان يقول إن الميتافيزيقا لغو فارغ ، وإنه ينبغي ترك اللاهوت للاهوتيين ، وإنه لا حساب إلا لعلمين اثنين : المنطق والتاريخ . لأن الأول يعلم التفكير المستقيم ، ولأن الثاني يعطى المثل المفيد ، سواء بالاجتناب أو بالافتداء ؛ وإن المعرفة ينبغي أن تكون وسيلة للمنفعة العملية ، الواقعية ، المباشرة ؛ وإن القانون يجب أن يكون اجتماعياً . وكان يحارب المعتقدات الباطلة مصدر كل بلاء ، فمنشؤها تلقين الأطفال والشباب كل أنواع الضلال التي تدعو إلى الرثاء ، دون تقدير لعقولهم ؛ فضلاً عن خفة الناس وتسرعهم في تقبل كل ما يقدم لهم للإيمان به . وأخيراً فإنه كان دائم التكرار لنظرياته القيمة :

(١) Privat-docent : أستاذ حر في جامعات ألمانيا ، يتناول أجره من تلاميذه .
[المترجمان]

إن النور القطري شيء والوحي شيء آخر ، وإن اللاهوت من دائرة الكتاب المقدس ، أما الفلسفة فمن دائرة العقل ، وإن اللاهوت يتناول سلام الناس في السماء ، أما الفلسفة فتتناول سلامهم في الأرض ، وهو الأمر الأول .

وضاق أساتذة الجامعات ذرعا بتلك الأقوال الجريئة : قالوا إن توماسيوس يفسد عقول الشباب ، ويدفعهم إلى الكفر . وتبادلوا وإياه الهجوم والرد والكر والفر . وكان يبدو في حلة الأستاذية ، يكسوه شعر مستعار فضفاض ينسدل على عاتقيه ، كأنه برج ضخيم قوى لا تزعزعه الضربات . كل ما وجه إليه من مقالات ورسائل قلدح ، وكتب تهديد ، واستدعاء أمام المجالس الجامعية ، وإيقاف عن التدريس ، كل ذلك كان يلهب حماسه . وكان له من حين إلى حين ابتكارات عبقرية فذة ؛ كما حدث ذات يوم ، وهو يوم ظل مشهوراً في تاريخ الجامعات الألمانية ، يوم نشر برنامج دروسه لا باللغة اللاتينية بل باللغة الدارجة . ويا له من شخصية عجيبة ! فقد أراد أن يؤثر على التلامذة حتى يجعل منهم لا محامين وقضاة لحسب ، بل رجالاً مفكرين أيضاً ، فاعتزم أن يدرس ذلك النموذج البشري الذي قدمه بلتازار جراسيان Baltasar Gracian ، إلى العالم : البطل *le héros* . وإذا به يقع على نموذج بشري آخر ، هو الرجل الفاضل *l'honnête homme* ، وعلى المدنية الفرنسية ، سيدة اللسانية : إذ كان يسأل في درسه الافتتاحي ، إلى أي مدى يجب أن يقلد الألمان الفرنسيين ؟ حسن أن ندرس مؤلفاتهم ، ما في ذلك من شك ؛ وأن نطالع كتبهم المشهورة « كالنطق » (١) لجامعة بور — رويال « *La Logique de Port-Royal* » وأن نعرف لغتهم التي تحتوي على كثير من النماذج الرقيقة للسيكولوجية . أما أن تقلدهم كالمزورين أو القروء فهذا ما لا يجوز ! إن الفرنسيين يفوقونا علماً وذوقاً وتربية : أجدر بنا أن نعمل على منافستهم ، بدلاً من أن نفتنى أثومهم في حطة . فلنتقدم ، ولنخجل لأن هؤلاء المزهوين يضعوننا في صف واحد مع أولئك البرابرة الروس ، ولنثبت لهم مدى اقتدار الألمان ، إن المستقبل في أيدينا .

(١) المنطق *La Logique* أو فن التفكير : تأليف أرنو ونيكول Arnaud et Nicole في أربعة أجزاء ، ١٦٦٢ . [الترجمان]

وكان يضحك في خضم المعمة ، لأن الخلق المرح - كما يقول جراسيان - ليس عيباً بل كمالاً إذا هو يعد عن المغالاة : فشى من الفكاهة كشى من التوابل في الطعام . وأضفى على الراسيو فالزم - أى المذهب العقلى - كثيراً من الفكاهة ، بنشره في عام ١٦٨٨ صحيفة على مزاجه : أقضت مضاجع أصحاب المذاهب . صحيفة لا تصدر باللاتينية مثل *Acta eruditorum* لفر ليبنج ، بل بالألمانية . صحيفة تجمع بين الهزل والجذ ، بين الخفة والرزانة ، تتعرض للكتب الجادة والكتب الفكاهة سواء ، صحيفة تزكيتها ذكرى أستاذ كان يجمع هو الآخر بين رجاحة العقل والميل إلى السخرية : إرازم Erasmus (١) . ظل يجادل حتى عام ١٦٩٣ ، حيث اضطر إلى مغادرة ليبنج : ولابد في حياة هؤلاء المعارضين من هذه العراقيل . فرحل إلى برلين . وكان ذلك في الوقت الذى اعتزم فيه فردريك الثالث تحويل مجمع النبلاء في هال إلى جامعة ، سنراها فيما بعد مركزاً كبيراً للنشاط الفكرى . ووجد كرسيتيان توماسيوس فيها مستقراً له ، بل أصبح رجل المؤسسة ، وخالفها الحقيقى وموجهها . وهنالك انشغل في البحث عن الشيطان .

ولشد ما كان نشاطه ! ولكم جمع من البراهين ، متخذاً بعضها من بيكر ومختاراً البعض الآخر ! لا الوقائع ولا التفسير الصحيح للكتاب المقدس ، ولا المنطق ولا العقل نفسه ، تسمح بترك خرافة مثل هذه باقية : ظهور الشيطان لرجل في صورة حيوانية أو بشرية ، ثم عقد ميثاق بينهما ، يستبدل فيها الساحر بروحه ، قدرة شريرة يؤثر بها على الأشياء والناس . وإنك لترى توماسيوس أحياناً يحتال : فهذه الصورة السخيفة ، مأثاتها الكتب ، كتب الدين . هناك رأى الكاثوليك الشيطان منذ الصغر في صورة وحش بشع ، ورآه اللوثرىون في صورة راهب ، قدسه ذات ظلف مشقوق ، وقرونة نافذة من قلنسوته . وقرأه حيناً يغضب ويحتد : كان المنتظر أن يتخلص الإصلاحيون البروتستانت من هذه العقيدة السخيفة ، بعد ما فعله لوثر ، وبعد تكذيب

(١) إرازم . عالم وفيلسوف وأديب هولندى ، ولد في روتردام في ١٤٦٧ ، مؤلف المحاورات الشهيرة *Colloques* ومدح الجنون *L'Éloge de la Folie* : وهو أعلم أدباء النهضة في العلوم اللسانية اشتهر لما بعد بفضل أسلوبه وفكره بلقب «فولتير اللاتينى» ومات في بال ١٥٣٦ . [المترجمان]

كل تلك الخرافات الرومانية واليابوية ، بيد أننا نجد لها لا تزال في اعتقاد العوام قائمة حية ، بل إنها بين البروتستانت ولاسيما اللوثرين سارية ، قوية .
 قيا للمشينة ! ولكن ليس الفيلسوف الذي يتكلم بحسب ، بل يتكلم أيضاً أستاذ القانون ، المحامي الذي دافع عن السحرة في القضايا الجنائية . ففي ساكس قوانين ، بل قوانين حديثة ، تعلن أن كل شخص يعقد ميثاقاً مع الشيطان دون مراعاة المسيحية ، يحكم عليه بالموت حرقاً ولو لم يسبب لأحد ضرراً .
 آه . . . ! فليحذر القضاة واللاهوتيون الألمان ، بفضل تقدم الفلسفة الديكارتية ، وبفضل تقدم المنطق ، الوقوع في خطأ يقود إلى الجريمة ! ولعل أكثر ملاحظات توماسيوس ابتكاراً ، تدخله العمل في هذا السبيل : فانه يقوم بالدفاع هنا ، في ميدان الواقع الملموس ، عن العدل والانسانية .
 وفي عام ١٧٠٩ ، وجد متعة في أن يرفض كرسيًا عرضته عليه جامعة لييج — التي تعض بنان الندم . ولقد استقر في هال ، وفي هال قضى السنوات الأخيرة من حياة طويلة ، وفي هال توفي عام ١٧٢٨ : الرائد المحيد لحركة التفسير الألمانية Aufklärung ، بطل الحركة الكبرى في سبيل النور .

**

ليس ضربة لازب أن نقب في أحماق الضمائر لكي نجد الخرافة ، المستعدة دائماً للطفو على السطح . إن المركيزة برانفليير La Brinvilliers والعرافة فوازان la Voisin (١) لم تكونا محترقتي تسميم بحسب ، بل عدتا أيضاً ساحرتين .
 وفي عام ١٦٨٠ قبض على الماريشال دي لوكسمبرج — من أكبر شخصيات فرنسا — وسجن : بتهمة عقد اتفاق مع الشيطان . ولم ينقطع الحديث عن المسوسين في لودون Loudun — وهي قصة قديمة — ولا عما يشبهها من أقاصيص .
 وفي عام ١٦٩٢ كشف المنجم جاك إيمار عن القتل بعصاه السحرية . وأصبح شهيراً يهدد بها مرتكبي الشرور واللصوص . وأخذ يستغل شخصيته ، فيقع في تشنج عصبى شديد : وانتهالت عليه الطلبات ، وأصبح موضع الفضول . ولم
 (١) المركيزة برانفليير : ماري مادلين دي برانفليير ، محترقة التسميم الشهيرة أعدمت وأحرقت في ميدان جريف ١٦٧٦ ، ولافوزان : عرافة ومحترقة تسمم انتشرت في حادثة التسميم المشهورة ١٦٧٢ وأحرقت حية في باريس عام ١٦٨٠ . [الترجمان]

إنكار المعجزة

١٧٩

يكن في ذلك الوحيد ، فانك تسمع عن أعمال مشابهة في تولوز وذيبي Dauphiné وبيكاردى والفلاندر ؛ فرجال الدين ، والأطفال والنساء يستخبرون المنجمين عن وجود الذهب والماء . وهل حدث ذلك في فرنسا وحدها ؟ كلا ، فقد حدث المثل في ألمانيا حيث يستعملون العصا السحرية في جبر العظام ، وأسو الجراح ، وإيقاف النزيف ؛ وفي بوهيميا أيضاً والسويد والمجر وإيطاليا وأسبانيا : « زاهوريس Zahuris هكذا كان الناس في أسبانيا يسمون أشخاصا معينين ، يزعمون القدرة على رؤية ما تحت الأرض من عروق الماء والمعادن والكنوز والجبلث ، بما لهم من بصر خارق . ولهم عيون شديدة الاحمرار . . . (١) » وفي مصر كانت هذه العصا السحرية « تصرف الماء من بطون الحيوانات المنتفخة » . وفي هذه الروايات كثير من الاختلاق . ولكن بما أنه في بعض الأحيان لا مجال للشك في أن هذه العصا تتحرك من تلقاء نفسها ، إذ لا سبيل إلى الاشتباه في صدق من يمسكها ، فقد نسبت هذه الحركات الاعجازية إلى فعل الشيطان . — كل هذا ولم نتعرض بعد لأنواع السحرة كافة ، ومستحضرى الأرواح والعرافات وقارئى الطالع . . .

ولكن يظهر للعقل السليم le bon sens رد فعل في كل مكان . فاذا سألت عن الكتب التي ظهرت في صف جاك إيمار أو ضده ، فاعلم أنها لا تختلف في كثير أو قليل عن حكاية السن الذهبية : « فبعد نشر كتاب أو كتابين صغيرين عن هذا الموضوع ، ألف فالمون Vallemont كتابا ثالثا في ستائة صفحة ، ليشرح حركة العصا السحرية على أساس الميكانيكا . ثم ناقضه م. ب من مجمع الأورأتوار ، مثبتا أن العصا لا يمكن أن تدور دون تدخل الشيطان . وأخيراً بعد هذه الكتب الطولية ، ثبت أن جاك إيمار كان مسعوذا وطرده . . . وأكثر ما يسر الفيلسوف في هذه الحكاية هو أن فالمون يؤكد في بداية كتابه أن قصة السن الذهبية التي سردها فان ديل قد جعلته حكيما ، وأنه لم يتناول المعجزة بالتفسير قبل أن يتحقق من صحتها ! » هكذا يسخر ديبو Dubos في رسالته إلى بايل في ٢٧ إبريل ١٦٩٦ . أما بروميت Brossette الذي شاهد الرجل الاعجازى بعينه ، والذي لا يزال متأثراً به حينما يفضى بما في قلبه

(١) بيير بايل : القاسوس ، باب زاهوريس .

لصديقه الحميم بوالو ، فيبدو على وشك التصديق « ليون - ٢٥ سبتمبر ١٧٠٦ -
 - رأيت بالأمس رجلاً أوقى صفات أو على الأصح مواهب طبيعية ليس من
 السهل تفسيرها . إنه جاك إيمار الشهير أو الرجل ذو العصا السحرية . وهو
 ريفي من سان مرسلان في دوفيني على بعد ١٤ مرحلة من ليون . وقد اعتاد الناس
 استدعاه إلى تلك المدينة للقيام ببعض الاكتشافات . وقد قال لي أشياء مذهلة
 عن قدرته في التنجيم ، من المنابع والحدود المنقولة والنقود المخبأة والأشياء المفقودة
 والقتلة والسفاكين . وشرح لي الآلام الشديدة والتشنجات العصبية التي
 يعانيها حينما يصل إلى مكان الجريمة أو يقترب من المجرمين . قال إنه يشعر
 في قلبه بمثل حرارة الحمى ، ثم يتقيأ دماً ثم يقع في حالة إغماء . وكل هذا يحدث
 دون أن يقصد البحث عن أي شيء كان ، وهذه التأثيرات تتعلق بجسمه أكثر
 من أن تكون نتيجة لعصاه السحرية . وإذا أردتم أن تشبعوا حب استطلاعكم ،
 فاني أستطيع أن أزيدكم وأرضيكم . . . » . كلا فان بوالو لا يتوق إلى
 الاستزادة ، وهو لا يتأثر بالوصف الذي أرسله إليه صديقه ، ويرد عليه في
 غلظة : « أوقى - في ٣٠ سبتمبر ١٧٠٦ - الحق يا سيدي العزيز ، أني
 لا أملك إلا أن أصارحك أني لا أتصور أن شخصاً لبقاً مثلك ، أمكنه أن يقع في
 مثل ذلك الشرك ، بتصديق لصاب سافل قام الدليل على دجله ، ولا يستطيع
 أن يجد الآن في باريس طفلاً ولا مربية تنازل بالاصغاء إليه . كان ممكناً أن
 يصدق الناس مثل أولئك النصايين أيام داجوير وشارل مارتل ، ولكن هل
 يمكن أن يهتم المرء بتلك الأوهام في عصر لويس العظم ؟ أو ليس هذا يعني أن
 سلامة الإدراك قد تكون ذهبت بذهاب ما أحرزنا من فتوح وانتصارات ؟ »
 - إن الإدراك السليم ، على العكس ساهر متيقظ . يقول ريشارسيمون « بلغني
 أن في باريس قوماً كثيرين يحترفون التنجيم ، ويحنون من مزاولته الريح
 الجيزيل . ولست أعجب لذلك . فان تلك المدينة الكبيرة تعج يشقى الأنواع
 والأجناس من الحمقى والمغفلين . فلا عجب إذا صدق الناس بالتنجيم (١) . »
 تلك هي الاحتجاجات الفردية لذوى العقل السديد . ولكنهم فوق ذلك
 يعملون على تأسيس منهج ، يخلص الأرواح من الخرافات ، ويهاجم العقيدة

(١) ريشارسيمون Richard Simon رسائل ... الجزء الثالث ص ٥١ .

إنكار المعجزة

١٨١

في نفس الوقت . وهو لا يهتم مطلقاً بالتمييز بين الفكرتين بل يخلط بينهما على الدوام . فالذنوب ليست نذيراً بأى ويل ، وأصوات الآلهة ليست إلا محض دجل ، ولم يسجل الله أوامره في عروق الحيوان ولم يأتى عليها الحمقى والمجانين . فإذا قصدنا بالسحرة ، النصايين والمرضى ، فهناك سحرة وإلا فلا . ولا عفاريت هناك ولا شيطان . ولا سلطة إلا وفوقها سلطة . ولا تقاليد دون كذب أو ضلال . ولا معجزة هناك فإن الطبيعة ليست شريكة في هذيان الإنسان (١) . ولا خوارق للطبيعة ، ولا سر يستغل على العقل : « هل تريد أن أقول لك بصفتى صديقاً قديماً ، منشأ تصديقك لاعتقاد شائع دون إصغاء منك لطائف الحكمة ؟ السبب أنك تعتقد أن في ذلك كله شيئاً إلهياً ... ، لأنك تنوهم أن الارتضاء العام لكل تلك الشعوب ، وعلى مر القرون ، لا يمكن أن يرد إلا إلى نوع من الإلهام ، Vox populi, vox dei (٢) ؛ لأنك اعتدت بصفتك لاهوتياً ألا تستعمل الاستدلال ، فور اعتقادك أنك أمام سر من أسرار الدين (٣) . »

(١) سبينوزا : مقدمة بحث لاهوتى سياسى ، *Tractatus theologico-politicus* .

(٢) صوت الشعب من صوت الله ، ومعناه أن الارتضاء الجماعى لشيء دليل على أنه

حق *Larousse : locutions latines* . [الترجمان]

(٣) بيير بايل : أفكار مختلفة - بمناسبة المذنب باب ٨ .

الفصل الثالث

ريشار سيمون وتفسير العهد القديم

كيف كان يمكن اجتناب التعرض للكتب المقدسة ، كان المنطق يقتضي أن يصلوا في النهاية إلى تجميعها وتقديمها ، فقد كانت تمثل السلطة العليا . وكان المتحررون يفيضون نشوة إذا اكتشفوا في تلك الكتب بعض التناقض . فمثلا : جاء في سفر التكوين أن آدم وحواء كانا أول الخلق البشري ، وأنهما ولدا طفلين : قايين وهابيل ، وأن قايين قام على هابيل أخيه فقتله . . . وقال قايين للرب « ذنبي أعظم من أن يحتمل ، فيكون كل من وجدني يقتلني (١) » كل من وجدني : إذن كان يوجد إذ ذاك أناس قبل آدم . وكان اسحق دى لايرير قد وجد هذا الكشف من قديم ، وكان أنصار فكرة وجود إناس قبل آدم Préadamites قد أصبحوا الأصدقاء الأعزاء لذوى « العقول القوية » .

لنقرأ الرسالة التي بعث بها أستاذ آداب في أكسفورد إلى نيبيل من لندن في عام ١٦٩٥ . لكل الشعوب الشرقية دون استثناء ، حتى العبريين ، خيال قصصى أسطوري . كما أن تاريخ الفرس ، والماديين ، والأشوريين ليس إلا مجموعة من الأساطير ، وكذلك العهد القديم . فإن التلمود يتضمن ملايين من الأقاصيص . وقد سبق العرب العبريين في ميدان الخيال والتشبيه ، ويثبت ذلك القرآن الكريم ، كما يثبت طوائف شعرائهم الذين انتقلت منهم إلى أسبانيا وولاية بروفانس فيما بعد ، عدوى القصص عن الفرسان المغامرين ، والردة والنقصور المسحورة ، ومختلف أنواع الفروسية . . . والخلاصة أن الكتاب المقدس : is altogether mysterious, allegorical and enigmatical وأن مرجعه

(١) نص سفر التكوين الاصحاح الرابع ، ٨ - ١٤ . [الترجمان]

ريشار سيمون وتفسير العهد القديم ١٨٣

إلى تلك الأفاصيص الشرقية ، التي ليست إلا فروضا رومانتيكية : Romantick hypotheses (١) .

ووجد البروتستانت الذين عكفوا على دراسة كلام الله ، وتخليصه من التفسيرات التي تجتمعت على مر الزمان ، أن تلك المهمة من الصعوبة بمكان . وقد نعو على الكاثوليك موقفهم السليبي تجاه العهد القديم ، بينما أخذ عليهم الكاثوليك اجترأهم المعيب . والواقع أنه تم من هذه الوجهة عمل تفسيري كبير ، ويقوم على ذلك الدليل ، في مؤلفات صامويل بوشارت Bochart القسيس والأستاذ في كان ، ومؤلفات لويس كابيل Louis Cappelle القسيس والأستاذ في سومير Saumur .

أما من جهة اليهود فقد قام سبينوزا ، عارضا منهجا لتفسير العهد القديم ، شبيها بالمنهج الذي يستعمل في دراسة الطبيعة ، وكان هذا نفس تعبيره ، ولعلك تدرك إلى أين كان ذلك المنهج يقود . ولما كان المقصد الأول لهذا المنهج وضع تاريخ صادق للظواهر والأحداث ، للوصول إلى تفسيرات صحيحة عن طريق وقائع أكيدة ، فلم يكن بد من توافر شرط أولى هو معرفة العبرية ؛ وهي مهمة صعبة التنفيذ إذ أن « النحويين العبريين لم يتركوا لنا شيئا عن أصول هذه اللغة وقواعدها » ، كما أننا « ليس لدينا قاموس ولا كتب نحو أو بيان عبرية »

ويقول سبينوزا إن الشرط الثاني ، هو أنه ينبغي علينا أن نحترم العهد القديم روحا ومعنى ، وأن نحاريه ، بدلا من أن نخضعه لأباطيلنا . — « والشرط الثالث واجب على العهد القديم ، وهو تعريفنا بما لقيت كتب الأنبياء من ظروف وحظوظ ؛ تلك الكتب التي احتفظنا بذكرها حتى اليوم ؛ وأن يبين لنا حياة وتعاليم صاحب كل كتاب ، والدور الذي قام به ، وفي أي زمن ، ولأي مناسبة ، ولن وفي أي لغة وضع الكتاب . وليس هذا بكاف ، بل يجب أن يبين أيضا نصيب كل كتاب على وجه التحديد ، وأن يوضح لنا بأي طريقة جمع ، وفي أي يد — على التوالي — وقع ، وأي دروس وجد النام فيه ، ومن

(١) بحثان مرسلان في خطاب من أكسفورد إلى نيل في لندن . الأول يتعلق ببعض الأخطاء عن الخلق والطوفان ، وتعمير العالم بالسكان ، والثاني يتعلق بنشأة الأساطير والروايات الخرافية ، وتقدمها ثم انعكاسها . كتبها (L. P.) أستاذ الآداب في لندن ، ١٦٩٥ .

الذي رفعه إلى منزلة الكتب المقدسة ، وأخيراً كيف جمعت كل تلك الكتب في كتاب واحد ... (١) »

والكاثوليك أنفسهم ألم يكن بينهم جان دي لونوى Jean de Launoy وكاشف القديسين ، وماييون Mabillon العالم الذي يجيد نقد النصوص ؟ حتى الأب فلورى Abbé Fleury « مؤلف تاريخ الأكليركية » كان ينقح حياة العذراء والحواريين مما يشوبها من أساطير : فهكذا كان روح ذلك الوقت . إلا أن كل هذه الاتجاهات لم تتركز إلا بظهور رجل اجترأ على ذكر ألفاظ بسيطة ، لكنها قطعية حاسمة ، مثلاً يأتي « أولئك الذين يحترقون النقد ، ليس عليهم إلا أن يشرحوا المعنى الحرفي لما ينقدونه ، وأن يتفادوا كل ما لا يجدي في تحقيق هدفهم (٢) » .

**

ويظهر ريشار سيمون ولشركتابه « تاريخ نقدي للعهد القديم » *Histoire critique du Vieux Testament* في عام ١٦٧٨ ، اتضح ما للنقد من قدرة ونفوذ .

وكان لفظ « نقد » Critique اصطلاحاً فيها كما ذكر ريشار سيمون في مقدمة كتابه : « أما ، ولم يظهر بالفرنسية شئ في هذا الموضوع بعد ، فلا تعجبوا إذا رأيتوني أستعمل في بعض الأحيان غير المؤلف من التعابير ، فلكل فن تعبيرات تخصه ، يضعها موضع التقديس . وفي هذا المعنى مستجدون في هذا المؤلف بكثرة كلمة « نقد » وما هو منها بسبيل ، وجدت ألا مفر من استعمالها ، لكي أعبر عن آرائى بتعابير الفن الذي عالجته . زد على ذلك أن العلماء اعتادوا استعمال تلك التعابير في لغتنا . فإذا تكلمنا مثلاً عن كتاب كابيالى Cappelle الذي نشره تحت عنوان *Critica Sacra* ، وعن تفسيرات الكتاب المقدس المنشورة في إنجلترا تحت عنوان *Critici Sacri* ، قلنا بالفرنسية *la critique de Cappelle, et les critiques d'Angleterre* .

(١) بحث لاهوتي سياسي ، الفصل السابع .

(٢) ريشار سيمون : تاريخ نقدي للعهد القديم ، الجزء الثالث الفصل ١٥ .

Histoire critique du Vieux Testament, t. III, chap. XV.

وهذا الفن الخاص الذي يهدف إلى ألا يقتصر استعماله فيما بعد على العلماء بل ينبثق بكل جلاله ليعم الجميع ، يكمن هدفه فيه نفسه : إنه يبين درجة الوثوق ، ومدى الصحة في النصوص التي يتناولها بالدراسة والتحقيق ، ولا وزن عنده لكل غريب عنه ، كمرعاة نواحي الجمال والأخلاق والابتلاء عليها . فاذا تناول بعض الكتب المقدسة بالدراسة فهو يتجاهل اللاهوت الذي لا يقع في اختصاصه بأي صفة من الصفات ، فلا هو يهاجمه ولا هو يدافع عنه . وهو يرى أنه لا يختص بالحكم على النص ، فلا سلطة تستطيع أن تجعل من النص شيئاً خلاف ما هو عليه بالضبط . فاذا رأينا فقرة تخالف عقيدة دينية ، وثبتت صحة الفقرة فالمعول على نص الفقرة لا على العقيدة . فمبادئ النقد واحدة لا تختلف سواء تعلق الأمر بالياذة هوميروس أو إناييد *Enéide* فرجيل أو التوراة ، فهي ترفض الأولية *a priori* ؛ وفور وجوده أمام كتابة سواء نقشت على حجر أو سطرت على قرطاس أو خطت على ورق ، فهو السلطان المطلق ، السيد الوحيد على أعماله الذاتية .

فالنقد يقوم على الفيلولوجيا (فقه اللغات) : الذي ينقلب من مسود إلى سيد . ولو استطاع ريشار سيمون أن يؤيد من مملكة الظلام ما قاله رينان *Renan* عن مقام الفيلولوجيا الرفيع لأينه ، لأن هذا كان رأيه . أراد ريشار سيمون أن يكون ناقداً وفيلولوجياً ؛ كما أراد علماء التاريخ من قبله أن يكونوا نقادا . فقد زعموا هم أيضاً أنهم لا يعرفون إلا مادة الفن ، وحسبان الزمن : ولكنهم ريعوا أمام اكتشافاتهم . أما أكثر ما كان يعوزهم فهو وعيهم بالانقلاب الذي أزمعوا إحداثه . وعلى كل حال فانهم لم يتغلغلوا إلى أعماق النصوص المقدسة . من جهة النقد ، كان جروسبيوس ناقداً ، في تعليقاته وحواشيه عن تفسير العهد القديم والعهد الجديد ، ولكنه لم يلتزم جادة التدقيق إذ خرق القانون الذي التزم به من ناحيتين . فهو من جهة قد استشهد بالوثنية القديمة التي لا محل لها في هذا المقام ، وهو من جهة أخرى أسلس قياده لأرائه الشخصية : فهو بصفته أرمنييا ، سوسنيانييا قد اختار خير تفسير للنص ، ولكنه في نفس الوقت التفسير الذي يقيد أتباع أرمنيوس وسوسان . وكان سبينوزا أيضاً ناقداً ، بحيث يصعب ألا نرى فيه سلف ريشار سيمون المباشر . صحيح أن هذا الأخير يناقشه ويناقضه في استنباطاته ، ولكن بذلك النوع

من الاحترام والتوقير الذى يكنه المرء دائماً لأستاذ كبير . « لا تنعوا على أن هذا أسلوب مابينوزا الكافر ، الذى ينكر كل الانتكار ما ورد فى الكتاب المقدس من معجزات . دعوا هذا الاعتقاد الباطل الذى يسيء البعض استعماله اليوم . إنما ينبغى إدانة النتائج الكافرة التى يستخلصها مابينوزا من بعض المقولات التى يفترضها . أما هذه المقولات نفسها فليست دائماً باطلة ، ولا تستحق الاطراح (١) » . ولم يكن مابينوزا ، ذلك المخترع العبقرى ، عالماً متضلعا من الفيلولوجيا ، وقد عانى القسم البنائى من تفسيره ذلك النقص ، فقد ترك متافيزيقاه تطنى على علمه .

كان النقد يصل مع ريشار سيمون لأول مرة إلى نقاوته وإلى صراحته المستقلة . لا الفلسفة ولا العقيدة تؤثران على أحكامه ، ولا يهتم إلا بالخطوط والمداد والكتابة والأحرف والعلامات المختلفة . إن العلم اللادينى يرفض الاعتراف بالسلطة المقدسة .

كان رجلاً قميئاً ، دميماً ، ذا صوت حاد رفيع كصوت النساء ، لا تلوح عليه مخايل الذكاء : « لا نستطيع أن نقول عنه ما قيل عن بعض الآخرين وهو أن الطبيعة قد كتبت على وجهه أوراق الاعتماد . » ولم تكن الطبيعة قد حابته من ناحية المولد أو المال ، فقد كان ابن حداد فقير من أهل ديب . ولكنها حبته شغفا بالبحث والدرس ، وعقلاً ذا صفاء وسداد ، وعزيمة لا تغلب ولا تنقاد ، وأمدته فى نفس الوقت بحظ وافر من المرونة والعناد . درس الفلسفة والعلوم الانسانية فى « أورأتوار » ديب Dièppe ، واعتزم الانخراط فى سلك الرهبنة ، ملتزماً بذلك الطريق الطبيعى ، وأرسل إلى باريس للتمرين . وأوشك أن يترك الجمعية « يسبب تقزز لم يستطع أن يتحملة » ، وكاد يقع بعد أن ارتفع ، لولا أن أغاثه رجل غنى هو الأب دى لاروك ، فهباً له مبل العودة إلى باريس ليم دراسة اللاهوت . وفى باريس استشعر ميوله وقرر مستقبله . لم يكن يميل أبداً إلى دراسة العلوم الانسانية ، ولم يكن مدرسياً قط ، بل

(١) رسائل منتخبة : طبعة ١٧٣٠ ، الجزء الرابع الرسالة الثانية عشرة .

بالعكس اجتذبه العلم العميق ، بل أقله شيوها وأصعبه ؛ فقد توفر على دراسة العبرية .

وعندما اندرج في جمعية الأوراتوار في عام ١٦٦٢ ، سمحوا له بمواصلة هذه الدراسة . وهنا نجد حكاية من الحكايات التي تجدها دائما تجلجل مثل هذه الحياة ، وتجعل لها معنى رمزيا . فقد غضب أصدقاؤه إذ وجدوا غرفته تقص بكتب الاتحاد ، مثل الكتاب المقدس المكتوب في لندن بلغات شتى *la Bible polyglotte* ، بجانب كتب نقد مختلفة عن النصوص المقدسة ، فأبلغوا عنه . وعندها اتضح أن ريشار سيمون كان له شريك : مدير المؤسسة بالذات ، الأب بيرتاد الذي كان يقرأ معه كل يوم أصول الكتاب المقدس ، والذي برغم الستين التي سلخها من عمره جعل من نفسه تلميذا لذلك الأستاذ الصغير . فكان هذا لريشار سيمون يوم النصر الكبير .

ولعل أسعد حقبة في حياته ، تلك الأيام التي قضاها في مكتبة الجمعية بشارع سانت أونوريه ، ليضع بيانا عن الكتب الشرقية التي تملكها الجمعية . فأن يوسع مداركه الفيلولوجية ، ويصل إلى المصادر مباشرة ، ويجد خير الأساتذة بل أفضلهم في الحقيقة في متناوله ، ذلك متعة أي متعة ! وهو لم يقتنع بمطالعة يومية للمطبوعات والمخطوطات ، بل عرف بعض اليهود الربانيين ولا سيما يوحنا سالفادور الذي قرأ معه العهد القديم . وفي عام ١٦٧٠ - العام الذي عين فيه قسيسا - كتب بناء على رجائه مقالا يدافع فيه عن قضية يهود ميتز Metz ، المتهمين بارتكاب جريمة قتل شعائرية .

كان يقول : إذا أردتم أن تبحروا خلال المحيط العبري الرباني ، فاخترأوا ربانا اعتاد ذلك السفر الشاق الطويل . ولقد طال سفره سنين ، ولم يغفل شيئا يجعل السفر مستقيا سائرا ، فاطلع على كل الخرائط وتطلع إلى كل النجوم . استفاد من إرادته والتجأ إلى كل مزاياه ؛ وضوحه ، إذ كان بمقدوره أن يبدو واضحا حتى في موضوعات النحو والصرف الشائكة ؛ ورجاحة عقله وسلامة إدراكه وذكاؤه ودقته (١) . واستمد معلوماته من علمه الغزير العميق

(١) كل هذه تعبيرات ف. سبانيم F. Spanheim ، في رسالة إلى صديق ، بها تعليق عن كتاب عنوانه « تاريخ نقدي للعهد القديم » نشرت في باريس عام ١٦٧٨ .

ولاسيما علمه عن اليهود ؛ وأخيراً وجد نفسه مستعداً لكي يعرض على الجمهور مؤلفه « تاريخ نقدي للعهد القديم » .

« أولاً ، من الحال أن ندرك تمام الإدراك معاني الكتب المقدسة ، قبل أن نعرف الحالات المختلفة التي وجدت فيها نصوص تلك الكتب حسب مختلف الأماكن ومختلف الأزمان ، وقبل أن نعلم تمام العلم كل ما طرأ على هذه الكتب من تغيرات . . . » وهنا يبين المبدأ والقاعدة الأساسية لمنهجه ، وهو يكررها ويصر عليها قدر ما يستطيع . « إنني مقتنع بأنه لا ثمرة ترجى من قراءة الكتاب المقدس ، ما لم تكن عالين من قبل ، ما يتعلق بنقد النصوص . » هالك مثالا واحداً عن أهمية الفيلولوجيا : احذف كلمة واحدة ، حرف عطف بسيط مثل حرف « و » الذي يلوح كأنه لا أهمية له في ذاته ؛ فإذا بك تحبذ إلحاداً . يتبدى الفصل الثالث من إنجيل لوقا هكذا : « و » في السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس . . . إن ذلك يفترض وجود قصة سابقة ، مادام الحرف (و) الذي يفيد العطف عند النحويين ، يدل على صلة حتمية بشئ سابق . قل بعكس ذلك : « في السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس . . . » تجعل للملحدين القدماء عذراً في زعمهم بأن الفصلين الأولين أضيفا فيما بعد إلى الإنجيل القديس لوقا . ومن باب أولى ، فإن العهد القديم الحافل بصعوبات لا يمكن أن يفكر في وجودها غير المتفهمين ، يستحيل أن ندركه إلا إذا عرفنا هذه القواعد ، وإلا إذا كانت تحذونا هذه الروح .

فلنتناول الكتاب المقدس ولنعالجه دون أية فكرة مبتسرة : فكيف يتراءى لنا حينئذ ؟ هل يمكن أن نعلم كلمة الله ، أوحيت مباشرة وسجلت كتابة وانتقلت إلينا في حالتها الأصلية ؟ يجيب ريشار سيمون على ذلك بأنه ينتج من الفحص والتحقيق أنه ما من شك في أن النصوص المقدسة فيها معالم التحريف والتغيير ، وفيها إبهام وصعوبات ، من جهة التواريخ وأن في بعض قصصها تبدلات غريبة في المواضع يمكن انطباقها على فصول بأكملها . علينا إذن أن نرجع إلى الوقت الذي كتبت فيه هذه النصوص ، وأن نحاول معرفة المدنية العبرية وتفهمها . من هم الأنبياء ؟ — كتاب ؛ كتاب عموميون كانت مهمتهم تجميع وثائق الدولة بأمانة ، وحفظها في سجلات مخصصة لهذا الغرض . « إذا كان أولئك الكتاب العموميون موجودين في الجمهورية العبرية منذ أيام موسى ، وهذا

واقف الاحتمال ، فانه يسهل الرد على كل محاولة لاثبات أن التوراة ليست لموسى . وذلك ما يشبهه الناس عادة ، بالشكل الذى كتبت به ، الشكل الذى يوحى بأن أحداً آخر غير موسى هو الذى جمع التقارير وكتبها . وبفرض وجود هؤلاء الكتاب ، ننسب إليهم كل ما يتعلق بتاريخ هذه الكتب ، بينما ننسب إلى موسى كل ما يخص الأحكام والقوانين ؛ وهذا ما يسميه الكتاب المقدس شريعة موسى . « ولما كان هؤلاء الأنبياء أو الكتاب لا تقتصر مهمتهم على تجميع التقارير عما يحدث في زمانهم وحفظها في « السجلات » ، بل كانوا في بعض الأحيان يصوغون التقارير التي جمعها أسلافهم في شكل جديد : فانه يمكننا أن نفسر ما يوجد في الكتب المقدسة من صنوف الاضافة والتغيير . وبالمثل ، إذا كانت تلك الكتب لا تخرج عن كونها مختصرات لمذكرات أطول وأوسع ، فلا عجب إذا لم نستطع وضع تواريخ مضبوطة أكيدة عن الكتاب المقدس . فمن السخف مثلاً عدم الاعتراف بوجود ملوك للفرس غير الذين يذكرهم الكتاب المقدس ، واحتساب الزمن طبقاً لتابعهم ، مادام الكتاب لم يذكرها إلا ما تعلق باليهود ، بينما نجد عند المؤلفين الجاهليين إشارات إلى ملوك آخر عديدين ، ولذلك كان لديهم تاريخ أوسع وأقدم . وأخيراً فلنفكر في عوادي الزمان ، وفي إهمال الناقلين ، ولنتخيل الظروف المادية التي كتب فيها أولئك الآخرون . « لما كانت النسخ العبرية قد كتبت فيما سبق على لفائف أو قراطيس وضع بعضها فوق بعض ، تكون كل منها مجلداً ، فقد حدث بتغيير ترتيب هذه اللفائف بطريق المصادفة ، أن تغير أيضاً ترتيب الأحداث والأشياء . »

والخلاصة أن ريشار سيمون يشرح أفكاره ببساطة محسوسة ، وبقوة ملموسة ، حتى إن اللاذبيين وقد هالم في أول الأمر تغلغلهم وراءه في عالم غامض مقدس — يصغون لقائدهم بأذان واعية : إنه يجيد فن إضفاء مظهر البدهة المنطقية على شرح الواقع الملموس . وعلى كل حال فقد رفض أن يتكلم في لغة اللاهوتيين ، بل أراد أن يكتب « تاريخه النقدي » في فرنسية جيزة قوية . فان اللاتينية لا تكفى إلا للمناقشات بين المفسرين والشرح ؛ أما التطور العام للنصوص المقدسة فيجب أن يظهر أمام كل الأبصار .

إن طباع الشخصيات العظيمة التي درسناها حتى الآن لبسيطة نسبياً . إنهم ثوار بالفطرة . وهم لا يتنفسون في يسر إلا في جو المعارضة . أما سيكولوجية ريشار سيمون فمعقدة . فهو قسيس كاثوليكي لا يعلن إخلاصه لصرامة العقيدة لحسب ، بل لروح الكنيسة أيضاً ، حتى إنه لما أدانته الكنيسة ، جاهد ليثبت أنها في قرارها هذا مخطئة .

وذلك لأنه يدعى التمسك بالدين . والواقع أنه لم ينكر الوحي ، بل هو يمتد به إلى أولئك الذين تناولوا الكتب المقدسة بالتغيير . وهو يعلن أن الله ، بعد اتصاله بموسى ، اتصل أيضاً بالكتاب والمؤرخين الذين تناولوا لصوص شريعة موسى بالتغيير على مر العصور . فإن أصحاب التغييرات الواردة في الكتاب المقدس « بما لهم من حق في كتابة الكتب المقدسة ، لم أيضاً الحق في إصلاحها وتغييرها . » فالأنبياء والكتاب العموميون ما زالوا مفسرين لكلام الله . فتلك التغييرات المتتالية الإنسانية من وجهة التنفيذ ، وإلهية من جهة الوحي . إن كتاب لصوص الكتاب المقدس ، قد وكلوا من قبل الله بإدخال هذه المهمة المقدسة التي بدأت في عهد موسى واستمرت على مر السنين . والشعب العبري هو شعب الله المختار ، بشكل صريح لا شك فيه . « وفي هذا تختلف جمهورية العبريين عن كل دول العالم الأخرى ، في أنها لم تعترف أبداً برئيس غير الله وحده ، الذي تولى حكمها بهذه الصفة حتى في الأزمان التي خضع فيها العبريون للوك . وذلك منشأ اكتسابها لقب الجمهورية الإلهية المقدسة ، واكتساب شعوبها صفة القداسة ، لكي تتميز بهذا اللقب المجيد عن بقية الشعوب . ولهذا السبب عينه وهب الله بنفسه قوانين — عن طريق موسى وغيره من الأنبياء الذين تبعوه — لشعب اختاره ليكون شعبه الخاص » (١) . ولينكر الآخرون قيمة التقاليد ، أما هو فعلى النقيض سيدافع عنها . ليس صحيحاً أن الكتاب المقدس واضح على الدوام ، ولا أنه تكفى قراءته لكي

(١) تاريخ نقدي للعهد القديم ، الكتاب الأول ، الفصل الثاني ، *Histoire critique du*

Vieux Testament

مجد فيه كل أوامر الله ونواهييه . فالتقاليد مكتملة له لا غنى عنها ، وهي لازمة لشرحه وتفسيره . إن « التاريخ . النقدي للعهد القديم » يصر على تأكيد قيمته . — « سترون في هذا الكتاب أننا إذا فرقنا بين قاعدة القانون وقاعدة الواقع ، أى إذا لم نجتمع بين الكتاب المقدس والتقاليد ، فقد لا نستطيع أن نؤكد شيئاً وثيقاً في الدين . ولا يعنى إشراكنا كلام الله مع تقاليد الكنيسة إنكاراً لفائدته : مادام الذى أحالنا إلى الكتب المقدسة ، هو الذى أحالنا أيضاً إلى الكنيسة ، التى سلمها تلك الأمانة المقدسة (١) : » ثم يستطرد ريشار سيمون : ليشرح أنه قبلما يكتب موسى القانون ، لم يكن الأنبياء القدماء يحتفظون بصفاء الايمان إلا بفضل التقاليد ، وأنه بعد موسى كان اليهود يستشيرون مفسرى هذا القانون فيما يستغلط عليهم من صعاب : ثم هاكم أيضاً ما حدث بالعهد الجديد : كان مذهب الانجيل قد تأسس في عدة كنائس قبلما يوجد منه شئ مكتوب ، وقد حفظ هذا الكلام غير المكتوب واستقر في الكنائس الأساسية التى أسسها الخواريون : حتى إن كبار رجال الكنيسة — مثل القديسين إرنيبه وترتوليان Saint Irénée et Tertullien — استشهدوا به في نزاعهم ضد الملحددين بدلا من أن يلتجئوا إلى « كلمة الله » المسجلة في الكتب المقدسة . كما استشهد الأساقفة في المجامع les conciles بتقاليد كنائسهم لشرح الفقرات الغامضة في الكتاب المقدس . — « لذلك ، أصدر آباء « مجمع ترانت (٢) » أمراً حكيماً بعدم جواز تفسير الكتاب المقدس « ضد رأى الآباء الموحدين » : وفضلاً على ذلك فقد اعترف هذا المجمع بالتقاليد الصحيحة غير المكتوبة ، وزودها بسلطة تعادل سلطة كلام الله الذى تتضمنه الكتب المقدسة ، لأنه افترض في نفس الوقت أن تلك التقاليد غير المكتوبة مصدرها السيد المسيح ، الذى أوصلها إلى الخواريين ، وأنها بعد ذلك وصلت

(١) تاريخ نقدي للعهد القديم ، مقدمة المؤلف .

(٢) مجمع ترانت : Concile de Trente ١٥٤٥ - ١٥٦٣ . جمعية من الأساقفة اجتمعت في مدينة « ترانت » بالنمسا حيث قررت إصلاحاً عاماً في الكنيسة الكاثوليكية . ولقد اجتمع هذا المجمع أولاً في مدينة « مانتو » في إيطاليا ، بأمر البابا بولوس الثالث في عام ١٥٤٧ ، ثم في مدينة Trente بالنمسا في عام ١٥٤٥ ، وتم عمله في شهر ديسمبر ١٥٦٣ . في حكم البابا بيوا الرابع PIE IV . أنظر في هذا الصدد فولتير ، القاسوس الفلسفي ، فصل المجامع . Voltaire, Dict. Phil. chap, Conciles. والبيان رقم ١٠٠ في نهاية الكتاب . [المترجم]

إليتنا . ويمكن تسمية هذه التقاليد ملخصاً للدين المسيحي ، الذي تأسس في بداية المسيحية في الكنائس الأولية ، مستقلاً عن الكتاب المقدس » وعلى أساس هذه البيانات القاطعة ، يهاجم ريشار سيمون البروتستانت كالعاصفة . فالبروتستانت باستنادهم على الكتاب المقدس وحده ، لا يستندون في نفس الوقت إلا على نص زاهر بمواضع النقص والتغيير ؛ ويرفضهم الاعتراف بالتقاليد ، يرفضون في نفس الوقت عون « الروح » التي سبقت ولازمت ووضحت هذه النصوص الغامضة . فيأخذ في مجادلات عنيفة ضد إسحق فوسسيوس Isaac Vossius قسيس وندسور ، وجاك باناج Basnage القسيس برون Rouen ثم بروتروام . ويخص أتباع سوسان برعده الشديد لحسابهم أن التقاليد لا قيمة لها ولا وجود ، بل إنهم يدعون جزءاً من الكتاب المقدس نفسه لكيلا يؤمنوا إلا بما يعجبهم الايمان به ، ولكي يعتقدوا ببعض العقائد التي يقبلها العقل الشامل ، ولا شيء غير ذلك . وهو في هذا المعنى يبدو كمدافع عن الكاثوليكية . أجل في هذا المعنى . ولكن من ذا الذي لا يرى هنا ما في استدلاله من عيب وقصور ، وكيف ينتقل من قيمة إلى قيمة أخرى تختلف عنها في النوع ؟ فأولا ، لنصوص الشريعة الموسوية لغطيتها طبقات تراكت على التتابع ؛ وذلك عنده أمر واقع . وثانياً ، المؤلفون الذين بدلوا نص القانون استمروا يعملون بوحى من الله مهما تبعناهم بعيداً ؛ وذلك ليس أمراً واقعاً ، بل اعتقاداً أو تفسيراً . فنجد من جهة ظاهرة تاريخية يمكن إثباتها بالعلم ، ومن جهة أخرى عقيدة تستند على الايمان . ونستطيع ، من وجهة نظر خارجة عن دائرة الايمان ، أن نقنع بالنظرية الأولى دون أن نقبل الثانية . نستطيع باستدلال غير ديني ، أن نقبل أن الكتاب المقدس حافل بآثار من فعل الانسان — كما أراد هو أن يثبت — دون أن نقبل أن اليهود الذين بدلوا النص القديم ظلوا معبرين عن الفكر الالهى ، وهذا ما يضيفه على أساس اعتقاد شخصي ، دون إثبات واقعي . إن ريشار سيمون يخرج عن دائرة النقد والفيلولوجيا التي سبق أن بين حدودها وقواعدها تبياناً حاسماً صارماً .

وإنك لتستبين هذا الخروج ، من شرحه لأفكاره في مقدساته ؛ ولكننا لو تبعناه في تفاصيل كتابه « التاريخ النقدي » لتضح لنا إلى أى حزب يقوده الميل الطبيعي لذهنه . أنظر إليه يفسر التوراة : إنه يصر على إثبات

أن موسى يستحيل أن يكون كاتبها الوحيد . فانها تحتوي على بيانات وحكم وأمثال وأشعار لغتها وأسلوبها لاحقة على موسى - وإنها تتضمن رواية أحداث لاحقة على موسى : « فهل يمكن القول - مثلاً - بأن موسى هو مؤلف السفر الأخير (تشنية الاشتراع) الذي يذكر فيه موته ودفنه ؟ (١) » - والتوراة تتضمن أيضاً كثيراً من الأقوال المكررة ، مثل « وصف الطوفان كما هو في الفصل السابع من سفر التكوين » . « فقد ورد في الآية ١٧ : وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض . وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض . ثم ورد في الآية ١٨ : وتعاضمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض . فكان الفلك يسير على وجه المياه ، وفي الآية ١٩ : وتعاضمت المياه كثيراً جداً على الأرض . فتغطت جميع الجبال الشاخطة التي تحت كل السماء . وهو ما يتكرر في الآية ٢٠ : خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاضمت المياه . فتغطت الجبال (٢) . هناك احتمال كبير ، أنه لو كان كاتب واحد قد ألف كل ذلك الكتاب ، لكان عبر عن أقواله بكلمات أقل بكثير ، ولا سيما في حكاية واحدة ... » ويواصل ريشار سيمون عمله ؛ فترى أى تأثير يتركه في القارئ إذا ما انتهى ؟ أن قصة الكتاب المقدس عن خلق الكون لا اتساق فيها ولا انسجام . وأنها كتبت في أزمان جد مختلفة وبأياد لم تؤت المهارة ولا الأهمية . وأنها على الأقل اعترافاً كثيراً من التبديل ، وفي غير حذق حتى أصبح من المستحيل أن يميز كاتبها الأصيل . فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة فأى جدوى في الالتجاء إلى التقاليد ؟

لذلك فإن ريشار سيمون في فحصه تلك التقاليد يحدوه روح النقد الخالص ، ولا يحدوه روح الإيمان على الإطلاق . فلنتبعه أيضاً في عمله هنا ، ولننظر عن كثب كيف يأخذ في دراسة القديس أوغسطين (٣) . يحتل هذا القديس

(١) التاريخ النقدي .. الجزء الأول ، الفصل الخامس .

(٢) نص الآيات من سفر التكوين ، الفصل السابع . [الترجمان]

(٣) القديس أوغسطين ؛ من آباء الكنيسة في القرن الخامس . لاهوتى وفيلسوف شهير . صاحب « الاعترافات » و « مدينة الله » . كان يريد أن يوفق بين الفلسفة اليونانية والعقيدة المسيحية ، وأن يثبت الاتصال بين الحكمة والإيمان . ترك تأثيراً عميقاً على مابراتس الذى كان مشغولاً بدراسة فلسفته ، وقد وصل فلسفته إلى القرن الثالث عشر القديس « توما الاكوينى » ناقلاً أفكار ابن رشد فيلسوف الاسلام عن « الاتصال بين الحكمة والإيمان » . [الترجمان]

الكبير مقاماً ممتازاً في نقد الكتاب المقدس برجاحة عقله وصلابة حكمه . « لقد نوه أحسن التنويه في مؤلفاته عن العقيدة المسيحية ، وفي مواضع مختلفة في كتبه ، بالصفات اللازمة لتفسير الكتاب المقدس خير تفسير . » — إلا أنه « لما كان متواضعاً فقد اعترف بأن أغلب هذه الصفات كانت تعوزه » ؛ وأنه أظهر من الدقة في تفسيراته نزراً يسيراً . — ونظراً لجهله اللغة العبرية فقد اعترف بأن كتابه عن سفر التكوين رداً على الزنادقة المانويين (١) ، Manichéens كان فوق طاقته ؛ « ولم يجادل حتى من أن يعيب العمل الذي قام به على عجل ، ودون استعانة بالصفات اللازمة لتفسير الكتاب المقدس خير تفسير . » — فهو بدلاً من أن يبحث في المعنى الحرفي ، « لا يتوسع إلا في المعاني المجازية ، البعيدة عن تاريخ النص وعن الحرفية » . — « وبما أوتي من ذهن وقاد نفاذ ، فقد كان يسيراً لديه أن يجد مواضع الصعوبة والغموض في الكتاب المقدس ، حتى كشف بعضها في مواضع تبدو أبعد ما تكون عن كل صعوبة وغموض . ولكنه لم يكن كثير الممارسة لهذا النوع من الدراسة حتى يمكنه أن يقدم حلولاً واضحة ، ترضى القراء » — « وفضلاً عن ذلك فقد كان متشبعاً ببعض الاعتقادات المتسرة عن الفلسفة واللاهوت ، يحشو بها كل مؤلفاته . . . (٢) » . ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما بقي — ولنضيف فقط أن ريشارسيمون يجد متعة خبيثة في إيقاع القديس أوغسطين في مجادلة مع القديس جيروم ، ولنتساءل بعد ذلك عن الفكرة التي يمكن أن يكونها القارئ غير الديني عن مقدرة القديس أوغسطين ونفوذه .

وسرعان ما يرجع ريشارسيمون إلى النقد والفيلولوجيا ، فهما مصدر وحيه وإلهامه . إنه يفكر في أعماق كيانه أن لا شيء يقف أمام « الأدلة البيئية » ، وعلى الأخص حلس « رجال الدين المتعصبين المستنيرين » . إن القول بأن « روحاً خاصاً » أو « هاتفاً في القلب » « يكشف لنا عن أخفى الحقائق في

(١) المانويين Manichéens : الزنادقة أتباع مائيس وهو مذهب ظهر في القرن الثالث بعد الميلاد . ويشرح مائيس وجود الخير والشر كما يشرحه زرادشت : بنسبة الخلقية إلى مبدئين أولهما الخير وهو الله ، أي الفكر أو النور ؛ وثانيهما جوهر الشر وهو إبليس أي المادة أو الظلام . (مبدأ الثنائية في الخلق) . [الترجمان]

(٢) الجزء الثالث — الفصل الخامس .

يجعلها أحد : فقد كان لدى الكنيسة ، منذ أول عصور المسيحية ، علماء توفروا على تصحيح الأخطاء التي تسربت إلى الكتب المقدسة من حين إلى حين . وهذا العمل الذي يتطلب معرفة تامة بالكتب المقدسة ، وبحسب عميقا عن النسخ المخطوطة ، يسمى « نقدا » . لأننا نقدر أفضل الدروس التي يجب أن يحتفظ بها في النص . فكلمة « نقد » لفظ فني مخصص للمؤلفات التي يدور فيها الفحص في مختلف الدروس لتوطيد أحققها . ولأن يجهل الناس هذا الفن في العصور التي خيمت فيها البربرية على ربوع أوروبا ، هذا محتمل ؛ أما أن يحترق اليوم ، فهذه إهانة لا تغتفر . اليوم ينبغي أن ننسب إلى النقد الدور الذي نسبته الناس إلى اللاهوت فيا سبق . . . تخيل كيف كان غضب اللاهوتيين حينما سمعوا كلمات مثل هذه . كتب أرنو إلى بوسويه في يوليو ١٦٩٣ رسالة يقول فيها « حسب أقوال هذا الناقد لا يجب أن تتبع إلا قواعد النحو ، وليس اللاهوت أو التقليد لكي نحسن شرح العهد الجديد ! . . . عندي أنه لا شيء أكثر من ذلك يفيد أشياح سوسان Sociniens (١) »

وأخيراً ظهر المؤلف الكبير ، « العهد الجديد للسيد المسيح ، مترجما عن النسخة اللاتينية القديمة مع ملاحظات » : ظهر في تريفو Trévoux عام ١٧٠٢ . وكانت ترجمة لا ديدن لها إلا الاعتماد على النص ، والرجوع إلى النص ، وبيان المعنى الحرفي للنص ، بالرغم من التفاسير التقليدية التي يقول عنها ريشار سيمون إنها لا تعدو كونها تفاسير بل أخطاء ومعاني معكوسة ومع ذلك فقد انتحلت سلطة القانون . كانت ترجمة نقدية ، إذا أمكن القول ، تعمل في حواشيتها المقارنات التي أوجتها لريشار سيمون معرفته للغتين اليونانية والعبرية . « على كل حال ، لما كنت لا مقصد لي من بياناتي إلا شرح المعنى الحرفي للأناجيل وكتب الحوارين ، فلا ينبغي أبداً البحث فيها عن ذلك » التصوف « cette mystiquerie » الذي لا يتذوقه إلا قليلو البصيرة والادراك من الناس . المعنى ولا شيء غير المعنى الحرفي : « وإلا أكثر وقوعنا في تلك الرطانة الأعجمية التي يسمونها روحانية . » — ولقد حرمت هذه الترجمة .

(١) أرنو إلى بوسويه ، يوليو ١٦٩٣ ، Arnauld à Bossuet .

* * *

لا ينبغي أن نجعل من ريشار سيمون رومانتيكيا ، ولا أن نلطف خلقه ، لأنه كان شرسا جافاً . ولقد كانت حياته الفكرية غنية قوية ، ولكنه كان فقيراً في حياته العاطفية . أحب معركة الأفكار الكبرى ولكنه أحب أيضا المكائد والحيل : « لأنه ينبغي أن تعرف يا سيدي ، أن اللاهوتي المجهول بجامعة باريس ، ورينيه دي ليل René de l'Ile القسيس ، وجيروم لي كاموس Jérôme le Camus ، وجيروم دي سانت فوا Sainte-Foi ، وبيير أمبرين Pierre Ambrun ووكيل الانجيل المقدس ، وأوريجين أدامانتايوس ، وأمبروزيوس ، وجيروم أكوستا Acosta ، والسيد دي موني ، والسيد دي سيمونفيل Simonville — أن كل أولئك المؤلفين وكثيرين غيرهم ، يتجمعون في رجل واحد » ، ريشار سيمون . ولم يتوخ الأمانة التامة في مجادلاته مع الكاثوليك ، فقد بعث بصورة من كتابه « التاريخ النقدي » إلى أستاذة السوربون ليفحصوها ، بعد أن حذف منها الفصول الخطيرة . وكانت الشفقة المسيحية أقل شيء يثير اهتمامه في مجادلاته الطويلة مع البروتستانت . وكان متكبراً جافاً يستعمل الألفاظ اللاذعة الجارحة ، ويجد متعة في رمي السهام الحادة . وحتى في مؤلفاته الكبيرة — وبالرغم من التواضع الذي كان يدعيه — ترى أن ذلك التقدير الذي يشعر به نحو ذاته يصبح دائماً شيئاً من الاحتقار الذي يشعر به نحو الآخرين . ولكنك تستبين خبثه وحقده على الخصوص من قراءة رسائله — بل قل مجموعة شتائه وهجوه . إنه ليس الرجل المظلوم الذي لا يجد القوة في صفه فيدافع عن نفسه بكل الوسائل لحسب ، إنه ليس ذلك الرجل الساخط : بل هو رجل يميل إلى الحساد ، مشغوف بعرض المذاهب التي تشتم فيها رائحة الخطب والحريق ، وبالحديث عن اللاهوتيين الذين خرجوا على الكنيسة ، وبلغت الأنظار إلى الكتب الخبأة ، الكتب الخرسية التي تتضمن بذور الشقاق ، الكتب التي تحمل سواد الانفجار . كيف السبيل إلى التوفيق بين سيول ذهنه هذه ، وتلك الشيمة الديلية التي كان يزعم أنه يحتفظ بها ؟

الكتاب المقدس» ، كان يلبي بأزمان الأساطير . إن ذلك الروح الخاص لا تجده اليوم أبدا إلا لدى الكويكرز (١) وغيرهم من الموتورين ، الذين يلوذون به لافتقارهم إلى القدرة والعقل السليم .

* * *

ولقد واصل السير في طريقه ، بالرغم مما صادف من عقبات ومشاق . في ٢١ مايو عام ١٦٧٨ أبلغ بطرده من جمعية الأوراتوار ؛ وفي نفس العام حرم « التاريخ النقدي للعهد القديم » بقرار من الديوان الملكي ، وبناء على ذلك صادر البوليس نسخ الكتاب وأتلفها . وفي عام ١٦٨٣ حرمت جمعية « إندكس » Index (٢) بدورها الكتاب . ولما رأى ريشار سيمون أنه لن يتفق مع الرقابة أبدا ، وأن « مسيو الزيفيه Elzevier » (كان قد نشر كتابه في خارج فرنسا مشوهاً نقلا عن نسخة مخطوطة ، فقد حصل على نص صحيح ونشره في أمستردام عام ١٦٨٥ . وواصل عمله ، فقد كان لابد من أن تظهر القوة التي تعتمل في كيانه ، وكان المنطق يقتضي أن يفسر العهد الجديد بعد العهد القديم . وعلى ذلك أخذت مؤلفاته تتوالى : في عام ١٦٨٩ « التاريخ النقدي لنص العهد الجديد » ، وفي عام ١٦٩٠ « التاريخ النقدي لتراجم العهد الجديد » ، وفي عام ١٦٩٣ « التاريخ النقدي لتفسير العهد الجديد » : وفي كل هذه العناوين تظهر كلمة « نقد » ، وينسرحها ريشار سيمون دائما لكيلا

(١) الكويكرز Quakers : مذهب ديني تأسس في القرن السابع عشر في إنجلترا وصاحبه جورج فوكس (١٦٤٢) ثم انتشر في أمريكا بفضل وليام بن . وكان جورج فوكس يرتعد ساعة الوحي ومن هنا كلمة كويكرز أي الرعدون . وأتباع هذا المذهب اشتهروا بطهارة الأخلاق فهم لا يحاربون معتقدين أن القتال لا يلبي بالالسان . ولا يقسمون بالانجيل بل يقولون أمام المحكمة « لعم » أو « لا » . ويخاطبون دائما بكلمة « أنت » لا « أتم » وفضلا عن ذلك ينكرون بعض الأسرار المقدسة لدى الكنيسة كالعبادة معتقدين أن المسيحية ليست عبارة عن غسل الرأس بقليل من الملح والماء . كما يرفضون تناول الفريان معتقدين أنه من أباطيل الانسان . فهم لا يعتمدون إلا على البراءة وصفاء القلب . (الرسالات الفلسفية *Les Lettres Philosophiques* لفولثير رسالة ١ - ٤) . [الترجمان]

(٢) جمعية إندكس *Congrégation de l'Index* : محكمة تأسست في روما في عام ١٥٦٣ حسب قرار مجمع ترانت *Concile de Trente* للبحث في الكتب وتحريمها إذا كانت خطيرة على الدين . [الترجمان]

يجعلها أحد : فقد كان لدى الكنيسة ، منذ أول عصور المسيحية ، علماء توفروا على تصحيح الأخطاء التي تسربت إلى الكتب المقدسة من حين إلى حين . وهذا العمل الذي يتطلب معرفة تامة بالكتب المقدسة ، وبحيثا عميقا عن النسخ الخطوطة ، يسمى « نقدا » . لأننا نقدر أفضل الدروس التي يجب أن يحتفظ بها في النص . فكلمة « نقد » لفظ فني مخصص للمؤلفات التي يدور فيها الفحص في مختلف الدروس لتوطيد أحقها . ولأن يجهل الناس هذا الفن في العصور التي خيمت فيها البربرية على ربوع أوربا ، هذا محتمل ؛ أما أن يحتقر اليوم ، فهذه إهانة لا تختفر . اليوم ينبغي أن ننسب إلى النقد الدور الذي نسبته الناس إلى اللاهوت فيما سبق . . . تخيل كيف كان غضب اللاهوتيين حينما سمعوا كلمات مثل هذه . كتب أرنو إلى بوسويه في يوليو ١٦٩٣ رسالة يقول فيها « حسب أقوال هذا الناقد لا يجب أن تتبع إلا قواعد النحو ، وليس اللاهوت أو التقليد لكي نحسن شرح العهد الجديد ! . . . عندي أنه لا شيء أكثر من ذلك يفيد أشياع سوسان Sociniens (١) »

وأخيراً ظهر المؤلف الكبير ، « العهد الجديد للسيد المسيح » ، مترجما عن النسخة اللاتينية القديمة مع ملاحظات : ظهر في تريفو Trévoux عام ١٧٠٢ . وكانت ترجمة لا ديدن لها إلا الاعتماد على النص ، والرجوع إلى النص ، وبيان المعنى الحرفي للنص ، بالرغم من التفاسير التقليدية التي يقول عنها ريشار سيمون إنها لا تعدو كونها تفاسير بل أخطاء ومعاني معكوسة ومع ذلك فقد انتحلت سلطة القانون . كانت ترجمة نقدية ، إذا أمكن القول ، تحمل في حواشيتها المقارنات التي أوحىها لريشار سيمون معرفته للغتين اليونانية والعبرية . « على كل حال ، لما كنت لا مقصداً لي من بياناتي إلا شرح المعنى الحرفي للأناجيل وكتب الحواريين ، فلا ينبغي أبداً البحث فيها عن ذلك » التصوف « cette mystiquerie الذي لا يتذوقه إلا قليلو البصيرة والادراك من الناس » . المعنى ولا شيء غير المعنى الحرفي : « وإلا أكثر وقوعنا في تلك الرطانة الأعجمية التي يسمونها روحانية . » - ولقد حرمت هذه الترجمة .

(١) أرنو إلى بوسويه ، يوليو ١٦٩٣ ، Arnauld à Bossuet .

لا ينبغي أن نجعل من ريشار سيمون رومانتيكيا ، ولا أن نلطف خلقه ، لأنه كان شرما جافاً . ولقد كانت حياته الفكرية غنية قوية ، ولكنه كان فقيراً في حياته العاطفية . أحب معركة الأفكار الكبرى ولكنه أحب أيضا الكائد والحيل : « لأنه ينبغي أن نعرف يا سيدى ، أن اللاهوتى المجهول بجامعة باريس ، ورينيه دى ليل René de l'Ile القسيس ، وجيروم لى كاموس Jérôme le Camus ، وجيروم دى سانت فوا Sainte-Foi ، ويير أمبرين Pierre Ambrun ، ووكيل الانجيل المقدس ، وأوريجين أدامانتىوس ، وأمبروزيوس ، وجيروم أكوستا Acosta ، والسيد دى موى ، والسيد دى سيمونفيل Simonville — أن كل أولئك المؤلفين وكثيرين غيرهم ، يتجمعون في رجل واحد » ، ريشار سيمون . ولم يتوخ الأمانة التامة في مجادلاته مع الكاثوليك ، فقد بعث بصورة من كتابه « التاريخ النقدي » إلى أساتذة السوربون ليفحصوها ، بعد أن حذف منها الفصول الخطيرة . وكانت الشفقة المسيحية أقل شئ يثير اهتمامه في مجادلاته الطويلة مع البروتستانت . وكان متكبراً جافاً يستعمل الألفاظ اللاذعة الجارحة ، ويجد متعة في رمي السهام الحادة . وحتى في مؤلفاته الكبيرة — وبالرغم من التواضع الذى كان يدعيه — ترى أن ذلك التقدير الذى يشعر به نحو ذاته يصحبه دائماً شئ من الاحتقار الذى يشعر به نحو الآخرين . ولكنك تستبين خبثه وحقده على الخصوص من قراءة رسائله — بل قل مجموعة شتائه وهجوه . إنه ليس الرجل المظلوم الذى لا يجد القوة في صفة فيدافع عن نفسه بكل الوسائل فحسب ، إنه ليس ذلك الرجل الساخط : بل هو رجل يميل إلى اللحداد ، مشغوف بعرض المذاهب التى تشتم فيها رائحة الخطب والحريق ، وبالتحديث عن اللاهوتيين الذين خرجوا على الكنيسة ، ويلفت الأنظار إلى الكتب المخبأة ، الكتب المحرمة التى تتضمن بذور الشقاق ، الكتب التى تحمل مواد الانفجار . كيف السبيل إلى التوفيق بين سيول ذهنه هذه ، وتلك الشبهة الدينية التى كان يزعم أنه يحتفظ بها ؟

*For some, who have his secret meaning guess'd,
Have found our authour not too much a priest (١)*

أما عن المعارك الداخلية الدفينة ، ولعله قد عرفها ، فلم يسر منها شيئاً في أذنتنا . ولكي تعرف ماذا كان إيمانه على التحقيق ، لم يكن بد من أن تطلع على مذكراته الضخمة التي أحرقها ذات يوم بيديه ، مدفوعاً بنوبة من التحرز . كان قد لازم بداره في بولفيل بنورمانديا . وذات يوم استدعاه محافظ الولاية واستجوبه ، ويومئذ خشى أن يفتشوا بيته ويصادروا أوراقه ، فوضعها في عدة براميل كبيرة ، ودفعها ليلاً إلى أحد المروج ثم أحرقها فاستحالت إلى رماد . أما ما كان يخفي في أعماق نفسه فلا يعرفه إلا « الذي » يسير أعماق القلوب . وظل يعد نفسه عضواً في الكنيسة بالرغم من طرده من الأوراتوار ، غير ناس ذلك الشعار بل متشبهاً به في عناد وإصرار : « إنك خادم الكنيسة إلى الأبد » . ولقد واصل مهمته كعالم إلى النهاية ، لا يريد أن يعرف شيئاً غير العلم ، مع احتفاظه بصفته كابن عتيد للكنيسة ، بالرغم من مؤاخذتها إياه . « لقد تناول أسرار الكنيسة بروح مسيحي يستوجب العبرة ، ثم توفي في أغسطس من عام ١٧١٣ في الرابعة والسبعين من عمره . . . (٢) »

* * *

لقد شارك ريشار سيمون في تصحيح القيم التي سبق أن رأيناها تعتمل في الضمائر في شتى الأشكال ، باحتجازه على مثل هذه الصيغ : لقد اعتاد الناس دائماً — إنه معلوم من قديم — إنه تقليد قديم قدم الدنيا . . . كما أنه أثر وأنتج ، لأنه أضفى على النقد وعياً بقوته وواجباته « إن النقد لازم ومفيد » *critici studii utilitas et necessitas* . ولقد نشر خصمه جان لي كليز Le Clerc — الذي كان بعض نواحي تفكيره لا يفترق عنه إلى الحد الذي يظنه الاثنان معاً — في عام ١٦٩٧ قانوناً لفن « النقد » *l'Art Critique* الطافر . ثم إن

(١) درايدن: Dryden, *Religio laici* ١٦٨٢ . « لأن بعض الذين نحنوا مرماه الدفين وجدوا أن مؤلفنا لم يكن قسيساً كما ينبغي أن يكون . »

(٢) برونز دي لامارتنيير ، مدح ريشار سيمون Bruzen de Lamartinière, *Éloge de*

ريشار سيمون هو الذى أثار تلك الحركة التفسيرية للكتاب المقدس : إن لم يكن لدى الكاثوليك الذين أرجف ضائرتهم ، فعلى الأقل لدى البروتستانت : وإن فى وجود أكثر من أربعين مناقضة « لتاريخه النقدي للعهد القديم » لدليلا أكبر الدليل على ما أثار من إزعاج واضطراب . ولم يكن عدد أتباعه كبيراً ، ولو أن تلميذه روفائيل ليفي ترجم القرآن — كما يقول لويس دى بيزانس — حسب منهج استعمله منه . ولكنه ولد أفكاراً جريئة جديدة فى عقول الكثيرين . أظن كيف يأتى بياجيو جاروفالو فى عام ١٧٠٧ فيعلن أن الكتاب المقدس حافل بالكلام الموسيقى النظم . والسجع الشعرى الوزن : فهل كان يجترئ على كشف ذلك الأثر الانسانى فى الكلام الالهى ، لو لم يفتح مؤلف التاريخ النقدي الطريق للاجتراء من كل الصنوف ؟

وأخيراً ، فأى ثروة لغير المصدقين . . . ! إنهم ليسوا قادرين على تمحيص الكتب المقدسة بأنفسهم ، ولكنهم مستعدون لتصديق كل ما يضعف من سلطانها . وهم يقولون « كيف تريد أن أعتقد بصديق هذه الكتب المقدسة التى كتبت منذ أقدم العصور ، وترجمت إلى شتى اللغات بمعرفة قوم من الجاهل ربما لم يدركوا معناها الحقيقى ، أو بمعرفة قوم من الكاذبين الذين ربما بدلوا أو زادوا أو أقصوا ما تتضمنه اليوم من أقوال ؟ . . . (١) »

(١) بارون دى لاهولتان : محادثات فضولية ، ١٧٠٣ ص ١٦٣ ، طبع سينارد .

Baron de Lahontan, *Dialogues curieux*, 1703, éd. G. Chinard.

الفصل الرابع بوسويه ومعاذك

لا يرى الناس بوسويه Bossuet إلا في صورة من العظمة الجلييلة ، كما يظهره لهم الرسام « ريجو » . وإذا كان من العبث أن نذكر هذه الصورة الفاخرة ، فلعل لنا في ذلك عذراً لأنه يمكن القول بأن ذلك ضروري : فإن أسلوب بوسويه وعظمته وشهرته ماثلة أمام عيوننا أبداً . ونحن نتخيل الخطيب عادة يلقي بعض مرثياته : فهو لا يكاد يبتدىء في كلامه حتى نحس أننا ننتقل إلى ميادين الجلال ، ثم تملأ أنغامه رويداً رويداً تشوبها مسحة من الحزن والأنين توقظ في قلوبنا من الرنين العميق ما يشتد حتى يصبح مؤلماً ، فإذا انتهت موسيقاه المقدسة بأشودة للعالم الآخر ، خيل إلينا أننا كنا أمام رسول ، لا أمام إنسان عادي .

وصورة بوسويه هذه ليست غلطاً . ولكنها تفترض استنارة خاصة ، فقد صفى الزمن كل ما عدا النبيل والجلال والنصر . بيد أن هناك بوسويه آخر : بوسويه الذليل ، التحس .

ولسنا نقصد أن نبدل شيئاً في بساطة عقيدته العميقة التي تستحق الإعجاب . فلقد آمن مرة بالأزلي ، بالشامل ، وهذه المرة كانت إلى الأبد : Quod ubique, quod semper (١) — « إن اليقين الذي جاءنا من الله له — قبل كل شيء — كماله » : ذلك المبدأ هو قوام كل عقيدته الثابتة . فهناك يقين أوحى به الله إلى الناس ، مسجل في الإنجيل ، مؤيد بالمعجزات . يقين كامل مادام إلهياً ، وبالتالي فهو متين لا يتغير : ولو أنه يقبل التغير لما كان يقيناً . ومهمة الكنيسة هي أن تكون حفيظة عليه : « إن كنيسة السيد المسيح الحفيظة على العقائد التي أوثمنت عليها ، لا تبدل فيها شيئاً أبداً ؛ فهي لا تنقص

(١) في كل مكان وفي كل زمان . كلمة للقديس فنان دي ليران . [المترجمان]

أو تضيف شيئاً ، لا تحذف منها الأشياء الضرورية ، ولا تضيف إليها الزوائد الباطلة . فكل مهمتها أن تجلو ما سلم إليها من قديم ، وأن تؤيد ما لقي شرحاً وافياً ، وأن تحتفظ بما أصبح مؤيداً مبدئياً . . . (١) » وواجب المرء أن يتمشى مع هذا اليقين الوحيد المتين : لأنه إذا أراد كل منا أن يكون له يقين خاص ، لوقعنا في الفوضى واللامنطقية ، لأنه يدهي أن الموضوع الواحد لا يمكن أن يكون محل مليون يقين ، أو ألف ، أو مئة ، أو عشرة أو اثنين ، بل يقين واحد . « من هنا ندرك بوضوح الأصل الصحيح للكاتوليكي والمجدد . فاللحد هو من كان لديه رأى : وهذا معنى الكلمة نفسها . وماذا يعنى « لديه رأى » ؟ يعنى أتباع المرء رأيه الخاص ، وشعوره الخاص . أما الكاثوليكي فكاثوليكي أى عالمي ، فهو يتبع رأى الكنيسة بلا تردد ، ودون أن يكون له رأى خاص . . . (٢) »

إليه أيها الكتاب المقدس ، أيها الكتاب العزيز ، الذي يقدم للناس ، في شكل جميل خلاب ، مزخرف مؤثر ، تاريخ جنسهم وقانون واجباتهم في نفس الوقت ! إنه يتضمن المبادئ التي تؤسس الكاثوليكية ، حتى إذا فسرتة التقاليد ، أصبح السلطة التي تمنع الناس من جعلها موضع نقاش . إن بوسويه لا يتخلى عن كتابه المقدس ، فقد شغفه حباً منذ فجر شبابه ، ويمكن له الحب حتى أخريات أيامه . لا غنى له عنه ، فهو غذاؤه ، وهو خبزه . ومثلما يستمر الخوري الريفى في قراءة كتاب صلوات حفظه عن ظهر قلب : فكذلك بوسويه قد حفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب ومع ذلك فهو لا يكف عن قراءته . ولما كان آباء الكنيسة قد شرحوا الحقيقة الأصلية ، وأيدوها ووضحوها ، فلا عجب أن نراه يلتجئ كثيراً إليهم . وبوسويه مغرم بالمطبوعات ، فهو لا يكاد يتوقع نشوب مجادلة حتى يهرع إلى ما يتعلق بها من أوراق ، فان مثالة إيمانه لا تمنعه من الاستعلام ، يحذوه إلى ذلك الذوق والواجب معاً . وبين كل الكتب ، نراه يؤثر أن يستشير كتب الآباء ، خدام الكنيسة ، وبين

(١) أول تنبيه للبروتستانت ، ١٦٨٩ ، (طبع لاشا) ، الجزء الخامس عشر ص ١٨٤ .

Premier avertissement aux Protestants, 1689, éd. Lachat.

(٢) ان تعاليم الأولى عن وعود الكنيسة . ١٧٠٠ (طبع لاشا) ، الجزء السابع عشر ص ١١٢ .

Première instruction pastorale sur les promesses de l'Eglise, (1700).

كل الآباء يفضل القديس أوغسطين Saint Augustin . لقد لاحظته سكرتيره المتيقظ « لى ديو » Le Dieu الذى سجل أفعاله وحركاته : « كان يتغذى بمذهب القديس أوغسطين ، ويتشبه بمبادئه ، حتى إنه لم يؤيد معتقداً ، ولم يعط أى تعليقات ، ولم يذلل صعوبة إلا عن طريق القديس أوغسطين ، كان يجد لديه كل شئ . . . » كان يطلب من مؤلفات القديس أوغسطين مع الكتاب المقدس ، إذا أراد أن يلقى موعظة على الجمهور ، وكان يقرأ القديس أوغسطين إذا أراد أن يحارب ضللاً أو يوضح نقطة فى الدين . »

أما وقد وثق بعقيدته ، واستنار بالتجائه إلى الكتب ، فقد التزم بوسويه نظاماً يبرر وجوده الذاتى ، وكل مجهود شخصيته لا يخرج عن ارتضاء تصويره هذا للحياة ، وترسيخه ، وإظهاره وتبليغه للناس . إن حدوده لا تضايقه بل يتقبلها عن طيب خاطر . وفى دخيلة تفكيره الخاص ، تجده يرتاح لتنظيم حياته : لأن مجهود الحياة ينبغي ألا يكون دائماً تقيد قاعدة تقبلها الناس مختارين راضين ، بل الاستفادة من الأمان الذى تهيئه ، لنمضى حياتنا فى إتيان الخير وفى النشاط . وعنده كلمة جديرة بالاعجاب اقتبسها من كتاب الملوك : « إن الطاعة أفضل من التضحية » . فنحن نطيع ، نطيع الله ، ونطيع الملك ، الذى يمثل الله على الأرض . ونحن نستمتع بالتصرف طوعاً لرغبة « الذى » خلق النظام الذى نرتضيه ، والذى هو اليقين وهو الحياة . هكذا نخلص أنفسنا من البحث والفحص ، ومن القلق والاضطراب : على منوال مؤلف كلاسيكى قد أذعن مرة وإلى الأبد لقاعدة الوحدات الثلاث التى ظهرت له سليمة منطقية ، فيشيد فى نطاق هذه القاعدة ، ولائذا بهذه القاعدة ، تحفة رائعة .

ويوسويه ليس مفطوراً على الزهد . إنه يحب رانسيه Rancé ويقدره : وعندما يذهب إلى « تراب » ليزوره ، يرى الرهبان راعيهم رانسيه وأسقف « مو » L'évêque de Meaux يتنزهان معاً طويلاً ، يكرسان للأحاديث الودية الزمن الذى لا يقضيه فى الصلاة . بيد أنه لا يمكنه فى الدير . وهو مثل الكلاسيكيين أيضاً ، يجنب الإفراط فى كل شئ ، حتى المغالاة فى التقوى تبدو له شديدة الخطر . وهو وإن كان شرساً مع العنيدين les opiniâtres إلا أنه بالغ الخنوع على الضعفاء ، كثير الشفقة بالفقراء . ومائذته ، التى لا تخلو من النبذ الجيد ، تبدو عامرة دسمة دون ترف أو إسراف . وهو مرهف الحس

من ناحية الطبيعة ، يتذوق جمال حدائق « جرميني » أبهى حدائق الدنيا ، كما يستمتع بالطريق الهادئ المحوط بالأشجار حيث يستطيع أن يطالع في كتابه المقدس وأن يفكر ويتأمل . بل يحس تلك الصلات التي تتولد بين مناظر الطبيعة الرائعة ، وقلب رجل يتأثر بها وينفعل . وهو شديد القسوة في بعض الأحيان ، ومع ذلك فهو قادر على أن يكون بالغ الحنان ؛ فقد كانت فيه فضيلة الصداقة . وعنده أن القديس أوغسطين كان على اتفاق مع القديس فنان دي بول ، أستاذه . وهو ليس قويا ثابتا لحسب ، بل متزنا كل الاتزان . لا تدخل للشك إلى روح مثل هذه الروح ، التي لا تقدم على شيء دون أن تبرره أمام محاسنها الذاتية ، والتي تعي أفكارها وإرادتها تمام الوعي ؛ ذلك أن بوسويه — مثل الشكاك المدققين — يحاسب نفسه على سير تفكيره ويتأمله أعسر الحساب . إنه يجادل ابن أخيه ، فيحكي له عن السؤال الذي وجهه إليه ذات يوم مريض على شفا الموت ، وكيف أجاب :

« ذات يوم طلبني شخص غير مصدق ، كان على فراش الموت ، وقال « يا سيدي ، لقد اعتقدت دائما أنك رجل شريف ، وأنت ترائي اليوم على وشك الهلاك ، لحدثني بصراحة ، فاني واثق بك ، ما رأيك في الدين ؟
— إنه أكيد ، لم يخالجنى الشك يوما فيه . . . (١) »

فعن هذا الايمان المكين ، لا شيء يقال . ولكن بدلا من أن نتصور بوسويه عظيمًا ومنعزلا ، فلندمج بين معاصريه ، لنحاول رؤيته وسط الجدل ، بين العامع والآلام . فلننظر إليه لا في شبابه الزاهر وظهوره المجيد ، بل في سني شيخوخته ؛ ولنحاول أن نعرف ما صار إليه أمره ، خارج إطاره المذهب ، في خضم الحياة ، ممثلا لتقليد قد شن عليه الهجوم من كل صوب وحذب ، ومهملا ثقلي عنه عصره ، إذا أمكن القول بذلك .

إن « البحث اللاهوتي — السياسي » الذي أرسله إليه أرنو Arnould ،

(١) لي ديو ، الصحيفة ، ١٠ مايو ١٧٠٠ ، Le Dieu, Journal, 15 mai 1700

والذى يملك منه نسخة في مكتبته ، ليس كتاب ملحد لحسب بل كتاباً منغصاً منكداً . ماذا . . . ! سيبنوزا هذا ، هذا اليهودى الهولندى الحقيقى ، أيفتعل مظاهر التفوق لأنه يعرف اللغة العبرية ؟ ! إنه يعلن أنه لا اللاتينية تكفى ولا اليونانية : إما أن تعرفوا العبرية وإما ألا تتكلموا عن الكتاب المقدس .

كان بوسويه قد اكتفى « بالفولجات Vulgate (١) » لأنه يجهل العبرية : وهنا موضع الخطورة ؛ وهو لا يجهل ذلك ، فاذا أراد أن يجيب وهو عليم ، وألا يبدو متأخراً أو مضحكاً ، وفضلاً عن ذلك إذا أراد أن يطبع ضميره المدقق الذى كان يملئ عليه واجبه ، كان عليه أن يبدأ الدراسة من جديد . ولم يكن ذلك هينا يسيراً . . . ومع ذلك فقد اشتغل . ونحن نحب أن نتخيل انعقاد المجلس الصغير ويألف من لوحة جميلة تقيّة : بعض الرجال الحكماء وبعض القساوسة يجتمعون بانتظام ، كل يمسك في يده نسخة من الكتاب المقدس : هذا يقرأ النص العبرى ، وذلك يقرأ النص اليونانى ، والكل يستشيرون أيضاً القديس جيروم وكبار الأساتذة ، ويفسرون ويتناقشون ، وبوسويه يقرر والأب فلورى يسجل الملاحظات . مجلس من رجال ذوى إرادة طيبة ، يكونون حلقة بحث حيث يزدون معارفهم ويدعمونها ، لأنهم يستشعرون أن زمن التجارب الكبرى قد حان . ولكن هل سيعرف بوسويه العبرية أبداً ؟

في يوم الخميس المقدس من سنة ١٦٧٨ قدم الأب رينودو Eusèbe Renaudot الذى كان عضواً في المجلس ، بياناً للاستقف عن كتاب على وشك الظهور : « التاريخ النقدى للعهد القديم » ، تأليف ريشار سيمون . وكان هذا الكتاب قد حصل على الامتياز وأجازته الرقاية وأذن به المدير العام لجمعية الأوارتوار ، وكاد الملك يقبل إهداء ذلك الكتاب ، لأن الأب لاشيز La Chaise كان قد وعد بالتدخل لهذا الغرض . ففزع بوسويه فزعاً مروعاً :

(١) الفولجات *La vulgate* : ترجمة لاتينية للكتاب المقدس ، تستعمل في الكنيسة الكاثوليكية ، كتبها القديس جيروم في القرن الرابع بعد الميلاد . وقد رفضها الاصلاحيون في القرن السادس عشر بدعوى أنها تتضمن أخطاء في الترجمة . ومسح مجمع ترنت في ١٥٤٦ بدراسة النص القديم وأيد صحة الفولجات من حيث كونها ترجمة ذات قوة إبتاتية يمكن الاستشهاد بها في المناقشات اللاهوتية . [الترجمان]

إن التاريخ النقدي الباطل هذا ، ليس إلا كتلة من الكفر والاحاد ، بل هو قلعة للتححر والفساد ، فيجب إيقافه . وبالرغم من قداسة ذلك اليوم ، المكرس لمراسيم الكنيسة ولحرمان ، فقد هرع إلى مشيل لي توليير Michel Le Tellier رئيس الديوان ، وأقنعه ونجح في منع نشر الكتاب . ولكن أي ألم . . . ! كيف يتجاسر قسيس ، وقسيس من الأوراتوار بالذات على مثل هذه المعاملة للكتاب المقدس ! طالما يعيش ريشار سيمون فسيكون لبوسويه مصدراً للحزن والاضطراب . إن ريشار سيمون سيلف حوله ويدور ، محاولاً إقناعه بأنه ليس « عنيداً » : بيد أنه لا يستطيع أن ينفى على عيون بقطة ساهرة ، تلك القوة التي كانت تدفعه . إن هذا الرجل كان يريد إهدال اللاهوت بالنحو ، فتبا له من شرير !

ولو أننا طالعنا القسم الثاني من « مقال عن التاريخ العالمي (١) » ، متذكّرين أن سينوزا وريشار سيمون يحتلان ذهن بوسويه ، لما ازداد فهمنا للهجة الخاسية التي يستعملها محامى الأورثوذكسية الكاثوليكية لحسب ، بل للصفة الحقيقية لهذا الكتاب أيضاً . إنه ينقض أكثر مما يعرض ، وهو يجيب على أسباب تختلف بطبيعتها وجوهرها عن تفكير المؤلف المتميز : وإنها مهمة شاقة ، أن يطبق المرء على إقرار ديني ، على مبدأ *a priori* ، تبريراً تاريخياً يفرضه عليه خصومه ، تبريراً أصبح ضرورياً إذا أراد حقا أن يقابلهم وأن يجابههم .

. وإن قوله لواضح : فالكتاب المقدس له مصدر إلهي ، ولذا لا يحق لنا أن نتصرف حياله تصرفنا حيال كتاب بشري . وهو بعد قوله هذا ، لا بد له ، لكي يرد على المفسرين المحدثين ، من أن يتطرق إلى خططهم ، وأن يحص ويقدّر وجهات النظر البشرية . وهذا منشأ ارتباك بوسويه ، فهو مجبر على شرح كيفية جمع موسى لتاريخ العصور السالفة ، ومجبر على دحض الافتراض الذي يعزو تأليف التوراة إلى عزير (٢) Esdras ، ومجبر على دراسة النص

(١) مقال عن التاريخ العالمي *Discours sur l'Histoire Universelle* : ألفه بوسويه ١٦٨١ . وأصبح كتاباً كلاسيكياً ، وقد ألفه لترجمة ولي العهد . [الترجمان]
(٢) عزير Esdras : كاتب في عهد أرتاكسركس ملك الفرس (القرن الخامس ق.م.) وعالم يهودي عارف بالقانون . رحل من بابل إلى القدس (٤٥٨) ومعه ١٥٠٠ رجل =

باعتباره نصاً ، وعلى تبرير غموضه ، وصعوباته وما فيه من تبدلات . وشرع بوسويه يهاجم مباشرة إلى الأمام ، متعجلاً الخروج من هذه « المنازعات التي لا طائل وراءها » : فلندع التفاصيل ولننفض إلى لب الموضوع : ففى كل ترجمة للكتاب المقدس نجد نفس القوانين ونفس المعجزات ونفس التنبؤات ونفس التسلسل التاريخي ونفس مجموع التعاليم وأخيراً نفس الجوهر : فإذا تبغون أكثر من ذلك ؟ وأي أهمية لبعض الاختلافات الهيئية في التفاصيل ، بجانب هذه المجموعة الثابتة التي لا يعترها تغيير ؟ فهو طبقاً لطبيعته الواضحة الصريحة على الدوام ، لا يتهرب من الاعتراض بل يواجهه ويحاول الغلبة عليه ، بهجمة سريعة شديدة : « لكن في النهاية — وهنا تتركز قوة الاعتراض — ليس هناك إضافات في كتاب موسى ، وما منشأ ذكر وفاته في نهاية الكتاب المنسوب إليه ؟ ما وجه العجب في أن الذين واصلوا تاريخه قد أضافوا نهايته السعيدة إلى باقي أفعاله لكي يجعلوا من الكل كتلة واحدة ؟ أما الإضافات الأخرى فلنر ما أمرها . فهل من قانون جديد ، هل من مرسوم جديد ،

= وعمل هناك على إصلاح الشعب والدين وأسس الدولة اليهودية (رينان: تاريخ الشعب الاسرائيلي ، الجزء الرابع ، الفصل الثامن ، Renan: *Histoire du Peuple d'Israël*, 5 vol.) . ويقول العهد القديم إن عزيراً قد رحل بموافقة الملك إرتاكسرس وبعه رسالة منه موجهة إلى الشعب الاسرائيلي (العهد القديم كتاب عزير الأصحاح الثالث ١ - ٢٨) . وجاء في القرآن الكريم في سورة التوبة (٣٠) «وقالت اليهود عزير ابن الله» وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى فرجع الله عنهم التوراة . فخرج عزير يسيع في الأرض فأثاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب ؟ قال أطلب العلم لحفظه التوراة ، فأثلاها عليهم عن ظهر لسانه . فقالوا ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا أنه ابنه (تفسير أبو السعود ص ٤٠٠) .

أما القائلون بأن التوراة ليست لموسى فيردون قوهم إلى ثلاثة أسباب (١) أن موسى ليس له وجود أكيد ، فإن مؤرخي مصر القديمة لا يذكرون اسمه ولا معجزاته سواء في ذلك مائيتون وهيرودوت وسائشونياتون . (٢) أن التوراة نفسها لا تقول إن موسى هو كاتبها . (٣) تقول كتب اليهود إن التوراة اكتشف وجودها في عهد الملك جوزياس . مع أنه بين جوزياس وموسى انقضى ١١٧٧ سنة . ولم يذكر أحد الأنبياء الذين ظهروا في هذه المدة ووسطرين عن هذا الكتاب . فلا يستبعد إذن أن تكون التوراة كتبت في بابل إبان أسر اليهود أو عقب ذلك مباشرة بعد عزير ، خصوصاً أن التوراة فيها كثير من الكلمات الفارسية والكلدانية (القاموس الفلسفي لفولتير ، باب موسى ، ويان رقم ١٠٠ في آخر القاموس ، Voltaire: *Dictionnaire Philosophique*, Notes.) . [الترجمان]

أو عقيدة أو معجزة أو نبوة ؟ لا أحد يدعى ذلك ، ولا شبهة من ذلك ولا أثر ولو حدث هذا لكان ذلك بحق إضافة إلى كتاب الله : ولمنع القانون ذلك ، ولكانت فضيحة هذا التجاسر فضيحة شنعاء . فإذا إذن ؟ لعله استكمال لتاريخ لسب ؛ أو لعله تفسير لتغير اسم مدينة بفعل الزمن ؛ أو لعله بمناسبة إلى الإلهي الذي اقتات به الشعب الإسرائيلي أربعين عاماً في الفلاة ، تسجيل الوقت الذي توقف فيه هذا الغذاء السماوي ، ولما كان هذا الواقع قد سجل منذئذ في كتاب آخر ، فقد استبقى على مسيل البيان في كتاب موسى ، كواقع على ثابت شهده الشعب بأسره . إن أربع ملاحظات أو خمساً من هذا النوع سجلها يشوع أو صموئيل أو بعض الأنبياء الآخرين الأقدمين — لأنها لا تتعلق إلا بوقائع شهيرة لا يتطرق إليها شك ولا غموض — كان من الطبيعي أن تنفذ إلى النص . وقد أوصلتها نفس التقاليد إلينا مع الباقي كله : أفيض كل ذلك في الحال ؟ . . . »

وهنا يتسم ريشار سيمون ويسخر . فإن الاعتراف ثمين لا يقدر . فالسيد الأسقف يعترف بوجود إضافة إلى كتاب موسى ، يعترف بأن التوراة قد حورت وزورت . وبذا فإن أسقف « مو » الكبير ، (مثل هويه أسقف أفرايش M. Huet, évêque d'Avranches) يصبح سبينوزيا في نظر اللاهوتيين ، يدمر الكتاب المقدس أيما تدمير . . .

إلا أن بوسويه يعاف السخرية : « إن السخرية لبست من طباع الفضلاء » وقد لا يكون لذلك أهمية لولا أنه يشعر أن الكلمة الأخيرة لم تنطق بعد ، وأن ريشار سيمون يزداد جرأة من كتاب إلى كتاب ، وأن « المسألة أصبحت لدى الكنيسة من الأهمية بمكان » . ولم يكن في حياته المثقلة بالمهام مكان ، فهناك تربية ولي العهد ، وإدارة أسقفية ، وقيادة كنيسة فرنسا التي أصبح رئيسها الروحي ، والكفر الذي يتولد هنا وهناك ، وإلقاء الواعظ ، وضرورة وجوده في البلاط ، آه . . . ! يا للعمل الشاق ! العمل الذي لا يستغرق كل أيامه فحسب بل كل لياليه : حين تستسلم الأسقفية كلها للرقاد ، يبقى ساهراً متيقظاً ، فيوقد المصباح ، ويستشير الملفات ، ويشرع اليراع . هيا ، فلا زال علينا أن ننجز هذه المهام ، وأن ندافع عن التقاليد وعن القديسين ، ضد ريشار سيمون : لأنه ليس هناك واجب أكثر إلحاحاً .

وعندما ظهرت ترجمة العهد الجديد ، تملكته نوبة جديدة من السخط الشديد : لا بد من المبادرة إلى مصادرة هذا الكتاب كما صادر التاريخ النقدي للعهد القديم من قبل . غير أن أربعة وعشرين عاما كانت قد انسلخت منذ ذلك الحين ، ، فنحن في عام ١٧٠٢ الآن ، ولقد ألقى بنفسه رثاء ميشيل لي تولييه رئيس الديوان الذي كان ينقاد لمطالبه عن طيب خاطر فيما سبق . أما الآن فـ رئيس الديوان هو بولشارتران وهو لا يصغي إليه بل يناصبه العداء ؛ وأكثر من ذلك أيضا ! فقد أراد أن يجبره على أن يقدم للرقابة « التعليقات » التي كان قد أعدها ضد ريشار سيمون . ولولا الملك الذي بقي على وده معه ، لخسر دعواه . كيف يخضع هو — بوسويه — للرقابة ! وكيف يستجوبه القضاة ! هو ، بوسويه في صورة شخص مغموم بل مهزوم ! إن السلطة تفر من يده ، فقد تغيرت الأزمان ، وظفر المتحررون ، ولا شيء يستطيع أن يؤله أكثر من ذلك .

وطالما كان يأمر باحضار مؤلفه الكبير « دفاع عن النشاليد والآباء القديسين » *Défense de la tradition et des Saints Pères* فيعيد قراءته ، ويأخذ في التحرير : إنه لن يفرغ منه أبداً . ذلك أنه يدعى أن يضيف إلى كتابه الفصل تلو الفصل ، وأنه لم يكن يحارب شخصا واحدا ، بل روحا متشعبا يتحين كل فرصة للظهور . فلم تكد مسألة ريشار سيمون تنتهي ، حتى ظهرت مسألة إيلي دي بان Elie Du Pin . وكان هذا بدوره قسيساً ، وهو يبدو أقل عنادا ، بيد أن عدم اكتراثه البارد كان خطير المغزى . فقد نشر مجموعة ضخمة عن المؤلفين الأكليركيين ، قائلا إن الملحدين كانوا أحيانا أنفذ بصيرة وأصدق من الكاثوليك في دراسة النصوص المقدسة ؛ والأكثر وحشية قوله إن النقط الأساسية التي تتعلق بأسرار الكنيسة بل بالعقيدة ذاتها ، لم تكن قد بينت بعد وحددت في ذهن آباء الكنيسة خلال القرن الثالث بعد المسيح . فقد تكلم القديس سيريان Cyprien عن الخطيئة الأولى في وضوح وجلاء ، كما أنه تكلم أيضا عن التوبة والتكفير ، وعن سلطة القساوسة في هذا الميدان ، وغير ذلك . ولكن بوسويه ساهر متيقظ . إنه لا يريد أن يأخذ إيلي دي بان بالشدة لقرايته لراسين ، ولأنه على أهبة الاستعداد للاعتراف بأخطائه . إلا أن هناك مسائل عدة لا يستطيع بوسويه أن يتحملها : محاباة

الملحدين ، وإضعاف التقاليد - فيما يتعلق بالخطيئة الأولى وفي نقط أخرى كثيرة - والخوض في سيرة القديسين بتلك الجسارة التي لم تجر عادة الكاثوليك على السماح بها . إن شر الحريات قد أصبحت بدعة في عصر « خطير . كهذا الذي نعيش فيه . . . »

ويكتب إليه فنيلون Fénelon في ٢٣ مارس ١٦٩٢ : « لقد سررت لرؤية الدكتور العجوز والأسقف العجوز ، ولقد تخيلتك والقلنسوة تتدلى على أذنك تمسك بتلايب دى بان كتر ينشب مخالبه في صقر ضعيف » . وما يحق لفنيلون أن يبتسم : فلولا النسر الرابض في « مو » ، ولولا يقظته ، لتعرض سيدان الدين للغزو والتخريب ، ولو أنه يشعر في بعض الأحيان بتعب شديد (١) .

ويوسويه لن يتم « الدفاع عن التقاليد وعن الآباء القديسين » ، ولا « السياسة المستمدة من نفس كلام الكتاب المقدس » *Politique tirée des propres paroles de l'Écriture Sainte* : كم من كتب لم يتمها - وكلها لازمة ، وكلها سلحة ! وكان يشتعل رغبة في الذهاب إلى إنجلترا ، والدخول في محادثات مع اللاهوتيين هناك ، وفتح عيونهم : ولكنه لن يذهب إلى إنجلترا أبداً . ذلك أن إنجلترا قد غرقت في الفتنة وطردت ملكها ، وآثرت أن تنصب عدو فرنسا اللدود وعدو الكاثوليكية حاكماً عليها . « إنى شديد الحسرة على إنجلترا » (٢) ولقد فكر فيما سبق في إثارة حروب صليبية ضد الأتراك : أين الزمن الذي كان يخطب فيه مادحاً القديس بيير دى نولاسك في كنيسة الآباء « لامرسي » ، الزمن الذي كان يدهش فيه للتقدم العظيم المذهل الذي حققه الإسلام ؟ الزمن الذي كان يتألم فيه من عدم اكترات الناس بالأتراك ، ذلك العدو الرئيسي ، أخطر إمبراطورية تشرق عليها الشمس ؟ « أى عيسى ، يا سيد

(١) صحيفة (لوديو) أول ديسمبر ١٧٠٣ « كان يقول لي ، وسط ذلك كله ، أشعر بأنني لم أعد أحتمل هذا العمل . فلتتحقق إرادة الله ! إنني على أتم استعداد للموت . والله قادر على إرسال من يذود عن كنيسته . ولو أنه أرجع لي قواني لاستعملتها في هذا السبيل » .
(٢) رسالة في ٢٢ ديسمبر ١٦٨٨ ، إلى الأب بيرودوت ، à l'abbé Perroudot .

الأمبياد ، أيها الحكم بين الدول ، والأمير على كل ملوك الأرض ، إلام تختمل أن عدوك الأكبر ، وهو متربع على عرش قسطنطين العظيم ، يدعم دعوى جهد بقوة السلاح ، ويصرع هلاله صليبك ، وينتصر كل يوم على المسيحية بسيفه المجدود ؟ » عندئذ كان لويس الرابع عشر الشاب يبتسم لفكرة تلك المشروعات العظيمة . فلم يعد هناك محل الآن للذهاب إلى الشرق البعيد . اليوم لا أحلام ولا أوهام . كما ذكرت الحروب الصليبية ، لم يكن المتحررون وحدهم يبتسمون ، بل يرى رجال الدين الأتقياء أيضا أنه يحسن أن يدعوا الأتراك في سلام : فكان فلوري يقول ، لقد استفقنا من وهم الحروب الصليبية ، فلم يعد لها موضع إلا في أمنيات الشباب الذين تدفعهم الحاسة أكثر مما تنيرهم المعرفة ، أو في قصائد بعض الشعراء المداهنيين .

وكان بوسويه كعادته دائما ، ثابتا لا يتزعزع . إلا أنه يمكن القول بأن الأمور أخذت تنزلق من حوله ، وتظهر في لون جديد ، حتى إنه لم يعد يتعرفها . ولقد كان سعتادا أن يحيطه الناس بصنوف الرعاية والتقدير ، وحتى في وطيس الجبال كانوا يحترمون حماسه وشقيقته وإخلاصه . ولقد غمره الأساقفة والأمراء الأجانب بمظاهر التقدير والتوقير . إلا أنه منذ استقر الإصلاحيون في هولاندة ، لم يبق للمراعاة والتوقير أثر ، ولا حتى للأدب . بل إنهم أهانوه . إن جورديو Jurieu الذي لم يسلم من هجومه أحد ، كان يختص بوسويه بالهجوم . فاتهمه بالتنكر والخداع والكذب ، وأثار في أخلاقه الريب ، واتهمه بمعاصرة خلية . وكان فظا أغلظ له القول : إن بوسويه يدعو نفسه «مولاي» ها . . . ها . ! يظهر أن هؤلاء الأساقفة قد ارتفع مقامهم أيما ارتفاع منذ مؤسسى المسيحية ، الذين لم يكن لهم لقب غير خدام السيد المسيح . إن بوسويه خطيب متعاطف لا شرف له ولا إخلاص ، ولا عقل سليم لديه ولا احتشام ، وهو جاهل كل الجهل ، مجترى مقحام . لكي ينكر اسرؤ ما ينكره بوسويه ، يجب أن يكون صاحب جبين من نحاس ، أو أخا جهل عميق عجيب . إلا أن بوسويه لم يكن من أولئك الذين لا يتأثرون بالاهانات ، أو أولئك الذين يجدون متعة في إثارتها ، أو تلقيا . فقد كان يشعر بانفعال وغضب شديد يخون قدرته على احتمال الآلام : كان يتألم ويتعذب إذا تعلق الأمر بمن كان يكن لهم الحب مثل فيليون ، أو إذا نجحت الاهانات في المساس بسلطته ،

أو قلت من جدارته على تفسير كلام الله . ثم وقف جورىوفى طريقه الشاق الأليم يقذفه بالطين ، ويسميه رجلا لا شرف له ولا إيمان ، ويتهمه بالكذب والنفاق . عندئذ أصدر بوسويه صيحة ، بل نداه مؤثرا وجهه إلى الله المطلع على كل شئ ، والذي يدير كل الأمور لصالح الأرواح :

« رباه ، استجب دعائى ، يا ربنا ! لقد بعثوا بي لأتلقى حكمك الرهيب كفتير كذاب ، يلقى على « الإصلاح » تهمة الكفر ، والتجديف ، والخطأ الجسيم ، مفتر لم يتهم الإصلاح بتلك الجرائم لحسب ، بل اتهم أسقفا بأنه اعترف بها . ربى إني اتهمت أمامك . . . فاذا كنت قد قلت الحق ، وإذا أقنعت بالتجديف والافتراء أولئك الذين أرسلونى لأتلقى حكمك كفتير كذاب ، كرجل لا إيمان له ولا شرف ولا ضمير ، فاللهم أدعوك أن تبفض وجهى أمامهم . ولتحمرو وجوههم خجلا ، ولتفحمهم ، ولكنى أتوسل إليك يا رب أن يكون إمامك لم إماما شافيا فيه التوبة وفيه السلام . . . (١) »

* * *

إن كل ربيع من الاتحاد يجعله يرتعد . وقد كان على علم بكل ما طبعه التحررون . ولم يفتح بمطالعة مؤلفات جروسيوس السوسنيانى : بل امتد بحثه عن مؤلفات كرهيليوس Crellius وموسان Socin صاحب المذهب إلى شتى المكتبات ، لأنها المصدر الذى تسرى منه السموم إلى الأرواح . . . لا تظنوا أنه يجهل المناقشات الدائرة عن استراليا ، ولا الاعتراض الذى يوجه إلى الكاثوليكية بدعوى أنها ليست ديننا عاليا ، مادامت توجد قوة بأكلها عاش سكانها دون أن يسمعو بالمسيح : إنه لا يجهل ذلك . فسمعته يصيح « هيا إذن ناقشوا القديس بولس بل السيد المسيح أيضا ، ودلوا أمامهما بأراضى استراليا ، وحاجوهما فى المواعظ التى سمعتها الأرض قاطبة ! » وهو لا يجهل شيئا أيضا عن أولئك الصينيين الذين يثيرون الجيرة

(١) الانذار الثانى إلى البروتستانت ١٦٨٩ الفصل الخامس عشر ص ٢٧٥ .

Deuxième avert. aux Protestants, 1689, éd, Lachat, XV, p. 275.

والارتباك : بل يشترك في مؤامرة الارساليات الأجنبية ضد الحيزويت ، لاجبارهم على الاعتراف بأن المراسيم الصينية إن هي إلا وثنية . وقد اتخذ لديه قرار نشر الرسالة التي أرسلت إلى البابا عن « الوثنية والخرافات الصينية » ، قبل أن يطلع عليها الملك ، الذي ربما كان يتدخل لصالح الآباء الحيزويت . كما أن المبعوثين يحضرون إلى الأسقفية لآخباره بما يجري هناك بجوار بكين : لقد حضر أسقف روزالي صباح اليوم وبعد الظهر لمحادثة أسقف مو عن شئون ذلك البلد وعن أخلاقه ، وعن مواهب تلك الشعوب . . . » . يا للاجتراء على الحديث عن كنيسة صينية من تهديف ! إن بوسويه يعلن في سخط : « أنها كنيسة عجيبة لا إيمان لها ولا وعد ولا محالفة ولا أسرار ولا أقل أثر للشواهد الإلهية : كنيسة لا يعرف الناس فيها من يعبدون ولا لمن يقسمون القرايين ، إذا كانوا لا يقدمونها للسماء والأرض وما بها من آلهة كآلة الجبال والأنهار ؛ كنيسة هي أخيراً كتلة سهوثة من الكفر والسياسة واللا دينية والوثنية والسحر والتنجيم . . . »

وهو لا يبجل علماء التاريخ وعملهم العميق ؛ فلا عجب أن نجد في مكتبته مؤلفات مارشام وكتابه « تاريخ الناموس الديني لدى المصريين . *Chronicus* Canon *Aegyptiacus* . ويتهم جان لي كلير بوسويه باقتباس كثير من آراء مارشام Marcham وليسبتها إلى نفسه . والحق أنه عندما نشر مقالته عن التاريخ العالمي في عام ١٩٨١ أراد أن يسجل الانفعال الذي أهاج معاصريه على إثر ما اتضح من اختلاف بين التاريخ المقدس والتاريخ اللاديني ؛ وأنه وإن كان يفضل المعارف التقليدية الثابتة ، فقد اعتقد أن عليه على الأقل أن يشرح لولى العهد الأسباب التي تدفعه إلى الاحتفاظ بها . ما أشق علم التاريخ ! من جهة ، يقول لنا التاريخ المقدس كيف جعل « نبوخذناصر » بابل التي كانت قد أثرت بغنائمها من الشرق ومن أورشليم ، وكيف أن امبراطورية بابل ، بعده ، لم تستطع احتمال قوة الماديين ، وأعلنت عليهم الحرب ، وكيف عين الماديون خورس ابن قممير ملك الفرس قائداً عليهم ، وكيف دحر خورس القوة البابلية وضم مملكة الفرس — التي لم تكن قد ازدهرت بعد — إلى مملكة الماديين التي كانت قد بلغت من القوة مبلغاً عظيماً بفتوحاتها وانتصاراتها ، وهكذا أصبح خورس سيد الشرق بأسره غير منازع وأسس أكبر

امبراطورية شهدها العالم . لكن من جهة أخرى ، نجد أن المؤرخين اللاديين مثل جومستان ، وديودور وأغلب المؤلفين اليونانيين واللاتين الذين بقيت لنا كتبهم ، يقولون بغير ذلك . فهم لا يعرفون أولئك الملوك البابليين ، ولا يذكرهم في كلامهم لنا عن الملكيات ، فلا ترى في مؤلفاتهم أثراً للملوك المشهورين من أمثال تغلث فلاسر ، شلمنسر ، سنحاريب ، نبوخذناصر (١) وغيرهم من الملوك المعروفين في الكتاب المقدس والتواريخ الشرقية .

لا تصدق يا مولاي أولئك المؤرخين اللاديين . لقد ضاعت بعض التواريخ اليونانية ، ولعلها كانت تذكر ما يذكره الكتاب المقدس . إن الروم — الذين نقل عنهم اللاتين — كتبوا متأخرين . وقد كانوا يهتمون بالبلاغة في مقالاتهم أكثر مما يدققون في أبحاثهم ، يريدون تسلياً هلاماً بقصص قديمة يبنوها على مذكرات مهوشة . لن تصدق بها ، فإنا أنت تصدق بالكتاب المقدس ، فهو أكثر اهتماماً بأمور الشرق ، ولذا فهو أقرب إلى الحقيقة ، حتى ولو لم تعلم أنه قد أسلاه الروح القدس . . . (٢)

ولما نشر القال ذاته في عام ١٧٠٠ ثالثة مرة ، عندئذ اتضح للناس ما كان يشغل ذهنه . فقد ظهر في عام ١٦٧٨ كتاب الأب بزون « قدم الأزمان » ، وظهر الردان اللذان دجهما الأب مارتيناي والأب لوكيان في عامي ١٦٨٩ ، ١٦٩٠ : فجمع بوسويه كتلة الأفكار والوقائع الواردة في هذه الكتب . كان متضابقاً ، مثل علماء التاريخ ، من المصريين والآشوريين والصينيين ، الذين يطالبون بالقرون الطويلة لتعزيز تاريخهم ، حتى لجروا إطار التاريخ المقدس . فنصح ، مثلاً فعل الأب بزون — في سبيل تذليل هذه الصعوبة الخطيرة ، بالتجاء إلى « الترجمة السبعينية » التي تسمح بخمسة قرون زائدة لاسكان أولئك المضايقين ، واضطر ، مثله أيضاً ، أن يفاضل ، لأسباب تاريخية ، بين ترجمتين للكتاب المقدس ، لم تتفقا في قياس الزمن . وما من شك في أنه لم يتعرض طوال حياته لارتباك في مثل هذه القسوة .

(١) تغلث فلاسر ، شلمنسر ، سنحاريب ، ملوك آشور (العهد القديم ، الملوك الثاني

اصحاح ١٥ ، ١٦) ونبوخذ ناصر ، ملك بابل . [الترجمان]

(٢) مقال عن التاريخ العالمي ، طبع ١٦٨١ ص ٤١ وما بعدها .

إن سيامه الحقيقية ترتسم رويداً رويداً ؛ إنه ليس البتة الهادئ الأسن
لكاتدرائية فاخرة تسيدت على طراز لويس الرابع عشر ، بل هو أقرب إلى
العامل المشغول المتعجل الذي يجري ويهرول ليصلح ثقباً تزداد خطورتها يوماً
فيوماً . إن بصيرته تمتد حتى المبادئ ؛ إذ كان يراقب ، وقيس الجهود
الواسعة العظيمة التي يقوم بها الملحدون لتقويض أسس كنيسة الله .

إن سينوزا ، بانكاره المعجزة ، يريد إخضاع الله لقوانين الطبيعة . آه !
فليحذر الناس أن تفتن عقولهم بذلك الإله - الكون ، ذلك الإله الذي لا يعدو
كونه ظلاً ! أما الله الذي عبده موسى فله قدرة أخرى ؛ « إنه يستطيع أن
يبنى وأن يهدم كيفما شاء ، إنه يعطي قوانين للطبيعة ، يقلبها أنى شاء . . .
وإذا كان قد أتى بالعجيب من المعجزات ، لكي يثبت وجوده في زمن كان
قد نسيه فيه الناس ، وأجبر الطبيعة على الخروج على قوانينها الثابتة ، فأنما
أراد بذلك أن يثبت أنه السيد المطلق للطبيعة ، وأن إرادته هي القوة الوحيدة
التي تحرك نظام الكون . . . » الظنوا إلى الخليفة « يثبت الله بخلق الكون
بكلمته ، أن لا شيء هناك يشق عليه ؛ ويثبت بأشائه متواتراً ، أنه سيد
سأده و سيدة فعله وسيد مشروعه كله ، وأنه لا يخضع في أفعاله لأية قاعدة
سوى إرادته المستقيمة دائماً بذاتها . . . » . الظنوا إلى الطوفان « حذار من
التفكير في أن الدنيا تسير وحدها ، وأن ما كان موجوداً من قبل ، سيبقى
دائماً على ما هو عليه ومن تلقاء ذاته . إن الله الذي خلق كل شيء ، والذي
بقدرته يعيش ويبقى كل شيء ، سيفرق كل الناس وكل الحيوان ، أي سيدمر
أبدع جزء من صنعه (١) . » إن بوسويه يفكر في الخراب الذي يستطيع إله
سينوزا أن يولده في الضمائر المسيحية ، ومن أجل هذه الضمائر فهو يراعى من
هذا الإله .

ومالبرالش أيضاً يزعجه ، لأنه يجد في أغوار فلسفته نفس التفكير .
يقول بوسويه في مراثيه لما رى تيريز النسوية في أول سبتمبر ١٩٩٣ : « لشد

(١) مقال عن التاريخ العالي ، القسم الثاني .

ما أحقر أولئك الفلاسفة الذين يجعلون عقولهم مقياساً لمقاصد الله ، فلا يتصورونه إلا كواضع لنظام شامل ، بينما ترك الباقي يسير كيفما يسير ! كأنما هو مثلنا ، يملك نظريات عامة ، مهوشة ؛ وكأنما يمكن للعقل السامى ألا يتضمن بين مقاصده الأشياء الخاصة ، وهى وحدها ذات الوجود الحقيقى (١) . وبوسويه يعترف بأن ما لبرائش متواضع ، حسن المقاصد ؛ ولكنه يعلم أن أشياعه ، مع كل ذلك ، يتجهون صوب الاتحاد مباشرة . فإذا نحن نفذنا من القشرة المهوشة التى تغطى فلسفته إلى لبها ، لوجدنا تفسيراً للعالم ينفى كل ما يخرق الطبيعة ؛ وهذا التفسير عينه يقوم على منهج يتضمن « مضار فظيعة » . إن الفقرة التالية من كلام بوسويه تم عن نفاذ بصيرته وتظهر شخصيته بشكل يستحق الإعجاب :

« ينجم عن هذه المبادئ التى أمسى فهمها ، ضرر فظيع آخر يستول على العقول من حيث لا تدرك . لأنه بحجة أنه يلغى ألا تقبل إلا ما ندركه فى وضوح — وهذا قول وافر الصواب ، إذا خضع لبعض الحدود — فإن كل امرئ يبيع لنفسه أن يقول : « أنا أدرك هذا ولا أدرك ذاك » ؛ وعلى هذا الأساس وحده ، يوافق على ما يشاء ويرفض ما يشاء ، دون أن يفكر أن هناك ، بجانب أفكارنا البينة ، توجد أفكار خامضة وعامة تتضمن حقائق جوهرية ، يؤدى إنكارها

(١) يحسن بهذه المناسبة ذكر كلام لامارتين فى هذا الصدد . قال « الاعتقاد بأن الله يدير العالم بمقتضى قوانين شاملة وليست خاصة ، يعنى إنكار أهم صفات الله وقواته : اللامتناهى . فكأن العناية الإلهية ليس لها حدود ، فأنه موجود فى كل جزء من خلقه بكميته ، كما هو موجود فى الكل بكميته ؛ بالنسبة لله فلا عدد ولا عظمة ولا صغر ولا شمول ولا تفصيل . عنده ، لكل ذرة عالم له من الأهمية ما لكل العوالم . والنسبة بين الأشياء ليست فى ذات الأشياء بل فى ذاته فقط . إنه القاعدة والعدد والمقياس لكل شيء ، واللامتناهى فى كل جزء من صنعته كما هو فيه ذاته ، وكوننا ننسب إلى الله هذا التعميم : هذه القوانين وهذه القواعد التى تطبق على مجموع لعدم إمكان تطبيقها على الفرديات ، هو تشبيه لله بالإنسان واللامتناهى بالمتناهى . هذه لحظة فى ميتافيزيقا فولتير . وهى ليست إلا زلة فى الاستدلال أو عيباً فى التفكير تولد مبادئ الأخطاء فى الفيزيقا . وهى فى الأخلاق تولد أخطاء لا تقل عن ذلك : لأنه إذا كان الله لا يتأمل ولا يحكم ولا يجازى إلا الجنس البشرى فى عموميته ، فماذا تكون أخلاق الذات الفردية ، أخلاق كل واحدة من ملايين الأرواح التى تكون هذا المجموع البشرى الشامل ؟ (لامارتين فى ، Cours Familier de Littérature باب فولتير) . [المترجم]

إلى قلب الأوضاع . فنتج عن هذه الحجة حرية في التقدير تؤدي إلى أن يجترى الناس ، على قول كل ما يشاءون ، دون مبالاة بالتقاليد . . . (١) »

لكن ممن تستقى فلسفة مالبرانش ؟ من ديكارت . يفكر بوسويه ذاته في عصر مفتون بالديكارتية ، كديكارتي إلى حد ما فيحلل ويميز ويدافع . إن ديكارت ليجتمع فيه ثلاثة . أولها براهين ناجعة نافعة ضد الكفار والمتحررين ، وثانيها نظريات فيزيقية تستطيع أن تطبقها أو لا تطبقها ، وهي نظراً لعدم أهميتها بالنسبة للدين ، ليس لها أهمية كبرى في ذاتها ، وآخرها مبدأ يهدد الإيمان :

« أرى . . . معركة كبرى تعد ضد الكنيسة باسم الفلسفة الديكارتية . أرى أنه يتولد في أحضانها ، وعن مبادئها التي أسي فهمها فيما اعتقد ، أكثر من إلحاد . وإني لأستشف أن الاستنتاجات التي تستخلص منها ضد العقائد التي آمن بها أبائنا ستؤدي إلى كره هذه الفلسفة ، وإلى تضييع كل الثمار التي كانت الكنيسة ترجوها منها ، لترسيخ قداسة الروح وأبديتها في أذهان الفلاسفة (٢) . »

فلنذهب إلى أبعد من ذلك : ألا يحتمل أن تكون هناك حالة فكرية ، لم تكن الفلسفة الديكارتية في أول الأمر إلا عرضاً لها ، ثم قوتها فيما بعد ؟ ألا يحتمل أن تكون هناك إرادة شاملة متأصلة في الحياة ، هي مصدر كل شيء ؟ ألا يحتمل أن يكون هناك رفض هائل للخضوع للسلطة ، واحتياج لا يرد ولا يدفع للنقد الذي أصبح « المرض بل الشهوة السائدة في هذه الأيام (٣) » . لقد راح الزمن الذي كان الإنسان فيه خاشعاً أمام الله ، مطيعاً للملك ، واليوم جاء زمن « نهم الفكر » . وهنا تجمل البلاغة الحقيقة التي يكشفها بوسويه : ففي الكلمات الرائعة التالية يصف الخطيب الحالة الفكرية التي تظفر رويداً رويداً ، وتكتسب الضمائر ، والتي تروعه وتسبب له جزعا شديداً :

(١) رسالة إلى تلميذ مالبرانش ٢١ مايو ١٦٨٧ ، A un disciple de Malebranche .

(٢) رسالة إلى هوييه في ١٨ مايو ١٦٨٩ ، Lettre à Huet, 18 Mai 1689 .

(٣) بوسويه إلى رانسبه ١٧ مارس ١٦٩٢ « النقد الباطل الذي هو المرض والشهوة السائدة في هذه الأيام » .

« إن منطقهم الذى يتخذون منه دليلاً لهم ، لا يقدم لأذهانهم إلا فروضا وارتباكات ، والسخافات التى يقعون فيها بانكارهم للدين تصبح أصعب إثباتاً من الحقائق التى يذهلهم سموها ، ونظراً لرغبتهم فى عدم الاعتقاد بأسرار لا تدرك ، فهم يقعون فى أخطاء متعاقبة لا تدرك . ماذا إذن أيها السادة إلحادهم المنكود هذا ؟ إن هو إلا خطأ ليس له نهاية ، إن هو إلا اجتراء يستخف بكل شئ ، إن هو إلا دوار اختياري ، وبالاختصار كبير لا قبل له باحتمال علاجه ، أعنى لا قبل له باحتمال سلطة شرعية . لا تظنوا أن المرء لا تستولى عليه إلا المغالاة فى الشهوات ، فان المغالاة فى الفكر أكثر إغراء ، وهى الأخرى لها متع خفية ، ويهيئها التحريم . يظن هذا العظيم أنه يزداد رفعة عن كل شئ — حتى عن نفسه — حينما يخيل إليه أنه يرتفع فوق مستوى الدين الذى طالما احترمه ووقره ، إنه يضع نفسه فى صف أولئك الذين زالت عنهم الأوهام ، وهو يسخر فى قلبه من أولئك الضعفاء الذين لا يفعلون شيئاً سوى اتباع الآخرين دون أن يقفوا على شئ من تلقاء أنفسهم ، وإذ يصبح ولا موضع لرضاه إلا نفسه ، فانه يتخذ من نفسه إلهاً (١) . »

* * *

لقد العدمت البساطة ، وزال التوازن ، وامحت المقاييس ، يوم بدأ الناس لا يتقادون للسلطة ، واستسلم أتقى الناس وأعلمهم إلى أهواء غريبة ، فلم يعد المرء واثقاً بشئ أو عارفاً بشئ . ألم يفكر البعض فى نشر ، وفى إطراء مؤلف الراهبة الاسبانية ماري دى جيزو التى يقال إنها مشبوبة ، بينما الحق أنها مجنونة ؟ والغلطة الوحشية التى ارتكبها عزيزه فنيلون . . . يحاول البعض الدفاع عن المسرح ، يريدون أن يثبتوا بكل وسيلة أن الكنيسة تسمح بتحرر المسرح ، ويعصرون كتب الآباء القديسين ليستخلصوا موافقتهم ، بل لقد اجترءوا على الاستشهاد بالكتاب المقدس ، مدعين أنه ذاته يتضمن ألفاظاً تعبر عن الشهوات ، وأنه إذا كان الأمر يقتضى تحريم كل شئ يؤدى إلى عواقب سيئة ، فانه يلغى تحريم قراءة الكتاب المقدس حتى باللاتينية ، مادام

(١) رثاء آن دى جونزاج ، طبع لاشا الجزء الثانى عشر ص ٢٥٢ : *Oraison funèbre* d'Anna de Gonzague, éd, Lachet

الفصل الخامس

ليبنتز وإفلاس وحدة الكنيسة

« كان لحيل القامة ، شاحب الوجه ، أصحابه الضامرة تطيل يديه المعروفتين ، وكان بصره الكليل منذ أمد طويل ، قد حرمه من تلك المناظر التي تستولي على المرء بصورتها البصرية ؛ وكان يمشى مخنيا رأسه ، ويكره الحركات العنيفة ، يستمتع بالروائح الجميلة ويحيد فيها راحة وإنعاشا . ولم يكن يميل إلى الحديث ميله إلى التفكير والمطالعة في عزلة ، على أنه إذا تبودلت أطراف حديث فقد كان يشترك فيه بكل سرور . وكان مشغوبا بالعمل ليلا ، قليل الاهتمام بالماضي ، بل لقد كان أقل تفكير حالي يشغل ذهنه أكثر من أكبر الأحداث البعيدة . لذلك كان دائما يكتب مقالات جديدة يتركها دون أن يتمها ، وكان ينساها في اليوم التالي ، أو لا يقوم بأى مجهود للعثور عليها (١) . »

تلك هي صورة ليبنتز . ما أعنف شهوة المعرفة ، في روحه المركبة ! إنها شهوته الأساسية . فهو مولع بمعرفة كل شيء ، إلى غاية الحدود النهائية للواقع الملموس ، وما وراءها حتى مبادئ الخيال . إنه يقول : من شهد باهتمام صورا أكثر من النباتات والحيوان ، وعدداً أكبر من الآلات ، ونماذج أكثر من المنازل والقلاع ، ومن قرأ من الروايات الرائعة أكثر ، ومن سمع من القصص العجيبة أكثر ، فهو أكثر معرفة من غيره ، وإن لم يكن هناك ظل للحقيقة فيما شهد أو فيا سمع . . . وكان قد درس كل شيء : درس أولا اللاتينية واليونانية ، والبلاغة والشعر ، حتى إن أساتذته ، وقد رجعوا لشهوته المنهومة ، خشوا أن يبقى حبيساً لدراسته الأولى ، ولكنه في نفس

(١) جان باروزي ، ليبنتز (الفكر المسيحي) ص ١٠ - ١٢ ، ١٤ ، Jean Baruzi, Leibniz (la pensée chrétienne. p. 10 - 12)

هو السبب البري^٩ لكل الاتحاد ، ومن من فضلكم يتفوه بتلك الحماقات والتخرصات ؟ إن هو إلا راهب ، الأب كافارو - إن الناس ينتقلون من مغالاة إلى مغالاة ، وبمجيئة طاعة الملك يكادون يعصون البابا ، وتوشك الكنيسة الفرنسية أن تصبح كنيسة انفصالية ، لولا وجود بوسويه ليعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وتتوالى الضربات بلا انقطاع ، ولا بد من الانتقال من دفاع إلى دفاع ، بل لابد من وجوده في كل ميدان . لشدة ما يريد أعداؤه أن يزول من الميدان ! وهم من آن إلى آن يذيعون الشائعات بأن داء القلب قد صرعه ، بل يؤكدون أن ريشار سيمون قال : « دعوه يموت ، فلن يطول به الوقت . » ولكن بوسويه يقاوم على الدوام .

ولعل ذلك ، ومعيشته في حالة حذر مغيط ، وفي حالة مجهود لا ينقطع ، هو السبب فيما اتخذ من لهجة قاسية وحشية ليلعن كل ما يتعلق بالدنيا الخداعة : شهوة الجسد التي تسقطنا إلى أسفل سافلين ، شهوة العيون ، شهوة الفكر . ولا شيء يكتسب رضاه إزاء عنفه وصراسته ، لا الرغبة في التجربة ولا في المعرفة ، ولا الميل إلى التاريخ ، ولا العلم إذا بدا في صورة كبر ، ولا حب المجد ولا التعلق بالبطولة : ومن أجل اشمئزازه من أخطاء الناس ، يخرج عن الإنسانية . وهو لهذا السبب ينشد « العلوى » ، مدفوعا بقلب يبتغي السلوان . عندئذ يرجع إلى الانجيل ، لا للمناقشة بل للتفكير في التقوى ، ويستسلم للمذات الحبة ، ولمذات الايمان : « اقرئ يا روجي مرة أخرى هذا الأمر الرقيق بالحببة . . » ويصعد بوسويه من قمة إلى قمة حتى يبلغ عنان السماء ، فيصل إلى تلك الدرجة الجليلة حيث الصلاة والشعر يمتزجان ، وحيث لا يعبر لسانه عن شعور سوى تلهفه الكلى للوصول إلى الحقيقة والجمال اللذان سيبقيان على الدوام .

هذه اللحظة فر من قبضتها . فانتقل من الفلسفة المدرسية واللاهوت إلى الرياضيات ، حيث كشف فيما بعد عن مخترعات فذة عبقرية ، ثم انتقل من الرياضيات إلى القانون . وعكف على دراسة الكيمياء القديمة (السيمياء) ، متقياً عن الغامض والنادر ، وعما قد يوصل ، بطرق تمتنع على الرجل العادي ، إلى شرح المظاهر . كل كتاب وكل رجل يقابله مصادفة ، كان له بمثابة تحريض على المعرفة . أما أن يستقر « كمن ثبت بمسار » ، في مكان معين ، أو في نظام ، أو في علم ، فهذا ما لا طاقة له عليه . أما أن يختار عملاً معيناً ، أن يصبح محامياً أو مدرساً ، أن يستسلم لأعمال يعينها كل يوم في نفس الموعد — فلا ! وارتحل ، فحاش خلال ألمانيا بلدة بلدة ، وفرلسا والمجلترا وهولاندا وإيطاليا ، وزار متاحف وتردد على المجالس العلمية ، ودعم فكره وأغناه بألف اتصال ، جاعلاً من حياته كتباً مستمرة وغنى . ثم وافق على أن يكون أميناً لمكتبة ، مصيخاً سمعه للنداء المستمر لكل الأفكار البشرية ؛ ومؤرخاً ليحتضن أكثر ما يمكنه احتضانه من الماضي ومن الحاضر ؛ ومراسلاً عالمياً ؛ ومستشاراً للامراء ؛ ودائرة معارف دائمة الاستعداد للاستشارة . ولكن رسالته في الحياة كانت أن يمثل في العالم قوة ديناميكية لا تفرغ ، لأنها لم تتوقف يوماً عن التزود بالوقائع والأفكار والشاعر الإنسانية .

وقد أثبتت من ضميره العامل الناشط ، الذي يحرك ويقلب مكاسبه من كل نوع ، المخترعات النافعة والنظريات الفلسفية أو الأحلام الخصبة . فاتمى إلى امتلاك ناصية كل العلوم وكل الفنون ، فضلاً عن المواد اللانهائية التي أقام عليها منشأته المثالية . كان — كما قيل — « عالماً رياضياً ، طبيعياً ، سيكولوجياً ، منطقياً ، ميتافيزيقياً ، مؤرخاً ، قانونياً ، فيلولوجياً ، دبلوماسياً ، لاهوتياً ، أخلاقياً . » وفي هذا النشاط الفذ ، الذي نطن أن أحداً من بني الإنسان لم يسبقه إليه ، لم يكن يعجبه شيء — قبل كل شيء — مثل التنوع : إننا نستمرى التنوع *Utique enim delectat nos varietas* .

لكننا نستمرى أيضاً اختزال الأشياء إلى الوحدة *Utique delectat nos varietas, sed reducta in unitatem* . اختزال الأشياء إلى الوحدة : تلك هي في الواقع الشهوة الثانية لدى ليبنتز ، الذي لا يتأثر بالتعارض تأثره بالاتساق ، والذي يهتم بكشف سلسلة التدرج الواهية التي تصل بين النور والظلام ، وبين الفناء

واللامتناهي . كان يبتغى أن يوحد العلماء فيما بينهم : أوليس السبب في ببطء تقدم العلم انفراد أولئك الذين يزاولونه ؟ فلتنشئوا الجامعات العلمية في كل البلاد ، ولتتصل هذه الجامعات بين كل شعب وشعب ، حتى تحصب تلك القنوات الفكرية الأرض بأسواج المعارف الجديدة . بل أكثر من ذلك ! فان ليبنيز يريد تأسيس لغة عالمية . والحق أن الدنيا مشهد ألم للتنافر والاختلاف : فالحواز في كل مكان ، والمطلبات لا تلقى الجواب ، ووثبات نحو اليقين ، مقضى عليها بالضياح هباء : ارتباك مقيم من أجيال . أفليس في الامكان على الأقل إزالة بعض العقبات التي يصدم مرآها العقل ؟ أيتعذر ، في البداية ، التفاهم على معاني الألفاظ ؟ سنخترع لغة توافق الجميع ، ولا تسهل العلاقات الدولية لحسب ، بل تحمل في ذاتها صفات الوضوح والدقة والرونة والغنى ، حتى تصبح معقولة بديهية محسوسة . فلنستعملها في كافة أعمال الفكر كما يستعمل الرياضيون الجبر : إلا أنها ستكون جبراً ملموساً ، كل حد فيه يعطى صورة لعلاقته الممكنة باللفظ الذي يحاوره لأول وهلة . فيكون لدينا مقياس يبان عالمي ، يمكن اعتباره أدق أداة استعملها عقل الانسان .

إنه يتألم لانقسام ألمانيا ، وانقسام أوروبا التي يود أن يهيئ لها السلام ؛ إلا أنه يوجه نحو الشرق ما يفيض من لشاطئه المجاهد . ولو أننا نفذنا إلى أغوار عقله العميقة لوجدنا فيها نفس الرغبة . إن كشفه الكبير في الرياضيات ، حساب النهايات الصغرى *Calcul Infinitésimal* ، هو الانتقال من المنفصل إلى المتصل ؛ وقانونه السيكلوجي الكبير هو قانون الاستمرار : إحساس واضح يتصل بأحاسيس غامضة تقودنا رويداً رويداً ، بمسلسلة من التدرج غير المحسوس ، إلى الاختلاج الأول للمجهود الحيوي (١) . إن الاتساق هو

(١) حساب النهايات الصغرى : أوفن قياس ما لا نعلم وجوده بالدقة ، إخضاع اللانهاى للحساب الجبرى . ارجع إلى الرسائل الفلسفية لفولتير *Voltaire, Lettres Philosophiques* الرسالة السابعة عشرة عن اللانهاى وعلم التاريخ .

وعن تدرج الكائنات ونظرية إفلاطون : انظر إلى القاسوس الفلسفي لفولتير (باب سلسلة الكائنات) *Dictionnaire Philosophique* : « لما قرأت إفلاطون لأول مرة ورأيت هذا التدرج في الكائنات ، حيث تصعد من أصغر ذرة حتى «الكائن السامى» تعجبت ، ولكن عندما نظرت باهتمام في هذا التدرج ، زال هذا الشبح الكبير ، مثلاً تزول الأحلام في الصباح ، على صياح الديك » .

الحقيقة الميتافيزيقية العليا ، تذوب فيه الفوارق التي كانت تبدو مستحيلة التحويل ، والتي تتجمع في وحدة ، يجد كل منها مكانا فيها ، طبقا لنظام إلهي . إن السكون كورس Chœur كبير ، يتوهم المرء أنه يغنى فيه أغنية بمفرده ، ولكن الواقع أنه يتبع من جهته « دوراً » هائلا ، رتبت فيه كل « نوتة » بحيث تتوافق كل الأصوات ، وبحيث يكون المجموع « كولشرتو » أكل من انسجام الأفلاك الذي داعب خيال إفلاطون (١).

ونقرأ هنا الصفحة الرائعة التي سجل فيها إميل بوترو Emile Boutroux الصعوبات التي لاقاها عقل مثل هذا العقل في الوقت المعين الذي جاء فيه إلى الدنيا . — « إن الظروف التي عرضت لهيمته ليست كالظروف التي عرضت للقدماء ، لأنه يجد نفسه أمام اختلافات ومتناقضات قوتها الديانة المسيحية والتفكير الحديث ، الأمر الذي لم يعرفه الأقدمون . فالعام والخاص ، والمحتمل والحقيقي ، والنطقي والميتافيزيقي ، والرياضي والفيزيقي ، والآلية والغائية ، والمادة والفكر ، والتجربة والفطرة ، والصلة العالمية والاختيارية ، وتسلسل العلل والحرية الانسانية ، والعناية الالهية والشر ، والفلسفة والدين ، كل هذه النقائص — التي كشف عنها تحليل عناصرها المشتركة — تختلف الآن حتى ليخيل إلينا أن التوفيق بينها ضرب من الحال ، وأن اختيار أحد الاثنين وصرف النظر عن الآخر نهائيا ، يبدو كأنه يفرض نفسه فرضاً على كل فكر معنى بالنطق والوضوح . والهدف الذي يرمى إليه ليبنتز هو العودة إلى مهمة

== ولما كان ليبنتز مكانة سامقة في عالم الفلسفة ، فلعل القارىء يهيمه أن يقرأ بعض المراجع عنه وعن فلسفته : بول جاليه Paul Janet « مصنفات ليبنتز الفلسفية » طبعة فليكس ألكان Félix Aïcan في جزئين ، باريس ١٩٠٠ . وليبنتز ، مصنفات مختارة ، كلاميك جارنييه يقدمها ل . برينان . وكتاب فلسفة ليبنتز ، للمؤلف ن . رسل Russel ترجمة م . راى التي حازت تقدير الأكاديمية (طبع فليكس ألكان ، باريس) . وكتب أوليه لابرون Ollivier-Lapruno عن العلاقات بين ليبنتز ومالبرانش في كتابه القيم : مالبرانش ، طبع لادرانج ، ١٨٧٠ في الجزء الأول ص ٢٨ . وقد دارت بين بطل الفكر هذين رسائل عدة ، أوردها ف . كوزان V. Cousin في كتابه « مقتطفات من الفلسفة الحديثة » ، الطبعة الخامسة ، باريس ١٨٦٦ . [المترجمان]

(٢) -لما عودنا إلى هذه الفلسفة ، في القسم الرابع من هذا الكتاب ، الفصل الخامس : ميتافيزيقا الجوهر .

لينتز وإفلاس وحدة الكنيسة

٢٢٣

أرسطو ، والبحث في وحدة وفي اتساق الأشياء ، الأمر الذي يبدو أن العقل
الإنساني قد عجز عن إدراكه ، أو لعله قد رفض قبوله (١) .
وهكذا أراد هذا الذهن الوقاد الجدير بالاعجاب ، الجسور الهادئ معاً ،
في زمن كانت تتبارز الأفكار فيه بشدة لم يسبق لها مثيل ، وفي هياج وسخط
شديد - أراد أن يتسامق في وجهة نظر عالية ، بحيث يبدو له كل اختيار بطرح
نقيضاً ، لا كعلامة قوة بل كعلامة ضعف وإذعان . ترى هل ينجح في
مقصده ؟ عندما ينزل لينتز إلى ميدان الواقع ، مستقلاً من البحث النظري
إلى التطبيق العملي ، ومتوياً أن يعالج الضمير الديني لمعاصريه - الضمير
المقطع الأوصال المشخن بالجراح - بدواء التوفيق : فالسؤال هو هل يتوصل
إلى نتيجة ، أو لا تسفر جهوده إلا عن إضافة فكرة استعصاء الإصلاح إلى
الشقاق القديم . بين هذه المعتقدات التقليدية ، هل كان يمكن لالسان مهما
أوتي من عبقرية أن ينقذ الروح المسيحية ؟

* * *

لا يكاد المرء يلقى نظرة على أوروبا ، حتى يرى جرحاً يعبد العيون : فلقد
تخطعت وحدتها المعنوية منذ حركة الإصلاح ، وانقسم مكانها إلى حزبين
يتواجهان . فعدت الحروب والاضطهادات والمنازعات والاهانات ، الحياة
اليومية لهؤلاء الإخوان الأعداء . فالواجب الأول على كل حالم بالانسجام أن
يعالج شراً يزداد استفحالا واستشراء . والواقع أنه منذ عام ١٦٦٠ تجدد
العراك بين الكاثوليك والبروتستانت : ترى أما لهذا الشطط من حد ؟ فلو
أن هذا العراك استمر لكان وبالا على الإيمان ، على كل إيمان ؛ لأننا لمتحررين ،
وناكرى الوحي ، والكافرين يشنون على العقيدة حرباً شعواء ، تزداد كل
يوم اجترأ ، ولا نجد في ملاقاتها إلا قوات متفرقة منقسمة . أما إذا توصل
البروتستانت والكاثوليك إلى التفاهم ، فإن المسيحيين المتفقيين - بما يجدون

(١) إميل بوترو Emile Boutroux : مقدمة *La Monadologie* ، ١٨٨١ . وهو كتاب
لينتز الشهير ألفه بالفرنسية في ١٧١٤ يشرح فيه مبادئ نظريته في (الوناد) Monade
وعن «الاتساق المقدر» (انظر القسم الرابع من هذا الكتاب) . [الترجمان]

في اتحادهم من قسوة لا تغلب — يكونون جبهة ضد الاتحاد ، وينقذون كنيسة الله .

سوف يساهم ليبنتز بكل قوته في سبيل هذا التوفيق . وهو عليم بمزاعم الجانبيين ، وقد درس كتب الجدال دراسة طويلة ، بل هو يعلم أنها لا تتضمن في عمومها شيئاً ذا قيمة . ولقد خبر الناس . وهو ليس شخصاً أياً كان ، لأنه أثبت باكتشافاته أنه جدير بثقة المفكرين وأهل التقدير : ففي كل أرجاء أوروبا علماء أعلام في مقدمة الصفوف يشهدون له . وهو بروكستانتى لوثرى : ولكنه — طبقاً لكلمة رائعة له — في مقصد جميل كمقصد الوحدة ، « لا يريد أن يميز الشيء الذي يميز *distinguer ce qui distingue* » . وهو لكي يجد منهجا ، ليس عليه إلا أن يتبع سيول طبيعته : أن يثبت أن أوجه الخلاف ليست جوهرية ، وأن أوجه الشبه عديدة تكاد تبلغ الوحدة التامة ، وأن يحقق إجماعاً عاماً على أبسط مبادئ الإيمان ، وهي الأعمق .

ومنذ رحلته إلى باريس ، كان قد أعلن — لدى أرنو زعيم الجانسينية — دعاء *Pater Noster* ، يقول إن كل شخص يمكنه أن يقبله : « اللهم ، أنت الأحد ، وأنت الصمد ، أنت القادر على كل شيء ، وأنت الإله الواحد الحقيقي المستولى على كل القلوب ، وإني أنا المخلوق الحقير ، لأوسن بك وآمل فيك ، أحبك أكثر من كل شيء ، وأصلى لك ، وأمجّدك ، وأسلم روحي إليك . اللهم اغفر لي ذنوبي ، وجد على جودك على كل الناس ، بما تراه إرادتك مفيداً لخيرنا في الدنيا ، ولخيرنا في الآخرة ، وقنا كل شر . آمين . » إلا أن أرنو رفض هذا الدعاء بدعوى أنه لا يتضمن اسم المسيح . وسيوجد على الدوام قوم يرفضون هذه الصيغة ، ولن تكون المهمة يسيرة ، ولكنه على الأقل كان يود الشروع في إنجازها . ولو أنه نجح لحقق الانسجام ، ناسوس الكون . ولو أنه أخفق لكانت المسؤولية على الآخرين ، على العنيد والعميان ، الذين سيطيلون الشقاق ، ويجعلونه مستحيل الإصلاح ، ويعملون على إتلاف الضمير الديني في أوروبا .

وبدأت محاولات تقرب وثيدة ممتد على مر السنين . في عام ١٦٧٦ لما كان ليبنتز يحرب حفله في دراسة « السيمياء » ، تقابل في (نورسبرج) مع أحد أشياعه وهو البارون بوالبورج *Le Baron de Boinebourg*

— البروتستانتى المرتد — والذي كرس كل حياته فى سبيل مفاوضات « iréniques » كما كانوا يقولون حينذاك . واصطحبه البارون بوانبوج إلى فرانكفورت ثم إلى بلاط ماينس Mayence حيث كانت المنازعات الدينية فى ذروتها . ولما أب من باريس ، وقبل وظيفة أمين مكتبة فى هانوفر عام ١٦٧٦ ، وجد فى شخص الدوق جان فردريك — الأمير الكاثوليكي الذى يحكم رعايا من البروتستانت — الرجل الذى تأمل روما فى هداية شمال ألمانيا عن طريقه . وازدادت الحركة سرعة ، وبدأ هرج المثلين على مسرح هانوفر : أرسلت أوجست خلف جان فردريك ، والأسقف سينولا ، الذى يحميه الإمبراطور ، والذي ينتقل بين فينا وولايات ألمانيا وروما ، لينسج خيوط الوحدة . وفى عام ١٦٨٣ يعد سينولا صيغة كأساس لاتحاد كل المسيحيين : Regulae circa christianorum omnium ecclesiasticam reunionem . ويجمع رجال اللاهوت من الطرفين ، ويعقدون المجالس ، ويوحى من مولانوس قسيس لوكم — الراجح العقل الكريم القلب — يعدون متهجاً يرجى أن يؤدي إلى التوفيق المنشود : Methodus reducendae unionis ecclesiasticae inter Romanenses et Protestantes مشروع فى سبيل اتحاد الكاثوليك مع البروتستانت .

وذهب ليبنتز إلى أبعد مما ذهب إليه الجميع . ففى الوقت الذى يعد فيه فسخ أمرنانت فى المملكة الفرنسية وينفذ ، ودون أكثرات للشدائد العابرة ، ومفتنعاً بأن روح الوفاق هى الحقيقة وهى الحياة ، نجده يفكر ، ويؤلف إقرار الإيمان المعروف باسم *Systema theologicum* ، فى لهجة بالغة الخطورة رائعة الجمال : بعد أن التمس العون الإلهى بصلوات طويلة حارة ،، مجتلباً بقدر ما فى طوى البشر ، روح التحزب ، متأملاً فى الخلافات الدينية « كما لو كنت مقبلاً من عالم جديد ، حديث عهد بالدين ، غريباً عن كل تعديد ، حراً من كل القيود ، توقفت بعد تفكير عميق عند النقاط التى سأتناولها بالشرح والتفسير : لقد آمنت بها لأنى خلعت الكتاب المقدس ، ونفوذ الزمن القديم ، والعقل السليم المستقيم ، ومهادة الواقع الوثيق ، قد اجتمعت كلها على إقناع كل شخص متجرد من الاعتقادات الباطلة . . . »

ترى عن أى اقتناع يتحدث ؟ نظراً لأنه لم يقتصر على فحص العقائد ،

وجود الله ، وخلق الانسان والكون ، والخطيئة الأصلية ، والأسرار الدينية لحسب ، ، بل تعدى ذلك إلى أكثر النقط تعرضا للنقاش من الوجهة العملية للدين ، كالنذور ، والمراسم ، والصور ، وعبادة القديسين ، فقد اقتنع بأنه لا شئ يحول دون تقارب الكاثوليك والبروتستانت ، واتحادهما ، وأنهما ، بتنازل كل منهما عن بعض الصعوبات الظاهرية ، يردان الوحدة إلى الايمان . أنظر كيف يتكلم عن الأنظمة الرومانية ، التي تشير في رفاقه في الدين — اللوثريين — السخط أو الاحتقار :

« أعترف بأن المؤسسات الدينية ، الجمعيات المقدسة ، وكل ما شاكل ذلك ، كانت دائما موضع إعجابي بنوع خاص . إنها تبدو كجيش سماوي يحارب على الأرض ، بشرط أن يبعدوا عنها كل سوء استعمال وكل فساد ، وأن يديروها طبقا لروح مؤسسيها وقواعدهم ، وأن يطبقها الأب الأقدس على شئون الكنيسة العالمية » .

وأحسن من ذلك قوله :

« وهكذا ، فإن النغمات الموسيقية ، وتوافق الأصوات الرقيق ، وشاعرية الأناشيد ، وقديسة البلاغة ، وتآلق الأضواء ، وشذا العطور ، والثياب الفاخرة والآنية المطعمة بالجواهر الكريمة ، والهدايا القيمة ، والتماثيل والصور التي توحى بروح التقوى ، وقوانين العبارة العلمية ، والتنسيقات الفنية ، والمراسم الاحتفالية ، والزينات الثمينة التي تجمل الشوارع ، وأصوات النواقيس ، أو باختصار كل مظاهر التمجيد والتشريف التي تحب الشعوب أن تجود بها في سبيل التقوى والعبادة ، لا تجدد عند الله — فيما أرى — ذلك الاحتقار الذي يتظاهر به في أيامنا هذه ، بعض الناس بتواضعهم الحزين ، وهذا على كل حال مايؤيده المنطق والوقائع معا . . . »

فهل هناك — بعد ذلك — موضع للعجب إذا رأينا روما ، التي اقتاده إليها في عام ١٦٨٩ وظيفته كمؤرخ وحسب استطلاعها العالمي ، تعرض عليه منصب مدير مكتبة الفاتيكان ؟ أفلم يكن يحق للناس أن يعتقدوا أنه كاثوليكي مخلص ، وأنه يوشك أن يهتدى ؟

* * *

بوسويه ؛ بوسويه هو الرجل الذي يقتضى النجاح اللحاق به : « إنكم قديس بولس آخر ، لا تقتصر أعماله على شعب واحد ، أو بلد واحد ؛ بل تنطق مؤلفاتكم في الوقت الحاضر بأغلب لغات أوروبا ، وينشر أشياعكم انتصاراتكم في لغات لا تعرفونها (١) . . . »

اعتقد بوسويه من زمن طويل أنه يمكن التغلب على البروتستانت بالمجادلة والمحااجة . ولما نشر في عام ١٦٧١ كتابه « شرح المذهب الكاثوليكي » *Exposition de la doctrine catholique* ، كان يبدو كأنه يمد إليهم يده ويفتح لهم ذراعيه وكان — كما فعل لبيترز — لا يريد أن يميز الشئ الذي يميز ، بل كان يصر على الشئ الذي يستطيع أن يوحد . ولقد خلص المذهب الكاثوليكي مما حملة المفسدون والمتغالون من غموض وارتباك ، وأثبت أن العقائد الأساسية كانت واحدة مشتركة ، وشرح عبادة القديسين ، وتكريم الصور والبقايا المقدسة وعفو الكنيسة وأسرارها والغفران في أسلوب ينم عن روح المصالحة ، وبرر التقاليد وسلطة الكنيسة ، وأوضح أن الاعتقاد بسر تناول القربان المقدس هو أساس الصعوبة الوحيدة الحقيقية ، ولو أن هذه الصعوبة لا تستعصى على الحل : فكان ذلك كله حركة كريمة صادقة منه ، حتى إنها أثرت في العالم البروتستانتي بأكمله ، بل لقد اتهم البعض كتابه هذا بأنه يتضمن لبوة من التحرر ، لا تتفق والأرثوذكسية ؛ ولكن الكتاب انتصر بالرغم من ذلك لفوزه بموافقة الأساقفة والبابا نفسه ، ولقى رواجاً كبيراً في أوروبا : « سيكون نشرنا هذا لمذهبنا ، أثوان طيبان ، أولها أن كثيراً من المنازعات ستزول زوالاً تاماً ، لأن الناس سيعرفون أنها كانت تقوم على تفسير باطل لعقيدتنا ؛ وثانيهما أن ما سيتبقى من فوارق لن يبدو — حسب مبادئ الإصلاحيين ، *les Réformés* أساسياً إلى الحد الذي زعموه وحاولوا إقناع الناس به ، وأنه طبقاً لهذه المبادئ نفسها ، لم يكن في هذه الفوارق ما يجرح أسس الإيمان . » صحيح أنه قد امتلح (فسخ أسرارنا) ، الذي كان يبدو له منطقياً ،

(١) لورد بيرث إلى بوسويه ، ١٢ نوفمبر ١٦٨٥ ، Milord Parthe à Bossuet ،

الأمر الذي أوسع الخرق بينه وبين البروتستانت ؛ فيوم خطب عن كلمات الانجيل « ألزمهم بالدخول » *Compelle intrare* ، أمام البلاط مجتمعاً في يوم الأحد ٢١ أكتوبر عام ١٦٨٥ ، لم يكن يد من أن يعده البروتستانت لا في صف خصومهم لحسب ، بل عدوا لهم أيضاً . ونحن نعرف كيف أثار نشر « تاريخ تبدلات الكنائس البروتستانتية » في عام ١٦٨٨ عواصف عنيفة . ففي خلال أشهر ، وفي خلال سنين ، ظهرت مناقضات وردود ، وردود على الردود ولم يكن في هذه أو تلك شيء من الرقة : « ليس من اللازم أن نشرب كل ماء البحر لنندرك أنه مر ، كما أنه ليس من اللازم أن نحفظ في ذاكرتنا بكل الاهانات التي يوجهها الناس إلينا ، لنشعر بالحق الذي يضمرونه لنا (١) . » وهنا تدخل المسألة في مرحلة خطيرة وتصل إلى درجة مؤثرة . كيف يمكن ، بعد فسخ أمر نانت ، البحث في وحدة الكنائس ؟ ومع ذلك فقد كانت هذه الوحدة مرغوبة من كل جانب ؛ ففي السويد وفي إنجلترا وحتى في روسيا قوم يحاولون جمع أصحاب الإرادة الطيبة في صف واحد . ولكن كيف يمكن التفكير في المصالحة والتوفيق بينا القادة لا يكفون عن العراك ؟ ومع ذلك فقد كان هذا حلم ليبنتز ، الذي التمس المعونة من بوسويه . وهما سيتفاوضان ، إن لم يكن بلحمهما ودمهما ، فعلى الأقل بأفكارهما وإرادتهما ، لا جالسين متواجهين ، بل بحرص ودقة كأنهما يجلسان سوياً في هو مهيب تحت ظل الصليب . وبمعونة بعض الموقفين ، وفي ظل الغموض الذي يمتشي مع المفاوضات الشاقة الطويلة ، ينشب بين هاتين الروحين العظيمتين جدال مؤثر أليم .

إذا استثنينا فترة تبادل الرسائل والمجاملات ، فإن الجدل أخذ يحمى ويتسع ابتداء من عام ١٦٩١ . وألقت جمهرة صغيرة من أصحاب الأرواح المتديانة في فرنسا نظرة أسل ورجاء نحو هانوفر : بليسون Pellisson صديق لوكيه (٢)

(١) التعليمات الثانية الارشادية عن وعود المسيح لكنيسة ١٧٠١ طبع لاشا جزه ١٧ ص ٢٣٩ *Seconde Instruction pastorale* 17,01 .

(٢) فوكيه Fouquet : وزير مالية فرنسا في عهد لويس الرابع عشر . [المترجمان]

القديس ، الذي سجن في الباستيل ثم حرر وأصبح كاثوليكيًا بعد أن كان بروتستانتيًا ، يسعى بروح مشتعلة في سبيل وحدة الكنيسة التي فارقها مع الكنيسة الرومانية ؛ ولويس هولاندين Louise Hollandine أخت دوقة هانوفر التي اعتزلت في دير موبيسون بعد ارتدادها عن البروتستانتية ؛ والسيدة دي برينون Mine de Brinon سكرتيرتها الناشطة المتحمسة في سبيل الله . ومن يعرف ؟ لعل دوقة هانوفر تهتدي بدورها ؟ ولعل زوجها يحذو حذوها ! ولعل هذه الأرض الهانوفرية ذات المنبت الطيب تغل محصولاً مجيداً ! لقد بدأ تبادل الاشارات : فليبنتز وبليسون يتراسلان ، ويتحاجان ، ويبدأ كلاهما يقدر الآخر ويحبه على بعد المدى . وإذا بومسويه يهب ويدخل الميدان .

وهما يبدأان الجدل . وليبنتز يبحث عن منفذ للمصالحة ، عن أفضل النقط حراسة أو أضعفها دفاعاً لينفذ إلى داخل القلعة ، وهي النقطة التالية : يمكننا أن نخطئ في مسائل الايمان دون أن نكون خوارج أو ملحدين ، بشرط ألا نكون عنيدين . إذا كان البروتستانت يقبلون أن كل مجلس عام للكنيسة concile oecumenique يعبر عن الحقيقة فيما يختص بالسلام ، أو إذا كانوا على خطأ في تفكيرهم أن « مجمع ترنت » الذي قرر الانفصال النهائي ، لم يكن له صفة العمومية ، فهم على الأقل يخططون بسلامة نية ، فلا هم خوارج ولا هم ملحدون ، ويارتضائهم ترك الأمر لحكم مجلس عام يجتمع في المستقبل ، فهم يظنون روحياً خاضعين لوحدة الكنيسة . . . يا للأمل العظيم ! وبأخطوة التي نخطوها في سبيل سلام الأرواح ، لو حبذها بومسويه !

إلا أن تغيير القرارات التي وضعها مجلس عام ، بحيث يعد هذا المجلس باطلاً وكأنه لم يكن — هذا هو ما لن يسمح به بومسويه بتلك السهولة . « لكيلا نخطئ في مشاريع الوحدة هذه ، ينبغي أن نعرف جيداً أن تساهل الكنيسة الرومانية ، في بعض المسائل غير الجوهرية ، حسب مقتضيات الزمان والظروف ، لا يعنى على الإطلاق تساهلها في أية نقطة تتعلق بالمذهب المبين ، وخاصة المذهب الذي وضحه مجمع ترانت » . فالسباح ببعض الترخية للوثنيين ، مثل تناول القربان ، هذا ممكن . أما التنازل فيما يخص مبدأ السلطة ، الحجر الأساسى للكنيسة ، فكلا بكل تأكيد . إذن فهو بطريقته العنيفة ، التي لا تتفق والدبلوماسية ، يختار الهجوم : فإذا كان السيد ليبنتز يؤمن

بالكاثوليكية ، إذا كان يعلن قبوله للمبادئ التي هي روح الكاثوليكية ، فهل هناك أي سر من ذلك ؟ فليحتق الكاثوليكية ! ولكنه مخطئ ، إنه لا يعرف خصمه جيداً . إن ليبتنز لن يجاوز ذلك الهامش الغامض ، ذلك الحد الواهي ، الذي يفصله عن الكنيسة الرومانية . وهو لن يجاوزه أيضاً ، لأن ذلك عنده مسألة ضمير شخصية ، لا يجوز أن تتعرض لأي ضغط من أية قوة خارجية ، ولا سيما أن المسألة الجوهرية ليست في ذلك . فالأمر الذي يعنى البروتستانت ، ليس التنازل بل الوحدة . وهو نفسه مفاوض وليس هاربا خائفاً . فليعلم بوسويه ذلك جيداً ، وليدع تلك الأساليب ، أساليب العجرفة والتعجيل . وليدرك الفرق بين المصالحة وتغيير الدين : « لقد قطعنا مرحلة كبيرة في سبيل تنفيذ ما اعتقدنا أنه من مقتضيات الشفقة ومحبة السلام ، واقترعنا من شواطئ نهر بيداسوا Bidassoa (١) لعلنا ننقل يوما إلى « جزيرة المؤتمر » . ولقد تفادينا عامدين كل الأساليب التي تثير النزاع ، وكل مظاهر الامتياز التي يعتاد كل فرد أن يخلعها على فريقه ، هذا التعاطف الجارح ، وهذه المظاهر من الوثوق الذي ، وإن كان المرء يشعر به في الواقع ، إلا أنه من العبث ومن غير اللائق أن يظهره أمام أولئك الذين لا ينقصهم هذا الوثوق . . . » مرة أخرى ، فالسؤال الذي نلقيه على بوسويه هو عما إذا كان قولنا — بغير سوء نية — إن مجمع ترنت ليس له صفة العمومية ، يمكننا من إعادة مناقشة قراراته . إن جواب الأسقف كان جوابا متسرعا ، فليعد النظر في المسألة ، ومنتظره .

وعاد بوسويه إلى العمل : وبالرغم من المشاغل المتكثلة التي تثقل كاهله ، فإنه سيدرس النصوص التي كتبت حتى ذلك الحين ، والصيغة التي قدمت للموافقة عليها ، دراسة مفصلة : « سأنتهز أول فرصة مناسبة لأعبر لكم عن

(١) بيداسوا Bidasson : نهر بين فرنسا وإسبانيا فيه جزيرة عقلت فيها معاهدة البرانس Pyrénées سنة ١٦٥٩ بين مازاران Mazarin نيابة عن لويس الرابع عشر وبين إسبانيا بخصوص زواج لويس الرابع عشر بماريا تيريزا Marie-Thérèse بنت فيليب الرابع بشرط تنازل فرنسا عن حقوقها في تاج إسبانيا مقابل بائنة قدرها نصف مليون جنيه ذهباً . وكان مازاران عالما بأن إسبانيا الفقيرة لن تستطيع سداد ذلك المبلغ وبذلك تستبقى فرنسا الحق في عرش إسبانيا . [الترجمان]

لينتز وإفلاس وحدة الكنيسة

٢٣١

شعوري بنية خالصة. . . » — « أتمنى أن تكون هذه السنة سعيدة لكم ولكل العاملين باخلاص على اتحاد المسيحيين (١) ! » . وينكب بوسويه على العمل : « إنى أوافق على المبدأ ، ومع أنى لا أستطيع أن أوافق على كل الوسائل ، فاني أرى أنكم لو صدقتم رأى المسيو مولانوس وأمثاله من الصالحين ، لزال أغلب العراقيين ، وستعلمون شعوري في القريب . . . »

ولم يقض لينتز فترة الانتظار في خمول ، بل أخذ يبحث عن براهين ليدعم قضيته . لقد لفت الأنظار فيما سبق إلى أن فرنسا نفسها لم تعد مجمع ترونت مجلساً كنسياً عاماً : وهو الآن يكاد يطير فرحاً ، إذ يجد دليلاً واقعياً ، سابقة يخالها لا تقبل الإنكار . لقد حدث مرة واحدة على الأقل — والواقع أنه حدث في ظروف أخرى ولكن مرة واحدة على الأقل في ظرف مثالى فريد — أن الكنيسة الرومانية تقضت قراراً لأحد المجامع . حينما رفضت جماعة الكاليكستيين (٢) في بوهيميا الاعتراف بسلطة مجمع كونستانس فيما يتعلق بتناول القربان المقدس ، لم يعتمد البابا أوجين ومجمع بال هذا القرار ولم يفرضوا على الجماعة المذكورة الخضوع ، بل أجلا المسألة إلى حين إصدار قرار آخر من الكنيسة . ترى ما رأى بوسويه في قوة سابقة مثل هذه ؟ أليست نفس الحالة التى نحن فيها اليوم ؟ « احكم يا سيدى ، إذا كانت غالبية الشعب الألماني لا تستحق على الأقل جميلاً أو معروفاً مثل الذى ناله البوهيميون . . . »

وأخيراً وصل هذا الرد الذى طال انتظاره ؛ وصل في شكل بحث يتبع كتاب مولانوس Molanus « الأفكار الخاصة عن طريق التوحيد بين الكنيسة البروتستانتية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية » ، نقطة فنقطة ، ويستنتج بدوره . ويقول بوسويه فيه إن النهج المعروض مرفوض لا يمكن قبوله ، لأنه منهج تعليق ، يرمى إلى قبول التسكين والتوفيق قبل الاتفاق على المبادئ ،

(١) رسالة في ١٧ يناير ١٦٩٢ .

(٢) الكاليكستيون : Calixtine أسامع جان هوس في القرن الخامس عشر . وجان هوس زعيم إصلاحى ولد في بوهيميا وأحرق حياً بأمر صدر من مجمع كونستانس في عهد سيغزمووند امبراطور ألمانيا ، بالرغم من أن هذا الامبراطور كان قد أمّنه على نفسه . [الترجمان]

وإن المنهج الوحيد المقبول هو المنهج البياني ، الذي يعرض المبادئ قبل التعرض للوقائع . أما ابنه بمصاحلة في الناحية العملية ، ثم استدعاء مجلس للاتفاق الودى على المذهب ، ثم الوصول أخيراً إلى مجمع يحكم فيما تعذر الاتفاق عليه ، فهذا هو الخطأ كل الخطأ ! يجب أولاً عقد مجمع يتقبل توبة البروتستانت ، ويعدنذ ننقل إلى التوفيق . وإلا فانا نتنازل مقدما في المسألة الأساسية وهى : إذا كان البروتستانت يريدون العودة إلى الاتحاد الرومانى قبلما يخضعون ، فهم إذن لم يعترفوا بخطئهم ، وبذلك يرفضون الاعتراف بسلطة الكنيسة ؛ وهنا كل المسألة .

الواقع أن المنهج يتضمن الأفكار التى يتكون منها جوهر الجدل . فالكنيسة معصومة من الضلال ، وما قرره مجمع ترائنت يسرى إلى الأبد . أما القول بأن فرنسا لم تعترف بصفته « العمومية » فتعسف باطل ، لأن رفض فرنسا لا يتعلق إلا بحقوق الصدارة والألوية ، وبالامتيازات ، وبحريات وعادات المملكة دون أدنى مساس بمسائل الإيمان . والاستشهاد بمثل الكاليكستيين تعسف باطل بالمثل : فالفحص الذى وعدوا به فى بال لم يكن يرمى إلى إعادة النظر فى قرار مجمع كونستانس ، بل لتأييد هذا القرار بإيضاحه . وما دام ليبنتز يسأل صراحة عن قوم مستعدين للخضوع لأحكام الكنيسة ولكن لديهم أسباب تدعوهم إلى عدم الاعتراف بعمومية مجمع من المجامع ، أيجب أن نعدهم ملحدين ؟ — فان بوسويه يجيب بنفس الصراحة : « أجل أولئك ملحدون ، أجل أولئك عنيدون . » وعلى ذلك يجد ليبنتز أنه لا جدوى من الدفاع . ويرد بأنه قول عجيب ، أن يقال « كانوا بالأمس يعتقدون ذلك ، إذن ينبغى اليوم أن نعتقد كذلك » . ولا جدوى من استشهاده بالسوابق ، فليس فيها غناء . إن بوسويه أقام أمامه جداراً يرى أن لا ثغرة فيه ، وأوشك الجدل أن يتوقف .

إلا أنه استؤنف . وقد زالت شخصيات الصف الثانى إذ أقصاها الموت ؛ وبقى بوسويه وليبنتز وبذا بقيت بارقة من الأمل . فى ٢٧ أغسطس من عام ١٦٩٨ عاد ليبنتز فكتب فى دير لوكم « مشروعا لتيسير الاتحاد بين البروتستانت والكاثوليك » ، اختتمه بأتهال مؤثر إلى الله . واستأنف مراسلاته مع بوسويه . ولكن بقيت الأدلة والحجج على ما هى عليه — إلا واحداً .

ليبنتز وإفلاس وحدة الكنيسة

٢٣٣

فإن إصرار ليبنتز على إثبات خطأ الزعم بأن الكنيسة لم تتبدل أبداً ، استدعى التعرض لمسألة صحة الكتب المقدسة . فقد لاحظ أن الكنيسة الحالية ترى صحة كتب كانت الكنيسة القديمة ترى صحتها محل شك ؛ إذن فقد حدث تبدل في التقاليد . . . واستمر الجدال عنيماً دقيقاً حتى اللحظة التي أصبح موت بوسويه فيها وشيكاً ؛ وأصبحت الرسائل المتبادلة بحوثاً مطولة حتى إن أحدها تضمن ١٢٢ باباً ، ولكن أهنأك حاجة للقول بأن ليبنتز ، باثارته الارتباب في صحة الكتب المقدسة — قد خرج على وسائل المصالحة ٩

وواصل هذان العاملان العظيمان ، اللذان لم يقعهما يوماً تعب أو ألم ، عملهما إلى النهاية ، كل طبقاً لقانونه . استعمل ليبنتز ذكائه المرن الخارق ، وقدرته الدبلوماسية ، فقد ابتدأ بالحذر واللباقة : لأن الأمر — على حد قوله — لم يكن أمر نزاع أو تأليف كتب ، بل تعرف المشاعر والآراء ، وقياس القوى ، وأخذ يتحمس رويداً رويداً ، فقد عيّل صبره إزاء مقاومة عنيدة لم تنجح إرادته الطيبة ولم تفلح عبقريته في التغلب عليها ، وأخذت لهجته تشتد فيتكلم عن « السخافات » ، وينعى على بوسويه التواء أساليبه ، وميله إلى التضليل ، والتجاء إلى التهويل ، فبدأ أسلوبه مشوباً بشئ من الحسرة والمرارة . إن هذا الأسقف مفطور على العناد ، فالأفضل أن لشرك معه بعض المدنيين وأن نأتمر معهم . فلاولئك الأكاديميين نظريات خاصة وآراء مغرصة . أما هو فلا يروم إلا التوفيق والمصالحة . إن ذاكرته الغضة دائماً متأهبة لأن يمثله بأمثلة يستطيع الحاضر أن يهتدى بها . وتفكيره دائماً يحمله على أن يكتشف في المتناقضات أوجهها للاتفاق ، وأن يختزل الصعوبات ، وأن يخلق الانسجام . وعنده من الروح السياسي أكثر مما عنده من الروح الديني ، فالرهان في نظره من الأهمية بمكان ، وهو حقيقى بالأغضاء بعض الشئ عن قواعد المبراة . نقطة واحدة هي التي لا يمكن أن يغضى عنها ، وصحيح أن هذه النقطة تجر الباقى وراءها : الحق في حرية البحث والفحص ، ورفض الخضوع لسلطة دجاطيقية تحكمية . وقد شعر بحزن وألم لاخفاقه في محاولاته ، ولم يتخل دون حسرة ، عن المشروع الذي كان ينتظر منه خيراً عمياً لأوروبا وللإنسانية

جمعاء . ويخيل إلينا أننا لاشتم أيضا رائحة الحسرة ، ولوم الآخرين ، في تكراره العنيد لهذه الفكرة « تسجيل براءته من مسؤولية ما قد يحره الشقاق على الكنيسة المسيحية من شرور وويلات . » — « وعزأؤنا أننا لم ندخر وسعا فيما اعتقدنا أنه واجب علينا ، ولن يستطيع امرؤ أن ينعى علينا الشقاق ، وإلا كان هذا هو الظلم المبين . » — إن الكنيسة الرومانية « هي سبب الشقاق ، وهي التي تبحر الشفقة التي هي روح الوحدة . »

وبوسويه أرهف حساسية إلا أنه يخفى تأثره . فاذا هو أهان لينتز بوصفه بالاحاد والعناد ، وإذا شكّا لينتز من هذه التهمة ، فهو يأسف ويحزن ولكنه يقول : لو لم أتكلم بتلك الصراحة التي طالبنى بها لينتز ، لانهنى بالاف والدوران . وهو يرد على المؤاخذات بتواضع برى : « إذا تفضلتم بتبيين الأسباب التي تدفعكم إلى الظن بأنى لم ألب رغبتكم ، فاني أؤكد لكم أنى سأقوم بتنفيذها بتماها دون نظرة منى إلى يمين أو شمال ، بل بكل استقامة النية الطيبة التي يمكنكم أن تتوقعوها من رجل لم يجد يوما سعادة أوفر من الاشتراك مع رجال يمثل هذه المقدرة وهذا الشرف ، في علاج جراح الكنيسة التي ما فتئت تنزف بفعل الشقاق الذي يؤسف له أشد الأسف . » إن الفكرة التي راودت ذهن لينتز وهي : تكليف الأسقف الكاثوليكي سينولا بكتابة مذكرة تعرض وجهة نظر البروتستانت ، بينما يكتب هو مذكرة بوجهة نظر الكاثوليك ، فكرة لم تكن لتتولد يوما في ذهن بوسويه . فليس للحقيقة وجهان . بل الحقيقة واحدة لا تتغير . وهي أيضا أبدية . فهو يتمسك بالمبدأ الذي غذى فكره ، والذي هو ناموس روحه ، والموجه لنشاطه وحياته : لا تشبث إلا بما يبقى ويثبت . وهو يرى — بقلب أقل حزنا لكن في غير ضغينة أو سرارة — إبعاد هذا السراب الذي لم يفتنه كثيراً في يوم من الأيام . فالروح الدينى عنده يتغلب على الروح السياسى . فهو يعرف أن رفض المصالحة هو رفض إعادة السلام الروحى إلى أوربا . ذلك السلام الذى لم تكن يوما في حاجة إليه أكثر بما هي الآن . لكن إذا لم يكن بد ، للتوصل إلى هذه الوحدة ، من الاعتراف بأن الكنيسة الكاثوليكية عرضة للخطأ ، وأنها أخطأت في أحكامها ، وأدانت وطردت بغير حق ، وأنها تناقض نفسها وتتغير — فان ذلك يكون قضاء على مبادئها بالذات . فأى ثغرة تصيب السلطة ، تجر وراءها الكفر يتوالى في إثر

الكفر ، وتؤدي إلى دمار معبد اليقين . فاختار بين النظريتين : فليبق المنشقون في ضلالم ، ولتبق الكنيسة كشجرة راسخة عتيقة لم تفقد إلا فرعاً واحداً جافاً .

وانتهى به الأمر فيما بعد ، فقد عمر طويلاً ، فهو شيخ عجوز . ويتخلى عنه الناس حتى أولئك الذين كان عليهم أن يؤازروه . وهو يشكو من حصاة ولذا يتألم ويتأوه . وعندما يتيح له مرضه لحظة راحة ، يركب في محفته ويلتجئ إلى الملك ، الذي كان يستمد منه القوة والشجاعة فيما سبق ؛ ولكن الملك كان بالمثل يمنح إلى الغروب ، ولا يستطيع أن يأتي بمعجزة ليعيد الشباب إلى الذين أصبح اقترابهم من القبر وشيكاً .

وقد كان يقاوم المرض الذي يضنيه ، « يقف على رجله بصعوبة » في تهالك مؤثر ، ليحاول تأدية فروض الاحترام للسيد . لا يرى الناس سواه في لرساي . ورجال البلاط يسخرون من هذا الشيخ المحطم ، المضحك المزاحم . ومدام دي مانتنون القاسية تهمس « أتراه يود أن يموت في البلاط ؟ » . وفي عام ١٧٠٣ ، في حفلة عيد صعود العذراء التي أراد أن يحضرها ، كان موضع مشهد أليم جعل الأصدقاء يحزنون له ، والحايدين يعطفون عليه ، وعجائز البلاط يسخرون منه . وكانت مدام دي مانتنون تسر إليه على طول الطريق « تنجاعة يا سيدي فسنصل عما قريب » . ويقول الآخرون « آه . . . يا للسيد المسكين ! » ، ويقول غيرهم « لله دره ! » ، بينما تقول الأغلبية « ترى لم لا يذهب ليوت في منزله ؟ (١) . »

ولم يكن ليبنتز أسعد حالا . فهو يواصل أحلامه . إنه يفكر في تحويل الصين إلى المسيحية ، لا بإيضاحه للصينيين أنهم على خطأ ، بل بتبيان أوجه الشبه بين ديانتهم وبين المسيحية ، مستعيناً بفكرة الوحدة الجوهرية للفكر البشري . ولكن الحقيقة الواقعة تخيب ظنه ، لأنها ليست مادة يشكلها المرء على هواه ، ولا يستطيع الفكر أن يبدلها بغير مخاطرة ، إنها تقاوم مقاوسة لا تغلب . لقد ضاع الأمل ، فلا لغة عالمية إذن ، ولا وحدة للكنيسة ، كل

(١) جيرو ، اوسويه ، ١٩٣٠ ، ص ١٣٩ ، V. Giraud, *Batsuet*, 1930

هذه المشروعات لا طائل من ورائها ، إن هي إلا ظلال يتعذر الوصول إليها .

لقد وصفه فونتنيل كبطل ظالم حينما أطراه أمام مجمع العلوم بباريس (١) : « ما أشبهه بأولئك القدماء الذين أوتوا من المهارة ما يمكنهم من سياسة ثمانية جياذ مجتمعة مشدودة إلى عربة ، فقد أجاد دراسة العلوم مجتمعة . » كما وصفه أيضا من ناحيته الانسانية : « كان دائما السيد المطلق في منزله ، لأنه كان يتناول الطعام دائما وحده . ولم ينظم وجباته في أوقات معينة ، ولم يعيش حياة بيتية ، بل كان يستحضر من أي بدال ما يحسده عنده للغذاء . وكان ينام أغلب الوقت مستلقيا على مقعد ، ومع ذلك كان يستيقظ مبكرا موفور الراحة مكتمل النشاط . ثم يبدأ على الفور في الدراسة ، وعاش أشهرا بتمامها دون أن يترك مقعده . . . » وكلما تقدم العمر بليبنتز تجلت حقيقة هذه الصورة . إنه يعيش وحيدا . تخلى عنه أولئك العظماء الذين كان يعتمد عليهم في تنفيذ أغراضه . — ولما أصبح « منتخب هانوفر » ملكا على المجلترا في يناير من عام ١٧١٤ ، رفض الناس خدمات ذلك الشيخ المريض . ولما كان لا يتردد على المعبد ولا يقترب من القربان فقد عدوه ملحدًا وخاصمه الرعاة . وتوفي في ١٤ نوفمبر من عام ١٧١٦ ؛ فدفن بغير احتفال ولا شهود ولا شفقة : « كأنهم يدفنون قاطع طريق ، لا رجلا كان فخر وطنه » .

فلنخلق في سماء الخيال — لقد مرت لحظة بدت فيها وحدة الكنيسة وشيكة التحقيق ، لحظة من اللحظات التي « قل أن يوجد بها عصر بأكمله » . « إن يد الله لم تنقبض » ، هذا ما ديجيه ليبنتز إلى مدام دي برينون في ٢٩ سبتمبر من عام ١٦٩١ ؛ — « إن الامبراطور يميل إلى التوحيد ، والبابا إنوسنت الحادي عشر وجماعة من الكرادلة ورؤساء الكنيسة ، ورئيس القصر المقدس ورجال اللاهوت ، قد أبدوا آراءهم في هذا الموضوع ، بعد قتله دراسة ، بشكل يدل على تمام التأييد والتعبيذ . ولقد طالعت بنفسى نص الرسالة التي كتبها الأب نواييل الرئيس العام لجماعة الجيزويت والتي يستحيل أن تكون أدق

(١) عين فونتنيل سكرتيرا دائما لمجمع العلوم في باريس وقد كتب بصفته هذه مقالات تخطيطية رائعة عن أعضاء المجمع السابقين . [الترجمان]

وأوضح من ذلك ، ويمكن القول بأنه إذا كان ملك فرنسا والأساقفة ورجال اللاهوت الذين يشير إليهم ، ينضمون إلى هذا المشروع ، فسيكون ممكن التنفيذ بل وشيك التحقيق . وهكذا تتحقق الوحدة ، وتستصلح الكاثوليكية ، وتعود البلاد الجرمانية واللاتينية إلى اتحادها الروحي الوثيق ، وتنضم الأراضي الواطئة وإنجلترا بدورها إلى كنيسة رومانية وإصلاحية في نفس الوقت ، ويقاوم المؤمنون ، كل المؤمنين ، قوات التفرقة والتشتيت التي تهدد الإيمان . ولنهبط الآن إلى ميدان الواقع . لحجده البروتستانت والكاثوليك يعجزون عن الاتفاق ؛ لقد مضت الساحة المناسبة ، وأخفق أسهر الرجال وأكثرهم عناية وسهرًا في المهمة التي أخذها على عاتقه ، وابتهج أعداء المسيحية وانتصروا . فما أشد الدمار ، وما أكثر الخراب !

يريد البعض إبدال إله إسرائيل وإسحق ويعقوب باله مجرد ، هو في جوهره نظام الكون ، ولعله الكون نفسه . وذلك الإله المتخيل لا قدرة له على المعجزات . إن المعجزات تتم عن أهوائه أو تكشف تناقض أفعاله ، وبذا فهي لا تؤيد وجوده بل تنكره . ولم يعد للسلطة قيمة ، أما التقاليد فكاذبة ، وأما الارتضاء العالي فلا يمكن إثباته ، وحتى إذا أمكن إثباته ، فلا شيء يمنع من أن يكون ملطخًا بالضللال . وشريعة موسى لم تعد تقدر الكلمة التي أملاها الله عليه في جبل سيناء وسجلت بتأسيها على الفور ، بل هي قانون بشري ما زالت فيه آثار للشعوب أورثتها العبريين ، وعلى الأخص آثار المصريين . والكتاب المقدس لا يفترق عن غيره من الكتب ، فهو حافل بالتزوير زاهر بالتبديل والتحويل ، لا يعدو كونه عدة أضيير ضم بعضها إلى بعض بوساطة أياد غير ماهرة ، ويفعل عقول غير صقيمة لم تعن بالتواريخ ، حتى لقد أخذت البداية على أنها النهاية في بعض الأحيان . فام يعد الكتاب المقدس يبدو إلهياً . وجعلت السلطة الملكية تفقد أيضاً صفتها الإلهية . وأعلن الناس ضدها الحق في العصيان . وأبدلت علامة الإيجاب بعلامة سلبية في كل مكان . ولما توفي لويس الرابع عشر ، كان الإبدال يبدو وشيك الاكتمال .

وما من شك في أن العقائد التي كان يستند عليها المجتمع القديم ، وعلى الأخص المسيحية ، لم تتعرض يوماً لمثل هذا الهجوم . في عام ١٧١٧ يستسلم

سويفت (١) لنوبة من السخرية التي اعتادها فيقول: « إنه لخطر وحماسة أن نتكلم ضد إلغاء المسيحية ، في زمن أجمعت فيه كل الأحزاب على القضاء عليها ، الأمر الذي يثبتونه قولاً ، وكتابة ، وفعلًا . فالدفاع عن المسيحية ، وتبيان أن إلغائها لا يتم إلا لقاء بعض المحظورات ، ولا تنجم عنه العواقب الطيبة المرجوة ، لا بد من أن يكون مشروع عقل شاذ . . . » إن كلمة سويفت هذه ، تترجم من اضطراب الضمائر المسيحية ، عندما تشاهد نتائج حركة تحريرية طالت خلال سنين ، حركة لم تثن هيجات صغيرة خفية ، بل هاجمت علناً ، في وضع النهار .

إلا أن أوروبا لا تحب الخرائب ؛ بل هي لن تحملها أبداً إلا كنزوة عارضة ، تجعل منها زينة لحوائقها ومغاليها ؛ لا لشيء إلا لتبرز ، بتناقضها ، روعة نماء الأشجار ولضرة الأزهار . لقد توقف أكبر الارتيايين ، من بين العقول التي تتبعنا لنشاطها ، أمام خطر الانكار المطلق nihilisme ، الذي كاد يوقعهم فيه شكهم . إنهم لم يتذوقوا « تلك الراحة التامة » ، بالنسبة للإرادة أو بالنسبة للدراك » ، الراحة التي كان « يرون » يرى فيها الحكمة والسعادة (٢) : فإذا كان عقلهم قد مال بهم في بعض الأحيان إلى جانب أسباب التفتيد le contre أكثر مما مال إلى جانب أسباب التأييد le pour ، فإن إرادتهم مع ذلك لم تضعف ولم تستسلم . فلقد أعلنوا جميعاً أنهم لم يدمروا البناء القديم إلا ليشيدوا بناء آخر ، قد رسموا مشروعه ، ووضعوا أسامه ، وأقاموا جدرانهم ، إيان قيامهم بعملية التدمير . تدمير ، وفي نفس الوقت إنشاء من جديد . فإذا نحن أردنا أن تم فهم الرجال الذين عاشوا وسط هذه الأزمة الخطيرة ، فعلينا أن نراهم الآن في محاولتهم الانشائية الإيجابية .

(١) ج. سويفت : برهان يثبت أن إلغاء المسيحية في إنجلترا قد لا يحدث ، فيما نحن فيه من ظروف ، إلا لقاء بعض المحظورات . وربما لا تنجم عنه العواقب الطيبة المرجوة منه في عام ١٧٠٨ : J. Swift, an argument to prove that the abolishing of Christianity in England may, as things now stand, be attended with some inconveniencies, and perhaps not produce those many good effects proposed thereby. written in the year 1708.

(٢) موريري ، القاموس ، باب يرون Pyrrhon .

القسم الثالث محاولة الانشاء من جديد

الفصل الأول

لوك ومذهب التجربة^(١)

لم يكن بد إذن من بدء الرحلة الطويلة من جديد ، وتوجيه القافلة البشرية إلى طرق أخرى ، صوب أهداف أخرى .

وكان الواجب يقضى بادی ذی بدء ، باجتنا ب مذهب الارتیائية ، الذی كان هایل نفسه یخشا . « المناقشة فی کل أمر دون اتخاذ قرار إلا إرجاء الحكم » ، هذا ما یؤدی إلى الخمود ، بل إلى الموت . فمذهب الارتیاب ، ولو أنه معوان صادق یضمن للعقل حریتة فی الاختیار ، قد انتهى به الأمر إلى القضاء علی الإرادة ، بل إلى قتل کل احتمال فی الاختیار . فالأمر لا یتعلق بالمناقشة غیر المجدیة ، والموازنة بین ما للشیء وما علیه ، le pour et le contre بل یتعلق بالاسراع نحو أقاصی السعادة .

لقد شرح فونتنل لتلمیذته المركیزة (٢) — وهما یتأسلان النجوم سوا — أن الفلسفة تقوم علی أمرین : أن ندینا ذهنأ مستطلعا وعمیونا کایلة . حتی إن الفلاسفة یقضون حیاتهم فی عدم التصدیق بما یرون ، وفی محاولة إدراك ما لا یرون ؛ وتلك حالة لا تطاق . وقد كان الأوفقی ألا تشغل البال بما لا نرى ، وأن نصدق بما نرى . وإن منهجا للحیاة یحقق هذین الشرطین ، لیكون خیرا للناس ، فانه یتقدم من الشك . ولتحقیق هذا الغرض ، یتدخل لوك .

(١) L'Empirisme .

(٢) أراد فونتنل أن یشرح فلسفته فی أسلوب شائق ممتع ، تقدمها فی شكل محادثات بین فیلسوف ومركیزة تتلمذ علیه . والكلام الذی أورده المؤلف مقتطف من کتاب فونتنل « ابتسام العقل » ... Fontenelle : *Le Sourire de la Raison* . [المترجمان]

* * *

لقد ظهر في الوقت المناسب ، كرجل مصلح محسن ، لأنه أثبت قيمة الواقع وسمو فضله . ولا نقصد الواقع التاريخي الذي أنكر وأدين وألغى . إذ تلك مسألة لا يستطيع امرؤ أن يعود إليها ، فقد بت فيها . فالوقائع المفقودة في غياهب ماض لا بعث له ، لم تعد تصل إلى الناس ، إذا أرادوا أن يعيدوها إلى وضوح النهار ، — إلا سيئة التفسير ، مزورة ، كأنها بالكذب ملطخة ، فلم يستطع ذوو العقل السليم أن يثقوا بها . لم يكن بد من يقين آخر ، وجون لوك هو الرجل الذي كشفه .

ذلك أنه يبين للمفكرين الحقائق السيكولوجية ، الكامنة في النفوس ، حية ، لم يعتورها فساد . والعقل ، في هذا الميدان ، يعين ولا يشل ، فهو ليس ملزماً — مهما أوتي من حذر — بتسجيل معارف أولية تبعد عن تناول النقد فحسب ، بل يجد أيضاً غبطة في الكشف عن ظروف لشاطئه الخاص ، التي كان يجهلها . هكذا يقبل العقليون تحالفاً يتقدم من الشك ، فالتفكير في القرن الثامن عشر ، الذي تمتد جذوره إلى القرن السابع عشر ، — عقلي rationaliste في جوهره ، وتجريبي empiriste بالاتفاق .

كان لوك يبدو وكأنهما قد خلقا خصيصاً ليكون فيلسوفاً بحق . فهو أولاً إنجليزى : ولذا فهو عميق التفكير . ثم إنه لم يقنع بدراسة الميتافيزيقا ، بل درس العلوم التجريبية ، الطب ، فقبلاً ينشغل بالروح ، اهتم بمعرفة الجسد : وهذه حيطة طيبة أهملها الخياليون . وقد شارك في الشؤون العامة ، فكان كاتباً سر للورد أشلى Lord Ashley كواث شافيتسبرى وموضع ثقته ، ثم فقد هو ومسيده حظوتهما لدى الملك ، ونفى إلى هولاندة ، ثم رجع ظافراً مع وليم أورانج ، فكان من أولئك الذين أسسوا إنجلترا الجديدة ، التي لا تغلب . ولكنه كان عاقلاً في قناعاته بالوقوف في الصف الثاني ، فقد استطاع بتواضع قليل أن يشاهد ما جيل عليه الناس من ختل ودهاء . ولما كان مسقماً عليلًا ، فإنه لم يستغرق في الحركة والنشاط بالمتعة التي يجدها الأشداء : بل تصرف بتحفظ وحكمة كأنما ليحسن التفكير . وقد زادت رحلاته مرونة ، فقد أقام طويلاً في جنوب فرنسا دارساً عن كثب ذلك الشعب الذي ليس كريهاً ،

وإن بدا غريباً : فدرس أخلاق الفرليسيين ، وغذاءهم ، وكيف يفكر منهم من يفكر ، وكيف يعمل منهم من لا يفكر ؛ وكيف كانوا يصنعون تلك المنتجات اللذيذة التي لا توجد في إنجلترا ؛ الزيت والنبع ؛ وكيف ولماذا كان فلاحهم تعساً . وقد صادق في باريس الأطباء والفلكيين ومختلف العلماء ، والبحاث والقلقين *les inquiets* . ولكن هولندا كانت أنفع له ، إذا صح أنه لا مدرسة أكثر فائدة ولا أقسى من مدرسة المنفى . ولا طرد من بلاده ودار في بلاد « الملجأ » تائها معاشراً دعاة الإصلاح ، والخوارج ، ومعارضى الأورثوذكسية ، رجع إلى مدرسة التفكير . وأخيراً أصبح مريباً ، وهذا أيضاً نوع من التعلم ؛ ولأى تلميذا لابن حاميه لورد-أشلى - شافنسبرى ، الذى سيطالب قريباً بمكانه بين أعلام الفلسفة الجديدة . وجون لوك رجل مذهب *gentleman* لعدم زهوه بعلمه ، ولبعده عن العجرفة ، ولبساطته وحكمته ، (باستثناء بعض نوبات من الغضب الشديد) ولأنه محبوب في الحياة كما هو في كتبه ، ولا يزدان به خلقه من نبل طبعي ، وهو لا يشبه الأستاذ ذا الرداء التقليدى والقلنسوة المربعة في شئ ؛ لا يتيح له صدره الضعيف أن يصبح من فوق المنبر ، بل هو يخاطب الدنيويين في إسهاب وأناة . فالفلاسفة الحقيقيون سيكونون فيما بعد من الدنيويين ؛ لن ينتخبوا - إلا فيما ندر - من بين رجال الدين ، ومن بين أساتذة السوربون أو السابيتزا : بل سيندحجون في الحياة لكي يديروها .

* * *

ابتداً بفلسفة المشائين التي درسها في أكسفورد ولم يستسغها . وظل مدة طويلة ، يبحث عن طريق ، متخذاً من باكون وغاسندى وديكارت أدلاء ؛ ولكنه لم يكن يثق إلا بنفسه . في شتاء سنة ١٦٧٠ - ١٦٧١ ، بينما كان يتحدث في الفلسفة مع بعض أصدقائه ، وجد أنه كان في حاجة إلى قاعدة أكيدة ؛ فمبادئ الأخلاق والدين المنزل لا يمكن أن تقوم على أساس سليم ، مالم « نفحص قدرتنا الشخصية ونعرف أى الموضوعات تقع في متناولنا وأياها فوق إدراكنا . » إذن ، لابد من أن تقدر قوات الإدراك بالتدقيق قبل أن نشرع في أى خطوة أخرى ، ولا ينبغي أن نعیش على الاحسان ، ولا أن

نركن في كسل إلى آراء الناس ، ولا أن نهتم بما إذا كنا في حماية أفلاطون أو أرسطو ، ولا أن نقسم بأقوال الأساتذة ؛ بل بالعكس يجب أن نجعل من الحقيقة هدفنا الوحيد ، وأن نتوسل إليها بروح الفحص . إنك تجد ، في بداية حياة لوك الذهنية ، نفس هذا العزم على الاستقلال ، ونفس هذه الحاجة إلى التجديد ، ونفس هذه الرغبة في ألا يعتمد إلا على تفكيره الذاتي ، وهذا ما كان يختمر في الضمائر إذ ذاك .

إن هذا المنهج ليس من فعل رجل منعزل . بل يخيل إلينا أننا نسمع أولئك الأصدقاء الذين يسألون لوك ، لأنهم في حاجة إلى أن يطعمهم ؛ ويقوضون أجدورهم بإيجاد فلسفة تسكن ارتياهم ، وهم بذلك إنما يترجمون عن مقتضيات زمته . إن لوك قد امتدعاه زمنه ؛ إنه ظل طول مدة تعليمه على صلة مباشرة مع معاصريه ، مستمعاً إلى سؤا لهم ، ذلك السؤال الخالد الذي أصبح عويصاً ، لأن الأجوبة التقليدية لم تعد تكفى وهو : ما هي الحقيقة ؟ *Quid est Veritas* ؟ عليه أن ينطق بهذه الحقيقة الجديدة . وبدأ منذ عام ١٦٧١ يسطر على الورق بعض الأفكار التي سرعان ما كونت مجموعة كان يمكنه أن يطلع بها على الجمهور كما هي عليه ؛ ولكنه سينتظر قرابة عشرين عاماً في استكمالها وتجربتها ، مطلقاً خاصة أصدقائه على مخطوطه ؛ لا منعزلاً بل اجتماعياً . كان يفكر ويشغل ، ويعمل شيئاً فشيئاً على استكمال مذهبه ، سواء في طرق فرنسا ، في الفنادق ؛ أو في لندن في وسط ضجيج السياسة ؛ وفي أكسفورد ملجئه العزيز ؛ وفي روتردام وأمستردام وكليف . وأخيراً عندما شرح نظرياته ، شهد الناس أن لديه قدرة نادرة على إخفاء الحيوة على أي موضوع يطرقه . لأنه لم يقتصر على الفلسفة المحضة ، بل كان يروق له أن يبدى رأيه في الدين وفي السياسة وفي البيداغوجيا ؛ وكلما نشر كتاباً أثار أصداء لا نهاية لها . لست أرى رجلاً غيره ، لم يكتب شيئاً إلا بدا جوهرياً ، سوى جان جاك روسو ؛ الذي كان يثير دائماً اشتعلاً كلما تكلم في الدين أو السياسة أو البيداغوجيا . إلا أنك لا تجد لدى لوك — الذي تخفى رصانته طيبة — تلك الحرارة التي يشعل بها روسو كل من يقربه . ولكنه استشعر قبل روسو ، نداء الضمائر فاستجاب إليها ؛ هنا سر قوته الفعالة . إن كتيبه تبدو كحادثات تؤثر على القارئ ولا تسمح له بالانصراف إلا مقتنعاً ، فهي تقنعه بالتكرار مائة

سرة ، وتكسبه في صبر وأناة ، إن ألفاظها تطوقه وتستبقيه . أما وسائله ، فهي الأدب الرشيق ، وجزالة الأسلوب ، وشئ من التدفق الواضح . فالغموض ، والاغراق في التركيز ، والتغالي في التعمق ليس من شأنه ؛ بل هو لا يقبل غير الواضح المبين ، وينأى عندما يجادل روحاً ميتافيزيقياً كروح مالبرانش . « يجب الاعتراف بأن لدى هذا الفيلسوف تعبيرات كثيرة لا تقدم لعقلي أفكاراً واضحة بينة ، ولذا فهي ليست سوى أصوات لا تستطيع أن تأتية بأى نور . . . » — « هنا أجد نفسى أيضاً في ظلام كثيف . . . » — « يخيّل لى أن أى كاتب يحشم نفسه مشقة التعبير عن أفكاره في غموض ، لم يكن لينجح كما نجح الأب مالبرانش هنا . . . » . ما أبعد لوك عن هذا الغموض ! — « بما أنى لم أقصد من نشر هذا الكتاب ، إلا أن أكون مفيداً بقدر ما أستطيع ، فقد اعتقدت أنى ملزم يجعل كلامى واضحاً مفهوماً بقدر الامكان ، لكل أنواع القراء . أفضل أن يشكو أصحاب العقول النظرية والثاقبة من أنى أضجرهم في بعض صفحات كتابى ، على أن يعجز بعض الأشخاص الذين لم يأنسوا المطالعة العلمية والمجردة — أو الذين أشربوا معارف تناقض ما أقدم لهم — عن إدراك معنى كلامى أو فهم أفكارى . . . »

ذلك هو شعوره وتلك هى طريقته . أفلم تكن أيضاً علامة من علامات الزمن ، هذه الإرادة الصريحة فى ألا يقصد المؤلف إخصائى الفلسفة لحسب ، وأن يغضب عند اللزوم العقول « النظرية الثاقبة » ، بل يخدم كل الذين يبحثون عن قاعدة صالحة للحياة ؟

وأخيراً ظهر كتابه فى عام ١٦٩٠ ، تحت عنوان متواضع ، « مقال عن الادراك الانسانى » *An Essay concerning human understanding* . ومهما قال أولئك الذين لا يحبون فى الفلسفة « الألعاب الكبرى » أى الموضوعات العميقة فانه كان تاريخ تبدال قطعى ، تاريخ اتجاه جديد . لقد أُنِيع للسان منذ ذلك اليوم أن يتخذ من ثروة العقل الانسانى اللاهائية موضوعاً لأبحاثه . يقول لوك : فلندع تلك الفروض الميتافيزيقية : ألم نر أنها لم تؤد أبداً إلى نتيجة ؟ ألم نتعب من أسئلتنا غير المجدية ؟ من استطاع أن يحدد طبيعة الروح

وجوهرها ؟ أن يبين أى حركات يلزم أن تثار في عقولنا الحيوانية ، أو أى تبدلات يجب أن تحدث في أجسامنا لكي تولد — بواسطة أعضائنا — مشاعرنا وأفكارنا ؟ إن الجسد يخضع للروح ، إن الجسد يؤثر على الروح : وما تكاد الميتافيزيقا تتدخل حتى يصبح هذا الواقع التجريبي ، الذي هو واضح كل الوضوح في ذاته ، سرا لم يعمل العلماء إلا على زيادة غموضه ، فلندعه ؛ فلا مدعاة للاهتمام به . إذا كانت هناك جواهر خارجية عنا (ولا شك في أنها موجودة) ، فليس لدينا أى وسيلة لنذكر حقيقة كيانها ، فلماذا نحاول إدراكها بأى ثمن ؟ فلندع فيما بعد هذا البحث المؤيس الذي لا رجاء فيه . إن اليقين الذي نحن في حاجة إليه موجود في نفوسنا ، فلننظر إلى هذه النفس ، ونحول عيوننا عن ذلك الامتداد اللامتناهي الذي يخلق السراب ولنركز بصرنا عليها . أما وقد عرفنا أن إدراكنا محدود ، فلنقبل حدوده هذه ؛ ولندرسه كما هو ، ولنعرف كيف يعمل . فلنلاحظ كيف تتكون أفكارنا وتتركب ، وكيف تحتفظ بها ذاكرتنا ، فقد كنا نجعل ذلك العمل الاعجازي حتى الآن . هنا نجد المعرفة الصحيحة ، المعرفة الأكيدة الوحيدة : وما أغناها بالمرئيات حتى لا تكاد الحياة تكفى للتأمل فيها :

« إن مثلنا في هذا الصدد مثل البحار الذي يركب متن البحر . يفهمه جداً أن يعرف طول جبل مسيره ، وإن كان المسير لا يكفيه دائماً لتعرف مختلف أشوار المحيط : يكفيه أن يعرف أن الجبل من الطول بما يكفي ليصل إلى القاع في بعض أرجاء البحر التي تهمة معرفتها لكي يحكم رحلته ، ولكي يهتنب مواطن الخطر . فان شأننا في هذه الدنيا ليس أن نعرف كل شيء ، بل أن نعرف ما يتعلق بتوجيه حياتنا . فإذا كنا نستطيع أن نجد القواعد التي يمكن لخلق عاقل كالإنسان — بالحالة التي هو عليها في هذه الدنيا — أن يستعملها ، ويجب أن يستعملها ، ليدبر مشاعره وما يتصل بها من أفعال ؛ — أقول ، إذا كنا نستطيع أن نصل إلى هذا الحد ، فلا ينبغي أن نزعج لوجود أشياء أخرى فوق متناول إدراكنا (١) . »

(١) عن إدراك الإنسان — مقدمة — ترجمة بير كوست ، Pierre Coste .

أو فلنقل بالفاظ أخرى — (لأن لوك لا يخشى أن يكرر كلامه) — :
ماذا علينا أن نفعل في هذه الدنيا ؟ — معرفة الخالق بما نستطيع أن نعرفه
عن الخلق ؛ معرفة واجباتنا ، ومواجهة مقتضيات حياتنا المادية . ولا شيء
غير ذلك . ومهما كانت قدرتنا ضعيفة غير صقيلة فقد خلقت متناسبة مع هذه
الاحتياجات ، إذن ، فلندع البحث عن معرفة كاملة مطلقة بما يحيط بنا من
أشور تخرج عن تناول مخلوقات الفانية ، — ولنقتنع بما نحن عليه ، ولنفعل
ما نستطيع أن نفعل ولنعرف ما نستطيع أن نعرف . . .
والواقع ، أنه ما يكاد عقلنا يحاول الخروج عن دائرته المحدودة للاتجاه
صوب العلى ، حتى نرى أن هذا البحث لا فائدة له إلا أن يشعرونا بقصور
معارفنا : إذ نصطدم بسياج من الظلام . وعلى التقيض ، لو أننا قنعنا بالدائرة
المخصصة لنا — كالرواد المتواضعين ، لاكتشفنا عالما من العجائب ، ولظفرنا
بالحكمة ، والسعادة . فهل يجب أن نتردد في الاختيار ؟ لنطلق المستحيل ،
فلن نخشى السقوط في الهوة إذا أحكمنا قبضتنا على الوقائع الأكيدة التي يمكن
أن تتناولها أيادينا مهما كانت ضعيفة .
والقيمة الإبداعية لفلسفة لوك ليست في أطراح الميتافيزيقا ، وهو ما قبلته
ضمائر عديدة من قبل ، بل هي في تحديد جزيرة والاحتفاظ بها في لجة المحيط
الهائل الذي يزيغ فيه البصر .

وفوق ذلك فإن عليه أن ينظم هذه الأرض التي يريد إيقادها من الارتياح .
يتبغى أن يعد المعرفة المسلم بها *a priori* كأنما لا وجود لها : يا للتغير . . . !
يجب أن يبدأ كل الفلسفة من جديد على صورة أخرى ، كل الفلسفة ، منذ
أرسطو إلى أحدث الفلاسفة ، فلاسفة مدرسة كبرددج المعروفين باسم الأفلاطونيين
الحجدد Néo-Platoniciens (١) ، و « كادورث » والآخرين ، الذين يدعون بعث
الأفكار . لا توجد أفكار غرزية . ففكرة الأبدية ليست غرزية ؛ ولا فكرة

(١) Néo-Platoniciens مذهب فلسفي ظهر في الاسكندرية في القرن الثالث بعد
المسيح ، وكان من أبطاله فلوطن Plotin ويورفير . . . وهذا المذهب يخط أفكار أفلاطون
بعض أفكار صوفية . [المترجمان]

اللامتناهى ، ولا فكرة المائلة ، ولا فكرة الكل ولا فكرة الجزء ، ولا فكرة العبادة ، ولا فكرة الله . حين يبدأ المخلوق في الحياة ، من المستحيل أن يتميز فيه تلك الحقائق المزعومة التي لا ندري من أين جاءت ، ولعلها مخترعات تفكير. نظري قد اتخذ صوراً عديدة ، من يوناني إلى مدرسي وحديث ، ولكنه لم يقدم لنا سوى كلمات . فلنطرح تلك الأشباح . إن الفكر لوحة بيضاء تنتظر نقش الحروف عليها ؛ إنه غرفة مظلمة تنتظر وصول أشعة الشمس .

هناك عنصر إيجابي يكفي لبناء كل شيء من جديد : الاحساس . إنه يأتي من الخارج ، يصدم الفكر ، ويوقظه ، وسرعان ما يملؤه . وهو يقدم لنا أكثر الأفكار تركيباً وقجرداً مما ينتج من عمل النفس على أساس معارفها الذاتية ، بعد ترتيبها والوصل بينها . بالاحساس ، لا شيء أسهل من بناء نظرية عن المعرفة ، بديهية كانت أو بيبانية ، تهى لنا يقينا ثابتاً مكينا . فالنسبة لم تعد بين الفاعل والموضوع (أى النفس والأشياء) ، بل هي أبسط من ذلك بكثير ، بين الفاعل والفاعل (أى النفس والنفس) ؛ وبذا ، لم يعد الكفاح ضد أسباب الضلال إلا مسألة داخلية ، اتخذ بعض التحولات والاحتفاظ بها . مادام العقل ليس له موضوع آخر لتفكيره واستدلالة إلا أفكاره الخاصة ، وهى الشيء الوحيد الذى يتأمل أو يستطيع أن يتأمل فيه ، فانه بدهي أن كل معرفتنا لا تستند إلا على أفكارنا . . . » يبدو لى أن المعرفة ليست إلا إدراك ما بين فكرتين من أفكارنا من اتفاق أو اختلاف . . . » حتى إن علمنا ، علمنا البشرى ، محتمل كل الاحتمال ومؤكد كل التوكيد في نفس الوقت .

فلنسلم للوك بمبدئه هذا عن الاحساس الغرزي ، نجده على الفور يعيد بناء علم الأخلاق من جديد . نحن نشعر بالمتعة وبالآلم ، ومن هنا نكتسب فكرة المفيد والمضر ، وتتبعها فكرة المباح والحرم ، وبالتالي فكرة أخلاق لا تستند إلا على حقائق سيكولوجية ، أخلاق لها لنفس هذا السبب صفة يقينية ، لم تكن لتتوافر فيها لو أنها قامت على بعض التزام خارجي . فبما أن اليقين ليس إلا إدراك ما في أفكارنا من تناسب وتناظر ، وبما أن البيان ليس إلا إدراك هذا التناسب باستعمال أفكار وسيطة ؛ وبما أن أفكارنا الأخلاقية — كالحقائق الرياضية سواء بسواء — مجردات يؤلفها الفكر ؛ فلا يوجد فرق نوعي بين هذه وتلك والاثنان أكيدتان .

هكذا يستعاض ، رويداً رويداً ، عن الوضع الدجاطيقى بنظرية تقوم على التجربة ، تكشف وتسجل كل أفعال حياتنا السيكلوجية . ما أصل اللغة ؟ هل وضع الله فينا ذلك الترجمان الاعجازى ببعض أسباب من مشيئته ؟ نحن لا نعرف عن هذا شيئاً ، ولكننا نعرف جيداً أن للسان أعضاء مهمتها النطق بأصوات مفصلة ، وأنه يترجم بفضل تلك الأصوات ، عن التبدلات التي تشعر بها حساسيته ، وأن الكلمات تصبح علامات خاصة ، ثم عامة للأفكار . هذه كل البلاغة وهذا كل فن الكتابة ؛ فليكنف الناس عن التحدث إلينا عن أبحاث في الأسلوب أو في فن الشعر ، مالم تستند على هذه الملاحظات البسيطة . إن الكاتب الذى يعرف مصدر الكلمات ومهمتها ، سوف يتجنب استعمال الكلمات التي لا تتضمن أى فكرة واضحة ؛ وسوف يستعملها بشكل ثابت ، وإلا خلط بين الأفكار التي ليست هذه الكلمات غير علامات لها ، وسوف يتجنب الخدق والدهاء والتفخيم ؛ ذلك التغيرير . بما أن المقصود من اللغة هو أن ندخل أفكارنا في ذهن الغير ، فالذى يجيد الكتابة ، ويجيد الكلام هو من يستعمل وسائل الأسلوب في هذا الغرض . فالتحوى نفسه ليس من عمل بعض العلماء الأدعياء ، الذين يفرضون أهواءهم على تلامذة مساكين ، بل له منطقته الخاص ، ويجب إقاسته على أساس الاحساس .

لأن يشاهد الانسان لضج التفكير البشرى ، وفي نفس الوقت قيام العقائد التي تتيح له حياة سعيدة ، واعياً أنه لا شئ إلا ويتولد من أفعاله الخاصة سواء في ذلك العلم أو الاخلاق أو الفن ؛ أهنالك منظر أجدر من ذلك بتهيئة الاهتمام والسعادة والنزھو للمشاهدين ؟ ولا تقصد زهو ذلك الذى يتحدى الآلهة ، مادمن لا يستطيع أن نعد من يعترف بجهله ، ويرضى هذا الاستسلام الهائل ، من بين الموقفين ، إلا إذا ضحينا وصغرنا من شأنهم . وإنما نقصد الابتهاج الذى يشعر به رجل كان مشرفاً على الفرق في الأغوار ، ثم توصل إلى الشاطئ فبنى كوخاً بيديه الحكيمتين القديرتين . إن العنوان الذى اختاره لوك يبدو متواضعاً ؛ فالأمر لا يتعلق إلا « بمقال » Essay ؛ ولكنه مقال عن الادراك الانسانى ؛ عجيبة العجائب . إنه يتضمن مبدأين فقط : تأثيرات الأشياء الخارجية على الخواس ، وعمل الروح الذى يتلو هذه التأثيرات . وهذه المبادئ ، إذا وقفنا على نشاطها ، ودرسناها وحللناها ،

تكنفى لاشباع حب استطلاعنا ؛ إلى هذه الدرجة تأتى بالمعجزات ، وإنها لمعجزات حقيقية . سيتوالى كثير من العلماء قبل أن نعرف على التحقيق ما الارادة ، والذكريات ، وصور الخيال . إن الادراك منجم لا يفرغ ، يعطى معدنا صافيا ، صفته لا تتحدع . « عندما يتعمق الناس البحث إلى أبعد مما تسمح لهم مقدرتهم ، مستسلمين في عرض ذلك المحيط الواسع حيث لا يجدون قاعاً ولا شاطئاً ، فلا عجب أن يكثرؤا من الأسئلة ، ويضاعفوا المشاكل التى لا نفع لها بما أنها لا يمكن أن تجد حلاً واضحاً اللهم إلا اضطراد شكوكهم وازديادها ، ووقوعهم آخر الأمر في ارتياب محض . » وبالعكس ، « إن معرفة عقلنا وحدوده تكنفى لعلاج الارتياب والاهمال الذى نستسلم إليه عندما لشك في مقدرتنا على كشف اليقين » .

يمدح لنا بيير كوست التوفيق الذى لاقاه مؤلف الأستاذ ، في المقدمة التى دبرها للطبعة الثانية باللغة الفرنسية : « مقال فلسفى عن الادراك الانسانى » (١٧٢٩) : « إنه أروج مؤلف لواحد من أعظم العباقرة الذين ظهوروا في انجلترا في خلال القرن الأخير . لقد نشرت منه في حياة لوك أربع طبعات بالانجليزية خلال عشر سنوات ، وبما أن الترجمة الفرنسية التى نشرتها في ١٧٠٠ جعلته معروفا في هولاندا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا ، فقد اشتهر في هذه البلاد شهرته في انجلترا ، إذ لم ينقطع الناس عن التعجب مما يسود هذا الكتاب من أوله إلى آخره من عمق وسعة معلومات ودقة ووضوح . وأخيراً فإن مما يرفع هذا الكتاب إلى ذروة مجده ، مالى من تقدير في أكسفورد وفي كبريلج ، حيث يدرسونه ويشرحونه للشباب كأصلح كتاب تهذيب عقولهم وتنظيم وتوسيع معارفهم ؛ حتى إن لوك يحتل الآن مكان أرسطو وأشهر شراحه في هاتين الجامعتين الشهيرتين . »

إن رواج كتاب فلسفى لمخاسرة فكرية كبيرة على الدوام : أما رواج كتاب لوك فقد تم بسرعة لم يسبق لها مثيل . لقد استفاد لوك من الوسطاء الذين أوجدتهم تحت تصرفه التبدلات التى حدثت في أوربا . وكان صحفىو هولاندا أول من نادوا بشهرته ؛ وعلى الأخص جان لى كايير ، في « المكتبة العالمية » :

مقتطفات من كتاب انجليزى لم يظهر بعد ، عنوانه مقال فلسفى عن الادراك الانسانى ، يشرح فيه المؤلف مدى معارفنا الأكيدة وكيفية الوصول إليها . « هناك منفيان ، أحدهما دافيد مازيل ، والثانى بيير كوست الذى لم ينقطع الناس عن ذكره كأنه ظل للمؤلف — فسر أحدهما تفكيره السياسى والثانى تفكيره الفلسفى . مات لوك فى عام ١٧٠٤ ، ومنذ عام ١٧١٠ قدمت ترجمة « مؤلفاته المختلفة » إلى الجمهور الفرنسى جوهر ما كتبه . وفى ألمانيا ، قرأ توماسيوس « المقال الفلسفى » نحو عام ١٧٠٠ ، فجعل منه هذا الكتاب أحد المبشرين بعهد الأنوار : إن لوك يقف فى منحى الطرق الأوروبية التى تقود إلى العصر الجديد .

والحق أن تفكيره قد تعرض لبعض التبدلات . فمهما كان مذهب يقوم على التجربة والحس ، فانه أوحى مع ذلك بمثلية بركلية *Idéalisme* (١) : وعلى كل ، فان ذلك لا يعد أكبر مغامراته غير المنطقية ؛ لأننا ، إذا صرفنا النظر عن النقطة التى بدأ منها ، وعشنا فى داخل نظريته الفلسفية ، لوجدنا أنفسنا لا فى عالم الحقائق بل فى عالم النسب والصلات . لم يرد ، بأى ثمن كان ، أن يدمجه الناس مع الماديين ، بل كان على النقيض يؤكد وجود كائن أبدي ، جوهر مفكر ، لا حد لحكمته ؛ وكان فى بيانه المسهب الدقيق صفة من الاصرار بل من التعاضل ؛ إذ يثبت فيه أن المادة لا يمكن أن تشترك فى الأبدية مع روح أبدية (٢) . ولكنه قال عرضاً — وكأىما قد فتنه الفكرة التى كونها عن عظمة الله وجلاله — إن الله كان فى قدمته ، على كل حال ، أن يعطى « لبعض كتلة من المادة — إذا وجد ذلك مناسباً — قدرة الادراك والتفكير ... (٣) » وكانت هفوة ، هاجها اللاهوتيون فى الحال ، هفوة استشفها فولتير (٤) واستغلها ، وأذاعها ، حتى انتهت إلى تأويل معكوس

(١) مذهب فلسفى يعتبر الأشياء صوراً عقلية لا أجساماً مادية . [الترجمان]

(٢) مقال فلسفى ... القسم الرابع ، ١ .

(٣) مقال فلسفى ... القسم الرابع ، ٣ .

(٤) فولتير : قال لوك بكل تواضع : « لعلنا لن نستطيع أن نعرف ما إذا كان مخلوق

مادى صرف يفكر أو لا يفكر مثل المعتضدين بالخرافات فى المجتمع مثل ما

فى الجيش : يمتلكهم الرعب بلا داع . لقد صاحوا إن لوك يريد أن يقلب الد

أزمة الضمير الأوربي

لمؤلفه كله : أصبح لوك مادياً برغمه . لكنه كان يريد أن يكون مسيحياً ، وكان التمييز بين العقل والايمان مما يشغله كثيراً : ففائدة العقل « كشف اليقين أو أرجحية المحمولات والحقائق التي يتوصل إليها الذهن باستنباط مستمد من الأفكار التي يكتسبها باستعمال مقدراته الطبيعية أى بالاحساس أو بالتفكير » — أما الايمان فهو « تقبل كل قول لا يستند هكذا على استنباط العقل بل على الثقة بقائله ، على تقدير أنه يأتي من قبل الله ببعض اتصال خارق للعادة . هذه الطريقة في كشف الحقائق للناس هي ما نسميها بالوحي » . إذن فقد كان مؤمناً بالوحي ، بالرسالة الالهية للمسيح ، بسلطة الانجيل ، بالمعجزات ، كان يعتقد أن أشد الناس وسوسة ، وأغرقهم في الارتياح ، لا يمكن أن تخالفهم ذرة شك في الوحي الانجيلي : وهذه كانت ألفاظه بالذات . ولكن بما أنه كان — من جهة أخرى — يلخص العقيدة إلى نهاية صغرى : الايمان بالمسيح والتوبة ؛ وأنه كان يقول إنه لا يشترط شرط آخر لانقاذ الأرواح إلا قبول رسالة المسيح ، والتزام سلوك طيب ؛ وبما أنه كان يرفض الاعتقاد بأن كل سلالة آدم قد حكم عليها بعذاب أبدي لا نهائي من أجل خطيئة الرجل الأول ، الذي لم يسمع عنه قط ملايين من الناس ؛ فقد كانوا إذ ذاك يعدونه بين ناكري الوحي ويشبهونه بتولاند ، ويضعون مؤلفه « المسيحية المعقولة *Christianisme raisonnable* » بجانب « المسيحية دون أسرار » : وكان ذلك يؤله أعمق الألم ، لأنه إنما كان يقصد على التحقيق أن يرد الايمان إلى أولئك الذين نبذوا الدين بفعل آلية التقاليد وغموض العقائد وتباين المذاهب ؛ ولأنه إنما كان يريد أن يثبت أن الدين الطبيعي لا يكفي في ذاته ؛ ولأنه أخيراً إنما كان على التحقيق يريد إلحاح المعترفين بالله الناكرين للوحي ، *Deistes* ، المتذرعين في إنكاره بالمبادئ العقلية .

= رأساً على عقب ... لكن الأمر لم يكن يتعلق بالدين قط في هذه المسألة ؛ بل كانت المسألة فلسفية محضة مستقلة قطعاً عن الايمان والوحي . ما كان علينا إلا أن نفحص بلا مراوة ما إذا كان هناك تناقض بين قولنا : تستطيع المادة أن تفكر ، وقولنا : إن الله يستطيع أن يعطي التفكير للمادة . لكن اللاهوتيون يقولون في الغالب إننا نهين الله لو لم تكن على رأيهم ... « رسالات فلسفية » ، رسالة ١٣ عن لوك — والقاموس الفلسفي لغوتير : باب الروح *Lettres Philosophiques* ، « sur M. Locke » ، [الترجمان]

لوك ومذهب التجربة

٢٥٣

هذه هي عواقب ومخدورات تفكير لم يكن متسقاً على الدوام -- تفكير
هياً الفرص باختياره لمخالفه ، ولكنه بالرغم من التفسيرات الخاطئة ، والانحراف
والتيارات المضادة ، استمر مؤلفه يعمل في اتجاه كان من السهل إدراكه .
ظل لوك الرجل الذى يدعو الحكماء ألا يزرعوا إلا في حديقتهم . حديقة
للزراعة : هل يحتاج الانسان إلى أكثر من ذلك لكي يتوهم أنه في الفردوس ؟
أو على الأقل ليروح عن نفسه ، وليجد بواعث على الحياة ؟ -- ظل لوك على
الأخص الرجل الذى لفت الأنظار إلى ألزم لعبة وفي نفس الوقت أمتعها :
السيكولوجى . دراسة محركات العقل البشرى ؛ والملاحظة والفهم بدلا من
الحكم والادانة : إنه يعمل ويمتعة تناوها كوندياك Condillac ، فالأيدولوجيون
(علماء الأفكار والتصورات) ، ثم تايين Taine بالصقل والتهديب ، حتى
وصلتنا ولا زالت تشغلنا وتسحرنا .

الفصل الثاني

الاعتراف بالله وإنكار الوحي^(١) — والدين الطبيعي

هالك أيضاً إحدى الصلات القوية العديدة ، التي تربط ما بين النهضة والزمن الذي ندرسه ربطاً مباشراً . لقد أتى هذا المذهب — الاعتراف بالله وإنكار الوحي — من إيطاليا ومن ثم هاجر إلى فرنسا منذ القرن السادس عشر حيث استقر ؛ ذلك لأنه اتخذ هناك عناوينه الصريحة القاطعة ، ولأن بيانات توالت بلا انقطاع محاولة إيضاح وتحديد كيانه الغامض . واستبان كثيراً في النصف الأول من القرن السابع عشر ، ثم لم يعد يعيش إلا في الظلال . ولكن فرعا انجليزيا انفصل عن الشجرة الأصلية ؛ كتب إدوارد هربرت ، بارون دي شربري ، في باريس عام ١٦٢٤ ، إقراراً بمبادئ هذا المذهب ، لا يحصل مسح الانكار والتجديف ، بل الاحترام والتقوى وشئ من التصوف « إني أنبهك من البداية ، أيها القارئ العزيز إلى أني لست أقدم لك حقائق الإيمان ، بل حقائق الإدراك . . . » لا ريب في ذلك . بيد أن هناك حقائق دينية يتقبلها الإدراك ، وتلك كانت طبيعة المبادئ المذهبية للبارون هربرت دي شربري : هناك قدرة سامية — يجب أن نعبدتها ؛ وبباشرة التفضيلة جزء من العبادة التي يؤديها الناس لله ؛ وبالتوبة نكفر عن الجرائم والظلمان ؛ وسيلقى الانسان بعد هذه الحياة العقاب أو الثواب .

ولما انتقل هذا المذهب إلى إنجلترا ، ازداد وازدهر في هذا الوسط الجديد . إذ وجد الأرض والسماء التي توافقه ، فهو يشعر كأنه في بيته . واحتدمت المعارك ، علناً ، كأنما على قارعة الطريق ، بين محبذيه ومعارضيه . وذهب به تولاند إلى أقصى درجات المغالاة في التعصب . وقام ضده بنتلي وبركلي

وكلاارك وبتلر وواربرتون يدافعون عن الدين المنزل : والخاصة أنه ، « ما من بلد تعدد فيه الدين الطبيعي واتضح أكثر من إنجلترا . . . (١) »
وبعد حين ، عندما يتقاذف الأفكار المد والحزر ، ستتقبل فرنسا الدييزم (٢)
من جديد ، إذ سيبدو لها موشى بصفة أجنبية . سيقبض فولتير منه فلسفته
الدينية ، وسيصور جان جاك روسو ، في شخص اللورد إدوارد بوستون (٣) ،
الرجل « الديست » المثالي ، رجلا ماديا وفاضلا في نفس الوقت . ولكننا لم
نصل بعد إلى زمن مجيده ، بل مازلنا في الوقت الذي يكافح فيه ليثبت أقدامه .
وسير علينا أن ندرك صفاته السلبية : « لا ينبغي أن نعضب أنفسنا ؛
فما من شيء يخالف ذوق عصرنا أكثر من ذلك (٤) » . كان هناك دين
يرغمنا ، دين كاثوليكي أو بروتستانتي أو يهودي ، والناس يوقفون هذا الارغام .
لم يعد أي قسيس أو راهب أو حاخام يدعى الاستحواذ على السلطة . لم تعد
هناك أسرار مقدسة ، ولا شعائر ، أو صيام ، أو تعذيب للنفس ؛ ولا إلزام
بالحضور إلى الكنيسة ، أو المعبد . لم يعد للكتاب المقدس قيمة خارقة للطبيعة ؛
لم تعد هناك أسفار ، ولا وصايا . لقد دخل الدييزم في دائرة التسهيلات المتزايدة
التي يقتضيها الزمن . بدل الناس من صورة الله ؛ فهم لا يريدون غضبه ،
ولا انتقامه ، ولا حتى تدخله في سير الأمور البشرية . قلم يعد الله يبدو مضايقا ،
بل أصبح بعيداً متوارياً . إن معنى الخطيئة ، ولزوم الغفران ، والارتياح في شأن
السلام ، التي طالما عكرت صفو الضائر على مر العصور ، لم تعد تقلق أبناء الناس .
ولكن ترى ما هي الصفات الإيجابية للدييزم ؟

إذا كان الدييزم ينكر إله إسرائيل ، إله إبراهيم ويعقوب فهو على

-
- (١) المكتبة الانجليزية ، ١٧١٧ القسم الأول ، ٣١٨ .
(٢) من أجل ضرورات الترجمة اضطررنا إلى استعمال كلمة « الدييزم » محل « مذهب
المعترفين بالله الناكرين للوحي »
(٣) Lord Bomston صديق سان برو Saint-Prox في رواية جوليا Julia أو (هيلويز
الجديدة) . القصة التي أكسبت روسو شهرة لم يكن لها مثيل . [الترجمان]
(٤) الأب بوليه Buffier سبأى الميتافيزيقا في متناول الجميع ١٧٢٥ من ٩٢

نال مرتين شرف الاشتراك في هذه المحاضرات في عام ١٧٠٤ وفي عام ١٧٠٥ ،
فإذا يقول عن أنصار الدييوزم ؟ إنهم أربعة أنواع . أولئك الذين يتظاهرون
بالإيمان بوجود كائن أبدي ، لامتناه ، مستقل عاقل ، ولكنهم ينكرون العناية
الالهية . — وأولئك الذين يؤمنون بالله وبالعناية الالهية ، ولكنهم يزعمون
أن الله لا يبالى بأفعال الانسان ، طيبة كانت خلقياً أو سيئة ؛ فالأفعال لاتعد
طيبة أو سيئة إلا بمقتضى قوانين بشرية وضعت بطريقة تعسفية — وأولئك الذين
يؤمنون بالله وبالعناية الالهية ، وبالصفة الالزامية للأخلاق ، ولكنهم
لا يعتقدون بخلود الروح وبالأخرة .

« وهناك نوع آخر من أنصار الدييوزم لديهم — من كل النواحي — أفكار
مليحة وصحيحة عن الله وعن صفاته كافة . إنهم يفاخرون بالإيمان بوجود
كائن واحد ، أبدي ، لامتناه ، عاقل ، قادر على كل شيء ، كامل الحكمة ،
خالق ، حفيظ ، هو السيد المطلق على الكون . . . »

إن أسلوب صامويل كلارك هنا شبيه بأسلوب ميشيل لى فاسور : إن بعض
المعتدلين من أنصار الدييوزم مازالوا يحتفظون بعناصر دين إيجابي ؛ لكنهم
لسوء الحظ ينكرون الوحي .

والآن ، إذا سألنا رجلاً مدنياً ، لا دينياً — مثل درايدن Dryden
اللبق الرقيق — فهل تخطئ في ظننا أننا نجد في أشعاره بعض الادانة ؟ ولكنها
إدانة مخففة وكأنها مشفقة ، لأنه واع أنه لا يزال هناك شيء من التدين
لدى عدد كبير من أنصار الدييوزم .

صادف درايدن أنصار الدييوزم أولئك ، في تتبعه للفلاسفة الذين عبروا
عن رأيهم فيما يخص الخير الأسمى Summum bonum ووصفهم كما يلي :
« يعتقد نصير الدييوزم أنه يقف على أرض ثابتة ، أوريسكا (١) ! لقد

(١) Eureka : لفظ يوناني معناه « وجدتها ! » وكلمة أصبحت مشهورة ، وهي التي
صاح بها أرشميدس لما كشف لحاجة — وهو يسبحم — قانون الأجسام الطافية (نظرية الماء
المزاح) . وكان أرشميدس يفكر في ذلك الوقت فيما كلفه به الملك هيرون — ملك سيراكوز —
أى في تحليل سن من الذهب مشتببه في خلطها بالفضة . فوجد في أثناء استحمامه — أن
أعضاء جسمه تفقد من وزنها حين يغطس في الماء ، وترفع الماء أى تزيجه بكمية تتناسب
مع الوزن . . . كان هذا ضوفاً قاده إلى كشف تلك القاعدة التي اشتهرت باسمه : وخرج
من الحمام وطار في الطريق يصيح : أوريسكا : أوريسكا ! . . . وجدتها . . . وجدتها ! [الترجمان]

أنكشف السر الأعظم ١ - إن الله مصدر الخير ، المصدر السامي الكامل - أما نحن فقد خلقنا للخدمة ، وسعادتنا في خدمته - فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من أصول للعبادة - توزعها السماء على كل الناس بالقسطاس - ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الله مغرّضا ولكان البعض يحرم - من الوسائل التي من العدل أن يفيها على الجميع - وقوام هذه العبادة الشاملة حمد الله ، والابتهاال إليه - واقتراض الحسنه منه ، ثم ردها - وحينما تنزلق طبيعتنا الضعيفة في الخطيئة ، - يكون التكفير في التوبة - ومع ذلك ، فما دمنا نشهد أن العناية الالهية - توزع خيراتها ، في تفاوت ، على الجنس البشري - ومادامت الرذيلة تنتصر في هذه الدنيا بينما تذوى الفضيلة - (عار ولاشك ، لا يستطيع العدل السامي أن يتحمله) - فان عقلنا يوجهنا إلى حالة مستقبله حيث تستبين كل طرق الله الصالحة - استئناف صام ضد الحظ وضد القدر - سوف يعاقب الأشرار وسوف يعمى الأخابار - هكذا سيصعد المرء بفضل قدرته الخاصة إلى السماء ، - دون أن يكون ملزما قبل الله بالترام آخر . . . (١) « فأنصار الدييزم الذين يصفهم درايدن على هذا المنوال عقليون ، لكنهم عقليون ، يشعرون بحنين إلى الدين .

فالدييزم ، - كما يتبين لنا من كتب ذلك الوقت ، يضعف فكرة الله ؛ ولكنه لا يمحوها . إنه يجعل الله موضع عقيدة غير معينة ، ولكنها إيجابية . وهذا يكفي لكي يحتفظ أشياعه بشعور من التفوق على إخوانهم الأشرار ، الكفار ، يكفي لكي يصلوا لله ويعبدوه ، لكيلا يشعروا أنهم منعزلون ، ضائعون ، يتامى ، ويكفى لكي يجد رعاة سافويا فيما بعد (٢) ، Les Vicaires Savoyards عندما

(١) الدين الدنيوى *Religio Istei* ، ١٦٨٢ ، الفقرات من ٤٢ إلى ٦٣ .

(٢) إشارة إلى مؤلف جان جاك روسو « إقرار بالآيمان لخوري من سكان سافويا » *Profession de Foi du Vicaire Savoyard* وهذا الاقرار من أبداع صفحات كتابه المشهور « إميل » - الجزء الرابع - يشرح قيد على لسان راهب أفكاره الفلسفية والدينية ويدرس المسألة الدينية من حيث صلتها بالأخلاق والسعادة ، ويبين لنا لزوم دين شخصي يقوم على أساس مشاهد الطبيعة وعلى أساس (الروح الالهية) التي يكشفها المرء لا بعقله بل بالحب والضمير . لذلك يعد « الاقرار » هجوما على المادية والكفر وليس هجوما على التقاليد المسيحية . ولقد كتبه روسو في أسلوب قوى جهل حتى أصبح كتابه يعد من أروع صفحات الأدب الفرنسي ، وحتى أصبح « الاقرار بالآيمان » إنجيلا =

تضيء الشمس جبالهم ، مرتلك المكاشفة القلبية ، ويؤمنوا من جديد بالدموع ، إنه لعسير على المرء أن يكفر بالله في قسوة ووحشية ، ويسير عليه جدا أن يؤمن بالله وينكر الوحي . إن العصيان التام ، الانكار المطلق يتطلب شخصيات غير عادية . يقول بايل « لافرق تقريباً بين الكفار وأشياع الدييزم ، لو فحصنا الأمور بالدقة » . ولكن ما أكثر المعاني التي يمكننا أن نضمها تلك الكلمة « تقريباً » ! ويقول بونالد : « إن نصير الدييزم لم يتح له بعد الوقت الكافي ليكون كافراً » . أما نحن ، فبخيل إلينا ، بالعكس ، أنه رجل لم يشأ أن يكون كافراً . لا عجب أن ينضج الدييزم في بلد اعتاد سكانه إيقاف تفكيرهم عند النقطة التي يريدونها ؛ حيث يحطمون فيه قوة المذهب إذا زاد عن حده وأصبح خطراً يهدد أخلاق الشعب . فلنصدق بشهادة معاصر : « يعد الانجليز دائماً شعباً على استعداد طيب لقبول مشاعر الدين والفضيلة ؛ وبالرغم من أننا لا يسعنا إلا أن ندهش لما نراه من تقدم الكفر والرذيلة بيننا ، إلا أن أسوأ أن ذلك لن يكون إلا مرضاً مؤقتاً ، لأنه لا يتفق وعبقريّة هذا الشعب (١) » . إن عبقرية الشعب لا تتعجب ولا تتأثر من تحديد اختياري ، أو من تناقض . السماح لدين دون أسرار ! إن الشعب يترك السر ويحتفظ بالدين . فالتفكير عند الانجليز ليس مسألة منطق لحسب ، بل مسألة إرادة أيضاً .

إن أشياع الدييزم يحتفظون بجانب ذلك — بفكرة الاذعان لقانون :
قانون الطبيعة .

==الأشياعه . إقال عنه فيكتور كوزان V. Cousin إنه أقغم مؤلف في القرن الثامن عشر، ويقول بير تراهار P. Trahard في مؤلفه : « أساتذة الحساسية الفرنسية » إله سيأتي يوم يظهر فيه جان جاك روسو في نظر الكنيسة كرسول بعثته السماء لينقذ من الدين ما يمكن إنقاذه . أما عن جملة « عند ما تضيء الشمس جبالهم » فإن راهباً ساقوا يحدث زميله فوق جبل مرتفع بالقرب من جبال الألب ، في يوم من أيام الصيف ، حينما تضيء الشمس قمم الجبال بأشعتها الساطعة... عن « الاقرار بالآيمان » أنظر كتاب بير موريس ماسون : « دين جان جاك روسو » الجزء الثاني ، P. M. Masson, *La Religion de* J. J. Rousseau, Hachette, 3 Vol., 1916. [الترجمان]

(١) ريشارد هلاكور : مقال عن موضوعات عديدة ، ١٩١٦ ، الجزء الأول .

الأقل لا يزال يعتقد بوجود إله . وإذا كان ينكر الدين المنزل ، فهو على الأقل لم يرد أن تكون السماء فضاء خالياً ، ولم يرض أن يجعل الإنسان وحده مقياساً للكون . حتى إنك لترى في بعض الأحيان تعبيراً أقل جفاء أو نعتاً أرق حاشية ، ينزلق بين الكلمات التي كان الكاثوليك والهوجسونوت والانجليكان يؤخذون بها أنصار الدييزم : كرجال يشتركون في العقيدة الأولى والأخيرة ، مع نفس الذين يناقضونهم : الايمان بالله . انظر كيف يتكلم ميشيل لي فاسور القسيس (جمعية الأوراتوار) الذي أراد أن يدافع عن شرف الجمعية المتألة من موقف ريشارد سيمون ، فشر في هذا الغرض في عام ١٩٨٨ مؤلفاً ضخماً « عن الدين الحقيقي » : « بعض أنصار الدييزم الذين هم أكثر حكمة وبصيرة من أعضاء الأكاديمية والأبيقوريين ، يعترفون بسلامة نية بأن هناك مبادئ دينية وأخلاقاً طبيعية ، على الرجل أن يتبعها . ولكنهم يضيفون أن هذه المبادئ كافية وأننا لسنا في حاجة إلى الوحي ولا إلى الشريعة ليعرفنا بواجباتنا نحو الله ونحو إخواننا . وإنا لنستطيع أن نسير بفضل العقل ، وسيرضى الله دائماً ، إذا تبعنا الشاعر الدينية والأخلاقية التي بثها في نفوسنا . . . (١) » هكذا يرى هذا المادح الكاثوليكي ، أن بعض أنصار الدييزم (بعضهم ، لأن الفئة تتضمن أنواعاً جد مختلفة) — لا يمثلون إنكاراً مطلقاً ، بقدر ما يمثلون المحرفاً مؤسفاً .

ولنأخذ الآن رأى البروتستانت . لقد خصص العالم روبرت بويل ، الذي يحزنه سريان عدم التصديق ، ربع منزل يملكه في لندن لمؤتمرات سنوية قد حملت اسمه : مؤتمرات ديلية ، لا تقصد تأجيج النزاع بين المذاهب — بل تقوية المبادئ العامة للايمان : « تبيان البراهين التي تؤيد صحة الدين المسيحي ، والذود عنها ضد هجوم غير المؤمنين ، مثل الكفار ، وأنصار الدييزم والوثنيين واليهود والمسلمين ، ودون مساس بأوجه الخلاف بين المذاهب المختلفة للمسيحية . » لقد لقيت « محاضرات بويل » Boyle Lectures نجاحاً عظيماً ؛ ودعى للاشتراك فيها أكبر رجال اللاهوت في المجترا وأفصح الخطباء ، وكان بينهم صامويل كلارك ، الراهب إذ ذاك في أسقفية نورويتش ، والذي

(١) عن الدين الحقيقي ، الكتاب الأول ، الفصل السابع .

كان الكاثوليك يعترفون بوجود هذا القانون : *Est in hominibus lex quaedam naturalis participatio videlicet legis aeternae, secundum (١) quam bonum et malum discernunt* : يوجد في قلوب الناس شيء من القانون الطبيعي ، أي اشتراك في القانون الأبدى ، الذي يفرقون به بين الخير والشر . . . وكان البروتستانت يعترفون أيضاً بهذا القانون بكل رضا ، لأنهم كانوا أقرب من الكاثوليك إلى المذهب العقلي ، ولأنهم كانوا أكثر استعداداً لأن يقطعوا جزءاً من الطريق بجانب الفلاسفة ، سواء لاقتناعهم ، أو للزوم التوفيق بين الدفاع عن الدين وبمقتضيات الزمان . ولم يكن العون الذي يقدمه لهم الدييزم هنا يستحق الاستخفاف : لأن في ذلك العون مقداراً معادلاً من الفوز على الكفار ، الذين ستأخذهم الدهشة والارتباك .

ولكن لا يكاد الناس ينظرون في فكرة « الطبيعة » هذه عن كثب ، حتى تظهر آراء مختلفة لا يمكن إنكارها . وكانت على الأقل ثلاثة آراء . أول شيء لم يستطع الكاثوليك ولا البروتستانت أن يقبلوه ، هو أن هذه الطبيعة الجريئة ، — بدلاً من أن تقتنع بكيانها وليدة السبعة الأيام ، وأن تدين يجماعها « للذي » استخرجها من الفناء — تستبدل بمكانها رويداً مكان الخالق ؛ تصبح وسيطاً له ، بل تعمل نيابة عنه ، بل تصبح النظام نفسه ، ذلك النظام السامي الذي يجب على الله أن يجاريه ؛ وأن تصبح « الكائن » ؛ لقد رأينا فيما سبق بأي استنكار استقبل تفكير سبينوزا .

والشيء الثاني الذي لم يستطع المؤمنون أن يقبلوه ، هو أن تكون الطبيعة نوعاً من الغريزة الأخلاقية تستطيع أن تقوم وحدها مقام الدين بأكمله ؛ فلا يكون الدين حينئذ إلا صلة بين القوانين الطبيعية والإنسان ، ولا شيء غير ذلك .

والشيء الثالث ؛ إذا اعتقدنا أن الطبيعة « أم رءوم » كما يقول لاهوتان ؛ أو كما يقول شفتسبري : *Nature has no malice* ؛ وأنه يكفي لعمل الخير

(١) القديس توما الأكويني Saint Thomas d'Aquin في كتابه المشهور : *Summa theologiae* ويعد هذا القديس أشهر لاهوتي كاثوليكي وأكبر فلاسفة المسيحية في القرن الثالث عشر . [المترجمان]

أن نتبع القوانين الطبيعية : فما رأى في الخطيئة الأصلية وما تلاها من فساد ؟ وماذا يعنى لزوم تخليصنا ؟ أفلا تكون الحياة إذن امتحاناً مؤقتاً نكافح في أثنائه ضد المبادئ السيئة التي نحملها في أنفسنا ، حتى نحظى بالجنة ؟ ما هي الطبيعة ؟ لقد عرض هذا السؤال بكل ما فيه من شدة — كما عرضت إذ ذاك كل الأسئلة الأخرى — لأولئك الشجعان الذين لم يسمحوا — أياً كان الحزب الذي ينتمون إليه — بالالتجاء إلى الحيل أو اللف والدوران. لأنهم كانوا يتحرقون إلى الحقيقة ، وكانوا جميعاً يكالحن في سبيل النور . كلما صعبت المسائل بدت لهم جدوة بالفحص . ما هي الطبيعة ؟ — سرعان ما تحققوا من أن هذه الكلمة قد اتخذت مختلف المعاني ، وهذا ، كانت تسبب « لبساً قظيماً في كلام الجهال وفي كلام العلماء على السواء » . إن الطبيعة حكيمة . إن الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً . إن الطبيعة لا تتجاوز غايتها أبداً . إن الطبيعة تفعل الأصوب دائماً . إن الطبيعة تسلك أقصر طريق . إن الطبيعة لا تبدو أبداً مسرفة فيما لا لزوم له ، ولا عاجزة فيما يلزم ويفيد . إن الطبيعة حافظة بذاتها . إن الطبيعة تعالج الشرور . إن الطبيعة تحرص دائماً على حفظ الكون . إن الطبيعة تكره الفراغ . . . ما أكثر تلك الأمثال السائرة التي لا صلة بينها ولا مناسبة ! وما أكثر التفسيرات المتناقضة غير المناسبة ، التي تتعلق كلها بموضوع واحد : خالق الطبيعة ، جوهر شئ ، نظام الأشياء ، شئ مثل نصف إله ، وغير ذلك كثير (١) .

لم يستطع الناس التوصل إلى اتفاق ، ليس أكثر من قبل ، ولا أكثر من بعد . ولكن هذا كان مثاراً لألهم . إن روبرت بويل — الذي أشار إلى هذا الارتباك في الألفاظ التي ذكرناها ، والذي رجا أن يحاول الناس إدخال بعض النظام على الطرق المختلفة لتفسير هذه الكلمات ، — لم يكن يبحث عن تعريف قطعي ، بقدر ما كان يعبر عن احتجاج ضمير مسيحي ، مخافة أن تنتشر بين الناس عادة إبدال الله بالطبيعة ، واحتج بيير بايل ضد الفكرة السخيفة — التي كان من حظها أن تنال مجاًحاً غريباً فيما بعد — فكرة أن الناس طيبون بطبيعتهم . الطبيعة ؟ أولاً لم يلاحظ أحد الشاعر التي تولدها في قلوب الناس

(١) روبرت بويل ، عن الطبيعة ... لندن ١٦٨٦ ، Robert Boyle, *De ipsa Natura* ،

sive libera in receptam naturae notionem disquisitio, Londini, 1686

بالضبط . « لا توجد كلمة نستعملها بطريقة مبهمه أكثر من كلمة « طبيعة » . إنها تدخل في كل أنواع الكلام ، حيناً في معنى ، وحيناً آخر في معنى غيره ، ولم تنوقف أبداً عند فكرة معينة . ولكن مهما كان الأمر ، فإني أعتقد أن أولئك الذين يجيدون التفلسف سيترفون بأنه ينبغي أولاً — لكي نتأكد عما إذا كان هذا الشيء أو ذاك موحى به إلينا من الطبيعة — أن نعرف ما إذا كان الفتيان يعرفونه دون مساعدة أي تعليم . ولا أظن أننا لم نجر تجارب لمعرفة ماذا يحدث في ذهن رجل لم يتعلم شيئاً بعد . لو أننا ربينا عدداً من الأطفال ، بمعرفة أشخاص يكتفون بتغذيتهم ، دون أن يعلموهم أي شيء ، لعرفنا ما تستطيع الطبيعة أن تفعل وحدها ، ولكننا لا نعرف إلا أشخاصاً تعهدناهم منذ المهد وجعلناهم يعتقدون بكل ما نريده » — ثم إننا لا نكاد نفتتح عيوننا ونسرحها فيما حولنا ، حتى نضطر إلى الاعتراف بأن « طبيعة » و « طيبة » ليستا مترادفتين « إننا نرى في الجنس البشري أشياء بالغة السوء . مع أن أحداً لا يستطيع أن يشك في أنها من فعل الطبيعة . . . أرى أن أتقى الآباء وأكثرهم ميلاً إلى تربية أبنائهم طبقاً للمبادئ الانجيلية ، لا يستطيعون أن ينجحوا في كبت الميل إلى الانتقام ، وإلى النفاق ، وإلى المقامرة وإلى الفحشاء . . . (١) » أو كما يقول أيضاً : « أنبهم إلى أن شربوك يفترض أن الارتضاء العام للجنس البشري هو صوت الطبيعة ، ولذا فهو صفة أكيدة لليقين . وإذا كان هذا يثبت شيئاً فإني أعتقد أنه إذا أمكن أن يجعل شيئاً كصوت للطبيعة ، فهو أنه ينبغي أن ننتم ، وأن نشبع شهواتنا الحيوانية تماماً كما نرضى الجوع والعطش . . . (٢) » إذن ، لم يكن ليكفي أن يتكلم الناس عن الطبيعة ليظنوا أنهم قد وصلوا إلى مصدر الطيبة ، مصدر الفضيلة . . .

إلا أن أشياع الديونيم كانوا يقنعون بالاعتقاد بأنهم يعملون مختارين في اتجاه القوة الغامضة التي تضمن حفظ الكون ونظامه . ولما كانوا يعبدون لها بلا أسرار ، فقد كان يخيل إليهم أنهم يدعون لقانون إيجابي . بل كانوا

(١) بيرر بايل : جواب على أسئلة قروي ، الجزء الثاني ، الفصل ١٠٥ .

(٢) بيرر بايل : جواب على أسئلة قروي : عما هو بالضبط شيء يصدر عن الطبيعة . وعما إذا كان يكفي لكي نحكم على حسن شيء ، — أن نعرف أن الطبيعة هي التي أرشدتنا إليه — الفصل ١١١ .

يعتقدون أحياناً أن الأديان المنزلة هي التي نسي إلى الاله الحقيقي ، بإبدال « فكرته » بصور ليست طبيعية بل مصطنعة ، ألفها رجال مغرضون ، خادعون ، واستمرت بفضل الخرافة .

لقد تكون بين أسباع الدييزم مذهب ، « مذهب جديد من العقول القوية أو قوم يفكرون في حرية (١) » .

أنظر كيف يستدلون . إنهم يعرفون حرية التفكير بأنها : « إباحة استعمال العقل لمحاولة الوقوف على معنى قول أيا كان ، بوزن وضوح البراهين التي تدعاه أو تناقضه ، بمقدار درجة قوتها » . إلا أن بحكمة الضمير هذه لا تحكم دائماً بالادانة — بل تقبل أى شهادة ترى فيها كفاية من الصحة ، وتقبل أى واقع يتفق مع قواعد الوضوح والصراحة . إن المفكر الحر Le libre-penseur ينبذ ما يبدو له باطلاً ويحتفظ بما يبدو له صحيحاً ، فهو بعيد عن أن يكون ارتيابياً ، بل يؤمن بقوة العقل الفعالة ، قوام الحقيقة والعدل .

هنا سر القوة النفسانية التي تحركه : إنه يثق ويرتاح للتفكير في أنه يملك مبدأ من الصحة والبداهة ، بحيث يبدو له مستحيل أن يضيف إليه شيئاً آخر ، يوضح صحته في ضوء أقوى : فانه أدرك السر الكبير الذي لن يدركه الضعاف . إنه يجد متعة في تكرار الصيغة السحرية التي تقنعه باقتداره على الناس وعلى الأشياء : « إنى أفكر في حرية » . ما من أحد في الدنيا لم يخطئ ؛ أما هو فلم يعد يخطئ أبداً ؛ بل إنه — في نهاية الفحص الدقيق الذي يمتحن به كل شيء يعرض لبصره ولذهنه ، — يكشف الحق والخير ، جزاء على جرأته التي هيأت له أن يتخلص من الخرافة . إن توكيدات العقلية تمده بالراحة

(١) أنطوني كولنز : مقال عن حرية التفكير لندن ١٧١٣ . Anthony Collins .
A Discourse of Free-thinking, London, 1713 . — مقال عن التفكير الحر ، بمناسبة
مذهب جديد من العقول القوية أو أناس يفكرون في حرية — مترجم عن الإنجليزية ،
لندن ١٧١٤ . مقال عن حرية التفكير ، والاستدلال في أهم المواد ، كتب بمناسبة
أسباع مذهب جديد من العقول القوية أو أناس يفكرون في حرية ، ترجم عن الإنجليزية ،
الطبعة الثانية ، لندن ١٧١٧ .

والسعادة التي كان المؤمنون يجدونها فيما سبق في الايمان : إن العقل لا يخيب ، ولا يخيب أملك : Neque decipitur ratio, neque decipit unquam فكروا في حرية ، وستفوزون بالباقي ، فكروا في حرية ، تأكلوا من فاكهة شجرة المعرفة . أما الجبناء والعبيد فسيبقون في الظلام ، خارج الفردوس . « لا شيء » يخالف الصواب أكثر من الظن أنه من الخطر أن تسمح للناس بحرية الفحص في أسس الآراء المكتسبة ؛ ولا شيء يخالف الصواب أكثر من الشك في حسن نوايا أولئك الذين يستعملون هذه الحرية . فإلى أن يجد الناس دليلاً أفضل من العقل ، من الواجب عليهم أن يتبعوا هذا النور إلى كل مكان يقودهم إليه .

فالتفكير الحر سعادة في ذاته ، وهو فضلاً عن ذلك ، وسيلة لتنظيم الحياة في اتجاه السعادة . إنه يفضل التفكير — ولا شيء غيره — يستطيع الناس أن يصلوا إلى معرفة الحياة البشرية تمام المعرفة ، وأن يقتنعوا بأن البؤس والشقاء عواقب الرذيلة ، بينما المتعة والحياة السعيدة دائماً ثمرة الفضيلة . كان شيشرون مقتنعاً بذلك تماماً لما امتلح سعادة الرجل الذي يقوم بواجباته في مرح ، والذي ينظم كل أفعاله باعتناء ، والذي لا يطيع القانون لأنه يخشاه ، بل لأنه يجهل رائعا في ذاته . فالفكر الحر يشعر بأنه لا يصغى إلا لارادته المستنيرة ، والقوة المنطقية التي توجد في عقله : إنه سيد نفسه كما هو سيد الكون .

كان ألتوني كولينز أول من أعلن هذه التعريفات عن التفكير الحر ؛ أولاً في الجادلات ، ثم بشئ من التفصيل في مقاله المشهور عن التفكير الحر : *Discourse of free thinking* في عام ١٧١٣ . حينئذ اكتسب لفظ *The Free thinker* ولفظ *Le libre-penseur* حقوق الرعوية بين الناس . كان هناك رجل مهذب gentleman شهد له الناس بذلك ، كان فيما سبق تلميذاً في إيتون ، ثم درس في كبردج ، يمتلك — كما يقول لوك — منزلاً في الريف ، ومكتبة في المدينة ، وأصدقاء في كل مكان ، ولا مأخذ على حياته ، ينطق بالوقار Respectability الذي يعده مواطنوه الفضيلة الاجتماعية الأولى ؛ كان هناك رجل مهذب ، ليرث الحركة الملهوثة التي خلفها المتحررون وأشباع الديبزم ، وليستخلص الرغبات والمبادئ التي تتضمنها ويوضحها . كان المفكرون الأحرار قد بدأوا في ذلك الوقت يمثلون البدع والذوق الحسن ؛ يرثون لحال المؤمنين

الاعتراف بالله وإنكار الوحي والدين الطبيعي ٢٦٥

من كل نوع — الذين لم يزل لهم العدد والنفوذ — ويستخرون منهم . يخاطب أنطوني كولينز صامويل كلارك بلهجة كلها احتقار : إن صامويل كلارك أورثوذكسى ، وهذا يكفي للحكم عليه . « الشئ » الذى أدهشنى من السيد كلارك ، — الشئ الذى لم أتوقعه منه والذى قرأته فى دفاعه — أنه يشتبه فى أنى قليل الايمان . إن كل شخص يستطيع أن يكون آراء من هذا القبيل ، ويثير شكوكا لا تشرف مثيريها ، ولا تلقى عند القارىء الشريف البصير إلا أسوأ القبول . لست أعتقد أنى ملزم بتبرئة نفسى من شك لا يقوم على أى دليل ، ولن أرد على هذا إلا باستشهادى بأورثوذكسية السيد كلارك . وعلى ذلك أستاذنه ، مؤكداً للجمهور أنه لا يؤمن فى كثير ولا قليل ، وأنه أورثوذكسى تماماً ، وأنه سيبقى أورثوذكسياً طوال عمره . هذا هو التطور الذى حدا بالناس إلى أن يجعلوا الأورثوذكس ، لا قوما عاجزين عن التفكير بأنفسهم ، أو عقولا متأخرة لحسب ، بل أشخاصاً يعوقون التقدم ؛ وإلى أن يجعلوا المفكرين الأحرار ، لا قوما يفكرون تفكيراً صائباً لحسب ، بل عقولا تشارك مشاركة إيجابية فى خير المجتمع . لم يعد بمقدور أحد أن ينعى على أولئك الأخيرين أنهم متحررون متهورون ، أناييون ، شهوانيون ، أو أنهم صعاليك لا حساب لهم ، أفاقون ، ماقطون . إن مفكراً حراً مثل أنطوني كولينز مثال يحتذى لطهارة الأخلاق واللباقة التى ترفعه حتى فى نظر خصومه المتعديدين .

إن كولينز يملأ مقاله عن « التفكير الحر » بالنفى والانكار ، ولكن أيضاً بالجزم والتوكيد ، مهاجماً أمامه مباشرة ، فى عناد ، دون اهتمام بتفاوت المعانى الذى لا يزعج ذهنه أبداً — لسبب واضح وهو أنه يجهله — ودون التعرض لحجج خصومه . إنه يبدل العلامات : فيضع علامات سلبية محل العلامات الايجابية ، أو العكس : فيقول مثلاً إن الضرورة مبدأ من مبادئ الحرية ، وإن المادية تحقق انتصار الفكر . تداول الناس منذ عام ١٧١٤ ، لما كان لويس الرابع عشر لا يزال على قيد الحياة ، ترجمة فرنسية لكتابه ، وراجت ، مادامت قد نالت شرف الطبع مرة ثانية فى ١٧١٧ . يقول لنا المترجم إن لها أهمية عالمية . إلا أن البعض ادعى أن هذا الكتاب إنما كتب للأنجليز ، وأنه يقتضى تفسيراً واسعاً لئى يفهمه الأجانب . ولذلك فلا يحتمل

انتشاره إذا ترجم إلى لغة أخرى . وفي هذا القول خطأ سيين ! — « فاليقين والتفكير والعقل لا وطن لها بل تخص الجميع » — « إن جوهر هذا المقال يهم كل الشعوب » . ولننوه هنا — وليس هذا موضع الغرابة الوحيد — بأن كولينز يغمر معبد « التفكير الحر » بالقديسين . يجب أن يقدر عبدة العقل العظماء الذين شاركوا على مر العصور ، في تأسيس المذهب الجديد : — سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وأبيقور ، وفلوطين ، وفارون ، وكاتون ، وشيشرون ، وسنيكا ، وسليان ، والأنبياء ، والمؤرخ يوسف ، وأريجين ، وفلكس ، ولورد باكون ، وهوبز ، بل حتى منسيوس أسقف أفريقيا والأسقف تيلوتسون : الذي ولو أنه كان في الحقيقة مادحا للمسيحية ، إلا أن مواعظه كانت ترمي إلى دعم « حرية التفكير » مصحوبة بالدين والفضيلة ، وهي ما تشارك مزاولتها في سلام المجتمع ورفاهته . إلا أن كولينز كان في مقدوره أن يضيف إلى أولئك المفكرين الأحرار الذين يشيد بفضائلهم ، عدة أبطال آخرين ، ولكنه يكتفى بذكر أسمائهم مخافة الاسهاب ، ويعد من بينهم إيرازم ، ومونتاني ، وسكاليجر ، وديكارت ، وغاسندي ، وجروسيوس ، وهربرت شربري ، وملتون ، ومارشام ، وسبنسر ، وتودورت ، وتمبل ، ولوك . ويختم قائلاً إنه من الصعب ، بل من المستحيل ، أن نذكر رجلاً قد امتاز بعقله السليم ويفضيلته ، وخلف أثراً طيباً ، دون أن نعترف في نفس الوقت أنه ترك لنا دلائل على « حرية تفكيره » . وبالمثل لا نستطيع أن نذكر عدواً « لحرية التفكير » ، مهما كانت منزلته إلا ويكون متعصباً أو مضطرب العقل ؛ أو يبدو جشعاً ، غير إنساني ، كله ردائل شنيعة ؛ والخلاصة أنه لا بد من أن يكون على استعداد دائم لأن يقدم على كل شيء يدعوى أنه يعمل في سبيل الله وتمجيد الكنيسة ، وأن يخلف آثار جهله العميق ووحشيته ، وأخيراً أن يكون عبداً للقسس ، والنساء أو المال...

ولا يقتصر الأمر على القديسين المدينين . بل إن تأسيس جمعية فكرية ، ووضع مراسم وأصول تسمح بالتعرف على الأشباع وجمعهم ، والعودة إلى الاحتفال بالشعائر والطقوس ، هي الرغبة التي نشهدها في نهاية التطور الذي تبعنا سيره من لحظة .

يقول سويفت : من استطع أن يرى في تولاند فيلسوفا ، إذا حرمانه من موضوعه الوحيد ، وهو كره المسيحية ؟ يصل الأمر بتولاند إلى تنظيم جمعية تجابه الكنيسة ، يدافع كرهه للمسيحية ، ويؤلف ترنيمة ، لا لتجديد الألوهية ، بل لتجديد الفلسفة ، ولكنها ترنيمة على كل حال : أيتها الفلسفة ، أنت دليل حياتنا ، تقودينا إلى الفضيلة وتطردنا عن كل رذيلة ! ماذا كنا نصبح ، وماذا كان يصبح كل الناس في أثناء حياتهم ، لولا عونك ؟ — أنت التي شددت المدائن ، وجمعت الناس المتفرقين ووحدهم في مجتمع . . . أنت التي اخترعت القوانين ، ولقنتنا قاعدة أخلاقنا وعلمتنا النظام . إليك نلتجئ . لأن يوماً واحداً بمضيه طبقاً لمبادئك أفضل من الخلود . . . أى عون ننشده غير عونك ، أنت التي منحتنا الطمأنينة في الحياة ، وأقذتنا من رهبة الموت ؟ . . . وهو يعلن كراهيته لكل نوع من أنواع العبادة التي يزاوها الناس : ومع ذلك ، يعرض دستوراً لجمعية جديدة ، سوف يكون الناس بفضلها أحسن وأعقل ، وسوف تبهم المرح وترفعهم إلى أوج السرور . إن محبته للجنس البشري تدفعه إلى تأسيس جمعية « سقراطية » ، يضع أخلاقها وببادئها ، وفلسفتها . وسيعقد أعضاء هذه الجمعية اجتماعات سرية ، فيها أغاني ، وولائم ونبذ ، حيث يستعملون الصيغ الكنسية . رئيس ينطق بالأشعار ويرد عليه الأشياء . نندخل لحظة ، في أثر جون تولاند ، إلى قاعة اجتماع أولئك الاخوان ، ولنصنع إليهم :

الرئيس :

— لكي نكون سعداء .

يجيب الحاضرون :

— نؤسس جمعية سقراطية .

الرئيس :

— فلتزدهر الفلسفة .

جواب :

— مع الفنون الحرة .

الرئيس :

— صه ! فليكرس هذا الاجتماع وكل ما فيه من تفكير ، وقول ، وعمل ،
في سبيل أهداف الحكماء : في سبيل اليقين ، والحرية ، والصحة .

جواب :

— فليكن ذلك على سر الأزمان .

الرئيس :

— لنعلن أنفسنا أنداداً وإخواناً .

جواب :

— وأيضاً شركاء وأصدقاء . . .

حتى إن الرجل الذي كان أشد الناس تحاملاً على الكنيسة ، يبني معبده
أمام-أبصارنا . فلنذكر أن المحفل الماسوني الإنجليزي الأكبر تأسس في عام
١٧١٧ ، وأن أول محفل فرنسي تأسس في عام ١٧٢٥ .

الفصل الثالث

القانون الطبيعي

كان هناك القانون الالهي .

وكان هذا القانون ، كما كان الدين — يبدو واضحاً وعظيماً . كانت السياسة تستند على نفس الأقوال المقتبسة من الكتاب المقدس : وهل أستن من ذلك ؟ « اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد . فتعجب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك (١) » . إن محبة الله تجبر الناس على محبة بعضهم بعضاً ، وهكذا يتولد المجتمع . وأول صور السلطان هي السلطة الأبوية ؛ والملكية التي تخلفها ، هي أشيع أنظمة الحكم ، وأقدسها ، وأكثرها تمسحاً مع الطبيعة ، لأن الناس بحالتهم الأصلية رعية ؛ والسلطة الأبوية التي تعودهم الطاعة ، تعودهم في نفس الوقت ألا يكون لهم إلا رئيس واحد . إن الحكم الملكي هو النظام الأصلح ؛ وأصلح الأنظمة الملكية هو الذي يلتقل بالتوريث والتتابع ، وعلى الأخص حين ينتقل من الذكر إلى الذكر ومن الأرشد إلى الأرشد (٢) .

هكذا يبنى أسقف « مو » — مربي ولي العهد — يديده ، المظلة التي تؤوي شخص الملك . إنه شخص مقدس ، وما من أحد في الدنيا يستطيع أن يمس سلطانه . ولا يعني هذا أن يكون الملك فوق كل قاعدة ؛ بل يلزمه القانون الالهي بواجبات أقسى وأثقل من واجبات أقل الناس شأنًا . إن السلطة الملكية مقدسة ، ولكنها أبوية ؛ إنها مطلقة ، ولكنها تخضع للعقل ؛ إنها تطبق بمقتضى إرادة عامة ، لا بمقتضى أهواء ؛ فليرتعد من يملك هذه السلطة العظيمة ويسى

(١) نص العهد القديم ، تثنية ٦ ، [الترجمان]

(٢) بوسويه : مياسة مقتبسة من نفس كلام الكتاب المقدس ، ١٧٠٩ ، *Politique*

tirée des propres paroles de l'Écriture Sainte

الظلام ؛ ونحن أيضاً نستريح ، بيننا الملك ، قد أوى إلى مخدعه ، ساهراً علينا وعلى كل الدولة . . . »

من جهة أخرى ، لدعم الفكرة القائلة بأن السلطة كلها ترجع إلى الأمير ، كان هناك نظريات سادرة في الاتحاد ، توضح أنه لا يمكن حكم الناس إلا بمعاملتهم كما لو كانوا وسائل . مثل نظرية « ماكيافيلي » التي لم ينسها الناس بعد ، وإن بعد بها العهد . ومشمل نظرية هوبز Hobbes ، وهي أقرب . لقد استكملت تلك النظرية الشرسة الوقحة ، الموضوع من عام ١٦٤٢ ، صورتها النهائية في عام ١٦٥١ ، كما ظهرت في « اللويثان » Leviathan (١) . وفرضت نفسها على كل مفكرى أوروبا الذين اضطروا إلى أن يحسبوا لها حساباً ، حتى ولو لينفندوها . ولكم رأى الناس في أثناء تصفحهم لكتاب عن المذاهب * اسم هوبز يظهر فيما بين السطور يا للدوى الذى أثارته أفكاره ! يا لها من أصداء رنانة أبداً !

كان هوبز يخاطب الناس قائلاً : — إنكم مفلطرون على السر . ليس في الدنيا أى مبدأ روحانى ؛ لا خير غير المتعة ، ولا شر غير الألم ؛ ولا هدف غير المنفعة ؛ ولا حرية إلا عدم وجود ما يعوق الشهوة . بما أن مبدأ حفظ الحياة قوامه حب الذات ، ولا كان كل فرد يدافع عن حقه في الحياة ، فالحالة الطبيعية هي حالة القتال بين الناس ، أولئك الذئاب . « إن حالة الناس في هذه الحرية الطبيعية هي حالة الحرب ؛ لأن الحرب إن هي إلا الزمن الذى يعلن فيه العزم على القتال أو المقاومة بالقوة ، بالقول أو بالفعل . أما الزمن الذى لا حرب فيه فهو ما يدعى السلم » . أسيّبع ذلك دمار الجنس البشرى ؟ . . . بالتأكيد ، لو لم نصطنع بعض الحيلة لمعالجة شؤر الحالة الطبيعية ؛ لو لم نستبدل بالمساواة بين الناس نظاماً قوامه عدم المساواة ، إذ هو النظام الوحيد الذى يستطيع أن يحميهم من أنفسهم . من هنا يلزم تأسيس هيئة سياسية ، تحت سلطة أمير يجب أن يكون — بحكم الضرورة — طاغية .

(١) اللويثان : تأليف هوبز . وهو وحش مذكور في كتاب أبوب ، العهد القديم الأصحاح ١٤١ . « أنصطاد لويثان بشص أو تضبط لسانه بجبل » . [الترهان]

استعاطها ، لأنه سيلقى حساباً عسيراً يوم الحساب . أما والملك مسئول أمام الله ، فهو غير مسئول أمام رعاياه ؛ ليس ملزماً بأن يستشيرهم أو يتبع نصائحهم . والواقع أن نسبتنا إلى الملزمين بالطاعة قدرة فعالة تؤثر على الذين اصطفاهم الله لحكمهم ، مخالفة للمنطق ومخالفة للدين . وهذا المبدأ من القوة بحيث إن الشعوب لا تعفى من الخضوع حتى ولو جهر الملك بكفره ، أو أعمل الاضطهاد ؛ ليس لديهم سلاح ضد ظلم الأسراء إلا رفع العرائض ، دون عصيان أو تذمر ، بل بالدعاء لهدايتهم . إن الله يمسك من عليائه بزمام كل الممالك ؛ ويحكم الملوك رعاياهم وفق أهدافه الخفية ؛ وعلى الرعية أن تطيع دون تذمر ؛ أما الأحداث العابرة التي تفسد هذا الانسجام في الظاهر ، فسيتضح لنا أنها تشارك فيه ، إذا نظرنا إليها لا بعيوننا بل ببصيرتنا ، وتمكنا من تفهيمها في تسلسلها .

والآن إذا نحن بحثنا عن صورة لا تشوه هذه العظمة الساطعة ، وتناسب هذه الجلالة التي تفوق البشرية ، نوجدنا في الحال أمامنا صورة لويس الرابع عشر . إن هذه الصورة الملكية لا تفارق أذهاننا ، إنها تلاحقنا وراء الزمان ، وتلحق بنا ، إنها هنا ، إنها حية . وتتذكر حافظتنا تلك الكلمات المشهورة التي لطق بها الملك ، حتى يخيل إلينا أننا نسمعه يقولها كما حدث في اليوم الذي سجل فيه بداية سلطنته الشخصية : « الدولة أنا » *L'État, c'est moi* . ونحن نعرف أنه أراد أن يحقق كلمات هذا الشاعر حرفياً : « ملك واحد ، إيمان واحد ، قانون واحد » ؛ وأنه حطم كل مقاومة ؛ ودافع ضد البابا نفسه — ذلك النوق الذي يقود سفينة الكنيسة — عن حقوق الرهبان الذي يحافظ على سلامة السفينة . وكان هو الرهبان . إنه بطل الملكية . إننا نبحث عنه في فرسايل ، في الردهات والأبهاء ، ونتبعه في رواق الرايا ، بين رجال البلاط المنتهين لأدق حركاته وسكناته ؛ وحينما تترك عند حلول الليل طرق المتنزعات التي خطتها إرادته السامية ، نتجه نحو القصر مؤملين أن نجد على إحدى النوافذ ، الظل الذي يذكرنا به لابرويير *La Bruyère* : « هو بنفسه — إذا أبحث لنفسي القول — وزير لنفسه ؛ لا وقت لديه للراحة ، ولا ساعات خاصة ، لأنه أبداً معنى بأمرنا . لقد تقدم الليل ، وتبدل الحراس في قصره ، ولعت الأنجم في السماء ودارت في فلكها ؛ كل الطبيعة تستريح ، بعد عناء النهار ، يلفها

لن تستطيع المواثيق والأيمان إقامة السلام بين الناس ، لأنهم يفرقونها على الدوام ؛ ولا شئ يستطيع أن يكبح غرائز الناس الوحشية ، غير القوة والخوف الذى توحيه القوة ؛ وعلى ذلك يجب أن يتقلد الملك سيفاً للقتال وصولجاناً للعدل . يجب أن تتركز فى شخصه كل الحقوق المطلقة ؛ إن تحديد سلطته بأحد مختبرات الديمقراطية ، كالمجالس ، يعنى تشجيع الفوضى ، والسقوط توا من جديد فى وهدة الحالة الطبيعية . إن الملك ليس مسئولاً أمام أحد ؛ إنه فوق كل قانون ، إنه الكل فى الكل . لا ريب أننا ننزل له عن الحرية ، التى تعتز بها الشعوب إلى حد ما . وماذا فى ذلك ؟ . . . مادمتا لا نستطيع التوفيق بين الحرية والحياة ، فالأفضل أن نختار الحياة . إن فن الانسان لاعجاز ؛ إنه لميج فى صنع حيوانات اصطناعية ، تماثيل آلية تمشى وتجلس وتحرك رأسها ، وتفتح فمها وتغفل عينها . وبالمثل ، لميج الانسان فى تشكيل مجتمع اصطناعى : آلة مروعة ، آلة أوتوماتيكية سياسية تقوم لحسن الخط ، مقام المجتمع الطبيعى ؛ هذه الآلة الأوتوماتيكية تسمى « لويثان » . « إن المجتمع العالمى الذى أسميه لويثان ، رجل اصطناعى ، وبالرغم من أنه أقوى وأضخم من الرجل الطبيعى فهو مكلف بحمايته وتأمينه . . . »

ستواجه هذه النظريات الواردة من مصادر شتى — ولكنها تلتقى عند مبدأ واحد هو مبدأ السلطة — نظريات أخرى ؛ ستبدأ معركة جديدة ؛ إنها فى أول الأمر معركة المجردات ، ولكنها لا تخلو من جمال مؤثر . سنرى الأفكار تتولد ، متهيبة ، ضعيفة ، ترفض لأول وهلة ؛ ثم تراها يشتد ساعدها . ولاتظل إحداها حبيسة فى موطنها الأصيل بل تطير وتجتاز الحدود ، تلك طبيعتها ، تلك حياتها . تبدو كأنها تحيا وتتقوى عندما تصل إلى آفاق جديدة . يهاجمها البعض بلا هوادة والبعض يدافع عنها ويوضحها بلا انقطاع ؛ فتتال نصراً يتلوه غزو ؛ حتى يأتى يوم تحس فى نفسها قوة تحفزها إلى احتلال مكان المبادئ التى ألهمت الماضى ، وقيادة الناس نحو مستقبل يأملون أن يكون أفضل . يتولد القانون الطبيعى من فلسفة : الفلسفة التى تنكر ما يخرق الطبيعة ، وما هو إلهى ، وتستبدل بفعل الله وإرادته الذاتية نظام الطبيعة ، القائم بنفسه .

القانون الطبيعي

٢٧٣

ويصدر هذا القانون أيضاً من اتجاه عقلي يتحقق في دائرة النظام الاجتماعي : لكل كائن بشري أهلية تلتم بتعريفه التعاماً وثيقاً ، يصحبها واجب مباشرتها وفقاً لماهيتها . وأخيراً يصدر هذا القانون عن شعور هو : أن السلطة التي تنظم العلاقة بين الرعايا والأمير ، تنظيماً تحكيمياً — في الداخل — والتي لا تؤدي إلا إلى الحروب في الخارج ، يتعين رفضها ، وإبدالها بقانون جديد لعله يوصل إلى السعادة : قانون سياسي ينظم علاقات الشعوب ، مع فكرة توليها بمصائرهما بنفسها — قانون الشعوب . . .

القانون ، فلسفة الحياة ، قيمة اجتماعية ، قيمة عملية ، القانون ، جذور عميقة ، فروع كثيفة ، كيانه لا يتغير دون كبير عناء . هناك مؤلفات عظيمة مناضلة ، تقيم الأوتاد على طول الطريق . إن تتبعها ، مع ملاحظة تواريقها ، لمشاهدة لجهود جبار ، يزداد وعياً ، في كل مرحلة ، بالحقائق التي يسعى في أثرها .

١٦٢٥ — هوج دي جروت (١) : قانون الحرب والسلام

Hughes de Groot, *De jure belli et pacis*

إن الذي أعطى الإشارة الأولى ، هولاندي لاجي* إلى باريس . ولما كان سوفور الحس ، جرم المعرفة ، وافر الذكاء ، ويقف في طليعة المعارك السياسية وفي قلب المنازعات الدبلوماسية ، فقد كان يتألم من أجل القتال المستمر الذي يجرب أوربا : « كنت أرى في العالم المسيحي إفراطاً في الحروب ، لو اقترفته الشعوب البربرية لكان مثيراً للتعجب ؛ فالتناس يهرعون إلى السلاح لأتفه الأسباب أو دون أي سبب ، فإذا تناولوه لم يحترموا أي قانون ، لا القانون الإلهي ولا القانون الإنساني ، كأنما الغضب الجنوني ينطلق في طريق الجرائم بمقتضى قانون شامل . . . » جروسيوس هذا ، الذي جرت عليه أفكاره الاضطهاد ، هرب هروباً روائياً من السجن الذي سجنه فيه أعداؤه وانتقل إلى فرنسا : وقدم إلى لويس الثالث عشر في ١٦٢٥ كتابه « قانون الحرب

(١) اسم جروسيوس ، Hugo De Groot, dit Grotius . [الترجمان]

والسلام» ، كتاب عظيم ، يجهله الشعب ، كما هو دائماً شأن كل ما يؤثر في مصيره أعمق التأثير . من يدرس هذا الجزء من القانون الذي ينظم علائق الشعوب أو رؤساء الدول بعضهم ببعض ؟ لا أحد ، كما يقرر جروسيوس . بل يقول الناس عادة إن الحرب لا تتفق مع أي نوع من القانون ؛ وإنه ، لأسباب تقتضيها مصالح الدولة — أسباب اخترعها « ماكيافيلي » — يجب أن نفهم وأن نبين كل غدر وكل عنف . وهذا غير صحيح ، فهناك قانون يبقى في أثناء الحرب بل يسود الحرب ، وهو القانون الطبيعي . والواقع أن الطبيعة قد نقشته في قلب الانسان ، الذي تريده اجتماعياً أنيساً ؛ لا شيء يستطيع أن يفوق هذا القانون العرفي ، هذا القانون الحيوي . — « لكي تكون الحرب عادلة ، ينبغي أن تقوم على روح الانصاف التي اعتدنا أن نراعيها في توزيع العدل . » — « في أثناء الحرب ، تبطل القوانين المدنية ؛ لكن لا تبطل القوانين العرقية التي تفرضها الطبيعة . »

وما القول في القانون الالهي ؟ يحاول جروسيوس أن يحيله . يقول : إن ما قلنا يسري ، ولو فرضنا أن لا وجود لله (وهو ما لا يمكن تصوّره دون جريمة) ، أو أن أمور البشر ليست محل عنايته . أما ولا شك في وجود الله والحماية الالهية ، فهناك منبعاً آخر للقانون ، غير الذي ينبثق من الطبيعة : القانون الذي يصدر عن إرادة الله . « إن القانون الطبيعي نفسه يمكن لسببه إلى الله ، مادام الله شاء أن يوجد في أنفسنا مبادئ مثل تلك المبادئ . » قانون الله ، قانون الطبيعة . . . هذه الصيغة المزدوجة ، لم ي اخترعها جروسيوس ، بل استعملت قبله بكثير ؛ إنها كانت معروفة في القرون الوسطى . أين إذن صفتها الجديدة ؟ ولأي سبب ينقدها الناس ، ويحرمها الأساتذة والآباء ؟ ولماذا تثير كل هذه الضجة ؟

وجه الجدة هو في التفرقة بين هذين اللفظين ؛ التي بدأت تتكشف ، وفي اختلافهما الذي يحاول أن يندعم ، وفي محاولة التوفيق بعد نقاد السهم ، التي تفرض فكرة انفصام . وجه الجدة على الأخص هو الشعور الذي سبق ذكره . — والذي كان غامضاً إذ ذاك وأصبح قوياً الآن : الحرب ، والقسوة ، والبلبلة ، التي لا يكبحها قانون الله ، بل يبيحها ، بل يبررها بأغراض تسمو عن مداركنا ؛ فلعل قانوناً بشرياً يفلح في تخفيف كل هذه الشرور التي تقاسيها ،

وفي القضاء عليها . هكذا ننقل ، — مع الاعتذار عن تلك الجراءة — من نظام العناية الالهية إلى نظام اللسانية .
وترجم هذا الكتاب ، وفسر ، وشرح ، في كليات القانون طوال القرن .

١٦٧٠ — سبينوزا . بحث لاهوتي سياسي ، *Tractatus theologico-politicus*

١٦٧٧ — الأخلاق ، *Éthique*

ظهرت فكرة أن الملوك دجالون ، يستغلون الدين في دعم سلطانهم الجائر ؛
ثم فكرة أخرى عميقة ، وهي أن : كل كائن لابد أن يجاهد للبقاء على كيانه .
يكفى أن نذكر في هذا الصدد نص « علم الأخلاق » القسم الثالث ،
الفرض السادس :

« كل شيء ، مهما كان ، يجاهد ، طالما له كيان ، للبقاء على كيانه . »

الاثبات — الواقع ، أن الأشياء الخاصة بحالات تعبر عن صفات الله بطريقة
مؤكدة ومعينة . . . أي أشياء تعبر عن قدرة الله ، التي تدل على وجوده ،
وبها يؤثر بطريقة مؤكدة ومعينة . ولا شيء يحمل في ذاته دواعي دماره ،
أي ما يقضي على وجوده . . . بل هو بالعكس يقاوم كل ما يستطيع أن يقضي
على وجوده ، وإذا فهو يجاهد ، — طالما له كيان — للبقاء على كيانه .
هذا هو ما كنا نريد تبيانته .

١٦٧٢ — صامويل بوفندورف : ثمانية كتب عن القانون الطبيعي وقانون الشعوب

Samuel Pufendorf, *De jure naturae et gentium libri octo*.

١٦٧٣ — كتابان عن واجبات الإنسان والمواطن طبقاً للقانون الطبيعي

De officio hominis et civis juxta legem naturalem libri duo

واصل المهمة ألماني — أستاذ في السويد — ووسم أثره الخالد على النظريات
التي كانت تتكون في ذلك الوقت . كان صامويل بوفندورف أول أستاذ
لقانون الطبيعة وقانون الشعوب ، في جامعة هايدلبرج . في ١٦٧٠ قبل دعوة

شارل الحادى عشر ملك السويد ، الذى عرض عليه كرسى الأستاذية فى جامعة لوند Lund . — « واجب الانسان والمواطن » : ما أعجب هذا العنوان فى ذلك الوقت ! يحيل إلينا أنه يسبق زمنه بمائة سنة على الأقل ؛ ولو أننا سألنا إلى أى تاريخ يرجع ، لما ترددنا فى أن ننسبه إلى لغة الثورة الفرنسية . الواقع أن هذا المؤلف يتضمن أفكاراً ، ستنتقل من ذهن إلى ذهن ، حتى تسيطر فيما بعد على ضمائر القرن التالى : — قيام التجرد الفلسفى محل التاريخ ، مادام يمكننا « أن نقدر أن أول رجل إنما هبط من الفضاء ، حاملاً نفس الميول التى يحملها الناس معهم اليوم عند ولادتهم » ؛ — والأخلاق الاجتماعية ، بتقدير أن الواجب « هو فعل بشرى يطابق تمام المطابقة القوانين التى تفرض علينا التزامه » ؛ — والميثاق السياسى . فالمجتمع المبنى — الذى خلف الحالة الطبيعية عن طريق الزواج ، والأسرة ، وتكوين كتلة سياسية — يقوم بالضرورة على اتفاقات : يتعهد الأفراد على الاتحاد فى كتلة واحدة ، وعلى تنظيم أنفسهم ومصالحهم المشتركة بارتضاء إجماعى ؛ ويتعهد أولئك الذين يملكون السلطة العليا بالسهر على الأمن الجماعى والمصلحة العامة ؛ وفى نفس الوقت يعد الآخرون بطاعة خالصة .

بدأ القانون الطبيعى يتكون ويزداد قوة ؛ لم يعد يطالب بإمكانه فى وسط الحروب محسوب ، بل يحتله قسراً فى التكوين السياسى للدول ؛ ويسود الحياة الاجتماعية : « إن قانون الطبيعة هو القانون الذى يوافق دائماً طبيعة الانسان الأنيسة والمنطقية ، حتى إنه لا يمكن أن يوجد فى الجنس البشرى ، دون مراعاة لمبادئه ، مجتمع شريف سالم . . . » لا ينكر بوفندورف القدرة الالهية ، ولكنه يبعدها إلى مجال آخر ؛ فهناك مجال العقل الصرف ومجال الوحي ؛ إذن هناك مجال القانون الطبيعى ومجال اللاهوت الأخلاقى ؛ مجال الواجبات التى نلتزم بها لأننا ندرك على ضوء العقل الطبيعى المستقيم ، أنها لازمة لارادة المجتمع البشرى ؛ ومجال الواجبات التى نلتزم بها لأن الله فرضها علينا فى الكتاب المقدس . إلا أن البراهين التى يقدمها لاثبات أن هذه المجالات لا تتعارض بل يمكن أن تتوافق ، تبين لنا اختلافها العميق . إن اللاهوت يخص السماء ، والعقل الطبيعى يخص الأرض ؛ وبوفندورف لا ينظر إلا إلى الأرض ؛ فالسماه تبدو له بعيدة جداً .

لقد أدرك مساواة السويدي خطر هذه القسمة ، أو بمعنى أصح خطر هذه المفاضلة الصريحة ؛ وقد حدثت حينئذ ضجة كبرى ضد عالم القانون الطبيعي ، حتى اضطر إلى الاستغاثة بالسلطات المدنية لكيلا يفقد وظيفته . وحدث العكس ، فقد انتصر .

١٦٧٢ — ريشارد كامبرلاند : بحث فلسفي عن قانون الطبيعة

De legibus naturae disquisitio philosophica.

إنه يمثل مشاركة انجلترا في هذا السبيل : لقد فند ريشارد كامبرلاند ، أستاذ اللاهوت ، والأسقف فيما بعد ، سبأدي* هوبز المردونة . فعلى أي أساس يستند ؟ على القانون الطبيعي ، الذي هو على التدقيق نقيض العنف الذي أشاد به كاتب اللويثان : « إن القوانين الطبيعية تتلخص فيما يلي : ينبغي أن نأخذ بالرفق كل كائن عاقل . . . »

إلا أن هذه الأرض العجوز متقدم معونة فعالة أخرى ، حيث أصبحت المنازعات السياسية جزءاً متمماً للحياة الفكرية والأخلاقية والدينية للشعب ؛ وحيث كانت الملكية — التي لم ينقطع الحديث عنها طوال القرن السابع عشر ، والتي انقلبت ، ثم تأسست من جديد ، ثم انقلبت ثانية وتأسست من جديد ، وتغيرت في جوهرها — قد أصبحت موضوعاً لمجادلات حامية محتدمة ، أراد أن يشترك فيها البورجوازيون والنبلاء ، وليس الشعراء والفلاسفة فحسب ، بل حتى الملوك أنفسهم . ولكن الأمور لم تأخذ مجراها بتلك السرعة ؛ فعلمنا أن ننتظر قليلاً .

١٦٨٥ — فسخ أمر نانت

La Révocation de l'Édit de Nantes

ارتفع من فرنسا المكونة خارج فرنسا ، من الملاهي* المؤسسة في الأراضي الأجنبية ، صوت ينادي بالعصيان . والحق أن رجال الإصلاح ، حتى بعد الاضطهاد والنفي ، لم يعتقدوا أنهم في حل من يمين الولاء للملك ؛ ولم يعملوا

مشكلة الضمير التي عرضت لهم حلاً واحداً ، لأن بعضهم ظل يعتقد أنه بما أن القانون الإلهي هو أساس الطاعة نحو الأمير ، فإن أخطاء الأمير لا تمس سلطة الملك ، القائمة على الحق الإلهي . ولكن البعض منهم رفعوا عقائدهم منادين بمقاومة العنف بالعنف . ألقى جوريو ، من ١٦٨٦ إلى ١٦٨٩ ، بمقالاته «رسائل رعوية إلى المؤمنين الذين يئنسون في أسر بابل (١)» معلناً فيها الحق في العصيان : «إن استعمال سيف الأمراء لا يمتد إلى الضمائر» : لقد استعمل لويس الرابع عشر سيفه لإجبار الضمائر ، وبذا خرج على القانون : إن العصيان أصبح مشروعاً من الآن .

ولقد انصدم بوسويه عندما سمع بذلك التوكيد ، وكرس لتفنيد مؤلفه «الإنذار الخامس إلى البروتستانت عن رسائل القسيس جوريو ضد تاريخ التبدلات (١٦٩٠)» : أساس الممالك الذي يقابله هذا القسيس (٢) . «— ينشر السيد جوريو مبادئ شيرة للفتنة ترمي إلى قلب كل الممالك وإلى تجريد كل السلطات التي وضعها الله . يا للعجب ! لقد عانت الكنيسة المسيحية القديمة الاضطهاد دون عصيان ، وأنكر البروتستانت أنفسهم زمناً طويلاً أنهم مبردون في فرنسا وفي إنجلترا على السلطة الملكية ؛ والآن يعلن جوريو أن لنا الحق في أن نحارب ملوكنا وأوطاننا ! إن روح العصيان هذه لشئ محقوت . «أريد أن أثبت لكم أن إصلاحكم هذا ليس إصلاحاً مسيحياً ، لأنكم غير مخلصين لأسرائكم وأوطانكم .»

لكن الأمر ، لم يكن أمر مسألة بين البروتستانت والكاثوليك : بل تدخل القانون الطبيعي في اقتتالها . استند جوريو على جروسيوس . وكان بوسويه يعرفه تمام المعرفة ؛ كان جروسيوس عالماً بحق وحسن النية ؛ ولكنه كان سوسليانيا ؛ كان ذهنه خطراً ، يخلط بين ما هو إلهي وما هو بشري . ماذا كان يريد أن يقول بقانونه الطبيعي ؟ إن تخيله أن الشعب كان سيبدأ مطلقاً بطبيعته ، معناه بلا شك أن الانسانية — في حالتها البدائية — كانت

Lettres pastorales aux fidèles qui gémissent sous la captivité de Babylone (١) : Cinquième avertissement aux protestants sur les lettres du ministre Jurieu (٢) . contre l'Histoire des Variations, ١٦٩٠ : Le fondement des empires perversé par ce ministre.

القانون الطبيعي

٢٧٩

لديها فكرة سلطة مطلقة تخصها ، وأن لها الحق في تفويض هذه السلطة إلى من تشاء . يا له من خطأ ! إن جروسيوس ، وجوريو من بعده ، يخطئان في المبادئ ولا يدركان معاني الألفاظ . فلنحذر الخطأ : بما أن حالة الانسانية البدائية كانت فوضى شليعة وحشية ، ولم تكن أول الجماعات البشرية تشكل — كما يسمح لنا المنطق أن نفترض — شعباً بل قوماً رحلاً ، فكيف نتصور إذ ذاك سلطة مطلقة تكون شكلاً من أشكال الحكومة ؟ « من المستبعد أن يكون الشعب — في حالته هذه — سيداً مطلقاً ، بل لا يوجد شعب أصلاً في هذه الحالة . من المحتمل أنه كانت هناك أسر سيئة الإدارة وغير موطدة ؟ كما أنه من المحتمل أنه كانت هناك قبيلة ، كتلة من الناس ، خليط مهوش ، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شعب ، لأن الشعب يفترض شيئاً يتضمن بعض السلوك المنظم وبعض القانون الموضوع ، وهو ما لا يحدث إلا لدى الذين بدأوا يخرجون من هذه الحالة التعسة ، أي الفوضى » . لا يستطيع بوسويه أن يتصور أن الفوضى تفوض سلطة .

وسمع ذلك فإن لويس الرابع عشر ، السلطان المطلق ، قد حكم عليه بصفته هذه ؛ كان يمثل في نظر الناس النظام القديم . ما أشد رد الفعل الذي حدث في داخل مملكته — فرنسا — ضد مبدأ سلطة لا يصادق عليها إلا الله ! فالعارضون ، الذين قاموا بالبحث في الوثائق والقوانين القديمة ، عن مصادر الملكية ، مبيينين اغتصابها ؛ والبارلمانيون العنيدون ، الذين دافعوا عن حقوق وامتيازات هيئاتهم الجليلية ؛ والنبلاء الذين يطالبون بامتيازات أسراء الاقطاع في فرنسا Pairs ؛ بدأ الجميع ، بوجوازيين كانوا أو نبلاء ، متقادين كانوا أو غاصيين ، مجانين أو عقلاء ، يعبرون عن عدم رضاهم ، وعن غضبهم وعدم اضطبارهم على هذا النير ، في الكتب التي يطبعونها في هولاندا ، وفي المخطوطات التي يتداولونها خفية تحت أرديتهم .

وفي الخارج ، افتضح لويس الرابع عشر ، كما قلنا من قبل . ولكن من وجهة نظر القانون ، بقي اعتراض بوسويه قائماً . إذا لم يكن البشر في حالة الطبيعة إلا قبيلة رحالة ، فكيف تولد قانون من تلك البلبلة البدائية ؟

١٦٨٨ — الثورة الانجليزية

طرد جاك الثاني ، الملك بنعمته تعالى ، من العرش ؛ وترجع ولهم أوداج مكانه ؛ يقول المؤرخون إن الملك الجديد ، الذى توج فى وستمنستر فى ١١ أبريل ١٦٨٩ ، « يحكم بمقتضى حق لا يفترق فى شئ عن الحق الذى ينتخب كل مالك بمقتضاه نائب مقاطعته » ؛ وإنه قبل رقابة المجلسين ، وبذا حقق انتصار الحكم البرلماني ، وفقاً لميثاق مثالي أبرم بين الأمير ورعاياه .

أين كانت الأفكار التى نادى بها الأساتذة من فوق منابرهم ، والتى استوعبها الطلاب ، وأعلنتها الصحف العلمية ، والتى نوقشت ، ونوقضت ، ثم عادت واندفعت من جديد ، وغذت منذ جروسيوس جيلين متتابعين ؟ أين كانت الأفكار التى شرحها أساتذة الكنيسة ، ووضحها الفقهاء الرسميون ، والتى كانت تدعمها قوة التقاليد ؟ هل تقف تلك الأفكار جامدة ، بينما التجربة نفسها ، بينما الحدث الذى يقلى كل أوروبا ، يهيئ لها فرصة عظيمة للإعلان عن نفسها ، والمعارضة فى هذه المرحلة الحاسمة من قناتها ؟ لم يفت الناس الالتجاء إلى النظريات للدفاع عن حكم أسرة « ستيوارت » المزعزع الأركان . لقد بحثوا من زوايا النسيان كتباً تثبت شرعية الحكم المطلق ، من بينها كتب مجادل قوى ، قد دافع فى منتصف القرن عن القضية الملكية بشجاعة . كان روبرت فلمر Robert Filmer يحظ بالخضوع والطاعة ، قائلاً إن حكومة مختلطة لا تؤدي إلا إلى البلبلة ، وإن الرعايا ليس لهم أى حق فى العصيان ؛ وإن هوبز كان مخطئاً فى مبادئه ، ولكنه كان « صيباً فى استنباطه » ؛ وإن سلطة الملوك المطلقة ضرورة لا معدى عنها . لقد أصبح فلمر بدعة العصر ، بل طبع فى عام ١٦٨٠ — ثم مرة أخرى فى خلال السنوات التالية — المؤلف الخطير لذلك « الرجل العالم » ، تحت عنوان *Patriarcha* ، موضحاً وضوح النهار أن سلطة الملوك استناد للسلطة الأبوية : لا يجرؤ ابن ، يخاف الله والناس ، أن يعق أباه .

لقد كذبت الوقائع مزاعم أشياخ جاك الثانى . وسيتقدم رجل ليخلق على الوقائع قيمة المبدأ الشامل .

١٦٨٩ — جون لوك : بحثان عن الحكومة

نكشف فى الأول مبادئ السير روبرت فلمر وخالفاته الباطلة
وأسسهم المغلوطة ونقدها . والثانى مقال عن مصادر الحكومة المدنية
ومداهها ومقاصدها الحقيقية (١)

فى نفس السفينة التى أقلعت من هولندا ، حاملة وليم أورانج نحو انجلترا
ولحو الثورة ، كان يرحل جون لوك ، فيلسوف الأزمان الحديثة . وهو الذى
سيستجيب فى بحثه لدعوة الملكيين إلى القتال .

وهو فى الواقع يردد الأفكار التى سبق أن سمعناها مراراً : ولكنه سيدفع
بها إلى أبعد مما وصلت إليه من قبل ، ويلزمها بأن تثبت ، بسلسلة من الاستدلال
المنطقى ، شرعية الحق فى العصيان . إنه يبدأ من حالة الطبيعة ، كما سبق أن
فعل بوفندورف ، وكما يفعل الجميع الآن ؛ فان هذه بدعة ، بل هوس . إن
حالة الطبيعة ليست حالة عنف ووحشية كما يدعى هوبز ، إلا أنها أيضاً لا تبلغ
مرتبة الكمال . فالرجل يؤسس حالة اجتماعية ، علاجاً للشرور التى تتضمنها
حالة الطبيعة ، ولكن دون أن يتبع نظام رب العائلة ، كما يزعم فلمر ؛ بل
يؤسسها بناء على ميثاق ، كما أثبت بوفندورف . فليعرف القراء ما يلى : «لا يوجد
مجتمع سياسى إلا حيث يتجرد كل عضو من سلطته الطبيعية ويضعها بين يدى
المجتمع ، لى يستعملها فى الأمور كافة ، على ألا يحول ذلك دون الالتجاء إلى
القوانين التى يضعها المجتمع . » إن الحكم المطلق ، الذى ينكر هذا الحق
فى الاستئناف ، لا يتفق مطلقاً مع المجتمع الدنى ؛ وإن الحق الإلهى ، الذى
يشيد به الأساتذة الكاثوليك ، لا يثبت بتاتاً سلطة رجل واحد على بقية
الناس . يجب أن تكون السلطة تحت الرقابة وأن تكون مجزأة ، كما هى الحال
فى بريطانيا العظمى : تشريعية وتنفيذية . إذا لم تعمل السلطة التنفيذية طبقاً

Deux traités de gouvernement. Dans le premier, les faux principes et les (١)
fondations erronées de Sir Robert Filmer et de ceux qui le suivent sont découverts
et rejetés. Le second est un essai concernant l'Origine, l'Extension et la Fin
véritable du gouvernement civil.

للاغراض التي أسست من أجلها ، وإذا اعتدت على حرية الشعب ، يجب سحبها من يد الذي يملكها . بل أكثر من ذلك : إذا رأى الرعايا أن الطاغية يعد الوسائل لاستعبادهم فليسبقوه ! فليمنعوه ، بوساطة عصيان علني ، من تحقيق نواياه السيئة !

كان لوك يرتب الأمور بفضل مزايا عبقريته العملية ؛ فكان يضيف إلى فكرة الطبيعة ، فكرة المدنية . وكان يبدو كأنما يرد مقدما على بوسويه . حقاً ، إن حالة الطبيعة تتضمن بعض المحذورات . وحقاً أيضاً ، إن التاريخ ، الذي لا يتعصف بالغنى والدقة فيما يخص نشوء المجتمع ، كما نريده أن يكون ، لا يقدم لنا نماذج أكيدة ، بل فروضاً شبه حقيقية ؛ وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتصور على وجه التقريب كيف اضطر الناس إلى تفويض سلطتهم . هكذا : كان الناس بطبيعتهم أحراراً ؛ وكانوا في تأييد هذه الحرية ، قضاة ومحكمين ؛ أما للدفاع عنها فعند من كانوا يستأنفون ؟ كان الناس بطبيعتهم سواسية ، ولكن ، لحماية هذه المساواة ضد الاغتصاب ، إلى من كانوا يختصمون ؟ لو أنهم لم يفوضوا سلطتهم إلى حكومة قادرة على الاحتفاظ بالحرية والمساواة الأولية ، لوقعوا في حالة حرب مستمرة . لم يكونوا قبيلة رحالة ، ولكن ، لولا احترازهم لأصبحوا كذلك . إن القانون الطبيعي يوحى بالقانون السياسي ، الذي يصون المزايا الطبيعية من أخطار الحياة العملية .

كلما ظهرت صعوبة حاول لوك الحكيم أن يحلها بالحكمة . مثلاً : يصعب على الناس أن يضحوا بفكرة السلطة الأبوية ، الوسيطة بين الله والناس ، وأول صورة للسلطة الملكية . ويتدخل لوك ليشرح أن الأطفال لا يولدون « في » حالة مساواة تامة ، وإن كانوا يولدون « لأجل » هذه الحالة ؛ وأن الوالدين (الأب وكذا الأم) يملكان نوعاً من الولاية عليهم : الواقع أن الوالدين ملزمان باعداد الأطفال للحرية ، طالما لم يبلغ الأطفال رشدهم . إذن فالسلطة الأبوية موجودة ، ولكنها غير مطلقة ، بل هي واجب أكثر منها سلطة ؛ لا يمكنها أن تسن قوانين ؛ وإذا أسكن افتراض أنه كان هناك ، في بداية الأزمان ، نظام رب العائلة ، فإن هذا النظام لم يكن يقوم إلا على رضا ضمني من الأطفال .

لننظر الآن إلى الملكية : تلك المسألة الخطيرة . إنها لا تتفق مع المساواة الطبيعية كل الاتفاق . نرى ، بموجب العقل وبموجب الوحي معاً ، أن الله أهدى الأرض مشاعاً لكل الجنس البشرى : كيف نفسر إذن أن الأفراد استطاعوا أن يملكوا شرعاً جزءاً من هذا الرزق الجاعى ؟ — يتدخل لوك هنا أيضاً ويحيب : إن الملكية الفردية تفسر بالعمل . — « ومع أن الأرض وما عليها من خيرات مشاع بين الناس ، إلا أن كل فرد يتمتع بحق خاص على شخصه الذاتى ، الذى ليس لأحد آخر أن يدعى عليه أى حق كان . يمكننا أن نقول إن جهد جسمه وإنتاج يديه ، ماله الخاص . كل شئ يستخرجه من الطبيعة ، بفضل مجهوده وصناعته ، يملكه هو وحده . . . » إن الماء الذى ينبثق من تلك العين مملك لكل المارة ، ولكن إذا ملأت منها جرتى ، من يجرؤ أن يقول إن ماء جرتى ليس ملكى ؟

كان لوك ينقض ويفسر ، وسيطاً بين الفقهاء والجمهور ؛ وسيطاً أيضاً بين الأزمان القديمة والأزمان الحديثة : محتفظاً من العقائد القديمة بما يكاد يكفى لثلا يدهش الضمائر كل الدهشة ، ومكثراً من الجديد : لا حق إلهياً ؛ ولا حق فى الفتح : « يبعد أن تكون الفتوحات مصدراً أو أساساً للدولة ، قدر ما يبعد أن يكون تدبير منزل السبب الحقيقى فى إنشاء منزل آخر فى نفس المكان . » فيفضل لوك ، كان شعاع الدستور الانجليزى ينعكس على الحق الطبيعى ؛ وفى نفس الوقت ، كان الحق الطبيعى يؤسس الدستور الانجليزى ؛ دستور عادل يتضمن برلماناً وملكاً اختارته الإرادة الأهلية . كان لوك يدخل الحق الطبيعى فى سياسة زمنه ، ويلدنه وجنسه ، وفضلاً عن ذلك ، كان يسجل صلته بدين الإصلاح . فالحق الإلهى ، بمجرد زعمه أنه أساس الحكم المطلق ، لم يكن يبدو فوق الطبيعة ، بل مخالفاً للطبيعة ؛ ولم يكن تبرير الحكم المطلق ببعض إرادة إلهية مزعومة ، إلا اختراعاً حديثاً للاهوتيين الكاثوليك : « لم نسمع مطلقاً عن شئ مثل ذلك ، قبلما يكشف لنا علم اللاهوت فى هذا القرن الأخير عن ذلك السر الكبير . . . »

١٦٩٩ — مغامرات تليماك (١)

Les Aventures de Télémaque

الحق أن فينلون لا ينكر مبدأ الحق الإلهي . ولكن ، بين المشاعر والأفكار العديدة التي أعلنها هذا الكتاب المشهور ، المنتشر بين الصغار والكبار بآلاف وآلاف النسخ ، — يوجد على الأقل شعور واحد وفكرة واحدة يجب أن نعيها . شعور واحد : البغض ، كراهية لويس الرابع عشر . والموضوع ليس مجرد اعتراض نظري ، بل هو في الحق شعور ينفجر ، أو انفجار متهم عام . — « هل بحثت بين الناس عن أبعدهم عن التفرغ ، وأصلحهم لحبارحتك ؟ هل عانيت بأن تسمع كلام أناس لا تدفعهم أي رغبة إلى إرضائك ، وأبعدهم عن الوصولية في سلوكهم ، وأجدرهم بلوصك على شهواتك ، وعلى مشاعرك المخالفة للعدل ؟ ولما وجدت منافقين ، هل صرفتهم عنك ؟ هل كنت تحترس منهم ؟ كلا ، كلا ، إنك لم تفعل البتة ما يفعله الذين يحبون الحق ، والجديرون بمعرفته . . . بينما كان العدو الخارجي يهدد مملكتك التي لا تزال مزعزعة ، لم تفكر في داخل عاصمتك الجديدة إلا في إنشاء المباني الفاخرة . . . إنك بددت مالك ، إنك لم تفكر لا في إثناء شعبك ولا في فلاحه الأراضي الخصبة . . . بل إن كبراً باطلاً دفع بك إلى حافة الهاوية . ومن أجل رغبتك الملحة في التظاهر بالعظمة ، حطمت عظمتك الحقيقية . . . »

وفكرة واحدة : قيمة الشعب . « إن الآلهة لم تجعل منه ملكاً لشخصه بل لكي يكون رجل الشعب : إنه مدين للشعب بكل وقته ، بكل عنايته ، بكل عاطفته ؛ وإنه ليس جديراً بالملكية إلا بقدر ما يتنامى نفسه ، ويضحي بنفسه للصالح العام . . . » — « اعلم جيداً أنك لست ملكاً إلا بقدر ما لك

(١) كتاب ألفه فينلون Fénelon لتعليم تلميذه دوق بورجوني de Bourgogne الذي أصبح ولي العهد في ١٧١١ . يصف فيه مغامرات تليماك لما رحل ، وهو ما يزال طفلاً ، باحثاً عن أبيه أو ليس ، أحد أبطال حرب طروادة . إنما المقصد من هذا التأليف — كما اعترف به فينلون — شرح الحقائق الضرورية لإدارة الدولة ، وحيوب السلطة المطلقة ، والتعليقات الأسامية التي تناسب أميراً تؤهله ولادته للحكم . [الترجمان]

من شعب لتحكمه ... » بل أكثر من ذلك ! الشعب المكبوت لا رغبة له إلا فى الانتقام من الملوك ، وحينئذ تأزف ساعة العصيان : « إن حكمه المطلق يخلق عدداً من العبيد بقدر ما له من رعايا . يتملقه الناس ، ويتظاهرون بعبادته ، ويرتعدون لأقل نظراته ؛ ولكن انتظر العصيان : لن تستمر هذه العظمة الوحشية ، إذا تجاوزت الحد ؛ فلا سند فى قلوب الشعب ؛ لقد أجهدت كل كيان الدولة وأثارته ؛ إنها دفعت كل أعضاء الدولة إلى التلهف على تغيير الحال . فمن أول ضربة ينقلب ذلك النصب المعبود ، ويتحطم ، ويقع مردولاً تحت أقدام الناس (١) » .

إن مملكة فرنسا تعاني تعاسة شديدة . من لا يعرف الفقرة التى وصف بها (لافروبير) حالة الفلاح بأسلوب روائى مؤلم (٢) ؟ ولعل ملاحظات لوك أقوى منها تأثيراً ، وإن كان لا ينظر مثله إلى التأثير : إنه يلاحظ أن الفلاحين يعيشون فى جهور ، ويملكون ما يكاد يستر أجسادهم وما يقيم أودهم ، وبالرغم من تعاستهم لا تعدم الحكومة وسائل لانقارهم بالضرائب . ولذلك تتوقف الزراعة وتبور الأرض : وحيث إن العمل لا يؤدى بالفلاح إلا إلى ظلم أفدح ، فإنه يكف عن العمل . ومن جهة أخرى ، يموت المصانع ، أو تحاول الفرار إلى خارج الحدود ، عليها تجدد الحرية التى اقتطعتها فى فرنسا . إن الرسوم الجمركية ، التى تفرض عند كل مخرج ، وعند كل مرور ، تجعل التجارة تبور . إن إخفاق سياسة « كولبير » الذى بدأ الناس يحسونه فى أثناء حياته ، أصبح جلياً بعد مماته . جماعة عام ١٦٩٤ الهائلة ، والافلاس : أى تعاسة !

وجهت نغمة ممتازة هذه الشكاوى وحاولت أن تعالج هذه السور . إن الضائقة الفرنسية الكبرى ، ستسجل فى كتب يبدو أنها قد أملت ضرورة

(١) تيلياك ، الكتاب العاشر .

(٢) هاك هذه الفقرة : « نشاهد بعض حيوانات متوحشة منتشرة بالريف ، سوداء ، مغبرة ، قد لفحتها الشمس ، ملحقة بالأرض التى تنبش فيها بعناد لا يغلب ، نلوح كأنها تنطق بلغة مفصلة ، وحينما تنف على أقدامها تظهر لها وجوه إنسانية ؛ الواقع أنهم أناس بأوون بالليل إلى جهورهم حيث يتغذون بالخبز الأسود ، بالماء وبالجزور . إنهم يكفون الناس الأحرار مشقة البذر والحرق للمعيشة ، وبذا يستحقون ألا يحرصوا من الحب الذى بذروه » . (كتاب الشخصيات ، الفصل ١ ، الإنسان) . La Bruyère, *Caractères*, chap. X . [المترجمان]

الحياة . كتب بواجلبرت (١) في أسلوب ثقيل خال من الفن ولكن في إصرار وصرامة لها تأثيرها ، مبيناً أن فرنسا ، التي كانت أغنى ممالك العالم فيما سبق ، قد فقدت خمسة أو ستة ملايين من دخلها السنوي ، وأن هذا العجز يزداد كل يوم . ولقد بلغ من سوء توزيع الضرائب أن تنقل على الفقير وتحمي الغنى ، وبهذه السياسة المالية أصبح الفقراء بائسين : إن الملكة بأجمعها تسير إلى حتفها . ويقول فوبان Vauban بدوره ، إن الحسالة ملحة إلى تغيير توزيع الضريبة ؛ إن ضريبة عشرية عادلة Dime تكلف أقل ، وتغل محصولاً أوفر . وإذا كان بواجلبرت وفوبان — مع بعدهما عن أن يكونا متمردين — يحاولان إصلاح مالية الدولة وإيجاد موارد يبحث الملك عنها عبثاً ، فقد كانا يدوان دخيلين مغتصبين يتعديان على ملك محفوظ من قديم (٢) : لحكم على مشروع ضريبة العشر بالحرق (٣) .

ولكن كم يبدو فنليون أكثر جسارة ! فالأسئلة التي يوجهها تليماك إلى إيدومنيه (ملك كريت) ، يوجهها فنليون ، بنفس النغمة الأليمة ، إلى تلميذه الدوق بورجونى ، إذا قدر له أن يتولى الحكم يوماً : أتعرف كيف تتأسس الدولة ؟ هل درست الواجبات الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الملوك ؟ هل بحثت عن الوسائل التي تروح عن الشعوب ؟ كيف تجنب رعاياك الشرور التي تنجم عن الحكم المطلق ، وسوء الإدارة ، والحروب ؟ وحينما يصبح الدوق بورجونى في عام ١٧١١ ولى عهد فرنسا ، يقدم له فنليون قائمة إصلاحات ، تهيبه لتنصيبه على العرش .

فلنسجل في قائمة فنليون ما قاله ، دفاعاً عن حقوق الانسانية ، بهذه الألفاظ : « كما أن كل أسرة عضو في شعب معين ، كذلك كل شعب عضو في الجنس البشرى ، الذى هو المجتمع الشامل . وكل فرد مدين للجنس البشرى ، الذى هو الوطن الأعظم ، أكثر مما هو مدين لوطنه الخاص ، الذى ولد فيه ؛ لذلك فإن الأساس بالعدالة بين شعب وشعب آخر لأشد وبيالا على الجنس البشرى ،

(١) دى بواجلبرت : تقرير عن مالية فرنسا ، ١٦٩٥ . Pierre Le Pesant De Boisguilbert, *Le détail de la France*, 1695.

(٢) لأن الضريبة العشرية كانت مخصصة للكنيسة . [المترجمان]

(٣) مشروع قانون عن ضريبة العشر الملكية ... (١٧٠٧) .

من المساس بالعدالة بين أسرة وأسرة . إن إنكار المشاعر الانسانية ليس إغوازاً للتربية ووقوعاً في البربرية فحسب ، بل هو أيضاً أشد صور عمى الأشقياء والمتوحشين : إنه خروج على الآدمية ، لا يليق إلا بأكلة لحوم البشر (١) . »

١٧٠٥ — توماسيوس :

أساس القانون الطبيعي وقانون الشعوب على ضوء الادراك السليم

Fundamenta juris naturae et gentium ex sensu communi deducta

١٧٠٨ — جرافينا : مصادر القانون المدني ونشأته وتقدمه ،

وقانون الشعوب واثناعشر جدولاً مفسراً .

Origines juris civilis, quibus ortus et progressus juris civilis, jus naturale gentium et XII Tabulae explicantur.

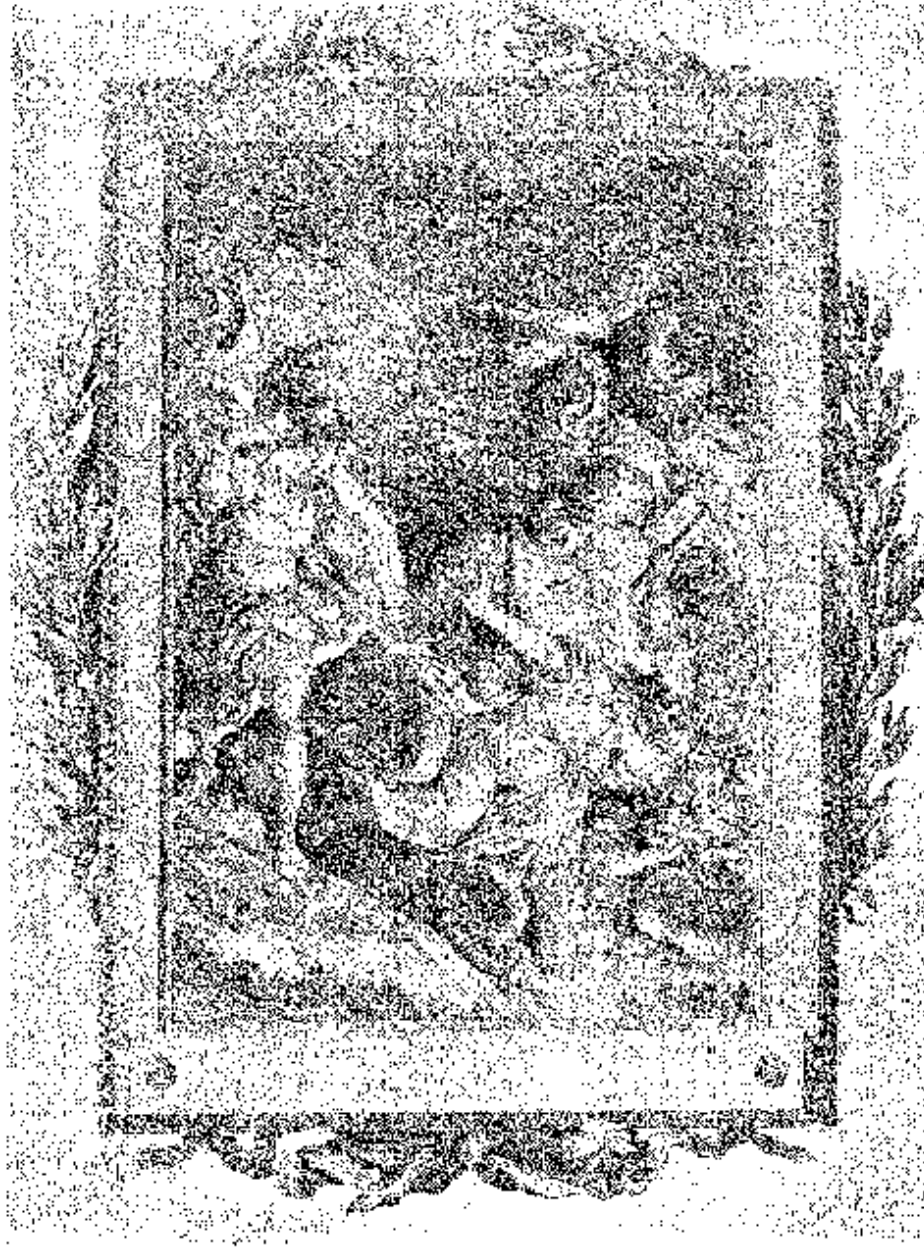
يدخل جان فانسازو جرافينا Gravina فكرة القانون الطبيعي في التاريخ . ويحاول ، من جهة أخرى ، أن يفسر تناقضاً يتولد دائماً من فكرة الطبيعة ، التي لا يمكن إدراكها . فالقانون الطبيعي هو العقل ، الذي يوجب الفضيلة . والفضيلة تطرد الرذيلة : ومع ذلك ترى الرذيلة أيضاً في الطبيعة ... هالك الجواب : « علاوة على القانون الشامل الذي يشترك فيه الروح والجسد معاً ، بتقديرهما مرتبطتين ، فإن للإنسان قانوناً يخصه ، وهو كثيراً ما يخالف القانون الآخر . أسمى الأول : القانون الجماعي ، والثاني ، قانون الروح فقط . فالقانون الجماعي يشمل عموم الكائنات ، فهو إذن يشمل الإنسان أيضاً . أما قانون الروح ، القانون المنطقي ، الذي يقوم على التفكير ، فيخص الإنسان فقط . » وبموجب هذا القانون الأخير ، يخضع الرجل لعقله الذاتي ، وبالتالي يخضع للفضائل ، كما لو كانت قضاة عينهم ذلك القانون لكي يحكموا على أفعالنا ويسهروا على حواسنا ...

سيطردهم مجهود العقول وانتشار هذه الأفكار إلى أيامنا . ولكن نهاية القرن

(١) حديث الأموات ، سقراط والسيبياد (١٧١٨) *Dialogue des Morts, Socrate et Alcibiade*, 1718.

السابع عشر تسجل مرحلة حاسمة ، إذ تلاقت فيها نظرية القانون الطبيعي ، ونظرية قانون الشعوب ، والوقائع . لقد أتم لوك — وإن كان أقل قسوة وتعمقاً بكثير من جروسسيوس وبوفندورف ، ومع أنه كان يعوزه المنطق أحياناً — تحويل « القانون » من ديني إلى مدني . الحرية ، والمساواة : كان يمكن أن يتخذ كتابه هاتين الكلمتين شعاراً . « لحالة الطبيعة قانون طبيعي ينظمها ، وعلى كل فرد أن يخضع له وأن يطيعه . فالعقل ، الذي هو هذا القانون ، يعلم كل الناس — إن تفضلوا باستشارته — أنهم سادسوا جميعاً سواسية ومستقلين ، فلا يبقى لأحد أن يؤذي الآخر ، في حياته ، أو صحته ، أو حريته أو ماله ... » (١)

(١) عن الحكومة المدنية ... ترجمة دافيد مازيل ، أمستردام ١٦٩١ ، الفصل الأول ، *Du Gouvernement civil...*, traduit par David Mazel, Amsterdam



تيليك في رحمة إلى الميحيي شاهد مدير الملوك السنين

(من كتاب مغامرات تيليك ، باريس ١٧٨٣)

الفصل الرابع الأخلاق الاجتماعية

إذا كان هناك رجل ، قد أكد بصورة أوضح وأقوى من كل أسلافه ، استقلال الأخلاق عن الدين ، فهو بلا شك يبهر بايل . لقد رجع إلى هذا الموضوع مرات ومرات ، في أبواب قاموسه ، وفي إجاباته على أسئلة قروى . ولكنه كتب في أفكاره عن المذنب ، مستنداً ، مبدئياً كل قوائمه ، وواضحاً متعمساً ، دستور الانفصال .

لقد بدأ في هوادة ؛ ليس الكفار أسوأ من الوثنيين ، سواء من حيث العقل أو من حيث القلب . ثم تطرق ، بعد أن مهد الطريق ، موعزاً بأن الكفار ليسوا أسوء من المسيحيين . إذا قلنا لرجل يأتي من عالم آخر إن هناك أناساً ذوي حكمة وعقل سليم ، يخافون الله ، ويعتقدون أن السماء ستنبيهم على حسناتهم وأن الجحيم ستعاقبهم على سيئاتهم : لتوقع ذلك الرجل أن يرى أولئك الناس يأتون بالحسنات ، ويحترمون الغير ، ويتسامحون حيال الإهانة والشر ، ويسعون لاكتساب سعادة أبدية . وأسفاه . . . ! فان الأمور لا تجري على هذا المنوال في الواقع . يجب أن نعترف بأمر واقع يوضحه لنا مشهد الحياة في نور ساطع وهو أن : الفرق كبير بين ما نعتقد به وما نفعله ، وأن المبادئ ليس لها تأثير على الأفعال ؛ وأننا نبدو أتقياء في كلامنا ، كفرة في سيرتنا ؛ ونزعم أننا نعبد الله بينما نحن لا نطيع إلا المنفعة ولا نتبع إلا الشهوة ؛ « إنى أرى الخير وأصدق به ، ولكنى أرتكب الشر (١) » : هذا مثل قديم . النظر

(١) قاله الشاعر أوفيد Ovide باللاتينية على لسان الأميرة ميديه : Video meliora ، proboque, deteriora sequor . وهالك تعليق بايل : « إن الشاعر الذي جعل «ميديه» تقول : « أرى الخير وأصدق به ، ولكنى أفعال الشر - قد بين في وضوح ودقة الفرق بين ضوء الضمير والرأى الخاص الذي يدفعنا إلى العمل ... »
[أفكار عن المذنب ، الفصل الثاني] . [الترجمان]

كيف يعيش المسيحيون . يقرأون كتب العبادة : ولكنها تنسى فوراً ما تقرأ . إن جنود الجيوش الكاثوليكية جداً فاسقون ونهابون ، ينهبون البلاد بلا تمييز بين الأعداء والأصدقاء ، ويحرقون عند اللزوم — ودون تبصر — الكنائس والمعابد والأديرة . أما الحروب الصليبية ، فيها لها من مشروع يستحق الإعجاب من الوجهة النظرية ! ولكن ما أكثر ما حدث في إبانها وما تبعها من استغلال وخيانة وإجرام ! إن النساء متدينات بوجه خاص : ومع ذلك فكم نرى من يتقابلن سنهن مع عشاقهن بمجرد مغادرتهن غرفة الاعتراف ! هنالك عاهرات ، ولصوص ، ومجرمون يعبدون العذراء عبادة خاصة ؛ وتسرى روايات — يزعم الناس أنها دينية — تقول إن العذراء تحبى الفتيات والأشرار ، لأنهم يحرقون شمعة أو يسجدون أمام تمثالها . إن أشياخ جالسنينوس يعارضون كثرة تناول القرين ، لأنهم يعرفون جيداً أنه يمكننا الاقتراب كل يوم من مائدة القرين المقدس ، ونبقى مع ذلك أشراراً . والخلاصة ، إن إيمان المرء لا يؤثر على سيرته وعلى أخلاقه . بل إن التدين يشجع أحياناً بعض الشهوات السيئة ، مثل الغضب على الذين يعتقدون بعقيدة أخرى ، أو التمسك بالمراسم الظاهرية ، والنفاق .

حينئذ يعرض بايل للقارى التجربة معكوسة : كما أنه لا يوجد شئ عاды أكثر من المسيحيين الأورثوذكس الذين يسلكون سلوكاً سيئاً ، كذلك نجد عدداً كبيراً من المتحررين الذين سلكوا سلوكاً صالحاً على أتم وجه . وفضلاً عن القدماء ، مثل دياجوراس ، ثيودور ، نيكانور ، أقيمير ، هيبون ، ويلين ، الذى كان دائماً جديراً بصفته كرومانى عظيم ؛ وأبيقور الذى عاش حياة بمؤذجية ، — فلننظر إلى المحدثين : كان يشتبه فى أن « دى لوبيتال » ، رئيس الديوان ، عديم الدين ، مع أنه لم يوجد أوفر من شخصيته وأنبل من حياته ؛ وأولئك الذين عاشروا سبينوزا يذكرون أنه كان أنيساً ، وحليماً ، وشريناً ، ومستقيماً فى أخلاقه ؛ ومع ذلك كان سبينوزا كافراً .

جمهورية من الكفار — لماذا لا نستطيع أن نتصورها ؟ إن مجتمعاً بلا دين يكون أشبه بمجتمع وثنى ؛ ولا يفترق المسيحيون ، فى حياتهم العملية ، عن الوثنيين لعل الكفار يدركون الشرف والخزى ، والثواب والعقاب ، بقدر ما يدركها المسيحيون : إن فكرة فناء الروح لا تحول دون تمنى المرء أن

الأخلاق الاجتماعية

٢٩١

يكسب اسمه الخلود . وإذا كان لزاماً أن يكون لمذهب شهداء ، لكي يستحق الاحترام ، فإن مذهب الكفر لا يعوزه الشهداء : « فانيي » الذي مات في سبيله ؛ وأحدث من ذلك ، المدعو « مجد أفندي » الذي أعدم في « الأستانة » لأنه أنكر علناً وجود الله . « كان يستطيع أن ينقذ حياته لو اعترف بخطئه ووعد ألا يكرره في المستقبل ؛ ولكنه آثر الإصرار على تجديفه ، قائلاً إنه ، وإن كان لا ينتظر أى جزاء ، إلا أن محبته للحقيقة تجبره على أن يموت شهيداً في سبيلها ، دعماً لها . »

وبعد ما يتم بايل التجربة والتجربة العكسية على هذه الصورة ، يصل إلى نهاية إثباته : إن الدين والأخلاق ليسا ملتحمين ، بل مستقلين ؛ نستطيع أن نكون متدينين دون أن نكون أخلاقيين ؛ ونستطيع أن نكون أخلاقيين دون أن نكون متدينين . فالكافر الذي يعيش حياة فاضلة ليس مخلوقاً خارقاً للطبيعة : « لأن يعيش كافر حياة فاضلة ، ليس أغرب من أن يرتكب مسيحي كل أنواع الجريمة . » فالكفار الذين يعيشون في تركيا ، والكفار الذين يعيشون في الصين ، أظهر أخلاقاً من المسيحيين الذين يعيشون في روما أو في باريس . . .

ألا نستطيع أن نقول إن أخلاقاً مستقلة أفضل من أخلاق دينية ؟ مادامت الأولى لا تنتظر ثواباً أو عقاباً ولا تعتمد إلا على نفسها ؛ بينما الأخرى ، لخوفها من الجحيم وأملها في السماء ، لا بد من أن تكون متغرضة ؟ — « تولاند » ، يغالى كعادته ، قائلاً : « إن أفظع كفر لأقل شؤماً على الدولة والمجتمع البشري من تلك الخرافة الوحشية والبربرية ، التي تملأ الدول المزدهرة بالنزاع والانقسام ، وتفسد أكبر الممالك وكثيراً ما تقلبها ؛ والتي تفصل الأولاد عن آبائهم ، والأصدقاء عن أصدقائهم ، وتحطم وحدة الأشياء التي يجب أن تكون متحدة بأقوى الصلات . . . (١) »

ولكن بعدما هدمنا أخلاق النظام الإلهي ، كيف نستطيع أن نعيد إنشاء الأخلاق في النظام البشري ؟ هنا كان يبتدىء الارتباك .

الأخلاق الاجتماعية

٢٩٣

غرستها فطرة وحشية في الناس البدائيين (١) « لم نحرّم هذه الأخلاق الملهمة ، ولا الشهوة ، بشرط أن تكون معتدلة ، مسيطراً عليها . . . ما في ذلك من شك . ولكنها لم تستطع مع ذلك أن تدعى أن لها قوة ملزمة ، أو قيمة شاملة . كان يجب أن يدعى المرء سانت أفريموند ، أو وليم تمبل ، أو لورد هاليفاكس ، لكي يدركها ويأشهرها . أخلاق أرسطو قراطيين ، أخلاق قوم مترفين ، قوم سئموا الدنيا ؛ إنها مركب هش رقيق ، اتفاق ، ليست سيطرة ، بل تكييفاً .

**

قل من كان يستطيع أن يتقبل تلك الأخلاق الميتافيزيقية السامية الجديدة ، التي عرضها سينوزا ، كما رأينا ، — تباين هائل ، بقابلته تعارض دائم في الأخلاق البشرية ، فيا للتهوش ! ما أصعب إيجاد مبدأ مشترك ، قاعدة ينبغي أن تفرض على كل الناس ، في كل زمان وفي كل مكان ! هنا ، نرى الناس بعرضون أولادهم للوحوش ، أو يتركونهم يموتون جوعاً : كيف نتكلم بعد ذلك ، عن الصفة الشاملة للواجب الأبوي ! وهناك ، نرى الأولاد لا يترددون في قتل آبائهم عندما تدركهم الشيغوخة . « في إحدى بلاد آسيا ، لا يكاد الناس يقطعون الأمل في صحة مريض ، حتى يضعوه في حفرة تحت الأرض ، حيث يتركونه معرضاً للريح ، وأخطار الجو ، دون سقطة وبلا معونة ، حتى يموت . وإنها لعادة لدى بعض سكان « جورجيا » الذين يدينون بالمسيحية ، Mingréliens ، أن يدفنوا أبناءهم أحياء ، دون تأنيب ضمير . وفي جهات أخرى ، يأكل الآباء أبناءهم . اعتاد أهل « كاريبيا » أن يخلصوا أولادهم بقصد تسميتهم وأكلهم . يذكر « جارسيلازو دي لافيجا » أن بعض سكان « بيرو » اعتادوا أن يحتفظوا بالسبايا ، لاستخدامهن كسراي ، ويتولفن على تغذية أولادهم منهن حتى يبلغوا الثالثة عشرة ، ثم يأكلونهم ، ويأكلون أمهاتهم بالمثل بمجرد بلوغهن سن اليأس . « إن ما نراه في الدنيا يثبت لنا ، في الواقع ، أن الأخلاق تختلف اختلافاً جوهرياً . ينبغي أن نسلم بذلك : « إن من يعنى

(١) سانت أفريموند . بقلم جوستاف لالسون ، تبدل الأفكار الأخلاقية (مجلة الشهر ،

هل يجب أن نرجع إلى الوراء ، ونلتجئ* إلى القدماء ، ونتخذ الوثنيين أدلاء ؟ ومن بين الوثنيين ؟ أبيقور ؟ أبيقور ؟ أولئك الفلاسفة متناقضون. هل كان يجب اختيار فيلسوف حاول أن يقدم إلى العالم أفضل ما في الأخلاق القديمة ، دون أن يؤلف مذهباً مبتكراً ؟ هل كان يجب أن نستشير الخطيب الروماني ، مؤلف كتاب « الواجبات » ، أي شيشرون ، عن قاعدة حياة مدنية لا دينية ؟ لقد كان العالم « إيرازم » Erasmus معجباً بعظمة حياته وطهارة قلبه ؛ والواقع أنه « لم يخلف لنا العسالم الوثني أحداً آخر يوضح تمام التوضيح هذه المبادئ الكريمة ويوصي بها بمثل تلك القوة — هذه المبادئ التي تستمد منها الطبيعة البشرية مجدها وكماها : حب الفضيلة وحب الحرية ، وحب الوطن ، وحب الجنس البشري بأسره (١) ».

ولكن كان من السهل على علماء الأخلاق المسيحيين أن يردوا على ذلك . فقد قضت المسيحية على هذه النظريات التي يريد الناس ابتعاثها ، منذ ألف وسبعائة عام . بروتوس ، وكاتون ، وأمثالهم ، يا لهم من نماذج تعسة ! إنهم أولعوا بتلك الكلمات الضخمة ، وبذلك الحركات الكبيرة ، بتلك المواقف المسرحية ؛ فأنهت حياتهم بالافلاس . وأنقذت الروح المسيحية الانسانية من هذا الافلاس .

حينئذ ظهرت أخلاق حديثة ، أخلاق الناس الشرفاء ؛ أخلاق سيكولوجية . لم تأنف هذه الأخلاق أن تقتبس من المصادر القديمة ، مفضلة إياها من كل الوجوه على المسيحية ؛ ولكنها كانت تستعين على الأخص بالعقل . عقل قد تمدن وتهذب ، عقل لم يعد خشناً وجامداً كما كان فيما سبق ، ولم يحتفظ بشيء من صلابته القديمة . « يجب أن ننسى وقتاً كان يكفي فيه أن يكون المرء جاداً رزيناً لكي يبدو فاضلاً ، مادام الأدب ، والرفقة ، والتفنن في الشهوات ، قد أصبحت جزءاً من الفضيلة الحالية . فمن جهة كراهية الأفعال الخبيثة ، يجب أن تبقى ما بقيت الدنيا ؛ لكن فلنقبل أن يدعوا المترفهون « متعة » ما دعاه الغلاظ الجفافة « رذيلة » ، ولا نكسّون فضيلتنا من المشاعر القديمة التي

(١) لقد أخذنا هذه التعبيرات من كتاب « تاريخ شيشرون » بقلم ميدلتون C. Middleton لندن ١٧٤١ ترجمة أحمد بريفو في عام ١٧٤٣ .

بمطالعة تاريخ الجنس البشري ، ولخص مسيرة شعوب الأرض بغير تغرض ،
ليستطيع أن يقتنع بأنه يتعذر إيجاد أى مبدأ أخلاقى ، أو تصور أى قاعدة
للفضيلة — باستثناء الواجبات التى يقتضيها بالضرورة حفظ المجتمع البشرى ،
(والى كثير ما تفرقها الشعوب فى صلات بعضها ببعض) — من
غير أن تستخف بها ، وتناقضها ، تقاليد شعوب بأكملها فى بعض أرجاء
الدنيا . . . (١) »

باستثناء الواجبات التى يقتضيها بالضرورة حفظ المجتمع البشرى . . . هنا
ظهر احتمال أخلاق جديدة ؛ أخلاق لا شئ قطريا فيها ، حتى ولا فكرة الخير ،
حتى ولا فكرة الشر ؛ بل أخلاق شرعية ولازمة ، مادامت مكلفة بالإنشاء
على وجودنا الجماعى . حيث إننا خلقنا حياة اجتماعية ، فمن المعقول أن نخاف
من الفوضى التى قد تهلك جنسنا ؛ ولذلك ، نتخذ الخطة التى نتخذها من اضطراب
مشثوم ؛ فنجمع النصائح التى توعد بها إلينا غريزة حفظ النوع ، فى قانون .
لأن هناك « أنانية » شرعية ، تبقى على حياة الجماعة ؛ إن الأنانية لا تصبح
مرذولة إلا إذا هددت كيان الجماعة ، وبالتالي هددت الفرد نفسه ، بحسبانه
جزءاً لا ينفصل من الكل . إن الخير الأخلاقى ليس شيئاً تقديرياً ، مثل
الشهرة ، والمال ، والمتعة ، بل إنه ضرورة حيوية : إن معناه حفظ الانسانية .
يقول أشياخ ذلك المذهب إن له فضلاً يستحق الإعجاب ، فضلاً ليس
له مثيل : فإن هذه الأخلاق يمكن إثباتها . لأنها لا تستند على فرض أولى
مسلم به ، بل على حقائق واقعية يمكن تحليلها تمام التحليل . لننظر فى أنفسنا :
نحن نسمى « خيراً » ما يمكن أن يولد ، أو يزيد ، أو يحفظ إحساسنا المتعة ؛
ويعكس ذلك نسمى « شراً » ما يمكن أن يولد أو يزيد أو يديم إحساسنا
الأم . لذلك ، فإن منفعتنا الحقة ، أو بمعنى أصبح كياننا بالذات ، يدفعنا إلى
طاعة القوانين المدنية ، مادمنا ، بمراعاتها ، نحفظ ما لنا ، وحریتنا ، وبذا نعمل
على دوام وضمان متعتنا الذاتية . أما إذا لم نراعها ، فإننا نعرض أنفسنا للعقاب ،
ثم الاضطراب ، ثم الفوضى التى لا حياة فيها بلا أم ، أو لا حياة فيها على
الاطلاق . والأمور لا يختلف فيما يخص الأمور التقديرية : فالفضيلة تكسبنا تقدير

(١) بيان مأخوذ من « مقال عن الأدراك الانسانى » الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

وحجة الأشخاص الذين نعيش بينهم ، وبالتالي تزيد من متعتنا ؛ أما الرذيلة ، فتسبب التأنيب ، والتفد ، والعداء ، وبالتالي تسبب الألم (١).

* * *

ولكن ، هل الخير الاجتماعى هو الفضيلة الصرفة ؟ هل ننجح جماعة تنفذ واجبها بتمام الدقة فى أن تزدهر أو حتى فى أن تعيش ؟ ذلك ما لم يشك فيه لوك ؛ ولكن ذلك أيضاً هو ما شكك فيه ذهن خبيث ، متحرر ، أزعجه علماء الأخلاق الذين يزعمون أنه ليس فى قلب الانسان إلا الكرم ، والعطف ، والايثار . كان هذا الرجل هولنديا متجلتزا ، يدعى « برنارد دى مانديفيل » وكان من طائفة الفلاسفة المحدثين ، بمعنى أنه كان يعلن تفكيره بكل حرية ، دون أن يحسب حساباً لقادة الفكر ، أو العادة ، أيا كانت قيمتها . تدفعه جسارته إلى حب الآراء الغريبة التى تثير ضجة . والحق أنه أثار ضجة ، لما بدأ يحكى قصته . كان قد حاول ، قبل ذلك ، أن يقلد قصص « إيزوب » و « لافونتين » ؛ ولكن قصته هذه لم نوضع للأطفال .

لقد ظهر فى ٢ أبريل عام ١٧٠٥ كتيب فى ستة وعشرين صفحة ، دون اسم المؤلف : « الخلية الطنانة ، أو المصوص الذين انقلبوا شرفاء . » ذات مرة ، كان هناك خلية تشبه مجتمعاً بشرياً حسن التنظيم . لا ينقصها المصوص ، ولا التعيشون على الاحتيال والاختلاس ، ولا الأطباء الفاسدون ، ولا القساوسة الفاسدون ولا الجنود الفاسدون ، ولا الوزراء الفاسدون ، وكان لها ملكة فاسدة . وكانت تحدث كل يوم خدع وسرقات فى هذه الخلية ؛ والسلطة القضائية التى كان عليها أن توقف هذا الفساد ، كانت هى نفسها فاسدة . الخلاصة ، كانت كل وظيفة ، وكل طبقة سليمة بالردائل ؛ ولكن ذلك لم يحل دون ازدهار الشعب وقوته . والواقع ، أن ردائل الأفراد كانت تشارك فى الرفاهية العامة ؛ وفى مقابل ذلك ، كانت الرفاهية العامة تولد سعادة الأفراد . ولما أدرك كبار الأشقياء ذلك ، أخذوا يشاركون بكل جهودهم فى سبيل الخير العام .

(١) لوك : « مقال عن الادراك الانسانى » الكتاب الثانى ، الفصل ٢٨ .

الفصل الخامس

السعادة على الأرض

السعادة ؛ أتركها وديعة بين يدي العالم الآخر ؟ هناك ستكون الظلال خفيفة ، واهية ؛ بل لن تكون ظلال ، ولكن بعض الجوهر الأبدى ، الذي يستحيل أن نتصور صورته . لن يكون هناك إكليل غار ، ولا قيثارة ، ولا موسيقا سماوية . السعادة ؛ فلنقتنصها على الأرض . أسرعوا ، نحن في عجلة ؛ لضمان في الغد ، ولا عبء إلا بالحاضر ؛ غافل من يقاسر على المستقبل ؛ فلنضمن أولاً رفاهية بشرية صرفة .

هكذا فكر علماء الأخلاق المحدثون ، الذين أخذوا يبحثون عن السعادة في الحاضر .

لكن لتحقيق حياة سعيدة ، يمكن أولاً (كوسيلة أولى) أن نفكر في هدوء ودعة ، كما يليق بالفطنة الخالصة ، وأن نلطف من حدة الخيال الذي يبالغ في تصوير الشرور . لأنه إذا تعلق الأمر باختراع الشرور ، فمقدورتنا لا تتعدا حدود ؛ نحن نضخمها ، ونظنها غريبة ليس لها دواء ؛ بل إننا نحس بعض الميل إلى الألم ، ونعزّه . ولهذا الخيال الخادع عيب آخر : فإنه يهدف إلى متع مستحيلة ؛ إنه يغرر بنا بالكثارة من السراب : فنسرع للحاق به ؛ ولما كنا نستخدم في كل مرة ، فإننا لم نعد نقدر سأمنا . فلنتعلم كيف ننظر إلى الحياة على ضوء الواقع ، ولا نطلب منها أكثر من طاقتها . - إننا نشكو دائماً من حالة لا ترضى ؛ ولكن ، لو فرضنا أننا اطلعنا ، قبل ولادتنا ، على كل الحوادث ، وكل المصائب التي يمكن أن تكون من نصيبنا ؛ أفلا تملكنا الدهشة ؟ وإذا قدرنا الأخطار التي نجونا منها أفلا نكون في أوج السعادة بأننا ضمنت سلامتنا بهذا الثمن الزهيد ؟

لكن حدث تغير في عقول النحل ، إذ واثاه تفكير غريب في ألا يقبل بعد ذلك إلا الشرف والفضيلة ، فطالب باصلاح كامل . وكان أعلاه صوتا أكثره يطالة ولصوحية . حيثئذ أقسم « جوييتير » أنه سينقذ هذه الخلية الزائطة من الرذيلة التي كانت تشكومنها ؛ قال ذلك : وفي الحال ، استولى حب الخير المحض على القلوب .

وسرعان ما سبب ذلك دمار كل الخلية . لم يعد بعد لا إقراط ، ولا أمراض : وبالتالي لم تعد حاجة إلى الأطباء . لم يعد بعد نزاع ، ولا دعاوى : فلم تعد حاجة إلى المحامين ولا إلى القضاة . ولما أصبح النحل مدبراً وقنوعاً لم يعد ينفق شيئاً : وبالتالي لم يبق ترف ولا فن ولا تجارة . وبذا عم الحزن والخراب . وجد النحل المجاور أن الوقت مناسب للهجوم ؛ فبدأت المعركة . ودافعت الخلية عن نفسها وانتصرت على الغزاة ، ولكنها دفعت ثمناً غالياً لهذا الانتصار . لقد مات في هذه المعركة آلاف من النحل الشجاع . وطار باقي النحل — في عزة ووقار — إلى جوف شجرة ، خوفاً من أن يقع في الرذيلة مرة أخرى . لم يبق للنحل إلا الفضيلة والبؤس .

« أبطلوا شكواكم ، أيها الحمقى ! إنكم تحاولون عبثاً أن تربطوا بين عظمة الشعب والفضيلة . لا يتوهم إلا الجبانين أنهم يمكنهم أن يتمتعوا بغيرات الأرض ، وأن يكتسبوا الشهرة في القتال ، وأن يعيشوا في يسر ورخاء ، وأن يكونوا في نفس الوقت فضلاء . أتركوا هذه الأحلام الزائفة ! ينبغي أن يدوم الخداع ، والترف ، والبطلان ، إذا أردنا أن نتمتع بثمارها الشهية ... »

ما أكثر المناقضات التي أعقبت هذا الكلام ! ما أكثر ما أثاره من نقاش ! كان « برنارد دي مائدفيل » أزرق الناب ، ولم يسمح بأن يفوت شيئاً أياً كان . إنه عاش طويلاً ، ولكن قصته هذه عاشت أطول مما عاش ، وما زلنا نناقشها إلى الآن .

« العبيد ، وأولئك الذين لا يجدون الكفاف ، وأولئك الذين لا يعيشون إلا من عرق الجبين ، وأولئك الذين تنهكهم الأمراض ، هالك قسماً كبيراً من الجنس البشرى . ما كان أقربنا من أن نكون من هؤلاء ! فلنعترف إذن بمدى الخطر في كوننا بشراً ، ولنحتسب ما لم يصبنا من البلاء ، عددًا من الأخطار نجونا منها (١) . »

وبما وصلنا إليه من نظرة سليمة ، فلنسح إلى إدارة رزقنا إدارة حكيمة : لعله قليل ، ولكنه حقيقى . فلنحس بتجنب التمهوات ، التى ليس وراء عنفها إلا الحزن والارتباك ؛ فلننشد الهدوء . وإذا ردد الناس أنه لا طعم له ولا لذة ، فلنمز أكتافنا : « أى فكرة لدينا عن حالة البشرية ، لو شكونا من الهدوء ؟ » فلنعرف كيف نبتعد عن المراكز التى تطمح إليها الأنظار ، الشهرة ، والطمع ، وكل الأخطار التى تهدد الرحلة الهادئة لزورقنا المسكين ، الذى يجب أن نقوده برفق نحو هدوء الميناء . فلنكن متفقيين مع أنفسنا : إن ضميراً واثقاً بنفسه لنعم الملجأ لنا . ولنحرص على رزقنا القليل ، حرص البخيل ، مخافة أن نضيع منه أى نزر يسير . إن ضربة من ضربات الحظ يمكن دائماً أن تحرمنا منه ، بالرغم من تحوطنا الدقيق . أما إذا احتطنا وسهرنا عليه ، فإن حفظنا فى الاحتفاظ به ليزيد : لأننا ، بقدر ما نكون عقلاء ، نكون بناءة لحياتنا .

متع بسيطة ، نصيب متواضع من سعادة لا نستطيع الوصول إليها ؛ حديث ممتع ، أو رحلة صيد ، أو مطالعة كتاب : فى ذلك ما يكفى لشغل أيامنا . فلنتذوق هذه المتع المضمونة بدلا من الاعتماد على غير المضمون . « إننا نملك الحاضر بين يدينا ، ولكن المستقبل دجال مشعوذ يخطف الحاضر منا ، — ساحراً عيونا . » فلنمتع بالخيرات البسيطة ، كأنها وهبت لنا من قوة تستطيع أن تحرمنا غداً من هباتها بنزوة من نزواتها . فلنحذر تقويت سوانح الفرص ، ولنحذر الخطأ فى خصائص المتع . « المسألة مسألة حساب ، والحكمة تقتضى أن نوفر دائماً فى حجارة اللعب . . . »

إن ذلك الموقف للمقامر الماهر ، الذى لا يكف عن الاهتمام باللعب ، والذى يضارب أو يتخلى عن المضاربة بدراية ، لا يخلو من بعض الجمال . لنعترف

(١) فونتيل ، عن السعادة . ولقد تبعنا أفكار فونتيل من قريب ، فى كل هذه الفقرة .

مع ذلك أنه ليس في طوق الجميع ، بل يقتضى ذكاء بصيراً وتبات جأش خارقاً للعادة ؛ وينظر إلى الشهوات كأنها يكنى أن نستعمل عقلنا للتغلب عليها ، وإلى الخيال كأنه عبد ذليل ؛ ويفترض يسر الحال ، واستقلالاً ، ووقت فراغ : سعادة أنانية . . .

يعرض البعض لنا ضرباً آخر . الشئ الذى يجب أن نستأصله من روحنا ، لئى تحس تمام الراحة ، هو الشعور بمأساة الحياة . إن هذا الشعور يبعث في نفوسنا الألم طوال حياتنا ، وحينما يحين حيننا ، يشور ويحتاج : حينئذ تلوح مأساة أخرى ، مأساة الآخرة . ما أسعدهم ، أولئك الذين رحلوا إلى الشاطئ الآخر بثغر باسم (١) . لم يعرفوا ذلك الاضطرام الحالك عدو طمأنينة النفس ، الذى لا يكفيه إزعاج من يملكهم ، بل يخلق فيهم حمية متعصبة لاذقة غيرهم العذاب . حساسة ، تجل ، خوف معذب على الدوام ، تخيلات مرعبة عن الجحيم والعذاب ، كيف نستبعد كل ذلك ؟

بطريقة بسيطة ؛ بفضل استعداد فكرى يسمى الخلق المرح : good humour, good nature يكنى أن نجده . ضع على أنفك منظاراً ناجعاً ، ذا لون وردى جميل : يضحك لك كل شئ . يوم تصبح الانسانية مستعدة للابتسام ، يوم تزول تلك الجفوة الفكرية التى تزيد حدة الشرور . لا تستخفوا بفضل « الخلق المرح » ، فانه فضيلة فعالة تؤثر كعلاج دائم . يقول سيكتاتور — الذى شرع ، كما هو معلوم ، فى إصلاح معاصريه رويداً رويداً ، موزعاً عليهم قليلاً من الأخلاق فى كل صفحة من صحيفته — إن الخلق المرح ثوب يجب أن ترتديه كل يوم : كم يكون العالم أفضل !

لقد وجد هذا الشعور المتفشى ، الذى لم يكن مجهولاً فى فرنسا ، ولكنه كان أقوى فى إنجلترا ، بماله من تأثير ناجع ضد الميل العام إلى السوداء Spleen — الذى لاحظته المراقبون — وفقد التعصب البوريتانى — وجد مفسراً مهذباً فى شخص أنطونى أشلى كوبر ، كونت دى شفتسبرى Shaftesbury .

(١) ديبلاند Deslandes تأملات عن العظائم الذين مالوا بثغر باسم ، ١٧١٢ .

السعادة على الأرض

إنما نحبذ أسوأ نقائصنا : الحزن ، الكسل في التفكير ، التعلق بالغريم ، الغرور ، الزهو الباطل ، وأكثر من ذلك فضول التطفل على حياة الغير واضطهاد الضعفاء ؛ وعادة الحقد والقسوة . . . فلنستعمل ضد الحماة سلاح العقل السليم ، وحرية الفكر ، بل حتى — وهذا أقل ما كنا نتوقعه — السخرية في الوقت المناسب .
لنتعلم الضحك : ليس هناك مبدأ أصوب منه في الطب النفسي . هل من الصواب أن نستسلم للغضب ، وتقابل حدة المحتدين بالحدة ؟ كلا ! بل الأفضل أن نضحك . فلنزل تعاطف المتعاطفين ، ولنسخر من الحزوين ؛ أما المتحمسون ، فلنهزأ بهم .

هاهم أولاء بعض الساكنين من اللاجئين إلى لندن ، البروتستانت الفرنسيون القادمون من السيفين ؛ إنهم يفيضون بحماسة مقلدة ، ويتنبأون ، ويقعون في الهذيان ؛ حتى أصبحوا خطراً وقبضت عليهم السلطات . هل ينبغي أن نسجنهم ؟ أن نحكم عليهم بالاعدام ؟ أن نجعل منهم شهداء ؟ — لقد مثلهم الناس تمثيلاً تهريجياً في المساخرة ، وهذا فيه الكفاية : فانهم يفقدون ، بعد هذه السخرية ، كل أهميتهم . لنترك المرض الذي انتابهم يأخذ مجراه ، ولنضحك ، ولنبتسم : وسيفقد قوته ، وسيشفى من تلقاء نفسه . آه . . . ! لو أننا تصرفنا هذا التصرف في كل المجادلات الدينية ، منذ بداية الأزمان ، كم من أكوام من الخطب كنا أطفأنا وكم من أرواح كنا أنقذنا !

يجب أن نعامل الدين بلا تكلف : فإن الروح يقود إلى الإيمان الصحيح ، والسامة تقود إلى الكفر . فإذا كان الله رحيمًا ، وهو لاشك رحيم ، فلنفكر في شأنه في حالة نفسانية هادئة ، بدلا من الخوف والغم . أي زيف يجعلنا لا نبتهل إلى السماء إلا ونحن في بؤس ، أو فلق أو مرارة ؟

« الخلاصة ، يا عزيزي اللورد ، أن الطريقة السوداوية التي نباشر بها أسوأ الدين هي التي تجعله ، في اعتقادي ، مفاجئاً إلى هذا الحد ، وتدفعه إلى خلق كل هذه المآسى المؤلمة في الدنيا . إن رأيي هو الآتي : طالما نحن نعامل الدين بالحسنى ، فلا خشية من أن نستعمل حياله مراحاً زائداً عن الحد ، ولا أن تنمادى في حرية قصه ، أو أن نرفع الكلفة بيننا وبينه . لأنه إذا كان حقيقياً ، فلن يحتمل الفحص لحسب ، بل سيفيد منه ؛ وإذا كان مختلفاً مزيفاً ، فسيتكشف ويفتضح . »

كان طبيعياً ، بل ضرورياً ، أن يجابه شفتسبري الرجل الذي كان أكثر ما يكون إحساساً بفاجعة الحياة : باسكال . إنه يعرف نظرية الرهان (١) ، ويرفضها . يقول : إن الرهان على الدين ، بحيث إذا كان الله موجوداً نكسب كل شيء ، وإذا لم يكن موجوداً لا نخسر شيئاً ، يعنى تقليد المتسولين الماكريين الذين تقابلهم في الطريق . إنهم يقولون لكل مار : يا مولاي . فإذا كان المار لورد ، فسيغضب لو لم يخاطب بلقبه ، وإن لم يكن لورد ، فسيفرح لتعميده بهذا اللقب ؛ وهو في الحالتين ، سيوجود بالحسنة على هذا المتسول . . . أفليس إهانة لله أن يستند إيماننا على مثل هذا الحساب ؟

إن الله ذاته ليس مربعا . إنه ليس جائراً ، كما يريد أشياح « القدرية » .

(١) نظرية الرهان : ذات يوم طلب عالم رياضي من باسكال أن يقنعه بالبراهين الهندسية بوجود الله . ولما عارض باسكال بأن الله يخرج عن متناول العقل لأنه أبدي لا متناه ، رد العالم بأنه من المستحيل حقاً أن تعرف ماهية الله ولكن ليس من المستحيل أن تعرف وجوده . وضرب مثلاً لذلك ، العدد اللامتناهي الذي لا شك في وجوده وإن كنا لا ندرك ماهيته . فأجاب باسكال بأن ذلك يرجع إلى أن بيننا وبين اللامتناهي صلة بالنسبة للامتداد ، وتفاوتا بالنسبة للحدود . أما الله فليس له امتداد ولا حدود ، ولذلك لا يمكننا إدراك وجوده إلا استناداً على الإيمان والأنبياء والكتب المقدسة . ولكنه لم يشأ أن يعترف بالعجز ، فاضطر إلى أن يضع نفسه في مكان سائله وأن يقنعه باستدلال بسيط ، فضرب مثل الرهان وقال : « إن عدم المراهنة على وجود الله مراهنة على أنه غير موجود . فإلى أي جانب تنهاز ؟ فلنزن المكسب والخسارة بالانحياز إلى الجانب المراهن على وجود الله : إذا كسبت تكسب الكل ، وإذا خسرت لا تخسر شيئاً . راهن إذن على أنه موجود دون تردد . . . » (أفكار باسكال ، بقلم ستروفسكي ، الفصل السادس ، الرهان) . Les Pensées de Pascal, par Strowski, de l'Institut. [الترجمان]

وقد انتقد فولتير أفكار باسكال ومن بينها هذه فقال : « تبدو هذه الفكرة باطلة غير لائقة فان فكرة اللعب هذه ، والمكسب والخسارة ، لا تلحق بجديّة الموضوع . غير أن صاحبي في الاعتقاد بشيء لا يثبت وجود هذا الشيء . تقول إنك ستعطى لي مملكة الدنيا إن كنت أصدق بأنك على صواب . أريد إذن بكل قلبي أن تكون على صواب ؛ ولكن ، إلى أن تثبت ذلك ، لا أستطيع أن أصدق كلامك . إذا كنت تريد أن تقنعني فاستعمل طرقاً أخرى ، ولا تتكلم عن اللعب ، والرهان ، والوجه والظهور . لا تزعجني بالأشواك التي تذرّها على الطريق الذي أريد أن أتبعه ، بل يجب أن أتبعه . إن استدلالك هذا لا يصلح إلا لدفع الناس إلى الكفر ، لولا أن الطبيعة كلها تنطق بوجود الله ، بقوة وصراحة بقدر ما يبدو في برهانك من ضعف وإيهام . » (فولتير : رسائل فلسفية الرسالة ٢٥ ، عن أفكار باسكال) . [الترجمان]

إن الله ليس حانقاً علينا ، كما يريد أولئك الذين يخافون من العذاب الأبدي . لا يجبر الله الناس على أن يكونوا متغرضين ومناقضين ، كما يريد أولئك الذين يتمسكون بأهداب الفضيلة ابتغاء أجر في الآخرة . إن الله هو الطيبة ، والاحسان ، المنتشر في العالم ؛ فمن كان طيباً ، محسناً ، فهو به على اتصال . « إن محبة الغير ، والسعي في سبيل الخير الشامل ، والعمل لصالح الجميع ، بقدر ما في وسعنا من إمكان ، هو بلا شك الوصول إلى الطيبة المثلى ، إنه تحقيق ذلك الخلق الذي نسميه إلهياً . . . »

مجادلات ، ومنازعات ، ومناقشات ، وضوضاء ، ذلك ما شهدناه عشرين مرة ، في ذلك العصر الذي لم يكن قد اعتراه الليل ، الذي كان يكره عدم الاكتراث ، الذي كان يخاف الشك ، والذي كان يبحث . إن شفتسبري ، وإن كان مقتنعاً بذلك مثل معاصريه ، إلا أنه يسمنا لهجة أقل حدة ؛ فإن تحضره ، ووداعته ، ورقته الأرسطوقراطية ، وغناه بالمحبة واللفظ ، ومذهبه الذي يعتقد أنه عقلي بينما هو ليس إلا فضفضة عاطفية لقلب كريم ، تريحنا وتؤثر فينا . والأمر الذي لا يصدق ، هو أن هذا العالم الأخلاقي لا يستطيع أن يكره الناس ، ولا أن يشتد في حكمه عليهم ؛ ولا يعد الزمن الذي يعيش فيه سيئاً ؛ حقاً ، إنه زمن زاخر بالشذوذ وبالجنون ، ولكنه شذوذ نشهريه ، وجنون نسمه بالفضيحة ؛ زمن يحبه نقد حر ، هو بداية السلام . وإذا وجدنا علاج شافتسبري بسيطاً جداً ، ووصفته عن السعادة غير كافية ، وفلسفته جد سألوفة أو بيتية ، كما يقول في رسالته : *this plain homespun philosophy* of looking into ourselves, this plain honest morals بتلك السهولة : بل يريد أن يجعلنا نتذوق ، دون أن نترك الأرض ، اللذات السماوية بفضل سحر الجبال .

Beauty and Good are one and the same الجبال والخير شيء واحد ، مادام الكون انسجاماً ، فلا يمكن أن نتصور فيه شذوذاً ؛ ومادام وعينا الأخلاقي بالخير والشر يرمي إلى تحقيق هذا الانسجام ، فيجب أن نريد هذا الانسجام بتمامه . إن الرذيلة خطأ «أستطيتي» ؛ وارتكاب هذه الخطيئة بالاختيار يعد أولاً تعدياً على المنطق ، ثم تعدياً على الأخلاق ، ثم تعدياً على الذوق السليم . فكما يمثل الفن روائع عالم المحسوسات ، — التي هي انعكاس «الفكرة»

المنظمة للأشياء — فكذا يجب أن يحاول الإنسان أن يمثل في ذاته ، الجبال الأخلاق ، أو المثل الأعلى للجبال الأخلاق ، الذي ليس إلا العكاس آخر لنفس الفكرة . إن الرء قنان ينحمت تمنال نفسه ؛ يولد من نفسه أفكاراً صحيحة ، وأفعالا فاضلة ، وصوراً جميلة ؛ وهذه المجموعة ، التي تحققها إرادته المبدعة ، هي ما نسميها السعادة . إن الكافر يحرم نفسه من هذه المشاركة في النظام ؛ إنه مخطئ^١ ، إنه شرير ، إنه ينشر القبح في العالم ، إنه تعس .

هكذا يفكر الرجل الذي أسمينامحق « فنان الانسانية الموهوب » . وهو ، لكي يقتنع بأن الأخلاق اجتماعية في جوهرها ، يصغى إلى لوك ، الذي كان سرياً له . ولكي يتكلم عن السعادة ، يصغى إلى سبينوزا : الذي يرفض فكرة الخطيئة ، ثم ينصح الحكيم أن يتذوق متع الحياة ، ورقة العطور ، وجمال النبات ، والموسيقا ، واللهو ، والتثليل : فلن يستمرى دموع الجلوس البشرى إلا إله يعاديه . ليس سبينوزا مغموراً بهجة خفية عميقة فقط : فان البهجة ، عنده ، هي الشعور بتحقيق صفة سامية للكائن ؛ والحزن ، هو الشعور بالخط من شأن الكائن ؛ ولكنه فوق ذلك ، يقدر ثمناً عالياً ، أو قل قيمة فلسفية ، للمرح . وشفقتسبرى يتبعه ؛ ولكنه ، يفضل الخير دائماً ، ولذا نراه يتبع أفلاطون أيضاً . فاذا كان الوقت الذي يعيش فيه يذكرنا ، من كل نواحيه ، بزمّن النهضة ، فكيف يمكن أن يغيب فيه ذكر أفلاطون ؟ إن أساتذة كامبردج يتبعون مذهبه بشئ من التقديس ؛ يشرح « كادورت » الدنيا بخواص « بلامتيكية » تقبل التشكيل ، وسيطة بين الأفكار والخلقة . ويجب شفقتسبرى أن يتأمل الظلال الكبيرة ، في لعبتها الالهية على جدار مغارتنا (١) . يتخيل

(١) رمز المغارة *Allégorie de la Caverne* - شرح أفلاطون نظريته عن الأفكار في رمزيته المشهورة عن المغارة حيث يمثل الناس يقوم مكبلين بالأغلال ؛ تحت الأرض مغارة ينيرها ضوء خاب ضعيف ينفذ من كوة في أعلى المغارة . وفي المغارة أناس مكبلون بالأغلال من أعينهم وأقدامهم ، بحيث إنهم لا يستطيعون حراكاً ولا يرون إلا الصخرة التي أمامهم . من وراءهم يمر بعض الرجال يحملون تماثيل من الحجر . وفي جوف المغارة نار موقدة تلقي بظلال التماثيل على الجدار . من البديهي أن أولئك الناس القسودين بالأغلال لا يرون إلا ظلال هذه التماثيل على الجدار الذي يقع أمامهم . فيعتقدون أن الحقيقة هي هذه الظلال - يقول أفلاطون إنه ينبغي تسبيه هالنا الموق بالاقامة في السجن ، وضوء النار التي تنيره بتأثير الشمس . فالأشياء التي برت هي الأشياء التي تخص العالم =

السعادة على الأرض ٣٠٠

أنه يكفي أن نعفى إلى انسجام الأفلاك ، لكي نكف عن الشكوى والصراخ .
وفي نهاية عمله ، يبدو له أن السعادة لم تعد تظهر في المذهب الرواقى ،
الذى يحتل بل يحتقر الشرور التى لا يستطيع أن يتفادها . لا نشترى السعادة
بالزهد ، أو بالكبت الدائم لطبيعتنا الفاسدة . لم تعد الأرض مقراً للاستحسان ،
حيث المصائب التى تنقل كاهلنا أرفع قيمة من المتع ، لأن أولئك الذين يكون
سيجدون عزاء (١) . يريد العالم أن يحول أنظاره عن المسيح المفجع ، الذى
صلب لا تقاذا البشر ؛ لم يعد يريد أن يسمع نداء ذراعيه الأبيم . إن السعادة
إبراز قوة كامنة في أنفسنا يكفي أن نحسن توجيهها . فارتضاء العذاب ، وشهوة
التضحية ، والكفاح ضد الغريزة ، وجنون الصليب ، كل هذه ليست إلا أخطاء
في التقدير وعادات سيئة . إن إله العقل يحرم علينا أن نتصور وجودنا الفانى
كاستعداد للخلود

شاركت في تأسيس السعادة على الأرض فضيلة ؛ فضيلة جديدة .
لم تكن تبدو فضيلة في ذلك الوقت ؛ بل كانت ضعفاً ، بل تكاد تكون
جبناً . التسامح حيال كل الآراء ، التسامح حيال رأى أخى ، ولو كان مخطئاً ،
ولو انتهى الأمر به إلى فقدان روحه ؛ التسامح حيال رأى أدعياء النبوة
والكاذبين — هذا يعنى أننا شركاء علنا في الباطل والضلال . بينما الواجب
على النقيض ، هو أن نفتح عيون الذين بعمهون ، وأن نهدي الضالين إلى
الطريق المستقيم . لا ريب في أنه لا ينبغي أن نشدد على الضمائر ؛ ولكن هل
يجوز لنا أن نتركها وشأنها ، بينما نعرف أن اليقين واحد ، وأن السلام الأبدى

= الذى لا وجود له إلا في الفكر ، والشمس التى تنبرها هي فكرة « الخير » علة العلم
وعلة الوجود . أنظر : مجموعة مصنفات أفلاطون ، طبع جازنييه ، الجزء الرابع (جمهورية)
الكتاب السابع ، ص ٢٤٧ ، وعلى الأخص مقدمة الجزء الرابع Robert Baccou ص ٤٢ ،
ومقدمة شامبرى Chambry في الجزء الأول . [المترجمان]

(١) بوسويه : رثاء ماري تيريز النمساوية Oraison funèbre de Marie-Thérèse d'Autriche
« المسيحى ليس حياً على الأرض أبداً ، لأنه يتعذب فيها دائماً ، والعذاب عميق ، امتحان ،
بداية الموت »

يتوقف على معرفة اليقين ؟ إن الواجب يمنعنا من التسامح ، وبالمثل الشفقة . إذن ، لا يمكن أن يكون المتسامحون إلا سوسنيانيين ، تنكرين ، أناساً يحسون الصفات التي تميز الكنيسة الحقيقية ، أناساً يتقبلون كل المارقين في وحدة الايمان ؛ ارتيائيين ، يعلنون أن لا فرق هناك ولا مفاضلة بين الأديان ؛ عصاة ، عقولا قوية . كان من المستحيل أن يكون رجل مثل بوسويه متسامحاً ؛ ولا رجل مثل بيليسون ، حتى حينما كان يفاوض لينتز في رجوع البروتستانت إلى الكنيسة الرومانية . لقد كتب إلى لينتز في عام ١٦٩٢ — « أعتقد أن من نسميهم سوسنيانيين ، ومعهم من نسميهم أشباع الديزم وأتباع سينوزا ، قد شاركوا كثيراً في انتشار ذلك المذهب ، الذي يمكن أن نعبه أكبر الأخطاء ، لأنه يتفق معها كلها . ولما كانوا يخشون ألا يهتمهم الناس ، وأن تتدخل السلطات المدنية في شئونهم ، فقد وجدوا صالحيهم في أن يقولوا باحتمال كل شيء . من هنا تولد «مذهب التسامح» ، كما يسمونه ؛ وتولدت كلمة أخرى أحدث من الأولى ، هي عدم التسامح الذي يهتمون به الكنيسة الرومانية . . . »

ولكنه كان يتكلم بلا جدوى ؛ وكان هناك تغيير ينتاب الأمور ، وكان يستشعره جيداً ؛ وجعل التسامح — بعد عناء شديد وجهد كبير طال سنين وسنين — يتخذ لونا جديداً ، فيصبح فضيلة .

كان رهان معركتين ، إحداهما سياسية ، والأخرى دينية . نعم ، إن ملك فرنسا الحق في استعمال القوة لارغام العنيدين على الرجوع عن غيهم ؛ ولحكام هولاندا الحق في أن يعزلوا من الوظائف وأن يزوجوا في السجن من يأبون الاعتراف بأي سلطان في موضوع التفكير ، وبذا يعكرون السلام ويهددون كيان الدولة ؛ وملك انجلترا الحق في أن يحرم من حماية القانون ، أولئك الكاثوليك البشعين الذين يعلنون دائماً سيادة روما على السلطات المدنية . — كلا . لا يستطيع الناس ولا يجوز أن يزججوا الضمائر في نشاطها ، لأن كل هذا الموضوع من اختصاص الله وحده . إن روحاً مسيحية حقة ، لتعلم وتشعر أن الاضطهاد يخالف روح الانجيل مخالفة الظلام للنور . بحيث إن ملكاً مسيحياً يجب أن يكون متسامحاً حيال كل رعاياه ، طالما يحترمون حكمه السياسي . هكذا كان وليم أورانج ، كما قال المؤرخون البروتستانت . — « قال إنه كان

بروتستانتيا ، وبصفته هذه ، لم يستطع أن يتعهد إلا بالاحتفاظ بدين الإصلاح ، وإنه على كل حال ، لم يعرف على وجه الدقة ماذا يعنى الكفر ، ولا إلى أى حد قد يمتد معنى هذه الكلمة ؛ أما عن نفسه ، فإنه لن يحتمل أبداً أن يضطهد أحداً من أجل دينه ، وإنه لن يعمل على تغيير إيمان أحد أيا كان ، إلا بالاقناع ، حسب الانجيل (١) . « ولقد وضع فى عام ١٦٩٠ « عقد التسامح » مقابل « فسخ أمر نانت » .

وكانت المعركة الدينية أشد . أعطى إشارتها الأولى ، عام ١٦٧٠ ، الراعى « هويسو » ، حين عرض على المذاهب أن تلقى السلاح ، لانتخاب عقيدة من السعة بحيث تشمل العالم بأسره . الأمر الذى دفع جوريو إلى الاحتداد ؛ يقول لنا إنه ألف كتابه « لخص فى كتاب الوحدة أو بحث عن التسامح فى موضوع الدين » بقصد مناقضة هويسو : « إن كرهى لهذا التسامح المهين نحو الاتحاد هو عندى داء قديم قد اشتد على مر الزمن . » واستمر الكفاح فى أرض الملجأ ؛ وأخذ الطرفان يتقارعان بالحجج دون أن تتلاقى ؛ وتتابعتم الأبحاث تلو الأبحاث . وبين أكثر رعاة البروتستانت عرفانا ، مثل « هنرى باناج دى بوفال » ، و « جيديون هويه » ، وألى سورين Elie Saurin ، أن عدم التسامح ، لا التسامح ، خطيئة ضد الفكر ؛ وإذا كانوا حقاً ، قد حرموا الكاثوليك من عطفهم ورعايتهم ، كما فعل بهم « وليم الثالث » باستبعادهم من « عقد التسامح » ، — فقد حالفوا على الأقل علماء وحكام هولنديين ، مثل « جلبرت كوبر » ، وأدريان باتس Paets ونودت Noodt ، المخلصين لتقاليد بلادهم الحرة : وكانوا جميعاً يسعون فى سبيل إقامة فضيلة من الصعب إقامتها . وكانت أحياناً تظهر عواصف تفسد كل شئ : لقد نسب بايل فى اشتداد تلك الحجالات العنيفة ، بنشر « إعلانه للاجئين » — الذى نسب إليه بحق أو بغير حق — والذى كان يحمل على عدم التسامح البروتستانتي حملته على عدم التسامح الكاثوليكي . ولكن لم تكد العاصفة تهدأ ، حتى تغيرت نظرة الناس نحو التسامح ، فبدأ لهم مزدانا بغصن الزيتون .

(١) دافيد دوراند David Durand : تاريخ إنجلترا منذ تأسيس الرومانيين ... لراين تويراس Thoyras ١٧٢٤ - ١٧٣٦ . الجزء الحادى عشر ، ص ٤٨ ؛ شعوره عن التسامح .

كان لوك أكثر الجميع إنسانية . ليس في تلك الكتلة من المؤلفات نداء أبلغ ولا أكرم من مؤلفه « رسالة عن التسامح » *Epistola de Tolerantia* الذي نشره في عام ١٦٨٩ والذي دافع عنه حتى مماته . كان لوك يقول بأعلى صوته : تذكروا أن التسامح هو جوهر المسيحية . لأنه إذا أعوزتنا الشفقة ، والرفق ، والعطف ، فكيف نجرؤ على الزعم بأننا مسيحيون ؟ إن الإيمان يؤثر بفضل الشفقة ، لا بفضل الحديد والنار . وهل ينبغي أن يحرق الأخ أخاه ، من أجل بعض الاختلاف في الآراء ، التي لن نعرف صحتها من بطلانها قبل يوم القيامة ؟ فليحارب الثائرون الغيرون — إذا راموا أن يعملوا — الرذائل والجرائم التي يرتكبها كل يوم إخوانهم في الدين : فساد أنكد بلا شك من رفض المراء ، لعدم ارتياح ضميره ، بعض قرارات الكنيسة ! فالروحانيات شيء ، والزمنيات شيء آخر ؛ والمجتمع الديني شيء ، والمجتمع المدني شيء آخر : ليس للحاكم سلطان على الأرواح ، فليحذر أن يعتب أبواب المعابد . إن التسامح مطابق لانجيل المسيح ، وموافق للدراك السليم لكل الناس ، حتى إنه يمكننا أن نعد من يرفضون أن يدركوا لزومه وفائدته كوحوش . أي أهمية في استعمال اللاتينية أو عدم استعمالها في الكنائس ؟ أي أهمية في السجود أو في الوقوف ؟ في ارتداء كساء طويل أو قصير ؟ يا من تؤمنون بالمذهب الكاثوليكي ، وأنتم أيضاً ، يا أهل جنيف ، وأنتم يا ناكري التعميد ، ويا أيها الأرمنيون ، والسوسنيانيون ، اعلموا أنكم لن تستحوذوا على روح بالقوة ؛ فليس لكم الحق ولا القدرة . تسامحوا فيما بينكم ، وتوادوا ، متحدين تجمعكم إرادة واحدة لفعل الخير .

الفصل السادس

العلم والتقدم

متنزه واسع منعزل فيه شخصان : مركيزة لعوب ورجل مجتمع ، صديق لها أو لعله عشيق ، يستغرقان عند السدال الليل في حديث . عن أى موضوع ؟ عن علم الفلك : « حدثني عن نجومك . . . (١) » . إنهما مثائقان متكلفان مهذبان : هكذا يصورهما فونتنل ، لا لأن هذه طبيعته لحسب ، بل لأنه يريد إظهارهما محبين . يريد صراحة ألا يضير كتابه أحداً ، وأن يعجب الجميع ، وعلى الأخص أولئك الذين لا يعرفون شيئاً ، وأن يسحر — قبل كل شيء — بظرفه وخفته الفاتنة . حتى ليكاد أن يفقد كتابه صفته العظيمة . ومع ذلك تنبثق في وضوح النور ، رغم التكلف في الأسلوب ، تلك العظمة السامية . يبدو رجل المجتمع والمركيزة ، وقد طواهما جناح الليل ، يعيدان ذكرى رعاة كلدانيا القدامى ، يستخبران الأفلاك ، ويتعجبان للنجوم بعد أن تعجبا للشمس — مثل سكان الأرض الأولين . رفيقان من أبناء الرغام ، يجترئان يعيونهما الحظيرة ، يسهران غور السماء .

إن المركيزة لا تعرف شيئاً : ولكن فونتنل يعرف ، وميعلما في خلال بضعة لبال ، سير الكواكب الذي يبدو في الظاهر على هذا الغموض . كفى أخطاء ! لقد أخطأ العالم في حركات الأجرام السماوية منذ زمن بعيد ! لقد تخيل الناس من زمن طويل أن الشمس تدور حول الأرض : إنه خطأ أولى ، جر وراءه كثيراً من الأخطاء . ولكن في النهاية زال الضلال . « لقد أتى ألماني يدعى كوبرنيكوس ، هدم كل تلك الدوائر المختلفة ، وكل تلك السموات الصلبة ، التي تخيلتها الأزمان القديمة . لقد دمر بعضها وفتت البعض الآخر .

(١) فونتنل : في إهتسام العقل ، Le Sourire de la Raison . [الترجمان]

تملكته حاسة عالم فلكي نبيلة ، فتناول الأرض ونحاها عن مركز العالم حيث وضعت من قبل ، وفي ذلك المركز وضع الشمس ، التي كانت أحق بهذا الشرف . . . » لقد اتخذ القدماء مرة أخرى ، وأخطأ الناس لأنهم تبعوهم . ولكن بزغ عهد جديد . لقد فضح العقل والفحص هذه الأخطاء الأزلية . إن العلم يتكلم ، فيجب أن لصدق به ، لقد تغيرت الأرض والسماء .

لعل المركيزة تنتابها الدهشة لهذا الاكتشاف . لقد كانت تعتقد أن هذا الكون إنما خلق لها ، مثلاً كان يظن ذلك الأثيني المجنون أنه يملك كل السفن التي تدخل ميناء بيريه ، فيا للوهم الذي تبدد ! إن الأرض بما فيها من أشغال ، وحروب ، واضطراب ، لم تعد تبدو لها إلا كيرقة من دود القز ، يرقة صغيرة ، ضعيفة ، وحقية ! ولعلها قد ترتعد فرعاً ، أمام تلك الهوة اللامتناهية التي تكشفت لها .

ولكنها على العكس ، تشعر بهجة الموقنين ، يخالجها شعور من الكبرياء : إنها تسلم بهذا العلم الجدد . وهي تدخل في زمرة المؤمنين ، لم تعد من قطع الوثنيين الذين لم يعرفوا الحقيقة أبداً ، ولا الكفار الذين يتغذون بالضلال : وهي بذلك فخورة . فلنتخيل ، باحدى تشبيهات فونتنل المألوفة ، التي تحيل الأفكار المجردة إلى صور ظريفة — مثل (زورق ينزل على نهر ، سفينة تنساب في المحيط ، كرة تدور على الطريق) — فلنتخيل تمثيلاً في الأوبرا : فاييتون يترك الأرض (١) ، الريح ترفعه فيخلق في السماء . لنفترض أن فيثاغورس ، وأرسطو ، وأفلاطون ، وكل أولئك الحكماء الذين يتردد ذكرهم على الأسماح ، يشهدون هذا التمثيل . سيقول أحدهم : « إن فاييتون مركب من بعض أعداد ترفعه إلى أعلى . » وسيقول الثاني : « إن فاييتون يرتفع ببعض خاصية سرية . » بينما يقول الثالث : « إن لفيتون شيئاً من الشغف بأعلى المسرح ، فهو لا يرتاح ما لم يكن هناك . » تخيل مئة حلم من هذا القبيل ، قدمتها الأزمان القديمة شرحاً لتلك الظروف : أفلم يكن هذا يستدر الرثاء ؟ من حسن الطالع أن أتى ديكارت وبعض المحدثين وقالوا : « إنما يرتفع فاييتون

(١) فاييتون : في المثلولوجيا اليونانية ابن الشمس . ولقد ألف الكاتب كينو Quinault وبرا تدور حول أسطورة المشهورة (١٦٦٣) .

لأنه مشدود بالحبال ، ولأن ثقلاً ، أثقل منه ، ينزل . « لم يدر بخلد أحد أن ينظر إلى ما وراء الستار : يوم اكتشفت الآلة ، ويوم بدأنا نستعمل العقل ، عرفنا السر . يا للمتعة ، متعة الاكتشاف ! ويا للبهجة ، بهجة الحقيقة !

للمعرفة العلمية جهاها الخاص ، لأن تصور عالم مكتمل الترتيب ، تبدو أكثر الوقائع ارتباطاً كما فيه نتيجة لأبسط الوسائل ، أو إن أمكن القول أقلها كلفة ، لنشئ يفتن العقل . فليقل إعجاب الآخرين بهذا العالم الآلى : أما الركيزة ، فعندما تعلم أنه يشبه الساعة ، تزداد حبا له . أى شئ أبقى بالاعجاب من هذا الانتظام ، هذا التوفير في انتخاب الوسائل ، هذه البساطة ؟ إن كشف قوانين الطبيعة بشعرها بلذة ذهنية ، رقيقة ، نادرة : « ليست متعة كالتى تشعر بها فى إحدى كوميديات موليير ، بل متعة لست أدرى فى أى مكان من العقل ، لا تدغدغ إلا الذهن . »

العلم ؛ لقد رأينا العلم فى كل مكان ، ونحن نقرب الآن من أولئك الذين يعدون علماء فى أوج العلم ، من أولئك الذين يملكون السبورة بأرقام تدير الرعوس ، أولئك الذين يتطلعون بالمرصدة ، أولئك الذين يشرحون أجساد الحيوان والناس ، إننا ندخل فى مملكتهم الخاصة . إن فونتنل يدعون إليها . وفونتنل فى الفلسفة يصطف بين « القلقين » ، وفى العلم بين « محبي الاستطلاع » وهذا نفس الشئ . فليقترب اللادينيون دون وجل من شجرة المعرفة ! ولسوف تؤثر الحقيقة على كل العقول كالهام سماوى . إن مؤلفه « معادلات عن تعدد العوامل ، ١٦٨٣ » لمقدمة ، عميقة ، خلاصة ، لتفسير جديد للكون .

لم يصبح التفكير الهندسى فقط هو البدع ، بل الهندسة أيضاً . لقد هبطت من أعلى الذرى ، حيث رفعها العصر السابق ، إلى الجمهور المثقف . وفى باريس لقي عالم رياضى — جوزيف سوفير — شهرة عريضة بالقاء محاضرات تهافت عليها النبلاء ، وأصرت النساء على أن يكشف الرجال « تريع الدائرة » قبلما يحاولون اكتساب حظوتهم . وهذا على الأقل ، ما تذكره « صحيفة العلماء » ، ساخرة من هوس ذلك الوقت : « منذ ما عرف علماء الرياضة سر الدخول إلى الأبهاء ، ناقلين إلى مدور النساء ألفاظ علم قوى جاف كالرياضيات ، عن طريق كوميدية

للمادة ، أن الفراغ ليس له وجود ؛ وعلى إثر ذلك أثبت علماء آخر ، بناء على تجاربهم ، أن الفراغ (١) موجود ولا شك في وجوده ؛ لقد وجد أولئك الآخرون الحقيقة الصحيحة ، بتوفرهم على دراسة الواقع الملموس . الواقع . الخضوع للواقع . كان هذا هو الواجب .

هيا بنا ، فلا زالت أمامنا مهمة لتسرع فيها : مهمة شاقة . قلابد من من تغيير اتجاه العقل البشري من جديد ، لابد من البحث ، والعمل ، والكدر ، وعلى الأخص النوصل إلى نتائج إيجابية ؛ فلنحفظ بعون الرياضيات التي تمثل يقينا ، لكن مع الوصول إلى نمط جديد من المعرفة ، التي لا تجرد الكائن ، بل تقبل تركيبه لكي تسيطر عليه . وكان هذا مجهوداً جاعياً من قبل أوروبا التي تسير في طريق النبدل . انظر إلى الايطاليين المجتمعين في مجمع سيمنتو بفلورنسة . كل ظاهرة طبيعية موضوع بحث علماء ذلك المجمع ؛ لماذا يوجد دود في الفواكه ؟ ما هذه الافرازات التي تظهر على الغصون والأوراق ؟ لماذا تضيئ السمكة في الماء ، ولا تضيئ إذا خرجت إلى الهواء ؟ إنهم يبحثون . وليس لديهم معمل ولا عدة ، ولا يكادون يخلعون ثيابهم الرسمية وشعرهم المستعار حتى ينكبوا على العمل . إنهم يبحثون . إنهم يصنعون الأدوات ، ويكثرون من التجارب ، ويقولون : حقا ، إن المثل الأعلى للمعرفة هو الهندسة ، ولكن هذه الهندسة تتركنا لتحلق في الفضاء اللامتناهي : حينئذ نتجه نحو

(١) الفراغ Le Vide : كان الاعتقاد السائد من قديم أن الطبيعة لا تقبل الفراغ . وكان أشهر علماء الطبيعة ينكرون أن الفضاء يمكن أن يكون فارغاً على الإطلاق أي محتوياً على عدم . وكانت هذه المسألة موضع اهتمام العلماء وعلى الأخص جاليليو وتلامذته وطوشيلي وغيرهم . وبدأ باسكال يهتم بها ويجري التجارب منذ صيف ١٦٤٦ حيث أخبره صديق أن رجلاً اسمه جان باريه يحاول انتشال الذهب الغارق مع السفينة « سنغال » بواسطة جهاز يستعمله غواص . ونجح باسكال في تجاربه لاثبات وجود الفراغ ، إذ وجد أن أي نوع من السائل إذا وضع في امبوية اختبار مقلوبة ، فإنه يتوقف عند ارتفاع معين ، متناسياً دائماً مع كدافة السائل . وبين السائل وطرف الأمبوية مسافة فارغة في الظاهر ، أثبت باسكال أنها فارغة في الحقيقة . ويرجع سبب هذا التوقف إلى كثافة الهواء . وقام بتجربة كبيرة أمام العلماء والفلاسفة ليهبت لهم ذلك ، تفصيلها في كتاب « باسكال » بقلم ستيفان فالوت الفصل ١٢ ، وكتاب « أفكار باسكال » بقلم ستروفسكي ، الفصل الأول ص ١٤ Stephen Valot, *Blaise Pascal*, (B. Grasset), Paris 1945. — F. Strowski, *Les Pensées de Pascal*, (Mellottée) Paris. [الترجمان]

« ميركوري الأنيق (١) » *Mercur galant* ، يقول الناس إن مملكة الأناقة تتخلف ، وإننا لم نعد نتكلم فيها إلا عن مسائل ، ونتائج ، وقضايا هندسية ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة ، وأشكال شبيهة بالمعين ، وغير ذلك ؛ وإنه كان في باريس منذ عهد قريب غادتان ، هونت تلك المعارف من ذهنيهما ، حتى إن إحدهما لم تشأ قبول عرض زواج ، إلا إذا تعلم طالب يدها صنع المناظير التي تردد ذكرها في الكوميديا المذكورة ، ورفضت الثانية رجلاً غاية في السكال والشرف ، بحجة أنه حين تقدم يطلب يدها ، لم يقدم شيئاً جديداً عن تربيع الدائرة . « (٤ مارس ١٦٨٦) . مادامت المادة ليست سوى الامتداد ، فليس علم الطبيعة إلا علم الرياضيات . لقد شكر الناس فضل علماء الهندسة لآفاتهم لم تمكن زمام المادة ، ولاستعاضتهم عن السفسطة والغو — كالقول بأن الأفيون منوم لأن فيه خواص منومة — بضمان الحساب . فبفضلهم وجدوا مفتاح مغالتي الظواهر السكونية .

ولكن الحق أن هذا الشعور لم يكن وحده المتسلط على العقول : هناك ضرورة أخرى كانت تعذبها ، ضرورة تزداد إلحاحاً كل يوم . كانت الرياضيات وجهاً من أوجه المعرفة : ولكن هل كانت حقاً الوجه الوحيد ؟ هل تجريد كل شيء هو معرفة كل شيء ؟ لعل الهندسة قد تجاوزت حدودها ، في انتصارها ؛ والدليل على ذلك أن ديكارت ، العالم الهندسي الفائق ، قد تاه في علم الطبيعة . المشاهدة ، والتجربة : ذلك ما كانت تنصح به الفلسفة الجديدة ؛ فهل كان يجوز أن يستخف بها العلم ؟ كان الناس يسمعون صوت جاليليو ، وأكثر منه صوت بيكون الذي لم يلسوه أبداً . لقد قال بيكون — وكان العالم لا يزال يتذكر قوله — إنه يجب أن نبتدىء بالمشاهدة ، وإن الذهن البشري يدرك الأشياء عن طريق الخواس ؛ وإن صور الخواس — بنقلها إلى الذهن — تصبح موضوعاً لأحكام العقل ؛ وإن العقل بدوره ، يردها صافية مصححة ؛ ولذلك يجب أن نبتدىء الفلسفة الصحيحة من الخواس لكي تشق للدراك طريقاً مستقيماً ، ثابتاً وأكيداً . كان علماء الهندسة قد أكدوا ، بناء على تعريفهم

(١) رواية كوميدية ألفها بورسو Boursault في عام ١٦٨٣ ، وميركوري هو إله التجارة في الميثولوجيا اليونانية . وهو الزئبق أيضاً . [الترجمان]

التجربة التي تقودنا إلى الحقيقة ، بفضل البراهين والبراهين المضادة . ولما
الحل مجمع سيمنتو في عام ١٦٦٧ ، لم يمت التقليد الايطالي ، بل هو سيدوم
طوال القرن التالي بفضل مارسيجلي ، وفالسنيري ، وجوالتييري ، وكلا ريسي ،
وميشيلي ، ورامازيني ، وفورتيس ؛ ولسنا ندعى أننا ذكرناهم كلهم . نشر
جيوفاي ماريا لانسيزي في عام ١٧٠٤ ، في صحيفة « جاليري دي سنيف »
مقالا عن : طريقة التفلسف في الفن الطبي ، يثبت فيه أنه من الأفضل للطب
العقلي ، أن تستعمل الفلسفة التجريبية بدلا من أية فلسفة أخرى .

ولم يبد الفريق الانجليزي ، الذي يتميز فيه بويل ، نشاطا أقل : لقد
استعقت « الجمعية الملكية » إعجاب أوروبا . إن أعضاءها الحكماء المهرة ،
لا يهتمون باظهار ذكائهم وقوة ذاكرتهم في مقالاتهم ، اهتمامهم بتقديم العلوم
والفنون بفضل الوصول إلى نتائج راسخة . بحيث إنهم يفحصون أولا حقيقة
الفروض التي يمكن تحقيقها في ميدان الواقع ، ولا يضيعون وقتهم في الأمور
الأخرى . . . ثم يبحثون عن العلل ، بالتفكير وباجراء التجارب الجديدة ،
التي تسفع بهؤلاء العلماء الكبار إلى أقصى الأبعاد ، حتى إنهم أرسلوا علماء إلى
قمة جبل تريف (في جزر الكنار) لاجراء بعض التجارب ، بعد ما أجروا
عندهم تجارب عديدة واخترعوا آلات خاصة (١) .

وأصبح علماء الطبيعة الهولنديون أساتذة في المنهج الذي بدأ يتشكل ؛
الأطباء ، وعلماء النبات ، وعلماء الطبيعيات ، يتسابقون في العمل : سواردام ،
هيجنز ، بورهاف ، جرافيساند ، وليوفانهوك . وهذا الأخير ، ذو أصابع خفيفة ،
ولظرة ناقبة ، وعقل تغريه الطرافة ؛ وهو يبدأ في استكمال طريقته الفنية أو
« التكتيك » كما نقول اليوم ؛ ولا يرتاح إلا بعد أن يصنع بيده ، وبعد
تجارب عديدة ، مجهرأ أقوى من الذي استعمله أسلافه . ولقد نجح وتوصل
إلى مجهر يكبر الأشياء مائتين وسبعين مرة . إنه يرى عالما في قطرة من الماء ؛
ففيها مخلوقات دقيقة تتحرك ، وتتقاتل ، وتبحث عن غذاء ؛ إن هذه القطرة
مأهولة بالسكان كأنها محيط ، إن الحياة تختلج فيها بكل مظاهرها . وهو

(١) سوربيير Sorbière ، ذكره ج. أسكولي ، « بريطانيا العظمى أمام الرأي الفرلسي » ،

١٩٣٠ ، الجزء الثاني ، ص ٤٢ .

العلم والتقدم

٣١٥

يطبق التجربة على سوائل مختلفة ، من دم ومنى وغير ذلك . . . ومع ذلك فقد أنكر الناس اكتشافاته ، ولم يكن هناك يد كما يحدث دائما ، من مناقشات ومناقضات ومؤلفات ، وهمة واسعة لكي يسلم الرأي العام بالحقيقة التي رآها بعينه .

ثم نجد رجال اسكندنافيا ، أولوس رومر ، توماس باتولان ، نيلز ستسن ، يحددون الطب باكتشافاتهم التشريحية . والألمان ، مثل أوتوفون جوريك ، الذى واصل التجارب على الفراغ . لقد نشر الألمان - بمأهم عليه من نظام وتوفر على العمل الجاعى - صحيفة خاصة ، صحيفة طبية - فيزيقية ، تعرف الناس بأعمال محبى الاستطلاع فى الطبيعة ؛ وقد أثنى عليها بايل ثناء جبا ، قائلا إن أصحابها يخدمون العلوم أجل الخدمات ، بمثابةهم على العمل بلا كلال ، وفى نفس الوقت ، باختراعاتهم وعقريتهم .

ولقد أصيب الفرنسيون أيضا بحب الاستطلاع فى الطبيعة : فأهل باريس يذهبون إلى متنزه الملك للاستماع إلى دروس التشريح التى يلقها دفرناي ، Duverney ؛ ويفاخرون بأن لديهم فى شخص نيقولا لييرى Nicolas Lémery الذى كان صيدليا فيما سبق ، « أول عالم كيميائى معقول » كما قال عنه فولتير ؛ وواحد من أعلام الطبيعة فى هذا الوقت ، وهو ماريوت Mariotte « لقد افتتح فى باريس مكتب جديد للطبيعة ، هكذا أسمى أكاديمية العلوم . قال الأب بنبون الذى يحتفظ بمفتاح هذا المكتب ، إن الطبيعة ستبدو فيه غاية فى البساطة ، وإن هذا المكتب لم يجد من اللائق أن يستعير من أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، مظاهر الأبهة التى يسرفون فيها . وإنه لعل صواب (١) » إن إسبانيا نفسها تشترك فى حركة الفحص : تأسست فى أشبيلية فى عام ١٦٩٧ جمعية للطبيعة والطب التجريبي . وإنك لترى الأفكار تهاجر ، كما يحدث فى الأدب ، وكما يحدث فى الفلسفة ، بل لعلها أسرع هنا . لقد نشر طبيب توسكاني شهير - جرانديشكوريندى - بحثا عن الجراثيم ، يبين فيه أن المادة لا تفسد إذا لم تعرض للذباب ، بينما هو يضع بيضه عليها إذا عرضت

(١) روح المحاضرات فى أوربا ، ١٦٩٩ ، ص ٢٥ ، L'esprit des cours de l'Europe.

له : وتهم أوروبا العالمة بأسرها باكتشافه هذا ، فترى بيير كوست الفرنسي يترجم هذا المؤلف الإيطالي ، ثم تظهر هذه الترجمة في هولندا ، كأن في ذلك علامة على تبادل الأفكار . تعرف أحد سكان البندقية ، باولو ساروتى ، بروبرت بويل في لندن ، فتملكه حماسة العلم ، واسنقدم معه إلى البندقية « شابين انجليزيين خبيرين في تكييف الآلات لأجراء التجارب . » ولما قام الأب تاسارد برحلته الثانية إلى سيام ، طلب منه تيفينو أن يوضح له شيئا يؤكد الناس صحته ، مع شدة غرابته : يقال إن هناك أصدافا على جبل « المائدة » المتسامق فهل هذا ممكن ؟ وسرعان ما يشرع الأب لويلان والأب دويير في تسلق الجبل . ولقد خصصت كبريات الصحف الأوربية حيزاً كبيراً من صفحاتها لمسائل الرياضيات العالية ، وحيزاً أكبر منه للطبيعيات . وكثيراً ما تنبئ رسائل القراء عن ميل متأصل للخوارق : إن دجاجة لم يسبق أن وضعت بيضاً ، قد وضعت بعد ما أخذت بشكل خارق للعادة ، بيضة ثمينة يزيد حجمها عن الحجم الطبيعي ، وعليها رسم لا لذنب واحد كما اعتقد الجمهور ، بل لنجوم عديدة . عثر الناس على فراشة رأسها رأس طفل صغير . تقيأت فتاة بعض العنكبوت والديدان والحلزون ، وأنواعاً أخرى من الحشرات . . . تلك بعض الحوادث الغريبة التي يطرب لها الجمهور . ولكنك تلمس أيضاً ، في نفس الصفحات ، المجهود العلمي ؛ إن علماء من كل نوع ، ينكبون على العمل ، مدفوعين بحب استطلاع واحد ، وقلق واحد : كيف تعمل عصارة النخاء في الأشجار ؟ ما هو تأثير الكينينا China-China على التحديق ؟ كيف تؤثر الحشرات ؟ تشريح العين ، تشريح المعدة ، سمالك جديدة في القالب البشرى . هل وجد قط متوحش هائل ؟ فليكن ، فلنتناوله بالتشريح ، بدلا من أن نصيح بأنه معجزة .

ولما تهيأ الجو ، ظهر — كما يحدث في الفلسفة وفي النقد — أحد أولئك الأبطال الذين تستدعيهم الأزمان الكبرى : نيوتون .

أليس علامة من علامات الزمن ، أن يجد الرجلان اللذان وصفهما فيكو بأنهما « العقريتان الأوليان في هذا العصر ، لينتز ونيوتون » ، في آن

واحد تقريبا ، حساب النهايات الصغرى ؟ إن تطبيق هذا المنهج الجديد يسمح لنا بأن نعد الظواهر الطبيعية لا كأنها غير مستمرة — وهي ليست كذلك في العموم — بل كأنها مستمرة — كما هي في الواقع . ما أهم المكانة التي احتلها في تطور الفكر البشري ذلك العلم الذي كان الناس السذج لا يزال يراودهم الظن في أنه يمكنهم الاستغناء عنه بسهولة ! لقد لاحظ الناس أنه ، كلما ظهر نظام من نظم الرياضيات ، يظهر مذهب يبنى على هذا النظام نظرية شاملة عن الأشياء : فعلى علم الحساب قام مذهب فيثاغورس ، وعلى الهندسة قام مذهب سبينوزا ، وكذلك على علم النهايات الصغرى قامت فلسفة ليبنتز (١) . والواقع أن هذا الأخير أعلن بنفسه أن الرياضيات تقدم للفيلسوف العسوان الأساسي ، وأنه ما كان ليوجد أبداً نظرية الاتساق ، لو لم يضع أولاً قانون الحركة . بينما كان نيوتون يصل ، بوساطة علم النهايات الصغرى ، إلى كشف قوانين الجاذبية .

لقد ظهر منذ عام ١٦٨٧ ، في الواقع ، المؤلف الجبار الذي يتضمن شرحاً لهذه القوانين « مبادئ رياضية للفلسفة الطبيعية . » وما كان أبعد هذه المبادئ عن أن تفهم بمجرد أن تظهر ؛ فانها لن تؤق ثمارها إلا في القرن التالي ؛ إن القرن الثامن عشر سيتغذى ، في الفلسفة وفي النقد وفي كل شيء ، بما كشفته نهاية القرن السابع عشر ؛ فان الناس لا يهضمون هذه المواد الدسمة إلا ببطء . إلا أن هذه « المبادئ » الرياضية للفلسفة الطبيعية لا تعد الرياضيات كل الفيزيكا — كما أراد ديكارت — بل آلة تستعملها الفيزيكا في اكتشافاتها وتجاربها . إن هذا المؤلف الخالد يرد للبحث والتجربة مكانتهما ، وفيهما . الاهتمام بالواقع ؛ الازعان للواقع ؛ التواضع أمام الواقع ؛ وكراهية شبه غرزية لكل نظرية لا تحققها التجربة الواقعية : تلك كانت بعض نواحي عبقرية نيوتون ، وكان اكتشافه الكوني يبدو كأنه تمجيد عظيم لمبادئه ، أو جزاء على إصراره على رأيه . إن الخيال الشعبي ، الذي يتصور نيوتون جالساً تحت شجرة ، متأملاً في سقوط التفاحة ، مسائلًا عن السبب في سقوطها ، لا يخطئ

(١) ليون برونشويك ، مراحل فلسفة الرياضيات ، ١٩١٢ ، Les

étapes de la philosophie mathématique, 1912.

كثيراً حين يرمز إلى فكر يبدأ خطواته من الواقع الملموس . فانه يحقق إلى مدى بعيد ، الرغبة التي كانت تحرك فرق البعث الذين رأيناهم يعملون من قريب في صبر وحمية . تقبل الواقع الملموس ، وتفسيره بالعقل ، وتحقيق نفس هذا التفسير بالواقع الملموس : ذلك هو قانون العلم الصريح الذي كانت هذه الفرق تسعى إلى وضعه .

عندما يخطب فونتنل ، السكرتير الدائم لمجمع العلوم ، مثلياً على إسحق نيوتون ، وعندما يعرض اكتشافاته ، بتفكيره الواضح ، حتى يتوهم غير العارفين أنهم قد أدركوها ، وعندما يشتد أسلوبه ويحتد ، دون أن يفقد شيئاً من وضوحه وجماله ، كأنه تحت تأثير النفثة المبدعة للرجل العظيم الذي سيعمل على تمجيده : عندئذ سنرى مقارنة ، لن تكون زخرفاً من البلاغة ، بل ستجابه ديكارت بنيوتون وجهها لوجه ، وهو ما كان صواباً ، وما كان مروعاً ؛ وبالرغم من تحيز فونتنل لأستاذه ديكارت ، فسيبين ممام التبيان ، الفرق بين الحالتين الفكريتين اللتين تسجلان — كما يقول — حدود العقل البشري :

« إن الرجلين اللذين يقوم بينهما هذا التعارض البين ، كانت تجميعهما صلات كبيرة . كان الاثنان عبقرين من أعلى طراز ، ولدا ليتسلطا على العقول وليشيدا الممالك . ولما كانا عالين ممتازين في الهندسة ، فقد أدركا ضرورة إدخال الهندسة في ميدان الفيزيكا . ولقد أقاما علمهما الفيزيقي على هندسة لا «مصدر لها تقريباً إلا ضوء معارفهما الذاتية . ولكن أحدهما تجاسر فأراد أن يرتفع إلى غاية مصدر الأشياء ، لكي يتمكن من المبادئ الأولية ببعض أفكار واضحة أساسية ، حتى لا يكون عليه بعد ذلك إلا الهبوط إلى الظواهر الطبيعية على أنها نتائج ضرورية . أما الآخر ، فكان أقل جرأة أو أكثر تواضعاً ، فبدأ خطواته مستنداً على الظواهر لكي يرتفع منها إلى المبادئ المجهولة ، معتزماً أن يتقبل تلك المبادئ حسباً تتولد من سلسلة النتائج . لقد بدأ أحدهما بما كان يدركه تمام الإدراك ليصل إلى علته ما كان يراه . بينما بدأ الآخر بما كان يراه ، ليصل إلى علته . . . »

كذلك نرى فونتنل عندما يستطرد فيتحدث عن « علم البصرييات » أو عن « بحث عن الضوء والألوان » اللذين نشرهما نيوتون في عام ١٧٠٤ ، يجيد

تبيان دور فن التجربة ، وقيمتها ، وصعوبتها ، وما فيه من جمال :
« إن فن إجراء التجارب ، إذا سمونا به ، لا يعد شيئاً عادياً أبداً ، إن
أقل واقع يعرض لنا ، ليتضمن كثيراً من الوقائع الأخرى التي تكونه أو
تعديله ، حتى إننا لا نستطيع أن نميز كل ما يدخل فيه دون حذق كبير ،
ولا نستطيع أن نخمن ما يمكن أن يدخل فيه دون بصيرة ثابتة . يجب تجزئة
هذا الواقع إلى وقائع أخرى لكل منها تركيبتها الخاصة . ولو أننا لم نحسن اختيار
طريقنا ، لدخلنا في تيه لا مخرج لنا منه . يبدو أن الوقائع الأولية والأصلية قد
أخفتها الطبيعة عنا ، بنفس العناية التي أخفت بها العلل ، وإذا أمكننا أن
نراها ، يخيل إلينا أنها مشاهد جديد كله ، ما كنا لتوقعه . »

إن في ظهور الفيزيكا التجريبية تأييداً لحالة فكرية غزيرة النتائج ؛ فنيوتون
يسجل بساطع عبقريته ، هذا الانتقال من ميدان العقل إلى ميدان الواقع ،
وهو ما حاول بوفندورف أن ينفذه في القانون ، وريشارسيمون في تفسير الكتاب
المقدس ، ولوك في الفلسفة ، وشفتسبري في الأخلاق . ولقد أبعد — وهو
يمتلى ثقة — كل ما كان يتصوره العالم من مخاوف من تهادي عقل ، بقي زناً
طويلاً يعد قوة هدامة .

لقد حقق الاتحاد بين مقتضيات النقد ووقائع التجربة — وهو ما كان يبدو
من الصعوبة بحيث يعد مستحيلاً . لقد شرع الانسان يغزو العالم من جديد .

ألقى الطبيب بويرهااف Boerhaave في ٨ فبراير ١٧١٥ أمام مجمع
ليدن ، خطاباً بعنوان De comparando certo in physics ، يلخص فيه
النتائج التي وصل إليها العالم في خلال السنين السابقة : لقد فشل كل
ما أجرى من محاولات لمعرفة كنه الأشياء ، فالعلل الأولية والجواهر ليست في
متناولنا ، إننا نكثر من ترديد كلمات من قبل الذرات والجواهر الفردية ، على حين
أنه ينبغي أن نعرف الآن ، أنه ليس هناك إلا فروض متكذِّبها الأيام . لقد بين
نيوتون نفسه ، أنه في كلامه عن قوة الجاذبية ، قد تحاشى أن يقع في ضلال

المدرسين الذين كانوا يشرحون العلل التي تستعصى على إدراكهم ، بصفات مبہمة . إن الأمر يبدو كأن الأجسام يجاذب بعضها بعضا : ولكن لماذا تتجاذب ؟ هذا هو ما يتعاشى شرحه ، إنه يشاهد ظواهر واضحة محسوسة ، ويقارن ويحسب النتائج : ويقف عند هذا الحد . وعلى ذلك ، فلنعد تلك الميادين الميتافيزيقية التي تاه فيها عدد كبير من الفلاسفة ميادين محرمة . فلنقتصر على النتائج التي تحرزها التجربة وتؤيدها ؛ ولنندع الميتافيزيقا ، ولننتجه صوب الفيزيقا ، فهنا فقط سنبتدى في معرفة الصفات الصحيحة للطبيعة ، التي فائنا إدراكها حتى الآن .

كل شيء يلمس ، هالك شكا آخر تغلبنا عليه : الشك الفيزيقي Pyrrhonism physicus كقول بويرهاف نفسه . كان من المحال أن يلتقى خطابه هذا لولا التغيرات التي نحاول أن نتبع مجراها . إن الطبيب الهولندي الكبير يلخص مبادئ حكمة حديثة ، فلسفة عامة كان لوك قد عبر عن جوهرها . لقد كل الناس من البحث عن الحقائق الجوهرية ، واقتنعوا أنهم لن يستطيعوا إدراكها ، فعملوا على وضع بيان بالحال المحدود الذي يمكنهم أن يسودوه . فليفعلوا هذا الميدان ! وليبتنوا فيه مسكنا مريحا ! وليجعلوا عملهم أقل مشقة وأوفر ثمرة ! وليكونوا فيه سعداء ، سعادة تزداد كل يوم ! ومن الذي سيأخذ على عاتقه أن يرشدكم في ذلك العمل ؟ العالم ، الذي عليه أن يدير الحياة ، ولذا فله الشرف العظيم . فيعلن الناس تفوقه على الأمراء والغزاة ، ويمدحونه في الجامع ، إنه يستحق تلك الصفحات البليغة التي كانت تخصص للكتاب فقط فيما سبق . وهو جدير أيضا برؤس الشؤون العامة : لقد رأى الناس أنه إذا كانت السيادة عبارة عن « حساب » رفيع أو ترتيب دقيق ، فلا ريب في أن العالم سيمتاز فيها ؛ عندما كان نيوتون عضوا في البرلمان الانجليزي ، لم يكن مثالا سيئا لعضو البرلمان . إن المؤرخ يفتخر بالتأمل في الحركات التي تثير الشعوب ، والتي تولد الدول أو تقلبها : إنها لمتعة تافهة ، بالنسبة للمتعة التي يختص بها العالم ! — « إن أغرب صفحات التاريخ ، لا تكاد تكون أغرب من الفوسفور ، ومن السوائل الباردة التي تولد اللهب إذا خلطت ، ومن أشجار الفضة ، ومن التأثيرات السحرية للمغناطيس ، ومن عدد لا يحصى من الأسرار التي اكتشفها الفن بالبحث في

الطبيعة ... (١) « أى عجب بعد ذلك ، فى أن يأخذ الشعر فى تمجيد الجهر ، والآلات التى تدور بالهواء المضغوط ، والبارومتر ؛ وفى وصف الدورة الدموية ، أو انكسار الأشعة ؟ ليس فى عمله هذا إلا تمجيد للفكر الحديث .

سيزداد اتساع المعارف على الدوام ؛ اليوم ، كشفت الجاذبية ، وغدا ستظهر عبقریات أخرى تكشف لنا عن أسرار جديدة ؛ بحيث إننا سنكشف رويداً رويداً ، كل أجسام « الآلة الاعجازية » التى جهلناها حتى الآن . إن المعارف ستعطينا القدرة . فالعلم مفيد حتى لو بدا فى الظاهر كأن لا غناء فيه . ليس عبثاً أن نعلم كيفية التفكير الحكم الدقيق ، وتكوين ذهننا طبقاً لصرامة قوانينه . ولكن العلم النظرى يولد الواقع دائماً : Theoriam cum praxi (٢) « إن معرفتنا أن ما تحت الماس فى القطع المكافئ* ، يساوى ضعف الاحداثى الأفقى المقابل ، لمعرفة مجدية فى ذاتها ولكنها ضرورية للوصول إلى فن رمى القنابل بالدقة التى وصلنا إليها فى الوقت الحاضر » — « لما جعل أكبر علماء الهندسة فى القرن السابع عشر يدرسون منحنيًا جديدًا سموه سيكلويد Cycloïde لم يكن فى ذلك إلا بحث نظرى محض . . . ، بينما تعمق بحث طبيعة هذا المنحنى جعل من نصيبه أن يهبط للساعات كل الكمال الممكن وأن يذهب بقياس الزمن إلى أقصى درجات الكمال . » مامن شك فى أن نفوذنا على الطبيعة سيزداد بلا انقطاع ، ومنسیر منتقلين من أعجوبة إلى أعجوبة ؛ سيأتى اليوم الذى يطير فيه المرء إلى عنان الجوزاء . لقد حاول الكثيرون الطيران ، بوساطة جناح يسندهم : « إن هذا الفن سيكتمل ، وذات يوم سترحل حتى القمر ... » والخلاصة ، « هاك ميدانا فسيحا من المعارف لاستعمال الناس ولافادتهم : اختراع آلات جديدة سريعة توفر عملنا أو تسهله ، وترتيب وسائل أو مواد عديدة تضمن لنا منتجات جديدة ومفيدة ، يمكن أن نستعملها ، وبذا نزيد

(١) هذه التعبيرات وما بعدها مأخوذة من الشودة العلم لفونتنل فى مقدمة تاريخ « مجديد الأكاديمية الملكية للعلوم » ، ١٧٠٢ .

(٢) تعبير لبنتز فى خطبة بمناسبة افتتاح أكاديمية برلين : *Denkschrift über die Errichtung der Berliner Academie* (Deutsche Schriften, B. II, p. 268)

أنظر أيضا برنامجنا عن العلم العام : *Opusculs et fragments inédits*, éd. Couturat, (p. 218).

نحسب أن نتلمى بضع لحظات في هذا الوجه الرقيق . كان لدى شفتسبري ، على ما يظهر ، أسباب كثيرة تدعوه إلى التفاؤل : فهو عريق الأصل ، ابن لرجل الدولة ، حامى لوك ؛ وكان لوك نفسه يشرف على تنشئته ؛ ولما كان غير معد للحياة السياسية ، فقد استمرأ رويداً رويداً متع الفكر والفن ؛ ولما كان غنيا فقد استطاع السفر ، واقتناء الجميل من اللوحات والنادر من الكتب ، ومساعدة المحتاجين من رجال الأدب ، من أمثال دي ميزو وبابل ، ولى لكير : كان الحظ قد حياه بكل هباته . لم يغفل منها إلا واحدة : الصحة . ذلك أنه كان مصدوراً ؛ فترك قصره ، وأراضيه ، وأصدقائه ، ووطنه ، باحثاً بلا جدوى في جو مونبلييه ، ثم في نابولي ، عن علاج للمرض الذي قضى به نحيبه ، في الثانية والأربعين . بحيث إنه كان لديه أسباب كثيرة للتفاؤل ، وسبب واحد ، فاصل ، لكى يلعن الحياة .

إنه يجدها جميلة ، ويجدها سعيدة : وبذا تأخذ تأكيدات ، الوادعة ، والباسمة بالرغم من ألمه ، لهجة مؤثرة . سواء في بستان المجليزي عريق الشجر ، أو في ضوء البحر المتوسط الشفاف ، يتكلم شفتسبري مع أقرانه ؛ لا يبدو حديثه أبداً ثقيلاً متكلفاً ، بل لطيفاً بسيطاً ؛ وإذا كان فيه عيب ، فهو تشعبه وأناته . حيناً يذكرنا بأجل أفكار فلاسفة اليونان ، أو شعراء اللاتين ، فتزينه دون جهد ؛ وحيناً يستعين بالحاضر ، فيوقف واقعة معاصرة ، أو شخصية حية : وهكذا ينوع مفاته . لا يستخف بالسخرية ، أو بمعنى أصح بالدعابة : فالمعنى ليس واحداً ؛ إذ السخرية للفرنسيين ، والدعابة للإنجليز . إن لهجته الملتوية تنسلط عليها فكرة ثابتة ، اعتقاد يرمى إلى الاستحواذ على القلوب بافتنائها . كيف نصل إلى السعادة ؟

يجعل الناس أكثر إنسانية — إذا صح التعبير — ويتجريدتهم من تلك الرزانة الباطلة ، ومن نفاقهم ، ومن الحماسة التي تخدعهم في شأن مشاعرهم الحقيقية . إن العدو الذي يهاجمه شفتسبري في « رسالة » بقيت بحق مشهورة (١) هو الحماسة ؛ لا تلك العبقرية المبدعة التي تخلق روائع الخيال ؛ بل الحماسة الديلية ، التي تدفعنا إلى الاعتقاد بأننا بملك شرارة من الألوهية ، بينما نحن في الواقع

(١) رسالة عن الحماسة ، ١٧٠٨ . A letter concerning Enthusiasm .

في عصر سيصبح من يوم إلى يوم أكثر إشراقا ، بحيث لن تبدو العصور السالفة بالنسبة إليه إلا ظلاما . . . (١) « بدأ الناس يصرفون قلقهم واضطرابهم ، ولما كان الانسان قد كل من النظر إلى الوراء متأملا في العصر الذهبي في ثانيا الماضي البعيد ، ولما كان يخالجه التسك في الخلود ، فقد أخذ يضع آماله في مستقبل أقرب ، لعلة يستمتع به بنفسه ، وسبيل إليه أبنائه على كل حال . . .

لقد أصبح العلم من الآن صفا معبوداً . بدأ الناس يمزجون بين العلم والسعادة ، بين التقدم المادي والتقدم الأخلاقي . ويعتقدون أن العلم سيتبوأ مكان الفلاسفة والدين ، وأنه سيكفي كل مطالب الذهن البشري . وحدث رد فعل ، فأخذ الناس يحتجون ، وينعون على العلم ميله إلى تخطي الحدود التي رسمها ، ويتحدثون عن زهوه المتزايد ، ويعلنون إفلاس العلم — فإلى هذا الحد يلزم أن نبادر إلى محاربة هذا الاله الذي يوشك على الظهور (٢) .

(١) بايل ، أخبار عن جمهورية الأدب ، أبريل ١٩٨٤ ، باب ١١ .

(٢) توماس بيكر ، تأملات عن المعرفة ، لندن . ١٧٠ . Thomas Baker, Reflections

upon Learning, by a gentleman

مجموع ثروتنا ، أى الأشياء المفيدة ليسر حياتنا . . . « سوف تصبح الأرض فردوساً ، ولقد أخذ الموت يتقهقر من الآن بفضل هذه « الأخوات العالمات » ، الميكانيكا والهندسة والجبر والتشريح وعلم النبات والكيمياء ؛ اللواتى يفقن عرائس الشعر التى عفا عليها الزمان :

*Savantes sœurs, soyez fidèles
À ce que présagent mes vers :
Par vous, de cent beautés nouvelles
Les arts vont orner l'Univers.
Par les soins que vous allez prendre
Nous allons voir bientôt s'étendre
Nos jours trop prompts à s'écouler ;
Et déjà sur la sombre rive
Atropos en est plus oisive,
Lachesis a plus à filer ... (١)*

أى شعور بالانتصار ، وأى ترقب سعيد فى هذه الكلمة وحدها : التقدم ! إنها تهيب الكبرياء التى تصعب بدونها الحياة ، وذلك الرجاء فى المستقبل الذى لا يتعارض والحاضر بل يكمله ويحمله . إن منهجنا يتقدم . إن علمنا يتقدم . إن قدرتنا على العمل تزداد . حتى مزايا ذهننا تتحسن . « كل العلوم وكل الفنون التى كان تقدمها قد توقفت تماماً منذ قرنين ، قد اكتسبت فى هذا العصر قوى جديدة ، ودخلت فى دور جديد . . . (٢) » — « ها نحن أولاء

(١) هوداردى لاسوت ، قصيدة إلى السيد بنبون (مجمع العلوم) :

أيتها الأخوات العالمات ، لا تكذبين ما تلبين به أشعاري — بفضلكن ستزين الفنون الكون بمئة شئ جميل جديد — وسترى قريباً بفضل عنايتكن ، امتداد أياضنا السريعة الجريان ، وقد بدأت أترويس تتعطل من الآن ، على شاطئ النهر الظليل ، بينما نشاط لاشيسيس قد ازداد .

أترويس ولاشيسيس : فى الميثولوجيا الاغريقية أترويس إلهة تقطع حبل الحياة ، ولاشيسيس إلهة أخرى تدير المغزل وتوزع النصيب ، والأثنتان من ملكات الأجل الثلاث الشهورات باسم Parques . [الترجمان]

(٢) فونتنل ، المقدمة المذكورة سابقاً .

في عصر سيصبح من يوم إلى يوم أكثر إشراقا ، بحيث لن تبدو العصور السالفة بالسبب إليه إلا ظلاما . . . (١) » بدأ الناس يصرفون قلقهم واضطرابهم ، ولما كان اللسان قد كل من النظر إلى الزمان متأملا في العصر الذهبي في ثنايا الماضي البعيد ، ولما كان يخالجه الشك في الخلود ، فقد أخذ يضع آماله في مستقبل أقرب ، لعله يستمتع به بنفسه ، ويصل إليه أبناؤه على كل حال . . .

لقد أصبح العلم من الآن صفا معبوداً . بدأ الناس يمزجون بين العلم والسعادة ، بين التقدم المادي والتقدم الأخلاقي . ويعتقدون أن العلم سيتبوأ مكان الفلاسفة والدين ، وأنه سيكفي كل مطالب ذهن البشرية . وحدث رد فعل ، فأخذ الناس يحتجون ، وينعون على العلم ميله إلى تخطي الحدود التي رسمها ، ويتحدثون عن زهوه المتزايد ، ويعلمون إفلاس العلم — فإلى هذا الحد يلزم أن نبادر إلى محاربة هذا الاله الذي يوشك على الظهور (٢) .

(١) بايل ، أخبار عن جمهورية الأدب ، أبريل ١٦٨٤ ، باب ١١ .

(٢) توماس بيكر ، تأملات عن المعرفة ، لندن . ١٧٠٠ . Thomas Baker, Reflections .

upon Learning, by a gentleman

الفصل السابع

نحو مثال جديد للانسانية

لما اعتزل « رجل البلاط » الايطالى الحياة العامة ، بعد أن مثل دور السيد ودور المرشد ، خلفه « الرجل الفاضل » L'Honnête homme . لقد لقن دروس الحكمة لجيل لا يزال مضطرباً مهوشاً : كيف ينبغي تقبل النظام الدينى ، والسياسى ، والاجتماعى ، الذى يبدو بعد طول التجربة وكثرة المشاق ، أفضل نظام ؛ كيف ينبغي على كل فرد أن يستقر فى ظله ، دون انقلاب أو عصيان ، لئلا يسعد جميع الناس أو على الأقل يعمهم الرضا . وإذا كان هذا الرجل مجموعة من المتناقضات ، فقد وفقت حكمته بينها حتى انتهى به الأمر إلى السجام تام : التوفيق بين الحكمة القديمة وفضائل المسيحية ، بين مقتضيات الفكر ومقتضيات الحياة ، بين الروح والجسد ، بين العادى والجليل . كان يعلم الأدب ، الفضيلة الصعبة ، التى تعنى إرضاء الغير لترضى عن أنفسنا ؛ ويقول إنه يجب اجتناب المغالاة فى كل شئ حتى فى الخير ، وألا نفتخر بشئ ، إلا الشرف . وكان يخضع لنظام ثابت ، وإرادة قوية ؛ وإنه لمشروع صعب أن يمنع الانسان « الانية » من تخطى حدودها ، وألا يقدرها إلا كجزء من قيمة شاملة . وإن التزاماً مثل هذا ليقضى بطولة رصينة ، فما يبدو الرجل الفاضل جذاباً إلا لأنه ينظم قوته النفسانية ويتصرف فيها باتزان ، والسجام .

وكانت صورته لا زالت تتلاّأ فى نهاية العصر ؛ وكان البعض لا يزال ينظر إليها بشئ من التقديس ، ويعرضها كمثال للشبان . وأخذ « محترفو » الأبحاث يستغلون نجاح أسلافهم ويكثرون من النصائح والعظات المألوفة . فمثلاً : إن الرجل الفاضل يحب المجتمعات ويبدى متعة فى البحث عنها ؛ ويقدر مؤلفات الفكر ولا يتكلم عنها بتغرّض أو نقد أو غيره . . .

لصائح متأخرة وهراء معاد . لم يكن الأمر يتعلق بتقبل هذا الارتضاء الاختياري أو الانتفاع منه بأكبر لصيب : بل باصلاح كل شيء ، وبأسرع طريق . لا توفيق ، ولا مصالحة ؛ يجب تغيير السياسة ، والمجتمع . كيف يمكن أن تخضع لدين دولة ؟ إن المحدثين من الناس ، نماذج البدع — مثل الماركيز هاليفاكس الذي يعرض على ابنته مبادئ الحياة — يوصون الجيل الجديد بأن يضع لنفسه ديناً خاصاً ، ديناً لطيفاً ، مريحاً ، ظريفاً ، ديناً خالياً من الخوف والحزن : الآن ، لم يعد الله هو الذي يتحكم في المخلوقات ، بل المخلوقات هي التي تسعى إلى الله ؛ لقد انهارت تقريباً كل المبادئ التي كانت تقوم عليها فلسفة الشرف ؛ وتحطم التمثال الجميل .

وكانت تلك الفلسفة تبدو فيما سبق كأنها من عمل العقل : ولكن الحق أن العقل هو الذي غير اتجاهه . . . لم يعد العقل قوة وسيطة ، تفرض نظاماً كله اصطلاح ، بل أصبح قوة ناقدة ، فضيلتها الأولى روح الفحص . إن الرجل الفاضل لم يعد يلائم هذا العقل الذي لا يقنع .

لقد تنازل عن عرشه من تلقاء نفسه . ولما كان قد ساد زمناً طويلاً ، فقد دخل شيء من الآلية ، في طريقة تقليده واتباعه . لم يعد البعض ينظرون إلى الشرف كوسيلة حياة صالحة ، بل كهدف في ذاته ، لم يعد يتضمن شيئاً من الأخلاق ، بل أصبح متعة : بحيث إن أولئك الناس غيروا كيانه . يقول الكونت دي جراسون لصديقه ماتا ، وهو يحكي له عما تلقى من تعليم في أكاديمية السلاح : « تعلم أنني أسهر رجل في فرنسا ؛ ولذا سرعان ما عرفت كل ما يدرس فيها ؛ كما عرفت ما يستكمل الشباب ويجعل المرء رجلاً فاضلاً ، لأنني تعلمت كل أنواع لعب الورق والنرد (١) . » إنه لا يميز بين القشر واللب ، ويظن أن المقامرة — وهي طريقة بسيطة لقضاء الوقت في صحة — هي كل الشرف . ولما كنا نعلم من سياق قصته فيما بعد ، أنه يستغل مهارته في سرقة لاعب وثق به ، فأننا نرى أن الشرف والفضيلة في بداية القرن الثامن عشر ، لم يعودا يتفقان : ومنذئذ هوى الرجل الفاضل من منزلته ؛ فلا بد من مثال آخر لقيادة الحياة .

(١) هاملتون ، مذكرات عن حياة الكونت دي جراسون ، ١٧١٣ ، الفصل الثالث .

لقد عرضت إسبانيا نموذجاً آخر : وكانت مفاجأة ، ولا سيما أن « البطل » الأسباني لم يكن خلقاً حديثاً ، بل يبدو كأنه يبعث من جديد . في عام ١٦٣٧ نشر الأب بالتازار جراسيان ، من جماعة الجيزويت ، كتاباً عنوانه « البطل » *El Héroe* ؛ وفي عام ١٦٤٠ « السياسي » *El Político* ؛ وفي عام ١٦٤٦ « الرصين » *El Discreto* ؛ وفي عام ١٦٤٧ « كتاب الهاتف الالهي » *El oraculo manual* وفي ١٦٥١ ، ١٦٥٣ ، ١٦٥٧ « الناقد » *El Criticon* ؛ كل هذه المؤلفات محورها دراسة الانسان ، وتكوين نموذج من صفاته المختارة ؛ وكان المتوقع أن تبطل بدعتها ، طبقاً للقانون العادي ، وعلى الأخص في زمن كانت الأفكار فيه تسرع في جريانها . فلماذا ترجمت في نهاية القرن السابع عشر مؤلفات بالتازار جراسيان بتلك الكثرة ؟ ولماذا أعادق عليه هذا الشناء ؟ إنه لم يكن رجلاً مجهولاً : لكنه بعد ضياع بسيط انتهى إلى سناء الحجد الكبير . ولعل السبب في ذلك ترجمة فرنسية سلسلة لمؤلفاته ، — بقلم اسلو دي لاهوسيه ، في عام ١٦٨٤ — ، هذه الترجمة وإن كانت قد أضاعت شيئاً من نكهتها الأصلية ، إلا أنها أضفت عليها شيئاً من الروح الأوربية التي كانت تعوزها ، من قبيل التعويض . ولعل جماعة الجيزويت ، وقد نسيت خلفها القديم مع المؤلف ، شاركت من جهتها في هذا النجاح المتأخر . ولعل السبب أنه كان هناك جمهور واسع لا ترضيه البيول الحديثة ، ويجيد في التغذية الأرضية شيئاً من المرارة ؛ وكما يقول ستانندال إنه يكمن دائماً في القلوب شيء إسباني . ولعل مرد ذلك إلى أسباب لاندركها ؛ فنحن لا نستطيع أن نشرح كل شيء .

والواقع أنه ظهر من عام ١٦٨٥ إلى ١٧١٦ في فرنسا فقط ، خمس عشرة ترجمة لكتب جراسيان . وتحمست ألمانيا للعالم الأخلاقي الاسباني ؛ قدمه توماسيوس — في خطابه الافتتاحي المشهور الذي ألقاه ضد تقليد الفرنسيين الدليل — كأحد الأساتذة الذين يجب أن يستوحىهم الألمان ، إذا كانوا يريدون تهذيب أخلاقهم ، فيشيد به في بداية خطبته وفي نهايتها . وفي إنجلترا ، وفي إيطاليا ، وفي كل مكان ، يلتقي جراسيان التشریف والتعجيد .

فالرجل المثالي — إذا صدقنا قول جراسيان — ليس هو الذي يقنع بمجموعة منسجمة من المزايا المتوسطة : فالفضائل العادية ، مهما تعددت ، لا تصل بالمرء إلا إلى مستوى عادي ؛ بل هو الذي يدفعه طموح أعلى ، لأنه يريد أن يتفوق في كل ميدان عظيم . الرجل المثالي ذو ذكاء خارق ، ورأى شديد ، وعقل من طيب ، وعاطفة مرهفة ، (لأنه ماذا يساوي الذكاء إذا انفرد القلب ؟) ؛ يختار مقدراته الغالبة ، ويضع ثقته — بالحدس — في مقاصد الحظ ، الذي يجب من يقابله بالعنف ؛ يهدف إلى أجل النماذج جهالا في كل نوع ، لا لكي يصل إلى مستواها ، بل لكي يتعداها ؛ إنه من يسعى ليكون « الأول والوحيد » . لذلك يجب أن يحيط نفسه بجو من الغموض ، وأن يكون قادراً على انتظار ساعته ، بل يجب أن يخفي دوره ؛ إلى هذا الحد يجب ألا يكشف عن نفسه إلا تدريجياً ، ليثير كل مرة تعجب العامة ، أمام قوة لا ينضب لها معين . إن « البطل » يحتل كل ألم ، ويصبر على كل إهانة ؛ فالإهانة الوحيدة الحقة هي التي يجب أن يفرضها على نفسه ، أمام محكمة ضميره ، إذا وجد أنه قد حط من شأنه . إن الانتصار ليس غاية ، والسيطرة على الدنيا ليست إلا وسيلة ؛ يهب البطل « لإنيته » المنتصرة المتفوقة لله ، ويرد للدين ماغاز به من سيادة خلقية . إنه ماهر حتى إنه يضيف على خبثه لونا مقدماً ، ويستر كبريائه بقناع من السذاجة ؛ خيالي مع معرفته التامة بحقيقة القلب البشري ، وعمل مع ولعه بالخيال المثالي ؛ متحمس ، متجبر ، متدين ، يحب المشاكل لما فيها من حدة وصعوبة ، عجيب ، عظيم ، متناقض ؛ هكذا ترسم صورته . إن « الرجل الفاضل » ، — الذي خلق ليوائم مشاهد (جزيرة فرنسا) الوديعه المأدبة ، الغبراء — تودى به المقارنة مع البطل ؛ فالبطل يتطلب نفس الشمس التي كانت تلفح دون كيشوت في طريق الكاستيل والتي كانت تجعل العدل ، والطيبة ، والحب تنلأ أمامه .

لقد راق في عين أوروبا ؛ ولكن للحظة . كانت تستطيع أن تتأمل جراسيان بحب استطلاع وعطف ، وأن تقرأ كتبه ، وتجد فيها دراسة وتسليية ؛ ولكنها لم تستطع أن تتخذ منه دليلاً ومرشداً . فقد فات الوقت ، وكانت قد اتخذت قرارها ، ولم يمكنها أن تراجع . فإذا كان الرجل الفاضل لم يعد يرضيها فكيف كانت تستطيع أن تتبع آثار « بطل » أقل منه بعدا عن الدين .

لقد كانت لحظة من تلك اللحظات النادرة العجيبة ، تختلط فيها الشاشة البيضاء ، إذ تتنازعها صورتان مختلفتان ، إحداهما تتأخر في الانصراف والثانية لا يزال ينقصها الوضوح والوثوق . فقد أخذت الظلال ، تكسو النبيل ، وبدأ « البورجوازي » يتخذ رويداً رويداً شكلاً ولونا . لم يعد الناس يقبلون المبدأ الأرستقراطي الذي ساد حتى ذلك الحين . الوداع للمحارب ؛ لقد انقضى الزمن الذي لم يكن يعجب الناس فيه إلا بطولة القواد ، وغزو المدن ، وكسب المارك بعد قتال عنيف ، وفرار العدو على أثر هجوم شديد ، وتوزيع هامة المنتصر بالغار . يسخر سانت أفريموند من المارشال دي هوكنكور ، ذلك المغوار ؛ ويعلم فنيلون تيلياك ، على لسان الملك إيدومنيه ، أنه ينبغي أن تكف عن تقدير الملوك المحاربين ، وأن نحسب الملوك الحكماء ؛ ويسخر فونتنيل : « أغلب رجال الحرب يظهرون في مهنتهم شجاعة كبيرة ، ولكن قليلاً منهم يفكرون فيما يعملون ؛ إن ذراعهم تتحرك كيفما تشاء ؛ ولكن رأسهم يرتاح ، وإن الشغل ففي غير شئ . » ويحكم بايل ، باسم العقل السليم على « زهو أولئك المحاربين الطامحين » الذين لا يفكرون إلا في شهرتهم ، بأنه ضعف أخلاق وجنون ؛ ويستمع جان باتست روسو إلى هذا الكلام فيقول : — ما الغزاة إلا قوم حاباهم الحظ ، الذي يتوج الجرائم التي ليس لها مثيل :

*Mais de quelque superbe titre
Que tes héros soient revêtus,
Prenons la Raison pour arbitre,
Et cherchons chez eux leurs vertus.
Je n'y trouve qu'extravagance,
Faiblesse, injustice, arrogance,
Trahisons, fureurs, cruautés,
Etrange vertu qui se forme
Souvent de l'assemblage énorme
Des vices les plus détestés ... (١)*

- (١) مهما بلغ جلال ما يحمل أبطالك من ألقاب ،
فلنجعل العقل حكماً ولنبحث عن فضائلهم ،
إني لا أجد فيهم إلا جنونا ، وضعفاً ، وجوراً ، وعجرفة
وخيانة ، وحقناً ، وقسوة ،
بالفضيلة العجيبة ، التي تتكون من مجموع ضخم من أقيح الرذائل ...

حتى أبطال الأزمان القديمة العظماء ، ينبغي أن يحرموا من الاعجاب
الذى لا يستحقونه ، والذى خلعه عليهم الناس من زمن طويل :

*Quoi ! Rome, l'Italie en cendre.
Me feront honorer Sylla !
J'admèrerais dans Alexandre
Ce que j'abhorre en Attila !
J'appellerai vertu guerrière
Une vaillance meurtrière
Qui dans mon sang trempe ses mains ;
Et je pourrais forcer ma bouche
A louer un Héros farouche
Né pour le malheur des humains ! (١)*

إن الفاتح لرجل قد سلطته الآلهة — الخائفة على البشر — على العالم ،
لتخريب الممالك ، لنشر الذعر والفقر واليأس فى كل مكان ، وليخلق عبيداً
أرقاء بقدر ما يوجد من أحرار . — إن أولئك الغزاة الكبار الذين لخلق عليهم
صفات التمجيد ، لأشبه بتلك الأنهار التى تفيض فتبدو رائعة ، ولكنها تخرب
كل الأرض الخصبة التى كان عليها فقط أن تروىها . — من صاحب هذا
الكلام ؟ « فيلون » أيضاً ، فى الجزء الثامن من « تيلياك » .
ومسألة الشرف ؟ لقد افتتن به الناس كل الافتنان ؛ إنه اعتقاد باطل
حان الوقت للتحدث فيه . إن خرافة مسألة الشرف هذه تقود إلى البارزة ،
أى إلى أسوء الجنون . وقد اتفقت الصرامة الانجليزية والعقل الفرنسى ضد
الردائل التى يتظاهر بها النبلاء عادة ، بحسبانها من الأناقة ، وضد فساد
الأخلاق ، وشهوة المغامرة ، وعادة التجديف ، حتى إن « النبيل » أوغل
فى الظلام مصحوباً باللعنة .

حينئذ ظهر « البورجوازي » ، مبتسماً ، تلوح عليه أسارات الرضا والفخار
وكان « ستيل » Steele و « أديسون » Addison بمثابة إشبينين له ؛ كانا

(١) ماذا ...! هل من أجل روما وإيطاليا المدمرة أجد مهلاً !

هل يعجبني فى الاسكندر ما أكرهه فى « أتيليا » !

هل أعد تلك الشجاعة القاتلة — التى تخضب يديها بدمى — فضيلة حرية !

وأفسر لسانى على ملح بطل متوحش ، ولد لاتعاس البشر !

عالمين أخلاقيين ، ماهرين ، حكيمين . لا ينقصهما إلا شئٌ من قوة التركيز ومن الجرأة ؛ ومع ذلك فقد أجادا تصوير مثال جديد للانسانية ، وفرضاه على القراء العديدين ، الذين وجداهم أولاً في إنجلترا ، ثم في أوروبا كلها . وإذا كان حقاً أن وراء كل نجاح أدبي باعثاً اجتماعياً ، فقد كان الباعث هنا مايلي : تطوعت مجلتا *Tatler* و *Spectator* بتقديم مثال للانسانية ، إلى زمن كان لا يزال يبحث عن قوانينه : ذلك أنهما كانا يفحصان الانسان ، لمجرد التسلية في تصويره لا شك ، ولكن أيضاً لأنهما كانا قد شرعا في إصلاحه . كلما كانت صحيفة تخرج من مطبعتهما ، وتنتشر في مقاهي لندن ، ثم تجتاز البوغاز ، كانا يوجهان رسالة إلى مجتمع في حاجة إلى أصول للأدب واللياقة والواجب ؛ ويشاركان — كما تقول صحيفة *Tatler* في توطيد شرف الطبيعة الانسانية . كانا ينقضان خطأ ، أو يصلحان ضرراً ، وأكثر من ذلك ، كانا يرشدان إلى ما يجب فعله ، بعد تبيان ما يجب اجتنابه ، لاجئين إلى السخرية حيناً وإلى اللوم حيناً آخر . وكانا يعرفان القدماء ويمجدانهم ؛ درسوا علماء الأخلاق الفرنسيين ، مونتاني *Montaigne* ، وماسنت أفريموند ، و « لافروير » ، ولم يجهلا أى نوع من الأنواع الحديثة للنموذج الذى يدرسه ، من « رجل فاضل » إلى « رجل لبق » ، إلى « رجل ظريف » ، إلى « رجل متعاقل » ، إلى « أستاذ صغير » (١) ؛ ولكنهما كانا يعرفان أيضاً أن قلب الانسان ثابت ومتقلب في نفس الوقت ، وأنه يجب ألا نكف عن العمل على إصلاحه ؛ وتوفرا على العمل : بعد كاستيجليونى ، وبنكازا ، ونيكولا فارى ، وشيفالبيه دى ميرى ، بعد أولئك اللاتينيين جاء رجلان انجليزيان ، فقد حل دورهما .

فقيه في القانون ، والتاجر فريبورت ، والربان سنترى ، والدنيوى هونيكومب ، وقسيس : تلك هى الجماعة الصغيرة التى تحيط بالسيد سبكتاتور . وبجمل القول ، أن هذه الجماعة لم تضم إلا بعض البورجوازيين ، فيما عدا البارون السير روجير دى كوفرلى ؛ ولكن سير روجير يبدو من البساطة ورجاحة العقل ، ومخالفة عادات إخوانه النبلاء ، وحب المناقضة وغرائب الآراء ، ومن الرقة والاحسان ، بحيث لا يشبه فى شئ أولئك النبلاء

(١) honnête homme — galant homme — homme du bel air — un petit maître
un bel esprit.

الفاستدين الذين شهد أدب العصر السابق ازدهارهم . إن السيد سبكتاتور نفسه يبدو كأكثر الناس بساطة وتواضعاً . كل ثروته عبارة عن عقار بسيط في الريف ، لم يتغير منذ ستائة عام ؛ يعرف الكثير ولكنه لا يحب أن يتظاهر به ؛ ولقد رحل إلى كل نواحي الدنيا ، ولكنه لم يتخذ من ذلك سبباً للزهو . إنه رزين ، صامت ، يحب العزلة ، قليل الأصدقاء ، لا يتردد على أقرائه ، ولا يقابل أحداً ، حتى صاحبة مسكنه . ولما كان الناس يرونه يتردد على المسارح ، والمقاهي ، والمحلات العامة في لندن ، بحثاً في أخلاق معاصريه ، فقد أخذ البعض يظنه يسوعياً ، والبعض جاسوساً ، والبعض متأسراً ، والبعض مجنوناً . « الشيء الذي يعزيني عن هذه المعاكسات التافهة ، هو أني أجد سروراً في مشاهدة طبائع الناس بنظرة هادئة ساكنة ، دون رأى ميتسر . ولما كنت قد تحررت من الشهوات والأغراض التي تسيطر عليهم ، فإن لي بصيرة أقوى في الكشف عن فضائلهم ورذائلهم » . وهكذا يقدم لنا السيد سبكتاتور ، ببساطة خلقه وحكمته الهادئة ، نموذجاً لحياة جميلة سعيدة .

يقول لنا إن الطبقة النبيلة توشك على الضياع ، لاصرارها على المباشرة من أجل مسألة شرف ليس لها أساس ، ولأنها تخطئ في معنى كلمة العدل ، إذ تلعب مع محترفي المقاسرة ، وتبدد ثروتها بين أيديهم . إنه يسخر من أولئك الذين يضعون كل شرفهم في ألقاب باطلة ، يكتسبونها بمصادفة بمولدهم ، ولا فضل لهم فيها . ويبشر بالأدب وبرقة الأخلاق ، ويؤاخذ الناس الذين يضحجون في المسرح ، والنساء اللواتي يشربن الخمر أو يدخن ؛ ولكنه ينوه في نفس الوقت بأن التهذيب الخارجي ليس كل شيء في الحياة ؛ بل يفضل تأكيد الفردية على إخماء الشخصية ؛ إن كلا من المجاملة ، والتصنع ، والتكلف تشير اشمئزازه ؛ فقيمة كل امرئ في صادق طبيعته لا في تصنعه . إن الناس يخطئون في ظنهم أن أسمى فضيلة لدى الرجال الشجاعة ، ولدى النساء العفة ؛ اعتقاد باطل مرده إلى رغبة كل جنس في أن يروق في عين الجنس الآخر . فالنساء يقدرون الشجاعة عند الرجال فوق كل شيء ، والرجال يكرهون النساء الخائفات . كأنما دماء الخلق ، وكرم الطبع ، ورقة الشرائل ، ليست في منزلة تلك المزايا التي يسمونها اجتماعية ، والتي لها مكان الشرف في العادة ؛ وبالمثل ينبغي أن يقدم المفيد على الفطريف ؛ فالغانيات اللواتي لا يبتغين إلا اجتذاب

أزمة الضمير الأوربي

الأنظار ؛ والمتعطلون الذين لا يروون إلا نيل الإعجاب ، والمتكلفون ، الذين غالوا في الرقة والدقة في كل شئ ، حتى أصبحوا لا يبالون بالخير والشر ، كل أولئك جنس مشنوم . وإن الدعابة ، والملحة ، والسخرية ، التي يستلطفها الناس ، ليست في الغالب إلا خبثا محضا . وبعد ، فإذا تساوى حياة المجتمع نفسها؟ هل يجب أن يكون دور الرجل النأنى والتظاهر في المجالس والمجتمعات ؟ هل في ذلك كل سعادته ؟ إن السعادة عدوة الأبهة والضجة ، بل هي تبتغي العزلة ؛ إنها تتولد من التمتع الذاتي ، أو من صداقة عدد قليل من الأشخاص المختارين ؛ إنها تحب الهدوء والانفراد ، وتتردد على الغابات والجداول ، على الحقول والروج : تجد في كيانها كل ما تحتاج إليه ، وإنها لفي غنى عن الشهود والمشاهدين . وبالعكس ، فإن السعادة الخيالية لا هم لها إلا اجتذاب الأنظار ؛ ولا سعى لها إلا وراء إثارة الإعجاب ، حياتها تترعرع في القصور ، والمسارح ، والاجتماعات ، وتموت بمجرد ما تنصرف عنها العيون . السعادة تقتضي ألا لغالى في مطالبنا ! والبحث عنها لا يفيد الجنس البشرى بقدر ما يفهمه قدرة المرء على السلوان ، وثباته وصبره أمام الأحزان . إن رضى النفس هو كل ما نستطيع أن نتوقعه في هذه الدنيا : فلا تكاد أطاعنا ترتفع حتى تصادفها العوائق والآلام . لنستغل دراستنا وجهدنا لنحصل على الراحة في الأرض ، والسعادة في السماء . — إننا نرى كيف يكرر السيد سبكتاتور بعض الصور المعروفة لموضوعات قديمة ؛ ولكننا نرى أيضا كيف يبتعد ابتعادا صريحا — ولو أنه يلتزم الكلاسيكية — عن مثال الرجل الفاضل ؛ وكيف ينتقل — محاولا أن يشيد حالة رفيعة من المدنية — من الأرستقراطية إلى البورجوازية ، ومن الظاهر إلى الباطن ، ومن المتعة الاجتماعية إلى الفائدة الاجتماعية ، ومن الفن إلى الأخلاق .

نقول مجلة تاتلر *Tatler* ، إن التاجر أحق بلقب « جنتلمان » من رجل البلاط الذى لا يشارك إلا بالكلام ، ومن العالم الذى يسخر من الجاهل . وهذا ما تراه مجلة سبكتاتور *Spectator* . إن التاجر جدير بكل الاحترام . فهو لا يعطى للمجترات القوة ، والغنى ، والشرف فحسب ؛ ولم يرفع مصرف المجترات — معبد الأيام الحديثة — إلى مجده فقط ، بل يعمل ، بقضيل تجارته ، في سبيل التعاون بين الدول ، ويدفعها إلى المشاركة في سبيل الرفاهة العامة ؛

إنه صديق الجنس البشرى . البطل يقنع بشهرة باطلة ، بينما يحتاج التاجر إلى سمعة أدق وأرهف ، وكأنا أرق ، تسمى ثقة أو اثباتاً . إن كلمة بسيطة ، أو تلميحاً أو سرعان خبر غير صحيح ، يجرح هذا الائتمان ويخرب التاجر : قال نبيل ذات يوم إنه اعتاد أن يتكلم بكل حرية ، عن النبلاء الآخرين ، دون تحفظ ، بينما كان يحرص على ألا يتكلم بسوء عن التجار : لأن في ذلك قضاء عليهم وإدانة لم بدون دفاع . هكذا ينتشر شرف من نوع جديد : شرف التاجر .

إن الشخصيات تبدو أكثر حيوية على المسرح ، كما يعلم الجميع ، فالكتاب مضطرون إلى المبالغة فيها بعض الشيء ، ليظهروها للعيون . ولا يكتفى ستيل بوصف تلك المنافسة بين النبيل والتاجر في الصحف فقط ، بل ينقلها إلى المسرح . وكان هذا في واحدة من أجمل مسرحياته : « The Conscious Lovers » . سيرجون بيفيل ، الرجل النبيل ، يوشك على تزويج ابنته من ابن السيد سيلاند ، التاجر الثرى الذى اغتنى من الاتجار مع بلاد الهند . إنهما يتجاهاان : يسخر التاجر من الرجل النبيل ؛ قائلاً إن عنده — هو ، سيلاند — سلسلة نسب رائعة : جود قروا ، أبو أدوارد ، أبو بطليموس ، أبو كراسوس ، أبو الكونت ريشارد ، أبو المركيز هنرى ، أبو الدوق جان : كلهم ديكمة ممتازة في القتال . . .

وإذا لم يكن لدى السير جون بيفيل المعرفة الكافية ، فإن السيد سيلاند يتكفل بأن يوضح له التطور الذى حدث في إنجلترا .

— « اسمح لى أن أقول لك إننا ، معشر التجار ، نوع من النبلاء ظهر في الدنيا في القرون الأخير . إن لنا مالكم من شرف ونفع ، يأبها الملاك الذين بعدكم الناس أفضل منا بكثير . لأن مشاغلهم لا تتعدى ، في الحق ، حمل علف أو ثور سمين . إنكم حقاً قوم مضحكون ، لا تصلحون إلا لخلق الكسالى ! »
وهالك صيغة أكثر كبراً

— « إنه الحق كل الحق ، إن التاجر الكامل هو أفضل مثال للنبيل في الشعب ؛ وأنه يفوق كثيراً من النبلاء من وجهة المعرفة ، والحكمة ، وحسن السلوك . »

وخلاصة القول ، أن انقلاباً قد تم ، وأن الأدب قد سجله وعمل على ،
لشره :

— « إن مآل عدد كبير من النبلاء أن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى
التنازل عن إرث آبائهم لأسياد جدد ، كانوا أدق منهم في إدارة حساباتهم ،
ولا شك في أن الذي اكتسب ملكاً بفضل صناعته أحق بملكيته من الذي
أضاعه نتيجة لاهماله . . . (١) »

هذا الطراز الانجليزي الذي رأيناه يتشكل ، سيؤثر على كل أوروبا تأثيراً
عميقاً . مستشعنه الصحف ، وقصص الأسفار ، والنسرح والروايات ، ويسمى
أهل البدع إلى تقليده : بساطة في المظهر ، ثياب بلا زينة ، صوف لا حرير ،
وعصا لا سيف . وبساطة في الروح أيضاً : خلق صريح يذهب في مقت الكذب
إلى حد الخشونة ، إدراك سليم ، اهتمام بالمسائل العملية : فكما يقول السيد
سبكتاتور ، هل ينبغي ألا نهتم إلا بالأدب والفنون الجميلة ؟ يجب أن نوجه
الاهتمام أيضاً إلى العمل ، والتجارة ، والادخار ، والفنون الميكانيكية التي
تفيد في استكمال الحياة . يقول بيير كومست — الذي ترجم في عام ١٦٩٥ كتاب
جون لوك عن « تربية الأطفال » — إن الحق أن ذلك المؤلف الانجليزي كتب
للشباب المهذب Gentlemen ، ولكن لا يجوز أن يخطئ الفرنسيون في
معنى كلمة « جنتلمان » هذه : لأنها لا تشير إلى النبلاء ، بل إلى الطبقة التي
تأتي تحت رتبة البارون مباشرة ، أي إلى الأشخاص الذين يسمون في فرنسا
« أناساً من أسرة طيبة » ، أو بورجوازيين طيبين ، « وبذلك يسهل علينا أن
نستنتج أن هذا البحث عن التربية لابد من أن يلاق رواجاً واسعاً ، نظراً لأنه
كتب خصيصاً للنبلاء ، على أن تأخذ هذه الكلمة المعنى الذي أخذته في
الجلترا » . هكذا عرضت البورجوازية الانجليزية على لسان بيير كومست ، دعوة
إلى البورجوازية الأوروبية .

ولكن لن يملك شعب فيما بعد الاستهزاء في أن يكون « طرازاً » عالمياً

وحده ، ولذلك سيكون هذا الطراز أكثر تعقيداً وأقل وضوحاً في معالنه من الطراز الكلاسيكي ؛ ولن يبدو أى مثال فيها بعد ، بتلك البساطة الجميلة التي أضفاها الفن الكلاسيكي على النموذج الذي قدمه للعالم . لقد أخذت فرنسا تبحث من جانبها . فلا بد لها — وبذلك يقضى طبعها وإرادتها — من دليل يقودها نحو العقل ، ونحو استقلال الفكر . فعرضت أخيراً المثال الأعلى الذي ستتخذ به بصفة قطعية ، البدعة الفكرية في القرن الثامن عشر : مولد من الانجليزى والفرنسى ، مفكر نظرى وسيد للحياة : الفيلسوف .

في هذا الوقت ، وقت العمل والتوليد ، في أى صورة يظهر لنا هذا النموذج الجديد ؟ « الفيلسوف » — كما يقول لنا قاموس الأكاديمية سنة ١٦٩٤ — : « هو الذى يتوفر على دراسة العلوم ، ويرمى إلى معرفة النتائج بمعرفة العلل والمبادئ الفيلسوف هو الرجل الحكيم الذى يعيش عيشة هادئة منعزلة ، بعيداً عن صخب الأمور . . . وهذه الكلمة تنطبق أحياناً على الرجل الذى يعلو بنفسه ، بفضل تحرر فكره ، فوق الفروض والالتزامات العادية للحياة المدنية . »

هذا زمن تتلاحق فيه هذه الملاح المختلفة متتابعة . أولاً ، لم يعد الفيلسوف ذلك الرجل ، المحترف ، المتخصص ، الأستاذ ، الدعى الذى لا يقسم إلا بأرسطو أو بأفلاطون ، بل من الجائز ألا يدرس المرء الميتافيزيقا أبداً ، ومع ذلك يكون فيلسوفاً . — ثم ، إنه عالم يستعمل عقله ، لا ذاكرته : يدرس علم الفلك ، ويتكلم عن تعدد العوالم ، ويشرح — إن لم يكن لم فعلى الأقل كيف — تدور الأرض حول الشمس . — إنه حكيم ؛ فهو يتخذ لنفسه حياة ناعمة ، يحيط به أصدقاء وصديقات ، دون أن يطعم في وظيفة أو مهنة أخرى غير وظيفة مراقب بط قصر سان جيمس ؛ وسيتضمن برنامج الشهوة ، دون أن تشغل حيزاً كبيراً : شهوة معقولة . — إنه متحرر الفكر : هذا هو المهم . إنه يقدر كل شئ في حرية تامة ؛ ويعود إلى العقل منزلته الرفيعة ، كما ستقول مدام « دى لامبرت » فيما بعد . إن أولئك السادة أعضاء الأكاديمية يخطئون ، أو لعلهم يسيئون التنبؤ ، في قولهم إن الفيلسوف يعلو بنفسه فوق فروض والتزامات الحياة المدنية . لأن الفيلسوف ، على العكس ، يبتغى إصلاحها ؛ فلا فلسفة إن لم يستعمل الفيلسوف البصاراً . وأخيراً فسيكون له قلب حار ،

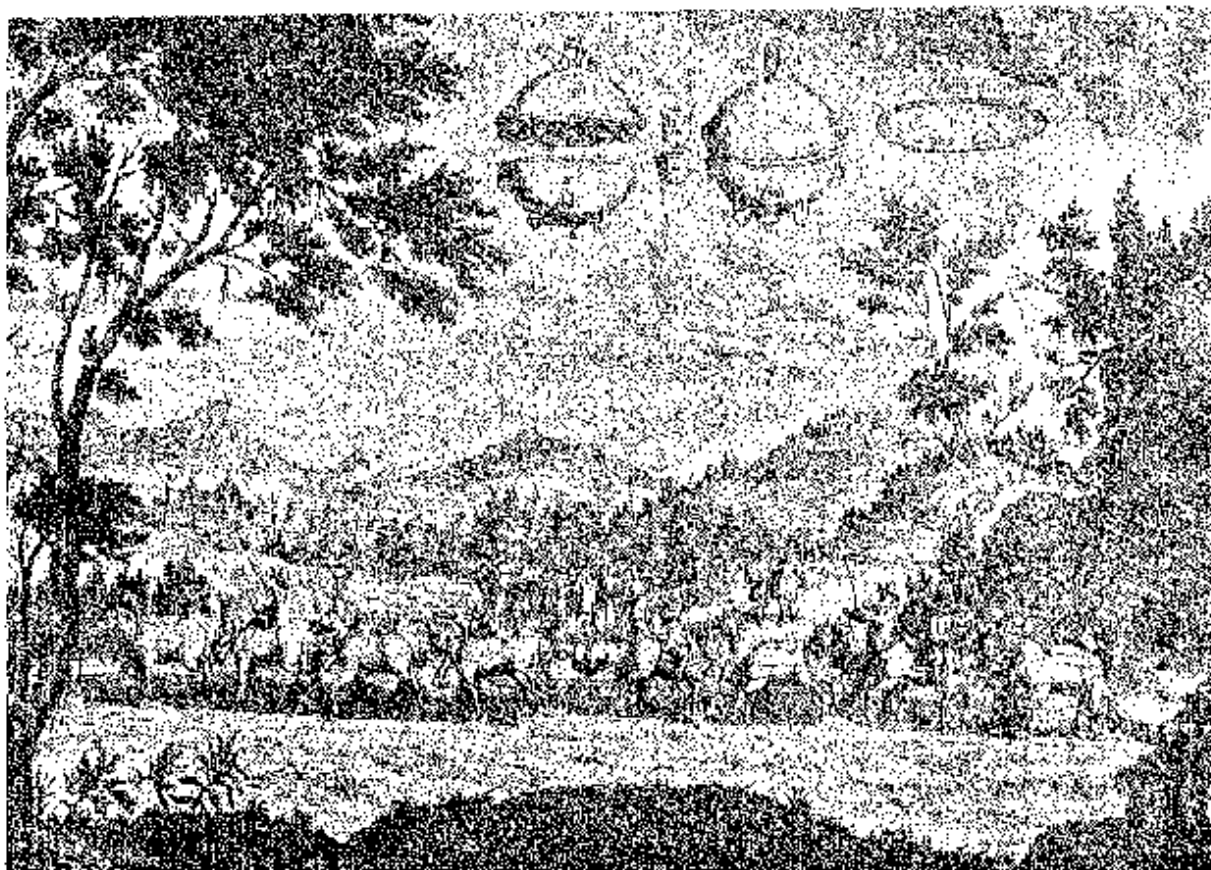
أزمة الضمير الأوربي

٣٣٦

ولكن بعد مدة ؛ يجب أن تنتظر نصف قرن ، قبلما يضطرم قلبه ويشتعل بكل طبعه .

يبدو الفيلسوف ، من بدايته ، خصما للأديان المنزلة . فان قلت إن في الصين ، جميع مستشاري الامبراطور والمقررين إلهة فلاسفة ، فانك تدرك جيداً أنهم ، مثل أستاذهم كرونوشيوس ، حكماء لا دينيون . وإن استمعت إلى فيلسوف ينكلم عن الأخلاق والعلم ، فكن متأكداً أن أخلاقه لن تكون دينية ، وأن علمه لن يكون فيه شئ من القداسة ؛ بل العكس . وإن علمت أن رجلاً عاش فيلسوفاً ومات فيلسوفاً ، فستدرك أن ذلك الرجل مات غير مؤمن . والمدافعون عن التقاليد لا يخطئون في ذلك ؛ ألف الأب « ليجيه » في عام ١٩٩٦ مسرحية لمدرسته ، بعنوان « ديموفيطس أو حكم الفيلسوف » *Damocles, sive philosophus regnans* : كن أحقّ وسلم زمام السلطة لفيلسوف ، وسرعان ما يقلب أمور الدنيا !

فلسفة تكف عن المينافيزيقا وتقتصر مختارة على ما تستطيع أن تدركه مباشرة في النفس البشرية . فكرة طبيعة مازال الناس ينكرون طبيعتها التامة ، ولكنها مع ذلك عظيمة قوية ، منتظمة ، وموافقة للعقل ؛ ومن هنا دين طبيعي وقانون طبيعي ، وحرية طبيعية ، ومساواة طبيعية . أخلاق تنقسم إلى فروع عديدة ؛ والالتجاء إلى المنفعة الاجتماعية لاختيار أفضل هذه الأخلاق . الحق في السعادة ، في السعادة على الأرض ؛ الكفاح ضد الأعداء الذين يحولون دون سعادة الناس في هذه الدنيا ، ضد السلطة المطلقة ، ضد الخرافة ، ضد الحرب . العلم الذي سيضمن تقدم الانسان ، وبالتالي سعادته . الفلسفة ، مرشد الحياة . تلك هي التبدلات التي حدثت أمام أعيننا ؛ تلك هي الأفكار والرغبات التي ترعرعت قبل نهاية القرن السابع عشر ، والتي اتحدت لتكوين مذهب النسبية والانسانية . الطريق مههد . وكل شئ معد ؛ يستطيع فولتير أن يقبل .



تجربة عن الفراخ (أسترادام . ١٦٧٢)

القسم الرابع القيم التخيلية والحساسية

الفصل الأول

زمن بلا شعر

نستطيع أن نتتبع الحركة العقلية حتى ظهور الالسيكلوبيديا (١) ، ، وحتى « المقال عن الأخلاق » (٢) ، وحتى إعلان حقوق الإنسان (٣) ، وحتى وقتنا هذا .

لكن من أين يأتي ريشاردسون (٤) ؟ من أين يأتي جان جاك روسو ؟ من أين تأتي « العاصفة والانفعال » (٥) *Sturm und Drang* ؟ لابد من أنه كان هناك نبع خفي قد انبثق منه هذا السيل العاطفي . لقد ظهره

(١) تأليف واسع استغله فلاسفة القرن الثامن عشر ، وكان يتولاه دالامير وديدرو Diderot . [الترجمان]

(٢) *Essai sur les mœurs* مؤلف تاريخي وفلسفي لفولتير ، ١٧٥٦ . الفكرة الأساسية فيه : أنه لا يوجد شعب مختار ولا جنس متفوق ، بل المجتمع البشري بأكمله يشارك في تقدم الإنسان . وأن الأنسانية كقوة نفسها ، تحت ضغط الاحتياج والظروف التي خلقت القوانين والأخلاق والعلوم . (أنظر فولتير ، بقلم جوستاف لانسون ، هاشيت ١٩٢٧) . [الترجمان]

(٣) المبادئ التي أعلنتها الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ : المساواة بين المواطنين ، سيادة الشعب ، واحترام الحريات ... [الترجمان]

(٤) ريشاردسون : خالق الرومانتيكية الإنجليزية الحديثة ومن مؤلفاته *كلاريس هارلو* ، وباميليا . [الترجمان]

(٥) *Sturm und Drang* ، أو العاصفة والانفعال : أعطى هذا الاسم لدراسة أدبية أثرت تأثيراً عميقاً على الأدب الألماني بين (١٧٧٠ - ١٧٩٠) . وهذه المدرسة تدعى باسمها مسرحية ألفها Klinger عام ١٧٧٦ بعنوان « عاصفة وانفعال » قوامها حركة عكسية ضد العقلية ، مطالباً بحقوق الشعور ضد حقوق العقل ، وبحقوق الإبداع ضد الاصطلاح . ويظهر في إنتاج هذه المدرسة تأثير «ستيرن» و«يونج» وجولدسميث و«أسيان» والكتابات المقدس . ولكن الحركة على وجه عام يسودها تأثير «جان جاك روسو» . وأهم من يمثل هذه المدرسة فاجنر ، لنتز ، كليمجر وفردريك مولر . [الترجمان]

حتى الآن بمظهر من لا يرى على المسرح العالمى إلا العقليين : والواقع أن هذا هو الوقت الذى تقلعوا فيه إلى النظر الأمامى ، حيث شغلوا — فى صخب وإلحاح — أهم الأدوار الكبرى . لكن ليس صحيحاً أنهم كانوا وحدهم متفردين ، وقد حان الوقت لتنتفت إلى الآخرين . إلا أنه ينبغي أن نعترف أولاً أن البحث شاق هنا ، وأن المظاهر تقدمنا ، وأن أولى النتائج التى نصل إليها سلبية .

**

ونحن فى الواقع نرغب فى توجيه بحثنا إلى ناحية الشعر . فلا بد من أن القيم التخيلية والحساسة التى نأمل العثور عليها ، تحتوى فيه . إلا أن هذا العصر كان عصر النثر . وهل هناك نثر أغنى وأقوى ، وأحق بالاعجاب من نثر سويفت ؟ وأرق من نثر سانت أفريموند ؟ وأبلغ من نثر فونتنل ؟ وأحد من أسلوب بايل ؟ إن ذلك المنطوق ، ذلك الرجل الذى لم يجب إلا الاتهام والتمييز *Criminations et discriminations* كما يقول لبتز ، — لم يخدم أبداً جذوته . إنه يغضب ، وتزداد فورته ، ولا تزال تشتعل صفحاته بالنار التى كانت تلهبه . فإذا لم تكفه ألفاظ اللسان الجارى ، خلق غيرها . يحصر تعبيره الأفكار ويربطها حتى يجعلها تفصح عن كل ماتتضمنه . ولا أحد يشبهه ، وإنك لتتعرف أسلوبه لأول نظرة ، حتى ولو لم يوقعه . لقد أعطى الجميع ، — انجليزا كانوا أو فرنسيين — للنثر قوة مؤثرة جديدة ، بتحميله بالأفكار ، وجعله مناضلاً ، متهجاً . ولقد صبوا فى بحوثهم ، وفى رسائلهم ، وفى أحاديثهم عن الأحياء والأسوات (١) وفى رحلاتهم الخيالية ، كل الأخلاق ، وكل الدين ، وكل الفلسفة . ولم يكونوا شعراء . كانت آذانهم قد سدت عن نضرة الكلمات ورقتها ، وكانت نفوسهم قد فقدت معنى الأسرار . ولقد أغرقوا عالم الواقع الملموس فى نور لا يخدم . وكانوا يبعثون الانتظام والوضوح حتى فى مكاشفاتهم القلبية .

(١) مثل كتاب فيابلون « أحاديث الأسوات » الذى كتبه فى عام ١٧١٢ لتربية دوق بورجونى . [المترجمان]

وإذا كان الشعر دعاء ، فإنهم لم يعرفوا الدعاء ؛ وإذا كان محاولة للوصول إلى ما يجيل عن الوصف ، فقد كانوا ينكرون ما يجيل عن الوصف ؛ وإذا كان تردداً بين الموسيقى والمعنى ، فإنهم لم يعرفوا التردد . فهم لا يريدون إلا البرهان والقضايا ، وإذا نظموا شعراً ، فائماً يفعلون ذلك ليضمنوه فكرهم الهندسي (١) . هكذا مات الشعر ، أو على الأقل بدا ميتاً . لقد نفذ إليه الذكاء ، باليته وجفافه ، ففقد سبب وجوده . في ذلك الوقت ، كان هناك جمع غفير ممن ينظمون الشعر ؛ ولكن بعد موت لافونتين ، لم يعد في فرنسا شعراء . ولما ظهرت المدرسة الكلاسيكية الإنجليزية في ازدهارها الرائع ، كان أكثر ماتفتقده الشعراء المحيدون .

ويعد ، فقد كان للعصرية المبدعة عدو آخر . لقد بولغ في الإعجاب بما قدمه الجيل السابق من الروائع الأدبية في سخاء . ازداد أشباع كورنيل وراسين وموليير عما يجب ، وظن البعض أن أولئك الأعلام جديرون دائماً بالمحاكاة والتقليد . واعتقدوا أنهم استعملوا صيغاً خاصة وأسراراً فنية ، وأنه يكفي أن يتوصلوا إلى هذه الصيغ وتلك الأسرار لكي ينتجوا مثلهم روائع خالدة . إن جباورة العقل الذين كانوا يفخرون بعدم احترامهم لشيء من الأشياء ، وكراهيتهم للاعتقادات الباطلة ، قد أصبحوا في ميدان الأدب قطعاً طيغاً ؛ يسجدون أمام الأوثان ، ولا يجترئون على لمس « قانون التفريق بين الأنواع » أو قانون « الوحدات الثلاث » . يرفضون الاعتقاد في الملائكة والشياطين ، ولكنهم يؤمنون ببندار وأناكريون وتيوكريت (٢) . بل كانوا يعتقدون في أرسطو : لا أرسطو الفيلسوف ، بل أرسطو مؤلف علم البلاغة ، فهو بصفته هذه نصف إله .

(١) ليماجون دي سان ديهيه : الرحلة إلى بارناس ١٧١٦ ، ص ٢٥٨ « لقد دوت فجأة ضجة هائلة ، فان سائفة شاعر صاحوا في آن واحد راجين أبوللو أن يستمع إلى أشعارهم . فقال أحدهم : أيها الاله العظيم ، لقد نظمت قصيدة عن حركة الأرض ، وقال غيره : لقد نظمت قصيدة عن الجبر ... » — وفيما يتعلق بالجلترة انظر إلى مؤلف جورج أسكولي ، « بريطانيا العظمى في نظر الرأي الفرنسي في القرن السابع عشر ، ١٩٣٠ . الجزء الأول ص ١١٩ .

(٢) شعراء اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد . [الترجمان]

كانت اليونان في نظر راسين حقيقة شعرية مؤثرة . ولو لم تكن فيدرا (١)
ابنة الآلهة ، لما تأملت مثلما تأملت :

*J'ai pour ayeul le Père et le Maître des Dieux.
Le Ciel, tout l'Univers est plein de mes Ayeux.
Où me cacher? Fuyons dans la Nuit infernale.
Mais que dis-je? Mon père y tient l'urne fatale.
Le Sort, dit-on, l'a mise en ses sévères mains.
Minos juge aux Enfers tous les pâles humains.
Ah! combien frémit son ombre épouvantée,
Lorsqu'il verra sa fille à ses yeux présentée,
Contrainte d'avouer mille forfaits divers
Et des crimes peut-être inconnus aux Enfers?
Que diras-tu, mon Père, à ce spectacle horrible?... (٢)*

ولكن اليونان لم تعد اليونان ، فقد آذاها هذا النجاح ، ولم تفهم على حقيقتها :
ففقدت بساطتها الطبيعية ، وشبابها وحياتها ، وأصبحت أشبه بالمداخن العامرة
بالتماثيل ، ولم تعد روائعها الإبداعية سوى مجموعة قوانين للنجاح المصطنع .
لقد درسها الناس على ضوء الحاضر ، وبدلاً من تفهم أوليس وأجاكس (٣) ،
قالوا إن جهالهم مرده إلى لبسهما الشعر المستعار وإلى هلهلهما السيف في ذلك الوقت.

(١) فيدرا : في الميثولوجيا اليونانية ابنة مينوس إله الجحيم وابن زيوس رب الأرباب ،
وقرينة « تيزيه » اشتهرت بحبها لابنها هيبوليت سفاحاً ، ولما صدها اتهمته لدى زوجها ثم
انتحرت ندماً . وألف راسين مسرحية عن هذه المأساة . [المترجمان]

(٢) جدى هو سيد الآلهة ، رب الأرباب .

إن أجدادي يملكون السكون والسماء .

أين أختبئ ؟ هيا هرب في الليل الخبيث .

لكن ماذا أقول ؟ إن أبي يحتفظ فيه بالثناء المشؤم

يقال إن إله القدر قد وضعه في يديه الصارمتين .

إن مينوس يحكم في الجحيم على البشر المسكين .

آه ... كم سيترعد دهشة حين تتقدم ابنته إليه ،

مجبرة على الاعتراف بمائة فاحشة ، وجرائم ربما لا يعرفها الجحيم !

يا أبته ... ترى ماذا تقول في هذا المشهد الفظيع ؟

(٣) Ulysse : والد تيلياك وزوج بنلوب ، بطل حرب طرواده . ورجوع أوليس إلى
وطنه هو موضوع الأوديسا لهوميروس . وأجاكس هو خعم أوليس ، لسبب بينهما قتال
تلاستيلاء على سلاح أثيل - قاتل هيكتور في حرب طروادة وأحد أبطال الإلياذة ، الذي
قتل باريس برمية سهم - فانتصر عليه أوليس ، فاقم وجن . [المترجمان]

عندما شرع العالم في تمجيد هوميروس في عام ١٧١٥ ، وأراد أنصار القدماء الانتقام من المحدثين ، ونشر يوب ترجمته للالياذة ، التي ترجمت مقدمتها إلى الفرنسية والألمانية ، ترى ماذا كان رأى المعاصرين في الفصيحة اليونانية ؟ قال بوب إن هوميروس يفوق الآخرين بفضل الابتداع ، علامة العبقرية ، لأنه يمد الفن بالثروة التي عليه أن ينظمها . لقد استطاع هوميروس بفضل مقدرته هذه ، أن يتخيل تلك الأساطير التي أسماها أرسطو روح شعر الملحم ، والتي تنقسم لثلاثة أقسام ، الأولان هما القصص المجازية والمحتملة - التي تبيح للشاعر التعبير عن أسرار العلم والحكمة - ثم القصص العجيبة المحيرة التي تتضمن ما يفوق الطبيعة ، وآلية الآلهة : « ينحى إلى أن هوميروس هو أول من جعل من الآلهة نظاماً آلياً للشعر ، مما أضفى على الشعر هذه الرفعة والأهمية . . . » بيد أن هذا الابتداع ، وإن كان مفيداً في الخطابة والوصف والتشبيه ، في التصوير والشعر والأسلوب ، إلا أنه لا يخلو من بعض العيوب ! فأعاجيب هوميروس لم تعد معقولة ، واستعاراته ملؤها المغالاة ، وتكراره متعب ممل . . .

ولما قرأت مدام داسييه (١) هذا الكلام ، ثارت وقالت : « ماذا يعنى بوب هذا ؟ ذلك الانجليزى الذى يترجم هوميروس وهو لا يفهمه ؟ إنه لا يرى فى الالياذة إلا كتلة مهوشة من جبال لا انتظام فيه ولا انسجام ، حقلاً ليس فيه سوى بذور حجة ، لا لضج فيها ولا كمال ، وإنتاجاً حافلاً بالغث الذى لا فائدة فيه ، يجب حذفه لأنه يخلق ما يستحق الاحتفاظ به . إن أعداء هوميروس لم يوجهوا إليه أبداً إهانة أشد ولا ظلاً أفدح . ما أبعد الالياذة عن أن تكون حقلاً يائراً ، بل إنها فى الحق بستان فيه أحسن انتظام وأكمل انسجام رآه الانسان . إن « لينوتر » أعظم مهندسى البساتين فى الدنيا ، لم يحقق فى بساتينه انسجاماً أكمل مما حققه هوميروس فى أشعاره . . . »

عند هذا الحد انتهى الانتقال ، واستقرت الأمور فى مكانها : أصبحت إتيك (٢) فرمايل .

(١) قريبة عالم مشهور قامت بترجمة الالياذة والأوديسا . [الترجمان]
(٢) إتيك : إحدى جزر الأيونيون ، موطن أوليس عندما اشترك فى حصار طروادة . [الترجمان]

* * *

لشد ما أساء الناس إلى الشعر ! لم يعودوا يدركون معناه ، ولم يعد نفثا إليها يذكي القلوب . لقد صغروا من شأنه حتى لم يعد إلا صورة من صور عدوه ، فن الخطاية . فبدلاً من البحث في أعماق النفس ، اتجه — بمجهود مخالف لطبيعته — نحو خارجها ، نحو الانبثات والتحليل . كان الخيال يعد مقسمة تافهة ، ولم تعد صورته إلا بهرجا كاذبا . وأصبح الشعر مملاً ثقيلًا ، ولم يعد إلا صعوبات مذلة : هنا كان فضله كله . وكما قال فالانكور في رده على خطاب السيد دي فليري في الأكاديمية الفرنسية في عام ١٧١٧ : إن عرائس الشعر لم يعدن يسكن جبل بارناس ، لم يعدن بعد آلهة ، لم يعدن سوى وسائل شتى يتوصل بها العقل للتوصل إلى أدمغة الناس .

إذا أردنا أن نعرف إلى أي حد من الضلال وصل الناس إذ ذاك ، فينبغي أن نطلع على ما كتبه فونتنل عن أشعار فرجيل ، وما كتبه « هودار دي لامت » عن القصيدة . إلا أن هذا الأخير كان أكثر تمسكاً بالمنطق ، فقد واصل جرائته حتى وصل إلى نتائج مبادئه : الشعر مضايقة ، فلنكتب بالنثر . إن النثر قادر على التعبير عن كل ما يقوله الشعر ، فهو أدق وأوضح وأسرع ، لا يدفع بالذهن إلى العذاب ، بالقوافي والأوزان ، فلنقدم للناس قصيداً غير منظوم . . . وهو لم يكن يسير في طريق ابتداء الشعر المنشور ، ولم يدرك أن الإلهام له الحق دائماً في اختيار الشكل كيفما يشاء : بل على النقيض كان ينكر الانسجام بكل فخار .

والحق أن البلاغة ، على طول تهديدها للشعر ، لم تحرز يوماً انتصاراً أقسى مما نالته يوم كتب هودار دي لامت قصيدة سماها « البلاغة الحرة » : العفاء على القافية والوزن !

« يا قافية ، أيتها القيود الغريبة الظالمة ، أتكون أفكارى دائماً عبيداً لك ؟ حتام تتحكمين فيها مغتصبة حقوق العقل ؟ فور ما تأمرين بالتزام العدد والوزن ، يجب التضحية بالصحة والدقة والوضوح . وإذا أنا أصرت على الاحتفاظ بها بالرغم منك ، فبأي عذاب تنتقمين مني لمقاومتى لك ؟ عليك وحدك ،

أيتها البلاغة الحرة المستقلة ، عليك وحدك أن تخلصيني من عبودية مهينة للعقل كل الهوان . »

هودار دي لاموت ، الرجل الذي لخص « الياذة » في اثنتي عشرة أغنية ، ثم لظم قصيدة يتمثل فيها « هوميروس » يهنئه على عمله القيم ؛ الرجل الذي كتب أشعار راسين مشورة ، وسر بعمله هذا واقتخر . . . لقد أمل أصدقائه وأمثاله أن العالم بأجمعه سيدرك يوماً أنه لا حساب إلا لعرض الوقائع ، ويومئذ سوف يدع الناس الأشباح ولا يعبرون عن غير الحقيقة ، ولن يثقلوا كاهل اللسان مرضاة للأذن ، وسوف يصبح الشعراء فلاسفة ؛ وهذا خير سبيل للإفادة منهم (١) . « كلما سار العقل في طريق الكمال ، فضل الناس التمييز على الخيال ، وبالتالي قل إعجابهم بالشعراء . يقال إن أوائل المؤلفين كانوا شعراء . حسنا ، إنى أصدق هذا ، لما كان في مقدورهم أن يكونوا غير ذلك . أما الآخرون فسيكونون فلاسفة (٢) . »

وإلى أن يحين ذلك اليوم البعيد ، ينبغي التحرز من طائفة عنيدة ، مخادعة، لا فائدة لها . الشاعر — حسب قول جان لي كليز — رجل يخترع ، جزئياً أو كلياً ، الموضوع الذي يتناوله ، ويرتب أفكاره طبقاً لنظام خاص يجذب القارئ ويسترعي انتباهه ، ويستعمل ألفاظاً تختلف عن الألفاظ الشائعة . « عندما نطلع على قصيدة ، فلا بد من أن نقول إن هذا عمل كذاب ، يريد أن يصف لنا أوهاماً أو حقائق مشوهة حتى إننا لا نستطيع أن نفرق بين الصحيح ، والباطل . ينبغي أن نعي أن الألفاظ الفخمة التي يستعملها لا غرض منها إلا أن يحير بها عقلنا ، وأن الوزن الذي يستعمله لا غرض منه إلا أن يعلق آذاننا ، لكي يدفعنا إلى الإعجاب بعمله ، والاكبار من شأنه . قد تنفع هذه الأفكار كترياق في مطالعات من هذا النوع ، إذ تفيد أولئك الذين أوتوا ذهناً قوياً ، ولكنها لا نفع لها إلا في تهوئش أصحاب الأذهان الضعيفة ، إذا بالغوا في الإعجاب بها (٣) . » ما منشأ هذا العداء من أحد أعلام العقليين؟ إنه هذا الاعتقاد الراسخ : الشعر هو الباطل .

(١) قوتنل : عن الشعر ، مصنفات مختلفة ، الجزء الثامن ، ١٧٥١ .

(٢) الأب تروبيه ، مقال عن موضوعات شتى في الأدب والأخلاق ، ١٧٣٥ .

(٣) جان لي كليز : ١٦٩٩ .

وبعد ، فقد كان هذا رأى معظم المعاصرين ، وإن لم يشعروا بذلك . كان عملهم يقتصر على تقليد أشعار بندار — أعظم شعراء الأغاني فى اليونان القديمة — و « قصيدة الاستيلاء على نامور » . فقد قال جان باتيست روسو الذى كان يعد أكبر شاعر غنائى فى هذا الوقت « كان اعتقادى دائماً أن آسن طريق للوصول إلى ذروة الاجادة هو تقليد عظماء المؤلفين السالفين » لذلك تجد الاجادة عنده ، عبارة عن علامة استفهام أو تعجب أو فورة كاذبة . فهو يبتدىء كلامه بتعجب مدهش : ماذا أرى ؟ ماذا أسمع ؟ لماذا تنشق السماء ؟ لأن الأميرة فلانة تقترب ، أو الأمير فلان يولد ، أو الملك فلان يموت . ثم يتبع ذلك ببعض الأبيات يدعمها مدد من الميثولوجيا ، ثم ينتقل إلى مقارنة ، أو وصف : وهكذا تتم القصيدة . ولا يكتمل لها النجاح ، إلا إذا اختفى المنطق ، وبناء القصيدة ، تحت ستار من الغموض الفنى . « وهذا الخروج على القواعد والفن والمنهج ، إنما يزداد روعة كلما ازداد خفاء ، وكلما وهنت فيها الروابط ، مثلاً يحدث فى أحاديثنا إذا أوحى بها نشوة العقل ، التى تعوقها عن الحمود . بمعنى أن هذا الغموض هو الحكمة فى ثوب الجنون ، متحررة من تلك القيود الهندسية التى تجعلها ثقيلة ، وتسلبها الروح . . . »



ويمكننا على أسوأ الفروض ، أن نلتجئ إلى الظروف الخفيفة ، بل أن نذكر أيضاً فى كتاب الحساب الكبير ، حيث يسجل نجاحنا وفشلنا ، بعض القيم المستنفذة ، مقابل كل هذه الحسائر .

أى حلم عذب ، أن نحلم بوجود الشعر الخالص ؛ لا شعر هناك إلا نسبي ، نسبي لكل جيل يمضى . لكن يبقى الشعر ويعيش ، يكفى أن جيلاً ، حتى ولو كان مولعاً بالعقل المجرد ، لا يزال يجد بعض الفتنة فيما يسميه « الخادع الكذاب » ؛ يكفى أن يرفض — وقد ناقض نفسه — اتباع مثال رجل يعترف بتحويل الشعر إلى نثر ؛ وحسبه أن يكون لديه كتاب تؤثر فيه الموسيقى والجرس ، يوهونه — مهما كانوا عليه من ضعف — بوجود السجام رفيع . لا يوجد شعر خالص ؛ ولكن هناك طلب أبدي للشعر . بدأ بوب شاعراً موهوباً ، وإنه لشاعر موهوب مادام قد بدأ كذلك ؛ وقد وفى الطلب الخجول لزمته ، ويزيد .

ومن هنا ، ليس غريباً أن تقول إنه حتى في هذا الزمن المجذب ، كان هناك شعر ، في نظر المعاصرين . كان كانتز في رأي الألمان شاعراً ؛ وحتى في رأي الفرنسيين ، مادام قد كان من بين النماذج التي قدمت لهم فيما بعد ، عندما أريد لهم أن يتذوقوا طبيعة الألمان وبساطتهم . وقدم الايطاليون سلسلة من الشعراء كانوا موضع إعجاب أوروبا بأسرها : والمعجزة ، أنه بالرغم من كل الأسباب التي كانت تدعوهم إلى كتابة شعر ردى ، فقد نظموا أشعاراً بقيت أكثر من يوم ، أكثر من سنة ، أكثر من قرن ، أشعاراً تفتتنا اليوم . فقد كانت تثقل كاهلهم التقاليد « المارينيه » (١) ، التي كانت تنصحهم بالتغنى دون سأم ، بالنيران الثلجة ، والشلوج المتأججة ، والرقعة القاسية ، والشدة المستحبة . وكانت أكثر من ذلك إقلا لكاهلهم ، الذكريات القديمة ؛ وحينما كانوا لا يشعرون باضطرار إلى تقليد أناكربون ، كانوا يجعلون من تقليد بندار واجبا عليهم . وكان مما يسبب ارتباكهم ذلك العلم ، الطارىء الجديد ، الذى بأشروه ، وأحبوه ، وأرادوا أن يخلو له مكانا في أشعارهم . ظلت قصائدهم ثقيلة تنهى عن كثير من الجهد ، بما تحمل من كلمات فخمة ، ولتعرقها إلى الوصول إلى ذلك « الاختلال » الجميل ، مجده الفن . ولكن حدث ذات يوم ، أن خطر يبال فرانسيسكو ريدي — بالرغم من تقليده بندار في التكلف والغموض — أن ينادى باكوس بين تلال توسكانيا ، وأن يذيقه خمر الكروم ، الواحدة تلو الأخرى ، وأن يصوره مترجماً ، مثائلاً ، وهو ينشئ شيئاً فشيئاً :

*Chi la squall ida cergovia
Alle labbra sue congiugne,
Presto muore, o vado giugne
All'età vecchia e barbogia:
Beva il sidro d'Inghilterra
Chi vuol gir presto sotterra:
Chi vuol gir presto alla morte,
Le bevande usi del Norte...*

إنه لتجديف من باكوس ، أن يلفظ أسماء هذه الخمر الدنسة ؛ ينبغي أن تتطهر شفثاه :

(١) نسبة إلى ماريى الشاعر الايطالى الذى أخذ عليه التكلف فى الأسلوب . [الترجمان]

*Si purifichi, s'immerga,
Si sommerga
Dentro un pecchero indorato,
Colmo in giro di quel vino
Del vitigno
Si benigno
Che flammeggia in Sansovino... (١)*

في ذاك اليوم ، أنقذت صورة من صور الشعر ، ثقيلة لكن حية مرحة ،
عذبة ، مبتكرة ، بالرغم من أنها تزعم تذكرنا بالشعر الغنائي القديم . وهمة
أخرى أسمعننا فالسترو دافليكاجا — وقد حزن على عبودية وطنه — صيحات
جميلة ملأها أنات مؤثرة :

*E t'armi, O Francia? e stringi il ferro ignudo
Contra a me, che a'tuoi colpi armi ho di vetro,
Nè a me la gloria de l'antico scetro,
Nè l'antica grandezza a me fa scudo? (٢)*

وأكثر من ذلك ! البهرج ، الاستعارة المبالغ فيها إلى حد الجنون ، الصور
المعقدة التي شوهتها المغالاة في التكلف ؛ كل القرن السادس عشر Secentismo
أراد الايطاليون أن يبعدوه عن أشعارهم . فثاروا . لا إطناب في الشعر ، بل
بساطة وطبيعية . إن العبء ثقيل على النزل : ينبغي الاستغناء عن الخدم .
ماذا أقول ؟ لا لزوم لبيت على الإطلاق ، ولا لزوم لسقوف ولا جدران :
ويعقدون اجتماعاتهم في رياض ، تظللها السماء ؛ يريدون ابتغاء أركاديا القديمة ،
أرض النعيم ، حين كان الناس يستروحون الشعر في نسائم الرياح ، وحين

(١) *Bacco in Toscana, 1685* : باكوس في توسكانيا .

ذلك الذي يقرب من شفثيه — الجعة الشاحبة الحزينة — يموت سريعا — أو قلما
يصل — إلى الشيخوخة الخرفة — وليرشف شراب التفاح الانجليزي — من يريد أن
يوارى التراب سريعا — ومن يرد أن يلاقى الموت — فعليه بخمر الشمال . . .
. . . يجب أن تنظيره شفتاه ، أن تغطسا — أن تغرقا — في كأس من ذهب — تفيض
بتلك الحمر — بذلك السكر — العذب أي عذوبة — الذي يتلأأ في سائسوفينو

(٢) *L'Italia alla Francia, 1700* الطريقة الفرنسية

إليه يا فرنسا أشهرين السلاح ؟ وفجودين السيف — ضدى ، أنا التي لا أستطيع
أن أواجه ضرباتك إلا بسلاح من زجاج ؟ — ضدى أنا التي ، لا يجد صولجاني
القديم — ولا عظمتي الحالية ، يستطيعان هاتين ؟

كان الرعاة يبعثون الألحان السماوية من مزاميرهم الريفية . وأسفاه ! إن تنفيذ مشروع في مثل هذا الحال يتقلب إلى تهريج وسخرية . إن أول ما اتجه إليه اهتمام أولئك « الأركاديين » ، أن يضعوا لأنفسهم قوانين ؛ وأن يتنكروا بأسماء رعاة تقليداً للاغريق ؛ ويسعون في جماعات عديدة تنتشر في إيطاليا كلها ، أكثر حذقة وادعاء من أركاديا الرومانية ؛ إذ يلقون في رياضهم أشعاراً لا تقل رداءة عن تلك التي أرادوا أن يتخلصوا منها ؛ هي هي بذاتها ، احتفظوا بها ولم يغيروا شيئاً منها . فأنتهى المشروع إلى إفلاس . ومن دأبنا ألا نهتم إلا بالافلاس ؛ ولو شئنا لاستطعنا أن ننظر إلى جمال المشروع ونبله . ولا زال في مقدورنا أن نجد في الحقول الانجليزية بعض السنابل ، المتخلفة عن الحصاد . صحيح أنه ليس لدى برايور لوحات عظيمة حية الألوان ؛ ومع ذلك فإنه يجيد إضفاء لون بهيج على مواطن الحال في رسومه الدقيقة . إنه يجمل « السيمفونية » الهائلة ؛ لكن لحنه رقيق ؛ وإذا كان الفن الذي لقنه إياه الاغريق واللاتين ، نتيجة لطبيعة جديدة ، فإن تلك لا تمحو طبيعته الأولى ؛ فإذا كان « أناكريون » ، و « هوراس » أستاذة المفضل ، قد هذبا من موهبته ، فإنهما مع ذلك لم يخلقاها . وهو وإن لم تكن عواطفه قوية ، فإنه يتغنى في جمال بسعادة أوقات الفراغ ، ويعذبنا في الحياة ، وخوفنا من المات ، وسروق الزمان ، وبكاء كلويه على ذبول زهوره ؛ وهو يخلو من الغضب والاحتقار والحزن الشديد ؛ ولكن من حين إلى حين تنطرق نغمة حزينة إلى أغانيه ، فينفذ حينذاك بصورة أعمق إلى شغاف القلوب . يحوب ماتيو أنهاء انجلترا القديمة مع صديقه جان ؛ فيتقدم إلى خان كان يعرفه من قديم :

*Come here, my sweet landlady, pray how d'ye do ?
Where is Cicely so cleanly, and Prudence, and Sue ?
And where is the widow that dwelt here below ?
And the hostler that sung, about eight years ago ?
And where is your sister, so mild and so dear
Whose voice to her maid like a trumpet was clear ? (١)*

(١) تعالى إلى ، يا صاحبة الفندق ، بربك كيف حالك ؟ — أين سيسيليا النظيفة ، وبرودلس وسوزي ؟ — وأين الأرملة التي كانت تقيم هنا في الطبقة الأرضية ؟ — والسائس الذي غنانا من نحو مائة أعوام ؟ — وأين أختك العذبة الغالية ؟ — التي كان نداؤها لوصيفتها واضحاً كالنفير ؟ (ماتيو برايور ، من قصيدة *Down Hall* ، عام ١٧٢٣) .

إنها لوحة الإنجليزية : الخان الريفي ، وصاحبه الجالس إلى المائدة ،
وضاحبته :

*By my throth I she replies, you grow younger, I think.
And pray, Sir, what wine does the gentleman drink ?
Why now let me die, Sir, or live upon trust,
If I know to which question to answer you first. (١)*

كل ذلك طبعى ومألوف ؛ ثم ننتقل — دون أن تتغير النغمة — إلى التأثير
الذى يتملكنا عندما نفكر فى ذكريات الماضى :

*Why, things, since I saw you, most strangely have varied,
And the hostler is hanged, and the widow is married.
And Prue left a child to the parish to nurse ;
And Cicely went off with a gentleman's purse ;
And as to my sister, so mild and dear,
She has lain in the churchyard full many a year. (٢)*

ولا يصعب علينا ، أن نبين بعض الشعر عند الآخرين ؛ سواء تراءى
شعراً لأذان من يسمعه لأول وهلة ، أو غلغله السنون حتى احتفظ بمسحة من
جمال قديم مؤثر إلى وقتنا هذا . وسج ذلك ، فتحن لا نستغنى عن أن نستعين
بالظروف المخففة ؛ وأن نتخلى عن المطلق لنقع بالنسبي ؛ وأن نقرر ، مع
كردوسى Carducci ، أنه لم يوجد زمن أقل شاعرية من الخمسين سنة الأولى
من القرن الثامن عشر ، وبذا كانت هنا بداية عهد من الاجداد ؛ وأن نعترف ،
أخيراً ، بأن أحسن الشعراء الذين سردنا أسماءهم ، ليسوا إلا شخصيات
هزيلة بجانب داتى وشاكسبير .

فلنعترف بأن هذا الانقلاب نفسه قد وقع فى معظم ميادين الأدب ، فقد

(١) تعجيب ، تسامى ، أرى أنك تصغر سناً — وبربك يا سيدى أى نبيذ يشربه
السادة ؟ — فلأمت يا سيدى أو أمش على المصدق — إن كنت أعرف أى
سؤال أجيبك عنه أولاً .

(٢) آه ، لكم تغيرت الأمور منذ رأيتمك أخيراً — فقد شق السائس وتزوجت الأرملة —
وتركت ثرو ظفلا للابن بوشية لتربيته — وهربت سيسليا بحافضة تقود أحد الوجهاء —
أباً عن أختى العذبة الغالية — فانها ترقد فى رحاب الكنيسة منذ أمد طويل .

فقد الناس معنى القيم المبتدعة ، ظانين أن التأليف هو التقليد ، هو الطاعة .
وقف النقاد على مفترق الطرق لمنع المؤلفين من الضلال ، وإعادتهم إلى
الطريق الأمين . وكما قال توماس ريمر — الذى كان له الفخر فى تبليان
أن شكسبير لم يفهم شيئا فى المأماة — فإن الشعراء قد يصبحون فى غاية
الاهمال إذا لم يشعروا بأن النقاد يقفون لهم بالمرصاد .

وما أكثر النقاد ! الأموات الذين لم يتخلوا عن أماكنهم ، أرسطو ،
هوراس ، لوجين ، الذى لم يراحتفالا مثل هذا قط . والأحياء : الأب بوهر ،
الأب راين ، والأب لى بوسيه ، العلماء الأعلام الذين يعرفون كيف يكون
التفكير السليم فى مؤلفات الفكر ، وكيف تنظم الخطب والأشعار ،
وكيف ترتب الملاحم الشعرية . وفريق من الانجليز أصحاب السلطة ، جيرار
لانجين وإدوارد بيش وليونارد ويلستد ، وجون دنس وغيرهم . وفى إيطاليا
موراتورى وكريسميني وجرافينا يدرسون جوهر الشعر والمسرحية الكاملة .
وفى ألمانيا يشرح كريستيان فريك أن الأدب الفرنسى إنما ارتفع إلى ذروة
الكمال ، لأن كل مؤلف فى باريس ، لا يظهر إلا ويتبعه النقد على الفور ،
حتى ولو كان لمؤلف مشهور . . . يا للحمية ! يا للسلطة الصارمة ! يا للتذمر
ويا للنزاع ! فلنرث للمؤلفين على ما يتعرضون له من امتحان وتأنيب —
لقد ساءروا الزمن ، وكان لهم فى ذلك متعتان : متعة الصياح فى الرد للمتكبرين ،
ومتعة الطاعة للكسالى الخاسلين .

وهرم بوالو . لقد لخص مبادئه الأدبية فى مقدمة طبعة مصنفاته عام
١٧٠١ ، ثم ودع الجمهور : « بما أن طبعة مؤلفاتى هذه قد تكون الأخيرة
التي أشاهدها ، وليس من المحتمل أن تمتد حياتى أكثر من ذلك ، إذ بلغت
الثالثة والستين من عمرى وأرهقنى الأمراض ، فرجائى أن يتقبل الجمهور
وداعى ، وأقدم له عظيم امتنانى على ما أبداه من كرم فى الاقبال على مؤلفاتى
التي لا تستحق فى الحق كل هذا الاعجاب الكريم . . . » بيد أن الجمهور
لم يكف عن الاعجاب ، والدليل أن بوالو فى نفس وداعه هذا يشكر الكونت
دى إريسييرا على ترجمته الشعرية البرتغالية لمؤلفه « فن الشعر » والتي تفضل
بارسائها إليه من لشبونة مصحوبة برسالة وأشعار بالفرنسية من تأليفه . ترى ،
أى بلد لم يقرأ فيه « فن الشعر » ، ويفسر ، ويترجم ؟ أى بلد لم يتخذ فيه

مكانة القانون ؟ إن بوالو ، ذلك الفرنسي المزهو الذى لم ير ولم يقدر شيئا خارج حدود بلاده ، لا يزال بالرغم من ذلك يمثل دور مشترع بارناس (١) ، السلطة الباقية ، بينما هى قد ضعفت فى كل مكان .

إنه لم يعد شخصا بحسب بل أصبح مؤسسة : لقد أقبل الناس على زيارته فى أوقى ، كأنما يزورون الوفير . تخيل امرأة أديبة — مسز مونتاجو ، ترحل لتلحق بزوجها سفير انجلترا فى القسطنطينية ، فتقرأ أشعاراً تركية . ترى فيمن تفكر فى ذلك الحين ؟ فى بوالو . — إنها تقول : « أرى فى هذه الأشعار كثيراً من الجال ؛ فمثلا هذا التشبيه «سلطانة لها عيون الغزال» ، يعجبني غاية الإعجاب وإن لم يبد ظريفا بالانجليزية ؛ يخيل إلى أنه يعرض صورة حية للنار التى تضطرم فى عيون حسناء فاترة . لقد لاحظ بوالو بدقته ، أننا لانستطيع أن نحكم على جمال هذا التعبير أو ذاك عند القدماء ، بناء على الفكرة التى يمثلها ، لأن هذه الكلمة أو تلك ، وقد كانت عندهم لطيفة ، ربما تبدو عندنا مبتذلة أو جارحة للأذن . . . (٢) »

لم يفكر بوالو أبدا فى أنه يمكن لمؤلف أن يستغنى عن العبقرية : لكن أخلافه خالفوه ، مفضلين الأصول الفنية على العبقرية . قالوا إنه يكفى توافر شرط واحد لنظم الشعر الجيد : وهو احترام القواعد . لقد أيد بوالو قاعدة التفريق بين الأنواع : فكم من تمييز تافه ، كم من تفريق وتقسيم ستؤدى إليه قاعدته هذه ! كانت الكلاسيكية روحا وإرادة ، بينما الكلاسيكية الكاذبة أصبحت صيغة : كل الفرق هنا .

الأخلاق : هو ذا ما سيدافع عنه الورثة المساكين ، كأنما ينشدون السلوة . فاللحمة الشعرية يجب أن تكون أخلاقية ، هدفها الإصلاح الخلقى . والشعر ينبغى أن يكون أخلاقيا ، يعلم الحقائق الدينية ، إنه علم أخلاقى ، وجزء من علم اللاهوت . « الشاعر الحق هو الذى يجمع بين الفائدة والتسلية حتى إنه يعلم حينما يسلى ، ويسلى حينما يعلم » . — « الشعر ساحر ، لكنه ساحر مسالم ، وهو هذيان يطرد الجنون » . والمسرح على الأخص ينبغى أن

(١) بارناس : جبل مخصص لاله الشعر (أبوللو) فى الأساطير اليونانية . [الترجمان]

(٢) إلى بونب من أدرنة ، إبريل ١٧١٧ .

يكون مدرسة ؛ تباً للمؤلف الهزلى إذا هزأ بالفضيلة ، وأضر الرذيلة ! لقد وجدت الملهاة فى المجلدات شكلاً مبتكراً ؛ كانت تقتبس الحكمة من النماذج الفرنسية وعلى الأخص من سوليير ؛ ولكنها أضفت عليها نكهة خاصة ، بأن مزجت بينها وتبيلتها ببعض التعابير المبتذلة والمواقف الخليعة ؛ فكانت متهتكة فاضحة ، مرحة ، لطيفة ؛ تلك هى المسرحية التى جعلها كوتنجريف وفانبرو تنتصر على مسارح لندن . إلا أن أكليركيا هو جيريمى كوليير هاجمها هجوماً عنيفاً ، ونشر فى عام ١٦٩٨ مقالا عن « تهتك المسرح الانجليزى » . شيئا من الأخلاق . إن ما يعوزنا هو الأخلاق ! على المسرح أن يبين لنا بطلان التعاطف البشرى ، وتقلبات الحظ المباحة ، والعواقب الوخيمة للقسوة والظلم ، وجنون الكبر ، وإجرام النفاق . لكن ماذا يفعل المسرح الانجليزى بدلا من ذلك ! لقد استحالَت الفضيلة إلى سخرية ، وساد التجديف والكفر والفحشاء ، ولم يتورع الناس عن الهزء برجال الدين ! يا للعار ! يا للفضيحة ! — والشئ الأغرب ، أنه بعد مناقشات عنيفة أثارها جيريمى كوليير ، أفلح الروح البوريتانى فى إصلاح الملهاة ، التى لما رأت أنها لم تعد تستطيع العيش فى الشكل الذى ترضاه ، آثرت أن تموت .

وفى نفس الحين تقريباً ، حاول الايطاليون خلق ملهاة تحترم العقل والأخلاق فى وقت واحد . فى نابولى — بصرف النظر عن روما وفلورنسة — وجد مؤلف هو نيكولو أمنتا ، تخلى عن المرح والهوس ؛ لا شخصيات خليعة ، لا ألفاظ مبتذلة ، لا غورات عاطفية ، ولا خادومات فاجرات ، ولا مكائد جنونية ؛ بل الانتظام ، بل الأخلاق .

إن تأسيس مجمع رسمى يختص بالفحص فى المسائل اللغوية ، والسهر على سلامة الذوق فى الأدب ، رغبة لم تراود ذهن دولة من الدول سوى فرنسا ، حينما كانت متحمسة للنظام والطاعة . أما الآن فان الشعوب المجاورة تحسد هذه الأكاديمية الفرنسية ، التى اتخذت مهمتها رويدا رويدا صفة مقدسة ، واكتسبت نفوذاً لم يعرفه مجلس آخر ، والتى تعد كل أفعالها — كجائزة أو احتفال أو خطبة — أحداثاً مهمة جليلة . وابتغى الانجليز ، أكثر شعوب الدنيا حرية ، أن يكون لهم أكاديمية مماثلة ، يكون من أعضائها بربر الذى يعد فى بريطانيا بمثابة لافونتين ، وبوب الذى يعد بمثابة

في قلوب معظم الكتاب : السأم ، فراغ الصبر ، والعصيان ضد النقد . فنحن نعلم أن الكتاب يرحبون بالمدح ، ولكنهم لا يتحملون أحكام الادانة . يحمل بوب على النقد فيقول : أولئك الناس الذين يعيبون ما في مؤلفاتي من نقص وقصور ، الذين يفرضون على حكمهم ورقابتهم ، أي حق لهم ؟ لقد أعلنوا ذات يوم أنهم سيكونون نقاداً ، إنها المهنة التي اختاروها : فهل يكفي هذا الاختيار ليكون أساساً لتفوقهم ؟ واعجباه ! أيلبني أن أي أحمق يضيف على نفسه مظاهر الأهمية ، ويزعج نفسه وصيا على ؟ هل يجوز أن أي شاعر فاشل مغمور يحكم على قيمة أشعاري ؟ أو أن مؤلفاً مسرحياً فاشلاً يتقدم ليعلمني كيف ينبغي أن أكتب اللهاة ؟ فليسمعوا مني بعض الحقائق بدورهم ، وليحدث مرة أن ينتقد النقد كاتب . كل شاعر ردي يقابله عشرة أحكام أرياء والعجرفة ليست شهادة بالقيمة ، وقبل أن نحكم ينبغي على الأقل أن نفهم : إن ذهننا محدوداً عاجزاً عن استيعاب وجهة نظر الكاتب ، لابد من أن يخطئ في التفسير . ما أكثر المزايا التي يحق لنا أن نتطلبها في السادة النقد — أقران أرسطارك (١) — هل اكتسبوا رأيهم السديد الأكيد بالتجربة وبالعمل ؟ هل أوتوا مرونة الذهن ، والخدم ؟ هل بلغوا من التواضع ، بحيث لا يعرفون الغيرة والحسد ؟ هل يقدرّون على غض النظر عن العيوب الهينة ، وعلى التنويه بالمواهب ؟ وعلى أن يجودوا بالمدح بخلوص نية ورضا بدلا من التقدير فيه كالبخلاء ؟ هل يجدّون دائما اللصاف ؟ وأسفاه ! إنهم عبيد القوة ، والشهرة ، والأحزاب السياسية ، والأهواء الدينية . . .

إن هذه الغضبة ، التي تنبئ عن نفس جياشة حية ، وعن طبع لا يرى أنواء أنكد من أنواء المحبرة الموهج ، لممتعة جداً . إلا أن الأعجب أن نرى كيف يتصدى بوب الآخر للآخر — الذي سرعان ما يقتنع في غير عناء — لأنه في الحق لم يحمل على النقد إلا لأنه يتنهي لم رفعة المقام . إن بوب الحكيم المنطوق يعلن مبادئه ونظرياته ، فيقول إننا يجب أن نتبع الطبيعة ، الطبيعة المعصومة ، الضوء الصافي ، الشعاع النوراني : بيد أنه يجب أن نتبع هذه

(١) أرسطارك : عالم نحوي اسكندري وناقد مشهور ، مربي أولاد بطليموس ، في القرن الثاني قبل الميلاد . مضرب المثل في شدة النقد مع الصعّة والوضوح . [الترجمان]

بوالو ، و كوجريف الذى يعد بمثابة مولير (١) ، وسويفت الذى أعلن أنه سيطيع الأكاديمية مختاراً ، وإن كان لا يحتمل أى نير (٢) . وبعد مجادلات عنيفة أخفق المشروع . لكن على الأقل ، تأسست أكاديمية برلين فى عام ١٧٠٠ ، والأكاديمية الملكية الإسبانية فى عام ١٧١٣ ، وحتى روسيا البعيدة حصلت على أكاديميتها فى عام ١٧٢٥ .

إن النقد ، الذى كان لا يقيم وزناً لجميع لطم الماضى فيما يخص الدين أو السياسة ، أصبح هنا ، على النقيض ، محافظاً . كان يتم القدماء بأنهم يعوقون تقدم أنوار المعرفة : أما هنا ، فكان يستشهد بهم كآلهة حافظة . كان يجعل من رأى الشخصى قاعدة لكل شئ : أما هنا فلا يرى السلام إلا فى مراعاة القواعد ، إذ يحول وقائع التجربة إلى إلزامية . إذا شئت أن تؤلف تراجيديا ، فيخذ أربعاً وعشرين ساعة ، ويهواً فى قصر ، وبعض الواجب ، وشيئاً من العشق ، وبعض أبطال مشاهير .

* * *

فى عام ١٧١١ ، غمرت السعادة الانجليز لرؤيتهم مؤلفاً صينياً « لفن الشعر » يولد فى أرضهم ، ديجيه أحد مشرعى « بارناس » . رجل عليل ، قميء ، عصبي ، مرهف الحس لكل نفثة ولكل فيض عاطفى ، ولكنه بالرغم من كل هذه الفوارق ، وغيرها ، خلف مجيد لبوالو . وقد كان ينتظر الكسندر بوب مؤود طويل ، مادام هممه لم يكن يتعدى الثانية والعشرين ، عندما نشر مؤلفه مقال عن النقد : *Essay on Criticism* .

يخيل إلينا أننا نجد فى هذا المؤلف الذى سرعان ما أصبح واحداً من أشهر مؤلفات العصر ، معركة نهائية . كان فى مؤلف « مقال عن النقد » رجلان ، لا يتفقان فى كل آن : بل طالما يتعارضان . أحدهما يمثل حمية طبع فردى حى ، والآخر يمثل الطاعة والنظام اللذين سينتصران . أولى هاتين الشخصيتين تطلق حميته الفنية العنان ، وتفصح عن الشعور الذى يعتمل — سرا أو جهراً —

(١) فولتير : رسائل فلسفية ، الرسالة ٢٤ . عن الأكاديمية .

(٢) سويفت : اقتراح لتصحيح وتحسين وتوطيد اللغة الانجليزية ، لندن ١٧١٢ .

الطبيعة الثابتة الشاملة ، يهذى العقل : يجدر بنا في الواقع أن نسوس «بيجاز» (١) لا أن نهمزه ، أن نكبح فورته لا أن نستحث سرعته ، ينبغي أن نخفف سرعة الفرس المجنح الأصيل . إن الفن هو الطبيعة ، لكنه الطبيعة المستكملة ، الطبيعة النظامية ، الخاضعة للعرف . فليتبج الشعراء إذن القواعد التي اقتبسها الأقدمون من الطبيعة ، وليدرسوا المبادئ النافعة التي تلقننا بها اليونان الحكيمة كيف نكبح — في الوقت المناسب — جراح الخيال ، لنرد له قوته ! لقد جرب فيرجيل يوماً أن يرتكن على عبقريته ، ولكنه أدرك للحظته أن هوميروس والطبيعة ليسا إلا شيئاً واحداً ؛ فترك مشروعه الجري ، مقتنعاً ، مذهولاً ، وبلغ به الحرص أن أخضع مؤلفه لقواعد صارمة ، كما لو أن كل فقرة من شعره قد قصتها عين أرسطو . فليقدر الشعراء إذن عظمة الماضي النبوذجيين حق قدرهم : فإن تقليدهم تقليد للطبيعة . وبالمثل ، فليتناولوا مؤلفاتهم بالصقل المرة تلو المرة ! إن الأسلوب الذي يبدو سلساً نتيجة للفن ، لا للمصادفة ؛ إنه لبدارة الرقص تكتسب سهولة الخطوة . — هكذا يعبر بوب السكلاسيكي . إنه مشبع بمؤلفات أولئك الذين يحيي فيهم أسلافه العظام ، أرسطو وهوراس وديس هاليكرناس وبترون وكتليان ، ولونجين ؛ وإرازم الذي قهر الخرافة القوطية ، وفيدا الذي يترجم عن تفوق إيطاليا في عصر ليون العاشر ، وبوالو . إنه يباهي بأولئك الأسلاف الأجماد الذين ينحني أمامهم تبجيلاً ، ثم يلتفت صوب معاصريه ، زاعماً إرشادهم وقيادتهم بدوره .

لا بأس بأن نبين بعض المؤلفات ، لتحقيق استياز النظريات ؛ وكان من اللازم أن يكون هذا أمراً يسيراً . مادامت طريقة نظم الملاحم الشعرية معروفة جيداً ، فإذا ينتظر الشعراء ؟

*Excelling that of Mantua, that of Greece,
A wond'rous, unexampled Epick Song,
Where all is just, and beautiful, and strong,
Worthy of Anna's arms, of Malbro's Fire,
Does our best Bard united strength require ...*

(١) «بيجاز» : في الأساطير اليونانية ، فرس ذو جناحين ويعد رمزاً للشعر . [المترجمان]

ملحمة شعرية ، تفوق ملاحم مانتوا (١) وملاحم الأغريق ؛ ملحمة رائعة معدومة النظير ، كل ما فيها صحيح ، قوى ، جميل ، جدير بأسلحة « آن » و « نار » « مالبورو » ، — ذلك ما تطلبه القوات المتحدة لأشعر شعرائنا . . . إن ريشارد بلاكور ، الذى يحمس مواطنيه بهذه الكلمات ، قد ضرب بنفسه مثلاً طيباً . هدف الشعر هو تثقيف الذهن وتهذيب الأخلاق ؛ والملحمة هى أسمى أنواع الشعر ، وأكثرها أخلاقية أيضاً . فالأبطال الذين تقدمهم ، يعلمون الدين ، والفضيلة ، والسيطرة على الشهوات ، والحكمة : إذن فمن الواجب لنظم الملاحم . صحيح أنه منذ هوميروس وفرجيل لم يفلح فى ذلك أحد : ولكن مرد هذا الاخفاق ليس إلى الافتقار إلى العباقرة بل إلى الجهل بالقواعد . واليوم ، لدينا خلاف أرسطو وهوراس ، أدلاء مثل راين وداسيه ولوبوسيه ، وريمر ، إذن لم نعد نجعل شيئاً مما يلزم لاتقان التأليف : فلنبداً .

وبداً : « خبرينى ، يا عروس الشعر . . . » فتوحى إليه العروس بقصائد الفروسية « الأمير آرثر » ، و « الملك آرثر » و « إليزا » و « ألفريد » ، وبالقصيدة الفلسفية « الخليفة » ؛ عشرات من الأغاني ، وآلاف مؤلفة من الأشعار . ولكن ريشارد بلاكور كان طيباً أكثر منه شاعراً ، فجر النسيان ذيوله على قصائده .

والسرحية ؟ إن عقلاً ممتازاً ، فقيهاً مشهوراً ، هو جان فانسنزو جرافينا ، سوف يقدم لنا النموذج . إنه يدرس البحوث ، وفنون الشعر ؛ إنه لا يقنع بالكلاسيكية الفرنسية ، ولا بمؤلفات النهضة ، بل يصل إلى التراجيديات الاغريقية ، التراجيديات الصحيحة ، الأصلية : وإنه ليملك ناصيتها ، ولن تهرب من قبضته . وفى مقدمة المسرحيات الخمس التى ينشرها فى نابولى فى عام ١٧١٢ ، يعطى جرافينا الكلمة للتراجيديات شخصياً فتصبح : هأنذى ! أخيراً أظهر فى صورتى الأولى ، بعد قرون طوال من الجهل ! أخيراً وصلت ، بارشاد فقيه فى القانون ، خطيب ، فيلسوف ، يحرسنى « العقل الشاعرى » الذى تنقاد له القواعد ، وتوجهنى شعلة النقد . . . إن هذه العروس تحسن الكلام : لكن هذا لم يمنع مسرحيات جرافينا من أن تكون مردولة .

(١) مانتوا : بلد فيرجيل فى إيطاليا . [الترجمان]

بدأت في كل أنحاء أوروبا مباراة عامة في التراجيديا ؛ وأخذت الشعوب المختلفة تسعى للحصول على الجائزة وإكليل الغار ؛ ورجال المسرح يسعون جاهدين من كل صوب . فكريون Crébillon (١) ينافس راسين ؛ ولكنه يسرف في الشخصيات البرونزية والسوداء . لقد أخذ الأجنبي ينافس فرنسا ؛ آه ، لو استطاع أن يكشفها ! إن كريون على الأقل لم يقتصد في الوقت ولا في العناء ولا في عدد المسرحيات ؛ بل بذل كل ما في وسعه طوال سنين . إنه يوم يستحق الذكر ، يوم قدم المركيز « سيبوني مافي » لأول مرة ، في فيرونا في ١٢ يونيو ١٧١٣ ، « ميروب » ، تلك المسرحية التي كانت تبدو أكثر كلاسيكية من كل المسرحيات الكلاسيكية الفرنسية ، بالرغم مما كانت عليه من هزال . أي تصنيف ! أولا في إقطاعيته ، ثم في كل أنحاء إيطاليا وأى نصر ! أى إعجاب بتلك المشاعر الدفافة ، وتلك المقطوعات المفخمة ، وتلك الأشعار الموزونة بطريقة آلية ! ولقد أثارت هذه المسرحية ضجة كبرى في أنحاء العالم ، وقد ترجمت ، ونوقشت واستدحت ؛ ثم وصلت فيما بعد إلى جيته عن طريق فولتير وليسنج . والانجليز أيضاً أدركوا جيداً أنه لا بد لهم من أن يصلحوا مسرحهم ، وأن يوقفوا تجاوز شكسبير غير اللائق ، وأن يمنعوا « التراجيديا - الكوميديّة » من أن تزعم التشبه بالتراجيديا نفسها ، وأن يحذفوا من المسرح أثر المآرك ، والجلبة ، والمواكب ، والأبواق والطبول ، والاعتقالات ، التي لا يمكن أن نحتمل مشهدها ، إذا أوتينا شيئاً من سلامة الذوق ؛ والخلاصة أنهم كانوا يصبون إلى التراجيديا المنتظمة الجميلة ، المرسومة بدراية ، التي لا تبالغ في الرعب أو الشفقة ، وتبدو متواضعة في الفروسية ، وسامية دون مغالاة . كانوا يبذلون كل ما في وسعهم . ففري ناتانيل لي يؤلف نيرون ، سوفونيزب ، جلوريانا ، والملكات المتنافسات ، وميتريدات ، وأوديب ، وتيودوز ، بروتس وغيرها ، حيث يجتهد عبقريته المفطورة على الارتباك ألا تدخل واقعتين في مسرحية واحدة ، وأن تحذف منها الحشو غير النافع ، وأن ترضى قاعدة واحدة الزمن المتألمة ، وأن تحترم

(١) كريون : شاعر مسرحي فرنسي : صاحب تراجيديا « راداميس وزنوبيا » (١٦٧٤ - ١٧٦٢) . [الترجمان]

العرف ، وألا تتكلم إلا في لهجة نبيلة مفتخمة . ولقد وفق في بعض الأحيان ، ولم يكن بعيداً عن هذا الانتظام الذي يرى أنه الجمال الأسمى . وكانت مسرحية « البندقية المنقذة » *La Venise Sauvée* التي ألفها أوتواي Otway بحاجها جيلاً ، يثبت للأجانب أن المسرح الإنجليزي قادر على أن يكون صحيحاً ومؤثراً في نفس الوقت . ولكن سنة ١٧١٣ تسجل أخيراً الانتصار . يومئذ ظهرت « كاتون » مسرحية أديسون ، الجديرة بأن تترجم على الفور إلى الفرنسية : إن لندن التي كان لديها قرين لبوالو أصبح لديها قرين لراسين ، وبدأت أوروبا تمجد هذه المسرحية الرائعة . إنها نتيجة نصف قرن من الجهد أو ما يقرب من ذلك . ولم يكن في مقدور الإنجليزي أن يهذبوا ما لم يكن مهذباً من عبقرتهم في مدة أقل من هذه ، وأن ينتجوا هذه التحفة الرائعة .

وتخلف الألمان : ولكنهم مع ذلك سيصلون ، فلنتذرع بالصبر . إن جوتشد Gottsched يتألم من تخطب المسرح الألماني ؛ فيعكف على العمل ، يقرأ « فن الشعر » لأرسطو وشرحه ، ومسرحيات القدماء ، والشعراء الفرنسيين ، حتى بما تتضمنه من مقدمات ؛ فيستيقظ ، مدركاً أن للفن المسرحي قواعد تبلغ من المنطقية ، والقطعية ، وتقضي بها الضرورة الحتمية ، حتى إن ألمانيا قد تظل في حالة الهمجية طالما ترفض مراعاتها . وعلى ذلك يسعى جوتشد بكل وسيلة ليوقف على أسرار الفن ، وأخيراً يقدّم ، منتصراً ، مسرحيته « كاتون » على فراش الموت « في عام ١٧٣٢ . ويقول إنه قد كان يكتفى بترجمة مسرحية أديسون « كاتون » ، لولا أنه وجدها غير كاملة الانتظام ، فيها شيء من الاستطراد ؛ فقد تضمنت بعض الحشو والزخرف ، مما ينقل بناءها بلا مناسبة وشكراً للسماء ، وشكراً للمؤلف ، فان كل مناظر « كاتون » الألمانية تحدث في قصر واحد وفي بهو واحد ، ومدة المسرحية « تبتهى » ظهراً وتنتهي مع غروب الشمس . »

وإنه لشيء غريب حقاً ، أن رجلاً مثل فولتير — عندما يكتب مسرحيات أو ينظم قصائد — يخرج عن عبقريته الخاصة ، دون أن يستشعر معاصره ذلك ، ودون أن يستشعره هو نفسه ؛ إذ يريد أن يقلد كورنيل وراسين أو بوالو . إننا لنشعر بشيء من الحزن إذ نرى منذ ذلك العهد — ودون أن نتنظر أن تتقوى « الكلاسيكية الكاذبة » خلال فترة أطول مما رأت أي مدرسة حديثة —

الفصل الثاني

بهجة الحياة

سادست هذه الحقول من الأزهار الاصطناعية لا أمل فيها ولا حتى سراب ،
فلنبحث في غيرها . . .

إن السيد سبكتاتور يوصي قراءه بالتزام الحكمة والاعتدال : ولكنه ،
يتوقف في أثناء إرشاداته ، ليشيد بمتع الخيال ، وليؤكد أن المتعة التي يبيها
لنا البصر ، لا تقل عن التي يبيها الذكاء ، بل ليبدى إعجابه بمفارقات
شكسبير النبيلة : يروق الفضلاء أن يقتربوا من الينايع Juvat integros
accedere fontes . ويوصي علماء إيطاليا باطاعة القواعد : ولكنهم في
الوقت نفسه يحتفظون بمزايا وحقوق بعض الهوى المبدع : حتى رأى الناس
فيهم — بشئ من الساحة لا يخلو من الاسراف — أسلاف الرومانتيكيين .
يا للتناقض الظريف ! دعوا الفرنسيين يعملوا ، إنهم في سبيل إخضاع كل شئ
للفرجار : اللهم إلا إذا أتت الجنيات تهوش ، في لعبها ، رسومهم الهندسية .
كانت نهاية القرن رزينة ، حزينة ، لتأثرها بالشعور الذي يسود عند اضمحلال
العهود العظيمة ؛ لقد خلفت المؤلفات الرائعة كتب النقد ، وعلى حين غرة
تحيل ماذا يطلب المبدع ؟ وأي كتب تعرض في واجهات المكتبات ؟ حكايات
الجن .

إن معاصري لويس الرابع عشر السن ، ومدام دي مانتنون العاقلة
المتدنية ، يستلطفون الحكايات التي تقصها « أمنا الاويزة » للأطفال . نستطيع
أن نقبل أن ديكارت لم يلبذ نهائيا ، وأن قرعة مذهب تستحيل إلى عربة
مذهبة ، والعظايات (السحالي) إلى خدم ذوي أردية مزخرفة ، والفئران ذوات
الشوارب إلى سواق ذوي شوارب ؛ وبذا نكون قد احتفظنا إلى حد ما بالنسب
المعقولة التي يعزها الشعب الفرنسي . ولكن أي مجافاة للمنطق ! إن قصورا

هذه الكتلة المهوشة من القصص الخالية من الروح ، والمسرحيات الخالية من الحقيقة والأشعار الخالية من الشعر . قوة بلا روح . . . هذا هو ثمن الجائيل التي قدسها المذهب الكلاسيكي للعالم . لأن الكلاسيكيين الفرنسيين وصلوا إلى درجة سامية من الكمال ، الذي فتن عقول خلفائهم ، حتى إنهم ظنوا أنه لا وسيلة إلا أن يقلدوهم ؛ ولأن كتاب الصف الثاني — وقد يسارعون إلى السهل — يحبون أن يكرروا مآلتي النجاح مرة ؛ ولأن الروح الهندسي قد قضى على حب الأشكال المرنة والألوان الحية ؛ ولأن العقل المسيطر لم يعد يحتل « أزهار » البلاغة إذا لم تكن سوى أزهاراً ؛ لقد ذوت القوات الغنائية ؛ ووقعت العبقرية الشاعرية في سبات عميق .

* * *

أولئك الذين قاموا بالرحلات الحقيقية لم يأتوا لنا بكل ماخبه اليوم ؛
إنهم لم ينقلوا « إنيتهم » إلى الجهات النائية ليعرفوا ماذا يصيبها ، وليس شعروا
بأثر هبوب الرياح المجهولة عليها . ومع ذلك فنحن لم نقل كل شيء إذا لم نتحدث
إلا عن أفكارهم . هل كانوا عقولا خالصة ؟ ألم تبدأ عيونهم تتفتح أمام
بهجة الدنيا ؟ ألم يقدموا لقرن قد تشبع بالذكاء ، صورا تغريه ؟

لقد ظهرت في أوروبا نفسها ، أراض عجيبة ، كما لو كانت جزرا جديدة
في وسط محيط مألوف . تلك هي لابلاندة التي كانت تتبدى رويداً رويداً من
خلال الظلام الكثيف . يقول الرحالة فرانسو برنييه إن اللابلانديين قوم
غرباء ، فطس الأنوف ، « قصيرو القامة ، أقوياء السيقان ، عريضو الأكتاف ،
قصيرو العنق ، طوال الوجوه بشعوا الخلقة كالدبية ، يشربون زيت السمك
في جنون . . . » بلاد عجيبة ، حيث لا تغرب الشمس صيفا ولا تشرق شتاء ،
حيث تحل الرنة محل الحصان ، حيث يتزلق الناس على ألواح مشدودة إلى
الأقدام ، حيث يلتاب السحرة رعب شديد لقاء « نعم » أو « لا » . إنها تبلغ
من الغرابة بحيث ينقل عنها السباح « وصفاً لدنيا جديدة أكثر منه رواية عن
شطر من قارتنا . . . » .

وما أغرب ما لم يزل يرد من ولايات المغرب من روايات ، ومغامرات بحرية ،
وحوادث أسر ، وهروب ونجاة ، وفرقة أحباب وملاقاة ، وشهداء وعصاة ،
وباشوات وانكشارية ، وغادات يذرفن الدموع ، أسيرات في القصور ، وأجانب
يشفقون على دموعهن ، وحراس يراقبون سجناء ينحنون على المجاذيف ، ومبعوثين
يحضرون معهم بكل عناء ، فديات ضخمة بالعملة الأسبانية أو الفرنسية . تلك
الروايات التي لم يكف الناس عن تكرارها وتوشيتها ، كانت تحظى دائماً
بالعجاب . خواتم الكوميديات ، مغامرات قصص الحب ، ووقائع حقيقية
أكثر روائية من الروايات .

وقد ورد من أورشليم ، بيت المقدس ، مرة على الأقل ، أنين شاعري أليم .
أيا أورشليم ! أيتها المدينة التعسة ! يا مدينة القبور ! إن الهياكل العظمية ،

فاخرة تنكشف فجأة ، قصوراً لا ترى فيها إلا الذهب والياقوت ، ويغطي أبوابها العقيق ، وعليك لكي تلجها أن تشد رجل جدى سعلقة في سلسلة من الناس . الحيوانات تتكلم ؛ فالوعلة التي ترعى في الغابة ، والهرة التي تأوى إلى ركنها ، هن نساء مسحورات ؛ والطيور الزرق أمراء فانتون . لا نرى إلا أعاجيب ، وزهوراً ، ومجوهرات ، وزينة خارقة للعادة ؛ قطعة من قماش طولها . . . ٤ متر تطوى في حبة صغيرة من الذرة البيضاء ، وإذا بسطت تنفذ من سم خياط ؛ عليها رسم كل حيوان الأرض والبحر والسماء ، مع القمر والشمس والنجوم . والناس يمتطون جياداً من خشب ، تعدو مطلقاً العنان ، وتقفز أحسن مما تقفز خيول الأكاديمية ، ويتجولون في مركبة يشدها خروف سمين خبير بكل الطرق ، أو في زحافة صغيرة مذهبة ، يجرها أيلان في سرعة إعجازية ، أو في كرسي طائر تجره ضفادع مجنحة ، أو في عجلات نارية تقودها التنانين في الجوزاء — ولم نعد نتعرف قوانين الدنيا التي تجد بعض القوى السحرية متعة في قلبها ، فالأجسام تفقد أوزانها ، والأحلام تتحقق ، والفضيلة تنال ثوابها ، والرذيلة تلقى عقابها . وإذا نحن تخيلنا عن هذه الحكايات العجيبة ، نجد الحياة من السكاية والفتور ، بحيث يصبح العيش عناء .

وكانت النساء سباقات إلى جمع هذه الحكايات ، الصادرة من أغوار الزمان والتي توغل في قدمها حتى لتتعد معرفة أصلها ؛ هذه الاختلاجات للنفس البدائية ، التي لم تر في الخليقة كلها ، في الريح وفي الليل ، في الريح وفي الشتاء ، إلا سحراً في سحر . نساء هن حارسات الخيال ، لأنهن أقوى غريزة ، وأكثر حساسية لماضي البشر . ثم أتى شارل بيرو ، ناظر الأملاك الأميرية السابق ، الذي تناول بعض أجنحة الفراش وأولاد العذراء وأشعة القمر ، وبنى بها حكاياته عن الجن ، تلك التحف الرقيقة الخالدة . كانت الحسناء تغفو في الغابة ، وتوقفت كل حركة ، حتى الأحلام ؛ وكفت العفاريات عن طوها ، والنزوات عن عبثها ، وخيم الحزن الكئيب على فرساي وعلى المدينة وعلى البلاط ؛ ثم ضربة عصا ، وإذا بكل شيء يفيق ، فيهرول الطهارة ، ويتواثب الخدم ، وتسهل الخيول ، وتتناجى طيور الغاية على الغصون ، فتستيقظ الأميرة ، ثم تبتسم وتعاتب الأمير على تأخره في الحضور ، وتخبّره أنها انتظرت طويلاً .

والعظام المنفصلة ، العظام المحطمة التي تراها في المقابر توحى بأفكار منجعة ،
تبدت في « تأملات » :

*Is this, alas! our boasted mortal State?
Is it fort this, we covet to be great?
What Happiness from envied Grandeur springs,
When these poor Reliques once were mighty kings?
O frail uncertainty of human Power,
While Graves can Majesty itself devour!* (١)

إن الذي يئن هذا الآنين ، ليس يونج في « لياليه » ، وليس هيرفي
في « مقابره » ، بل هو آرون هل الرومانتيكي ، آرون هل ، السائح في الأرض
المقدسة .

لو أن لويس الرابع عشر قرأ الرسائل التي كان يرسلها الأب بريمار
من كائنون إلى الأب لاشيز ، لخالجه الريب في وجود أسس أخرب مما كان
مصوراً في لوحات الهولانديين . كائنون ؛ أي بلاد غريب ! تخيل الأزقة
الضيقة ، التي تعج بشعب بأسفله : ترى جمالين حفاة الأقدام ، يغطون رؤوسهم
بقبعة من القش ، تقيهم المطر والشمس معاً ؛ ومقاعد غريبة بدلا من العربة ،
والأب بريمار نفسه يتنزه في مقعد ضخم مذهب ، يحملته ستة رجال أو ثمانية
على أكتافهم ؛ وحرساً محارباً ، لأن سونج — تو ، أعني حاكم ولايتين ، لا يخرج
أبدأ إلا وتراقبه حاشية من مائة شخص على الأقل . . . « يخيل إلى أن كل
ماقلته لك هنا ، يعطيك فكرة عن مدينة حديثة ، لا تمت بصلة إلى باريس .
وحتى لو نظرنا إلى البيوت وحدها ، فأى أثر تترك فيها شوارع بأسفلها لا ترى
فيها أي نافذة ، بل كلها حوائيت ، معظمها فقير ، مدخلها سياج بسيط من
القصب بدلا من الباب ؟ . . . (٢) » أضف إلى ذلك المعابد pagodes التي

(١) أهذه إذن ، وآسفاه ، حالتنا الغاية التي نباهي بها ؟ — أمن أجل ذلك نبتغي
المعالي ؟ — أي سعادة إذن في المعالي المشتهاة — بينما هذه الاشلاء النعسة كانت
يوماً ملوكاً عظماء ؟ — يا للقدرة البشرية الضعيفة التي لا أمان فيها — ما دام القبر
قادراً على التهام العظمة نفسها !

(٢) رسالة من الأب دي بريمار إلى الأب لاشيز . في كائنون ١٧ فبراير ١٦٩٩ .
(رسائل غريبة مرسلة من البعثات الأجنبية ، الجزء الأول ، ١٧٠٣) .

يقوم على خدمتها رهبان بوذا ، وبوابات الشوارع التي تغلق في آخر النهار ، وعلى النهر مدينة بأسكلها عائمة ، وقوارب تقطن كل واحد منها أسرة ، ومزارع الأرز في الريف . . .

ومن بلاد الهند الغربية ، من « الجزر » ، وصلت صورة الغامرة ذاتها ، صورة أخطر المغامرين على الأرض أو المياه . كانت قبادتهم العامة في جزيرة « السلحفاة » على مقربة من « سان دمنجو » : عصابة من الأشرار desperados من كل بلد ومن كل جنس ، يعيشون في ظل قانون لشرف يخصهم وحدهم ، شرف ينفردون به دون بقية البشر . إنهم القراصنة : طائفة اليوكاينيه ، Boucaniers وطائفة الفليبوستيه Flibustiers . الأولون يصيدون الثيران من أجل جلودها ، والآخرين البرية من أجل لحومها . ويتعقبون طريقتهم وقد حملوا البنادق الطويلة المصنوعة خصيصاً لهم في ديب أو نانت ، تتبعهم كلاب الصيد ، ويساعدهم الخدم الذين يتعهدون بالخدمة لمدة ثلاث سنوات ، يصبحون بعدها رفاقاً لهم إذا توافرت فيهم القوة والشجاعة : فإذا قتلوا حيواناً ، استخراج الزعيم العظام الأربعة الكبيرة ، وكسرها ثم امتص نخاعها الدافئ : ذلك هو إفطاره . وإنهم من المهارة في التصوير حتى إنهم ، على سبيل التسلية ، يقطعون عتق البرقالة دون أن تمس القذيفة الفاكهة ، وبعضهم من الخفة بحيث يلحقون الثور في عدوه ويقطعون فخذه . في خلقهم الجفوة والقسوة ، الشراسة ، والوحشية ، وهم على استعداد دائم لاراقة الدماء ، ولكنهم شجعان بين الشجعان ، بهم حساسية عجيبة للصدقة . .

أما الطائفة الثانية (الفليبوستيه) فهم صيادو البحار . إنهم يلقون بأنفسهم على أمواج المحيط ، يطاردون السفن الكبيرة ، وعلى الأخص الإسبانية ، التي تمر مشحونة بذهب بلاد الهند ، ويهجمون ، ويغتالون البحارة ، فتصبح السفينة لهم ، ومن عراك إلى عراك ، ومن نصر إلى نصر ، يجمعون الغنائم : إلى أن يرسوا في ميناء ذات يوم حيث ينفقون ما لهم في جنون ، مثل أولئك الذين أبروا ، عند وصولهم إلى بوردو ، بعد حصولهم على غنائم هائلة ، يحملهم على مقاعد ، تحف بهم المشاعل ، في وضح النهار .

وأولئك القراصنة بما أوتوا من شجاعة ووحشية ، يصلون إلى ذروة الفروسية . منهم من يدعى اسكندر الملقب بالذراع الحديدية القوة : نزعته ، « الذي سجل

اسمه بين المغامرين بقدر ما سجل الاسكندر القديم اسمه بين الفاتحين « ؛ ومنهم بطرس الأكبر ، من أهل ديب ؛ وروك ، الملقب بالبرازيلي من أهل جروننج ؛ ومورجان الغالي ؛ والريان مونتويان ، الذى جال عشرين عاما حول شواطئ إسبانيا الجديدة وقرطاجنة والمكسيك وفلوريدا ويورك الجديدة وجزر الكنار والرأس الأخضر . ورابط القرصان « لولونوا » ، من سكان يواتو ، بسفينته أمام كوبا ، على رأس واحد وعشرين رجلا ؛ واستولى على السفينة التى كلفت بمطاردته ، وعندئذ علم أن الحاكم الاسبانى قد أعد على ظهر هذه السفينة جلاداً خصيصاً لشنق القراصنة . « وعصف بلولونوا الغضب عندما سمع بكلمتى الجلاد والشنق ، وعندئذ أمر الاسبان من خلال كوة سطح السفينة بالصعود فرادى ؛ حتى إذا صعدوا أطاح بهم بسيفه . ولقد أتم هذه المجزرة وحده حتى آخر إسبانى . « ولقد استولى لولونوا على مكارايبو وجبل طارق فى ولاية فنزويلا . « ولما جمع كل شئ » ، وجد أنه بتعداد الحلى ، والنقود ، بحسبان الجنيه عشرة « أيكوسات » ، كان لديه مائتان وستون ألف إيكوس ، بخلاف الغنائم الأخرى التى كانت تساوى مائة ألف على الأقل ؛ غير ما سبب من تلف يفوق المليون إيكوس ، من كنائس مخربة ، وأثاثات مدمرة ، وسفن محرقة ، منها واحدة مشحونة بالطباق ، استولى عليها ، ولا تقل قيمتها عن مائة ألف جنيه . وكانت نهاية لولونوا مشئومة : « كان من سوء حظه أن وقع فى يد الوحوش الذين يسميهم الاسبان الهنود الشجعان Indios bravos ، قطعوه إربا إربا وشووه على النار وأكلوه (١) . »

وكانت تصل من الشرق أروع الحكايات ؛ ذلك « أننا لعلم أن الشرقيين يفوقون كل الشعوب الأخرى فى ناحية الأعاجيب » . نشر أنطون جالاند من عام ١٧٠٤ إلى ١٧١١ ترجمته لألف ليلة وليلة . لما بدأت شهر زاد تحكى رواياتها الليلية ، وتبدى ، بلاكل ، موارد خيالها التى لا تغيض ، وقد تغذى بأحلام بلاد العرب وسوريا والشرق الأدنى العريض ؛ ولما أخذت تصف أخلاق الشرقيين وعاداتهم ، ومراسم دينهم ، وتقاليدهم البيتية ، تلك الحياة

(١) أ.و. أوكسميلين ، القرصان فى أمريكا ، امستردام ١٦٧٨ . ترجمة فرنسية ١٦٨٣ .

A. O. Oexmelin, *De Americansche Zee-Rovers*, Amsterdam, 1678.

الساطعة المتعددة الألوان ؛ ولا بينت كيف يمكن اجتذاب الناس واقتنائهم ، لا بالاستدلال المنطقي ، بل بنضرة الألوان وسحر الأقاصيص : حينئذ تحرق أوروا كلها للاستماع إليها ، حينئذ احتلت السلطانات والوزراء ، والدراويش ، والأطباء اليونانيون ، والرقبي السود - مكان الجنية « كارايوس » والجنية « أورورا » ؛ حينئذ احتلت فنون العارة الرقيقة الهوائية ، والنافورات ، وأحواض الامتنحام التي تحرسها أسود من ذهب مصبوب ، والأهباء الواسعة المزينة بالخرائر وأقمشة مكة - مكان القصور حيث كان « الوحش » ينتظر استيقاظ « الحسناء » للعشق (١) ؛ حينئذ خلفت بدعة ، بدعة أخرى : ولكن الأمر الذي لم يتغير هو ما يتطلبه اللسان ، الذي يريد قصصاً تلو قصص وأحلاماً تلو أحلام ، إلى الأبد . . .

صور . . . إن السباح يزينون رواياتهم بالرسوم والنقوش ، معاهد الصين ، والأفاعي أو قن الجبال المستديرة أو كهنة ميام « الطالاهوان » ، والنباتات العجيبة التي تلبت في حدائق مالابار . ونقش الأب بوفيه لوحات تبين للفرنسيين ، الهندوشين ، ثياب موظفي الصين ؛ وأوصى السيد دي فريول وزير البلاط الفرنسي لدى السلطان الأعظم ، على مجموعة من مائة طابع ، ليبين لسكان باريس ثياب الشرق الفاخرة . ويقدم البعض للقاري منظر ولوحات ، مستغلين تلك النماذج الأجنبية : همجي يقدم مشعلا لسيدته في فراشها ؛ كشافون يدخلون هرما مصريا حيث تلقى مشاعلهم أنواراً غريبة على المدافن التي تطاول الدهر في القدم . كثيرا ما تبدو تلك الرسوم مليئة بالفتنة ، تلك الرسوم التي ترد من القصى البعيد ، من الجهول ؛ وكأنما تعيد جذتها للفنانين الحيوية التي فقدوها من كثرة تقليدهم للنماذج القديمة . وأحيانا كان السائح نفسه ينقلب إلى رسام ، لعلمه بأنه سيكون أقوى تأثيراً على الحقول ، بتمثيل الأشكال المباشرة ، مما إذا التجأ إلى الكلمات والجمل ؛ إن كورنيليوس فان برون يقف أمام نماذجه ، واعيا ، جادا كأنه يقوم بواجب مقدس : إنه مبعوث الحقيقة .

ولكن هل يتعلق الأمر بالكتب لحسب ؟ إن الزوار مختلفي الألوان ،

(١) الحسناء والوحش : قصة كتبها مدام لوبرانس دي بومو . اضطر تاجر أن يسلم إحدى بناته لوحش مخيف . لكنه أحب الفتاة التي أحبه بدورها لطيفة قلبه . وجعله هذا الحب يستعيد أصله النبل ، كأمير ، ويتزوجان . [الترجمان]

القادمين من الجزر ، ومن بنجكوك ، ومن بكين يعمررون الأفق المألوف . وأقمشة الفلاندر الزركشة تتخذ أرجاء العمورة الأربعة موضوعا لها ؛ والصينيون الذين مثلهم الناس في الأوبرا وفي مسارح الأسواق من قبل ، قد سجلت رسومهم الآن على السجف والجدران . والأواني الصينية وأطلبتها الزاهية ، لا تتأخر في وصولها عن أفكار كونفوشيوس .

سبينوزا ، مالبرانش ، ليبنتز : ولكن أيضاً سكندر ذو الذراع الحديدية وشهر زاد . النظريات الميتافيزيقية الكبرى ، المستندة على العقل ؛ ولكن أيضاً الخيال الذي يتسكع في قصص الجن والسحر ، والعين التي تحلم في وجل وهي تنظر إلى وحيد القرن وجاموس البحر . كل هذا الجهد العظيم لتفسير الدنيا ، في الأعماق ؛ وعلى السطح تلك اللغات والألعاب .

أما « الطبيعة العلة » ، و « الرؤية عن طريق الله » (١) ، فإن طائفة كبيرة من المرحين الأفاقيين السكاري النشالين تهتم بها اهتمام السمكة بالتفاحة ؛ بل قل إن « الاتساق المقدر » (٢) الوحيد الذي يهم أولئك الأشرار هو الاتساق الذي يشعرون به بين حلقهم والنيبذ الجيد . إنهم يواصلون طريقهم دون أن يتساءلوا من أين يأتون ودون أن يعرفوا إلى أين ينتهى بهم الطريق ؛ فما جدوى ذلك ؟ المهم هو الحياة ، فكلب حي خير من فيلسوف ميت . الواقع الملموس ؛ ذلك هو ميدانهم . وهم يجولون فيه بكل مرح ، مصفرين ، مغنين ، مفرطين في الطعام والشراب ، منتفعين من الحمقى والبلهاء ، سعداء بالحياة ؛ لا يبهون بالموت ولا بالآخرة .

لا بد من أن طراز الصعلوك ، الفاجر ، النشال ، يتضمن في ذاته شيئا من الحقيقة السيكلوجية ، أو قيمة رمزية ، أو آية من القوة المسلية ، مادام

(١) الطبيعة العلة Nature Naturente : في فلسفة امبينوزا يطلق هذا التعبير على الطبيعة التي تعد علة لظواهرها . الرؤية عن طريق الله Vision en Dieu : نظرية مالبرانش الشهيرة وقد سبق الكلام عنها في فصل « العقلين » القسم الثاني . [المترجمان]
(٢) الاتساق المقدر : l'Harmonie préétablie : نظرية فلسفية لليبنتز مستكلم عنها في فصل « ميتافيزيقا الجوهر » من القسم الرابع . [المترجمان]

لا يكف عن افتتان الأجيال وإن اتخذ صوراً مختلفة . إليه « بيكارو » (١) الخالد ! إن أبناء وأحفاد « جوزمان دالفاراش » (٢) و « لازاريلو دي توريس » لزالوا يذرعون الدنيا ، كثفا إلى كثف ، مع نسل « بانورج » (٣) ابن عمهم الانجليزى . لكن جماعتهم التى لا تكل قد ازدادت بامدادات جديدة . فى لندن يترك ندوارد Nedward حانته ، وقد كان جالسا قبل ذلك مع لقيف من أخصائه ، وأمامه أورتان مشويتان ، ورأس عجل ، وقطعة ضخمة من جبن تشستر : كل هذا قد سقى بعدد كبير من كؤوس الخبث ، كبداية ، ثم من كؤوس « البورتو » فى النهاية . وعند خروجه من الحانة ، يصادف فى طريقه لوك ، صاسويل كلارك ، بويل ، أو نيوتون ، ثم يتجول خلال الشوارع والميادين ، ويلج حانات أخرى ، ومنازل وكنائس ومصارف ومتاحف ، وكل مكان يمكن للمرء أن يقابل فيه نماذج ظريفة لهذا الجنس الغريب ، الذى يدعى البشرية . حينئذ أخذ يصفهم فى لهجة قاسية ، وصور أسرة وأسلوب ممتع : يبدو كأنه لا يفرغ ، يفيض بالدعابة والسخرية ، ويجعل من كل فصل من كتابه « جاسوس لندن » *Espion de Londres* ملهاة واقعية : واقعية ومرحة ، تلك هى الآلة التى كان يأتى بها ويحدد كل يوم . وكان على مقربة منه قوم براون البوهيمى بين البوهيميين ، الساخرين الساخرين ، المستعد دائما لأن يؤجر قلمه ، وأن ينفق ما كسبه بفضله ، يراقب من جهته هوس المدينة الكبيرة . وبعد ؟ هل الحياة إلا التسلية ؟ البعض يتسلى بالطموح ، والبعض يتسلى بالمنفعة ، والآخر بتلك العاطفة السخيفة ، الحب . الصغار يتسلون بالمتع الصغيرة ، والعظام يتسلون باكتساب الجدد : وأنا أتسلى بالتفكير فى أن كل هذا لا شئ ، لا شئ إلا تسلية . . .

هكذا تكلم هذا العالم الأخلاقى الغريب ، الذى مات فى الواحدة والأربعين من عمره ، بعد أن شمل وأحب ، واستدان ، وتعدى رقاده فى السجن رصيده .

(١) شخصية مألوقة فى القصة الإسبانية تدل على الأشقياء . . . [الترجمان]

(٢) شخصية من رواية إسبانية فى القرن السادس عشر . [الترجمان]

(٣) شخصية معروفة من رواية « بانساجرويل » *Pantagruel* للكاتب الفرنسى رابليه

Rabelais . [الترجمان]

وفي تلك الأثناء كان « الشيطان الأعرج » (١) يتسلى بين باريس ومادريد بنفس الطريقة : ولكنه كان يؤثر أن يرفع مقف المنازل - بدلا من أن يلجها من الأبواب - ليكتشف أناساً يعادون الميتافيزيقا ، والبطولة ، وينعمسون في غمار المادة ولا يعتقدون أن في ذلك ضرراً لهم أو سوءاً ، أو على الأصح لا يفكرون في شيء : إنهم قانعون بالوجود . « صورة لما تتكلفه المخلوقات التسعة الفانية من عناية وحركة ومشقة ، لتلا - على أفضل صورة في مقدورها - تلك الفترة القصيرة بين حياتها وموتها . » (٢) لا أفضل ولا أكثر ؛ ولا أى سؤال فيها يتعلق بالحقائق الساسية ، بل حتى فيما يبدو ، لا قلق على الإطلاق ، ولا أى حب استطلاع . الحقيقة الواقعية هنا ، هي قبح النفوس والأجساد ؛ يكفي أن تزيل قليلاً قشور المظاهر لتجدها ، ولا تجد سواها . « إنى أرى في المنزل المجاور لوحتين ممتعتين ، إحداهما لغانية عبثت الأيام بشبابها ، تخلع قبل النوم شعرها ، وحاجبيها وأسنانها وتتركها على منضدة لزينة ، والأخرى لشيخ متصاب في الستين من عمره ، عائد من موعد غرام . وقد خلع عينه وشاربه الصناعى ، مع شعره المستعار الذى كان يخفى رأساً أصلح . وهو ينتظر أن يخلع له خادمه ذراعه وساقه الخشبيتين ، لكي يذهب إلى فراشه مع ما تبقى . » إذن ، هل الحال لا وجود له ؟ ألا رجاء لنا في أن نجد ؟ يقول زامبولو : « إذا صدقت عيني ، أرى في هذا المنزل فتاة رائعة القوام ، تستحق التصوير - ويرد الأعرج : « حسنا ، إن هذه الفتاة الجميلة التى تفتنك هى الأخت الكبيرة لذلك الشيخ المتصابى الذى يوشك أن ينام . يمكن القول بأنها زويلة هذه الغالية العجوز التى تقيم معها . إن قواسمها الذى يحظى بأعجابك لآلة استنفدت كل الفن الميكانيكى . إن عنقها وفخذها اصطناعيان . . . ومع ذلك فإن تصابيها أوقع عاشقين شابين في منافسة من أجل مفاتيحها ، حتى لشب بينهما عراك من أجلها . يا لجنونهما ! يخيّل إلى أنى أرى كليين يقتتلان من أجل عظمة . » إن كتاب « الشيطان الأعرج » يخلو من الأفكار ، بل يتضمن رأياً مبتسراً من خيال سقيم أو أسود . إن ليساج سيصل إلى أوج الكمال في مؤلفه « جيل

(١) كتاب ألفه ليساج Lesage ، واسم هذا الشيطان أزموديه Asmodeus . [المترجمان]

(٢) آلان ريليه ليساج ، الشيطان الأعرج ، ١٧٠٧ .

بلاس « *Gil Blas* » الذي ظهر القسم الأول منه في عام ١٧١٥ : حيث يبدو البطل أرق حاشية ، وأوفر فطنة ، وأكثر تركيباً ، وحيث يبدو المؤلف أكثر تعمقاً في دراسته ، والأسلوب أكثر سلاسة وطبيعية : ومع ذلك لازلنا على سبعة من التراجيديا الميتافيزيقية .

* * *

وأخيراً ، هاك نبلاء حسنى المظهر ، يقفون في مؤخرة الصفوف ، كأنما يجعلهم التحاقهم بهذه الفرقة ، ولكن فيهم نقصا هو عدم الاهتمام بالمسألة الأخلاقية ، أو التفكير في شأنها في وقت متأخر ، حتى ليكن أن نقول عنهم مقالده صاحب الفندق في «إميين» عن مانون ليسكو وعشيقها دي جريو : إنهما ظريفان ، ولكنهما أفاقان إلى حد ما . فأولئك النبلاء لا يعيشون إلا للمغامرة ، والرحلات ، والمقامرة والعشق ؛ تستهويهم الحيلة والاختلاس اللطيف ، والجرأة ، وضربات السيف التي يسرفون في توزيعها والتي أحيانا يتلقونها : ولكنهم لا يموتون أبداً . يعالجون جراحهم ، ويلتزمون فراشهم : وبعد ثمانية أيام يغادرون الفراش ، ويبدأون من جديد حياتهم الصاخبة الناهكة ، والتي تدير أقل رواية عنها رموس البورجوازيين الهادئين . يمكن تسمية كل منهم بنفس اللقب الذي خلعه جاسيان دي كورتيلز على أحد أبطاله ، والذي أطلق في الدنيا عدداً وافراً من الأشقياء *Picaros* التنكرين في ثياب النبلاء ؛ يمكن تسمية كل منهم «شفالييه هازار» . أي حياة ! أي نسق جنوني ! «لم يعرف الشفالييه هازار أبداً أباً ولا أما ؛ لقد وجد في لفة على عتبة كنيسة وتربى على حساب الكنيسة ، ويترك مربيه ليحرب حفظه في جهة أخرى ؛ وتلقه سيدة نبيلة ليتمرن في حانوت صائغ ؛ ويهرب من معلمه لينضم إلى الجيش ؛ ويلتحق بالقوات البحرية للورد (س.ت) ؛ وتغرق السفينة التي يعمل بها ؛ وينقذ نفسه بمعجزة مع أحد البحارة ؛ ويبحر إلى بوسطون ؛ حيث يقتل صديقه في عراك مقامرة ، ويأخذ بثأر صديقه وإن كان هذا يضر بحبه لعشيقته ؛ ويتم بأنّه حمل فتاة مفاحا ، ويوشك على الزواج بفتاة أخرى ؛ ويهاجم البعض في الطريق ويصاب بطلق ناري ، ويصبح جرحه خطيراً ؛ وفي تلك الأثناء تقام العراويل في طريق زواجه ؛ تريد الفتاة

الحامل أن تتزوجه ، وترفع عليه دعوى ؛ ويريد شقيقتها أن يغتاله ، ويهاجم مرة أخرى ؛ ويصاب بأربعة جراح ؛ وبعد شفائه ، تصاب عشيقته بالجذري ثم تموت ... (١) . إذا كان هذا الرجل المضطرب المسكين ، مشغولا إلى هذا الحد ، وعلى هذا المنوال ، فكيف يجد وقتا للتفكير ؟

وأكثر أولئك المغامرين المشاهير جاذبية ، ليس المركيز دي مونبران ، ولا الشفالييه دي روهان ، الأمير العاثر الخط ، ولا حتى دارتانيان الذي قدر له مستقبل يمثل هذا الجمال ، بعد ما نام مائة وخمسين عاما ؛ بل هو الكونت دي جرامون الذي وجد أنطوني هاملتون متعة في نشر حياته (٢) . من ذا الذي لا يعرف هذه الصورة الساطعة ، التي أهدها إنجليزى إلى الأدب الفرنسى ؟ من ذا الذي لم يتابع الكونت دي جرامون في سنوات تمرينه ، وفي حملاته في ييمونت ، وفي إقامته في البلاط الانجليزى الذى أصبح قدوة سيئة فيه ؟ من ذا الذى لم يتسم لتلك الذكريات الطريفة ، لصورة زميله ماتا ، لصورة الأنتة دي سان جرمان ، أو المركيزة دي سينانت ؟ من ذا الذى لم يعجب بما فى القصة من حرية ، وبهجة ، ودسامة ، وقوة ، ودعابة ؟ فلندع هاملتون نفسه يقول لنا كيف اهتم بالشخصيات لا بالأخلاق ؛ بالتواحي البارزة لا بالخير والشر ؛ بالحياة لا بالتفلسف : — « إن الموضوع هو وصف رجل تغطى شخصيته التى لا نظير لها على نقائص لا نزعم إخفاءها ؛ رجل يشتهر بمزاج من الرذائل والفضائل التى يبدو أنها تندعم فى تسلسل لازم ، فريدة فى توافقها التام ، ساطعة فى تعارضها . إن هذا الجانب البارز الذى لا يفهم ، هو الذى جعل الكونت دي جرامون — فى الحرب ، والغرام ، والمغامرة ، وفى مختلف ظروف حياة طويلة — موضع إعجاب عصره ... » . النشاط الجيوى : ذلك فى الحقى ، ماثله جرامون فى شخصه ، وما ترجم هاملتون عنه . إنه لمن السذاجة أن نتعجب أمام ذلك المشهد البهيج من هرج الناس ومرجهم ، الذى ينعكس فى الأدب . لكننا كنا قد نسيناه ، إذ لم نتطلع إلا إلى حالى .

(١) مذكرات الشيفالييه هازار ، مترجمة عن النسخة الانجليزية الأصلية ، فى كولونيا ، عند بيير لوسالسير ، ١٧٠٣ .

(٢) مذكرات حياة الكونت دي جرامون ، تتضمن على الأخص التاريخ الغرامى للبلاط الانجليزى فى عهد شارل الثانى ، كولونيا ، بيير مارتو ، ١٧١٣ .

الفصل الثالث

الضحك والدموع وانتصار الأوبرا

*Je chante les combats, et ce prélat terrible
Qui, par ses longs travaux et sa force invincible,
Dans une illustre église exerçant son grand cœur,
Fit placer à la fin un lutrin dans le chœur ... (١)*

اختيار موضوع تافه ولظمه على طريقة الملحمة ، بدلا من ترجمة «أناييد» فرجيل *Énéide* في أسلوب هزلي ؛ وصف النزاع والكفاح بين أمين صندوق كنيسة وخصمه المرتل ؛ إضفاء مظهر هزلي على المحسنات الضرورية في القصائد الكبرى ، من وصف ؛ وعراك ، قتال ، وتنبؤ ، وأحلام ؛ هل هذا حقا يثير الضحك ؟

ومع ذلك ، فكثيراً ما أضحكنا شعر «المقرأ» *Le Lutrin* عندما كنا في المدرسة ، ولم يكن لنا ثمّاء آخر ؛ ولقد أضحك أوروبا قبل زمننا بمائتي عام ، ولم تكن قد سلت بعد ، أوروبا الكلاسيكية ، أوروبا الأفاضل . صفوة أوروبا كلها ، مادام ليس هنالك بلد لم يلق فيه الإعجاب هذا المؤلف المتع للسيد بوالو — الهجاء الكبير — ، ولم يترجم ولم يقلد ؛ ومادام واحد من خيرة أطباء لندن — صامويل جارت — لم يجد المجد الشعري إلا في إعادة الموضوع نفسه ، أي بتحويل «المقرأ» إلى «الصيدلية» ، باستبدال الأطباء بالرهبان ، والصيدلة بالمرتلين ، وما يتبعهم من محاقن ومداقات وهاونات ؛

(١) أترجم بالمعارك ، وبهذا التسميم الغريب — الذي كان يرتل بقلبه في كنيسة مشهورة — والذي نجح بعد جهد كبير ويقوته التي لا تغلب — في وضع المقرأ بين جوقة المرتلين . . .

(شعر هزلي كتبه بوالو يصف فيه نزاعاً بين أمين صندوق ومرتل في كنيسة واسم هذه القصيدة الهزلية «المقرأ» *Lutrin* . [الترجمان]

*Muse, raconte-moi les débats salutaires
Des médecins de Londres et des apothicaires
Contre le genre humain si longtemps réunis :
Quel Dieu, pour nous sauver, les rendit ennemis?
Comment laissèrent-ils respirer leurs malades,
Pour frapper à grands coups sur leurs chers camarades?
Comment changèrent-ils leur coiffure en armet,
La seringue en canon, la pilule en boulet?
Ils combattent la gloire : acharnés l'un sur l'autre,
Ils prodiguaient leur vie et nous laissaient la nôtre ... (١)*

وبالمثل : اقتاذ بعض أشعار ملتون كعنوان ، وجعلها تلتهى إلى سقطة مضحكة :

*Sing, Heavenly Muse,
Things unattempted yet in Prose or Rhyme,
A shilling ... (٢)*

أما وقد أضفينا هذه النغمة ، وتغنينا في أشعار هائلة بسعادة رجل يملك شلنا ، شلنا جيلا ، جديدا ، لامعا ؛ رجل لم يعد بعدئذ يخشى الفقر الشاحب الوجه ، ويستطيع أن يلج حانة حيث يطلب جعة راغية ، ومحاراً طازجا ، ولا يسمح أبداً للحزن أن يبدى وجهه تماما ، بل يطرده ببعض الحيلة الفكهة ، بمجرد ما ينوى أن يستقر — هل في هذا شيء يضحك ؟ أجل ، مادامت صحيفة « تتلر » قد أعلنت أن أجل شعر هزلى نظم باللغة الانجليزية هو « الشلن الرائع » *The Splendid Shilling* لجون فيليبس .

(١) ياعروم الشعر ، احكى لى عن هذا الجدل الناجح — بين أطباء لندن والصيدلة — المتحدين ضد الجنس البشرى منذ زمن طويل : — أى قدرة إلهية أولعتهم في عدااء لانقاذنا ؟ — كيف تركوا مرضاهم يتنفسون — ليوجهوا إلى أصدقائهم الأعزاء أعنف الضربات ؟ — كيف حولوا القللسوة إلى خوذة — والمحقن إلى مدفع ، والحبة إلى قنبلة ؟ — لقد عرفوا الجيد : فضحوا بحيلاتهم ، وقد تمسوا في تقائلهم — وتركوا لنا حياتنا ...
فولتير ، تعليقا على « صيدلية » صامويل جارت ، ١٦٩٩ . في القاموس الفلسفى باب بوفون Bouffon .

(٢) غنى ، أيتها العروس السخاوية — أشياء لم يسبق لها شيل في ثر أو شعر — شلن واحد ... (ج . فيلبس ، الشلن الرائع ، ١٧٠١ و ١٧٠٥) ..

وبالمثل أيضاً يجلس بوب إلى مكتبه ، ويتفنن في نظم « خصلة الشعر المغتصبة » (١) . وإنه لفخور بالجديد الذى وجده ، مثلاً كان هوالو فخوراً بإنتاجه مؤلفاً ليس له مثيل في الفرانسية . في كل أشعار البطولة الهزلية ، لابد من عدة ؛ وهذا تعبير اخترعه المهرة ، دلالة على الآلة التي توجه الحركة ، وعلى هذه العدة تتوقف الأعجوبة . وعلى ذلك ، خطر بباله أن يستعمل بدلا من الملائكة والشياطين التي كُتبت من طول الخدمة ، جنيات الهواء Sylphides وأقزام البحر الخارقة للعادة gnomes وعرائس الشتاء : شخصيات مقترضة من عالم السحر ، ذلك أن المسألة ليست عدم الافتراض ، بل الغرض هو التوصل إلى مقربين جدد . ثم يخترع مورداً جديداً ؛ فلو أنه وصف موضوعات لا يسهل إدخالها في نطاق الشعر ، مثل مباراة في لعب الورق ، فأى فضل ! إن الصعوبة المذلة هي الفن العظيم — لبيل عاشق يقص خصلة سقراء من حسناء ، فتغضب أشد الغضب ، ويتبع ذلك هياج شديد في عالم الانس والحين . عقدة خفيفة لقصيدة قديمة ؛ بعض أزهار دقيقة مطرزة بتفنن ؛ وبعض القطنة ، وبعض البريق الأخاذ ؛ هل في هذا ضحك ؟

وكان الضحك الايطالى أعلى رتبنا على كل حال . كانت عروس الشعر في الريف التوسكاني ، تستشعر حرية أوفر ، وخفة أكثر ، وتنطلق على مجيئها دون كبير تكلف :

Non è figlia del Sol la Musa mia,
Nè ha cetra d'oro o d'ebano contesta
È rozza villanella, e si trastulla
Cantando in aria... (٢)

والحق أنها كانت تريد هي الأخرى ، جعل قصص البطولة مهازل ؛ لكن دون تكلف ، alla buona ؛ وإن اختلط الأمر عليها ، كالتفل الذي يصادف في طريقه جصاً أو دقيقاً ، فإنه لا يجد في ذلك إلا لهواً :

(١) . The raps of the Lock, 1712 .

(٢) عروسى أنا ، ليست ابنة الشمس — ليس لها قيثارة من ذهب ، أو مطعم بالآبنوس — إنها ريفية خشنة ، تنسلى — بالغناء في الهواء . . .

*Ma canta per istar allegramente,
E accio' che si rallegri ancor chi l'ode;
Nè sa, nè bada a regole niente...* (١)

وهي إذن لم تكن تتردد . لم يعد هناك حب سماوي ، ولا شرف سام ، ولا روح فروسية ؛ لقد تحول القرسان البواسل إلى غلاظ ثقلاء ، أفاقين ، سكارى ؛

*E Rinaldo ed Orlando in compagnia
S'ubbbriacano ben bene all'osteria...* (٢)

كانت هذه العروس المجنونة ، والغليظة أحيانا ، تعامل كل العناصر القديمة بلا احترام ، من مثل السحر ، والافتتان ، وركوب الخيل ، والمطاردة ، والكمين ، والقتال الغريب ، والخان المسحور ، والسجين ، والقتل الشاعري ؛ وتنقل من حكاية إلى حكاية ، ومن صورة هزلية إلى أخرى ، دون أن تفكر في السير المستقيم ، والاتجاه صوب هدف معين أيا كان ، بل لم يكن يشغلها إلا تبيان كم يسهل علينا أن نضحك وأن نضحك ، على ذقون الحمقى والمدعين . لقد أبعد ممثلو « الكوميديا الفنية » *Commedia dell'arte* الإيطاليون من باريس ، عام ١٦٩٧ ؛ وقد كانوا في غاية الجرأة ، والجاذبية ، والمرح ، فأغلق مسرحهم . ولكن رينيار بقي ، رينيار المحبوب ؛ ولم يكن الحزن من طبع بورجوازي باريس . وكان يكتفى بأبسط العقد ، من استبدال الشخصيات ، والتعرف ، والمفاجآت المتوقعة ؛ وأكثر الشخصيات استعمالا في قائمة المسرح ، من مثل المرايين الذين يخنقون أولاد الذوات ، والأرامل الثريات اللاتي يستغلن الشبان ، والأمهات المتحكات ، والفتيات العاشقات ، والشبان الطائشين ؛ وكم من خدم ووصيفات ، لاتمام التمثيل ! وسواء كان بمعجزة ، أو لعله بسبب إكثاره ، أو براعته ، أو جمته التي لا تغيض ، أو خبرته بالمواقف والكلمات ، أو مرح طبعه الذي لا يقاوم ، — فقد كان يستمد من هذه المواد القديمة رواية مضحكة تبدو دائما جديدة . هل هناك أسهل من مسرحيته « الرجل التائه » *Distrain* ؟ لياندر هذا ، الذي يفقد حذائه في الطريق

(١) إنها لا تغنى إلا لتسعد — ولتسعد أيضا من يصغى إليها — إنها لا تعرف القواعد ، ولا تعيرها أدنى اهتمام .

(٢) ورينو ورولاندا معا — يسكران في الخانة ما استطاعا .

ويتبع طريق بيكاردى على أنه طريق روان ، والذي يضع إصبعه فى بيضة تمبرشت (ألا كوك) ويعضه حتى يتفجر منه الدم ، والذي يخطئ فى حجرته، ويلقى بساعته على الأرض ، والذي يعلن هيامه بالحسنة التى لا يحبها ، وكراهيته للحسنة التى يحبها ، والذي — بعد عشرين حادثا على هذا المنوال — ينسى ليلة زفافه أنه قد تزوج: أهنالك شئ معروف أكثر من ذلك؟ أو مستغل أكثر من ذلك ، أو فى معنى آخر مصطلح عليه أو معتاد؟ إنها لاتعدو شخصية من شخصيات لا بروير أطيلت على خمسة فصول . ومع ذلك ، تجوز عليك الخدمة ، وتضحك على كل عشرة ، كالأطفال . هذا النظر أو حتى تلك المسرحية يمكن أن تكون محزنة ، لكن ليس الحزن العميق الذى نجده عند سوليير ، مادام رينيار لا يتعمق أبداً النفسيات . ولكنه لا يجهل ما فى الناس من نقائص ورذائل ؛ لكنه يعرف تماماً ما للنقود من قوة وتأثير على مجتمع يوشك على الانحلال ، لكنه لا يتردد فى تصوير كهول محطمين ، محمومين ، مصروعين ، مشلولين ، مسلولين ، مبهوتين ، مستسقين ، لم تبق فى فمهم إلا من واحدة ، سوف تقع عند أول نوبة من السعال — يشتهون فتيات فى ريعان الشباب . فملهاة « الموصى العمومى » ، *Le Légataire Universel* تسودها رائحة المآتم . . . وأى بأس؟ إننا لا نحس الحزن بل الراح . إن الشخصيات لا تظهر على المسرح إلا لتسلينا لحظة ، ولتلمع لمعة عابرة . إنها سريعة ، خفيفة ، تتراقص ، وتتواثب ؛ لأنها قررت أن تعتقد — مرة وإلى الأبد — أن علاج الشرور كلها ، حتى فى حالة الموت ، حبة من الجنون . وحين تنتهى المسرحية ، وقد أصبح الغيورون والبخلاء موضع استهزاء ، وحين ينتهى أمر الخدم والوصيفات *les Crispin et les Lisette* (١) بالعفو والتبرئة ، ويتزوج العشاق ، وحين يحمي الممثلون الجمهور ويسدل الستار ، حينئذ لا يحتفظ المشاهد السرور إلا بذكرى واحدة :

Il faut bien que je rie

De tout ce que je vois tous les jours dans la vie (٢)

(١) كرسبان : شخصية فى ملهاة أصلها إيطالى أصبح مثالا للخدام الطريف الخالع العذار — وليزيت : اللقب الشائع للوصيفات فى الملهاة ، حبة مأكلة لعبوب . [الترجمان]
(٢) لاهد من أن أضحك من كل ما أشاهد كل يوم فى الحياة . . .
(الرجل النائم ، الفصل الأول ، النظر السادس)

دموع ! بطل مدرع يجرؤ على ذرف الدموع ، على المسرح ! إن الآخر
يعصف به الغضب أكثر مما يملكه التأثير :

MANLIUS.

*Des larmes ! Ah ! plutôt, par tes vaillantes mains,
Soient noyés dans leur sang ces perfides Romains.
Des larmes ! Jusque-là la douleur te possède ! (١)*

إن المشاهدين يتعجبون ، سائلين : بأى سر لا يخالفنا الخجل من
الضحك على المسرح بتلك الحرية ، بينما نخجل من البكاء (٢) ؟
هالك غرفة بيير بايل ؟ إنه يكتب إلى أخيه يحطوب ؛ لقد ماتت أمهما
من قريب . إنه يقبل البكاء في مثل هذه الحالة من الحزن .

— « إنى أوافق على غزارة دموعك ، ولا يزعجنى أن تشجعنى على أن
أذرف منها بفيض . لا ينبغي أن نلقى أذنا صاغية للرواقيين . . . إن الحساسية
التي تظهرها أمام ضربات القدر القاسية ، لا تعدم لها أثراً ؛ لذلك ينبغي أن
نأسل في رقة القلب أكثر مما نأسل في خشونة الطبع . إن الله سيبارك دموعنا
وأنيننا . . . »

ثم يتردد بايل قليلا ، ويتراجع . لنا الحق في البكاء ، لكن ليس لنا
الحق في البكاء على الدوام :

— « ولو أنى قلت لك ذلك ، إلا أنى لا أمتدح الخلق الذى يتحدثنى عنه ،
عندما تقول بالحرف إن لك طبعاً لنا ، وإنك لا تستطيع أن ترى أقل شئ
أو تفكر فيه إلا وتبكي في غزارة عجيبة . إن هذا الضعف لا يليق برجل ،
ضعف تكاد يحيزه للنساء . في كل ظروف الحياة وتقلباتها ، يجب أن يحتفظ كل
ما يخص الرجل بصفة من الرجولة . . . »

(١) مانليوس : دموع ! آه . . . أفضل أن أرى أولئك الرومان الخوان — غارقين
في الدماء بيدك الباسلتي — دموع ! إلى هذا الحد يملكك العذاب ؟
(مانليوس كاتبوليوس ، مأساة « لافوس دوبني » التي مثلها لأول مرة بمثلو
للملك يوم السبت ١٨ يناير ١٦٩٨) .
(٢) لا برويير ، الشخصيات ، « عن نتائج الفكر . »

مصاحبة جديدة في لغمة خافتة ، تخالف الألفام العالية . لم يكن تولاند
ولا كولنز من الضاحكين ؛ ولم تكن لتنال من فونتيل إلا بسمة ، خفيفة ،
ساخرة ؛ وكان جان لي كليز جاداً ؛ وجوريو محزوناً مكروناً . وكان بوسويه
في شيخوخته صارماً ، ويل للضحاحكين فلسوف ييكون ؛ وكان فينلون يرى
في الضحك شيئاً غير لائق ؛ ولم يعد لويس الرابع عشر يضحك ؛ في خريفه ،
في شتائه . ولكن أولئك لم يكونوا يمثلون الجنس البشري بأسره .

فلنكشف الآن كما كان الشيطان الأعرج يفعل ، عن مساكن جديدة .
فلندع المازحين ، السكارى ، والأشقياء picaros والمتشردين rogues والنشالين ،
أولئك الرفاق الخالي البال ؛ ولندع الضاحكين ؛ ولنلتفت إلى النفوس
الحساسة ، التي تعجز عن العيش بلا انفعال ، بلا حزن ، بلا يأس ؛ ولنتجه
صوب الذين يعتقدون أن العقل غير إنساني .
ليس الموضوع أن نعرف ما إذا كان الناس لم يكفوا أبداً عن البكاء
في هذه الدنيا ، بل هو تحديد الزمن الذي بدأنا نعتقد فيه أننا نستطيع أن
نكشف عن دموعنا بلا خجل .

هالك منظرًا في مسرح ؛ بطل بخوذته ، وريشه ، وفخامته ، يشكو لبطل
آخر ، روماني مثله ، حالة قلبه الضعيف :

SERVILIUS.

*Mais quand je songe, hélas ! que l'état où je suis
Va bientôt exposer aux plus mortels ennuis
Une jeune beauté, dont la foi, la constance,
Ne peut trop exiger de ma reconnaissance,
Je perds à cet objet toute ma fermeté.
Eh ! pardonne, de grâce, à cette lâcheté,
Qui, me faisant prévoir tant d'affreuses alarmes
Dans ton sein généreux me fait verser des larmes. (١)*

(١) سرفليوس : وآسفاه ! عندما أفكر أن حالتي — سوف تجلب أسوأ الشرور —
على فتاة جميلة جعلاني إخلاصها ووفائها — مدينا لها بشكر ليس له حدود —
إنني أقدر لذلك كل جأني وصمودي فأغفر لي برك ، هذا الهوان الذي يجعلني
أسكب أدمعي في قلبك الكريم — لما أستشف فيه من مخاطر مرعبة . . .

ولكن ترى ألا يكون قد جرح أخاه ؟ إنه يتراجع مرة أخرى : آه !
إذا أراد أخوه أن يبكي ، فليبك كيف شاء !
— « بيد أني وإن كنت أقدر محبة ألك البالغ ، إلا أني لا أوافق على هذا
الحنان الكبير الشامل الذي تشعر به : وهكذا مع إدانتى لطبع تنفيق إلى
هذا الحد ، فاني لا أؤخذك على هذا الفيض من الدموع التي ذرفتها وسوف
تذرفها . يمكننا أن نستسلم إلى تلك المغالاة ، دون أن نفقد قوة الذهن التي
يجب أن يمتاز بها جنسنا ، وبإدام أكبر الأبطال ، وأكبر القديسين ، قد
عرفوا البكاء ، فلا ينبغي أن تعد الدموع ضعفا نسويا . . . (١) »

ضعف نسوي . . . هاهو ذا المنزل البورجوازي الثرى حيث تكتب امرأة
ضعيفة رسائل حب وهي تبكي وتلتحب . لقد أحببت في مقبل عمرها البارون
دي بروتيل الذي خالته أجهل رجل في الدنيا ، ولما تملكها اليأس لعلمها أنه
ليس حراً ، عزمت ذات يوم على الفرار من بيت أبيها ، واتجهت صوب الدير ؛
ولكن أباهما لحق بها في الطريق ، وزوجها رغم أنفها ليعيد إليها صوابها ؛
وأصبحت الآنسة آن دي بليزاني ، الرئيسة فيراند . وحدث أن رأت الرئيسة
البارون مرة أخرى ، وأحبته أشد الحب ، أحبه بجنون . ومن هنا ، تلك
الرسائل ، التي تعد من أجل الرسائل التي دججها قلم عاشقة ، وكلها مليئة
بالاضطراب : سعادة حب يجهله العالم ؛ متعة تزداد قيمة كلما بقيت سرّاً ؛
حزن منشؤه أن هذا الحب لا يستطيع أن يتفتح ، حرّاً ، مجيداً ؛ غضب من أجل
العراقيل التي تتجمع شيئاً فشيئاً ؛ لغات حانية شبه أنسية ، وصيحات عاطفية ،
وتقفز للتفكير في أنها ستعود — بعد مغادرة عشيقها — إلى زوج ينفر منه
جسدها ؛ بصيرة الشعور ، « نعم يا عزيزي ، أنت تحبني ، وأنا أعبدك . . . » ؛
فقدان التقدير الذي لا يكفي لحو الحب : « لقد فقدت عطف أسرتي ، وأحلت
عشي إلى جحيم من أجل عشيق لا يستحق إلا حقدي . ولكن يا إلهي ! هنا
ذروة تعاستي ، لا أستطيع أن أكرهه ، إني أحقره ، إني أشتئ منه ، ولكني

(١) مالم ينشر من رسائل بايل ، ج. ل. جيريج . وفان روز برويك ، عدد يوليو -
سبتمبر ١٩٣٢ من « رومانيك - ريفيو » .

أشعر بأنى لست أكرهه . . . » إن هذه المرأة المفطورة على العشق ، فيها بعض الصفات التى ستفخر بها البطلات الرومانتيكيات بعد ذلك الوقت بمائة وأربعين عاماً . فهى تقدر أن السعادة سلوة ، أما الحزن فيجعلنا أكثر إحساساً للحب : إنها أتعس امرأة أحببت ، لقد وسبها القدر : نظر إليها الحب ، منذ المهد ، كضحية لعذابه . إنها تذرف ميلاً من الدموع (١) . — منذ ذلك الوقت (٢) !

وكان المجتمع ينحل ، وهذا صحيح ، وكانت عدوى الترف تستشري ، والترف يقتضى النقود ، بكثرة ، وبسرعة : عندئذ أخذ الناس يبحثون عنها فى المضاربة ، وأوراق النصيب ، وشركات الايراد ، ولعب الورق . إن مسرحية *Turcaret* ظهرت فى ١٧٠٩ ، ويعتقد ثوركاريه ذلك الخادم الذى أصبح ملتزماً غنياً ، أن كل شئ يشتري بالجنيه ، السلوك المذهب ، والفن ، وقلوب النساء . ولا ريب فى أن لوساج يبدئه لنا وقد انتهى إلى الافلاس وأصبح موضع سخرية واستهزاء : إلا أن النقود وإن لم تقدر على كل شئ فهى تفسد كل شئ ، وهاك المغزى الخلقى للمسرحية الذى يستخلصه الخادم فرونتان . فى حديثه مع الوصيفة ليزيت : « إني معجب بسير الحياة البشرية ؛ إننا ننتف ريش بغانية ، والغانية تأكل رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهكذا ننتهى إلى أطرف سلسلة من الخداع فى الدنيا . » وفى مسرحيات « دانكورت » ، مرآة ذلك الوقت ، الجميلة الأضلاع ، نجد أكثر الناس اصطناعاً للسذاجة ، وأوفرهم لساداً ، وأكثرهم ولعاً بالألقاب والمال ، هن النساء

وصحيح أيضاً أن الناس دفعوا بالنساء نحو الفلسفة ونحو العلم : لورد

(١) قصة حديثة لخب بليز وكليانت ، ١٧٨٩ - رسالات الرئيسة فيراند *La Présidente Ferrand*

إلى البارون دى بروتيل *de Breteuil* طبع أوجين آس ، ١٨٨٠ .

(٢) يتعجب المؤلف لهذه المشاعر الرومانتيكية ، التى تظهر قبل الأوان . والرومانتيكية مذهب ظهر فى مبادئ القرن التاسع عشر ، وهو التحرر من قيود العصر الكلاسيكى . وأول مبشر بها جان چاك روسو ، ومن موحها شاتوبرياند *Chateaubriand* ومدام دى ستال . ويمتاز الرومانتيكية على الأخص بالفردية وتنفوق الحساسية والخيال على العقل . ومن أعلامها لامارتين *Lamartine* ، والفريد دى فيني *De Vigny* ، وفكتور هوجو ، والفريد دى موسيه *Musset* وجورج صاند وبلزاك . [الترجمان]

هاليفاكس حيناً ، وفونتنل حيناً آخر . وطالب البعض - بتحرير النساء تحريراً تاماً ؛ لأن الرجال أساءوا استعمال سلطتهم - عندما وضعوا القوانين - لاستبقائهن تحت حكمهم ؛ وعهدوا إليهن بأشغال تافهة ، ورسخ الشر بفضل العادة ، واستفحل بفضل التربية ؛ ولقد حان الوقت لكي تغير هذه الحال . يجب أن تصبح النساء على قدم المساواة مع الرجال ، فبذلك يقضى المنطق والعقل ؛ يجب أن يتلقين نفس التعليم ، وأن يشغلن نفس الوظائف ، في القضاء ، والعارف ، وحتى في قيادة الجيش ، وحتى الكنيسة . أما بوالو ، الذي لم ينس « النساء العالمات » ، فليس من هذا الرأي ؛ فتراه يتذمر ، ويسخر من الداعرات والغانيات ، والمقامرات ، والعالمات ، والمتكلفات ، والهوائيات ؛ ويذكّر في طبخة ساخرة بمفاتيح الزواج ؛ ولكن ترى بيرو Perrault يسارع إلى الذود عن شرف الجنس اللطيف . ويعلن أن بوالو رجعي الأفكار ؛ فانه يهجو النساء لأنه اقتبس هذا الموضوع من هوراس وجوفينال Juvénal ، وأنه يظن نفسه ملزماً بترديد كل ماقاله الأقدمون . بيد أن « المحدثين » ، وقد يفوقونهم سداد رأي ، يعلمون أن أخلاق اليوم تفتقر كثيراً عن أخلاق الأمس ؛ لله در النساء ! إن فيلسوفاً إيطالياً ، باولو ماتيا دوريا يردد ذلك ، سبيناً « أن المرأة ، في كل الفضائل الكبرى تقريباً ، لا تقل عن الرجل في شيء . »

كل هذا صحيح . يقرر المشاهدون أن الفتيات يتحررن ، وأنهن ينسين العادات القديمة الطيبة ، وأن سلوكهن فاضح ؛ وأن النساء سفيهات ، شرهات ، مستغرضات . ولكن إذا وقع حب كبير ، بما يتبعه من عقبات ، ترى العاطفة تسترد حقوقها فوراً ، وتنفجر ، وتترجم إلى صيحات مؤلة ، وزفرات موجعة ؛ إن في ذلك نداءً لعصر قريب ، سوف يريد أن يكون بأكمله ، عاطفة .



بأي براعة تنبذ الحساسية — كما نأمن وراء حجاب — تلك الحساسية التي يريد البعض استئصال شأفتها من الدنيا ! صدرت عن انجلترا أيضاً إشارة ، وكان مصدرها ممثل ، كدولي سير ؛ لقد استشف هذا الممثل الخفي لزمته . كفى مسرحيات ماجنة ! كفى نبلاء فاسقين يزهبون على

المسرح زهو الطاووس ! كان جيرمي كولير محققاً ، لقد حان الوقت لكي نرد المسرحيات الإنجليزية إلى اللياقة والأخلاق . واتخذت الأخلاق الشعور كرفيق .

فلنفترض زوجاً شريراً ، قد هجر زوجته بقسوة ، بحثاً عن المغامرة ، وأضاع ماله كله في النبيذ العتيق والنساء الفتيات - كما يقول ؛ ثم عاد إلى الغيترا مفلساً ، لكن محتفظاً بسفاهته . ودون أن نرهق خيالنا ، فلنسمِّه لوفليس Loveless ولنفترض من جهة أخرى مثال الزوجات أماندا Amanda . إنها لم تنقطع عن حب زوجها الشرير ، وتريد أن تستعيده . ترى هل يحسن الالتجاء إلى مواعظ الأخلاق مباشرة ؟ كلا ، قطعاً ؛ وإلا هرب من جديد . فمن الأفضل أن تلجأ إلى الشعور ، إلى الندم ؛ إلى بقية من عاطفة ، تستيقظ رويداً رويداً ؛ بل إلى التعة . وأخيراً ، سيترف لوفليس بأخطائه ، وسيتكلم مستغفراً : « آه . . . إنك انتشلتني من خمود الرذيلة العميق . . . دعيني أركع أمامك ، وأشكر تلك التي أخضعتني بفضيلتها الطاهرة . هنا أود أن يكون مقامى ، راکعاً هكذا ، لشدة خجلي ؛ أريد أن أظهر من جرائمى في سيل من دموع التوبة . » لقد مر بمدرسة الشعور .

لقد مثلت مسرحية كولى سبير هذه ، « حيلة الحب الأخيرة » *Love's Last Shift* على المسرح الملكي بلندن في عام ١٦٩٦ ، ولقيت نجاحاً عظيماً . ومنذئذ تتابع كوميديات ذات لونين ، مرحة ، جادة ، بورجوازية ، أخلاقية ، تشوبها رائحة الخلعة القديمة : ذلك أنك كنت ترى فيها أكثر من شخصية مقتبسة من القائمة القديمة ، وبالتالي ، لم تكف عن عادة الشرب ، أو مغازلة الفتيات ، أو التحدث في لهجة غير صفيحة ، دون مراعاة للأذان العفيفة . كوميديات حديثة ، بما فيها من بعض المناظر الحية ، الصافية ؛ وقد تستعمل دون وازع ، أقدم الأساليب ، نعى التنكر ، والتسخر ، والخطأ في عنوان الرسائل ، والغلط في الشخصيات : ونرى كولى سبير يقدم مثلاً ، باقتراضه أن لوفليس لا يتعرف زوجته أماندا ؛ ويفسر ذلك بأن سياء أماندا قد تغير قليلاً بفعل الجدرى . كوميديات تبدو فجّة ، ثقيلة في خواتم الفصول وأحياناً في خواتم المناظر ، لما فيها من بعض الأشعار الصغيرة الأخلاقية ، التي يصعب أن نعدّها طبيعية أو جميلة . ولكنها تفصح جميعها عن حالة ضمير واحدة ،

وتقدم جميعا ناحية سيكولوجية واحدة، من أجلها لغضى عن الكثير : فان إصلاحا أخلاقياً لا يمكن أن يتحقق بفعل خارجي ، بالقوة ، والسلطة ، بل لابد من ارتضاء النفس . إذن ينبغي — قبل أن نتوسل بالارادة المجردة ، أن تتأثر النفس ، وأن تنفعل أولاً ، ثم تعالج ، بالشعور . فالزوج الذى يستشف اضطراب زوجته ، لن يحصل منها على شئ ، ما لم يحرك في قلبها شعور الأسف والندم . وفي سبيل ذلك ، يتخيل رواية كاملة ، فيلجأ إلى عشيق كاذب ، يستأجره ليدفع بها إلى حافة الخطيئة : وحين تصبح شبه مذنبة ، تحس قطاعة الكذب ، والخيانة ، فترجع إلى أحضان الفضيلة لاشمئزازها من الرذيلة .

وينصبح أكثر حنانا . إن خدسا مسنين ، مخلصين لإخلاص السكالب الأمانة ، شاكرين لأسيادهم ما طوقوا به أعناقهم من أفضال ، سيكشفون في الأوقات الحرجة عن إخلاص يستحق الإعجاب . وستترك بعض النساء اللواتي يستعصى لإصلاحهن لتصبيهن التحس ؛ ولكن سوادهن سيكن رقيقات ، وديعات ؛ وإذا تشنت منهن القلب ، فسنعرف كيف لعيدهن إلى الطريق المستقيم . وعند الرجال ، لن يعدم الثبات في حب مخلص جزاءه ، بعد الامتحان . وسنعجب بالوالد الذى يعنى بالأ يصاب ابنه أى ألم ، وبالأبن الذى لا يقل عنه رقة وعطفا : أحسن الآباء وأحدهم وأحسن الأبناء وأحناهم : شخصيتان مرهفتا الحس — « كالست المستحبة » — تنكشان بمجرد اللمس . وسنرى في نفس المسرحية عذراء ماذجة ، نقية وقاتنة ، تأبى الاعتقاد في وجود الشر ، مهما قيل لها . وأقل الشخصيات ظرفا ، متبدو على الأكثر ، في شئ من خشونة الطبع أو قليل من الغيرة . ولكن ستسكن الغيرة وتستحيل الخشونة إلى رقة ، ويزول سوء التفاهم ، ثم يتعانق الجميع ، بين الدموع . تلك حال « العاشقين المتحفظين » *The conscious lovers* لستيل Steele اللذين يسجلان في عام ١٧٢٢ انتصار هذا الطراز .

إن شطراً من الأدب يريد أن يصبح « خدمة كريمة في سبيل الانسانية (١) » .

(١) ر. ستيل ، ملهاة ، الزوج الوفي ، ١٧٠٥ . R. Steele, *the tender husband*, 1705 . إلى مستر أديسون ، « الشعر ... خدمة كريمة في سبيل الانسانية . »



الأوبرا — أى إهانة موجهة إلى العقل ! تملق العيون والأذان ، استفزاز العقل : إن في ذلك لتحرشا . غناء كل شئ من البداية إلى النهاية ، لا في إعلان العشق فحسب ، بل في الخطب والرسائل ، والأوامر ، والشتائم ، والمسارة ، والأسرار : فأى مخنف ! « هل نستطيع أن نتغيب أن سيداً ينادى خادمه ، أو يكلفه بمهمة ، وهو يغني ؟ أو أن صديقاً يسر في أذن صديقه وهو يغني ؟ أو تدور المناقشة في مجلس بالغناء ؟ أو تغني الأواصر التي تصدرها ؟ أو يدور القتل في منبجة بالسيف والرمح على أنغام الموسيقى . . . » — « إذا أردت أن تعرف ماهي الأوبرا ، فاعلم أنها عمل غريب من الشعر والموسيقى ، حيث الشاعر والموسيقيار ، وقد ضاق كلاهما بالآخر ، يبدلان كل جهدهما في إتيان تأليف ردى . . . »

أضف إلى ذلك ، المكلف بالزخرفة ، ذلك المجرم الآخر . ملا' المسرح بأعاجيب من الورق المقوى ، لا بدال الفائدة السيكلولوجية ، بمؤثرات خارجية من المفاجأة والدهشة ، واختراع آلات معقدة أبلغ التعقيد ، من عجالات تطير ، وآلة تصعد إلى السماء ، ووحوش ناطقة : أى مخالفة للمنطق ! وجماع القول ، أننا إذا استمعنا إلى ذوى العقول السديدة ، أولئك الذين يحبون الشئ الحقيقي ، المحتمل ، المنطقي ، المنتظم ، مثل سانت أفريموند وبوالو ولا برويير ، وأديسون وستيل ، وجرافينا وجراسميينى ومافى وموراتورى ، لوجدنا : أن الأوبرا تخالف العقل والضوابط ، وأنها تستأهل كل احتقار . ذلك أن « حماقة حافلة بالموسيقى ، والرقص والآلات والزخارف لحماقة رائعة ، ولكنها حماقة على كل حال . . . » (١) .

بالضبط : كانت الأوبرا مخالفة للعقل ، وكانت تروق الناس ! ذلك هو الواقع الذى لم يستطع أن ينكره أحد ، الجديد الذى أثار غيظ الذائدين عن العقل السليم . انتصرت الأوبرا في كل مكان ؛ غزت فلورنسة ، والبندقية ، وروما ، وناپولى ، وكل مدينة في إيطاليا . واستقرت في المراكز الموسيقية الكبرى في ألمانيا ، درسدن وليفزج . وكانت فتنة فيينا ، التي أصبحت وطننا ثانيا لها .

(١) سانت أفريموند ، رسالة عن الأوبرا .

فما من أمير أو دوق كبير لم يرد أن يكون له مسرح خاص ، ومزخرفين ، ومؤلفين ، وأحسن قادة الأجواق Maestro ، وأحسن أساتذة الرقص ، وأحسن الغنيات Prima donna . ومجندت باريس لولى وكينو . واحتجرت لندن هاندل . وتأخرت مدريد قليلا ، وقد حكمت مدام « دولنوا » d'Aulnoy ، وهي تبشيم ، في « قصة السفر إلى اسبانيا » في عام ١٦٩١ : « لم أرقط أدوات في مثل هذه الحفارة ، فقد كانت الآلة تنزل بخيلها بواسطة دعامة خشبية مشدودة من طرف إلى طرف ، والشمس تسطع بواسطة اثني عشر فانوسا من الورق المزيّن داخل كل منها مصباح ، وعندما كانت « ألسين » تقوم بأعمالها السحرية ، وتستحضر الشياطين ، كانت الشياطين تخرج من الجحيم في يسر ، على درج . . . » هذه الحالة ستتغير : ففي عام ١٧٠٣ ، ستستقر شركة إيطالية في مدريد .

ما منشأ هذا الولع ؟ - إن الناس في حاجة أبدية إلى عامل مؤثر ، والمأساة التي أصبحت منذ نهاية القرن محض تقليد وآلية ، لم تعد تهيئه . إذن فستهيئه الموسيقى . إن حاجة سيكولوجية ملحة ، تنتهي إلى تحويل في الفن ، تنتهي إلى شكل جديد .

تأليف واسع مزخرف ، تشارك فيه كل الفنون ، عيد من الأنغام ، والألوان ، والحركات ، الإيقاعية ، افتتاح الأذان والعيون ، انفعال ذو صفة نوعية جديدة ، مادسنا لا نستطيع أن نحاله ، مادامت فتنته حسية ، مادام الجسد نفسه يبدو كأنما يذوب ويلين بتأثيره ، متعة تجمع بين السحر والفتنة ، عميقة لا يمكن شرحها ، لذة في صميم القلب : تلك هي الأوبرا . ولو أن الناس انتقدوها مائة وألف مرة ، لذهب نقدهم أدراج الرياح . لقد أخطأ الرقباء ، لم يدركوا أن رغبة قد استيقظت في النفوس ، ولا بد من إصباحها : كان الجمهور ينشد ما هو عجيب ، مؤثر ، عاطفي . لم تعد النفوس تريد أن تقتنع ، بل تريد أن « تضطرب » (١) هنا كان التغير .

ولنسع إلى زيادة التخصيص : إن ما قابلته أوروبا بحاسة ، كان الأوبرا الإيطالية . فايطاليا ، التي قدمت مثالا لها ، هي النبع الذي لا ينضب ، والذي تنبثق منه الأمواج الرنانة ، إنها تمد أوروبا بأسرها بالموسيقى والموسيقيين معاً ،

(١) مدام دي سيفيليه ، رسالة في ٨ يناير ١٦٧٤ .

إنها النغم نفسه . إن مآسيها الموسيقية (ميلودراما) تغزو كل الشعوب المجاورة . وباريس تريد الكفاح ولكن الموهبة التي تقدمها ضد إيطاليا ، إيطالية ؛ وعلى كل حال ، فإن نصف فرنسا هو الذي يقاوم ، أما النصف الآخر فقد تم غزوه . وتظل هامبورج طويلاً ، مخصصة للموسيقى الألمانية ، ولكن ينتهي بها الأمر إلى الاستسلام . إن عالم الأوبرا ليس إلا مستعمرة إيطالية .

وما منشأ هذه المعاملة اللطيفة بدورها ، وهذه السيادة ؟ — إن مؤلفي الأوبرا الإيطاليين ، يريدون هم أيضاً أن يظلوا مخلصين للعقل السامي ؛ فانهم ينفذون أنفسهم ، باطاعته ، من احتقار النقاد ؛ وبذا يبدون كبار مؤلفي التراجيديات مقاماً . إن مجهود بنيديتو مارسيلو ، وأبوستولوزينو — مورد جلاله الامبراطور — والذي يريد أن يكون بمثابة بير كورنيل في الأوبرا ، يهدف إلى تنظيم قصة الأوبرا ، وأن يحذف منها ما لا يتفق مع السياق ، وأن يحصرها ، وأن يصفها ، وأخيراً أن يقربها من التراجيديات ؛ وسينتهي ميتاستاز فيا بعد ، إلى تبرير الميلودراما باسم « فن الشعر » الأرسطوطاليسي .

لكن بلا جدوى . فلم يستطع مؤلفو الأوبرا التحسين أولئك ، وقد كانوا ضحايا الوهم الأدبي السائد جوهم ، والذي يرفع الملحمة والمأساة إلى أعلى درجات إنتاج الذهن الانساني — لم يستطيعوا أن يفهموا أن الأدب لم يعد إلا خادماً متواضعاً ، تفرض الموسيقى عليه قوانينها . فالموسيقى تتطلب هنا لحناً ، وهناك ثنائياً ، وهناك جوقة مرتلين ؛ تريد عدداً معيناً من الشطرات ، على إيقاع معين ، تخصص للصوت المرتفع (تينور) أو للصوت المنخفض (باس) ؛ كانت تتحكم في كل شيء ، حتى اللغة ، التي لا ينبغي أن تقدم إلا اللفظ السهل ، والمنسجم . وهي لا تطلب من الكاتب إلا المرونة والبراعة ؛ فلم تترك له إلا فن المجازاة ، فن طاعة الملحن ، وقائد الجوقة ، والمغنية الأولى (البريمادونا) . ولما كانت اللغة الإيطالية ، أغنى وأحسن وقعا ، وأكثر السجاسا ، وأوفر تنوعاً من كل لغات أوروبا الأخرى ؛ فقد استعادت هنا المكانة التي كانت قد فقدتها ، عندما كان الأمر يتعلق بالتعبير عن الأفكار .

الموسيقى الإيطالية ، أي فتنة ! أي تدفق هارب من القيود ! أي غنى دافئ ! أي غزارة ! أي سهولة منتصرة ! كانت بما هي عليه من كرم وغنى لا يغيض — تقدم لجمهور لا غنى له عنها مالميس في الموسيقى الفرنسية ، ولا في

أي موسيقا في أي بلد : الحمية والحيوية والشخصية المميّزة . نعم ، الشخصية ، البارزة أبداً ، سواء في حيويتها أو في رقتها . لم تنشد توافقا موسيقيا رقيقا ، متساويا ، موحداً ، لا يعمل إلا بالتسلسل ، حذراً ، منطقياً : بل كانت تتجاسر وتخطأ ، وبجسارتها هذه كانت تشمل النفس . إنهم المعاصرون أيضا الذين يقررون هذا ، بل حتى الفرلسميون . « إن الموسيقيين الفرلسميين ليعتقدون أنهم قد ضاعوا لو خالفوا القواعد أدنى مخالفة ؛ إنهم يتملقون ، يدغدغون ، يحترمون الأذن ، وسع ذلك يرتعدون مخافة ألا ينجحوا بعد ما أدوا ما عليهم بكل ما يمكن من انتظام ؛ أما الايطاليون الذين يفوقونهم جسارة ، فيغيرون النغم والمقام فجأة ، ويأتون بوقفات مزدوجة ومضاعفة لسبعة مقاييس (مازوره) أو ثمانية على نغمت لعتقد أنها لا تستطيع أن تتحمل أقل رجفة ؛ إنهم يطيلون النغمة إطالة فذة ، حتى إن غير المعتادين عليها ، لا يستطيعون أن يملكو أنفسهم من الغيظ في بدء الأمر من هذه الجرأة التي يعتقدون في النهاية أنهم لن يوفوها حقها من الاعجاب . . . » وجماع القول ، « إنهم يلقون الذعر بقدر ما يلقون الدهش في ذهن المستمع ، الذي يظن أن « الكونشرتو » كله سوف يقع في لشاز مريع ، وبذا يستثيرون اهتمامه بالخراب الذي يبدو كأنما يهدد الموسيقا كلها ، ثم سرعان ما يطمئنونه بزلات منتظمة ، لدرجة أن كل مستمع يدهش لرؤية التوافق كأنما يبعث في نفس هذا اللشاز ، ويستمد القسط الأكبر من جماله من ذلك الشذوذ الذي كان يبدو أنه يعمل على دماره . . . (١) » متعة تقيها الجرأة ، متعة نتوصل إليها على الأقل بتوهمنا أننا نخرق القيود المقدسة ، متعة تهم كياننا الجسدي ، حيث تختلج أعصابنا اختلاج المكان تحت القوس : تلك هي المتعة التي قدمها لنا كثير من الملحنين الايطاليين — الذين حتى أسماؤهم كانت رنانة — والذين « فتنوا أوروبا بأسرها بانتاجهم الرائع » ، وعندما كان تلامذة سكارلاتي — أشهر أولئك الملحنين — يسألون أستاذهم عن سبب هذا التفضيل أو ذاك أو عن سبب هذه النصيحة أو تلك ، لم يكن لديه إلا جواب واحد : لأن الاحساس شيء جميل *Perchè fa buon sentire* .

(١) راجنيه Ragueneat ، موازنة بين الايطاليين والفرنسيين فيما يتعلق بالموسيقا والأوبرا ، ١٧٠٣ .

الفصل الرابع

العناصر القومية والشعبية والغرزية

لقد حاولنا أن نرى كيف تعمل بعض القوات ، التي تعارض ، بكيانها
نفسه ، في ألا تكون أوروبا إلا تقدماً ، وتحليلاً ، إلا منطقاً وعقلاً : استعداد
للمستقبل ؛ استعداد غامض للانتقام — الذي لم يحن وقته بعد — للحساسية
والخيال . لقد نظرنا إلى هذه القوات ، كما هي عليه ، قابلين ، مسجلين
مظاهر هذه الحياة الملموسة ، في تنوعها المبهم . هل يمكن الآن أن نسرف
عليها ، وأن نميز ، من وجهة نظر أعلى ، بعض المبادئ التي تحب عناصر
المقاومة هذه أن تتجمع حولها ؟

* * *

شعور الفوارق القومية : من يستطيع أن يستأصله ؟ إنه يدخل في الموضوع
قيماً لا تقبل أي نقص ؛ إنه يصدر عن أسباب يعرفها العقل ، وعن أسباب
أخرى لا يعرفها العقل .

طريقة واحدة في التفكير ، وبالتالي طريقة واحدة في التحرير ، تسعى لكي
تفرض نفسها على كل البلاد : النظام ، الدقة ، الحكمة المنظمة ، الخيال المتين
الذي يكتسب بالصبر الطويل والجهد المتين : هذه حقيقة أولى . لكن
أليست الحقيقة الثانية أن كل بلد كان يفسر على طريقته ، هذا المبدأ العام ،
وبذا تظهر فوارق محسوسة ، بل قل اختلافات ، في هذه الوحدة المرغوبة ؟
فمثلاً : قبلت إنجلترا الكلاسيكية ، من جهة تحت تأثير فرنسا ، ومن جهة
أخرى لأنها كانت تروم إصلاحاً داخلياً ينظم قوتها . بيد أن هذا لم يكن أبداً

إلا كلاسيكية بريطانية ؛ كلاسيكية منفصلة ؛ كلاسيكية اصطلاحية (١). ولنضرب في الحال مثلاً بينا . يعدد سويقت من الكلاسيكيين ؛ والواقع أنه شارك في ضبط النثر الانجليزي إلى حد كبير ؛ وهو يشرح في المدارس ، ولا ريب في أنه سيشرح فيها على الدوام ؛ إنه أوقى تلك المتانة في الملكة ، تلك العبقريّة التي لا تنكر والتي تجعلنا لا نتردد في عدّه من بين أكبر كتاب شعبه ؛ ومع ذلك فكم يبدو كلاسيكياً غريباً في نظر الفرنسي ، اليوم ، ومن باب أولى في نظر الفرنسي الذي كان يقسم ببوالوا فلنتصفح « قصة البرميل » ؛ ولنحاول أن تضع أنفسنا محل قارئ من القاءة ، بما هو عليه من حالة ذهنية في عام ١٧٠٤ ؛ ولنتخيل دهشته . فأولاً ، أي اختلال ! هذا الرجل لا يعرف أصول التأليف ؛ إنه يتبع الفكرة الأولى التي تمر بذهنه ، ويحيد عنها ، ثم يحيد : كما لو كان يجهل تلك الوسيلة الهامة لفن التحرير التي تسمى التسلسل . إنه لا يصغي إلا لهواه ؛ واستهلالاته أطول من عروضه وبياناته ؛ وليس لديه أي احترام للمنطق القطعي ؛ وذلك يجعله يبدو كما لو كان يسخر منا . « بعدما ألقيت بنفسي في تلك الانحرافات الواسعة ، أعود إلى الطريق معتزماً تتبّع موضوعي خطوة خطوة حتى نهاية رحلتي ، ما لم يعرض لذهني مشهد ظريف... » ماذا تقول في مؤلف يستطرد في مدح استطراد ؟ وأي صور خارقة للعادة ؟ أي شذوذ ! أي جنون في الخيال ! « إن الحكمة « ثعلب » ، كثيراً ما نظارده بلا جدوى ، إذا لم نجبره على الخروج من جحره ؛ الحكمة « قطعة من الجبن » تزداد حلاوتها كلما كانت قشرتها سميكاً ، متينة ، مقرزة ؛ الحكمة « شوكلاتة » تزداد لذتها كلما اقتربنا من عمقها . الحكمة « دجاجة » لا بد من أن تحتمل صوته المزعج لأنه يتبعه بيضة ؛ الحكمة تشبه « جوزة » ، إذا أنت لم تحسن اختيارها كلفتك سناً ، ولا تأخذ منها إلا دودة... »

ثم ما هذا الهوس في مهاجمة كل شيء وتدمير كل شيء ؟ إنه يهاجم الكاثوليك أولاً ، ثم اللوثرين ، وأتباع كالفين ، والمتحمسين من كل نوع ؛ إننا لانضمن أبداً ، أنه بعد ملاطفته لنا ، لا يعضنا ؛ إنه يحتاج ، ويستولي عليه الغضب ،

(١) أنظر في هذا الصدد الملاحظات النفاذة للويس كازاميان في « تاريخ الأدب الإنجليزي » بقلم ا. لوجوي ، ل. كازاميان ، ١٩٢٤ ص ٦٩٤ .

العناصر القوسية والشعبية والغرزية

٣٩١

ويشتم ويسب : إنه أرسطوفان (١) مجنون . وما هذه الاستعارات الدائمة ؟ !
وتلك السخرية ؟ ! إنها لا تنتهى . وهذه الدعاية القاسية ! « لقد رأيت فى
الأسبوع الماضى جسد امرأة مسلوخة الجلد ؛ ولا يمكنك أن تتصور كم كان
هذا النوع من العرى فى غير صالحها . . . » .

كم من انجليزى ، وقد اعترف بقيمة القواعد الكلاسيكية ، بل حاول أن
يجاريها ، استشعر فى صميم قلبه أسفا على الحرية المفقودة ! كم منهم من فكر
أن أرسطو ومن بعده هوراس ، كان فيهما الكفاية ، وأنه لم تكن هناك حاجة
إلى التزام الصرامة والصلابة الفرنسية ! « كأننا لى نحصل على عسل شهى ،
قصصنا أجنحة النحل ، وأجبرناها على التزام خليتها ، أو على عدم الابتعاد
عنها . . . النحل تريد أن تنطلق فى الريف ، كما تنطلق فى البساتين ، لى
تختار بنفسها الزهور التى تروقها . . . (٢) » .

ويزداد الاختلاف بروزاً ، ويصبح عنيداً بل شديداً ، حين لا يتعلق الأمر
بالأدب بل بالأخلاق ؛ أو بمعنى آخر حين يتعلق الأمر بالدفاع عن ملاذ
آمن وأعمق ، عن عادات متأصلة ، عن كيان نوعى خاص . عندما نطالع
قصص أو كوميديات زمن كان يقبل ، على كل حال ، وإلى حد ما ، نموذج
المؤانسة الفرنسية ، فأننا ندهش لشدة رد الفعل . إن فرنسا تمثل لها كوقحة ،
قد خلفت للنبدن أساتذة الرقص ، وخدمها الفاسدين ، ووصيفاتها الفاسقات ،
وتجار البدعة ، ونساءها المغامرات ، وبلاءها الزهوين الذين يستعرضون
أساليبهم الجميلة بحفاوة ، والذين ليسوا إلا جبناء خداعين . إن الانجليز يعرضون
مقابل هذا ، الانجليزى الفاضل ؛ البسيط ، الصارم ؛ وهذه الصرامة نفسها
تعرض كفضيلة . من الأفضل أن يحتفظ المرء بصراحة كلامه ، وخشونة سلوكه
وقوته البكر ، بدلا من أن يستسلم للفساد تحت تأثير قوة أجنبية ، تزوم أن
تجعل منه رجلا آليا ، عديم الرأى ، منافقا ، « جميلا » . هكذا يظهر الفرنسيون
والفرنسيات فى كثير من المسرحيات ، فى دور المنقرئين : أشخاص سخفاء ،

(١) الشاعر الهزلى اليونانى السهير ، وقد صار فى الأدب مثالا للكاتب الذى يهاجم
بشدة ، ويسخر من نقائص معاصريه . [الترجمان]

(٢) ولیم تبیل ، عن الشعر ، فى « متنوعات » ، ١٦٩٢ - ترجمة فرنسية ، أوترخت ،
١٦٩٣ ، ١٦٩٤ . أمستردام ، ١٧٠٨ .

مهمتهم أولاً إثارة مرع الجمهور، ثم تبيان قيمة المزايا، المزايا الإنجليزية المتينة. وتشكو إيطاليا من عبوديتها لفرنسا؛ والواقع أنها أصبحت أمة لها، إلى حد ما. ولكن هنا أيضاً، فلنحذر التوكيدات المطلقة. فلا يقتصر الأمر على أن بعض شعرائها يحتفظون بفكرة الوحدة الرومانية قائمة حية، فكرة أن شعب «الغال» ليس على كل حال إلا طارئاً متأخراً، والأمل في عودة عهد يسترد فيه السلطان الحقيقي حقوقه لحسب؛ بل مادامنا قد ذكرنا الكلاسيكية، فإن علماء إيطاليا يطالبون بحقوق كلاسيكية إيطالية، سابقة في تاريخها على المذهب الفرنسي، هي وحدها الشرعية، الصحيحة، النقية. إنهم يواصلون «النهضة» بعناد، نهضتهم هم: من يستطيع أن ينكر فضلهم فيها؟ بينما يسعى الشعراء إلى تقليد كورنيل وراسين، معلنين عزمهم صراحة على النجاح أكثر مما نجحوا، تراهم يرددون أنهم يرغبون في البقاء مخلصين لروح، ولنموذج التراجيدية الاغريقية: الوحدة التي يحسب لها حساب، والتي آلت إليهم ملكيتها بحق الاكتشاف والاستثمار الأول. ويعد، فإذا فعلت فرنسا؟ لقد شوهت، وأفسدت تلك النماذج النبيلة. لقد خنثت التراجيديا العتيقة، جعلتها أنيقة، وأعطت للتعبير عن الحب مكانة زائدة عن الحد. إن الأستاذ العظيم لا يزال هو سوفوكليس: إليه يلجأ أن نعود.

وبدأت الشعوب تتحارب أيضاً، لاسترداد حق الأسبقية في الزمن. وعندئذ حاولت جميعها النزول إلى أعماق ماضيها، لاستحضار وثنائى العراقة. كلها تملك أقدم لغة، أقدم شعر، أقدم نثر، أقدم حضارة. وأخذ كل شعب يؤكد فخراً، أن جيرانه ليسوا إلا سامعين، محدثي نعمة. ولم يبذل أى بلد جهداً شجاعاً قدر ما بذلت ألمانيا في هذا السبيل. لم تكن إلا تراها، كانت مسحوقة، ذليلة. كانت تعاني كل أنواع النفوذ، وليس لها أى نفوذ، ولذا لم تعد تبدو قوة معنوية. ولكنها دافعت عن حيويتها الغاسضة، ولتوطيد كيائها، كانت تجادل في كل الجبهات. الوحدة؟ سوف تستعيدوها بسهولة باصلاح داخلي، كما قال بوفندورف، كما قال لينتزر — القانون؟ ألم يكن هناك قانون جرمانى أقدم

وأسمى من القانون الروماني ، ومن القانون الاكيري ؟ القانون الروماني ، القانون الاكيري ، ذلك كل ما لعلمه في الجامعات ، أى خطأ كبير ؛ لقد حان الوقت لكي نرد إلى القانون الأهل القومي مكانته — اللغة ؟ لكن اللغة الألمانية كانت في قدم وفي جهال اللاتينية ، واليونانية ، وأية لغة كانت : إن اللغة الألمانية قديمة قدم الدنيا . — الأدب ؟ إن الأدب الألماني لم يكن يقل عن أى أدب آخر . ذلك ما أثبتته في عام ١٦٨٢ ، العالم مورخوفوس . كم بذل من جهد ، كم جمع من براهين ! كم كنت تشعر ، في كل صفحة من صفحات كتابه الدسم ، الضخم ، بحب الوطن الألماني ! كان يقول إن ألمانيا كان لها شعراء في ذروة المجد ، نسيناهم ظلماً ، مثل هانز تراخ ، وشعراء أقدم منه ، يطالب بهم أولاً وس رودنك لاسكندناوة بدون وجه حق . وكان لفرط حماسه ، يستدل استدلالاً غريباً : كان لألمانيا شعراء لم يبق لهم أى أثر ، ولكن هذا لا يعنى أنهم لم يكن لهم وجود : بل على النقيض ، لابد من أنه كان لهم وجود ، مادام الشعر في كل الشعوب هو أول صورة للأدب ؛ وبالتالي فإن لهم وجوداً ، سواء جهلناهم أو لم نقف على وجودهم . . .

إن هذه اللغة الألمانية التي تملك قوة اللغة الاغريقية ، وعظمة اللغة الرومانية ، وجمال اللغة الفرنسية ، وفتنة الايطالية ، وغنى الانجليزية ، ورفعة الفلمنكية ؛ إن هذه اللغة ستعطي — كما يرجو محاسوها المتحمسون — روائع أدبية سوف تجبر أوروبا الغربية على الاعتراف بمزيتها . أى صيحة انتصار ! حين ظهر في عام ١٦٨٩ « أرمنيوس وتونلدا » تأليف كاسبرز فون لوهنشين . أخيراً ظهر مؤلف عظيم ، وفي « للوطن *patria amantissimus* » ، قد بحث ووجد موضوعاً جديراً بالشعب الجرمانى ؛ إنه مجتد ذلك البطل أرمنيوس الذى قاوم روما ، لا في بدايتها الضعيفة ، بل إبان عنفوان قوتها ؛ إنه يرد لألمانيا إكليل الغار . صيحات الغبطة ، ودوى النصر . . .

نداء الحنين *Sehnsucht* ، أى صفة للنفسية الألمانية الأبدية أشهر منه ؟ إنه لا يفتقد في زمن تزعج فيه أنوار المعرفة أن تباد كل ظلمات النفس ، وأن تضيء حتى ما وراء الشعور . كان كريستيان وايز ، الشاعر ، عالم التربية ، الذى توخى في كل تأليفه البحث المؤثر عما هو بسيط ، وطبيعى — يقدم كل سنة مسرحيات تمثل في المدرسة التي يديرها : ومن هنا ، متعة الطلاب الذين

أصبحوا ممثلين ؛ وزهو الآباء . وقد ظهر عذاب نفس غير قالعة ، في إحدى هذه المسرحيات « النفس المعذبة » *Die unvergnügte Seele* ، التي مثلت في عام ١٦٨٨ . إن فرتيمنوس ، الكريم المحتد ، الطيب ، الذي كان المنطق يقتضى أن يكون سعيداً في الحياة ، كان تعساً شقيماً : يشعر بأنه غير قادر على التمتع بالمال الذى يملكه ، ولا يستطيع أن يقول ماذا يتقصه . فيحاول أن يملأ فراغ نفسه : بالنساء ؛ بالصحبة المرحّة من الندماء ؛ بالألقاب ؛ بمعاشرّة كبار الفنانين : لكن كل ذلك لم يجده ؛ فيقع فريسة اليأس ، يوشك أن يموت ؛ ألا راحة إذن إلا في الموت ؟ — وعند هذه النقطة ، تنقلب المسرحية إلى موعظة أخلاقية ، فتفقد فائدتها السيكولوجية . ويمر فلاحان ، « القانع والمطمئن » *Contento et Quiete* ؛ وقد عرفا صروف الدهر ، التي كانت كبيرة ، ولكن ذلك لم يقلل من تذوقهما للحياة ، إذ لم يطلبها منها إلا ما كان في وسعها أن تعطيه ؛ فيعطيان درساً لفرتيمنوس ، الذى يصغى إليهما ، ويتوب .

إن النفس غير القالعة لا زالت خجولا ، متواضعة ؛ تعوزها الكبرياء ، فهي لا تعد نفسها ذات امتياز بل تعتقد أنها قابلة للشفاء . ولكننا نعلم أن فرتيمنوس سيكون له خلفاء ، سيذهبون في ضجرهم إلى أقصى درجاته ، وسيستشهدون بالدنيا وبالله ذاته على تعاستهم ، وأن « القانع » و « المطمئن » لن يسعفاهم عندما يعتزمون مفارقة هذه الدنيا التي لا تليق بهم .

لم يدر بخلد نقاد ذلك الوقت ، الذين أعجبوا « بأرمنيوس وتوزميليلا » ، أو بأشعار كرمستيان ويز العديدة — أن ألمانيا كانت قد أنتجت رواية من أروع الروايات ، ترجم فيها لأول مرة عن نفس جماعية : الرجل البرى ، *le Simplicissimus* لجريملسهوزن . لعلها تشبه روايات الأشقياء ، بالمغامرات العديدة التي يخوضها البطل : لكن فيها لذة محلية عميقة كل العمق ، حتى إنها تحسنت المترجمين ، ولا زالت تتحدثهم إلى الآن في بعض البلاد كفرنسا . موضوعها ذكريات حرب الثلاثين ، إتلاف الحصاد ، نهب القرى ، التشكيل بالفلاحين ، النار في كل مكان ، الدماء في كل مكان . موضوعها العقل البرى ، السليم ، الملقى به في وسط مدينة فاسدة ، تغريه وتغويه ، ولكنه ينتهى مع ذلك بالغبلة عليها . موضوعها الايمان ، الذى يحترق الأرض كأنه غاية من القائل الرمزية ، الذى يعي أنه يعيش وسط وفرة من الأوهام الوقتية ، تواقاً

على الدوام إلى الحقائق الأبدية ؛ موضوعها المسيحي الذي يكسب السماء بمشقة ، بمروره بألف امتحان ، بالجهل ، بالخطيئة ، والتوبة ، والأمل الذي يسبق الغبطة الأبدية ؛ هذه الموضوعات تنمو ، وتتعانق ، وتذوب وتستعيد نعمتها الأصيلة ، وتتسلسل في تدفق ولضرة ليس لها مثيل ، مترجمة بفروسة شعب يعتقد جيرانه أن موته وشيك ، بينما يظهر ، على النقيض ، إرادة لاتلين في قوة أصيلة .

ولم يكن الناس قد اخترعوا ، عندئذ ، نظرية تفوق جنس على جنس آخر . ولم يكونوا قد حللوا بعد ، مضمون هذه الكلمة : الوطن . بل حتى لم يكونوا قد كونوا فكرة واضحة عما يمكن أن يكون الشعب . ولم يكونوا قد أضافوا بعد ، إلى المشاعر التي يولدها في النفوس نداء الأرض وقباب الأجراس ، عمل العقل الذي يفسرها ويبررها . ولكن هذه المشاعر كانت حية في النفوس ، وبمجرد ما كان إيطالي من إيطاليا الممزقة ، أو ألماني من ألمانيا المفرقة ، أو بولندي من بولندا التي تعارب نفسها بنفسها ، أو إسباني من إسبانيا الغافية ، يعتقد أن أحداً قد مس مزية بلده أو حتى مجده الخارجي ، كان يبتدىء الاحتجاج والنزاع ؛ كان العقل الشامل المسوى يفقد حقوقه أمام الخصائص الأهلية .

وكنت تسمع أحياناً أغنية ، لا هي قصيدة مؤلفة بدراية ، ولا هي بغزلية ولا هجائية ، بل أغنية شبه بربرية ؛ تذكر أن أحد ملوك اسكندناوة في القرون الوسطى - رينير لادبروج - وقد نهشته أفعى نهشة مميتة ، تروم بأشعار باللغة الجرمانية القديمة ، قبيل سريان السم إلى قلبه (١) ؛ وكانت هذه الأشعار تستطيع ، بما فيها من غرابة ، أن تدهش أو تفتن معاصري ولیم أورانج ولويس الرابع عشر . وكانت هناك أيضاً أشان شعبية ترد من أقصى الأصقاع ، من بلاد أولئك السكان الذين لا شبيه لهم ، سكان القطب ، اللابلانديين . أغنية صحراء الجليل :

(١) ولیم تمل مقال عن « الفضيلة الباسلة » في « المتنوعات » ، القسم الثاني ، لندن

١٦٩٠ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ W. Temple, Essay upon Heroic Virtue

*O soleil levant, dont le joyeux rayon
Invite ma beauté aux plaisirs champêtres,
Dissipe la brume, éclaire le ciel,
Et amène devant moi ma chère Orre.*

*Ah! si j'étais sûr de la revoir, ma bien-aimée,
Je grimperais jusqu'à la plus haute branche de ce sapin;
Là-haut, dans cet air qui doucement frissonne,
Et tout à l'entour, je regarderais sans trêve...* (١)

أو أغنية الرنة :

*Hâte-toi, mon renne, et accomplissons d'un pas agile
Notre voyage d'amour à travers cette lande désolée.
Hâte-toi, mon renne, tu es encore, encore trop lent,
Un amour impétueux exige la vitesse de l'éclair...* (٢)

ولم يكن هذا شيئاً مذكوراً ، وسط الأشعار العديدة المنظومة وفقاً لأحسن القواعد ؛ ولقد كانت تقل عن ذلك ، لو لم يدر بخلد أديسون أن يتم بهذه الأشعار الفجة ، وأن يعترف بأعجابه بها . ألعم بأغنية Chevy Chace القديمة ، وبالقصيدة الرقيقة « طفلان في الغابة » : لقد كانتا بريئتين وجميلتين ؛ وكان يسره أن يسمع ، وهو يخترق الفجرا ، تلك الأغاني التي يتوارثها الابن عن الأب ، والتي تعد فتنة البسطاء (٣) . صحيح أن أديسون يدخل هوميروس وفرجيل ، تيريراً لذوقه ، ليبين أن في تلك الأشعار ما في الأوديسا والانايد من مزايا . ولكنه لحسن الحظ ، لم يصر على هذا الإثبات العلمي ، بل عاد إلى مدح الطبيعي ، الفطري ، التعبير الساذج للفلاح يعود من حرثه ، مردداً أغنية — تعبير الروح الشعبية . « هذه الأغنية هي صورة بسيطة للطبيعة ،

- (١) أيتها الشمس المشرقة التي تدعوا أشعتها المرحية — حسناً إلى النبع البرية — اقشعي الضباب ، وأضيئي السماء — وإلى بالعزيزة أورا .
آه ... لو كنت واثقا برؤية حبيبتى مرة أخرى — لتسلقت أعلى غصن لشجرة الصنوبر هذه — عالياً هنالك ، حيث يخفق النسيم الرقيق — وتطلعت فيها حولي على الدوام ...
(٢) أسرعى يارنتي ، ولتتم بخطوة سريعة — رحلة غرامنا خلال هذه البداء الوحشة — أسرعى يارنتي ، إنك لازلت شديدة البطء — إن الحب الجارف يتطلب سرعة البرق ... (سبكتاتور رقم ٣٦٦ ، ٤٠٦) .
(٣) سبكتاتور ، رقم ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٥ .

مجردة عن كل عوامل الفن وزخرفته . . . ؛ وهي لا تروقنا إلا لعين هذا السبب : إنها صورة من الطبيعة . . . »
وفي قطب آخر للحياة ، كانت تسود أيضاً ، أو تسرى على الأقل ، فكرة أن السلطة الشعبية هي وحدها الشرعية ، وأن السلطة الملكية لا تقوم إلا بتفويض منها . وحتى في مملكة فرنسا ، كان هناك قوم يذكرون بأن شعوب « الفرنجة » Les Francs كانت قد غزت شعوب الغال ، وأن الفرنجة كانوا يعقدون اجتماعاتهم في ميدان مارس ، وقد اعتادوا أن يعينوا لهم رؤساء ؛ وهكذا لم تعد السلطة تستند على بعض امتياز إلهي ، أو تقليد روماني ، بل على مبايعة من جانب كتلة المحاربين لسيد يختارونه بحرية . فالشعب ، كديموقراطية ، لم يكن له بعد وجود ؛ ولكن فكرة السلطة الشعبية كانت تتكشف ، مليئة بالمستقبل .

**

الغريزة : إنها لم تكن قد اكتسبت بعد عطف الناس ، مادامت تنفر المسيحيين وتقلقهم ، ومادام الفلاسفة لا يزالون يترددون في حسابان الطبيعة خبيثة تامة الطبيعة ، مفضلين جذبها نحو العقل . ولكنها على الأقل لم تكن غائبة تماماً عن المشاغل الحارية . حيناً يشتهر طبيب بالجامعة ومبادئها ، ويمتدح طريقة علاج الرء لنفسه بنفسه ، وحفظ الصحة بالغريزة . وحيناً ، يتكلم رجل مبتكر عن الإلهام الشعري ، لينسب مصدره إلى نوع من الجنون furor ، إلى جنون فائق ، إلى الغريزة . وفي هذا الصدد ، كان هناك عامل مضائق ، يتملص من الجهود الفكرية ، والتقود الاختيارية ؛ عامل نقى العقليون عنه كبيراً ليخضعوه للظاعة : الجليل الجبال Le sublime . لما قال الناس إنه ليس إلا الحقيقي والجديد مجتمعين في فكرة كبيرة ، ومشروحين بأناقة ودقة ؛ وإنه بغير الحقيقي لا يمكن أن يوجد جمال جليل ، وبالتالي أي جليل ؛ كانوا يشعرون أن الدعوى لم تنته بعد . لذلك كان يدفعهم ولح لا يقنع إلى سؤال لونغين (١) ، الذي لم يخش أن يعترف هذه الكلمة الصعبة ، والذي كانت في صفته هيبة الأزان القديمة . الجليل

(١) لونغين : origin . في البلاغة اليوناني مؤلف « بحث في الجليل الجبال » Traité du sublime الذي ترجمه بوالو (٢١٣ - ٢٧٣) . [الترجمان]

الجمال — أليس بالرغم من كل شيء ، قيمة تخرج إلى حد ما عن رقابة العقل ؟
ماذا كانت تلك المناقشة حول أرواح الحيوان ، التي استمرت منذ ديكارت ،
والتي لم تكن قد أوشكت على الانتهاء ، وقد دعت إلى المبارزة المفتوحة الباب
دائماً ، أبطالا من كل نوع ، — ماذا كانت ، إن لم تكن احتجاجا في صالح
الغريزة ، وإن كان غامضاً ؟ لما جعل الناس يدافعون ، فلانا عن جواده
العزيم ، وعلانا عن كلبه الأليف ، لم ينسبوا للحيوان روحا شبيهة بروح الانسان ،
لم يطالبوا لها إلا بأدراك جزئي : ولكنه كان واضحا أنها تحب ، وتتعذب ،
وأنها لم تكن آلات ، مادامت الآلات لا صلة لها بالشعور : قال لافونتين منذ
ذلك اليوم ، في خطابه إلى مدام لاسابليير إنه يلسب إلى الحيوان :

*Non point une raison suivant notre manière,
Mais beaucoup plus aussi qu'un aveugle ressort :
Je subtiliserais un morceau de matière
Que l'on ne pourrait plus concevoir sans effort,
Quintessence d'atome, extrait de la lumière,
Je ne sais quoi plus vif et plus mobile encor
Que la flamme ...*

*Je rendrais mon ouvrage
Capable de sentir, juger, rien davantage,
Et juger imparfaitement ... (١)*

كان « ماجالوتى » عالم الطبيعة الفلورنسى ، وروح مجمع « سيمنتو » أكثر
جسارة ، في استشهاده ضد ديكارت بجبنه للحيوان ، « الحب البالغ ، الحنون ،
والذى كثيراً ما يبدو في غاية الجنون والغباء ، الذى نكنه لكلب ، أو هر ،
أو جواد ، أو بغاء ، أو عصفور . » ولقد قال « دانتي » :

Amor, ch'è nullo amato amar perdonna ...

وقال « لوتاس » Le Tasse :

*amiamo or quando
Esser si puote riamati amando ;*

(١) لا عقلا كالذى لعده — بل شيئا أكثر من محرك أعمى :
لو أنى بخرت قطعة من مادة — حتى تصبح شيئا لا نستطيع تصويره بلا جهد ،
جوهر ذرة ، أو خلاصة ضوء — أو شيئا أكثر حيوية وحركة — من اللهب ...
لجعلت عملى — قادراً على الحس ، والحكم ، ولا شيء أكثر ، لكن حكماً غير
كامل ...

« نحن لا نحب إلا إذا كان محتملاً أن نحب » . وإذن فإدمننا نحب الحيوان ، فلا بد أنه يحبنا ؛ وإذن فهو لا يخلو من الاحساس . . . - بتلك الأصوات المتشعبة ، وفي تلك الظروف المختلفة ، كان يظهر فعل ذلك الجزء من الوجدان الذى يتوق إلى الاحساس : فقاعات تصاعد من أعماق المستنقعات ، وكثيراً ما تقف على أديم المياه .

أيها العرائس السعيدة ، أيها الرعاة السعداء ، الذين يعيشون حياة وادعة على مقربة من العيون ، وفي عزلة الغابات ، كم كان يحسدكم الناس في هذه الأوقات المجدبة ! ويا أهل الأندلس القديم البسطاء ، ياسن كنتم تستغنون بمثل تلك السهولة - في أحلامكم اللذيذة - عما في المدنية من مغالاة في الرقة والترف ؛ كم كانوا يمتدحون سعادتكم ، التى يجهلها أولئك الذين كفوا عن اتباع قوانين الطبيعة ! « أوه . . . ما أهد هذه الأخلاق من الأخلاق الباطلة الطموحة للشعوب التى لظنها أوفر الشعوب حكمة ! لقد بلغنا من الفساد حداً لا نكاد معه نتصور أن هذه البساطة يمكن أن تكون حقيقية . نحن ننظر إلى أخلاق هذا الشعب كأنها أسطورة جيلة ، ولا ريب أن أخلاقنا تتراعى له كحلم مرعب ! » - أيها الممجى السعيد ، بأى لهجة ثورية أعلن الناس أنك ينبغى أن تكون مثالا للحياة الكاملة ، وأن الأوربي ينبغى أن يجعل من نفسه هيرونيا (١) ! لقد أعلن أذى الناس إفلاس العقل :

*Source intarissable d'erreurs,
Poison qui corrompt la droiture
Des sentiments de la nature,
Et la vérité de nos cœurs;
Feu follet, qui brilles pour nuire,
Charme des mortels insensés,
Esprit, je viens ici détruire
Les autels que l'on t'a dressés ... (٢)*

(١) Hurons : قبيلة من مواطني شمال أمريكا ... [الترجمان]

(٢) شوليو Chaulieu قصيدة ضد العقل ، ١٧٠٨ .

يامنيع الضلال الذى لا يغيض - أيها السم الذى يفسد استقامة الشاعر الطبيعية ،
وحقيقة القلوب ؛ - أيها الاله الشيطاني الذى يلعب ليغوى ويؤذى ، - يافتنة
الغاليلين ، - أيها العقل ، لقد جئت لأدمر الهياكل - التى أقسمت لك ...

*Esprit ! tu séduis, on t'admire,
Mais rarement on t'aimera ;
Ce qui sûrement touchera
C'est ce que le cœur nous fait dire ;
C'est ce langage de nos cœurs
Qui saisit l'âme et qui l'agite ;
Et de faire couler nos pleurs
Tu n'auras jamais le mérite ... (١)*

أما الناس الأقل إحساساً ، ولكنهم أحذق في تنسم الريح ، فقد أعلنوا
مساوئ العقل :

*C'est elle qui nous fait accroire
Que tout cède à notre pouvoir ;
Qui nourrit notre folle gloire
De l'ivresse d'un faux savoir ;
Qui par cent nouveaux stratagèmes
Nous masquant sans cesse à nous-mêmes
Parmi les vices nous endort :
Du Furieux fait un Achille,
Du Fourbe un Politique habile,
Et de l'athée un Esprit fort.*

*Mais vous, mortels, qui dans le monde
Croyant tenir les premiers rangs
Plaiguez l'ignorance profonde
De tant de peuples différents, (٢)*

(١) أيها العقل ! إنك تفتن وتعجب — ولكن يندر أن تحب ؛ — إن الذي يؤثر
بكل تأكيد ، هو ما يملئه علينا القلب ؛ — إن لغة القلوب هي التي تملك
النفس ؛ ولن يكون لك أبداً — فضل إمالة السوع ...

(٢) جان باتيست روسو Jean-Baptiste Rousseau القصيدة التاسعة ، إلى المربي
دي لافار .

هو الذي يجعلنا نظن — أن كل شيء يذعن لقدرتنا — هو الذي يغذي عظمتنا
الجنونية ، بنشوة علم باطل — هو الذي يعمينا عن حقيقة أنفسنا — بمائة حيلة
حديثة — فيستبقينا في أحضان الرذيلة — يخلق من كل ثائر « أشيلا » — ومن
الخداع سياسياً حاذقاً — ومن الكافر « عقلاً قوياً » .

أما أتم يا من تظنون — أنكم في مقدمة الصفوف في الدنيا — فتشفقون على
الجهل العميق ، لكل تلك الشعوب — يا من تخلطون بين الحيوان —

*Qui confondez avec la brute
Ce Huron caché sous sa hutte
Au seul instinct presque réduit :
Parlez : quel est le moins barbare
D'une raison qui vous égare
Ou d'un instinct qui le conduit ? (١)*

منذئذ ، بدأ يظهر تعبير مؤثر لهذا الشعور ، لهذه الحاجة إلى اطراح كل الخدع التكتلية : عبء القرون الذي يثقل كاهلنا ، والنفاق الذي ندعوه أخلاقاً دون أن نصدق بها . كان هناك ذات مرة إنجليزى يدعى « توماس إنكل » ، ثالث أبناء أحد مواطنى لندن الأثرياء ، أبحر إلى بلاد الهند الشرقية للامجار . وفى أثناء رسو السفينة فى أحد الشغور ، اغتال الهنود فريقاً من جماعته ؛ وهرب واختبأ ، واكتشفته هندية ، فتية جميلة ، اسمها « ياريكو » . ولقد أحببت ذلك الأجنبى ، ذلك الشمس ؛ ووهبته نفسها جسماً وروحاً ؛ وتولت غذاءه واستبقته ؛ فوعدها بأن يصطحبها إلى إنجلترا إذا تهيأت الفرصة . وذات يوم لحا شراع سفينة فأشاراً إليها : واقتربت السفينة ، ونزل بعض البحارة ثم اقتادوهما إليها : فكانت السلامة . ولكن على طول الطريق ، جعل توماس إنكل يحلم . ماذا سيفعل بهذه المرأة ؟ لقد أضاع وقته ، وماله : اعتزم أن يبيعها كأمه فى أقرب ميناء . بكى الهندية وأنت ، وحاولت أن تمس شفاف قلب عشيقها ؛ ولما كانت حاملاً قتله باعها توماس إنكل بثمن غال . هكذا يتصرف المتمدنون (٢) . . .

وذات يوم صادف فوتنل الغريزة فى الطريق ؛ فأخذه الدهش ، بل تكدر لهذا الظهور . « أعنى بكلمة غريزة شيئاً مضافاً إلى عقلى ؛ يولد مفعولاً مفيداً لحفظ كيانى ؛ شيئاً أفعله دون أن أعرف لماذا ، ومع ذلك فهو يفيدنى كل الفائدة ؛ وفى ذلك كل أعجوبة الغريزة . . . » ولما كان لا يمكن أن يقبل مثل هذا الخروج على المنطق ، ومادسنا قد اتفقنا على أن « العجيب » ليس له أى حق فى الوجود ، فإنه يتوصل بأصعب رياضة ذهنية ، ويأخذق البراهين

(١) وذلك الهيرونى اللائذ بالكوخ - الذى يعيش على الفطرة - فلتنكلموا : أيهما

أقل بربرية - العطل الذى يضلكم - أم الغريزة التى تقوده ؟

(٢) سبكتاتور ، رقم ١١ .

ليثبت أن الغريزة ليست إلا عقلا يتردد ، عقلا لم يلتخب بعد ، بشكل واع بصير ، وسيلة من وسائل العمل المختلفة التي تعرض له : ومنذئذ يعد فونتنل نفسه مطمئنا .

ويخيل إلينا أننا لازلنا بمبعدة عن « الغريزة الالهية » التي سيمجدها جان جاك روسو . لكن أقل مما نظن ، إذا نحن - بدلا من أن نبحث عند الذين لا يستطيعون العيش دون ترف الحياة - سألنا أصحاب الطبع الخشن ، وإذا وجدنا لدى سويسري يدعى بيات دي سورا ، تصويراً أوليا لمقال روسو الشهير :

« منذ ما فقد الانسان شغله وكرامته ، فقد أيضاً معرفة ما يخصه ، وفي تلك البلبلة التي تعيش فيها ، لا نعرف ماهية كرامتنا ومشاعرنا . ولما كان النظام وحده هو القادر على أن يرد لنا هذه المعرفة ، فظنني أن هناك وسيلة واحدة للبقاء في النظام : هي اتباع الغريزة التي تكمن فينا . الغريزة الالهية التي ربما تكون كل ما تبقى لنا من حالة الانسان البدائية ، والتي تركت لنا لاعادتنا إلى هذه الحالة . كل المخلوقات الحية التي نعرفها لها غريزة لا تخدعها أبداً . فهل الانسان ، الذي يفوق في كماله كل هذه المخلوقات ، ليس له غريزة ، بحيث تشمل كل خلقه ، وبحيث يكون فيها من الوثوق بقدر ما فيها من الشمول ؟ لا شك في أن له غريزة ، وهذه الغريزة هي صوت ضميره ، حيث يتصل الاله بنا ويحدثنا . . . (١) »

« الغريزة الالهية التي ربما تكون كل ما تبقى لنا من حالة الانسان البدائية ، والتي تركت لنا لاعادتنا إلى هذه الحالة » : هل من الممكن أن نجعل بندااء الرجل البدائي جلجلة أوضح وأعلى من هذه ؟

(١) رسالة عن الرحلات ، كتبت فيما بين ١٦٩٨ ، ١٧٠٠ . انظر إلى طبعة ش . جود ،

الفصل الخامس

سيكولوجية القلق ، استطيقا الشعور ، ميتافيزيقا الجوهر ، والعلم الجديد

سيكولوجية القلق

لقد أمسك لوك عن الألعاب الكبرى ، كما قلنا ؛ ولما كان رجلا متواضعا ، فقد ترك البحث عن الحقائق السامية ، وقنع بالحقائق اللسبية ، التي يمكن أن تلمسها أيادينا الضعيفة . وإن من يطالب منه التحليق العالى فى سماء الخيال ، لخطئ فى العنوان ؛ فان لوك الحكيم لن يدلّه إلا على طريق أمين سالم نحو يقين متواضع ، طريق ممهد ، خال من النزوات .

وسم ذلك ، فأى نتائج مستقبلية ، فى توكيده هذا : إن الاحساس هو العمل الأوّلى للنفس ! لأن هذا التوكيد — إذا فكرنا فيه جيدا — يثير انقلابا فى القيم التدريجية التى كانت تبدو حتى ذلك الوقت أثبتت القيم الموروثة . فالأفكار النبيلة ، أجل الأفكار وأنقاها ، والمبادئ الأخلاقية ، ولشاط النفس ، كل هذا منشؤه الاحساس . والعقل الذى يؤثر على الاحساس نفسه ، ليس مع ذلك إلا عاملا ، عاملا معاونا ؛ فلا حياة عقلية بلا حياة عاطفية تسيطر عليها .

إن التابع يصبح سيدا ؛ إنه يستقر ، لقد فاز بحق الرشد وحق الإصالة ؛ وإن شهاداته لمسجلة فى « المقال عن الادراك الانسانى » .

إنه ليس جوهر النفس — ولكن جوهر النفس يستحيل إدراكه ؛ والشئ المحقق أن هذا الامتياز لا يمكن نسبته ، بأى حال ، إلى الفكر . لو كانت النفس فى جوهرها فكرا ، لما كنا نراها تمر بحالات مختلفة (كما نراها فعلا) ، منذ الالتباه وما يصحبه من مجهود كبير إلى نهالة توشك فيها على الفناء . إن

الفكر يختفى اختفاء تاماً في أثناء النوم ؛ وهو حتى عند الرجل اليقظان ، يمر بلحظات من الضعف والغموض تقترب كثيراً من العدم ؛ وهذا الاختفاء ، هذا التغير ، هذا الاقلال ، ليس من خصائص الجوهر ، بل من خصائص الفعل ، الذي يشمل الانقطاع والاهمال .

بل أكثر من ذلك : إن سيكولوجية الرغبة والقلق نتيجة لهذا الترتيب الجديد للقيم .

واعجباه ! هل كانت نفس « رجل العاطفة » من إعداد لوك ؟ وسانت برو ؟ وفرتز ؟ ورينيه ؟ (١) — إنهم جميعاً ليسوا من نسله المباشر ؛ ولكن ، في مختلف الأسباب التي تحول عقلية الأجيال المتتابة ، وفي تطور حالة نفسانية ستنتهي بأن تطلب من القلب إشباع رغبات لم يحققها لها العقل ، — فلنحسب ، فلنحسب بلا تردد فلسفة لوك . هاك ما قالته هذه الفلسفة قبل أن ينتهي القرن السابع عشر :

« إن القلق الذي يستشعره المرء في دخيلته ، لغيب شيء قد يهيئ له متعة إذا كان موجوداً ، هو ما لسميه « رغبة » ، وهذه الرغبة تضعف أو تشتد ، بحسب ما يكون عليه قلقه من ضعف أو شدة . ولعله لا يخلو من فائدة أن نلاحظ ملاحظة عابرة ، أن القلق هو المحرك الأساسي ، إن لم يكن الوحيد ، الذي يثير اجتهاد ونشاط الناس . . . (٢) »

Uneasiness : تلك هي كلمة النص الانجليزي ، ولقد توقف عندها المترجم ، بيير كوست ، لأنه لم يجد مرادفاً لها في الفرنسية . فترجمها ، بكلمة « قلق » *inquiétude* ، لعدم وجود ما يفضلها ، وكتبها بأحرف مائلة خاصة ، ليبين أنها تتضمن معنى خاصاً جديداً . وسيفادفها مراراً ، لأن لوك يصصر عليها : « كل من يتأمل في نفسه ، سرعان ما يجد أن الرغبة حالة من القلق ،

(١) سانت برو Saint-Preux بطل رواية « هملويز الجديدة » أو جوليا *Julia* تأليف جان چاك روسو ، وفرتز *Werther* بطل رواية جوته « فرتز » ؛ ورينيه *Rene* بطل رواية شاتوبرياند (ربايه) . ويمثل فرتز ورينيه ، الرجل الذي يعيش في قلق وعذاب نفس ، بسبب قلبه المريض ، الذي يشتمل من الحياة المادية الملموسة ، ويبتغي أن يتخيل في أفق لامتناه . [المترجم]

(٢) مقال عن الادراك الانساني ، ١٩٠٩ ، الكتاب الثاني ، الفصل العشرون

لأنه من ذا الذي لم يشعر في حالة الرغبة بما قاله الحكيم عن الرجاء — الذي لا يفترق كثيراً عن الرغبة — والذي إذا ما طبل يمرض القلب (أمثال ، الاصحاح الثالث عشر، ١٢) (١) ؛ وذلك بصورة متناسبة مع شدة الرغبة ، التي تصل بالقلق في بعض الأحيان إلى الدرجة التي جعلت راحيل (٢) تصيح : هبني بنين ، هبني ما أريد ، وإلا أستأق (٣) .

ليس وجود شيء معين هو الذي يدفعنا إلى العمل ، بل عدم وجوده . إن أفعالنا رهن بإرادتنا ، ومحرك إرادتنا هو القلق . ونحن ، بدون القلق ، نقع في حالة جهود ونحود ؛ فعلية تتوقف آمالنا ، ونخاوفنا ، وأفراحنا ، وأحزاننا ؛ عليه تتوقف عواطفنا ؛ عليه تتوقف حياتنا . وسيعود أشياخ لوك إلى هذا الموضوع ، حتى يصلوا به إلى أقصى معنائه . سيعلم كوندريك — في شهادته لأستاذه (وعنده أنه بين أرسطو ولوك لا توجد فلسفة جديدة بهذا الاسم) ، أنه لا يزال علينا ، بعد لوك ، أن نثبت أن القلق هو المبدأ الأول الذي تنشأ عنه عادات اللبس ، والرؤية ، والسمع ، والحنس ، والتذوق ، والمقارنة ، والتقدير ، والتفكير ؛ كالرغبة ، والحب ، والكراهة ، والخوف ، والأمل ، والارادة ؛ وأن القلق يولد كل عادات نفسنا وجسدنا . وسيعيد الرغبة ، ويعرف الضجر ، عذاب النفس . وسيعزز هلفسيوس قول كوندريك ، « مصراً على قوة العواطف ، وعلى الألم الذي يخلفه الضجر ، بيناً أن العاطفيين يفوقون المتعقلين ، وأننا أصبح أغبياء بمجرد ما نفلح عن العاطفة . — لقد بحث الناس عن مختلف الوسائل لتأويل النفسية الرومانتيكية ، دون أن يدور بخلدكم أن يلتفتوا نحو لوك : إن لوك قد توصل إلى الانسيكلوبيديا ، إن لوك خلق علماء الأفكار ؛ هذا كثير . ولكنه أيضاً الرجل الذي لاحظ في النفس القلق الذي يعذبنا ، والذي جعل منه مبدأ إرادتنا وأفعالنا .

-
- (١) « الرجاء الماثل يمرض القلب والشهوة المتممة شجرة حياة » (العهد القديم) . [المترجمان]
(٢) « فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أختها وقالت ليعقوب هب لي بنين وإلا فأنا أسوت . » (تكوين ، الاصحاح الثلاثون) . [المترجمان]
(٣) مقال عن الإدراك الانساني ، الكتاب الثاني ، الفصل ٢١ ، ترجمة بير كوست .

. وحين يشتغل لوك بالتربية ؛ حين يصنع مخلوقا بشريا ، سوحداً بين تجربته كعرب وبين مثله الأعلى . كفيلسوف ، فإذا عساه يسعى أن يربى فيه ، إن لم تكن الاختيارية الطبيعية ؟ إنه يقف موقف الثائر ، ويحتج على طريقة تنشئة الأطفال المتبعة فيما حوله . فهم أولا ليسوا أشباحاً ، فلكل منهم ذراعان ، وساقان ، وصدرأ ، ومعدة ؛ جسم ينبغي أن تقويه بمختلف وسائل التدريب ، لكي نجعله صحيحاً وسلياً . أما ذههم ، فيجب أن يحكمه العقل : لا «الروتين» ؛ لا سلطة خارجية تعمل دون أن تقابلها موافقة نفسية ، ولا قاعدة تعسفية تطبق على المجموع دون تمييز . ذلك أنه في كل طفل ملكة طبيعية يجب أن يحسب حسابها . « يجب أن نذهب بالملكة الطبيعية لكل طفل إلى أبعد ما نستطيع . أما الشروع في إضافة ملكة أخرى إلى ملكته ، تختلف عنها كل الاختلاف ، فهو عناء لا ثمرة فيه . كل عمل من هذا القبيل ، لن يؤدي بنا على الأكثر إلا إلى صورة سيئة زرية ؛ إذ نرى فيها دائماً تلك الهيئة المنفرة التي يخلفها الاجبار والتكلف على الدوام . » — « إن الطبيعة البسيطة غير المصقولة ، المتروكة على سجيته ، لخير من جمال سئ مصطنع ، ومن كل الأساليب المدروسة لاختفاء الخلق الطبيعي وإفساده بدلا من تقويمه . » ينبغي أن تؤثر الفضيلة على المعرفة ؛ لأن المهمل في الحياة ، ليس أن نعرف الكثير ، بل أن نكون شرفاء طبيين . وفوق ذلك ينبغي ، لكي نودع في الطفل أقل المعرفة التي تلزمه ، أن نحسب حساب تلك الاختيارية التي لا يكف لوك عن التفكير فيها . علينا أن نختار المكان والساعة ، وملائمة اللحظة ، واستطلاع الطفل . إن التعليم لو فرض كهمة إجبارية ، كحمل ثقل ، يصبح مضايقاً غير مستساغ ؛ فلنستفد من هذا المزاج ، من ذلك الاستعداد الموقوت ، وسنرى كيف تسهل المهمة . يجب مساعدة الطبيعة وتقويمها وتوجيهها ، لكن دون أن نقالجها في ذلك شبهة ؛ ولنستعمل الحيلة قليلا عند الحاجة ، حتى يكون مظهرها أكثر طبيعية .

الفرد : هذا هو في الأصل ما يهم لوك ؛ لا مدارس عامة . بل مرب حكيم ، يحل محل الأب ، ويضحي بنفسه دون تحفظ ، لتلميذه . لا عقوبات جسدية ، تجلب المهانة والذل . أقل إجبار ممكن ، فيما عدا السنوات الأولى ، على أن نزيد الحرية مع مرور الزمن . يجب اتخاذ ألف تحوط يارع حول النبات

الصغير الذى يشق طريقه ؛ وحبذا ألف تدليل حاذق لتبرير الدروس التى نريد أن نودعها فيه . وفى هذه التربية التى تتراءى فى غاية البساطة واليسر ، بينما هى فى الواقع فى غاية التعقيد والكبر ، والتى نريد أحياناً أن تبلغ فى رواقيتها مبلغ الشدة ، بينما هى فى معظم الوقت تطلب من الحساسية كل شئ ، وتسمح لها بكل شئ ؛ والتى لا تكف عن الحديث عن الحقائق الواقعية مع أنها زاخرة بالأحلام ؛ فى هذه التربية التى هى برنامج مخصص لتلميذ ، وفى نفس الوقت رواية يسجل فيها الأستاذ ثورته ، وأسفه ، وآلامه ، ورغباته ؛ نرى هنا أيضاً الرجل الذى سيؤكد علناً ، بعد سبعين عاماً ، إيثاره للوك :
جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau .

استطيقا الشعور

« إن الذهن الفلسفى الذى يجعل الناس « متعقلين » إلى هذا الحد ، سيجعل شطراً كبيراً من أوروبا ما جعل القوط والوندل (التيوتون) منها فيما سبق . . . أرى الفنون الضرورية ، مهمة ؛ والمعتقدات المكتسبة النافعة كل النفع للمجتمع ، تبنى ؛ والتفكير النظرى مفضلاً على الحياة العملية . إننا نتصرف دون أى تقدير للتجربة ، أصلح مرشد للجنس البشرى . والعناية بالأجيال المقبلة ، مهمة كل الإهمال . وكل النفقات التى تكبدها أجدادنا فى العقارات والمنقولات قد كنا نفقدها ، ولم تكن لنلاقى فى الغابات خشباً للبناء ، ولا حتى للتدفئة ، لو أنهم كانوا « متعقلين » بالطريقة التى نحن عليها الآن . »
إن الذى يسمعون هذه الأقوال الجريئة هو الأب ديوبو Dubos ، إن « تأملاته النقدية عن الشعر والرسم » التى ظهرت فى عام ١٧١٩ ، لنتيجة لدراسة بطيئة عميقة .

كان هناك فريقان ، الأول فريق أولئك الذين يريدون تحويل الفن نفسه إلى عقل صاف . ما هو الجميل ؟ ما هو الذوق السليم ، الذى يتيح لنا تمييز الجميل ؟ ما هو الجليل الخيال ؟ مسائل عويصة !- كان هناك الفلاسفة ؛ وليس الفلاسفة بحسب ، بل كل أولئك الذين لا يفتنون إلا بالذهن الهندسى لإيجاد الحلول ، وإن لم يكونوا فلاسفة — سواء بحسب العادة أو الانسياق

أو البمدع . — كانوا يقولون ، كما سمعناهم ، إن الجميل هو الحقيقي أو على الأقل شبه الحقيقي ؛ ومادام هو الحقيقة فهو يشارك من جانبه في الأخلاق والفضيلة ؛ وإن الذوق السليم يقوم على مبادئ ، على نماذج ، وبالتالي يستطيع أن ينطق بأحكام أكيدة طبقاً لقواعد ثابتة مكيئة .

طبقاً لفلسفة الفن هذه في الحياة العملية : تصل إلى «التأكدم» Académisme . تقليد القدماء . معرفة تامة لقواعد فنية ، على كل فرد أن يخضع مواهبه لها . دراسة الطبيعة : لكن في الوقت نفسه ، كيفية تقويم هذه الطبيعة وتنظيمها ، التي تبيع — في تفاصيلها — كثيراً من النزوات والأهواء . لقد أصبح لوبران Le Brun رسام لويس الرابع عشر ، الذي خلده النجاح والزمن ، والسلطة الملكية ، شبه مؤسسة ؛ إن لوبران هذا — الذي يذكرنا مجرد ذكر اسمه بمجموعة من اللوحات الفخمة المثجلة في إطاراتها الذهبية ، يعلم تلاميذه أصول التعبير : كيف يجب تصوير الغضب ، الدهشة ، والفزع ، أو — وهو الأصعب — التقدير ، الإعجاب ، التبرجيل . من التقدير إلى الإعجاب : « لا يعترى الوجه إلا أقل القليل من التغير في كل ملامحه ، وإذا حدث تغير ، فأنما يكون في رفع الحاجب ليس غير ؛ لكن بشرط أن يبقى الجانبان متساويين ، وتكون فتحة العين أوسع قليلاً من المعتاد ، وكذا الحدقة بين الجفنين ، مثبتة دون حركة على الشيء الذي أثار الإعجاب . ويفتح الفم أيضاً نصف فتحة ، على أن يبدو بدون تغير ، مثله في ذلك مثل بقية ملامح الوجه . » وهكذا فيما تبقى ، كل شيء مقدر ، مرتب ومنظم . الجبال هو العقل موضوعاً في « روضة » . . .

والفريق الثاني أقل عدداً ؛ الرسامون الذين لا يقنعون بلوبران كنموذج ، والثالثون الذين يسعون إلى الابتعاد عن نماذج « برنان » ليستبدلوا الطرف والخيال بالنبل والفخامة ، والمعاريون الذين يحلمون ببناء مساكن جميلة يؤوى فيها المتحررون عشيقاتهم ، بدلاً من كنائس مشيدة على طراز « جيزو » ، أو قصور على طراز فرسايل : شباب يتعرقون وقد فرغ صبرهم إلى قطع كل صلة بالكبار ، بالأساتذة . ثم هواة يواجهون المحترفين ، وفي ثورتهم على التقاليد الأكاديمية ، يبتزئون في المطالبة بحقوقهم في إعزاز ما يروق لهم : مثل روجيه دي بيل الذي يفضل رامبراندت Rembrandt وعلى الأخص روبنز Rubens على

المدرسة البولونية^(١) ، ولا يتورع من إعلان ذلك دون حياء . إنه ليس ثوريا على وجه التدقيق ، بمعنى أنه لا يهاجم المذاهب السائدة مدفوعا برأى مبتسر ؛ لكنه يريد أن يكون رجلا لا ينقص من شخصيته : وهذا بحسب الظروف ، أقل من الثائر قليلا ، أو أكثر منه كثيرا . بل حتى خلوه من رأى المبتسر يشارك في إضفاء لون طريف من الحرية على أقواله . فمثلا : « إن العبقرية أول شيء يجب أن نفترضه في الرسام . هذا أمر لا يمكنه اكتسابه بالدراسة ولا بالعمل . . . » — « إن الإجازة من الضرورة بحيث لا يغلو منها فن من الفنون . إنها تخالف القواعد ، إذا التزمنا الحرفية ، أما إذا أخذنا بالروح ، فإن الإجازة تصبح قاعدة إذا استعملت استعمالا مناسباً . . . »^(٢) من بين أولئك المتمردين ، يبرز الأب ديبو . لأنه يجمع بين مزايا نادرة ، فهو في الوقت نفسه رجل مجتمع وعالم ضليع : فلم يكن تردده على المجمع العلمية يقل عن تردده على دور الأوبرا . ولأنه أوتي ذهنا رقيقا ، وقويما معا . ولأنه فرنسي جدا ، ومختلط . ولأنه رجل عمل ، وفيلسوف . ولأن مخالطته للوك (وقد عرفه في لندن ، وامتنوى من أسانة ترجمة بيير كوست بمراجعتها على النص الأصلي) دفعت به صوب مصدر الحساسية الذي كشفه الانجليزى الكبير : وأدرك ديبو أن هذه الحساسية يمكنها أن تروى ظمأ المعاصرين غير المفهوم . إن الحساسية منبع الجميل ، منبع الجليل الجال ، ومنبع الفن . وهو يأخذ على عاتقه إثبات ذلك للناس .

إن « التأملات النقدية عن الشعر والرسم » تعج بالأفكار ، لقد أجرى الأب ديبو كثيرا من التجارب ، وشهد كثيرا من اللوحات ، وحضر كثيرا من الكوميديات والتراجيديات والأوبرات ؛ إنه يهوى المحادثة ، المحادثة التي لا تقنع بالكلمات بل تعمل على إذكاء التفكير ؛ وهو لبق كل اللباقة ولو لم يملك الحقيقة تماما ، حتى إن كتابه ليعطيك تأثيرا عن ثروة لا ينضب لها معين .

(١) المدرسة البولونية . نسبة إلى مدينة بولونيا بإيطاليا ، مقر مدرسة مشهور في عصر النهضة . ورامبراندت رسام هولندي شهير من أهل ليون ، يعد من أكبر عباقرة الرسم ، وروينز رسام شهير من أهل الفلاندر ومن روائعه « صلب القديس بطرس » ، وصورة هيلين (١٥٧٧-١٦٤٠) . [الترجمان]

(٢) مختصر عن حياة الرسامين ، ١٦٩٩ .

إنه يريد أن يدخل عليه شيئاً من التوازن ، ويقسمه إلى أجزاء : إلا أن بعضها قصير وبعضها طويل ، والشروح تقف أو تستطيل على هواها ؛ والموضوعات تختفي بعد أن تتناول ، أو تتكرر كيفما تشاء ؛ هذا ليس بالتأليف الكلاسيكي العظيم على الإطلاق ، بل إنه من نوع « روح القوانين » وإن كان أقل منه تألقاً . إن الحساسية التي تتحرر بكل مشقة من روح التحليل ، تتبدى بفضل عناية ذكاء رقيق ، يستعين بالمثل والواقع .

إن أى نفوذ « للمؤثر » على النفوس ! أليس عجباً أن نرى الشعر والرسم يشيران فينا إعجاباً أكثر لو نجحا في أن يحزننا قلوبنا ؟ إذا وجدنا في بهو عرض ، فإن اللوحة التي تمثل التضحية البشعة بابنه « يفتاح » (١) تستبقنا أطول من اللوحات المرحية وتغرينا أكثر منها . إن قصيدة موضوعها الأساسى وفاة أميرة فتية ، تدخل في برنامج إحدى الحفلات ، وهذه الفاجعة تفتن جماعة لم تجتمع إلا بقصد التسلية . « أبيع لنفسى أن أوضح هذا الواقع الغريب ، وأن أشرح مصدر المتعة التي تقيها علينا الأشعار واللوحات . . . »

الواقع : أن أعدى أعداء الناس السأم . وهم يتخلصون منه إما بالاحساس وإما بالتأمل . إلا أن الوسيلة الأولى أقوى ؛ إن العاطفة تملكنا تمام الامتلاك . وإن الانفعال الذى تثيره فينا ليلغ من الحيوية أن كل حالة نفسية أخرى لتبدو بازائه خموماً . إلا أن العواطف الحقيقية لها عواقب خطيرة ، عرفناها بتجارب ألمية . فإذا نحن فاعلون إذن ؟ نحن نقلد الموضوعات التي قد تبعث فينا العواطف الحقيقية . تلك مهمة الفن . « إن الرسم والشعر يبعثان فينا هذه العواطف الصناعية ، بتقديمهما لنا تقليداً للموضوعات القادرة على أن تبعث فينا العواطف الحقيقية . »

إذن ، فالصيغة المتفق عليها عموماً : الفن يساوى العقل ، لا قيمة لها . الفن يساوى العاطفة ؛ عاطفة مصفاة ، لكن ممثلة في كل قوتها . ودرجة القوة العاطفية هذه ، تفسر تدرج الأنواع : فالتراجيديا تؤثر فينا أكثر مما تؤثر الكوميديا ؛ « كل نوع يؤثر فينا بقدر ما يستطيع الموضوع — الذى من جوهره

{ (١) قصة يفتاح الحلباوى وابنه (المعهد القديم ، قضاة ، الاصباح الحادى عشر) .
[الترجمان]

أن يصوره ويقلده — أن يؤثر فيها . لذلك يجتذبنا النوع الرثائي والنوع الرعائي أكثر مما يجتذبنا النوع المسرحي . « ورويداً ورويداً يتجدد كل شيء ، سواء في التأليف أو في النقد ، مادام الأمر لا يتعلق إلا بتصوير العواطف بصورة فعالة ، ومعرفة ما إذا كانت قد صورت بهذه الصورة أو لم تصور . إن الأب ديبو سوف يذهب في بحثه عن سر الفن ، حتى أعمق أغوار كياناتنا ، حتى الاحساس ، القيمة الأولى : إن القيم الفكرية لا تظهر بالنسبة إليها إلا شاحبة ، هزيلة ، صناعية . إنه يقول « أعتقد أن نفوذ الرسم على الناس لأبلغ من نفوذ الشعر ، وقوام اعتقادي هذا سببان . أولها أن الرسم يؤثر علينا عن طريق حاسة البصر . والثاني أن الرسم لا يستعمل علامات اصطناعية كما يفعل الشعر ، بل علامات طبيعية . والعلامات الطبيعية يؤدي الرسم تقليده . « إن المتعة التي يفيئها الأسلوب حسية . والمتعة التي تفيئها موسيقا الشعر هي الأخرى حسية . وما أبعد العبقرية عن أن تكون موهبة ضعيفة نحاول عبثاً أن نقويها بالتقليد ، والتدريب ، بل هي موهبة طبيعية ، قوة بدائية ، لا شيء يعوقها ، تعلو على القواعد والقوانين . وما من ريب في أنها قوة فيزيقية : « هذه العبقرية شعلة إلهية ، حية ، لها بلا ريب أسباب فيزيقية ، مزية خاصة في الدم ، مضالفة إلى استعداد حسن في الأعضاء . « وسنعرف ذلك فيما بعد ، عندما تكتسب هذه الشروح الفيزيقية ، غير الكاملة اليوم ، الضمان الكافي . ولكن ، يمكننا أن نتساءل من الآن عما إذا لم يكن للأسباب الفيزيقية نصيب في التقدم العجيب للأدب والفنون ؟ عما إذا كانت الشمس ، والهواء ، والجو لا تؤثر على إنتاج الرسامين والشعراء ؟ عما إذا كانت هذه القوات لا تؤثر على الآلة البشرية بأسرها ؟ إن صفات ذهننا وسيولنا تتوقف كثيراً على خصائص دماغنا ؛ وهذه الخصائص تتوقف على الهواء الذي نستنشقه ، وعلى الأخص في فترة تكويننا ، فترة طفولتنا : ذلك هو بلا ريب السبب في أن الشعوب التي تعيش في أجواء مختلفة ، تختلف ذهنها ، كما تختلف ميولها . . .

إن ديبو يقف عند هذه النقطة . أي مرحلة قطعناها ! أي علامة ساطعة على ثورة مزدوجة ، ضد الطريقة الأكاديمية الدجاطيقية ، وضد التجرد العقلي من جهة أخرى ! حينما سطر الأب ديبو أفكاره ، لم تكن كلمة « استطيقا » قد اخترعت بعد . إنها لن تظهر إلا في عام ١٧٣٥ ، في رسالة دكتوراة لشاب

ألماني ، اسكندر أميديه بومجارتن . ومع ذلك نجد في « التأملات النقدية » محاولة استطبيقية تستند على الشعور . الألوان والأصوات ، الأرض والمياه والسماء ، كل ما نرى ، ونسمع ، ونلمس ، كل ما يتصل بحياتنا الحسية ، كل ما في دخیلتنا ، من عاطفية ، وحيوانية ، ومادية على وجه التقريب — كل هذه تحتاج على نسيان العقل الخالص لها وازدراؤه إياها .

ميتافيزيقا الجوهر

في فلسفة ليبنتز ، نستطيع أن نجد مطالبة أخرى : مطالبة بميتافيزيقا تستند على قيمة اللامتناهي في الصغر ، مالا يرى ، مالا يدرك ، الغامض ؛ على قدرة « الديناميكية » النفسية ؛ على وجود جواهر بسيطة هي بمثابة ماهية الغريزة الحيوية ، ماهية « الآنية » .

لم يكن ليبنتز ليقبل أن يكون للهندسة التفسير النهائي للأشياء . وكان يكن لديكارت إعجاباً خالصاً ، لكن مع نفور أخذ يتكشف من كتاب إلى كتاب ، إلى أن كتب أخيراً وصيته الفلسفية « المونادولوجيا » Monadologie في عام ١٧١٤ ، قبل وفاته بسنتين . ولم تنشر مباشرة ؛ إذ أخفاها الأمير « أوجين دي سافوا » في صندوق صغير ؛ ولم يطلع عليها إلا بعض العلماء الاختصاصيين ؛ كنز مخفي . . . وسوف يأتي اليوم الذي تخرج فيه الرسائل والأبحاث من ثنايا الظلام ، حيث يفتح الصندوق الصغير ، وحيث يؤثر الجوهر الروحي الذي يتضمنه تلأثير الخميرة .

كان يأخذ على ديكارت إغفاله للعناصر الهامة ، بما اقترفه من خلط بين الاستداد والجوهر ، بين الحركة والقوة الحية . ووضوحه البادى الذي يرجع إلى أسطويه في البت في كل شيء إلى قسمين ، وإهماله للتدرج الذي يوصلنا إلى اللامتناهيات في الصغر ، وجهله بأحاسيس النفس الغامضة . لقد قال صراحة في « المونادولوجيا » إن عدم حسابنا الأحاسيس التي لا ندركها ، هو موضع القصور في المذهب الديكارتي ؛ كما أنه ذكر قبل ذلك بعشر سنوات في كتابه « مقال جديد عن الإدراك الانساني » ، أنه في كل لحظة تحدث في أنفسنا تغيرات كثيرة لا نحسها ، لأنه إما أن تأثراتنا ضعيفة جداً وعديدة ،

وإما أنها متحدة . لقد جعلتنا العادة لا نهتم بحركة طاحون أو مسقط مياه ، لو عشنا على مقربة من أيهما فترة من الزمن ؛ ومع ذلك فإن هذه الحركة تؤثر دائما على أعضائنا . عندما نكون على الشاطئ نسمع صخب البحر ؛ ينبغي أن نحس إذن صوت كل قطرة في كل موجة ؛ ومع ذلك نحن لا نحسها . إن ديكارت لم يلاحظ هذه الأحاسيس غير المحسوسة ، التي هي أساس الحياة السيكولوجية . « نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن الاحساس Perception وما يتعلق به ، لا يمكن شرحه بالأسباب الميكانيكية ، أى بالعبور والحركات . ولو افترضنا أن في الاحساس آلة ، نجعلنا عدتها تفكر ، ولشعر ، ولحس ؛ لاستطعنا أن نتخيلها تكبر محتفظة بنفس النسب ، بحيث يمكننا أن ندخل فيها كما ندخل في طاحون . أما وقد افترضنا ذلك ، فلن نجد في داخل هذه الآلة عند زيارتنا لها ، إلا قطعاً تدفع كل منها الأخرى ، ولن نجد فيها أى شئ يشرح لنا الاحساس . وهكذا ينبغي أن نبحث عنه في الجوهر البسيط ، لا في المركب ولا في الآلة... » هذا الجوهر البسيط هو « الجوهر الفرد » La Monade ، الذرة الحقيقية للطبيعة ، عنصر الأشياء . وما يسترعى النظر في طريقة شرح ليبنتز لخصائص هذا الجوهر الفرد — الذى يأخذ التفسير المبدئى للحياة من الفزيقا وينسبه إلى الميتافيزيقا — هو الدفاع عن قوة نفسية فردية وحايثها ؛ فبينما يعمل سينوزا على تحويل الخاص إلى الشامل ، ينشد ليبنتز توافقاً يمثل فيه الشامل دون أن يفقد الخاص حقوقه . لا يمكن أن يتغير الجوهر الفرد في صميمه بفعل مخلوق آخر ؛ وليس به منفذ يتيح لأى شئ أن يدخل فيه أو يخرج منه . ولكل جوهر فرد خصائصه النوعية بالنسبة إلى ما يجاوره من جواهر فردية ، إذ لا يوجد في الطبيعة أبداً كائنان متماثلان . والجوهر الفرد قابل للتغير مثل كل مخلوق ؛ ولكن نفس هذا التغير يتوقف على مبدأ داخلي ولا يأتي من الخارج . إن صفة الجوهر الفرد هذه ، لمن البروز بحيث تنجم عنها مشكلة : مادام الجوهر الفرد جوهرًا بسيطًا ، ومادام لا يتضمن شيئًا إلا ما يأتيه من دخيلته ، ألا يكون هذا حكمًا عليه بالعزلة ؟ — كلا ؛ بفضل « الاتساق القدر » : Harmonie préétablie (١) .

(١) كل شئ في الطبيعة يفسر بضرورة فيزيقية ، تعرض لنا في شكل يشغل امتدادا ، لكن لا تستمد مبدأها من شكل يشغل امتدادا . إن المادة المموسة تفترض روحا ، =

أما كيف يضع ليبنتز هذا التوافق العجيب ، فهذا مالميس علينا أن نعيده هنا ، لأن تاريخ الفلسفة كله يشرحه أكثر مما نستطيع أن نفعل . ولكن في متناولنا من الآن ما نحتاج إليه لبرهاننا — ما وراء الشعور : *L'inconscient* — القيمة الجوهرية للذهن : « كل ذهن بما أنه بمثابة عالم منعزل ، مكتف بنفسه ، مستقل عن كل مخلوق آخر ، مشتمل على اللامتناهي ، معبر عن الكون ، فهو دائم ، باق ، مطلق ، كعالم المخلوقات . » — تصوير شاعري لتكاثرات الحياة :

« قد يكون كل جزء من المادة بمثابة بستان عامر بالنبات ، وبمباشرة بركة عامرة بالأسماك . ولكن كل فنن في النبات ، وكل عضو في الحيوان ، وكل قطرة من أخلطه ، هي أيضاً بستان مثل ذلك البستان ، بركة مثل تلك البركة . وبالرغم من أن الأرض والهواء المحجوزين بين نباتات البستان ، أو المياه المحجوزة بين أسماك البركة ، ليست نباتات ولا سمكا : فهي مع ذلك تحتوي نباتات وسمكا ، ولكنها غالباً من نوع دقيق جداً يستعصى علينا إدراكه . وهكذا ، ليس في الكون شيء بائر ، مجذب ، أو ميت ، لا خواء ولا اختباط إلا في الظاهر . . . (١) »

= تحقيق بمجهودها الوحدة الحقيقية للجوهر . هذه الروح أو الجوهر الفرد ليست نجمة كالذرة — التي تقبل التقسيم دائماً مادامت تشغل امتداداً — : ولكنها أيضاً ليست مجردة كنقطة رياضية مماثلة لغيرها من النقط . إنها تفترق عن غيرها بمقتضى صفتها ، وتأتي وحدتها بأكملها من نشاطها الموجه . . .

فلنتعرض فكرة تأثير متبادل مباشر بين بعض الجواهر وبعض في الكون . من المحقق أن حالة كل جزء من المادة تعبر عن الكون ، أي تتحول بمقتضى تحولات كل عناصر الدنيا : فالقدح الذي أسمى يعبر بصلاته ولونه وكل خصائصه ، عن المسافة الحالية بين الشمس « وكلب الجبار » ، وعن كل مصادر القوة التي يمكن أن يكون لها مفعول حالي عليه . ولكن لو فرضنا أن الحركة ليست « متعديّة » ، لو أنكرنا أن الامتداد له قدرة على النقل أو التوصيل — لأن صورته ثابتة جامدة لا حياة فيها — فالتأثير المتبادل بين الجواهر إلا بصورة غير مباشرة ، بوصاطة قدرة خارقة للطبيعة ، وعن طريق عدد لا متناه من الحركات الانبعاثية المنتظمة بعضها على بعض . إن ظواهر التأثيرات المتبادلة قائمة : وهي محل دراسة العلم . هذا التصور عن الصلات بين الجواهر هو ما يسميه ليبنتز « الاتساق المقدر » . (مقتطف من مقدمة ل. برينان ، في « مختارات مصنفات ليبنتز »)

[المترجمان] *Leibniz, Œuvres Choieses, Garnier, Préface de L. Prenant*

(١) المونادولوجيا ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .

وأخيراً تؤكد اتساق سام ، اتساق يدخلنا ، وقد افتتنا به ، في مجال الحب الصافي .

العلم الجبريد

نابولي . الشمس ؛ بهجة الحياة . صيحات ، وضوء . وفي الأرزقة المنعطفة ، أكثر جماهير الدنيا حركة . حيوية ، وحب استطلاع منقطعا النظير ؛ حركة تثقيف واسعة . محادثات حاسية ، اجتماعات ، ندوات ، حيث رجال يحملون بكل خفة أنقال معرفة هائلة ، يثيرون كل المسائل العلمية والفلسفية ، ويمحصون كل المذاهب ، ويجمعون كل الوقائع . في نابولي التي تستقبل — لأنها تستدعي — رسائل الفكر الأوربي ، وتعرف كيف توفق بينها وبين عبقرتها ؛ في نابولي المبتدعة والمليئة بالضوء ، والتي تبدو هنا كرمز للقوة والحيوية ، ولد في ٢٣ يونيو ١٦٦٨ جيامباتستا فيكو .

لقد عرف ذهنه كل أنواع الاجبار ، وعرف كيف يتخلص منها جميعاً . عرف كيف يتفادى خطر أن يكون طفلاً إعجازياً ؛ أن يكون تلميذاً منصاعاً لأساتذته ، لا يقسم إلا بأقوالهم ؛ أن يكون أسيراً لاحدى المهن ؛ بل حتى أن يكون سعيداً ، وهو أخطر ما يهدد من يروم التفكير . قرأ أرسطو ، وجميع الاغريق ، والقديس أوغسطين ، والقديس توما ، غاسندي ولوك ، ديكارت وسبينوزا ، مالبرانش وليبنيز ، دون أن يصبح عبداً لأحد ، قائلاً باختيار أربعة نماذج : إفلاطون ؛ تاسيت ؛ باكون ، الذى رأى « أن العلوم الانسانية والالهية في مسيس الحاجة لأن تصل في أبحاثها إلى مدى أبعد ، وأن القليل من المكتشفات التي توصلت إليها مازال في حاجة إلى تصحيح » ؛ وجروسيوس ، الذى « جمع كل الفلسفة في لطرية قانونية شاملة ، والذى أقام لاهوته على تاريخ الوقائع خيالية كانت أو محقة ، وعلى تاريخ اللغات الثلاث : العبرية ، واليونانية ، واللاتينية ، وهي وحدها اللغات القديمة العليمة ، التي أوصلتها إلينا الديانة المسيحية . . . » . ولكن مهما بلغ تأثير هؤلاء العباقرة عليه ، فإن ذلك لا يمنع من مراجعة مبادئ معرفتهم من أساسها . إن فيكو قد بقي هو نفسه ، بصورة أليمة ورائعة .

إنه يملك نوعى الذكاء ، النوع الذى يفهم ، والنوع الذى يخلق . إن هيته تجعله يحيد عن الطرق التى اختطها بنفسه ؛ وهو يكثر من الحجاز ، ومن الخيال ؛ ينحو نحو التحليل ثم على حين غرة يعمل بوحى من حدس فائق . وهو يقيم براهينه وفقاً لأسلم قواعد المنطق ؛ ثم يتعجل فيتعدى إثباته ، بسبب طبيعة ذهنه أكثر مما هو بسبب سعة الموضوع الذى يتناوله . وهو عنيد فتراه يكرر ويعيد ، ضيق الصدر فتراه يسرع ، إذ يعرض لنا النتائج بينما هو لم ينته بعد من المبادئ الأولى ؛ إنه مفتون بالجديد ، بالجبرى ، بالغريب ، بالصحيح ، الذى يزيح عنه أكوام الأخطاء ثم يذيعه على العالم ، هو ، جياسباتستا فيكو . لا يعرف الاتزان الكلاسيكى ؛ وهو بفورته ، وعصبيته ، بل هوسه أيضاً ، يمثل الرجل المثبرم غير الراضى : فهو أبداً لم يثبت الإثبات الكافى ، أو يصحح نصوصه ، أو يحدد تفكيره ، أو يفرض على القراء اكتشافاته العجيبة . إنه متصلب الرأى ، صعب المراس ، غير ودود ؛ وهو متعاطف ، غضوب ؛ يشعر بتفوق عبقرية لا يعترف به معاصروه ، الذين لا يفهمونه ، ولذا فهو يتألم أشد الألم . عندئذ يضاعف مجهوده لاقتناعهم ؛ ويشرع فى كفاح ضدهم ، وضد نفسه . لا بد من أن ينتهى بأشراكهم فى سره العظيم ، سر « العلم الجديد » . والحق أنه سيكون جديداً ؛ أولاً بالقدرة التى يؤثر أن يستعملها ، وهى الخيال الخالق . إن للنقد دوره وفائدته بلا مرأى ، غير أنه لا يتفق تمام الاتفاق مع الغزى العميق للحياة : التى ليست مجرداً ، بل خلقاً متصلاً . — وسيكون جديداً بمنهجه ، المنهج الذى يرفضه الناس من حوله ، المنهج التاريخى . غير أن التاريخ ليس عبارة عن روايات المؤرخين : بل هو يطالع فى كل الآثار التى خلفتها الانسانية من تلقاء نفسها على طول طريقها : الشعر البدائى ، اللغة ، القانون ، والأظمة ؛ كل ما كان كيفية لكيانها . — وسيكون أيضاً جديداً بحركته : لأنه يسير مخالفاً مجرى العصور ، ويبحث عن الحقيقة لا فى أقاصى المستقبل البعيد بل فى مصادر الجنس البشرى . وسيكون جديداً فى ماهيته . إنه معرفة الصيرورة الجماعية ، معرفة الكائن الذى يخلق نفسه ويعرف نفسه فى الوقت ذاته ، ويحدد ضمان يقينه فى المائلة بين الفاعل والمفعول : العلم ، هو خلق الانسانية بالانسانية ، المسجلة أيضاً بالانسانية . « من وسط هذا الليل العميق البهيم ، الذى يغلف الزمن القديم ، الذى نبعد عنه أيما بعد ، يلوح

العلم الجديد

٤١٧

لنا نور أبدى ليس له غروب ، حقيقة لا يمكن أن تساورنا فيها شكوك : لا ريب في أن هذه الدنيا المدنية من فعل الناس . إذن من المحتمل ، لأن هذا مفيد ولازم ، أن نجد مبادئها في تبدلات ذهننا . »

* * *

أيها المسكين ، أيها العظيم فيكون ! إن الناس لم يفهموه ، إنهم لم يكادوا يعيرونه أسماعهم ، كانت أفكاره بالغة الجودة ، تختلف كثيراً عن الأفكار التي قبلها الناس من حوله . كان الآخرون يمجدون النظرى ، العقل ؛ ينجلون من ماض يبدو لهم مثار فضيحة لمدينتهم التقسيمية ؛ يرون التاريخ كذبا والشعر تمويهاً ، يطرحون الحساسية ، تلك المريضة ؛ والخيال ، ذلك المجنون . أما هو فيرفض — بعناد العبقرية — أن يعد جسم الانسانية قطعة تشريعية ، ويصر على البحث في اختلاج الحياة من جديد . إنه يستعين بالفقه ، والفيلولوجيا ، والصور ، والرموز ، والأقاصيص ، حتى تتوطد بينه وبين الماض رويداً رويداً أواصر الألفة ، فيصل إلى أغوار الهوات السحيقة ، ليكشف تاريخ تطورنا والصورة المثالية لذهننا ، معاً .

ولم يقبل الناس الغصن الذهبي الذي أتى به . لذلك يمكننا أن نسمع في « العلم الجديد » Scienza Nuova (١) صيحة نفس ساخطة . إن الانفعال يحاول أن يرفع الجمل المشحونة بالتفكير ، ليساعدها على سهولة التحليق ؛ ويسعى فيكون — طامعاً في إثبات كل شيء في آن واحد ، خاشياً من أنه لم يقل الكفاية أبداً ، مستعجلاً ، لاهثاً ، ثقيلاً — في أن يقدم لمعاصريه المؤلف العظيم الذي يقابلونه بعدم اكتراث . علينا أن نلتظر ثلاثة أرباع قرن ، قبل أن يلقى هذا الكتاب الرائع شعاعه الساطع على الأفق الأوربي .

(١) مبادئ علم جديد ، (الطبعة الأولى ، ١٧٢٥ ، الثانية في ١٧٣٠) .

Principii di una Scienza Nuova intorno alla commune natura delle nazioni (Première édition, 1725 : *Prima Scienza Nuova*. Deuxième édition, 1730 : *Seconda Scienza Nuova*).

الفصل السادس

الحيمة الدينية

كل هذه الأبراج التي تشرف على الأرياف ، وكل هذه الكاتدرائيات التي تتزاحم حولها البيوت في المدن ، متوسلة إليها أن تتسامق لحو السماء . الشعاع الذهبي للشموع التي تخفق أمام المذابح ، صوت القسوس وجوقة المؤمنين ، دستور الايمان المسيحي ، وأنشودة العذراء ، زنين الأجراس ، وعبق البخور . الكنائس العديدة ، والعايد ، والمساجد ، وكل مكان يجتمع فيه الناس ليعترفوا بالسر الذي يحيط بولادتهم ، وحياتهم ، وموتهم ، وليعهدوا إلى الله بالتفسير الأسمر الذي لا يستطيع عقلهم وحده أن يتوصل إليه إن الضرورة الدينية تدافع عن أيديتها .

نحو ذلك الوقت ، استشعر المؤمنون تهديد جهود المفكرين الأحرار ، والكفار لهم ، وأشارت جبهة من علماء الدين إلى الخطر المستفحل . وإذا كان بعضهم قد قبل — دون تردد — الكفاح في الميدان العقلي ، فقد أخذ البعض الآخر ينشد أسلحة أخرى . كانت الذئاب الضارية تتكاثر حول القطيع ، فلم يكن بد من خضد شوكة هجومهم بوسائل دفاعية جديدة : فلنرد على الكفر الصريح بنقوى أشد حيوية ! لن يظفر العدو بمن يسهرون ويتعبدون . « هذا القرن الجليل الذي يمكن أن ندعوه عصر الفكر ، أو عصر الحب الخالص . . . » هكذا كان يعبر هنري بريموند في دراسته للحياة المسيحية في ظل « النظام القديم » ؛ وكان يبين أن تقدم المذهب الديكارتي ، لم يوهن في النفوس النقية ، لا حيوية تقبل حقائق الايمان الأساسية ، ولا مزاوله العبادة . وإني لأود أن أحجز واحداً من كتب الصلوات التي يذكرها دهما

الحمة الدللة

٤١٩

لأقواله ، واحداً بريئاً وحيداً ، « ساعة لعبادة القربان المقدس الدائمة » ، المؤرخ عام ١٦٧٤ . هذه الساعة المقدسة تسجل أوقات الأخطار الداهية ؛ يستطيع المؤمنون أن يتخيلوا ، باستماعهم إلى دقائقها ، هجوم الأعداء الذين يهدفون إلى تدمير الايمان بقيادة إبليس ؛ كل ساعة تستدعى خيالاً يثير الرعدة . منتصف الليل : يخرج أسراء الظلام من كهوفهم ، في الليل البهيم — وهو الشطر الرئيسي من مملكتهم — ، دون أن يفارقهم العذاب والنيران التي يحملونها في كل مكان ، ويطيرون فوق الأرض لجمع معاويلهم الأشرار . . . الساعة الخامسة صباحاً : يلقي « بالخبز المقدس » إلى السكاب . . . ولكن كل إهانة يقابلها دعاء معوض ؛ وتوقظ دقائق هذه الساعة الرهيبة « محرزة جديدة » ، « حمة خفية » ، لم يكن هناك داع لظهورها في هدوء الأيام الحالية من الكفاح .

حياة حساسة تزداد نمواً ؛ لعل هذه هي النقطة الأساسية هنا ؛ هنا تسجل مبادئ علم الدفاع عن الدين المسيحي — وإن كان لا يزال على شيء من الغموض — الذي يستغرق قرناً يأكله قبل أن يتقوى . أنوار المعرفة ، حسناً ؛ ما من كنيسة عدوة للنور . العقل ، حسناً ؛ ما من كنيسة تزعم أنها في غنى عن مشاركة العقل . ومع ذلك ، ودون حساب لصور الكفر الصريح المتطرفة ، وإذا لم نعتدّ إلا بالتبدلات التي تعتمل في متوسط الضمائر ، — فقد فقد الدين عون قوة ذهنية تريد الانفصال عن الايمان ، والاستغناء عنه ، وتشكيل مثل إنسانى أعلى من دونه . « لاشك في أن عصرنا عليم مستنير . لقد حققنا تقدماً كبيراً في العلوم وفي الفنون ، سواء لأننا هيأنا لها مبادئ أفضل ، أو لأننا وضعنا لها أدلة وبراهين أقوى . كم من مكتشفات حديثة ، كم من تجارب جديدة ، وضعناها في وضوح النهار ، لنساعد الذهن على التغلغل إلى ما وراء تلك الحدود التي كانت برية العصور السالفة تحتجز عندها أنوار المعرفة! — ومع ذلك يحن لنا أن نشك فيما إذا كان الدين قد لقي فائدة كبيرة من كل تلك الأبحاث الجميلة ؛ وفيما إذا لم يكن قد خسر أكثر مما كسب . . . (١) » يمكنه أن يعوض ما فقد ، إذا طلب العون في قوات نفسية أخرى ، بما يحتقرها خصومه أو ينكرونها .

(١) اسحق چاكو ، بحث في وجود الله ، لاهاى ١٦٩٧ ، مقدمة .

إن البراهين الميتافيزيقية على وجود الله ، أفضل البراهين بلا مرء ؛ ولكنها ليست في متناول « العاديين من الناس ، الذين يمتثلون لخيالهم . » أما يالالتجاء إلى خيالهم وحساسيتهم ، فيستطيع عالم الدين المسيحي أن يقنعهم بوجود الله . أفلا تثبت آيات الطبيعة وجوده ، وعظمته ، وطيبته ؟ حجة ليست جديدة ، ولكنها تكتسب قيمة جديدة لو أعطيناها لونا خاصا ، لو انقلب البرهان إلى اندفاق عاطفي . عندئذ ندخل في حالة من الاعجاب تفسر كل شيء في حالة شاعرية لا يقاومها شيء . أنظر إلى الغابة ؛ « في الصيف نحمين هذه الغصون بظلالها من أشعة الشمس ؛ وفي الشتاء تغذى الشعلة التي تحفظ فينا الحرارة الطبيعية . وليس خشبها مفيداً للوقود لحسب ؛ بل هو مادة رقيقة طيبة ، بالرغم من صلابتها ومتانتها ، تستطيع يد الإنسان أن تعطيها دون عناء ، الشكل الذي يشاء ، لأكبر الأعمال المعيارية والملاحية . وفوق ذلك ، فإن أشجار الفاكهة ، بميل فروعها نحو الأرض ، تبدو كأنها تقدم للإنسان ثمارها . . . » — أنظر إلى المياه ؛ « لو أن الماء كان أقل كثافة لأصبح نوعا من الهواء ، ولأصبح كل ما على وجه البسيطة جافا مجدبا ، ولما وجد إلا حيوان طائر ؛ ولما استطاع أي نوع من الحيوان أن يسبح ، ولا أي نوع من السمك أن يعيش ، ولما وجدت أي تجارة للملاحة . لو أن الماء كان أقل كثافة ، لما استطاع أن يحمل تلك العنائر العائمة الهائلة التي نسميها سفنا ؛ ولغاصت أقل الأجسام وزنا في الماء . . . » انظر إلى الأجواء وإلى النار ؛ انظر إلى الأفلاك ، وإلى هذا الفجر الذي « لم يقصر مرة واحدة منذ آلاف السنين عن أن يبشر بالنهار ، يبدؤه في وقت معين ، في لحظة محددة ومكان محدد . » انظر إلى الحيوان ؛ « فقد أوتي الفيل خرطومًا ، لأنه لو كانت رقبتة في مثل طول رقبة الجمل لكانت تثقل عليه كثيراً نظراً لضخامتها . . . (١) »

قليلًا من الوقت ، وسيأتي نيوفنتجت Nieuwentijt ، وسيأتي الأب بلوش Pluche اللذان سوف يثبتان وجود الله بآيات الطبيعة أمام جمهور واسع ؛ ومن بعدهما برنردان دي سان بيير ، ثم شاتو برياند .

(١) فنيلون ، إكبات وجود الله ، مستمدا من معرفة الطبيعة ، ١٧١٣ .

عند هذه النقطة من طريقنا ، وعلى عتبة آخر ملاذ ، حيث يتحمس رجل الشعور ، فلنتذكر « جوتفريد أرنولد » ، حاملا في يده كتابه « تاريخ مقسط للكنيسة واللاهوت » . إنه يقول لنا إنه تاريخ مقسط لأن الذي كتبه رجل لا ينتمى إلى مذهب من المذاهب ، ويستعمل المنهج التاريخي لا اللاهوتي . وإنه عام ، لأنه لا يقبل أن توجد كنيسة واحدة ، وإنه سيتكلم عن كل الكنائس التي تبشر بالآيمان بالله وبالسيد المسيح . وإن كتابه يريد على الأخص أن يكون تاريخا مجيدا لللاهوت .

والواقع أننا إذا صدقنا قوله ، نخطئ في شأن الملحدون ، الذين لا يفهمهم الناس ويفترون عليهم . الملحدون ، اسم يطلقه أصحاب المصالح على من يفرون بمنافعهم ونفوذهم . إن أصحاب المصالح يباهون بأنهم أرثوذكس : إلا أن الأرثوذكسية ليست الايمان . قبول العقائد والصيغ بدون تمحيص ، والخضوع للسلطات ، وعد الايمان عملا فعلا opus operatum : تلك هي الأرثوذكسية ، التي ليست في الواقع إلا « عقلية » فارغة ، تجهل التجارب الدينية ، واليفة والبعث .

إن الملحدون الحقيقيين ليسوا أولئك الذين يخاطرون بأن يخطئوا ، مع سلامة نيتهم ؛ بل هم على النقيض أولئك الذين يعيشون كالكوثنيين ، رافضين الخضوع لنفوذ الله ؛ أي الأنانيون ، والدعاطيقيون ، وغير المتسامحين . . . هكذا يتكلم في عام ١٦٩٩ جوتفريد أرنولد ، العالم ، المتمرد ، المتصوف : أولئك الذين لعدمهم عادة ملحدون ، هم المسيحيون الحقيقيون ، أتباع المسيح ، الذين يطهرهم الألم ، وتزكيتهم المحبة ؛ وأولئك الذين نسميهم الأرثوذكس ، ذوو القلوب الحيافة المجذبة ، هم الملحدون .

فلندخل الآن تحت قيادته ، إلى دائرة النفوس الغيورة . في عام ١٧٠٩ ، طردت آخر الراهبات اللواتي كن لا يزلن مقبات بيور — رويال ، وفي عام ١٧١٠ دمر هذا الدير . وميتقى على مذهب جانسينيوس

قضاء مبرما ، إن المذهب الذى أزعج كنيسة فرنسا منذ سنوات عديدة سيغلب أخيراً على أمره : *ubi solitudinem faciunt, pacem appellant* أينما حولوا إلى خراب قالوا إنهم أتوا بالسلام (١) . — لكن لا ، فان هذا المذهب ينتشر فى الخارج ، ويكسب أشياء شيناً فشيناً ، وتبقى له مراكز فى لوفان ، وفى أترخت حيث تؤوى كنيسة عنيدة النفيين والمبعدين ، وفى مدن مختلفة فى ألمانيا ، وفى فيينا حتى فى البلاط الامبراطورى ، وفى ييمونت ولبارديا ، وليجوريا ، وتوسكانيا وحتى فى روما ، ويقوم أتباع جانسينيوس بدعاوة واسعة فى إسبانيا . وفى فرنسا تجدد العراك ، عنيفاً كأول يوم ، على إثر إعلان القرار البابوى *Bulle Unigenitus* (٢) فى عام ١٧١٣ . إذ ينشر كينيل القسيس بالأوراتوار كتاباً عن « الأخلاق الانجيلية » ، ويحرم البابا مائة قول وواحد من هذا الكتاب ، وكأبما كان ذلك إيذاناً بمعاودة القتال ، فأخذ المعارضون ، والمؤيدون ، والمؤقتون يتجادلون ، وسوف يتجادلون خلال سنين طوال . وسيظهر عن قريب المتعصبون المتشنجون *Les convulsionnaires* (٣) — وسوف تحدث معجزات ، فى أثناء المواقب الاحتفالية ، وعلى مقابر القديسين ، وفى هذه المرة ستبلغ الاضطرابات مبلغ الفضيحة . وإذا كان لمذهب جانسينيوس عنصران أحدهما لاهوتى والثانى أخلاقى ، فان الأول سوف يضعف مع مر الزمن ، بينما يزداد الثانى قوة . إن الحسرة والقلق النفسانى ، والاسترابة فى شأن السلام ، وذكرى الاضطهاد الأليم ، والايمان بالآيات المنتقمة ، لا تقبّد بارادة الملك ولا بقرارات روما . لم تعد الجانسينية مذهباً ، بل أصبحت على مر الزمن روحاً ، روحاً عنيفاً صارماً ، يسرى فى مواجهة سريان التهوين فى العقيدة والأخلاق . وكان البروتستانت السفينيون *Camisards* (٤) ، الذين يتعقّبهم البوليس

- (١) كلمة للشاعر تاسيت فى « حياة أجريكولا » على لسان جالجاكوس البطل الكلدانى .
تطلق على الغزاة الذين يبررون ما يسيبون من خراب بحجة المدنية . [الترجمان]
(٢) قرار أعلنه البابا كليمان الحادى عشر بادانة مذهب جانسينيوس . وقام على إثره عراك عنيف بين أتباع جانسينيوس والجزويت . [الترجمان]
(٣) صفة لأتباع جنسينيوس المتعصبين ، فى القرن الثامن عشر ، الذين كانوا يفعلون فى تشنّج عصبي لفرط حماسهم الديلية . [الترجمان]
(٤) كاميسار : لقب لبروتستانت السفين الذين تسلّحوا عقب فسخ أمر نانت ، وكانوا يرتدون صدريّة تسمى *Camiso* ومن هنا هذا اللقب . [الترجمان]

الحياة الدينية

٤٢٣

الراكب ، ويهذبون إذا وقعوا في قبضته ، شهداء الايمان — يقعون من باب أولى في فوران عاطفي شديد ، يزداد غلواً حتى يصل إلى درجة الوهم . فلننظر إلى أحد رؤسائهم ، ابراهام مازل الذي خلف لنا مذكراته أو بمعنى آخر اعترافه . « قبل أن أتناول السلاح ببضعة أشهر ، وقبل أن تدور بخلدني أية فكرة ، حلمت أني أرى في بستان ثيراناً ضخمة سوداء ، سمينة جداً ، ترمي في كرمب البستان . وأمرني شخص لا أعرفه أن أطرد الثيران السود إلى خارج البستان ، فرفضت أن أفعل ، إلا أنه لما أصر وكرر أوامره أطيعته وطردت الثيران . وعلى إثر ذلك نزل على الروح القدس ، وأمسكني كالعادة مسكة رجل قوي ، ثم فتح فمي وجعلني أقول فيما أقول إن البستان الذي رأيته يمثل الكنيسة ، وإن الثيران السود السمينة هي القسس الذين يلثمونها ، وإني إنما استدعيت لتنفيذ هذه الرؤيا . وقد أوحى إلى أكثر من مرة أن أستعد لحمل السلاح للكفاح بجانب إخواني المضطهدين ، وإني سأحمل الحديد والنار ضد قسس الكنيسة الرومانية وسأحرق مذابحهم . » بالوحي ، يعقدون اجتماعات في الغابات ، وينزل عليهم « الروح » بصورة مرعبة حتى إن الرعدة التي تهز أجسامهم تلتقي بالخوف والذعر في قلوب من يشاهدهم . بالوحي ، يحملون السلاح ، ويسرون ، ويهاجمون ، ويفترقون . بالوحي ، يحرقون الأبرشيات ويقتلون الخوارنة . ولما قبض على مازل سجن في برج كولستالس في أيج — سورت . وقد نشر أحد أحجار البرج ، ليهرب ، و « كان يستشعر وحي الروح كلما اشتغل بهذا العمل . »

ولعل حالة إيلي ماريون تحيرنا أكثر . « في اليوم الأول من هذا العام ١٧٠٣ ، أصبح الله على شرف زيارة روحه ، ومن أول وحي لطقته به ، قيل لي فيما قيل ، إن الله قد اختارني منذ كنت في بطن أمي لتجيده . » إن إيلي ماريون هو « المختار » ، البشير بعهد المسيح الجديد . فلنتذكر — دون أن نتبعه في معاركه ، وفي هزيمته — الطريقة التي انتهجها في معيشته في لندن ، حيث التجأ في عام ١٧٠٦ . إن الأوهام تملكه ، فيتنبأ ، وينزل عليه « روح الله » ، ويروعه ؛ وينفجر ضد ضعاف الايمان والقسس أكثر مما يردد ضد الملحدين والكفار . وكان قبل ذلك قد فضح قسس جنيف ، الذين أبوا أن يصدقوا بقرب مجيئ المسيح . « إن هذا الحجي الثاني لمثابة الشمس لهم ،

لا تستطيع عيونهم أن تحتل شعاعها إذ يعميهم . فليحذروا أن يبنذوا كما نبذ اليهود من قبلهم ! « وفي لندن يرعد ضد القسس الفرنسيين ، ضد الانجليكان ، وضد الجميع ؛ وهكذا تبدأ قصة عجيبة أليمة . أولئك « الأنبياء » الكاميساريون وقد طردوا من الكنائس ، وأرذلتهم الجاهير ، وقبض عليهم ، وقدموا للمحاكمة ، وأدينوا ، يستشعرون لهباً يزداد اضطراباً على الدوام . وهم يكسبون أنصاراً من الانجليز ، لأن مرضهم معد ؛ وتغتنى جماعتهم بطائفة إنجليزية هيسيرية . وذات يوم يعلنون أن النهاية قد أوشكت ، وأن النار سوف تلتهم « المدينة » بما فيها من كفار ؛ ولن ينجو إلا المؤمنون ؛ ولكي يتعرفهم الملك المدرس ، عليهم أن يرتدوا شريطاً أخضر إما في ذراعهم وإما على رءوسهم . ومرة أخرى يتنبأون أن اضطهاد « الأنبياء » سيتوقف قبل مرور مئة أشهر ، وتأييد حقيقة رسالتهم ؛ وتمر الستة الأشهر دون حدث جديد . ومرة أخرى يزعمون قدرتهم على بعث الأموات . وينظر الشعب الانجليزي متدهشاً إلى أولئك المتحمسين ، أولئك المجانين ؛ ويظهر حيالهم في بادئ الأمر أمارات فروغ البصر ، ثم عنفه البارد . وحكم على إيلي ماريون بالحنك العلني pilori ؛ وقد كتب على ورقة معلقة فوق رأسه : « إيلي ماريون ، المعترف بادعائه أنه نبي حقيقي — وهذا كذب وكفر — وبأنه نشر وأعلن كثيراً من الأقوال بدعوى أن روح الله قد أملاها عليه أو أوحى إليه بها ، بقصد إثارة الرعب في رعية الملكة . » وأخيراً سيغادر إيلي ماريون البلاد ، متبعوا ببعض الخلفين الذين سيظلون ملتصقين به في عناد ، وستنتقل الجماعة الصغيرة من بلد إلى بلد حتى الأستانة ، حتى آسيا الصغرى ، مبشرين دائماً ، متنبئين دائماً ، مهددين دائماً ؛ مضطهدين ، مسجونين أحياناً ، ولكن حاملين في أنفسهم شعلة جنونية ، زاعمين أن يجعلوها تشتعل في كل الشعوب ؛ إنها بريق الضوء النازل من السموات ليكشف في ليل شعوب الأرض عن الفساد الموجود في ظلماتها . . .

إن قدرية سبينوزا تمثل — من وجهة نظر معينة — صلاية العقل . ومع ذلك فهناك شيء من اللذة في الاستغراق ، والذوب في « الكائن » الشامل ؛ إنه شعور ، بل إحساس تقريباً . هذا الانضمام إلى النظام الذي يسود الدنيا ،

الحمة الدينية

٤٢٥

الذى هو الدنيا ، وهو الله ، وهو كل شئ ، يجب أن يكون واعياً وإرادياً ليكون له أثره الفعال : ولكننا نستطيع بميل يسير أن نزل من هذه الصفة الارادية إلى إذعان سلبى ، يصبح استسلاماً . فلا عجب إذن إذا رأينا تصوراً يتولد من « علم الأخلاق » ، وينتشر في هولندا وفي ألمانيا . — ولكننا لازلنا ، مع أولئك ، الاسبينوزيين ، على مبعدة من الدوائر الأخيرة ، أكثرها حمية .

مادسنا ننمى على قسوس اللوثرين نفس الرذائل التى نعوها على الكاثوليك ؛ ماداموا قد أضحوا عبيداً للحرفية لا للروح ؛ مادامت لا تحذوهم شفقة ولا إيمان ؛ وماداموا ينتفعون بالمال من مباشرة عبادتهم ، بل إنهم يسمحون بمشترى العقاب بالنقود ؛ ومادامت مواعظهم ، بدلا من أن تكون منابع للحقيقة والحياة ، قد أصبحت خطباً محفوظة عن ظهر قلب ؛ ممزوجة ببعض الفكاهة الشعبية ، ولا صلة لها مطلقاً بعظات كلام الله : فقد تولد ، ضدهم ، وانتشر في ألمانيا ، مذهب « الخشوعية » ، دين القلب . الخشوع ، القلب ؛ هاتان الكلمتان مستترددان كثيراً بقلم ولسان الرجل الذى أتاح للحسامية الألمانية ، المكبوتة منذ أمد طويل ، أن تظهر إلى وضوح النهار ، « فيليب بعقوب سبئر » .

كان قسيساً في فرانكفورت لما واثته فكرة تأسيس « مدارس التقوى » ، فى عام ١٦٧٠ : ليس واجب القسوس أن يجادلوا ، وأن يتصاحوا ، بل هو على النقيض أن يذكوا الحياة الباطنة ؛ وعلى ذلك فقد كان يجمع فى المساء ، مرتين فى الأسبوع ، ذوى الارادة الطيبة لقراءة الكتاب المقدس ، والتعبد ، وليتركوا الله يؤثر فى نفوسهم . وكانت هذه هى الخطوة الأولى ، وقام بالثانية لما نشر

فى عام ١٦٧٥ *Pia desideria, oder herzliches Verlangen nach gottgefälliger Besserung der wahren evangelischen Kirche* (تمنيات صالحة ، أو رغبات المؤمنين القلبية لاصلاح الكنيسة الانجيلية الحقيقية) . عندئذ اتسع نشاطه ، وشمل القسوس ، والمؤمنين ، يدعوهم إلى العودة إلى إيمان حى فعال ، إلى إيمان قوامه المحبة . فى ١٦٨٦ ينتقل إلى درسدن ، ويصبح واعظاً فى البلاط ، ومرشداً لمنتخب ساكس ، وعضواً فى مجلس الكرادلة الأعلى : وقد لا يكون لهذه الألقاب قيمة ، لو لم تسمح لنا بتقدير مدى نفوذه ونجاحه : فالطلبة والنساء يستمعون إلى كلمته المستحرة والخطيرة فى نفس الوقت ، وتجتمع الدوائر — بوحى منه — لدراسة الكتاب المقدس ؛ وأصبحت كلمة « الخشوعى » *Piétiste*

لازم : الاتحاد بالله . . . (١) — هنا لا يزال شيء من الحركة باقيا ؛ وسوف يلغيه البصار الركونية .

كيف نفسر النزاع الذى أوقع بين أشهر أسقفين فى كنيسة فرنسا ، بوسويه وفنيلون ، والذى دفعهما إلى تبادل اللوم والالتهام ؛ إلى الالتجاء إلى روما حتى حكم على أحدهما بالادانة — إلا إذا وجدنا فى هذا الجدل الكبير حالة خاصة ليل عام ؟ كان مذهب « الركونية » Quiétisme (٢) صورة من صور التصوف التى كانت تزعزع أسوار الكنائس فى كل مكان ، باسم الشعور المنطلق . أى أحلام عذبة لم يتعلل بها فنيلون ؟ إنه يتأهب للرحيل ؛ اليونان مستعدة لاستقباله ، السلطان يزعج فيتراجح ؛ وكان يرى — وهذه هى ألفاظه بالضبط — الشقاق يزول ، والشرق والغرب يتحدان ، وآسيا التى تئن حتى ضفاف الفرات ، والتى ترى بزوغ النهار بعد ليل طويل . أو كان يتخيل أرضاً من أراضي الأحلام ، أو « أندلسا » مثالى الحيال ، ليصفه بألفاظ كلها إعجاب : شتاؤه دافئ ، وصيفه غير محرق ، السنة بأكملها كأنها زواج سعيد بين الربيع والخريف اللذين يبدوان كأنما يشدان على أيدي بعضهما ؛ تربته من الخصوبة حتى إنها تفي بمحصولا مزدوجا ؛ وأشجار الرمان والغار والياسمين تحف بالطرق العبقة . أو كان يبنى يديه المدينة الخالية من العيوب ، « سالانت » (٣) :

(١) . . . Agir en Dieu يشرح بول هازار هذا التعبير بأنه يعنى « الذوب فى الله » ، أى الاتصال فى الفكر بالله . أنظر الفكر الأوربي فى القرن الثامن عشر ، الجزء الأول ، باب « السعادة » ، ص ٢٤ . [الترجمان]

(٢) الركونية Quiétisme : مذهب تصوفى ، يرى أن الكمال المسيحى فى محبة الله ، وفى عطلة الروح عن الحركة . وكان لهذا المذهب ممثلون فى كل عصر ، وأشهر رؤسائه القسيس الأسباني مولينوس Molinos ، الذى نشر فى منتصف القرن السابع عشر كتابا فى التصوف ، جعل فيه الدين فى صورة مثالية حتى لم يعد يفهمه العامة . وقد قبل فنيلون هذا المذهب وتكلم عنه فى مؤلفاته ، وكانت حركاته هذه ولا سيما وهو أسقف « كامبرى » وربي ولى العهد - سببا فى نزاع شديد بينه وبين بوسويه الذى رأى أن هذا المذهب يفقد المرء شخصيته ولا يترك له أى قوة أو إرادة لبحارب الشر . [الترجمان]

(٣) سالانت : انظر تيلياك ، الكتاب الثامن . [الترجمان]

مجيئة بعد أن كانت مردولة . كان أوجست هرمان فرانك خشوعياً ، ولما سلك عليه أن يعظ بالايمان ، وأحس أن الايمان يعوزه ، وقع في اليأس ، وجشاً ، متوسلاً إلى الله أن ينقذه من حالته التعسة : فيلهمه الله ، وتكون رسالته أن يعمل على إنارة الآخرين بدوره . والأسراء ، والنبلاء ، الذين ينشدون سلامهم بأنفسهم خشوعيون أيضاً ، وكذلك البورجوازيون ، وعامة الشعب ؛ إن ألمانيا تنفّ إلى الايمان .

وسوف تسرى العدوى على الدوام ، العدوى النقية . سيغادر سبنر Spener درسدن قاصداً برلين ، ويكسب منتخب براندبرج ، وعندما يحول هذا الأخير أكاديمية هال إلى جامعة ، في سنة ١٦٩٤ ، سيصبح سبنر موجهها ومحركها . وهكذا ترتفع قلعة « الخشوعية » ، محوطة من كل جانب بأعمال مسيحية . ماذا يمثل إذن تلك القلوب المتحمسة ، والمنتصرة هنا ؟ أولاً ، أثراً باقياً ، أثر بوهم Boehme المتصوف ، الحاضر فيهم على الدوام — ثم رفضاً ، تمرداً على الميل إلى تبلور وإلى تبريد موجة الحياة الديلية التي تلبث في نفوسهم . — وبصورة أعمق ، فكرة أن المنهج التحليلي والبحث المنطقي لا يمثلان كل المعرفة ، وأن الوضوح ليس حتماً كل الحقيقة ؛ إنها تحمي الحدس ؛ إنها تحفظ إمكان المعرفة المباشرة ، إمكان الاتصال الكلي بمنبع الحياة الأبدى — الإلنية Le Moi ، وفي الإلنية ، قوة المقدرات العاطفية ، وهي أكثر شخصية ، وأكثر فردية من المقدرات الأخرى . — التمسك بقوام أولى Substratum ، تهدده صور التمدن الديني المعتادة في كماله وسلامته .

إن فوارق الشعور المتعددة تغنى حياتهم . إذ يستشعرون لضوب عواطفهم ، وإجذابهم ، وضياعهم ؛ ويحسون ضيق من يصبح في الصحراء بلا جدوى : هل هناك أشد إيلاماً من انتظار طويل للغفران ؟ ثم تحين ساعة الاعتراف ، والفضفضة ؛ وتلك الضربة التي تصدمهم : العجزة ، الإلهام ، الوحي المباشر . حينئذ تكون لذة حب سماوى لا نهائية ، ذوب المخلوق البشرى في « الكائن » الذي يعلم ، والذي يريد ، والذي يعطى للحياة طعماً « سبقياً » من الأبدية . فما جدوى البحث من الآن فصاعداً ؟ وما فائدة الفلاسفة ؟ أو حتى اللاهوتيين ، أو حتى شراح الكتاب المقدس ، الذي يجب أن يفهم من نفسه ، مادامت كلمة الله قد سجلت فيه دون ألغاز ؟ Unum est necessarium : شئ واحد

حيث لا يؤس ولا رذيلة ؛ إن الأراضي الاسترالية لتكاد تستطيع أن تقدم لأبناء الانسان سعادة مماثلة ، ففي سالانت يسود السلام ، والعدل والنظام الاجتماعي ، والغزارة ؛ حيث تدخل الثروات كد البحر ، وتترك ثروات أخرى في محلها عند الجزر . ولكل صعوبة « علاج يسير » . ضربة عصا سحرية وكل شيء يتغير في الحال : سكان الحضر سعداء ، والقرويون سعداء ، والنساء سعداء ، وكذلك الأطفال ، والكهول . « كان الكهول ، وقد ذهلوا لرؤيتهم ما لم يجرأوا على أن يشموا رؤيته بعد مثل هذا العمر الطويل ، يكون لفرط الغبطة المشوية بالحنان ، رافعين أياديهم المرتجفة نحو السماء . . . » وفي الخارج يسود السلام . فاصد هجوم الأعداء ، يكفي الوقوف في وسطهم ، وإلقاء خطبة عليهم . عندئذ يلقي الجنود سلاحهم ، ويتعانق الجميع ، في بكاء ودموع .

ذلك أن فنيلون يهوى الدموع ؛ إن أبطال « تلياك » يذرفون أنهاراً ، بل سيولا من الدموع ، تغرق الكتاب . كالييسو ، أوكاريس وفينوس ؛ تلياك ، منتور ، فيلوكليس ، وإيدوميني ، يسكبون كثيراً من تلك الدموع الغالية . إنه يريد أن يكون محبوباً ، رقيقاً ، حنوناً . إذ يقول في « رسالته عن مشاغل الأكاديمية » : أفضل المحبوب ، عن المذهل ، والعجيب ؛ ويقول فيه أيضاً إنه يود أن يسمح في اللغة بكل ما ينقصنا من تعبير ، يكون جرسه رقيقاً ؛ فيجيبه مدير الأكاديمية « الرقة التي تتنازول بها . . . » . كان محسناً ، كريماً ؛ ولقد عرف وهاش بسليقته كل طرق افتتاح القلوب ، ما تقاوم منها وما تسلم .

ولكنه كان يعلم أيضاً أن خياله كان طموحاً ، ملحاً ، لا يقنع بالتحقيق في « ما وراء الواقع » . كان عليماً بقدرته على أن يكون متكبراً ، متجبراً ، بل كانت تكمن في نفسه قوات حية من الحق . كم كان بعيداً عن الكمال ! كم كان تحسناً بهذه المتناقضات ! نفس معذبة ، قلب كان قريسة للحنن ، وللضجر ، ولذا كان يتطلع مثلاً إلى « أغوار لا تشرح » في كيانه الأخلاقي ؛ فيحس عندئذ شعوراً من الاشتماز ، لأنه كان يرى فيه أفاعى — على حد قوله . إنه يتوق إلى مياه نقية تستطيع أن تروى غليله ؛ ويتحرق إلى الغفران الذي قد يحو نقائص الدنيوى ، الدساس ، الطموح ، المثل ؛ ويتمنى كملاً

الحياة الدينية

٤٢٩

ليس في مقدوره أن يصل إليه بلا عون ؛ إنه يتألم من قلقه . هنا ولا شك ، سر نفوذ مدام جويون Guyon : إنها لم تنل هذه السيطرة العظيمة عليه ، إلا لأنه كان يشعر بحاجة لأن يصبر ويحج الأغلال التي تنقل كاهله في نار التصوف . كانت مدام جويون قد كسبت طالبات مدرسة سان سير Saint-Syr (١) ، وكبار السيدات ، و مدام دي مانتنون أنفسها ؛ كسب سرعان ما ضاع ، لأن هذه النفوس تتدارك خطأها عند أول إشارة . ولقد حاولت أن تكسب بوسويه : مهمة عسيرة جداً ، فأنها لم تفلح حتى في استئارة أى رغبة عنده ، لأن إيمانه لم يكن في حاجة إلى هذا العون المشتبه فيه . إن هذه المرأة ، بصفتها امرأة ، هذه السيدة التي « لديها فكرة كبيرة عن نفسها » ، التي تباهى بأنها تتنبا ، وتواتيها الرؤى ، وتأتى بالمعجزات ، — كانت موضع كراهيته . عندما تدعى أن الدعاء ينبغي أن يكون فناء كلياً للنفس ، وأنها لا تستطيع أن تطلب شيئاً من الله ، ولا حتى عفواً عن خطاياها : انتهى أمرها ، إن مدام جويون ملحدة ، لن يستمع إليها بوسويه . أما عند فنيلون ، ذى القلب المهموم ، ذى القلب المحموم ، ذى الروح التي تبلغ من النبيل أن تدرك نقائصها ، ولكنها لا تستطيع لاستغراقها في الحياة أن تتخلص منها — عند فنيلون ، كانت مدام جويون تأتي بمذهب الحب النقي .

الوسائط بين الله والالسان ، تلك الوسائط التي يبدو بعضها كثيفاً غليظاً ، والبعض الآخر دقيقاً وغير مادي تقريباً ، ولكنها مع ذلك تكون فواصل ، يقل احتمالها كلما وصل الانسان إلى هذه الدرجة من الرغبة حيث تبدو له عندها أقل عقبة — مثل لزوم حركة أو وجوب دعاء — أقوى العقبات ؛ هذه الوسائط بين الله ومخلوقه تريد مدام جويون أن تقضى عليها . ولا كانت حديثة في المذهب ، وقد تملكها رغبة شديدة في توجيه الضائر ، فأنها تقول لنا كيف يلغى أن لعمل لكي تصل إلى هذه الدرجة العالية من الروحانية . فهي تصبح أن تعلموا العبادة ، تعلموا الدعاء ؛ يجب أن تعيشوا على الدعاء ، كما يجب

(١) مدرسة أنشأها لويس الرابع عشر بمعاونة ممدادى مانتنون لفتيات الطبقة النبيلة .

[الترجمان]

أزمة الضمير الأوروبي

٤٣٠

أن تعيشوا على الحب . تعالوا ، أيتها القلوب المسغبة ، تعالوا أيها المعذبون المساكين ، تعالوا ، أيها المرضى ، تعالوا أيها الخاطئون ، بالقرب من ربكم . تعالوا ، يا من لكم قلب .

إنك تضع نفسك بين يدي ربك ، بفعل من أفعال الايمان الحى ؛ تبتدىء بقراءة بعض نصوص من كتب الدين لا للتفكير والاستدلال بل لحصر الذهن لحسب . ثم تستغرق في نفسك بعمق ، وتجمع كل حواسك في دخيلتك . وحين تتأثر عاطفتك ، دعها تسترح في هدوء وسلام . فلو أنك حركتها أكثر ، لحرمت روحك من غذائها ؛ يحسن أن تهضم ما تتذوقه في شئ من الراحة المملوءة بالحب والثقة .

وتتولد العادة ؛ فتبتدىء الدرجة الثانية من التعليم ، الدعاء في بساطة . ولا يلزم إلا قليل من الجهد ؛ ويزداد الاحتمال ؛ يكون الشعور بوجود الله أيسر ، وكأنه أقوى . ولا سيما إذا أضاءت الروح على الدعاء حباً صافياً ، متجرداً من كل ما لا يكون الحب ذاته ، وبالتالي حباً خالياً من التغرُّص . لا يجوز أن تطلب الروح شيئاً ، لا يجوز أن تقوم بالدعاء لتحصل على شئ من الله ، لأن الخادم الذى لا يخدم سيده إلا إذا كان يكافئه ، لا يستحق المكافأة . لا ابتهاج ، بل انتظر كل شئ . دعاء يكاد يكفى للاستغراق في التقوى : ليس الدعاء إلا شعلة حب تصهر الروح وتذيبها .

إن المسيحى الذى يرتقى الجبل المقدس يصل عندئذ إلى الاستسلام : تجرد من كل عناية بالنفس ليسلم قياده كله لله . لا استدلال ولا تفكير . اطراح كل إرادة ، حتى ولو كانت طيبة . عدم اكتراث بكل شئ ، سواء للجسد أو للروح ، بالخيرات الزمنية والأبدية ؛ ترك الماضى في غياهب النسيان ، والمستقبل للعناية الالهية ، وإعطاء الحاضر لله . فمن يستسلم له تمام الاستسلام فسرعان مايجوز الكمال .

عندئذ تختفى الصفة الذاتية الخاصة للفرد ، منشأ كل خبث . إذ يبعث الله أسامه حكمته تعالى ، كما متبعث النار على الأرض لتفنى كل نجاسة في اللسان . النار لا تبق ولا تذر ، ولا شئ يقاومها إلا وتغنيه . والحكمة الالهية مثلها ، تفنى كل نجاسة في المخلوق لاعداذه للاتحاد الالهى . وإنه لاتحاد يجبل عن الوصف . وإذا نحن أردنا ، بالرغم من ذلك ، أن نعبّر عنه بالألفاظ ، يمكن القول إننا

الحياة الدينية

٤٣١

نشعر بمحبة علوية نغرقنا في السعادة . إن في التنازل عن الالهية ، في امتلاك
اللانهاى ، للذة يستحيل على أى متعة بشرية أن تعطينا فكرة عنها . لأفراغ
بل غزارة . فالتنازل هو الكسب ؛ التخلي ، هو غم كل شئ . ليس علينا
إلا أن نصب .

هكذا تقدم مدام جويون ، ملخصة لأول مرة بياناتها المسهبة ، إلى من
يريد الاستماع إليها « وسيلة مختصرة وسهلة للدعاء ، يستطيع الجميع أن يباشروها
بكل يسر ، وهكذا يصلون في قليل من الوقت إلى كمال رفيع » (١٨٥٦) .
ولما كانت جريئة ، دماسة ، فقد كانت تحلم بمسروع تجديد دينى واسع . لم
تجد أبدأ ، لا في دوفيني ، ولا في أثناء تجولها في طرق بيمونت مع معاونها الأب
لاكومب ، وهى تبشر ، وتنتشر مذهب مولينوس ؛ ولا في باريس ، لم
تجد أبدأ رجلاً يقدر على أن يضيف على مذهبها السعة والانتشار . كانت تمنى
أن يكون فيليون المصباح المشتعل الساطع الذى يضئ الكنيسة المجددة ؛
وأن يبين كيف يجب أن نتعبد « للسيد » في تناول القربان ؛ كيف يجب
أن نكافح الشيطان ؛ وجماع القول ، أن يوطد تحت قيادته سلطان المحبة
الالهية .

ولعلها قد تكون في نظر الآخرين امرأة مغامرة ؛ أما عنده هو فكانت
المرشد الذى يدفعه نحو الكمال . كم كان من الصعب عليه أن يتخلى عن منطق
المنطق البالغ الرقة واللفظة ؛ وأن يتنازل عن حكمته الانسانية ؛ عن كل تلك
العناصر الدلسة التى يناقض وجودها إرادته الطيبة ويؤذيها ؛ ولكن الحياة
الصوفية التى كانت تذكيها هذه المرأة ، كانت تقضى رويداً رويداً على هذا
الدلس . « أكن لك إخلاصاً متزايداً ، لا يفوقه إلا إخلاصى لله ، وهو وحده
عليم بمقدار شكرى لك . » وكان عرضة لتكسات ، وغفلات ، واندفاعات
إرادية ، والمكراهية ، ونفاذ الصبر ، والكبر ، ونوبات من الاجداب ، باطنياً
بالنسبة إلى الدعاء ، وظاهراً بالنسبة إلى الصلة بالداس ؛ فكانت تقوّمه ، وتدفعه
إلى التقدم ، وتزيل عنه هذه العوائق . فكان يستشعر تجدداً من السداجة
والبراءة : « يا للسعادة اللانهائية فى تصاغرننا إلى غير شئ ! » ؛ وكان
يشعر أنه يصير إلى ما كان يود أن يكون ، ، فانياً ، محروماً ، مثل طفل
صغير . عندئذ كان ينظم أشعاراً ، على منوال الأغاني :

*O pur amour, achève de détruire
Ce qu'à tes yeux il reste encor de moi.
Divin vouloir, daigne seul me conduire,
Je m'abandonne à ton obscure foi ... (١)*

أو :

*C'est peu pour toi que n'avoir plus de vie
Et qu'abimer ce moi jadis si cher ... (٢)*

ولم يكن هذا بكاف ؛ فقد كان لا يزال باقياً في هذه الأشعار شئٌ صريح ، واضح ، فقد كان يلزمه بعض التهمة ، والمهمة ، كالأطفال . فكان يعود دائماً إلى هذا : أى متعة في أن يكون المرء مخلوقاً يزعم أنه مدين بوجوده لنفسه ، ملئٌ بالحبث ، قلق ، تعس ، معذب على الدوام — ولا يصبح الآن ، إلا طفلاً صغيراً ، نائماً على ذراع « الأب » ! وكانت تكتب له : « لا بد من أن تصبح يوماً بسيطاً مثلي . كلما كنت حكماً ، كنت بسيطاً وصغيراً ، يفرض أن الايمان هو أن يقلع المرء عن أن يكون رجلاً كبيراً ليصبح طفلاً صغيراً . » ويكتب هولما : « إني أفتح لله كل امتداد قلبي ، لأتلقى روح الطفولة والصغر ، هذا الذي تتحدثين عنه . » — « يخيّل إلى أن الله يريد حملي كطفل صغير ، وأنى لا أستطيع أن أخطو خطوة وحدى ، دون أن أتعث : وعلى شرط أن ينفذ إرادته في نفسي ، وبنفسي ، فسيكون كل شئٌ حسناً ، مهما حدث . »

سيكون كل شئٌ حسناً . حتى الاضطهادات ، حتى التفسيرات الخاطئة لمذهب مدام جويون : لأنه كان يعدها تفسيرات خاطئة ، ولم ير في مدام جويون شيئاً يزيد عما نراه في أكبر المتصوفين الذين اعترفت بهم الكنيسة : القديسة تيريزا قديسة يسوع ، والقديس يوحنا قديس الصليب . إلا أن قوماً لم يحبوا على تذوق عذوبة الحب الصافي ، قابضين أيديهم الغليظة على تلك الزهرة الرقيقة للتقوى الجلية ، كانوا يزعمون أنها ليست جديرة بمذابح المعابد . حتى الحكم المدين ، الصادر من روما بعد معارك طويلة ، لم ير فيه إلا استحقاقاً ، فالتصاغر ، وقبول هذا الحكم ، وإبلاغه في خطاب رعوى إلى المؤمنين في أسقفيته ، لم تكن عنده إلا وسيلة للقضاء على رجل الجسد ، وقبول التضحية

(١) أيها الحب الصافي ، أنجز تدمير — ما تراه باقياً من نفسي — أيها الإرادة الالهية —

اقبل أن تقوديني وحدك — إلى أمتسك لدينك الغامض ...

(٢) إنه لشئٌ قليل بالنسبة إليك ألا تكون لي حياة — وأن ألغى إنيقي العزيزة على ...

الحمية الدينية

٤٣٣

النهائية ، وإبطال آخر مقاومة للكبرياء ، والانتصار بالله . Inveni portum : لقد وجد الطمأنينة التي لم يعرفها أبداً قبل اتصاله بمدام جويون ، والتي لا يريد أن يفقدها حتى مماته . وكان يعترف بأخطائه ، إذا كانت أخطاء ، ويفرض على نفسه العقاب ، إذا ارتكب خطيئة : ولكن ذهنه لم يكن فيه محل للخطأ ، ولم يكن في مقدور قلبه أن يائس ؛ كان غير شيء تماماً ، رماداً — بقية حب يبلغ من القوة أنه لم يجد فنانة إلا في موت الكائن الذي اختار أن يحرقه . إن مأساة سيره الباطني نحو الحب الصافي ، لأهم عند فنيلون من المأساة التي يتجه إليها اهتمامنا عادة — الجدل مع بوسويه ، الرسائل ، البحوث ، الردود ، الردود على الردود ، الأشخاص ، المرافعات ، القرارات . مأساة خفية ، لا يمكن لرجل الشارع أن يكون لديه ولو فكرة عنها : هل يستطيع أن يتصور الصفة المؤثرة ، الصفة الخطيرة لتحول الماهية البشرية هذا إلى ماهية إلهية ، لهذا التطهر بالنار؟ — « عندما أتحدث عن الحب الصافي ، لا أقصد الحب الحار الذي لا يعمل إلا على تجميل من يشعر به ، والذي يبدو كأنه مخصص له : هذا الحب غير مكمل ، مع أنه الحب الذي يعده الجهال ذروة القداسة . لست أرى حبا صافياً إلا الحب القاسي ، المبيد ، الذي لا يجميل أو يزين صاحبه ، بل ينتزع منه كل شيء بلا رحمة ، لكيلا يبقى فيه شيء ، وبذا لا يعود شيء دون انتقاله إلى الآخرة . وفيما عدا ذلك لا يمكن أن يكون للحب الصافي وجود . كل عنايته تتجه إلى أن يقبّح ، وينتزع ، ويهلك ، ويضيع ؛ لا عيش له إلا في الهلاك ؛ إنه مثل هذا الوحش الذي رآه دانيال والذي يأكل ، ويسحق ، ويلتهم كل شيء . »

كان لمدام جويون أتباع في كل أنحاء أوروبا ، وقد نشر بواريه Poiret مؤلفاتها ، بواريه الذي لم يكن أقل من علموا «لاهوت القلب» . كان المتحمسون يطاردون بلا حدود : ما من قوة كانت تتغلب عليهم ؛ وكيف يمكن ردهم إلى جادة العقل ، ماداموا يرفضون التعقل ؟ كانوا يتزايدون ، ويتكاثرون ، أولئك الجشعون ، أولئك المتحمسون ، بل أولئك المرضى الذين ، وقد غالوا في نصائح الأساتذة المغالين ، انتهوا إلى البحث عن الله في غليان أعصابهم ، في اختلال أذهانهم ، في الجنون . لقد كانوا يرفضون أي إجبار ، إجبار الكنائس الأهلية ، التي كانت

تبدو لهم كسجون ؛ وإجبار رجال الدين ، الذين كانوا يسمونهم الطغاة ؛ بل حتى إجبار المجتمع ، الذي كان يضطهدهم ، ويعبدون التقدم فساداً ، والعلم انحلالاً . ويقبلون على وجه العموم الخطيئة الأولى ، والخلاص . أما وقد انتهت قائدة هذا الخلاص الأول ، فلا بد من خلاص ثان ، بحبيته وشيك . لقد انتهى الزمن ، إن « النبي الكذاب » Antéchrist بسيطر على الدنيا ، التي لم يعد فيها مسيحيون حقيقيون :

*Cet Antéchrist est né
Ja plus d'un an passé.
Le temps est arrivé
Qu'il soit manifesté.
Je l'ai vu en esprit
Par une claire nuit,
Sur un théâtre grand
Riche et resplendissant,
Couvert d'un pavillon
Bordé à l'environ,
Tout tendu de velours
Incarnat à l'entour.
Dessus un lit mollet
Demi couché il est,
Il n'est plus en bas âge
Ains un grand personnage.
Sa gloire est sans pareille,
On l'estime à merveille ;
Fait paraître son train
De nuit, en grand festin :
Il a valets en nombre,
Comme une armée innombrable
Du peuple aux environs
De toute nation . . . (١)*

(١) لقد ولد هذا النبي الكذاب — منذ أكثر من عام — وقد حان الوقت — لكي
تزيح عنه الستار — لقد رأيته في المنام — ذات ليل مضى* — على مسرح كبير —
غني ساطع — يظله مرادق — منقوش الحروف — كله من مخمل قمرزي — مستلقيا على
لراش وثير — ليس صغير السن — بل يبدو كرجل كبير — إن مجده ليس له
نظير — يقدره الناس أكبر التقدير — يجعل من حياته في الليل — حفلة كبيرة :
عنده عدد كبير من الأتباع — كعيش عرمم — يحيط به حشد — من كل شعب
(انطوانيت بورنيون ، النبي الكذاب المكشوف ، أمستردام ١٦٨١ ، الفصل الثالث
والعشرون) .

الحية الديلية

٤٣٥

بدأت النكبة الأولى : الحروب ؛ وسوف تتبعها الأخرى ، الطاعون ، والنار ،
والجاعة . ولكن الله لن يدع المؤمنين يهلكون . عن قريب سيأتي المسيح ،
جسماً ، وروحاً ، وألوهية ، وفي مجد عظيم ، حينئذ يبدأ عهد السعادة الصحيحة .
وكثيراً ما كان أولئك المتحمسون يؤسسون الجمعيات ؛ مثل جوهان
جورج جيتشل ، الذي أسس جمعية الاخوان الملائكيين : فعلى أشياعها أن
يحولوا الناس إلى ملائكة ، بالتخلي عن كل المشاغل ، وكل الأعمال ، بالتأمل
والخمود . أو مثل جين ليد التي أسست مذهب « صوفي التصوف » ونظمت
شعبة « الفيلاذلفيين » ، والتي وجدها جيتشل ضيقة الأفق ، ولا تتفق بساطتها مع
ذوقه . كانت تقنع برؤى متواترة ، وتنبؤات كالأتية : سوف تفتح الأختام
السرية لكتاب الحمل ، سوف يطارد أتيل العظيم التين ، وسيرفع الفيلاذلفيون
راية المحبة المطرزة بالاسم الملكي ، وسينتشر الانجيل في كل مكان ، وسوف تدهن
أكثر بلاد الأرض تأخراً للمسيح المنقذ . . .

ولم يكتفوا بالاستسلام العلوي ؛ بل كانوا يرون رؤى إعجازية ، ويقعون
في نشوات وغيبوبات ؛ لم يعد الأمر يتعلق بالمتع الروحية لحسب بل بالمتع
الحسية أيضاً . كانوا يكافحون الشيطان ، الذي كان يتبدى لهم في صور
مرعبة ، ويخرجون منتصرين من تلك المعارك المضنية . كانوا أنبياء ، شافين ،
صانعى معجزات ؛ يالصالحى المعجزات المساكين ، الذين سجنهم الناس ،
ورجهم بالحجارة ، الذين انتقلوا من مدينة إلى مدينة ، ومن بلد إلى بلد ،
يتعقبهم أصحاب السلطان ، وفي نفس الوقت جنونهم . وكانوا يجدون سلوة
في التفكير في أن الشيطان هو الذى يجر عليهم هذا العذاب ، لأنه كان يرى
فيهم مدمرى سلطانه وعدة الله . وكانوا يموتون تعساء ، على أسرة المستشفيات؛
وأحياناً يموتون في عذاب ، مثل كورينوس كوهلمان ، الذى ، بعد أن
اخترق ألمانيا وهولندا والمجترات وفرنسا وإيطاليا وتركيا ، باذراً الحب في أراض
مجدبة جرداء ، محاولاً إنشاء الجمعيات في طريقه ، معلناً أن بابل سوف تسقط
وتبتدى الملكية الخامسة للصالحين — أحرق في موسكو عام ١٦٨٩ .

فلنفكر في عددهم الكبير ؛ وفيما بينهم من علاقات ، وروابط ، وصلات ؛
وفي الكتب التى ينشرونها بوفرة ، والتي تجد دائماً مترجمين في كل بلد ،
شبكة « تيوصوفية » théosophique واسعة تمتد خلال أوروبا . فلنفكر

في طبقة أخرى من الأفراد الذين يتغذون بأحلام أخرى ؛ في أشياع « الصليب الوردي » الغماضين ، في القبلين Cabalistes ؛ في الموقفين الذين ينشدون حجر الفلاسفة ، طائنين أنهم سيستطيعون إذابة مظاهر روح الكون الموحدة بعضها في بعض ؛ حينئذ سوف تتكون لدينا فكرة ، عن تخمر هائل متصل .

إن الشعور يهزمه العقل ، ولكنه لا يقبل هذه الهزيمة . ضد أنوار المعرفة ، كما يفهمها الفلاسفة ، يزعم « الملهمون » Les illuminés أن لديهم نارا تنيرهم وتشعلهم في وقت واحد . ضد العلم الذي يستأمن المستقبل على تقدمه ، يعلن « اليتوصفيون » أن لديهم علما مباشرا لدنيا ، هو وحده الذي يحسب له حساب . إن سواد المفكرين المعاصرين يقولون : « المعرفة » ؛ ولكن أقلية تحجب : « المحبة » . إن أنطوانيت بورنيون ، في حياتها المغامرة المتعدية ، حياتها المضطهدة — تلك المرأة العجيبة التي انتهى الأمر بها إلى ألا يكون لها إلهة عاطفية ؛ التي تحصل مباشرة بالله وتعتز المعرفة لأنها تحجب الحكمة الغامضة التي تكفيها كل الكفاية ؛ والتي تعلن أنه حتى لو اندثر الانجيل ، لوجد الخلق في نفسه ناموسا يكفي ليقوده نحو الحقيقة ونحو السعادة (١) — أنطوانيت بورنيون هذه ، واجهت ذات يوم بعض المولانديين من أشياع ديكرت . « لقد عقدت اجتماعات مع الديكارتيين ، وكونت عن مبادئهم فكرة مروعة . . . لم يرضوا عنها قط ، ولم ترض عنهم بالمثل . لم يكن منهج الديكارتيين من شأنها ؛ لم تكن تريد أن نستشير أنوار العقل ، على حين أن مبادئهم أنه يجب أن نفحص كل شيء بهذا المحك . وكانت تؤكد « أن الله قد كشف لها ، بل قال لها صراحة إن غلطة الديكارتيين هذه ، هي أسوأ الغلطات ، وألعن إلحاد رآه العالم ، وأنها كفر بـين ، أو إنكار لله ، الذي يحل محل العقل الفاسد . » يضاف إلى ذلك ما كانت تقوله عن الفلاسفة من أن « مرضهم مرده إلى أنهم يريدون فهم كل شيء بنشاط العقل البشري ، دون أن يتركوا أي مجال لإلهام الإيمان ، الذي يتطلب إبطال عقلنا ، وذهننا ، وفهمنا الضعيف ، لكي ينشر الله فيها ، ويذكر ذلك النور الإلهي . وبغير ذلك ، لا يقتصر الأمر على أننا

(١) النور المتولد في الظلمات ، انفرس ١٩٦٩ - الطبعة الثانية ، أمستردام ، ١٩٨٤ .

لا تعرف الله حق المعرفة فحسب ، بل إن الله وبهرته الحقيقية يتعدان أيضاً
عن النفس بفعل نشاط عقلنا هذا ، وذهننا الفاسد . وإن هذا لنوع من
الكفر ، وإنكار الله . . . (١)

«عندما ألغى القرن الثامن عشر ، أو ظن أنه ألغى — والمعنى واحد —
صورة الاله ذى الحية البيضاء ، الذى يشمل كل مخلوق بنظرة العطف ، ويحميه
بيمينه ، لم يبلغ فى نفس الآن المسألة الدينية . لأن الرغبة الصوفية شئ ،
والصورة التى نتخذها رمزاً لهذه الرغبة ، ترضية لأنفسنا ، شئ آخر . فإذا زال
الرمز ، بقيت الرغبة . إن الانسان عطش إلى أن يجد فوقه ملاذاً سامياً يثبت
إليه رغباته المكبوتة ، التى تصر على أن تنبجس من أعماق نفسه (٢) .»

(١) ييربايل ، القاموس ، باب بورنيون ، بيان له .

(٢) يير ابراهيم ، شخصيات عند بلزالك ، ١٩٣١ ، ص ١٥ .

خاتمة

ما هي أوروبا ؟ بغضاه محندة بين جيران يتقاتلون . منافسة بين فرنسا وإنجلترا ، وبين فرنسا والنمسا ؛ حرب حلف أوجسبرج ، حرب الوراثة الإسبانية (١) حرب عامة ، كما تذكر المؤلفات التاريخية التي لقيت صعوبة في تتبع تفاصيل هذه المعارك المهوشة . الاتفاقات لا تؤدي إلا إلى هدنة قصيرة ، والسلام لم يعد إلا حنيناً إلى الوطن ، والشعوب تنهك بينما تستمر الحرب : والجيش تعاود القتال في كل ربيع .

إن لينتز ، وقد رأى استحالة منع الأوروبيين من القتال ، يعرض عليهم توجيه هميتهم الحربية الجنوبية إلى الخارج . فالسويد ويولونيا تغزوان سيبيريا وروسيا الجنوبية ، وإنجلترا والدانمرك تختاران أمريكا الشمالية من نصيبهما ؛ ويكون لاسبانيا أمريكا الجنوبية ، وهولاندة بلاد الهند الشرقية ؛ وترى فرنسا أفريقية في مواجهتها ، فلتغتصبها ، ولتتوغل حتى مصر ، ولتبسط حتى الصحراء سلطان زهور الزنبق . هكذا تستغل كل تلك الجنود ، كل تلك البنادق ، كل تلك المدافع ، ضد البرابرة ، وضد غير المؤمنين ؛ وهكذا تتباعد المطامع والمصالح في أقاصى الأرض ، ولا تتصادم بعد ذلك أبداً .

أما الأب سان بيير فلا يقنع بإبعاد النزاعات . « عندما فكرت في شأن القسوة ، والقتل ، والعنف ، والحريق ، وغير ذلك مما تسببه الحرب من خراب ،

(١) حرب حلف أوجسبرج : حلف وقع عقب نسخ أمر نانت بين النمسا وإسبانيا والسويد وبعض أمراء ألمانيا ووليم أورانيج ضد لويس الرابع عشر . وامتدت الحرب تسع سنين وانتهت بحلف رزويك (١٦٨٨ - ١٦٩٧) .

حرب الوراثة الإسبانية : بين فرنسا والدول المتحالفة : النمسا وإنجلترا وهولاندة بمناسبة جلوس فيليب الخامس (حفيد لويس الرابع عشر) على عرش إسبانيا ، انتهت بمعاهدة أترخت (١٧١٣ - ١٧١١) . [الترجمان]

ولما كنت شديد التأثر بما أصيبت به فرنسا وغيرها من شعوب أوروبا ، جعلت أبحث فيما إذا كانت الحرب شرّاً ليس له دواء ، وفيما إذا كان من المحال جعل السلام مقبياً . . . (١) « أجل ، فلنجعل السلام مقبياً ، بل دائماً ! ولتجعل الأملاك الحالية مكتسبة إلى الأبد ، لا تقبل أى تغير أو تصرف ، ولكيلا يكون لدى دولة جيوش أكبر مما لدى جيرانها ، تحدد القوات العسكرية ويعين عددها ، وليكن اثني عشر ألف فارس على الأكثر . وإذا تولد نزاع بالرغم من كل ذلك ، يحتكم فيه إلى « الاتحاد » ، وعند الاقتضاء يعلن « الاتحاد » الحرب على الأمير الذي يرفض الخضوع للنظام الذي وضعه ، أو الأذعان للحكم الذي أصدره . وينتقد مجلس مستديم من مندوبين مفوضين في مدينة حرة ، محايدة ، مثل أترخت ، كلونيا ، جنيف ، أو أكس لاشابل . . . إن كلمة تفتن الأب سان بيير ، وهو ينظم — بدقة الخياليين — تفاصيل حلمه ؛ كلمة يخاطب تتضمن كل الآمال ، كلمة « أوربي » : بحكمة أوربية ، قوة أوربية ، جمهورية أوربية . فليسمع الناس له ، حينئذ تصبح أوروبا جمعية ، بدلا من أن تكون ميداناً للقتال . ولكن عندما أراد ليبنتز في عام ١٦٧٢ أن يشرك فرنسا في مشروعه العظيم ، كانت الحرب قد أعلنت على هولاندة ؛ وليس من الحق أن لويس الرابع عشر قد قابل هذا الفيلسوف الذي قدم من ألمانيا ليعرضه النصيح . وعندما جعل الأب سان بيير ، بعد أربعين عاماً ، يقيم سرايا فوق سراب ، تركه معاصروه يبني أحلامه السابقة لأوانها في الخلاء . ولما كان الأب سان بيير ، يمتلئ بحمية جديدة ، ويبحث عن عون ، فقد أبلغ خطظه إلى ليبنتز ، ذلك البطل العجوز في قضية السلام الكبرى ، فرد عليه ليبنتز في حزن شديد . رد عليه بأن أكثر ما يعوز الناس ليتخلصوا مما لا يحصى من الشرور ، هو الإرادة ؛ وأن الأمير الهام يستطيع ، في أسوأ الظروف ، أن يرد غائلة الطاعون أو المجاعة عن حدود بلاده ، إلا أن تغادى الحروب أشق من ذلك بكثير ، لأن الأمر لا يتعلق بقرار رجل واحد ، بل يتطلب مشاركة الأباطرة والملوك . ولا يوجد الوزير ، على حد قوله ، الذي يستطيع أن يعرض على الامبراطور

(١) شارل كامبيل دي سان بيير ، مذكرات لجعل السلام دائماً في أوروبا ، كولونيا ،

١٧١٢ مقدمة . Ch. Castel de Saint-Pierre, *Mémoires pour rendre la paix perpétuelle en Europe*, Cologne, 1712. Préface

أن يتنازل عن حقوقه في وراثة عرش إسبانيا ، وبلاد الهند ، لقد كان الأصل في إدخال الملكية الاسبانية إلى العرش الفرنسي ، مصدر خمسين عاماً من الحرب ؛ ويخشى أن الأمل في إخراجها منه قد يعكر صفو أوروبا خلال خمسين سنة أخرى . « هناك في أغلب الظروف ، أسباب مقدرة تحول دون أن يكون الناس سعداء . . . (١) »

* **

ما هي أوروبا ؟ شكل متناقض : قطعي معين ، وغير ثابت في وقت واحد . اشتباك من الحواجز ، أمام كل منها أناس صناعتهم طلب إجازات السفر ، ودفع المكوس ؛ كل العوائق الممكنة تقام في سبيل الاتصالات الأخوية . حقول نعنى بتحصينها حتى لا نجد وقتاً لاستغلالها ؛ ما من تيراط واحد من الأرض إلا كان محل نزاع من قرون ، وكل مالك يسوره بدوره . لم تعد هناك مساحات واسعة كبيرة حرة ؛ كل شيء منظم ، معين ، محدد ؛ إننا نشعر بضيق واختناق ؛ لا يوجد محل خال : « لقد قلمت إلى الدنيا متأخراً ، حتى إنني لا أكاد أجد فيها شبراً من الأرض لأبنى فيه لنفسى مقراً ، وقبراً (٢) . »

هذه الحدود المعينة ، نجعلها غير محتمة ، مادمنا نغيرها تبعاً للفتوحات ، والمعاهدات أو حتى بمجرد وضع اليد . هذه الحواجز ، نقدمها ، ونؤخرها ، ونزيلها ، ونقيمها من جديد ؛ ولا يكاد الجغرافيون ينتهون من وضع الخرائط الجديدة ، حتى تصبح هذه الخرائط عديمة القيمة (٣) . بمالك بأسرها نريد أن

(١) لينتزل إلى الأب دي سان بيير . من هانوفر ٧ فبراير ١٧١٥ - اقرأ لنفس المؤلف ، ملاحظات عن مشروع السلام الدائم للأب سان بيير (مصنفات لينتزل ، طبعة فوشيه ، الجزء الرابع) .

(٢) مارانا : محادثات بين فيلسوف ورجل معزل عن موضوعات شتى أخلاقية وعلمية ، ١٦٩٦ ، ص ٢٩ . انظر أيضا ص ٢٨ : « يحاول الناس نفس المنازعات بالعنف والحدة ، فالقوى سيتغلب دائماً على من كان أقل استعداداً للدفاع عن نفسه ؛ وطالما هناك ولايات وممالك ، وشعوب ، ستبقى العداوات والحروب ، تماماً كما ستوجد الرذائل طالما هناك أناس في الأرض . . . »

(٣) جريدة العلماء ، ١٣ إبريل ١٦٩٣ . بمناسبة « الحالة الحاضرة للشئون الأوروبية » ١٦٩٣ : « لا يمر يوم تقريباً إلا وتعرض فيه لتغيير جديد . »

فجعلها تكملة لما لك أخرى ، وجبال البرانس نريد أن نلغيها . ومن هنا هذا التناقض الداخلى : إن أوروبا لركب من أشكال تزعم أنها لا تمس ، بينما هى لا تكف عن المساس بها .

من جهة الغرب يسود الاطمئنان : فلن تأتى عن طريق البحر أساطيل بربرية كبيرة ؛ ولن يقبل الغزاة الأجانب لتخريب القرى العريقة ، وإذا حدث قتال ، فلن يكون هذا — والله الحمد — إلا بين إخوان ، المجليز ، فرليسيين ، برتغاليين ، وإسبان . — وفى البحر الأبيض المتوسط ، جعل الأتراك يأتون بأعمال مهينة حيال السياح والبلاد الواقعة على الشاطئ : إلا أنهم لا يمثلون خطراً داهماً — أما من جهة الشرق ، فها للمفاجأة ! فها مضى ، كان على أوروبا أن تدافع عن نفسها أمام جيوش الهلال ، التى جاء دورها لتقبض على زمام المدنية . أما الآن فلم تعد المسألة بهذه السهولة . فهاهم أولاء ملايين من الناس يظهررون على أبواب الشرق ، مطالبين ، تنفيذاً لارادة القيصر ، بالانضمام إلى أوروبا . يطلبون أن ترمى إليهم منتجات أمستردام ، ولندن ، أو باريس ؛ وبماذج أيضاً وأساتذة ؛ فهم يحلقون لحاهم وشعرهم ويغيرون ملابسهم ويدرسون اللغة الألمانية . . . لكن نفوسهم ، ترى هل يغيرونها بمثل هذه السرعة ؟ هل سيقنعون بدور التلامذة المتأخرين ، الذين ينصتون فى تواضع إلى دروس إنسانية سامية ؟ وإذا نحن لبينا رجاءهم (وكيف لا نلبيه ؟) أفلا يهتم أن يعرضوا علينا يوماً حكمهم الخاصة مقابل حكمتنا ؟ أما كونها حكمة أو جنوناً ، فهذا هو السؤال الذى سيعرض فيما بعد . لكن أوروبا تشعر من الآن بشئ من الضيق ، فقد فقدت توازنها بفعل أوروبا المنافسة هذه ، بفعل هذا الامتداد والتقليد والتزييف لأوروبا التى ظهرت على حدود الشرق .

أوروبا ، أرض النزاع والحسد ! الحسد والألم والمرارة . فاللاتين يحتقرون الجرمان ، لضخامة جرمهم ، وجفوة خلقهم ، وبلادة ذههم ؛ والجرمان يحتقرون اللاتين ، المنهوكين ، النحلين . واللاتين يتشاجرون فيما بينهم ؛ يبدو أنهم يتألمون حين يضطرون إلى الاعتراف بمزايا شعب مجاور ، فلا يخطر ببالهم أبداً سوى النقائص . مثل معطف أزموديه ، الشيطان الأعرج ، حيث نرى صوراً لا تحصى منقوشة بالخبر الصينى : فليس بينها صورة جميلة ، بل كلها قبيحة : سيدة إسبانية متشحة تغازل أجنبياً فى الطريق ؛ ميادة فرنسية تتمرن أمام المرأة

خاتمة

٣٤٣

على حركات مغرية جديدة ، لتجربها على قسيس شاب ، يتقدم إلى مدخل غرفتها ، وقد جمل وجهه بالأحر وبخال اصطناعي ؛ جماعة من الألمان ، غارقة في الفوضى ، وقد صرعهم التبيذ ولوثهم الطباقي ، يحيطون بمائدة تفيض بأنوار فسقهم ؛ انجليزى يقدم إلى رفيقته بكل رضا غليوياً وقدحا من الجعة... (١) ويأثمل ، أدخل إلى حديقة السيد سيكتاتور: تجرد الأزهار ، بمجرد أن تصبح شعاراً للشعوب ، تفقد بهاءها وشذاها : فان أريج زهور إيطاليا بالغ القوة ، يؤدي المخ ؛ وأريج زهور فرنسا - ولو أنها زاهية ، فاتنة ، حية - ضعيف وعابر ؛ وزهور ألمانيا وبلاد الشمال - إما أن أريجها ضعيف وإما أنها ليس لها أريج ، وإذا كان لها رائحة فهي كريهة على كل حال (٢) .

ومع ذلك ، فاذا استمع المرء مدة طويلة ، كما استمعنا ، إلى الصيحات والشكاوى التي تصاعد من هذه الأراضي المعذبة ، فانه يسمع أيضاً ، وسط التحرش والتأنيب ، أصوات الكبرياء . يسمع الشودة تتعالى شيئاً فشيئاً تمجيداً لمزايا أوروبا التي لا تستطيع أى قوة في الدنيا أن تعادلها ذكاء ، وقوة ، ونظراً ، وبهاء .

صحيح أن أوروبا أصغر أقسام الدنيا الأربعة ؛ ولكنها أجملها ، وأخصبها ، إذ ليس فيها قفار أو صحراء ؛ كما أنها أكثرها استثماراً ؛ ارتقت فيها الفنون العقلية والميكانيكية إلى نضرة ليس لها مثيل . فليمدح الآخرون ، إذا شاءوا ، العجائب التي تنكشف في الصين ؛ « هناك ضرب من العبقريّة لم يخرج بعد من حدود أوروبا ، أو على الأقل لم يبتعد عنها كثيراً ولعله غير مسموح له أن يمتد إلى مساحة واسعة من الأرض مرة واحدة ، ولعل القدر يفرض عليه حدوداً ضيقة . فلنتمتع به طالما نمتلكه ؛ ومن خير مزاياه ، أنه لا يقتصر على العلوم وعلى الدراسات النظرية الجافة ، بل يمتد بنفس النجاح حتى فنون اللهو والتسلية التي أشك في أن شعباً من الشعوب يقف فيها معنا على قدم المساواة (٣) . »

(١) لوساج ، « الشيطان الأعرج » ، الفصل الأول .

(٢) سيكتاتور ، رقم ٤٥٥ .

(٣) فونتنل ، محادثات عن تعدد العوالم ، الأسمية السادسة .

ومهما كانت أوروبا منقسمة على نفسها ، فإنها تتحد بمجرد أن تواجه القارات التي عرفت كيف تستعبدتها ، والتي تستطيع أن تتغلب عليها كما لزم الأمر . مازالت ياقيسة في أذهان شعوبها ذكريات الرحلات البحرية الباسلة ، والاكتشافات ، والسفن الموسوقة بالذهب ، والأعلام المجيدة التي رفعتها على أنقاض الممالك البربرية . ولا زالت تشعر ، على حد قولها ، إنها « مهولة » ، و « محارية » . « ولو أن أوروبا أرادت أن تذهل الشرق والغرب ، لأذهلتها قبل أن تقرر ذلك » . — « عند أول إعلان للقتال يصدره أمراء أوروبا ، يجدون رجالاً يحملون السلاح طواعية — لا تدفعهم إلا رغبة واحدة هي اكتساب الجهد — أكثر ممن يستطيع الآسيويون والافريقيون أن يجمعوا بفضل الذهب ، والفضة ، والوعود. (١) » إن أوروبا — وإن كانت ممزقة ، مجروحة لوعيتها التام لابتعاستها لحسب ، بل بأخطائها أيضاً ، وإن كانت تندم على فقدان وحدة العقيدة فوق ندمها على كل ما تشعر به من خسارة ، وإن كانت يائسة من أن تدعى « بالمسيحية » كما كانت تدعى فيما مضى — إن أوروبا لازالت تحتفظ مع ذلك بشعور من امتياز يخصها وحدها ، من بدعية تزيدها كل مقارنة ظهوراً ، من قيمة موقوفة وفريدة .

ماهى أوروبا ؟ تفكير لا يقنع أبداً . إنها لا تكف أبداً ، دون أن تشفى على نفسها ، عن تتبع بحثين : أحدهما في سبيل السعادة ، والآخر في سبيل الحقيقة ، وهو ألزم لها ، وأعز . لا تكاد تجد حالة توفى هذه الضرورة المزدوجة ، حتى تحس ، وتعرف ، أنها لا تملك بعد إلا الموقوت ، إلا النسبي ، وبصورة غير محققة ، وتعاود بحثها المستبصر الذى تجد فيه مجدها وعداها .

وفي خارجها ، كتل بشرية ، لم تلمسها المدنية ، تعيش بلا تفكير ، قاعة بالحياة . وأجناس أخرى تحس أنها بلغت من الشيخوخة والسأم ما يجعلها تكف عن قلق مضن ، وتستغرق في جمود تدعى أنه حكمة ، وفي عدم تزعم أنه كمال .

(١) لويس دي ماى ، « السائح الحذر » ، جنيف ، ١٩٨١ ، المقال الرابع « عن أوروبا عامة » .

وأجناس أخرى أمسكت عن الاختراع ، مكتفية بالتقليد على الدوام . أما في أوروبا ، فنحن ننقض في الليل النسيج الذي نسجه النهار ؛ ونجرب خيوطاً أخرى ونصنع لحماً أخرى ، وفي كل صباح نسمع صخب الأنوال التي تصنع الجديد ، في اهتزاز وارتجاج .

. وإذا كان ذلك العامل الطامع قد امتشعر يوماً أنه يستطيع أن يتوقف وأن يرتاح — لأنه أنتج أخيراً أروع تحفة — فأنما كان ذلك في العصر الكلاسيكي . هل كان يستطيع أن يخلق أشكالا أجمل وأمتن ؟ أشكالا تبلغ من الجمال والمتانة ما يجعلها تنال إعجابنا اليوم ، وتكون جديدة بأن تعرض كنماذج لأبنائنا وأبناء أحمادنا ؟ بيد أن هذا الجبال نفسه يفترض أنما في الأذهان التي أنتجته . لقد وجدت الكلاسيكية وسيلة لكيلا تطرح الحكمة القديمة ، ولكي تباشر الحكمة المسيحية ؛ ولتحقق الاتزان بين مقدرات النفس ؛ ولتبنى النظام على أساس القناعة والاعجاب ، ولتأق بمائة معجزة أخرى ، ولتجمل كل ذي في كلمة واحدة ؛ لتعرض على الناس حالة تقرب من الطمأنينة . حتى أن أوروبا ، وقد سعدت بتأمل هذه النتيجة الجديدة بالذكر ، توقفت لحظة . لقد توهمت ، هنية ، أن في مقدورها أن تتوقف قليلا في وسط آمال وأوجه. نظر تبلى من الصحة والعظمة أنها لن تجد أبداً أضبط منها أو أكمل . أمل لم يطل ، بل سرعان ما أنكر ؛ ميل إلى التوقف ، أكثر منه توقفاً صحيحاً ، لأن أوروبا لم تكف أبداً عن احتمال قانونها الخاص ، قانونها القاسي . قبل أن ينتهي العلماء ، في دنيا تقيم منطقتها على الارتضاء المختار للسلطة ، من شرح مذاهبهم وما بها من فوارق دقيقة ، جعل علماء آخر يلتفتون الأنظار إلى ما في هذه السلطة نفسها من أخطار وسوء استعمال ، ونقائص ، وانتهوا إلى رفض كل قيمة لفكرة السلطة ، مكافحين كل ما فيها من تجاوز ومغالاة . هكذا بدأ العمل في البحث من جديد ، خفية ؛ وتولد الاضطراب تحت المظاهر الهادئة ؛ وجعل الناس يسعون نحو سعادة أخرى ، نحو حقيقة أخرى ؛ وأخذ القلقون ، محبو الاستطلاع — الذين كانوا مستندين ، مضطهدين ، مستخفين فيما سبق — يظهرين في وضوح النهار ، وينقادون ، ويشتهرون ، ويطالبون بمكان القادة والرؤساء . تلك هي أزمة الضمير التي شهدناها ، فيما بين القرن السابع عشر والثامن عشر .

لكن ، من ذا الذى غذى هذا التفكير النقدي ؟ من أين اتخذ قوته ، وجراته ؟ وأخيراً من أين يأتي ؟

من أعماق الدهر ؛ من عهد اليونان القديمة ؛ من هذا العالم أو ذاك من علماء القرون الوسطى الملحدة ؛ من هذا النبع القصي أو ذاك ؛ لكن من زمن النهضة بلا مرأى . إن بين النهضة والزمن الذى ندرسه قرابة لا مزية فيها . نفس الرفض ، من جانب العلماء المجهثرين ، رفض إلحاق البشرى بالالهى . نفس الثقة ، الثقة بالبشرى ، البشرى وحده ، الذى يحدد كل الحقائق ، ويحل كل المسائل ، أو يعد ما يعجز عن حلها كأن لم تكن ، والذى يتضمن كل الآمال . نفس التدخل من طبيعة ، غير معرفة كل التعريف ، ولكنها قادرة كل القدرة ، لم تعد من صنع الخالق ، بل هي الحمية الحيوية لكل الكائنات على العموم وللإنسان على الخصوص . نفس الشقاق ، فإن قشل وحدة الكنائس ، في نهاية القرن السابع عشر ، ليس إلا تأييداً للشقاق الذى حدث في القرن السادس عشر ، والذى حاول الناس إزالة صفته القاطعة بلا جدوى . نفس الجدل الذى لا ينتهى ، في علم التاريخ ، وفي السحرة . هذه السنون الشاقة ، هذه السنون ذات الجهد والنيل ، حيث يتأمل كل امرئ حتى أغوار نفسه ، حيث يعى المدعون والمدافعون أنهم يكالحن في سبيل عقيدتهم يأكلها ، حيث لا يزال الارتهايون يبدون في صورة مهتدين جدد ، حيث لا يجهل أحد أن الأمر يتعلق بتفسير قاطع للحياة — هذه السنون تبدو لنا بمثابة «نهضة» ثانية . إلا أنها أكثر منها صرامة ومشقة ، وكأنا هي مستدركة مستفيضة : نهضة بدون رابليه (١) ؛ نهضة بلا بهجة .

ليس الأمر أمر تشابه مبهم ، بل هو صلة تاريخية يسهل علينا إدراكها . أولئك المجتهدون المتحمسون ، كتّاب المجلدات الضخمة ، أولئك القراء الكبار

(١) Rebelais : مؤلف فرنسى في القرن السادس عشر (١٤٩٤ - ١٥٥٣) ، صاحب «حياة جارجانتوا وبانتاغرويل» *Gargantua et Pantagruel* . وضع أفكاره عن الإنسانية وفلسفة الطبيعة والأخلاق الأبيقورية في أسلوب هزل مرع بهيج . ويتميز بروح نقدي عال ، وشك ، وحب حي للإنسانية والعدالة ، وتقديس للعلم الحقيقي . [المترجمان]

الذين لم تشبع شهيتهم أبداً ، — وإن كانوا لم ينظروا بعين التقدير إلى الشعراء الذين تدنوا لهم النهضة بفتنتها وبسمتها — إلا أنهم درسوا الفلاسفة الذين كانوا روحها الجسور ، وعرفوها متعة وعذاب تفكير ليس له حدود . إنهم سمعوا لهم ، وأعجبوا بهم ، وتبعوهم . إن بيير بايل لوريت نسل المتحررين الذين يمدون القرن السادس عشر حتى القرن السابع عشر : إنه يجب لامت لوفاييه ، الذي تتضمن « محاوراته » ، « أسوراً بالغة الجرأة فيما يخص الدين ، ووجود الله » ، وهو يذكر لاسيليو فانيني عاداً إياه الشهيد المحيد لعدم التصديق . وهو يعرف من قبل ذلك جان بودان ، وشارون ، وميشيل دى لوسبيتال ، ولعله من نافلة القول أن نقول مونتسائي Montaigne : الذي لفت نظره — في لسانه الغالى القديم — إلى أن كثيراً من الناس يملكون الأسور للبحث عن العلل : وهذا مما شهدناه جيداً في مثل المذنبات . وهو يعرف ، مثلاً يعرف سواد معاصريه الكبار ، جيوردانو برونو ، الذي « كان رجلاً ذا ذهن واسع ، ولكنه أساء استعمال معارفه ، لأنه لم يقتصر على مهاجمة فلسفة أرسطو في وقت لم يكن أحد يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يسبب مائة اضطراب ، بل هاجم أيضاً أهم حقائق الإيمان . » وهو يعرف كاردان — « واحد من أعظم الأذهان في عصره » « رجل ذو طبع فريد » — الذي يقول إن أولئك الذين يزعمون أن الروح تموت مع الجسد ، هم بحسب مبادئهم أناس أصلح من الآخرين » ؛ وهو يعرف بومبونازي . ومن ذا الذي لا يعرفه ؟ إنه يعرف بالينجنوس الملحد ، المؤلف الأثير لدى السيد نوديه ؛ إنه يعرف ، بصفة عامة ، كل أولئك الذين لم يشاءوا الاعتراف بقانون آخر ، إلا قانون العقل البشرى (١) .

وبالمثل ، لا يجهل ريشار سيمون أحد ممن عكفوا على دراسة الكتب المقدسة من قبله ، والذين كان هدفهم الوحيد — طبقاً لقول جيوم بوستيل — « إخضاع الكون بأمره لاستعمال العقل الحق . » إن احترام النصوص ، ومعرفة اللغات العالة ، وتقدم الفيلولوجيا ، وكل أنوار المعرفة التي أضاءت طريقه ، مصدرها « النهضة » . فهو يتبع مثال أساتذته البعيدين بالكلية الملكية : يقول « بين يدي وثائق دعوى رفعتها كلية اللاهوت ببافيس على الأساتذة

(١) « أفكار عن المذنب » ، في أبواب مختلفة ؛ و« القاموس » .

الملكيين بالعبرية واليونانية ، بعد أربع سنوات من تأميمها (١) . «
لقد لاحظ الناس هذا التحالف الأكيد بينهم ، في أثناء حياتهم . إن بوسويه
يجمع في لوم واحد بين « إرازم وسيمون ، اللذان يزجان بنفسيهما في الحكم
بين القديس جبروم والقديس أغسطين ، بدعوى ما لهما من امتياز في الآداب
واللغات (٢) » بينما يرى المعجبون بإيل أنه ينبغي أن يقام له تمثال بجانب
تمثال إرازم في روتردام (٣) . إن أعداء الفلسفة يدينون في حكم واحد سبينوزا ،
برونو ، كاردان ، والنهضة الإيطالية التي بعثت أخطاء الوثنية إلى الحياة ،
ونشرت الكفر في الدنيا (٤) ؛ ويمجد أصدقاءها نهاية القرن الخامس عشر ،
وبداية القرن السادس عشر ، التي انبثقت منها أشعة نور جديد (٥) .

هكذا ترسم حركة التفكير الحديث ، كما يلي على وجه التقريب .
تظهر ابتداء من النهضة ، حاجة إلى الاختراع ، ولع بالاكشاف ، اقتضاء
نقدى ، تبلى من الوضوح أننا نستطيع أن نرى فيها الصفات الغالبة في ضمير
أوربا . ابتداء من منتصف القرن السابع عشر ، أو نحو ذلك ، نرى توقفا
« مؤقتاً » توازناً غريباً يتحقق بين عناصر متعارضة ؛ «صالحة تقع بين قوى
متعادية ؛ وهذا النجاح ، الاعجازي بحق : السكلاسيكية . فضيلة مسكنة ؛
قوة هادئة ؛ مثال لطمأنينة توصل إليها ، برعى ، أناس قد عرفوا — كما عرف
الناس قاطبة — الشهوات والشكوك ، ولكنهم يتوقون — بعد اضطراب العصر
السالف — إلى نظام سنقد . ولا يعنى هذا فناء روح النقص ؛ فهو باق لدى

(١) « رسائل مختارة » ، الرسائل ٥ ، ٢ ، ٩ ، ٢٣ ؛

(٢) « دفاع عن التقاليد والآباء القديسين » ، الفصل العشرون ، الكتاب الثالث ،
القسم الأول : « نقد جرىء لارازم عن القديس أوغسطين ، بدعم السيد سيمون . »

(٣) انظر بايل ، « مراسلات » ، طبع جيجاس ، مقدسة ، ص ٩ . بيير جوريو
« فيلسوف روتردام ، المتهم ، المذنب واقعا وقانونا » ، ١٧٠٦ ، ص ٢ .

(٤) انظر جون أفلين Evelyn ، « تاريخ الديانة » ، طبعة لندن ، ١٨٥٠ ، المقدسة .
ص ٢٧ ، وش . كور هولت : Ch. Korholt, De tribus impostoribus magnis liber, ;

Kilonii, 1680, début

(٥) ل . ب . ، « مقالان مبعوثان في رسالة من أكسفورد إلى نيبيل في لندن » ، ١٦٩٥ .

الكلاسيكيين أنفسهم ، منظم ، مكبوح ، معنى بأن يصل بالروائع الأدبية إلى ذروة الكمال ، تلك الروائع التي تقتضى صبراً طويلاً لكي تكسب الخلود . وهو باق لدى المتمردين الذين ينتظرون دورهم ، في الظلام . إنه باق لدى أولئك الذين يتعاهدون مع النظم السياسية والاجتماعية — وهم يلعنونها ؛ تلك النظم التي ينتفعون منها ، والتي يجدون فيها متعة حياتهم ، مثل سانت أفريموند وفونتنيل وغيرهما ، أرستقراطيو الثورات .

لذلك ، بمجرد ما تكف الكلاسيكية عن أن تكون مجهوداً ، إرادة ، قبولاً متفكراً ، وتتحول إلى عادة وإلى إجبار ، فإن الميول الجديدة — المستعدة — تستعيد كل قوتها ونشاطها ؛ ويعود الضمير الأوروبي إلى بعده الأزل . حينئذ تبدأ أزمة تبلغ من السرعة والمباغتة ، أنها تدهشنا : بينما هي في الواقع ليست إلا مغاودة أو مواصلة ، قد سهرت على إعدادها تقاليد باقية من أجيال .

ولما كانت مكتملة ، متجبرة ، عميقة ، فانها تعد بدورها — قبل أن ينتهي القرن السابع عشر — القرن الثامن عشر بأكله على وجه التقريب . لقد وقعت معركة الأفكار الكبرى قبل عام ١٧١٥ ، بل حتى قبل عام ١٧٠٠ . إن جرأة حركة التفسير Aufklärung ، جرأة عصر الأنوار ، لتبدو شاحبة هزيلة ، بجانب جرأة « البحث اللاهوتي السياسي » المتهجمة ، بجانب جرأة « علم الأخلاق » المدوخة . لافولتير ، ولا فردريك الثاني وصلاً إلى حملات تولاندر الجبونية ضد الأكايروس وضد الدين ؛ ولولا لوك لما كتب دالامبير « المقال الافتتاحي للانسكلوبيديا » ؛ ولم يكن العراك الفلسفي أعنف من المعارك التي رن صداها في هولاندة والمجلترا ؛ وحتى بدائية روسو لم تكن أكثر مطالبة بالاصلاح من بدائية أداريو الطمحي ، الذي قدمه لاهوتنان المتمردين . من هذا العهد الكثيف المشحون الذي يبدو غامضاً ، ينبع بوضوح النهران الكبيران اللذان سوف يخترقان القرن بطوله ؛ أحدهما التيار العقلي ؛ والثاني وإن كان ضعيفاً في بدايته ، ولكنه مفيض فيما بعد على شواطئه : التيار العاطفي . ومادام الأمر في هذه الأزمة نفسها كان يتعلق بالخروج من المجالات المخصصة للمفكرين للاتجاه نحو الجمهور ، لحاق به وإقناعه ، ومادام الناس قد مسوا مبادئ الحكومات بل حتى فكرة الحق نفسها ، وماداموا قد أعلنوا المساواة والحرية الفردية المنطقتين ؛ ماداموا قد نادوا بحقوق اللسان والمواطن ؛ فلنحترف أيضاً

بأن كل الاتجاهات الذهنية ، على وجه التقريب ، التي ستؤدي مجملها إلى الثورة الفرنسية ، كانت قد اتخذت قبل نهاية حكم لويس الرابع عشر . الميثاق الاجتماعي ، تفويض السلطان ، حق المواطنين في العصيان ضد الأسير : حكايات قديمة ، نحو عام ١٧٦٠ ! فمنذ ثلاثة أرباع قرن أو أكثر ، والناس يناقشونها في وضوح النهار .

إن الكل في الكل ، كما نعلم في ولا شيء جديد ، كما نعلم أيضاً ، مادامنا قد انتهينا منذ لحظة من تسجيل القرايات والأنساب . لكن إذا وصفنا بالجدة ، إعداداً بطيئاً يصل إلى هدفه أخيراً ، إتباع اليول الأبدية التي تنبثق ذات يوم — بعد أن كانت مدفونة في الأرض — بحبوة بقوة ، وموشاة بنضرة ، تبدوان مجهولتين للناس ، الجهال الدائبي النسيان ؛ إذا وصفنا بالجدة طريقة معينة لعرض المسائل ، لهجة معينة ، اختلافاً معيناً ؛ عزماً معيناً على التطلع إلى المستقبل أكثر من الماضي ، على التخلص من الماضي مع الاستفادة منه في نفس الوقت ؛ وأخيراً إذا وصفنا بالجدة تدخل « الأفكار — القوات » التي تصبح من القوة والوثوق بنفسها بحيث تؤثر تأثيراً جلياً على الحياة اليومية ؛ فإن تغيراً قد وصلت عواقبه إلى عصرنا الحاضر ، كان يعتمل في السنوات التي قام فيها عباقرة مثل سبينوزا ، بايل ، لوك ، نيوتن ، بوسويه ، فتيلون — مع الاختصار على ذكر أعظمهم — بفتح كل للضمير ، لكشف الحقائق التي تسيطر على الحياة . ولنقل مع أحد أولئك العباقرة ، مع ليبنتز ، مادين قوله عن العالم السياسي إلى العالم الأخلاقي : *Finis saeculi novam rerum faciem aperuit* (١) : في السنوات المختمة للقرن السابع عشر ، بدأ ترتيب جديد للأمر .

(١) مصنفات ، طبع فوشيه دي كاريل ، الجزء الثالث : *Status Europae incipiente* . حالة أوروبا في مستهل القرن الجديد . *novo saeculo*

أسماء الأعلام

(١)

إسكندر الأكبر ٤٦ ، ٣٦٦ .	
إسكندر ذو الذراع الحديدية ٣٦٥ ،	
٣٦٨ .	إبيقور ١٢٧ ، ٢٦٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ .
أغسطين (القديس) St. Augustin	أديسون ٩٠ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
٤٩ ، ١٦٣ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ،	٧٢ ، ٧٩ ، ٣٢٩ ، ٣٥٩ ، ٣٨٥ ،
٢٠٣ ، ٤٤٨ ، ٤١٥ .	٣٩٦ .
أفلاطون ٢٢٢ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ،	أريثنوت ٦٧ ، ٦٨ .
٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣٣٥ ، ٤١٥ .	أريستوفان ٤٣ ، ٣٩١ .
إمبريوزوس ١٩٧ .	أرسطو ٣٦ ، ١٠١ ، ١٢١ ، ١٣٣ ،
أمر نانت Edit de Nantes ٢٤ ،	١٣٦ ، ١٧٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
(٧٢-٧١) ، ٧٦ ، ٧٣ (٨٣-٨٦)	٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٦٦ ، ٣١٠ ،
٢٢٨ ، ٢٢٥ ، ٢٩٢ (٢٨٠-٢٧٧)	٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤١ ، ٣٥١ ،
٣٠٧ .	٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٨٧ ،
إملودي لا هوساي ٣٢٦ .	٣٩١ ، ٤٠٥ ، ٤١٥ ، ٤٤٧ .
أمتا (نيكولو) ٣٥٣ .	الأرمنيون Arminiens ٩٥ ، ١٠٠ ،
آن (ملكة إنجلترا) ٦٧ ، ١٥٢ ،	١٨٥ ، ٣٠٨ .
٣٥٧ .	أرنو Arnauld ٤٩ ، ٨٧ ، ٩٠ ،
أناكريون Anacréon ٣٤١ ، ٣٤٧ ،	١١٥ ، ١٤٩ .
٣٤٩ .	أرلست أوجوست (دوق دي هانوفر)
أنطونيونيولا ٥٢ .	٢٢٥ .
أورتيجا دي جاسي ٥٨ .	إريسيرا (كونت) ٣٥١ .
أوكلي (سيمون) ٢٢ .	أستوريني (الأب) ٤٧ .

ایشارد (لورالس) ۳۵ ، ۳۷ .	برتاد (الاب) ۱۸۷ .
ایمار (جاک) ۱۷۸ ، ۱۷۹ .	برکلی Berkeley ۶۷ ، ۶۸ ، ۲۵۱ .
ایرازم Erasme ۸۸ ، ۲۶۶ ، ۲۹۲ .	۲۵۴ .
۳۵۶ ، ۴۴۸ .	بونارد جاک ۱۱۶ .
(ب)	برنییه Bernier ۱۷ ، ۱۰۳ ، ۱۲۳ .
بابون Papon ۹۷ .	بریزونوس ۳۸ ، ۵۰ .
باتس ادریان ۳۰۷ .	بریمار (الاب) ۳۶۴ .
باتین جی Patin ۱۲۴ .	بریموند (هانری) ۴۱۸ .
بارو I. Barrow ۵۲ ، ۸۷ .	بریتوی (بارون) Breteuil ۳۸۰ .
بالوز E. Baluze ۵۲ .	برینون (مادام دی) ۲۲۹ ، ۲۳۶ .
باناج (جاک) ۸۶ ، ۹۹ ، ۱۹۲ .	برنقلیه Brinvilliers ۱۷۸ .
باناج دی بوفال ۷۷ ، ۳۰۷ .	بریوا Brion ۵۹ .
باسیرانو (کونت البرتودی) ۱۰۱ ، ۱۰۲ .	بروملی (ولیم) ۵۹ .
بایل (بیور) Pierre Bayle ۱۷ ، ۶۱ ، ۷۲ ، ۷۷ ، ۸۸ ، ۹۰ ، ۹۵ .	بروسیت (کلود) ۱۷۹ .
۱۰۰ ، (۱۰۱-۱۱۸) ، ۱۴۰ ، ۱۴۸ ، ۱۵۱ ، ۱۵۲ ، ۱۵۸ ، ۱۵۹ (۱۶۳-۱۶۹) ، ۱۷۹ ، ۱۸۱ ، ۱۸۲ ، ۲۵۹ ، ۲۶۱ ، (۲۸۹-۲۹۲) ، ۳۰۷ ، ۳۱۵ ، ۳۲۸ ، ۳۴۰ ، ۳۷۹ ، ۴۴۷ ، ۴۴۸ .	بروتوس Brutus ۲۹۲ .
۴۵۰ .	بیسکال Pascal ۹ ، ۳۸ ، ۱۴۷ .
پترون Pétroane ۳۵۶ .	۳۰۲ .
پتلی (جوزیف) ۲۵۵ .	بلاکور (ریشارد) ۳۵۷ .
پراون (توماس) ۶۴ ، ۸۷ .	بلنزان (الرئیس فیرائد) ۳۸۰ .
پرایور Prior ۶۷ ، ۳۴۹ ، ۳۵۳ ، ۳۵۴ .	بنتلی Bentley ۵۱ ، ۶۷ ، ۲۵۵ .

بواجلبرت (بيير) ٢٨٦ .	بوكوك ٢٢ .
بوسبونازي (بيثرو) ١٢٢ .	بوفندورف Pufendorf ١٧٤ ، ٥١ ،
بوفيه Buffier ٣٥ .	(٢٧٧-٢٧٥) ٢٨١ ، ٣١٩ ،
بوكانان ٦٦ .	٣٩٢ .
بولانفليه Boulainvilliers ٢٣ .	بول (القديس) ٢١١ .
بوهور (الاب) ٦١ ، ٣٥١ .	بوالو Boileau ١١ ، ١٤٢ ، ١٨٠ ،
بونيان (جون) ٦٦ .	(٣٥٣-٣٥١) ٣٥٦ ، ٣٥٩ ،
بويل (روبرت) ٢٦١ ، ٣١٤ ،	(٣٧٤-٣٧٣) ٣٨٢ ، ٣٨٥ ،
٣١٦ .	٣٩٠ ، ٤٠٨ .
بيكون (فرنسيس) F. Bacon ٦٦ ،	بوسويه Bossuet ١١ ، ٢١ ، ٤٤ ،
٢٤٣ ، ٢٦٦ ، ٣١٢ ، ٤١٥ .	٤٨ ، ٦١ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ،
بيرو Perrault ٣٦٢ ، ٣٨٢ .	٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٤١ ،
بيرون Pyrrhon ٢٣٨ ، ٢٤١ .	١٩٦ ، (٢١٨-٢٠٠) (٢٢٨-٢٢٧) ،
بيزون (الاب) ٤٦ ، ٤٧ ، ٢١٣ ،	(٢٣٦-٢٢٩) ٢٦٩ ، ٣٧٨ ،
بيش (أدوارد) ٣٥١ .	٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
بيكر (بالتازار) ١٤٧ ، ١٥١ ،	٣٧٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ .	٤٥٠ .
بينوا Benoit ٨٦ ، ١٦٢ .	بوترو Boutroux ٢٢٣ .
بينكيني (فرانيسكو) ٥١ .	بونالد (فيكونت) ٢٥٩ .
بيرنت (جلبرت) Burnet ٣٥ ،	بورنيون (الطوائف) ٤٣٥ .
٣٦ ، ٥٩ ، ٨٧ ، ٩٩ .	بوايه أيل Boyer ٣٥ ، ٦٨ ، ٧١ ،
بيل (روجي دي) ٤٠٨ .	بوفيه Bouvet ٣٦٧ .
	بطرس الأكبر (قيصر) ١٤ ، ٧٩ .
(ت)	بطلميوس فيلا دلفوس ، ملك مصر ٤٦ .
تان Taine ٢٥٣ .	بوشار (صاويل) ١٨٣ .
تاسيت ١٦٣ ، ٤١٥ .	بوهم Boehme ٤٢٦ .
تشارد (الاب) ٣١٦ .	بويرهاف (هرمان) ٣١٤ ، ٣٢٠ .
	يوانبوريج (بارون) ٢٢٤ .

(ج)	تافرنیه (جان باتست) ١٧ .
	ترتولیان ١٩١ .
جارت (مامویل) ٣٧٣ .	تسامح (عقد التسامح) ٣٠٧ ،
جارسلازو دی لافيجا ٢٩٣ .	٣٠٨ .
جاروفالو ١٩٩ .	تمبل (وليام) W. Temple ١٦ ،
جالاند (أنطون) ٢٢ ، ٣٦٦ .	١٢٢ ، ٢٩٣ .
جای Gav ٦٧ .	تندال (ماتیو) ١٥٠ .
جایل (توباس) Gale ٥٢ .	تولاند (جون) J. Toland ٦٦ ، ٧٢ ،
جراسیان (بالتازار) ١٧٦ ، (٣٢٦-)	(١٥٤-١٥٠) ١٦٢ ، ١٧٣ ،
٣٢٨ .	٢٥٢ ، (٢٦٨-٢٦٦) ٣٧٨ ،
جرافیساندی ٣١٤ .	٤٤٩ .
جرافینا (جان) (٢٨٨-٢٨٧)	توماس (القديس) St. Thomas ٢٧ .
٣٨٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥١ .	توماس الاکونی (القديس) .
جرامونت (کونت) ٣٧٢ .	St. Thomas d'Aquin ٤١٥ .
جروسیوس (هوج دی جرووت)	توماسیوس (کرمتمان) Thomasius
Grotius ٨٨ ، ١٨٥ ، ٢١١ ، ٢٦٦	٦٢ ، ١٧٢ ، (١٧٨-١٧٥) ٢٥١ ،
(٢٧٥-٢٧٣) ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،	(٢٨٨-٢٨٧) .
٢٨٠ ، ٢٨٨ .	تورمین (الأب) ٤٦ .
جرونوفیوس ٤٢ .	تیراسون (الأب) ٢٢ .
جریجوری (القديس) ٨٣ .	تیوکریت ٣٤١ .
جریملهوسن (کرسٹوف) ٣٩٤ .	تیودور ٢٩٠ .
جلانفیل (جوزیف) ١٧١ .	تیریز دافیل (القديسة) ٤٣٢ .
جوته Goethe ٣٥٨ .	تیفینو (جان) ٣١٦ .
جوس (أدموند) ٦٧ .	تیلوتسون Tillotson ٦٦ ، ١١٥ ،
جوریک (أوتو لون) ٣١٥ .	٢٦٦ .
جیتشل (جوهان) ٤٣٤ .	تیت لیف Tite-Live ٣٦ ، ٤٠ ،
جیملی کاریری (ج ، فرالسیسکو) ١٦ .	٥٥ .
جوالتیری (الأب) ٣١٤ .	تیسو دی باتو ٣٢ .

- جويون Guyon ، مادام جان بوفيه (٤٢٩-٤٣٢) .
- جالك الثاني (ملك إنجلترا) ٧٠ ، ٦٥ ، ٢٨٠ ، ١٢٧ .
- جاكوا Jaquelot ٨٦ ، ١١٥ ، ١١٦ .
- جان فردريك ، دوق هانوفر ٢٢٥ .
- جورج لويس ، مستنخب هانوفر ، أصبح جورج الأول ٢٣٦ .
- جوريو Jurien ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ .
- ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٤٩ .
- ٢١٠ ، (٢٧٨-٢٨٠) ٣٠٧ ، ٣٧٨ .
- جوستان (القديس) St. Justin ١٦٣ .
- جولينال Juvénal ٣٨٢ .
- جيروم (القديس) St. Jérôme ١٦٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ .
- (د)
- داسيه (أندريه) ٣٥٧ .
- داميه (مادام) Mme Dacier ٣٣٤ .
- دامير (وليام) ١٦ .
- دانتى Dante ٣٩٨ .
- دانييل (الأب) ٣٥ .
- درايسدن Dryden ٦٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
- دنييس (جون) ٣٥١ .
- دنييس داليكارناس ٣٥٦ .
- دودويل (هنري) ٨٧ ، ٤٣ .
- دوريا (باولو ماتيا) ٣٨٢ .
- دى بان Du Pin ٢٠٨ .
- ديبو (الأب) Dubos ١٤٩ ، ١٧٩ ، (٤٠٧-٤١٢) .
- دياجوراس ٢٩٠ .
- ديدرو Diderot ١٤١ .
- ديراس (مادام) ٨١ .
- ديفرنيه (جوزيف جيسارد) ٣١٥ .
- ديكارت Descartes ٦١ ، ٩٧ .
- ١٠١ ، ١٢٣ ، (١٣٣-١٣٦) .
- ١٧٢ ، (٢١٦-٢١٧) ٢٣٢ .
- ٢٦٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٨ .
- ٣٩١ ، ٣٩٨ ، (٤١٢-٤١٥) ، ٤٣٦ .
- ديلافالى (بيترو) ١٧ .
- ديهينو Dehénault ١٢٤ .
- ديهولير (مادام) ١٢٦ .
- دييزم ، مذهب Déisme (٢٥٤-٢٥٤) .
- (٢٦٨) .
- (ر)
- رابين (الأب) ٦١ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ .

راسین (جان) Racine	۱۱ ، ۴۹ ،
۶۱ ، ۱۴۱ ، ۲۰۸ ، ۳۴۲	
۳۴۵ ، ۳۵۸ ، ۳۵۹ ، ۳۹۲	
رامازینی (برناردینو)	۳۱۴ .
رامبراند (بول)	۴۰۸ .
رانسیه	۵۲ ، ۲۰۲ .
رنیارد Regnard	۶۱ ، ۳۷۶ ، ۳۷۷ .
روینز (بول)	۴۰۸ .
روسیسپیر Robespierre	۳۲ .
رودبک (أولوس)	۳۹۳ .
روسو (جان جاك) J. J. Rousseau	
۱۱ ، ۳۲ ، ۲۴۴ ، ۲۵۵ ، ۲۵۸	
۳۳۹ ، ۴۰۲ ، ۴۰۷ ، ۴۵۰	
روسو (جان باتست)	۷۵ ، ۳۲۸ .
۳۴۶ .	
روك (البرازیلی)	۳۶۶ .
رومر (أولوس) Roemer	۳۱۵ .
روهان (شیفالییه)	۳۷۲ .
ریجو	۵۰۰ .
ریندی (فرانسسکو)	۷۲ ، ۳۱۶ .
۳۴۷ .	
ریشاردسون	۳۳۹ .
ریکو (بول)	۱۷ ، ۲۳ .
ریلاند (أدریان)	۲۲ .
ریمر (توماس)	۵۲ ، ۳۵۱ .
۳۵۷ .	
رینودو (الأب أوزیب)	۴۹ ،
۲۰۴ .	

أسماء الأعلام ٤٥٧

سينكا Sénèque ١٦٠ ، ٢٦٦ .	ستاندال Stendhal ٣٣٦ .
سيمون (ريشار) R. Simon ٨٧ ،	سترابون ٢٠ ، ١٧ .
٩١ ، ٩٨ ، (١٨٢-٢٠٠) ،	ستراتون ٢٩ .
٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٧ ،	متنس (نيلز) ٣١٥ .
٢٥٦ ، ٣١٩ ، ٤٤٧ .	ستوش ١٥٠ .
(ش)	ستيل (ريشارد) Steele ٦٤ ،
شاتوبرياند ٤٢ .	٦٧ ، ٦٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٥٣ ،
شاردين (جان) ١٨ ، ٢٤ .	٣٨٤ ، ٣٨٥ .
شارل الثاني ، ملك انجلترا ٧٦ .	سرفانتس Cervantes ١٠ ، ٥٩ .
شارل الحادي عشر ، ملك السويد	سقراط ٢٦٦ .
٢٧٦ .	سكارلاتي ٣٨٨ .
شارل الثاني عشر ، ملك السويد ٧٨ .	سكاليجر (جوزيف) ٢٦٦ .
شارلستان Charles-Quint ٣٦ .	سليمان ٢٦٦ .
شرلوك (توماس) ١١٦ ، ٢٦١ .	سوامردام ٣٨٤ .
شفتسبري Shaftesbury ٦٧ ، ٧٢ ،	سويسكي (جان الثالث ، ملك
٧٧ ، ٧٩ ، ١٥٠ ، ٢٤٢ ،	بولونيا) ٧٨ .
٢٤٣ ، ٢٦٠ ، (٢٩٩-٣٠٥) ،	سوران (إيلي) ٣٠٧ .
٣١٩ .	السوسنيانيون Socinians ٩٦ ، ٩٧ ،
شكسبير Shakespeare ٥٨ ، ٣٥٠ ،	٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٩٦ .
٣٥٨ .	سوفت (جوناثان) Swift ٣٢ ،
شهر زاد ٣٦٦ ، ٣٦٨ .	٦٧ ، ٦٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٦٧ ،
شوشزر ١٣٥ .	٣٤٠ ، ٣٥٣ ، ٣٩٠ .
شوليه (الأب دي) ١٣٨ .	سوفوكليس ٣٩٢ .
شيشرون Cicéron ٧٠ ، ٢٦٦ ،	سوفير (جوزيف) ٣١١ .
٢٩٢ .	سوليس (الطونيو) ٣٥ .
	سويتون Suétone ١٦٣ .
	سيبر (كولي) ٣٨٢ .
	سيمنتو (أكاديميه) ٣١٤ .

(ص)

صوفي شارلوت ١٥٢ .

(ع)

عزير Esdras ٢٠٥

(غ)

غسندي Gassendi ١٠٩ - ١٢٣

٢٤٣ ، ٢٦٦ ، ٤١٥

(ف)

فاركار (جورج) ٦٤ ، ٦٦

فارون ٢٦٦ .

فاريلاس Varillas ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧

٤٠ .

فالسينري (أنطونيو) ٣١٤ .

فالون Vallemont ١٧٩ .

فالنكور (جان باتست) ٣٤٤ .

فان برون (كورنيليوس) Van Bruyn

٧٩ ، ٣٦٧

فانبروج (جون) ٦٦ ، ٣٥٣ .

فان دير جوس ٦٤ .

فان ديل Van Dale ١٥١ ، ١٦٤

١٦٥ ، ١٧٩

فانيني ٢٩١ .

فرانسوا الأول ٣٦ ، ٣٧ .

فرانك (أوجست هرمان) ٤٢٦ .

فرانكلين (بيلامين) ٨٤ .

فرجيل Virgile ١٦٣ ، ٣٥٧ ، ٣٩٦

فردريك الأول ، ملك بروسيا ٧٩ .

فردريك الثاني ، ملك بروسيا ٤٤٩ .

فردريك الثالث ، منتخب براندنبورج

٧٨ ، ٨٧ ، ١٧٧ ، ٤٢٦

فرنريك (كرستيان) ٣٥١ .

فريول (مسيودي) ٣٦٧ .

فلمر (روبرت) Filmer ٢٨٠ ، ٢٨١

فلوطرخس ٣٦ ، ٢٦٦

فليري (الاب) ٦١ ، ١٨٤ ، ٢٠٤

٢١٠٠ .

فليري (كاردينال دي) ٣٤٤ .

فنسان دي بول (القديس) ٢٠٣ .

فنيلون Fénelon ١١ ، ٩٠ ، ١٤٩

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٨٤)

٢٨٧ (٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٧٨

٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠)

٤٣٣ (٤٥٠ .

فونتنيل Fontenelle ٥٤ ، ١٣٤

١٣٧ ، ١٥١ (١٦٤-١٧٠)

٢٣٦ ، ٢٤١ (٣٠٩-٣١٢)

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١

٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢

٤٠١ ، ٤٤٩

كامبانيلا (توماس) ١٥ .
 كامبرلاند Cumberland ٢٧٧ .
 كانتز Canitz ٣٤٧ .
 كرستينا (ملكة السويد) ١٤ .
 كرليوس ٢١١ .
 كريبيون Crébillon ٣٥٨ .
 كروميل ٧٦ ، ٦١ .
 كريسميني ٣٨٥ ، ٣٥١ .
 كلارك (صاموئيل) S. Clarke ٦٦ ،
 ٧١ ، ٧٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦٥ ، ٣٦٩ .
 كلاركس (باولو بارتولوميو) ٣١٤ .
 كلود Claude ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ .
 كنت كورس Quinte Curce ٥٥ .
 كنتيليان Quintilien ٣٥٦ .
 كننج (وليام) ١١٣ ، ١١٥ .
 كنوتسن ١٥٠ .
 كوبر (جلبرت) ٣٠٧ .
 كوبرنيكوس ٣٠٩ .
 كورتلز (جاسيان دي) ٣٧١ .
 كورديموا ٣٥ .
 كورنيليوس نيبوس ٥٥ .
 كورنيل (بيير) Corneille ٦١ ،
 ٦٤ ، ١٦٤ ، ٣٤١ ، ٣٥٩ .
 ٣٨٧ ، ٣٩٢ .
 كوست (بيير) P. Coste (٧٣-٧٢)
 ٧٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣١٦ .
 ٣٣٤ ، ٤٠٤ .
 كولبير Colbert ٢٨٥ ، ١٥ .

فو (دانيال دي) Foe ٥٧ .
 فورنس (الأب ألبرتو) ٣١٤ .
 فورستي (الأب ألتوني) ٥٠ .
 فوكيه ٢٣٢ .
 فوسيس Vossius ١٣٠ ، ١٦٤ ،
 ١٩٢ .
 فولتير Voltaire ١١ ، ٣٢ ، ١٣١ ،
 ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٣١٥ ، ٣٣٦ ،
 ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٤٥٠ .
 فيدا (ماركو جيرولامو) ٣٥٦ .
 فيتاغورس ٣١٠ .
 فير (نيكولا دي) ٥٦ .
 فيراند (الرئيسة) ٣٨٠ .
 فيرتو Vertot ٣٥ ، ٣٦١ .
 فيكو (جان باتستا) Vico ٧٨ ، ٣١٦ ،
 (٤١٥-٤١٧) .
 فيليبس (جون) ٣٧٤ .
 فليكاغا (فلسنزو) ٣٤٨ .

(ك)

كاييل (لويس) ١٨٣ .
 كاتون (لي سالسير) ٢٦٦ ، ٢٩٢ ،
 ٣٥٩ .
 كادورث Cudworth ٦٧ ، ٢٦٦ .
 كاربزو Carpsow ١٧٤ .
 كاردوتشي ٣٥٠ .
 كافارو (الأب) ٢١٨ .

- كولنز (أنطوني) A. Collins ٧٢ ،
 ٧٧ ، ١٥٠ ، (٢٦٧-٢٦٥)
 . ٣٧٨
 کوتی (أنطونیو) . ١٣
 کونجریف (وليام) . ٣٥٣ ، ٦٦
 کوندیاك ٢٥٣ ، ٤٠٥
 کونفوشیوس (٣٠-٢٧) . ٣٣٦
 کوهلمان (کریستوس) . ٤٣٦
 کینو Quinault . ٣٨٦
- (ل)
- لاپرویر La Bruyère ١٨ ، ٧٢ ، ٧٣
 ١٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣٠
 . ٣٨٥ ، ٣٧٧
 لاروک (الأب) . ١٨٦
 لاشیز (الأب) . ٣٦٤ ، ٢٠٤
 لافار (مارکیز دی) . ١٣١
 لافونتین La Fontaine ٦١ ، ٧٢
 . ٣٩٨ ، ٣٤١
 لاکویسب (الأب) . ٤٥٠
 لاما (برناردو) . ١٣٧
 لامبیر (مادام دی) . ٣٣٥
 لامتلی فایه La Mothe ٢٨ ، ١٠٨
 . ١٢٤
 لامت (هودارد دی) . ٣٤٤ ، ٥٧
 . ٣٤٥
 لای (الأب) . ١٤٩ ، ٨٨
- لانجین (حیرار) . ٣٥١
 لالسیزی (جیوفانی ماریا) . ٣١٤
 لاهوتان (بارون) . ١٩ ، ٢٦٠
 . ٤٧٠
 لئجلیه دیفرنوا . ٣٨
 لنکلو (نینون دی) . ١٢٦
 لوثر Luther ٨٢ ، ٩٢ ، ١٧٧
 لوسیتال (میشیل دی) . ٢٩٠
 لوك Locke ١٤ ، ٦٦ ، ٧٠
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٩٢ ، ١٢٣
 ١٣٣ ، ١٥١ ، (٢٤١-٢٥٣) ٢٦٤
 ٢٦٦ ، (٢٨١-٢٨٣) ٢٨٨ ، ٢٨٥
 ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٩
 ٣٢٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٩ ، (٤٠٣-٤٠٧)
 . ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤١٥
 لوکریش Lucretia . ١٢٤
 لولی . ٣٨٦
 لونجان Longin ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٩٧
 لونو (جان دی) . ١٨٤
 لوهنستین (کاسپر زفون) . ٣٩٣
 لويز هولاندين . ٢٢٩
 لويس (دوق دی بورجونی) . ٢٨٦
 لويس الثالث عشر . ٢٧٣
 لويس الرابع عشر Louis XIV
 ١١ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣٦
 ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٧
 (٨٣-٨٦) ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣
 ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٤١ ، ١٨٠

اسماء الاعلام ٤٩١

ليد (جان) ٤٣٤ .	٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٣٦
ليساج Lesage ٦١ (٣٧١-٣٧٠) .	٢٣٧ ، ٢٦٥ ، (٢٧١-٢٦٩)
ليسنج Lessing ٣٥٨ .	٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣٠٥
ليفي (روفائيل) ١٩٩ .	٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ ، ٣٩٥
ليكوين (الاب) ٢١٣ .	٤٠٨ ، ٤٥٠
ليري (نيكولا) ٣١٥ .	لوبران (شارل) Le brun ٤٠٨ .
ليون (هوج دي) ٢١٢ .	لوپلان (الاب) ٣١٦ .
ليفنوك (أنطون) ١٤ ، ٣١٤ .	لويوسي (الاب) ٣٥٢ ، ٣٥٧
لي (ناثانيل) ٣٥٨ .	لوتييه (ميشيل) ٢٠٥ ، ٢٠٧
	لوجويان (الاب) ٢٨ ، ٢٩
	لوديه ٢٠٢ .
(م)	لوفامور (ميشيل) ٢٥٦ ، ٢٥٧
محمد ٢٢ ، ٢٣ ، ١٥٢ ، ٢١٠ .	لوكونت (الاب) ١٨ ، ٢٨
مايبيون (دون جام) ٥٢ ، ١٨٤ .	لوموان (الاب) ٣٦ .
ماجالتوي (لورنزو) ٣٩٨ .	لوكلير (جان) ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨
مازانا (جيوفاني باولو) ٢١ ، ٢٤ .	٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٢٩
مارسيلو (بنيدتو) ٣٨٧ .	١٤٧ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢٥٠
ماركيوس (جوهانس) ١٦٤ .	٣٠٠ ، ٣٤٥ ، ٣٧٨
ماري دي جيزو ٢١٧ .	لونوتر ٣٤٣ .
ماري تريزا النمسية ٢١٤ .	ليبنيز Leibniz ١٣ ، ٤٥ ، ٥١
ماريون (إيلي) (٤٢٣-٤٢٤) .	٧٢ ، ٩٢ ، ١٣٣ ، ١٤٩ ، ١٥٢
ماريوت ٣١٥ .	(٢٣٨-٢١٩) ٣٠٥ ، ٣١٦
ماريفو Marivaux ٣٤ .	٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٤٠ ، ٣٦٨
مارسجلى (كونت دي) ٣١٤ .	٣٩٢ ، (٤١٥-٤١٢) ٤٣٧
مارشام (جون) ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .	٤٤٠ ، ٤٥٠
٢١٢ ، ٢٦٦	ليتي (جريجوريو) ١٣ ، ٦١
مازيل (أبراهام) ٤٢٣ .	٧٢
مازيل (دافيد) ٢٥١ .	ليجييه (الاب) ٣٣٦

اسماء الاعلام ٤٦٣

هويه (جيد يون) Huot ٣٠٧ .	نيوتون Newton ٤٥ ، ٦٦ ، ٧٢
هويه (أسقف أفرالنس) ٤٨ ،	(٣١٦-٣١٩) ٤٥٠ ، ٣٦٩
٢٠٧ .	نيوفنتجت Niewentijt ٤٢٠ .
هويسو d'Huisseau ٩٨ ، ٩٧ ، ٣٠٧ .	
هيون ٢٩٦ .	(ه)
هيجنز (كرستيان) ٣٨٤ .	هاليفاكس (ماركيز) ٣٢٥ ، ٢٩٣
هيريلو ٢٣ ، ٢٣ .	هاملتون ٣٧٢ .
هيرودوت ٢٠ .	هاندل (جورج فردريك) ٣٨٦ .
هيل (آرون) ٣٦٤ .	هانريت الانجليزية ١٤١ .
	هالسيوس (دانييل) ١٣٠ .
(و)	هانوفر (دوقه دي) ٢٢٩ .
واربرتون (وليام) ٢٥٥ .	هايد (كونت كلارندن) ٣٥ .
والبول (هوراس) Walpole ٥٩ .	هربرت (بارون دي شيربري) ١٤٤
وايز (كرستيان) ٣٩٣ ، ٣٩٤ .	٢٥٤ ، ٢٦٦ .
ولستد (ليونارد) ٣٥١ .	هلفسيوس Helvétius ٤٠٥ .
وليام أورانج Guillaume d'Orange	هوبز Hobbes ١٤٤ ، ١٥١ ، ٢٦٦
٣٦ ، ٦٥ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٢ ،	(٢٧٠-٢٧١) ٢٨١ .
٩٥ ، ١٢٦ ، ٢٣٦ ، ٤٢ ، ٢٨٠ ،	هوتشستتر Hochstetter ٧٠ .
(٣٠٨-٣٠٧) ٣٩٥ .	هوراس ١٢٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٦
ويزوواتي Wiszowaty ٩٧ .	٣٥٧ ، ٣٨٢ ، ٣٩١ .
وود روجرز ١٦ .	هوكنكور (ماريشال) ٣٢٨ .
ويكر لي (وليام) ٦٦ .	هوميروس ٣٤٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٦ .

اسماء الاعلام

٤٦٢

مورييري ٨٨ ، ١٠٨ .	ماسيون Massillon ٦١ .
مولانوس (فالتري . . .) ٢٢٥ ،	ماكيافيلي ١٤٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ .
٢٣٠ .	مافيتي (سبيوني) ٣٥٨ ، ٣٨٥ .
موليير Molière ١١ ، ٦١ ، ٦٤ ،	مالبورو ٣٥٧ .
٣١١ ، ٣٤١ ، ٣٧٧ .	مالبرانچ Malebranche ٣٩ ، ١٠٩ ،
مولينوس ٤٣١ .	(١٣٦-١٤١) ١٤٨ ، ١٥٤ ،
مولينييه Molynsux ١٥٢ .	(٢١٤-٢١٦) ٢٤٥ ، ٣٦٨ ،
مونبران (ماركيز دي) ٣٧٢ .	٤١٥ .
مونتيسكيو Montesquieu ١١ ، ٢٥ .	مامبورج (الاب) ٣٥ ، ٣٦ ، ٨٣ ،
مونتاني Montaigne ٧٢ ، ٧٣ ، ٢٦٦ ،	١٠٤ ، ٨٨ .
٤٤٧ ، ٣٣٠ .	ماندفييل (برناردي) (٢٩٥-٢٩٧) .
مونتيويان ٣٦٦ .	مانسيني هورتانس، (دوقه دي مازارين)
مونفوكون (برناردي) ٥٢ ، ٥٩ .	١٢٧ .
ميبوم (هنري) ٥٢ .	مزيه ٣٥ .
ميجي جي Guy Miège ٦١ .	مكتانب (صحنه نكتانيو فرعون
ميزو (بيير دي) Maizeux ٧٢ ، ١٢٧ ،	مصر) ٤٦ .
٣٠٠ .	ملتون Milton ٦٦ ، ٢٦٦ ، ٣٧٤ .
ميسون (ماكسمليان) ٥٩ .	ملك سيام ٢٥ .
ميشيل انجلو ١٦٣ .	متمي (امبراطور الصين) ٢٧ .
ميشيلي (بيير الطونيوي) ٣١٤ .	منتنون (مادام دي) Maintenon ٢٣٥ ،
مينومسيوس فليكس ٢٦٦ .	٣٦١ .
(ن)	منكين ٤٠ .
نوايل (الاب) ٢٣٦ .	مورا (بيات دي) ٤٠٢ .
نودت (جيرارد) ٣٠٧ .	موراتوري (الطونيوي) ٥٢ ، ٦٢ ،
نيكاتور ٢٩٠ .	٣٥١ ، ٣٨٥ .
نيكول Nicole ٨٧ ، ١١٥ .	مورجان (لي جالوا) ٣٦٦ .
	مورهيوفوس ٣٩٣ .

اصطلاحات

Mysticisme	تصوف	(أ)	
Théosophie	تيوصوفية		
		Harmonie préétablie	الاتساق المقدر
		Sceptiques	الارتياحيون
	(ج)	Esthétique	استطيقا
Le sublime	الجليل الخيال	Déduction	استنباط
Substance	الجوهر	Mécanisme	آلية
Monade	الجوهر الفرد	Étendue	امتداد
		Le moi	الاية
		Les lumières	أنوار المعرفة
	(ح)	À priori	أوليا
Intuition	حدس		
Sensibilité	الحساسية	(ب)	
	حساب النهايات الصغرى	Évidences	بداهة
Calcul infinitésimal		Pédagogie	بيداغوجيا
Panthéistes	الحلوليون		
Les bêtes-machines	الحيوانات - آلات	(ت)	
		Illuminisme	التجلى
	(خ)	Empirisme	التجريبية
Prétisme	الحشوعية	Analyse	تحليل

(ف)	(د)
Le Vide	ديزيم (الاعتراف بالله وإنكار
L'Espace	الوحي) Déisme
Pensée	فكر
Idée	فكرة
Pragmatisme	فلسفة الذرائع
Philologie	فيلولوجيا
(ق)	(ر)
Inquiétude	قلق
Substratum	القوام
Syllogisme	قياس
(ك)	(س)
La majeure	السوسنيانيون Societens
Quakers	صغرى القياس La mineure
كبرى القياس	الصيرورة Le devenir
الكويكرز	(ص)
(ل)	(ع)
Infini	العقليون Rationaux
Illogisme	العللة La cause
لامتناه	العللة الغائية La cause finale
لامنطقية	العلل الفعالة Les causes efficientes
(م)	(غ)
Essence	الغدة الصنوبرية La glande pinéale
ماهية	

٤٦٧	اصطلاحات		
Lumière naturelle	النور الفطري	Cosmopolite	مختلط
		Antitrinitaires	مخالفو التثليث
	(و)	L'Absolu	المطلق
		Les illuminés	الملهمون
Révélation	وحي	Méthode	منهج
Clarté	وضوح	Les initiés	الموقفون
	(ى)		(ن)
Certitude	يقين	Le relatif	النسبي